حول العالم في 200 يوم

أنيس منصور

حول العالم في **200**يوم

http://www.nahdetmisr.com

تمّ إنتاج الكتاب الإلكتروني من قبل Hekayh

نشر الكتاب الإلكتروني 2017ب Booqla

نشرت بواسطة دار نهضة مصر للنشر

حقوق التأليف والنشر ©بواسطة دار نهضة مصر للنشر

https://www.facebook.com/nahdet.misr

https://twitter.com/NahdetMisrgroup

مقدمة الطبعة الأولى

ركبت البغال في أعالي الهملايا، وركبت النفاثة من هوليوود إلي واشنطن، وكان الأمريكان ينظرون لي بإعجاب وحسد، فقد كانت النفاثة شيئًا جديدًا، وركبت الفيل وركبت زورقًا وظللت واقفًا ست ساعات، فقد كانت المياه مليئة بالأفاعي والتماسيح في أقصى جنوب الهند، وأكلت الموز بالشطة في سنغافورة، وشربت الشاي بالملح في إندونيسيا، وأكلت الأناناس مع الغربان في سيلان، وأكلت الخبز المصنوع من السمك في جزيرة بالي، وأكلت الضفادع والثعابين البرية في هونج كونج، وأكلت البيض وهو مليء بالكتاكيت، وحتى لا أصاب بقليل من القرف فإنهم في الفليبين يضيفون إليه بعض الفلفل والملح، وارتديت الدوتي في كيرالا، ولبست الكيمونو في طوكيو، ومشيت ربع عريان في هونولولو؛ وكان لي أصدقاء من أصحاب الملاليم، وأصدقاء من أصحاب الملايين ..وكانت صداقتي لا تستغرق إلا ساعات أو أيامًا، وبعد ذلك أرحل إلى بلاد جديدة.

لقد كان العالم كتابًا كبيرًا عريضًا طويلًا غنيًّا بألفاظه ومعانيه ..كنت أقرأ بعقلي وقلبي، وأقلب الصفحات بيدي ورجلي ..وكنت أضع حقيبتي الوحيدة في مهب الطائرات والعواصف؛ ودخلت المستشفيات في إندونيسيا، وفي اليابان دخلت مستشفى الولادة، وفي أستراليا دخلت مستشفى الملكة، وفي أمريكا دخلت عيادة كل أطبائها من المصريين؛ كنت أكتب ليلًا ونهارًا، وكنت أبعث بمقالاتي لأخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل، وعندما أجد متسعًا من الوقت كنت أكتب مذكراتي.

* * *

فلم أكن وحدي ..كانت الصحف تسبقني إلى السفارات، وكانت تسبقني إلى أكشاك بيع الصحف حول العالم كله.

بل إنني وجدت نسخة من »أخبار اليوم «في أحد محلات السجائر في »السوق الدولية «بمدينة هونولولو ..ولما سألت عن صاحبها الذي تركها فإذا به أحد رجال السفارة الأمريكية في كمبوديا!

وكنت كلما وجدت مقالاتي منشورة أحسست أنها صواريخ ..صواريخ متعددة المراحل ترفعني إلى أعلى، وأعلى ..حتى اتخذت لي مدارًا فوق ..فوق ما كنت أتصور!

* * *

لقد كان الغرض من رحلتي هذه أن أسافر فقط إلى ولاية كيرالا في الهند وأن أكتب تحقيقًا صحفيًّا عن الولاية الوحيدة في الهند التي فاز فيها الحزب الشيوعي بحكومة 100% ..وقد ثار حزب الحكومة المركزية على هذه الولاية واتهم حكومتها بالطغيان والاستبداد، والتدخل في معتقدات الناس، وتغيير كتب التاريخ...

وقابلت رئيس وزرائها نامبود ريباد .وهو رجل متوسط القامة ممتلئ، وله رأس كبير، وقابلني حافي القدمين، وكذلك أولاده ..وكان يضع يده على رأسه كلما سألته سؤالًا، وكنت كلما تطلعت إليه لأسمع الجواب، كانت حركات يديه تخفي صورتي لينين وماركس على الحائط وراءه ..وفي كل مرة ينفعل كنت أنحني أجمع الكتب التي سقطت على مكتبه وكلها عن ستالين!

وكان هذا الحديث الذي دار بيني وبينه هو الصاروخ الذي دفعني إلى الدوران حول الأرض ..فقد نشر هذا الحديث في نفس اليوم الذي سقطت فيه الوزارة في كيرالا!

ونقلت الحديث وكالات الأنباء العالمية .فقد كنت الصحفي الوحيد الذي قابله في أثناء الأزمة ..وكنت آخر من خرج من مكتبه، متوقعًا هذه الكارثة له..

* * *

وبعد ذلك سافرت إلى التبت لأقابل الدلاي لاما ..وقابلته ..وتحدثت إليه عن حياته، عن أزمته ..وعندما طلبت أن أقابله، رفضت السلطات، فذهبت إليه في بيته، ورفض الحراس أن أقابله ..وقابلت وزراءه وادعيت أنني مريض قادم من مصر، وأن شفائي على يديه ..ونقلوني له على محفة ..وأنا ملفوف بكل ما عندي من بطاطين .فقد كنا في الصيف، وكان الجو باردًا جدًّا فوق الهملايا..

ومن تحت البطاطين والأغطية أخرجت الكاميرا وصورته ..وصورت أمه لأول مرة في حياتها ولأول مرة في العالم!

* * *

وسافرت إلى جزيرة سيلان بحثًا عن العشرين عامًا التي قضاها الزعيم أحمد عرابي باشا ..ذهبت إلى المكتبة ..وذهبت إلى صحيفة »الأوبز رفر «الإنجليزية التي هاجمت عرابي باشا طول مدة إقامته ..وحصلت على وثيقة نادرة سجلت فيها الصحيفة كيف كان نزول عرابي وأصحابه إلى الجزيرة ..وكيف كان وماذا كان يأكل ..وكيف أن الصحف الإنجليزية اندهشت جدًّا عندما سئل عرابي باشا :هل الدين الإسلامي يحرم تعليم البنات؟ فأجاب :لا ..وسألوه :هل يحرم تعليم البنات لغة أخرى غير لغة القرآن؟ فأجاب :لا ..وسألوه :هل الدين الإسلامي يتنافى مع الطب؟ فأجاب :لا ..فقالوا له :حتى لو كان الطبيب الذي يكشف على زوجتك ليس من دينها؟ فأجاب :لا.

وذهبت إلى البيت الذي كان يعيش فيه في مدينة كولومبو ولا يزال يقتسمه اثنان أحدهما صحفي والآخر طبيب .وذهبت إلى البيت الذي كان يعيش فيه بمدينة كاندي ..ومكتوب على هذا البيت باللغة الإنجليزية »عربي باشا «بحذف الألف ..وينطقونها أيضًا هكذا ..وقد أخبرني أصحاب البيت أن جدهم قد أوصاهم بالاحتفاظ به كما هو، دون تغيير..

وقابلت عميد مدرسة الزاهرة الإسلامية وأطلعني على وثيقة نادرة عن يوم افتتاح هذا المعهد الديني الكبير ..وكيف حضره عرابي باشا وكيف أنشد له الطلبة نشيدًا جميلًا ..ونقلت الوثيقة وترجمتها ونشرت النشيد..

* * *

وفي إندونيسيا زرت مواطنة مصرية جميلة ولطيفة وكريمة اسمها فوزية ..وهي متزوجة من أحد أبناء إندونيسيا الذي يملك مصنعًا للزجاج في مدينة بوجور ..وكان معي في هذه الزيارة سفيرنا العمروسي والصديق لطفي متولي ملحقنا العسكري في ذلك الوقت، والدكتور محمود رضوان مستشارنا الثقافي .والصديق أحمد والي ملحقنا الصحفي في جاكرتا في ذلك الوقت..

وفي إحدى الجلسات أطلعتني السيدة فوزية على تحضير الأرواح عن طريق »السلة ..«ولم أصدق في أول الأمر ..ولكن لاحظت أن كل الذين معي رجالًا ونساءً يصدقون ..وأعادت التجربة ..ووسط البخور والهدوء والآيات القرآنية ..رأيت السلة وهي تتحرك وتكتب ..ولاحظت أن هناك اثنين يحملان السلة وأنها تتحرك وتكتب بلغات مختلفة..

واستحضروا أرواح بعض المصريين ..ولاحظت أنها تكتب ..وأنها تكتب بعض النكت المصرية ..ولم أصدق أيضًا..

وأخذت عربة السفير والتقطت من الشارع اثنين لا أعرفهما ..وحملا السلة، ورحنا نتلو الآيات القرآنية ونلتزم الهدوء ..وكانت السلة تكتب بلغات لا يعرفها معظم الحاضرين ..فقد كانت تكتب بالألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية، وهي لغات أعرفها جيدًا.

إلى أن طلبت من الحاضرين أن يستحضروا روح المرحوم والدي ..وكتبت السلة أنه لا يريد أن يحضر ..فشعرت بشيء من الارتياح .وقلت لا بد أنها أكذوبة ..وأخيرًا حضرت الروح وكتبت.

ولم تنته دهشتي فقد كان خطها طبق الأصل من خط والدي، وخصوصًا إمضاءه.

وكتبت عن هذه الظاهرة ..ولا أعرف حتى الآن أي تفسير علمي لما حدث!

وعندما سافرت إلى مانيلا قابلت سفيرنا الظواهري، وهو ابن الشيخ الظواهري شيخ الأزهر الأسبق.

وروى لي أن له أخًا كان مغرمًا بتحضير الأرواح وأنه منذ وفاة أخيه يكره هذه السيرة .ولا يحب الكلام عن الأرواح، ولكنه مع ذلك يؤمن بوجودها.

وبعد أن تحدثت إليه عن الأرواح، أصابه الفزع، فهو لم يعد يستطيع أن ينام في الظلام ..لا بد أن تضاء المصابيح كلها.

وهذا ما أصابني أنا ..فلم أتمكن من النوم في الظلام حتى بعد أن عدت إلى القاهرة ..وكنت أخجل من السيدة والدتي -التي قالت عنها السلة إنها مريضة جدًا -وكانت مريضة فعلًا، وكنت أتظاهر بأنني أقرأ في الليل ..وكانت والدتي تنهض من فراشها وتطفئ النور وأنا نائم ..فكنت أنزعج وأعيد النور ..وظللت كذلك وقتًا طويلًا.

وفي إحدى المرات خجلت من هذا الفزع الصبياني، فأطفأت النور ..ولم أعد أفتحه عندما أنام.

* * *

وسافرت إلى جزيرة بالي ..أقصى جزيرة في إندونيسيا ذات الثلاثة آلاف جزيرة!

وهي جزيرة غريبة نساؤها عاريات ..لا يلبسن شيئًا فوق الحزام، أي النصف العلوي كله عريان تمامًا ..وهن لذلك فرجة!

* * *

وسافرت إلى أستراليا، وهي القارة التي لم يرها صحفي عربي قبل ذلك ..وناديت بأن تكون لنا سفارة وأصبحت لنا سفارة، وقابلت فيها المصرية الوحيدة التي تعمل في أحد المطاعم ..ولكن وجدت 35ألف لبناني .وقابلت أفراد أسرة أسكيف .وكلهم من أصحاب الملايين وكان أحدهم يبيع الأقمشة على ظهر حصان .وفي إحدى الحفلات التي أقامتها الجالية اللبنانية للقنصل الدكتور كريم عزقول ..ارتفع الستار ..وسمعت موسيقى عبد الوهاب وأغاني أم كلثوم.

وشعرت بالسعادة، فقد كانت حفلة تكريم لفن بلادي وعظمة بلادي.

وفي أستراليا عندما كنت أجلس مع الرسميين كانوا لا يعرفون اسمي .وإنما كانوا يقولون :يا مستر ناصر ..قل لنا يا مستر ناصر ..أو ماذا رأيت في بلادنا يا أحد أبناء ناصر.

وكان يسعدني أن أسمع اسم ناصر في أستراليا ..وكانوا يسألونني :هل صحيح لم يعد عندكم أجانب؟ فأقول :عندنا أكثر مما عندكم؟ ويسألونني :هل صحيح أنكم تكرهون الإنجليز؟ فأقول :لا نكرههم ..ولكن نكره الاحتلال..

وكانوا يقولون -وهم أبناء إحدى دول الكومنولث البريطاني -نحن نكره الإنجليز ..وكنت أقول عندما كانوا مستعمرين كرهناهم..

* * *

وسافرت إلى الفليبين ولم أتمكن من رؤية السبعة آلاف جزيرة التي تتكون منها ..اكتفيت بثلاث جزر فقط .واحدة منها يسكنها ثلاثة أرباع سكان الفليبين .والثانية عبارة عن مطعم صغير والثالثة كان قد أغرقها المد بالليل ..وذهبنا نتفرج عليها عندما ينسحب عنها ماء المحيط الهادي..

وأرجو أن أتمكن من زيارة بقية الجزر!

* * *

ورأيت جزيرة هونج كونج هذه المستعمرة البريطانية التي يملكها مليون صيني وتقع على حافة الصين التي يسكنها 700مليون صيني .إن هونج كونج أجمل فاترينة في العالم كله ..فيها المال والجمال، فيها العملية البسيطة جدًّا التي كان يحلم بها أجدادنا جميعًا وهي كيف يتحول التراب إلى الذهب ..وفيها العملية البسيطة التي نعرفها كلنا ونمارسها كلنا وهي كيف يتحول الذهب إلى تراب.

* * *

وفي اليابان سافرت إلى جزيرة اللؤلؤ وكتبت لأول مرة في الصحافة العربية عن كيفية صيد وتربية وزراعة وصناعة وتجارة اللؤلؤ في اليابان.

وانبهرت وشعرت بسعادة لا حد لها وأنا في بلاد كلها ألوان وفن وحياة وحيوية..

* * *

وعندما سافرت إلى جزر هاواي ركبنا من مدينة هونولولو طائرة خاصة وراح زميلي أحمد يوسف كبير مصوري »أخبار اليوم «يصور بالألوان البركان الذي ثار، والذي كانت تحوم حوله كل الطائرات المسافرة من اليابان إلى أمريكا ومن أمريكا إلى اليابان ..وكنا نطير فوق البركان وكنا نشعر بحرارة النار، ونحن في داخل الطائرة ..لقد درنا فوق الفوهة التي مساحتها عشرات الأفدنة، أكثر من ستين مرة ..درنا حتى دخنا ..والتقطنا أول صور في العالم عن هذا البركان ..فقد كنا إلى جوار البركان يوم ثار ..ووصلت إليه الطائرة بعد ساعتين..

ونشرنا صور البركان في مجلة »آخر ساعة «قبل أن تنشرها مجلة »لايف «الأمريكية التي أرسلت أربعة من كبار مصوريها..

* * *

وفي أمريكا ألقيت نظرة أخيرة على الفاتنة الرقيقة الحزينة الراحلة مارلين مونرو ..ولا تزال عبارتها :إزيك يا أنت ..ترن في أذني ..فقد عاشت وحيدة محبوسة في جمالها، وفي مجدها وفي قمم الشهرة والمال والجمال، وماتت من شدة البرودة.

فكل القمم باردة، وكل القمم ضيقة.

* * *

وعندما عدت إلى أوربا كانت هذه المرة الأولى التى أدخل فيها أوربا عن طريق أمريكا ..ولكنها كانت المرة السادسة عشرة التي أزور فيها أوربا من جديد..

* * *

وأنا لا أدعي أنني ألممت بكل شيء ..ولا رأيت كل شيء ..ولا حتى رتبت هذا الكلام، وإنما نشرته كما كتبته ..بنفس الانطلاق والسرعة والمرح ..فقد كان المرح والسخرية هما »التعويض «الوحيد الذي كانت تناله نفسي من التعب والإرهاق والوحدة.

فقد كنت مسافرًا وحيدًا ..في يدي حقيبة بها ملابس قليلة جدًّا، وكلما بليت الملابس ألقيتها واشتريت غيرها..

وقد مللت السؤال الذي لا يتغير في جمارك العالم كله :هل هذه كل أمتعتك؟

فأهز رأسي قائلًا :نعم.

ويسألونني :لماذا؟

ويكون ردي :أريد أن أكون خفيفًا ..فلا أستطيع أن أحمل حقيبة ثقيلة، وقلبًا ثقيلًا أيضًا!

وقد جاءت صفحات هذا الكتاب صورة لأفكاري ومتاعبي ومشاكلي ..فقد كتبتها، جالسًا مقرفصًا .في سريري، هربًا من البعوض، وأحيانًا خوفًا من الأفاعي والعقارب، وكتبتها تحت أشجار الموز، وكتبتها في ظلال جوز الهند، وعلى منضدة استأجرتها من حديقة الدومين في مدينة سيدني، وكتبتها على مصابيح الجيشا في كيوتو، وسجلتها وأنا مريض، وسجلتها وأنا خائف من الطريق الطويل الذي لم يمش فيه أحد قبلي..

وكنت أتفاهم بكل اللغات التي أعرفها، وكنت أتفاهم بالإشارة ..وكنت أتفاهم عن طريق التراجمة، وعن طريق تراجمة للتراجمة..

وأنا أتمنى أن يكون عندي وقت لكي أكتب كل رحلاتي إلى أوربا والشرق الأوسط وإفريقيا، بتفصيل وعمق..

* * *

وسيرى القارئ أنني في هذا الكتاب أحاول أن ألعب على كل أصابع البيانو، البيضاء والسوداء .ولا أستطيع أن أدعي أنني عزفت لحنًا عظيمًا، ولكنه لحن في استطاعته أن يأخذك، أن يجعلك تعتذر عن موعد غرامي جميل!

وقد جاءت بعض فصول الكتاب غير متناسبة، وأحيانًا كنت أكرر بعض المعاني، تمامًا كالمطرب الذي يعيد ويزيد!

وقد حذفت عشرات من الفصول السياسية لدرجة ستجد أنك أمام صفحات قليلة عن دولة أقمت فيها كثيرًا مثل الفليبين!

فقد حدث أنني سافرت إلى الهند ومن الهند إلى سيلان ومنها إلى سنغافورة، ومن سنغافورة إلى إندونيسيا ومن إندونيسيا إلى الهند مرة أخرى .فقد جاءتني برقية تطلب مني أن أسافر فورًا لأكتب عن الصراع بين الهند والصين ..وبعد ذلك عدت إلى سنغافورة ثم إلى إندونيسيا ومنها إلى أستراليا ..فأنا أذكر الهند وإندونيسيا في أماكن متعددة ..فكثيرًا ما كتبت عن الهند وأنا في إندونيسيا ..أو في أستراليا..

وبرغم مرضي وعذابي ومخاوفي وطول الطريق، وانتقالي من الحر في الهند إلى الجليد في أستراليا، إلى الحر والمطر في الفليبين إلى المطر في هونج كونج، إلى العواصف والرعد في اليابان، إلى الدفء والبراكين في هاواي، إلى الجليد في نيويورك ..رغم كل هذا كتبت ولم أتوقف عن الكتابة!

ولكن يعزيني عن هذا كله أنني رأيت الدنيا، وأنني درت حول العالم ..وأنني رأيت من العالم أكثر مما يراه رواد الفضاء المحبوسون في براميل من المعدن تنطلق بسرعة 28 ألف ميل في الساعة وعلى ارتفاع 200 ميل عن الأرض ..لقد رأوا الدنيا من فوق، ولكني مشيتها، رأوا الغابات والمحيطات، وأنا رأيت المدن والقرى والناس..

ويعزيني أن الملايين تمنوا أن يفقدوا نصف عمرهم أو ثلاثة أرباع عمرهم، وأن يسافروا مثلي -هكذا قال المشير عبدالحكيم عامر للأستاذين مصطفى أمين وعلي أمين!

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم بعض ما تمنوه .وأتمنى لكل قارئ أن يسافر مثلي، وألا يتعذب مثلي، وأن يسافر هو وأهله وأحب الناس إليه .لا أن يسافر وحده .وليس له أحد، ولم يكن له أحد يودعه عند سفره من القاهرة، ولم يكن له أحد يستقبله عند عودته إلى القاهرة.

خرجت وحيدًا، ورجعت أكثر وحدة!

* * *

والمسافر كما يقول المثل الإنجليزي :يجب أن يكون له عينا صقر ليرى كل شيء، وأن تكون له أذنا حمار ليسمع كل شيء، وأن يكون له فم خنزير ليأكل أي شيء، وأن يكون له ظهر جمل ليتحمل أي شيء، وأن تكون له ساقا ماعزة لا تتعبان من المشي ..وأن يكون له -وهذا هو الأهم -حقيبتان :إحداهما امتلأت بالمال والثانية امتلأت بالصبر!

وقد حفظت هذا المثل جيدًا ..وإن كنت قد نسيت كثيرًا ما الذي أفعله كالصقر وما الذي أفعله كالحمار ..ولكن لم أنس أن أكون جملًا وأن أصبر .فالله مع الصابرين .وقد كان الله معي ..لقد أنقذني من الموت عدة مرات ..أنقذني من بعوض مرض الفيل، وأنقذني من الغرق، وأنقذني من الضياع في الغابات..

وكنت أقول دائمًا :إنه دعاء أمي ..فليس لها في الدنيا من عمل سوى أن تدعو لي ..وهي كثيرًا ما تدعو الله وكنت أندهش لهذا الإسراف في الدعاء، وهذا الإلحاح على الله .ولكن عندما رأيت الدنيا، ومتاعب الدنيا الواسعة، أدركت أنها على حق، فهناك أشياء كثيرة لم أكن أعرف أنها تستحق الكثير جدًّا من عناية الله!

* * *

ولم أنس طول الرحلة هؤلاء الجبابرة من المغامرين من أمثال ماركوبولو ..وابن بطوطة ..ولم أنس الذين داروا حول العالم في سفن شراعية مثل ماجلان وفاسكو دي جاما ..وكولومبوس وأمريكو فسبوتشي ..هؤلاء العباقرة الذين ركبوا سفنًا بدائية في محيطات مجهولة .وفي ظروف بدائية ..بلا طعام ولا دواء ولا خرائط ..لقد كنت أذكرهم في كل قارة اكتشفوها وأنحني إجلالًا لهم.

ولم أنس أبدًا تلك الرحلة الوهمية الساحرة التي كتبها القس سويفت بعنوان »رحلات جيلفر ..«فهذا البطل جيلفر قد ألقت به السفينة في بلاد الأقزام ..وربطوه بالحبال وسحبوه إلى قصر الملك، وانتقل من بلاد الأقزام إلى بلاد العمالقة، وكان الأطفال يلهون به بسبب الشبه الشديد بينه وبين الإنسان ..ثم ألقت به الأمواج إلى أرض المثقفين وهم أناس في حالة غيبوبة عقلية ولديهم مشاريع وهمية ..ووراء كل واحد منهم خادم يذكره بماذا يريد أن يقول، وماذا يريد أن يقترح ..وبعد ذلك سافر إلى بلاد السحر ..فهناك رأى كل عظماء التاريخ الذين أكدوا له أن التاريخ كله كذب في كذب، وأن المؤرخ يكتب ووراءه مدفع الحاكم القوي، فهو يكتب تاريخ الرجل القوي ..ألقت به السفينة بعد ذلك إلى أرض فيها أناس في غاية البلاهة؛ وهؤلاء الناس تحكمهم خيول في غاية العقل ..واحتاروا في أمر جيلفر هل يعتبرونه إنسانًا أي غبيًّا مع أنه ذكي؛ أو هل يعتبرونه حصانًا ذكيًّا مع أنه ليس حصانًا..

وأخيرًا طردوه؛ لأن له جسم الإنسان وذكاء الحصان!!

وبعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة التي أدرك فيها جيلفر أن كل شيء في الدنيا نسبي ..فأنت طويل في بلاد الأقزام ..وقزم في بلاد العمالقة؛ وغبي في بلاد الخيول؛ وكذاب في العالم الآخر .وبعد هذه السنوات من العذاب والهوان، دق باب بيته .وفتحت له الزوجة الباب، ثم طبعت قبلة على خده.

وهو منذ تلك القبلة الكريمة الباردة أخذ يكره الإنسان ويحب الحيوان ..وكلما ازدادت معرفته بالناس ازداد عشقه للحيوان!

ولم أجد أحدًا يقبلني عند عودتي، ولا أحدًا أقبله.

وحمدت الله، فأنا أحب الناس، في كل مكان ..ولا أريد أن أكره أحدًا كما فعل جيلفر في كل البلاد.

فأنا أحب الأسود والأسمر والأصفر والأبيض .وكل إنسان مربوط بظروفه ..وكل إنسان مدفوع إلى الأمام بتاريخه ..والعالم يتكلم بعدة لغات وعدة مصالح.

ورأيت أن الفوارق بين الناس قليلة جدًّا ..فكل الناس تحت الجلد متشابهون!

* * *

إنني لم أعرف الكثير جدًّا من هذه الدنيا، ولم أعرف إلا القليل جدًّا من نفسي ..فعيناي مفتوحتان على الدنيا، ولكنني بلا عينين عندما أنظر إلى داخلي ..إلى الزحام في داخلي ..إلى الوحشة المظلمة في أعماقي ..إلى الإنسان الذي نسيته يصرخ ولا أسمعه ولا أتبينه ..ولا أعتقد أنني سأستطيع يومًا ما ..فقد اتسعت المسافة بيني وبينه ..أو ..بيني وبيني ..وإني في حاجة إلى ترجمان .ترجمان صديق ..يخبرني ماذا أريد أن أقول لنفسي ..ماذا أريد من نفسي، ماذا أستطيع ..ما الذي أقدر عليه..

إن كل الذي استطعت أن أعرفه في دوراني حول العالم هو أنني أستطيع الكثير ..وأن كل إنسان يستطيع أن يفعل الكثير ..أن يأكل رغيفًا في اليوم، وأن يعمل عشرين ساعة..دون أن يتعب.

ففي كل إنسان قوة هائلة، لا يستطيع أن يستغلها..

وفي كل إنسان كنز من الحيوية والقدرة على الفهم والقدرة على الاحتمال والصبر.

وأننا لا ننفق من هذا الكنز إلا القليل..

وأن الإنسان يأكل ويشرب وينام أكثر مما يجب.

وأنه يعمل أقل مما يجب..

وأنه يخاف أكثر مما ينبغي..

وأنه لا يعرف نفسه ..وأنه لا يعرف حدوده الشاسعة الواسعة..

وربما كانت هذه عدوى فلسفة »اليوجا ..«فلسفة الاحتمال والصبر ..فلسفة الزهد في الحياة ..فلسفة السلام مع الناس ومع النفس ..فلسفة معانقة الجوع والعطش ..فلسفة التمرد على الخوف والتمرد على الجبن..

وربما كانت هذه الفلسفة هي المرض الوحيد الذي أصابني وأنا أنتقل من معبد إلى حانة، ومن حانة إلى غابة ..إلى جبل ..إلى قمة جبل ..إلى طائرة فوق محيط في أثناء عاصفة والناس نيام ..والظلام حالك ..فوق السحاب ..ساعات من الاستسلام ..لا أسمع إلا محركات الطائرة ..أما قلبي فكان لا يدق ..كأنما كان يكتفي بقلب آخر في مصر يدق من أجلي ..ويخفق لي..

وعدت إلى مصر الغالية العزيزة..

وفي الطائرة ألصقت فمي بالنافذة أقبل بلادي، وفي المطار مددت ذراعي أعانق كل الناس ..فبلادي هي أكرم بلد وأهلي هم أطيب الناس!

* * *

وانتهت رحلة الغريب في عالم غريب..

أنيس منصور

القاهرة في نوفمبر 1962

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن انتهت رحلتي حول العالم، عدت من جديد إلى السفر .لقد جمعت القليل جدًّا من ملابسي، وبعض الأوراق .واتجهت في سيارة جيب إلى أقصى الجنوب ..إلى الكونغو .ولم تتحرك هذه السيارة خطوة واحدة .ومع ذلك فقد وصلت بها وبسرعة 500كيلو في الساعة إلى مدينة كوكيا تفيل في الكونغو!

وهذه الفزورة لها حل :فإنني ركبت عربة جيب في داخل طائرة تابعة للأمم المتحدة مرافقًا لقواتنا العربية التي ذهبت تحمي ثورة الشعب بزعامة لومومبا ..وكانت هذه السيارة محاطة بالقنابل والمدافع وشباب مصري أسمر أقوى من القنابل والمدافع يحمي قضية الحرية في القارة السوداء..

وارتفعت الطائرة وانخفضت درجة الحرارة في داخلها فقد كانت طائرة غير مكيفة ..وبدأت أرتجف من البرد وكأنني عريان فوق جبال الهملايا ..أو كأنني سقطت في ميناء سيدني في عز الشتاء .وعادت الطائرة إلى مطار القاهرة لتصلح جهاز التكييف .ثم ارتفعت الطائرة وارتفعت درجة الحرارة وكدنا نختنق .ولا أعرف إن كان الغرض من ارتفاع درجة الحرارة هو إتاحة الفرصة للمواد الملتهبة لكي تنفجر وتنتهي هذه الرحلة، ونتحول من مسافرين إلى شهداء من أجل السلام في بلاد أخرى.

ونزلت الطائرة إلى أرض القاهرة، وتم إصلاح جهاز التكييف .وحمدنا الله .وعدت إلى مكاني أمام عجلة القيادة أميل بصدري عليها محاولًا أن أستريح أو أهرب من المسامير التي برزت في كل جانب من جوانب السيارة..

وهبطت الطائرة في الخرطوم في الشتاء الدافئ..

وعادت لتهبط مرة أخرى بين الأحراش في الكونغو. [1]

وبعد أيام رجعت إلى القاهرة ..فقد استغرقت هذه الرحلة ألوف الأميال وثلاثة أيام ..وقد سجلت بذلك أطول وأقصر رحلة قمت بها في حياتي!

* * *

وسافرت إلى الكويت للمرة الثانية ..ورأيت هذه الدولة النامية قد تغيرت معالمها بسرعة ..وزحفت على الصحراء بيوتها الجميلة الأنيقة ..ورأيت شيئًا أهم وأعظم من بيوتها الجميلة ..رأيت شعب الكويت الذي اتسعت آفاق وعيه ومسئولياته نحو الكويت ونحو الأمة العربية .ولي في الكويت أصدقاء كثيرون .أدباء وشعراء وساسة .وكلهم ثروة لنا، وطليعة للوعي العربي في شبه الجزيرة وفي الخليج العربي.

وتمنيت أن أؤلف كتابًا عن الكويت .وأرجو أن أتمكن من ذلك.

* * *

ووقعت أحداث في العالم، غيرت معالم الخريطة..

وكنت أتمنى أن أسجلها .وسأفعل إذا ما أتيحت لي الفرصة بعد ذلك..

انطلق الرصاص على رئيس سيلان بأندرانيكه .وظهرت بعده زوجته العظيمة في مكانة الشرف للمرأة الآسيوية..

وقتل الرئيس كنيدي ..وهو تلك الظاهرة الغريبة في تاريخ أمريكا .فهو يرأس دولة رأسمالية بعقلية سلامية .قتله يهودي بولندي وجاء يهودي آخر وقتل القاتل ..وضاعت معالم الجريمة في وضح النهار .ولكن المؤكد أن أمريكا خسرت شابًّا عظيمًا .والعالم كله أيضًا .وبكت عليه عيون في كل الدنيا ..بكت شبابه وشجاعته وحبه للتعايش السلمي بين الشعوب..

ونهرو مات ..ذلك الرجل العظيم الذي كان أروع معالم الهند وآسيا..

والعقاد الذي ولد مع نهرو في العام نفسه مات هو أيضًا ..إنه أكبر المفكرين العرب، وأوسعهم أفقًا وأعلاهم رأسًا وأشدهم حرصًا على كرامة الفكر والإنسان..

ومات أجينالدي الزعيم الفليبيني ..وهو يشبه الزعيم المصري أحمد عرابي باشا..

وغرقت جزيرة بالي الجميلة على إثر بركان عنيف ..أضاع معالم الجزيرة .هدم معابدها وجبالها الساحرة ..وهربت القرود المقدسة تحتمي في أشجار جوز الهند، ولكن هذه الأشجار تحولت إلى وقود ..وأصبحت الجزيرة شعلة من الماء!

وظهرت دولة جديدة هي ماليزيا تضم الملايو وجزرًا أخرى قريبة من إندونيسيا ..وسنغافورة أصبحت دولة مستقلة.

وأصبحت لنا سفارة في أستراليا هذه القارة الغنية السعيدة ..تمامًا كما كنت أحلم بذلك..

* * *

وحذفت من هذه الطبعة الثانية كلمة »جدًّا ..«وإن كنت في كثير من الأحيان قد نسيت ذلك ..فقد سجلت في الطبعة الأولى فرحتي بالعالم الواسع الملون الباهر الساحر ..واحتفظت بهذه الدهشة ..وأبقيت نبرتي العالية ..فمن الصعب أن يندهش الإنسان ويصرخ بصوت منخفض ..وليست علامات »التعجب «المنتشرة في كل الكتاب، وليست كلمات »جدًّا ..«إلا دليلًا على أن دهشتي لم تنته .وحماسي لم يخمد ..فالذي رأى ما رأيت، وسمع ما سمعت، كيف لا يندهش؟ وكيف لا يفكر بعد هذه الدهشة في معنى العجائب التي يراها!

فالدهشة هي بداية المعرفة الإنسانية.

فالإنسان يندهش وبعد ذلك يتساءل ..وبعد أن يتساءل يفتش عن الإجابة .وقد تساءلت كثيرًا جدًّا، وحاولت أن أجيب بقدر ما أستطيع.

وإذا كنت في الطبعة الأولى قد اندهشت وتساءلت، ففي هذه الطبعة الثانية قد أجبت كثيرًا .وعملت بنصيحة الأصدقاء .فقد نصحوني بأن أعيد قراءة ما كتبت.وقد فعلت وأن أجعل الكتاب كله حلقات مترابطة، وأن أحتفظ لها بروح المرح والخفة وأن أخفي وراء هذا المرح بعض المعلومات .وقد فعلت وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك.

وقد لاحظت -مثلًا -أنني كنت مبهورًا جدًّا بالراديوهات الترانزستور في اليابان .وكنت أتأمل هذا الجهاز العجيب بدهشة لا تنتهي .وقد أصبح هذا الراديو من صناعاتنا وأصبح في متناول الأطفال.

حتى صناعة اللؤلؤ اليابانية التي رأيتها وكتبت عنها لأول مرة في تاريخ الصحافة العربية، هي الأخرى أصبحت من المشروعات العلمية عندنا .فهناك محاولات جادة لزراعة اللؤلؤ في مياه البحر الأحمر.

وقد لقي هذا الكتاب جمهورًا متعطشًا لمعرفة الدنيا، وانتشر في كل مكان .ونفدت طبعته الأولى بسرعة أدهشتني وضايقت الدار التي نشرته .فهي حريصة أن يبقى الكتاب معروضًا في المكتبات وقتًا طويلًا .يسأل عنه الناس،

ويتحدثون عنه ..ولكن هذا الكتاب فاجأ الجميع بأنه اختفى في حوالي ثلاثة شهور ..عشرة آلاف نسخة في مائة يوم!

وتلقفت هذا الكتاب أجهزة الإعلام كلها.

الصحف تتحدث عنه .وأشارت إلى المتعة التي يلقاها كل قارئ..

فليس أسهل من أن يلف القارئ الدنيا وهو جالس في مكانه.

والإذاعة تناولته على شكل سلاسل..

واقترح أستاذنا الكبير محمد التابعي أن يصوره التلفزيون في حلقات..

وبحث عن هذا الكتاب قراء من اليمن ومن غينيا وغانا والكونغو وموريتانيا ..ووجدت نفسي مضطرًّا إلى أن أسترد نسخًا من هذا الكتاب كنت قد أهديتها إلى أصدقائي؛ فسحبتها وأنا حائر بين الألم والسعادة..

ثم كانت هذه الطبعة الثانية التي أعترف بأنني أدخلت عليها تعديلات جوهرية وربما كان من الأنسب أن أقول :إنني أعدت كتابة الطبعة الأولى .وأضفت إليها حتى يصبح هذا الكتاب ممتعًا ومفيدًا في الوقت نفسه.

وقد أقسم لي توفيق الحكيم بشرفه وأولاده بأنه اشترى نسخة من جيبه ..أي من فلوسه !ألا ترى أن هذا الكتاب قد أحدث تغييرًا جذريًّا في فلسفة بخيل عظيم مثل توفيق الحكيم؟!

وأعترف بأن نفاد الطبعة الأولى بهذه السرعة يشجعني ولاشك على أن أكتب رحلاتي إلى أوربا وإلى الشرق الأوسط فيما بعد.فقد سافرت إلى أوربا 16مرة ..رأيتها وهي منهارة .على شكل صفيح أسود، وطوب وطين وفحم ..ورماد على وجوه النساء، وفي أفواه الأطفال وفي أفكار الرجال.

ورأيتها وهي تتلألأ في الليل، وهي حية نظيفة أنيقة في النهار..

ورأيت الشرق الأوسط ..رأيت العراق بعد ثورة الطاغية عبدالكريم قاسم..

ورأيت الأردن وسوريا ولبنان ..وعندي ما أستطيع أن أقوله ..وقد وقعت أحداث، وظهر واختفى أشخاص ..وشاعت آراء ومواقف.

لعلي قد أسرفت في وعودي .ولكن القارئ مسئول عن هذا الإسراف، فهو الذي شجعني .وأنا أستمد من تشجيع القارئ حماستي ومتعتي وأملي في الحياة..

وأنا في كل مرة أفكر في رحلتي الطويلة جدًّا هذه ..أتذكر القصة التي يرويها الكاتب الأمريكي جيمس متشنر، الذي ألف أروع قصة عن جزر هاواي .فهو يقول :إنه في كل مرة يسأله الناس عن سبب ذهابه إلى جزر هاواي مرة أخرى يقف على لسانه سؤال آخر يوجهه إلى نفس الشخص الذي يسأله :ولماذا أنت في جزر هاواي؟

ولكن حياءه يمنعه من توجيه هذا السؤال ..أو رده أو صده ..كأنه كرة ارتطمت بالحائط..

وأصبح من عادة متشنر كلما سأله إنسان عن سبب وجوده في هذه الأماكن النائية أن يقول له :يا سيدي حدث أنني عندما ذهبت إلى جزر هاواي لأول مرة ..أحببت فتاة حلوة ..سمراء رقيقة صوتها حرير ..وشعرها حرير أبيض ..والحياة معها حرير ..وعقارب الساعة كانت أيضًا من الحرير ..إننا لا نشعر بالزمن ..وقررت في يوم من الأيام أن أتزوجها وذهبت لأشتري لها من أحد محلات المجوهرات هدية على شكل قلب ذهبي، وبينما أنا عائد

إلى الفندق هاجمني بعض اللصوص وضربوني وسرقوا المحفظة .ولا أدري بالضبط ماذا حدث بعد ذلك لقد فقدت وعيي ..وفقدت ذاكرتي أيضًا !وعندما أفقت وجدت سلسلة من الذهب ملفوفة حول عنقي ويتدلى منها قلب ذهبي .ولم أستطع أن أعرف ما معنى وجود هذه السلسلة .فأنا لم أعد أتذكر شيئًا بالمرة وسافرت بعد ذلك إلى الهند .وعلى سفوح جبال الهند .كنت أتفرج على بعض الطيور وبعض الناس المساكين الذين يزحفون على الأرض في قناعة وسعادة تامة .وبهرتني هذه القناعة وأخذتني هذه السعادة .وسقطت على الأرض .لا أعرف كيف سقطت ..وربما كان السبب هو أنني ضغطت بعض الشيء على أحد الأحجار ..وشكرًا لهذه الأحجار الكريمة ..فعندما سقطت على الأرض ارتطم رأسي بحجارة أخرى أكثر كرمًا من الأولى ..وفي هذه اللحظة استعدت ذاكرتي ..وتذكرت بوضوح شديد جدًّا هذه القصة .فقررت السفر إلى جزر هاواي لألحق بحبيبة القلب التي حرمني اللصوص منها .وسافرت إلى هاواي وسألت عن الحبيبة.ووجدتها أمًّا لعشرة أطفال وقد زاد وزنها فأصبح حوالي مائة كيلو ..ولاحظت أن الذراع التي كنت أستند عليها وأنا أمشي إلى جوارها قد أصبحت مليئة بالعضلات .ولما عرفت أن زوجها يعمل حدادًا عذرتها وتمنيت له مزيدًا من الأطفال وتمنيت لها مزيدًا من العضلات وتمنيت لنفسي مزيدًا من القصص لكي أرد بها على السؤال الذي يتكرر دائمًا :ولماذا أنت في جزر هاواي؟

وهذه القصة ابتكرها متشنر مفسِّرًا بها سبب وجوده في هاواي -مع أن الإنسان ليس في حاجة إلى أسباب خارقة ليكون في مكان ما ..في أي مكان .إن أهل هاواي أنفسهم لم تخلقهم معجزة وإنما جاءوا وتكاثروا ولا يزالون هناك..

أما السبب الحقيقي الذي جعل الكاتب الأمريكي يسافر إلى هاواي فهو أنه كان ضابطًا في البحرية .سبب بسيط جدًّا .ولكنه ليس جميلًا.

وأنا شخصيًّا أحب القصة التي ابتكرها وأفضلها على السبب الحقيقي الذي ليس جميلًا ولا ممتعًا !وأتمنى أن يسألني الناس هذا السؤال، وأتمنى أكثر أن يسعفني خيالي بقصة جميلة لسبب وجودي في كل هذه البلاد التي ستقرأ عنها في هذا الكتاب..

* * *

أما الذي كسبته من هذه الرحلة المرهقة التي تركت علامات عميقة في نفسي .فالجواب على ذلك جاء في آخر صفحة من قصة الكاتب الفرنسي »جول فرن «التي ظهرت على الشاشة وعنوانها» :حول العالم في 80يومًا ..«ففي الصفحة الأخيرة يسأل الخادم بطل هذه القصة واسمه فيلياس فوج :ما الذي كسبته من هذه الرحلة؟ أنت تراهنت على مبلغ عشرين ألف جنيه .ولكن أنفقت 19ألف جنيه ..والألف الباقية أعطيتني إياها؟

والذي لا يعرفه هذا الخادم هو أن الرحلة نفسها ممتعة ومثيرة ومفيدة..

وأن المكسب هو المشوار ..هو الشوق والحنين ..وانتظار الناس حولي لكي أقول لهم ما رأيت وكيف رأيت..

ولو طلبت مني أيها القارئ أن ألقي قلمي الآن وأدور حول العالم من جديد، نفس الطريق، ونفس الأمراض، ونفس المخاوف، فإني لن أتردد ..فليس في الدنيا أروع من السفر وذكريات السفر، وليس أروع من أن يستمتع بقراءتها بعد ذلك كل الذين لم يسافروا، وكل الذين يحلمون ببلاد بعيدة جديدة!

أنيس منصور

القاهرة في أغسطس 1964

[1]اقرأ كتابي »بلاد الله ..خلق الله.«..

مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم الدكتور /طه حسين

هذا كتاب ممتع حقًّا تقرؤه فلا تنقص متعتك بل تزيد كلما تقدمت في قراءته.

ومع أنه من الكتب الطوال جدًّا فميزته الكبرى هي أنك حين تقرؤه لا تحتاج إلى راحة وإنما تود لو تستطيع أن تمضي فيه حتى تبلغ آخره في مجلس واحد، لأنك تجد فيه المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع.

ومن المحقق أن هذه الرحلة الرائعة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة.

ومن يدري لعل أن تمتاز منها ببعض الخصال، فصاحب الكتاب حلو الروح خفيف الظل بعيد أشد البُعد عن التكلف والتزيد والإدلال بما يصل إليه من الغرائب التي يسجلها في كتابه.

وإنما هو يمضي في الكتابة مع اليسر والإسماح، مرسلًا نفسه على سجيتها، مطلقًا لقلمه الحرية في الجد والهزل وفيما يشق وما يسهل، لا يتكلف الفصحى ولا يتعمد العامية .وإنما كتابه مزيج معتدل منسجم من اللهجتين ..وهو لا يقصد إلى أن يبهرك ولا إلى أن يغرب عليك في لفظ أو معنى وإنما يستجيب لطبعه ويظفر بإرضاء الطباع السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والإسفاف.

وقد أخذت في قراءته ذات يوم فكان أشد ما أضيق به العوارض التي تعرض فتصرفك عما أنت فيه على كرهك لهذا والضجر به ..والإحساس الذي لا يفارقك في أثناء القراءة هو أنك مع الكاتب تشهد ما يشهد، وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من ألم أو لذة من سخط أو رضا، تسافر معه تقيم حين يقيم مع أنك لا تبرح مكانك .وإنما هي براعة الكاتب وإسماحه يستأثران بك ويخيلان إليك أنك تلزمه في حركته وسكونه كأنك ظل له لا تفارقه؛ وأشهد بأني وجدت هذا الشعور منذ أخذت في قراءة الكتاب إلى أن فرغت منه.

وما أرى إلا أني سأعيد قراءة فصول كثيرة منه وهذا أقصى ما يتمنى رحالة أن يبلغ من نفوس قرائه.

ومع أن الكاتب يسمى كتابه »حول العالم في 200يوم «فهو قد طوف فأكثر التطواف ووصف فأحسن الوصف، فهو لم يزر العالم كله، وإنما زار الأجزاء البعيدة منه في الشرق الأقصى وفي أمريكا.

وما زالت هناك بلاد كثيرة لم يلم بها ولم يتحدث عنها، هو لم يزر من الصين إلا هونج كونج، ومن يدري ماذا يقول لنا لو أنه زار الصين وبلادًا أخرى كثيرة في آسيا كآسيا الوسطى الروسية وكإيران وتركيا وجزيرة العرب.

ولا أذكر العالم العربي في آسيا فأكثر الناس يعرفون عنه الكثير.

وما زالت أمامه أجزاء خطيرة من العالم يجب أن تضاف إلى الصين وإلى الأجزاء الآسيوية الأخرى التي لم يزرها .وهو وقد زار بعض البلاد الأوربية، ولكنه لم يزرها زيارة الرحالة ..كما أنه فيما أعلم لم يزر بلادًا كثيرة في أوربا .ولم يزر روسيا الأوربية ولم يزر البلقان .وتبقى بعد هذا كله قارة كاملة تدعوه إلى زيارتها في إلحاح وهي القارة الإفريقية على اختلاف أقطارها.

لست أقول هذا ناقدًا له وإنما أقول متمنيًا عليه زيارة هذه البلاد كلها ووصفها كما وصف البلاد التي زارها مهما يكلفه ذلك من مشقة في السفر والإقامة والكتابة بعد ذلك .وما دام قد بدأ فأحسن البدء فيجب عليه أن يتم ما بدأه فيزيد في إمتاع قرائه، ثم هو لا يمتع قراء هذا الجيل وحدهم وإنما يمتع أجيالًا أخرى كثيرة كما استمتعت أجيال كثيرة برحلات العرب وبكثير من رحلات الأوربيين.

ومن المحقق أن الذين سبقوه من أصحاب الرحلات لم يزوروا الأرض كلها ولم يصفوها، وإنما اكتفوا بما زاروا من بعض الأقطار .ولكن الأستاذ الكاتب يستطيع أن يصدق بيت أبي العلاء:

فأبو العلاء لم يغل في هذا البيت لأنه أتى في شعره وفي بعض نثره بكثير مما لا يسبقه العرب إليه .ولم يلحقوه فيه إلى الآن .فما يمنع كاتبنا من أن يأتي في الرحلات بما لم يستطعه من سبقه من الرحالين .ولعله آخذ في بعض ذلك فيما يأتي من الزمان .وليس من شك في أنه أتى في رحلته هذه بما لم يسبقه إليه أحد من معاصريه .وأنا أكره له أن يصدق عليه بيت المتنبي:

وفيه والحمد لله قدرة على الأسفار واحتمال للمشقات وقد منحه الله من الشباب والقوة وحسن الصبر والاحتمال ما يمكنه من ذلك إن أراد .وأنا أرجو أن يعينه الله على ما قد يحاول من ذلك، ولا أخفي عليه أني مشوق كل الشوق إلى أن أقرأ وصفه لإفريقيا وليكن ذلك في جزء أو جزأين .وهو قد أثبت بكتابه هذا أن الله قد يسره للتطواف في أقطار الأرض ووصف ما يزوره منها كأحسن وأمتع ما يكون الوصف .وما أظن أن »أخبار اليوم «تحول بينه وبين ما يسره الله له .فليعزم وليتوكل على الله، وأنا أهنئه بكتابه هذا وأتمنى له النجاح والتوفيق حتى يبلغ من إتمامه ما نحب.

طـه حسـين

القاهرة في أغسطس 1966

مقدمة الطبعة التاسعة

بقلم :محمود تيمور

التزمت أخيرًا في سلسلة الصور الوصفية التي أعالج بها رسم شخصيات الأدباء المفكرين المعاصرين لي أن أجمع في كل حلقة بين اثنين من هذه الشخصيات، صاحباهما تتسع بينهما دائرة المشابهات، أو على العكس من ذلك تتسع بينهما دائرة الفروق .فلما أمسكت بالقلم لأصور صديقنا الأستاذ »أنيس منصور«، حاولت جاهدًا أن أجد له شبيهًا، فلم يتيسر لي الشبيه، وحاولت كذلك ما وسعتني المحاولة أن أجد له نقيضًا، فعز عليَّ أن أوفق إلى النقيض، فقد رأيتني أمام امرئ ليس من السهل اكتناه أمره، واجتلاء سره.

نظرت إليه على أنه من الملائكة، فلم تنكشف لي شخصيته بهذا الاعتبار، وعددته من زمرة الشياطين، فاستبان لي أني ظالم له، ذلك لأنه في الحق مزاج طريف نادر من الملائكية الطاهرة، والشيطانية الماكرة..

أمشاج من المتناقضات تتراءى لك في هذه الشخصية العظيمة، فإذا أنا أفردت صاحبها بالحديث، دون أن أقرنه بغيره، فإنه هو نفسه -في الحق -ذو شخصيتين أو أكثر من اثنين!

يتحدث إليك، فلا تدرى :أيهزل أم يجد؟ ويعرض عليك الرأي، فتحار فيه :أيصارح أم يداور؟

إنه لغز عصيٌّ لي وإن هذا اللغز ليتبلور في نقطة واحدة، هي ابتسامته ..تلك الابتسامة التي تجمع في تضاعيفها معالم شخصيته ..وما أشبهها بجنين في بطن أمه خلال الأشهر الأولى من تخلقه، فهو على الرغم من صغر حجمه، ودقة تكوينه، يحوي كل العناصر التي يتشكل منها إنسان المستقبل.

أنت تواجه هذه الابتسامة، كما تواجه »ابتسامة الچيوكندا ..«مبهوتًا حيران، لا تملك لها تحليلًا ولا تعليلًا ..هل هي ابتسامة كاملة الشكل، ناصعة المعنى؟ هل هي ظل ابتسامة لا تظهر من الحقيقة إلا الأبعاد التي يظهرها الظل، لا تكشف سرّ ًّا، ولا تعطي خبرًا؟ هل هي شروع في ابتسامة لا تعرف ما وراءها؟ هل هي خاتمة ابتسامة، فاتك أن تتابع مراحلها، لتستبين مراميها؟ ما لونها؟ ابتسامة ترحيب هي؟ أم ابتسامة استهزاء؟ أم ابتسامة اللامبالاة؟ أتراها تدل على واحدة من هذه الدلالات، أم هي تحوى كل هذه الدلالات مجتمعة في وقت واحد؟

مهما تطل القول في التحليل والتعليل، فليس ثمة إلا حقيقة واحدة :إن ابتسامة »أنيس منصور «هي »أنيس منصور «نفسه -هي هو -أو قل :هو هي، لا انفصال بينهما ولا اختلاف.

سر »أنيس منصور «يكمن خلف ابتسامته، فإذا تفطنت إلى طواياها بدا لك الرجل بكل ما فيه.

ربما دار بينك وبينه نقاش، وتفترقان على رد، ولا تكاد تخطو خطواتك، تاركًا إياه، مستعيدًا حديثه إليك، حتى يتصاعد الدم إلى وجهك، إذ يغيم الجو من حولك بأصداء هذا الحديث، وإذا أنت تقول لنفسك :شد ما هزأ بي الرجل، وشد ما نال مني ..!وسرعان ما تقصده مهتاج الخاطر، لتعتب عليه، كي يعتذر إليك، فيلاقيك رابط الجأش، ساكن النفس، وتحاول ما استطعت أن تستعيد من ألفاظه ما يعينك على مؤاخذته، فلا تظفر بما أردت، وتتراجع عن مطلبك، وكأنك أنت المعتذر إليه عن تسرعك، إذ تلوح لك في ذلك الوقت »ابتسامة الچيوكندا «على وجهه ..حتى أنه هزأ بك، ونال منك ..حتم أيضًا أنه لم يفعل ذلك قط ..ولا غرابة في أن يجتمع هذان النقيضان في ابتسامة صديقنا »أنيس منصور!«

تقدم له مقالك ليجيز نشره، فيقرؤه في ترحاب، ثم يقول لك :مقال هائل !ويثير قوله فيك نوازع الشك واليقين في آن واحد، فلا تدري :أمقالك هائل في الجودة أم هائل في السخف؟ وتتوارد على سمعك جملته الهائلة، فيعتريك من هولها دوار!

إذا قرأت له مقالًا في تقدير شخص أو تقييم كتاب، وجدت نفسك في متاهة، تسائل نفسك :أمادح هذا الناقد أم قادح؟ وتجهد عقلك عبثًا في سبيل الوصول إلى خط فاصل :هل المقال يرفع الشخص أو الكتاب إلى الأوج؟ أو هو يخسف به الأرض؟ ولو كنت ممن وهبهم الله تلك الحاسة السادسة التي هي لون من ألوان البصيرة النيرة، أو الحدس الكاشف، لوجدت نفسك من عباراته المتلونة أمام جهاز كهربي لأكبر قوة معطلة لا يلبث أن يتصدى لحاستك السادسة، فيلقي عليها بضع إشعاعات، فإذا هي ترفع راية التسليم!

يطالعك الفصل الذي يكتبه في أدب أو فن أو ضرب من ضروب المعرفة، فتفرغ من مطالعته وقد طاب لك أن تراجع نفسك فيما وعيت :هل كسبت جديدًا؟ هل أفدت شيئًا؟ ولا يلبث أن يلهيك عن الجواب شعورك بأن وجدانك عامر بما أصبت من المتعة، حافل بما غمرك من البهجة، وفي دخيلتك تطلع إلى المزيد.

أجمع الظن أن »أنيس منصور «خريج الدراسات الفلسفية الجامعية قد استفاد منها أنه ألقى بمذاهبها ونظرياتها وأعلامها جانبًا، ولم يأبه لها جميعًا، ولملم شتاته، متجهًا إلى ينابيع الحياة الفياضة، فكانت فلسفته إزاءها أن يرتوي بها، ويروي منها قراءه الأعزاء ..فلقد ربا بنفسه أن يكون معلم فلسفات، وعارض نظريات، ومحلل مشكلات، وأبى على نفسه إلا أن يكون صانع مسرات ..إنه »مخرج «لأفلام المباهج الفكرية، فعمله يحمل من اسمه الأنيس أكبر نصيب.

من الدارسين من يجعلون قراءاتهم الدراسية كنزهم الثمين، ومرجعهم الوثيق، ولكن »أنيس منصور «جعل كل ما قرأه في دراسته الفلسفية الجامعية نقطة بدء وانطلاق ..فمضى يحلق في مطالعاته، لا يقنع بنوع، ولا يقف عند

حد، يصوب ويصعد، تارة يغوص إلى أعماق »أرسطو«، وطورًا يعكف على »دلائل الخيرات«، ولا ينسى نصيبيه حينًا من قصص تباريح الهوى والشباب، يقرأ المعرفة واللامعقول، ويخوض في المعقول واللامعقول، يمضي في ذلك مدفوعًا بالنزعة العارمة إلى تعرف المجهول في كل جانب من فكر أو أدب أو فن..

إن »أنيس منصور «من »قوارض «الكتب والمجلات والنشرات، وكل ما خطه قلم على ورق ..يقرأ لك المائتين من الصحائف، ويحسن هضم ما قرأ، ثم يعرض عليك خلاصاتها في سياق رائع ..وهو مرهف الذوق في الاختيار والعرض، لا ينتقي لك إلا ما يشغل ذهنك، ويملأ سمعك، من موضوعات الساعة وقضايا العصر، فإذا عرض لك الماضي ربط بينه وبين الحاضر، ونفى عنه جفافه ووحشته، وأدنى إليك قطوفًا من أطايب الثقافة والفكر في القديم والحديث.

ذلك كله، جعل من »أنيس منصور «كاتبًا صحفيًّا، أصيل الثقافة، رفيع الطراز، تتسم فصوله وتعليقاته بالطابع الموسوعي الذي يقفك على أكثر من جانب ويدور بك في أكثر من زاوية، ولا يدعك إلا ملمًّا بأشتات الموضوع الذي يعرضه عليك..

لـ »أنيس منصور «أسلوبه الذاتي، وهو أسلوب تتضح به شخصيته، وأكبر عناصره تلك الجاذبية التي تجعل قارئه يحرص على أن يتابعه على تواصل الأيام ..كأنه يتابع رسالة موصولة الحلقات، أو لكأنه يوالي الاستماع لقصص »ألف ليلة وليلة «التي لم يمل »شهريار «الاستماع إليها في لياليه الطوال..

والجاذبية في أسلوب »أنيس منصور «تريدك على أن تدور معه حيث يدور بقلمه فيما يتناول من الموضوعات، وهو فيها يومًا من »الأحرار «ويومًا من »المحافظين«، ويومًا من »العمال«، وأنت في جميع أحواله يحدوك بطرافة عرضه ورشاقة تصويره على أن تقرأ له، وتقتنع بما يقتنع به، ولا تخرج آخر الأمر، إلا وأنت راضٍ عن نفسك وعنه، مطمئن إلى موقفك منه، وإن لم تكن تدري عن أي شيء رضيت، وفي أي موقف استقر بك المقام.

مفتاح الطابع الشخصي لكتابات »أنيس منصور «هو » :المفارقات ..«لا يكاد يخلو منها مقال أو حديث له، بل إنها هي القالب التقليدى للكلمات اللاذعة أو الباسمة التي يذيل بها أحاديثه، ويجريها مجرى الحكم والأمثال ..وهو في هذا الطابع شبيه »أوسكار وايلد «ولا بد أنه أعجب به في هذه الناحية، ووافق منه هوًى ..وليس من شك في أن »المفارقات «عنصر خلاب، وسلاح نفاذ، إذ هي تقوم على أساس المفاجأة والإثارة، وتنطوي على التهكم والسخرية والمفاكهة، وفي هذا ما يشد الانتباه، ويهز المشاعر ..وذلك ما جعل »أنيس منصور «مفتونًا باتخاذ هذا العنصر الخلاب، والسلاح النفاذ.

أما لغة »أنيس منصور «فهي جانب آخر من ابتسامته »الچيوكندية ..«حينا يطالعك بالفصيح من التعبير، فيبهرك بما يتخير من اللفظ، وطورًا يتعمد متطرفًا اتخاذ كلمات علمية متطرفة، على حين أن مقابلاتها العربية لا تغرب عنه، ولا تستعصي عليه ..مرة تأخذه »الجلالة «اللغوية، فيستمسك باستعمال كلمة »اللمسات «للتعبير عما يقال له »الرتوش«، وحينا تجنح به نزعة اللامبالاة، فيجري قلمه بكلمة »صرماتي «بدلًا من كلمة »الإسكافي.«

و»أنيس منصور «مؤلف كثير الإنجاب ..ولقد يتعذر على القارئ أن يلاحق كتبه التي يوالي إصدارها ..وهو شغوف بانتخاب أسماء لكتبه تروعك بطرافتها، فهو صاحب كتاب »ساعات بلا عقارب«، وكتاب »وداعًا أيها الملل «وغيرهما من الكتب التي تحمل لطائف الأسماء.

ولا ريب في أن كتابه »حول العالم في مائتي يوم «من خير ما أنتج ..ولعل إيثاري له يرجع إلى شغفي بالرحلات وكتب الرحلات، حتى أني أقحمت نفسي في هذا الميدان، بما كتبته في وصف بعض السفرات التي قمت بها فيما وراء البحار..

وكاتب الرحلات الناجح لا بد أن تتوافر له ألمعية الملاحظة ورهافة الفطنة، وسرعة الالتقاط والقدرة على استبانة الملامح والمعالم، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة، وما يتصل منها بالعادات والسلوك والأوضاع

الاجتماعية التي لا تخلو من غرابة ..وكل هذه المؤهلات تستجمع للأستاذ »أنيس منصور «وهو يضرب بعصاه الأرض، ويمعن نظراته هنا وهناك، فتخترق في الزوايا والخبايا..

وفي هذا الكتاب تتجلى روح الظرف والمنادمة، وفيه أوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات في أسلوب كثير التوابل.

ولي مع ذلك الكتاب قصة:

اشتريته، واستعظمت حجمه، فتهيبت أن أشرع في قراءته، كما استعظمت من قبل »الإلياذة «و»الأوديسة«، متهيبًا أن أمضي في قراءتهما بادئ ذي بدء .وتركت كتاب »أنيس منصور «على مكتبي أخالسه النظر بين يوم ويوم، لا أمد إليه يدًا ..رحلة طويلة عريضة استغرقت مائتين من الأيام، وأكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير..

وساعة وجدتني أتملى بعض صحائفه، والنظر فيما حوت من صور، وبغتة ألفيتني كأنما تهبط بي طائرة حوامة »هليوكبتر «في قلب »هونج كونج..«

وسرعان ما طوتني زحمة الناس في أسواقها وطرقاتها، أتطلع إلى مبانيها الشواهق وأجوب دروبها الملأى بغرائب السلع، ثم أعطف على نواديها الليلية ذات الطابع البراق ..ووقعت عيني على هذه الفقرة:

»الصيني رجل متفوق في عمله، يفكر بيديه، ويتفلسف بمعدته ..والموسيقى تدل على براعة الصينيين في شيء واحد، هو أنهم استطاعوا أن يحبسوا عشرات القطط والفيران في آلاتهم الموسيقية فالبيانو صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكتاكيت الصغيرة، ضد عرسة كاسرة ..أما القيثارة فهي تشبه أفعى قد تكومت على صدر أحد الحواة تنتظر عصفورًا أطلقه أحد المتفرجين ..أما بقية الأصوات الموسيقية فهي تشبه ضرب الحلل بالملاعق ..ثم ضرب المستمعين بالجزم.«

ومضيت أقرأ ..واندمجت في القراءة ..وكل جارحة في جسدي تبتسم!

وأقبلت على »اليابان ..«وأنست ببنات »الجيشا ..«وهبطت »أمريكا «وزرت »هوليوود ..«وتركت مدينة السينما والهوى والشباب ..ونسيت نفسي، حتى أيقظتني الصفحة الأخيرة من الكتاب، فإذا بي لم أقرأ إلا شطر الكتاب الثاني، فعدت إلى الشطر الآخر من أول صفحة، لأستكمل قراءة الرحلة.

ولقد أعادت رحلة »أنيس منصور «إلى ذاكرتي كتاب »جول فرن «المسمى» :الطواف حول الأرض في ثمانين يومًا ..«والشيء الباعث على الحيرة هنا هو» :كيف استطاع »جول فرن «إتمام طوافه في هذه المدة القصيرة، وهو يتخذ وسائل المواصلات القديمة، من بواخر بدائية، إلى فيلة بطيئة الخطى، إلى نعال غليظة، تعوق السير -على حين استنفدت رحلة »أنيس منصور «أكثر من ضعف هذه المدة، وهو الذي كان لا يترك في تنقلاته طائرة إلا ليستقل أخرى؟ ..إن هذا حقًّا لغز، وما أحسب أن حله بالأمر اليسير!

ليس كتاب »أنيس منصور «المحتوي على رحلته هو كل ما كتب من هذا اللون .فالحق أن فصوله ومقالاته ليست إلا رحلات متواصلة .سواء أكانت في آفاق الأرض المحدودة، أم كانت في العوالم الفكرية التي ليس لها من حدود..

محمود تيمور

1972/6/23

الهند كل شيء كثير!

بعد لحظات في مدينة بومباي ستشعر بأنك لست غريبًا ..ولا أحد غريب عنك، وإذا حاولت أن تتجه إلى أي إنسان، فقد لا يتجه إليك؛ احترامًا لحريتك الشخصية في الحركة، وفي اختيار أي اتجاه يعجبك .وفي الوقت نفسه من الممكن أن يتجه ناحيتك أي إنسان عن غير قصد .فتظن أن عدم القصد في الحركة والاتجاه هو ظاهرة عامة .ولكن من المؤكد أن أحدًا لا يصطدم بأحد ..على نحو ما يحدث عندنا في شوارع القاهرة.

ففي القاهرة في استطاعتك أن تجد شِلَلًا من الناس يمشون بالعرض وعلى مهل، كأن الشارع خال تمامًا .وكأنهم وحدهم المشاة .ويدهشهم جدًّا أن يقوم واحد مثلك بتنبيه الناس إلى أن هذا شارع عمومي .والدهشة التي ستراها على وجوههم ليس معناها أنك نبهتهم إلى حقيقة لم يكونوا يعرفونها، وإنما نبهتهم إلى أنك قليل الذوق فقط!

وفي الهند في استطاعتك أن تستغني عن أذنيك؛ فكل الذي تسمعه لا معنى له، فهم يتكلمون لغات كثيرة ولهجات كثيرة جدًّا .حتى اللغة الإنجليزية، وهي إحدى اللغات الرسمية في الهند، لهم طريقة خاصة في نطقها .وعلى الرغم من أنهم يتكلمون الإنجليزية بشكل سليم، من الناحية النحوية، فإن اللهجة الهندية تجعلها لغة أخرى ويصعب عليك فهمها في كثير من الأحيان.

أنا شخصيًّا حاولت ذلك في الدقائق الأولى..

وكانت النتيجة أنني أدركت أن معرفتي بالإنجليزية أحسن بكثير جدًّا من ملايين الهنود .وبيني وبينك أنا زودتها شوية؛ لأن هناك هنودًا بالملايين قد تعلموا في إنجلترا!

ومعنى ذلك أنك من حين إلى حين ستعتمد على أذنيك في التفاهم بهذه اللغة الإنجليزية..

ولكن ستعتمد على عينيك أكثر..

فأنت ستملأ عينيك بأشكال وألوان لم تكن تخطر لك على بال ..فالوجوه غريبة جدًّا ..وستلمح على الأقل في أي جهة تتجه إليها عشرين شخصًا فيهم شبه كبير جدًّا من المهاتما غاندي ..وفي أول لحظة قد تتصور أن هؤلاء الناس أقارب لغاندي .وبعد ذلك ستفهم أنه ليس من الضروري أن يكون الأقارب متشابهين إلى هذه الدرجة ..ثم ستدرك بوضوح أنك في الهند ..بلاد الديانات والخرافات والملايين والأمراض والفقر والزهد والتسامح وغاندي والماعز والبقرة والمغزل وشركة إير إنديا!

* * *

مطار مدينة بومباي غريب من أول نظرة..

فهو مطار كبير ..والجو قاتم أو خانق ..فهو قاتم بالوجوه الكثيرة التي ازدحمت في كل مكان والتي تنظر إليك دون أن تركز عليك .فلست الوجه الذي يستأهل الفرجة .فهناك ألوف غيرك قد نزلوا من الطائرات قبلك ومعك وسينزلون بعدك.

أذكر أنني عندما نزلت من الطائرة وجدت سيدة تبتسم ..ملامحها بيضاء وملابسها بيضاء أيضًا .ولا أعرف إن كانت هذه وردة التي رأيتها في شعرها أو بقعة حبر أحمر فاقع..ولكن من المؤكد أن ابتسامتها شخصية جدًّا ..أي موجهة ناحيتي ..وظننت، وربما كان هذا وهمًا أو غرورًا مني، أنها إحدى سيدات
السفارة .موظفة ..سكرتيرة ..زوجة أحد الموظفين الهنود جاءت لاستقبالي ..ولاحظت أن ابتسامتها مليئة

بالوعود :وعد بأن تجد لي لوكاندة مريحة ..وعد بأن تقدم لي فنجانًا من الشاي الهندي الذي على أصله ..وعد بأن أركب في سيارتها وأرى المدينة كلها في ساعات ..وعد بأن أجد لديها عددًا من الكتب التي تعطيني فكرة شاملة سريعة عن هذه البلاد الواسعة ..وعد بأن تركز نظرتها على عيني أكثر، وتركز ابتسامتها على ابتسامتي أكثر فأكثر..

وخجلت من نفسي ..فقد كانت هذه السيدة لا تنظر إلى أحد ..وإنما تنظر في كل هذا الاتجاه ..ولا تبتسم لأحد، وإنما تبتسم للمطار كله ..وللطائرات كلها ..وللسماء الواسعة ..كانت ابتسامتها لله..

فقد كانت عمياء!

وكأنني أكفر عن هذه الخطيئة، خطيئة النظر إلى سيدة عمياء، تصورت أن ابتسامتها من أجلي، ونظراتها من أجلي، وأنها جاءت من أجلي، رحت أنظر إلى الناس نظرة عامة ..وأبتسم لهم ابتسامة عامة ..كأنني أتفادى النظر إليهم، وأتفادى الابتسامة إلى واحد منهم.

وفي الزحام، وكل شيء هنا في زحام، ضاعت ابتسامتي وضاعت نظراتي ..ورحت أتساند على أجساد الناس بعيني، حتى لا أقع في دوامة الألوان ..ودوامة الروائح الغريبة..

إن أول شيء يواجهك وأنت نازل إلى بلاد الهند، هي هذه الروائح ..إنها بحر آخر بالإضافة إلى بحر المطر ..وبالإضافة إلى بحر الرطوبة، وبالإضافة إلى بحر الناس..

هذه الروائح لا تعجبك أبدًا..

لقد وهبني الله الذي لا يحمد على مكروه سواه -حاسة شم غير عادية ..فأنا أتعذب بها .لأنني أستطيع أن أشم روائح أشياء كثيرة لا يمكن أن يهتدي إليها الأنف العادي .وكثيرًا ما توهمت روائح لا وجود لها ..تمامًا كما يحلم الإنسان وهو مفتوح العينين ..فأنفي هو الآخر عنده أحلام يقظة!

ولكن في الهند لم أعرف بالضبط ما اسم هذه الروائح :هل هي أطعمة أو بخور أو جثث موتى أو عرق ..وطين ومطر وأنواع أخرى من الطين لم أعرفها، ومن الرمل لم نسمع عنها..

وعرفت بعد ذلك أنه يوجد في بومباي أعشاب وأطعمة وأبخرة تتصاعد من الأرض ..ومن الحقول ومن البيوت والدكاكين، ومن الأجسام الحية والأجسام الميتة التي تحرم بعض الديانات الهندية دفنها، وإنما تتركها للصقور والنسور تمزقها وتأكلها وتطير بها ..أو تطير ببقاياها ..أو من الأجسام التي أحرقها أهلها بالزيت والدهن.

أما الرطوبة الموجودة في الجو فهي عبارة عن ملايين من الستائر الرقيقة أو ملايين الملايين من الخيوط الرقيقة التي تتعلق عليها هذه الروائح كأنها ملايين الملايين من الذباب والبعوض!

وعندما اقترب مني الجرسون طلبت إليه أن يحقق لي هذه الأمنية الغالية :كوبًا من الشاي!

ويبدو أن كوب الشاي ليس أمنية ولا شيئًا غاليًا عند أحد من الناس في الهند .ولعل لهجتي هذه قد أضحكته -إن كانت ترجمتي صحيحة لهذه الابتسامة المعكوسة على وجهه -فقد كان يبتسم من حاجبيه حتى شفته العليا وربما كانت هذه ابتسامة ..وربما كانت محاولة لعدم الاكتئاب..

وطبيعي جدًّا ألا يكون كوب الشاي شيئًا كبيرًا في بلاد الشاي ..تمامًا كما يطلب سائح أجنبي طبق فول مدمس في مصر، ثم يتوقع من الجرسون أن ينحني له إجلالًا وإكبارًا لأنه كلفه بشيء نادر!

فول في مصر، وشاي في الهند، وسمك في اليابان، ونبيذ في إيطاليا، ولحمة في أستراليا، وأرز في إندونيسيا، ليس بالشيء المهم!

وتذكرت ما فعلته في إحدى المرات عندما كنت أزور ألمانيا لأول مرة من حوالي عشر سنوات .فقد طلبت من إحدى الجرسونات في مدينة ميونخ أن تأتي لي بقطعة من اللحم المشوي، فضحكت الفتاة بصوت مسموع وضحكت أنا أيضًا، ولكن لسبب آخر .فأنا ضحكت عن طريق العدوى .فالجو يعدي بالضحك والمرح ..وقد أخفيت بضحكتي هذه رغبتي الحقيقية في أن أعرف بعد ذلك السبب الذي من أجله ضحكت هذه الفتاة .هل أنا أخطأت في اللغة الألمانية؟ لا يمكن .فالذي قلته لا يتعدى عشر كلمات .ويستحيل أن أخطئ في لغة أتكلمها منذ أكثر من عشر سنوات .ولكن الذي حدث بعد ذلك جعلني أصر على أن أعرف ما الذي أضحك هذه الفتاة الحلوة .وإن كنت في ذلك الوقت لاحظت أن حلاوتها قد نقصت في نظري قليلًا .فشعرها أكرت، وشفتها رفيعة جدًّا، ثم إنها تهرش عادة وراء أذنها، وليس سبب ذلك أنها تضع القلم هناك كثيرًا، تمامًا كما يضع الفلاح خشب المحراث على عنق الثور أو البقرة، ولكن سبب ذلك أنها لا تستحم ..وقد سجل أنفي شيئًا يدل على ذلك عندما اقتربت مني..

وقررت أن أسألها لأنها همست إلى زميلاتها وروت شيئًا فضحكن ضحكًا عاليًا ..وعندما عادت ومعها اللحم سألتها بإصرار عن الذي أضحكها من كلامي وتمنعت، ولاحظت أنها ليست أقل جمالًا كما تصورت، وإنما هي جميلة فعلًا .وأنها تضع الورود في ملابسها ..ورودًا حقيقية ثم عصيرًا لهذه الورود أيضًا .والذي قالته لي هذه الفتاة جعلني أضحك من الذي قلته لها، وعلى الذي قلته للجرسون الهندي في مطار بومباي أيضًا .فقد قلت لها ما ترجمته بالعربية هكذا :بالله ألا سمحت لي بقطعة من اللحم المشوي جدًّا إن كان هذا ممكنًا.

طبعًا، عبارة سخيفة، ولغة أسخف .وإذا وجهتها أنت إلى أية فتاة في مطعم أو حتى في »مسمط «ولم تضحك فهي غلطانة ..وإذا لم تمسك هذه الفتاة أقرب ملاحة أو فوطة وتضعها في فمك، فهي ولاشك لا تعرف معنى الكرامة الوطنية .فليست هذه لغة ولا لهجة!

وإنما عذري أنني تعلمت ذلك في الكتب ..علمونا أن نكون مؤدبين جدًّا .على أمل أن ننسى كلمة »جدًّا ..«ونكتفي بأن نكون مؤدبين فقط!

وفهمت من الفتاة الألمانية أن هذه العبارة تكفي جدًّا :قطعة لحم مشوية من فضلك!

وفهمت أيضًا أنه لا داعي لأن أقول عبارة »مشوية جدًّا .«لأن معنى ذلك أنني أقطع كل أمل في أن يستمر الكلام بيني وبينها.

فأنا إذا قلت لها :قطعة لحم فقط فسوف يدور هذا الحوار بيننا هكذا :تقول هي :قطعة لحم؟

فأقول :نعم.

وتقول هي :مشوية؟

فأقول :ممكن تكون مشوية جدًّا.

وترد هي :مشوية جدًّا إلى أية درجة؟

وأقول مندهشًا :هل عندكم درجات للمشوي أيضًا؟

وتقول وهي تبادلني الدهشة بدهشة أخرى :وأنتم كيف يكون اللحم عندكم؟ أليس على درجات؟

فأقول وقد أحسست أن المناقشة قد أضيف إليها طعم العسل :والله في مصر أفضل أن آكلها مسلوقة!

فتقول :هل تحب أن تأكلها هنا مسلوقة؟

وتسألني بلهفة وكأن كرامتها قد جرحت، إذ كيف توجد لحوم مسلوقة في مصر ولا توجد لحوم مسلوقة في ألمانيا؟ وإذا كان عندنا نيل في مصر فعندهم في ألمانيا أنهار مثل الراين وفروعه :إذا كنت تريد لحمًا مسلوقًا فهو موجود..

وكأنني انكسفت من أن أصبح تلميذًا لواحدة فنانة شاءت الظروف أن تجعلها جرسونة في مطعم :إنني سآكل أي شيء يعجبك أنت!

ولأول مرة أشعر بالامتنان للبعوضة التي لسعتني في قفاي ..فأعادتني بذلك إلى مطار بومباي لألمس بيدي قدح الشاي فأجده أقل التهابًا من قفاي .وأعادتني إلى العبارة التي قلتها وأضحكت الجرسون الهندي .وقد فهمت فيما بعد أن ابتسامة هذا الجرسون، تعتبر نوعًا من القهقهة بالنسبة للهنود الذين لا يضحكون عادة.

فكأن هذا الجرسون قد قهقه بحاجبين عاليين جدًّا عندما قلت له :بالله أحضر لي كوبًا من الشاي الهندي المعتبر إذا كان هذا ممكنًا.

وواضح جدًّا أن سؤالي سخيف، لأن هذه هي بلاد الشاي .ولا بد أن يكون الشاي متوافرًا ولا بد أن تكون مهمة الجرسون أن يأتي بالشاي في أي وقت لمن يطلبه ..سواء كان الطلب على طريقتي، أو على طريقة الهنود .وفي الحقيقة لم ألاحظ هنديًّا واحدًا يشرب الشاي خارج البيت ..ويظهر أنهم يفضلون عمل الشاي في البيت لأسباب لم أعرفها حتى الآن ..أي حتى الساعات الأولى من وجودي في مدينة بومباي!

وأشرت إلى الجرسون مرة أخرى أن يأتي لي بالصحف التي صدرت في ذلك اليوم وحرصت بأدب واضح أن تكون باللغة الإنجليزية .ولا أعرف كيف استقبل الجرسون إشارتي إلى أن تكون هذه الصحف بالإنجليزية .لا أعرف كيف كان رد الفعل .خصوصًا بعد أن لاحظ الجرسون أنني لا أثق في ذكائه ..فأشار الجرسون بيده ورأسه بما يدل على أن هناك رجلًا مختصًّا ببيع الصحف..

وذهبت إلى البائع واشتريت الصحف، وقلبت فيها، ولم ألاحظ شيئًا يلفت النظر ..وربما الذي لفت نظري هو وجود صفحات أدبية ..ولاحظت أن هناك مناقشات تدور حول الأدب الأمريكي ..ورأيت صورة لكاتبة فرنسا الشابة -التي كانت شابة -فرانسواز ساجان ..ثم رأيت بعض النكت لبرنارد شو.

وهززت رأسي كأنني شعرت بالاطمئنان على أن الأدب العالمي بخير..

وخرجت من المطار لأتمشى في الشارع..

وهبت عواصف من الروائح العنيفة ..ورأيت على الأرض بقعًا من الدم وعندما أطلت النظر إليها لم تكن دمًا ..وإنما لونها أقرب إلى الدم البنفسجي قليلًا ..وهو اللون المعروف في الريف باسم »دم الغزال ..«ولم أشعر أنني في حاجة إلى أن أسأل أحدًا عن سبب وجود هذه البقع ..إنه نوع من اللبان يسمونه -بان -يمضغه الناس هنا ..ثم يبصقونه على الأرض، على عكس ما يفعله أبناء اليمن الذين يمضغون القات، ثم لا يبصقونه على الأرض، وإن كان هذا اللبان لا يصيب الناس هنا بالخمول، لأنه عبارة عن لبان نباتي ..فهو مجموعة من الأعشاب وثمار الأعشاب يصنعونها أو يلفونها في ورق، ثم يمضغونها ..وثمنها أغلى من ثمن اللبان الأمريكاني، وبائع اللبان يجلس على الأرض ..ومعظم الناس هنا أقرب إلى الأرض، وفي الليل تجد مئات الألوف نيامًا على الأرض ..دون أن يفصل بين أجسامهم وبين الأرض شوال أو سجادة أو حتى مخدة.

وبائع اللبان يبيعه في ورق شجر..

والناس كلهم يمضغون اللبان ..بائع اللبان وأستاذ الجامعة والوزير ..واللبان مفيد للأسنان، تمامًا كما نعتقد في الريف عندنا أن »اللبان الدكر «مفيد للحلق أو مزيل للبلغم ..واللبان يغذي الأسنان ويصبغها بلون وردي ..وربما استفادت شركات معجون الأسنان العالمية من هذا اللون الأحمر فوضعته في معجون الأسنان ..فمعجون الأسنان الفرنسي :إيماي ديامان لونه أحمر، وهو يصبغ اللثة بلون وردي .وكذلك معجون الأسنان الإنجليزي »سجنال «به مادة حمراء تشبه الأحمر الذي يضعه الهنود في هذا اللبان..

وربما كان الغريب في أمر اللبان الهندي هو أنه يشبه اللبان الدكر؛ لأنه معروض بصورة بدائية ..وفي الوقت نفسه بشكل خام، ومن الأفضل تصنيعه محليًّا.

ولكن الذي يدهشك هو كيف يبصق إنسان محترم على الأرض، ولا أعرف إن كان السبب هو شعوره بأنه لا يضيف إلى الأرض شيئًا بهذا البصق، فهي قذرة، وإن كانت هذه البصقات أشبه ببقع في لوحة سريالية قاتمة ..أو ربما كان السبب هو أن اللون الأحمر لا يخرج من المناديل مهما غسلوها .أذهلتني هذه الفكرة..

وكأنني توليت تعذيب نفسي في كل مرة أرى واحدًا يمضغ، فأظل طول الوقت أتوقع أن يبصق أمامي على الأرض!

وكثيرًا ما خاب أملي، فحمدت الله على أن أكثر من عشرين شخصًا لم يبصقوا أمامي على الأرض!

وبسرعة لاحظت أن الرجل الهندي رشيق .ممشوق القوام .وبين الهنود رجال طوال ..كالعمالقة ..ولاحظت أن بشرتهم مشدودة وإن كانت أميل إلى اللون الأصفر ..وهذا اللون خليط من الأصفر والأسود، ولمسة أزرق .أما الملامح فأوربية ..جرمانية ..الشفة رفيعة، والأنف دقيق، والعينان واسعتان، والفك انسيابي، والجبهة متوسطة، والشعر أسود فاحم ناعم ..كل الشعور سوداء فاحمة في لون الليل في الشتاء .والأسنان مستوية وناصعة البياض .ولا توجد أكراش ..كما أن أصابع اليدين رفيعة كأصابع عازفي البيانو..

ولكن أول ما يلقاك من الهنود هو رائحة غريبة يضعونها في الشعر، وهي مستخلصة من جوز الهند.

أما السيدات فهن أميل إلى السمنة ..وخصوصًا الأرداف ..وتضع كل واحدة نقطة حمراء في أسفل الجبهة ..تدل على أنها متزوجة .وشعرها أسود جدًّا تحسدها عليه كل نساء أوربا وأمريكا ..ووجهها مستدير ..وشفتا المرأة أميل إلى الامتلاء ..وعنقها مسحوب ..وأذناها صغيرتان ..والمرأة الهندية يجب أن تستر كتفيها وساقيها ..أما ما عدا ذلك فليس عورة .فهي مثلًا تكشف بطنها كلها ..كل الوسط وأسفل النهدين، وأعلى العجز .وسرتها تبدو واضحة تحت الساري الهندي الذي هو قطعة واحدة من القماش الحريري ..قطعة واحدة ولا نعرف كيف تلفها حول نفسها ..الهنديات خارج الهند يراعين التقاليد طبعًا، فيخفين هذا الجانب من الجسم .ولذلك لا يمكن أن نرى هندية واحدة في شوارع القاهرة وقد عرت هذه الشقة الحرام من جسمها ..وإلا كانت فضيحة!

وهذه المنطقة من الهند ممنوع فيها شرب الخمور منعًا باتًّا ..لا على الأرض ولا في الطائرات ولا في السفن القريبة من الميناء ..ومسموح فقط للأجانب وبترخيص خاص، وفي الفنادق فقط .أما في الأماكن العامة فمستحيل .وعندما تهبط من الطائرة يسألك رجال الجمارك إن كانت معك خمور .فإذا كنت هنديًّا احتجزوا الخمور ..أما إذا كنت أجنبيًّا، فيسمح لك عادة بأخذ زجاجات الخمور معك!

وقد لاحظت منظرًا غريبًا وأنا مسافر في الطائرات الهندية إلى نيودلهي ..لقد ارتفعت الطائرة إلى طبقة عالية من الجو .وشعرت بالبرودة الشديدة جدًّا وطلبت من المضيف -فقد كان رجلًا لأن الدنيا ليل- أن ينقذني ببطانية ..ثم ببطانية أخرى ..ولكن هذه الأغطية لم ترحمني من الهواء البارد الذي يتسلل إلى قدمي من أرضية الطائرة وجوانبها وسقفها .وطلبت من المضيف الرجل أن يلحقني بأي كوب شاي ساخن جدًّا .وأي إسبرين إن أمكن .وغاب ليعود معه كوب من مشروب بارد جدًّا لا أعرف طعمه ..وربما كان من المشروبات الغازية مثل الكوكا أو السيدر أو غيرهما ..وعدت أطلب إليه كوبًا من أي شراب ساخن ..حتى من الماء الساخن ..ويبدو أن

الساعة كانت متأخرة، وأننا على موعد مع الفجر ..ولا أعرف إن كانت الديوك تؤذن في الهند ..أو أن الفيلة هي التي ترفع زلاليمها، ابتهاجًا بقدوم الفجر ..ولكن الرجل لم يعد ..أو لعله انشغل عني بشيء ما.

وأشار جاري بأن آخذ لي »بُقًّا «من هذه الزجاجة التي في يده وكان تحت الغطاء والدم يضرب في عينيه وفي وجهه، وأنفاسه اللاهثة تتعالى، وزجاجة الخمر تكاد تسقط من يده ..ولكني رفضت أن أرتكب هذه المخالفة لقانون البلاد، أيًّا كانت الأسباب .وحتى لو فكرت في أن أخالف القانون، فليس بهذه الصورة، ولا بهذه الزجاجة ..ولا يمكن أن يكون فمي هو الثاني، وفم هذا الرجل المخمور هو الفم الأول.

وعندما اقترب المضيف منا، سحب جاري زجاجته، وأخفاها تحت الغطاء وتعالى شخيره ..واعتقد أن المضيف قد يعرف هذه الحيلة ..لأنه رآها كثيرًا .فلم يشأ أن يهتم ..وأشار برأسه أنه هو شخصيًّا لا مانع عنده من أن أدفئ نفسي بجرعة من هذه الزجاجة، وأنه سيبعد عنا وبذلك يتستر علينا .وناولني كوبًا من الشاي الساخن..

وكل ما أحسست به هو حرارة الكوب، وحرارة السائل الذي في داخله ..أما طعمه فأنا لا أعرفه، ولم أتبينه بوضوح..

وبعد ساعات من الطيران المؤلم اكتشفت أن جاري قد ألقى بالزجاجة تحت قدميه ..لقد أفرغها على الأرض بشيء من الامتنان، فقد كانت الزجاجة صاحبة الفضل الأول والأخير في أنه اشتعل بالدفء، وفي أنه نام ..وفي أن نومه كان شخيرًا عاليًا، فأطار النوم من عيني ومن عيون أناس آخرين إلى جوارنا!

وفي ضوء النهار الذي تسلل إلينا من فوق السحاب .ومن تحت السحاب، رأيت وجوه الناس بوضوح ..لقد كان معظمهم من الهنود ..وإن كان الرجل الجالس إلى جواري فاتح اللون ..فهو رجل إسباني ..مع أن ملامحه لا تفترق عن الهنود في شيء..

وقد بادرني هذا الرجل بالكلام.

وكنت ألمح من النافذة المساحات الواسعة جدًّا للأراضي الهندية ..لونها أميل إلى الحمرة ..تمامًا كلون قرع العسل ..أو في لون المانجو الهندي .والمساحات الخضراء واسعة ولونها قاتم ..ولم أستطع أن أتبين نوع النبات المزروع في التربة..

وعرفت من الرجل الإسباني أنه سينزل في فندق اسمه »فونسيكا «وسألته إن كان لهذا الاختيار أي سبب واضح فأجاب بأنه يعرف هذا الفندق، وأنه يتردد كثيرًا على الهند.

وعرف أنني مصري فهز رأسه وهو يقول لي :مصر والهند ..مهد الحضارة الإنسانية ..فأنت لن تشعر بالغربة في هذه البلاد.

وعرفت فيما بعد أنه كان محقًّا في آرائه عن الهند.

فهم أناس طيبون جدًّا، وفي غاية الهدوء .وحبهم للسلام قائم على شعور عميق .وكراهية الهنود لإسالة الدماء تنبع من أعمق أديانهم وتاريخهم ..فالزهد هو العنصر المشترك في كل الديانات الهندية.

ففي الهند أناس لا يأكلون اللحوم، ولا المواد المستخرجة من الحيوانات فلا يشربون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا الجبن، ولا يأكلون البيض، ولا السمك، ولا يذبحون الأبقار ..لأن البقرة مقدسة، وهي رمز الحياة والخصوبة .وهي حيوان سعيد في الهند .وسعادة البقرة واضحة في دلالها ودلعها وتمخطرها في الشوارع ..في أحسن الشوارع ..وفي دخولها أحسن المحلات دون أن يمسها أي إنسان..

أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة، وابنته بقرة أيضًا، إلا أنه ليس محترمًا، وتنطبق عليه أقسى القوانين والعقوبات .فهو منبوذ ..وفي الهند فئة من المنبوذين عددها حوالي 60مليون نسمة ..ولا أعرف بالضبط عدد الثيران .ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجر العربات ويحرث الأرض ويضربه الفلاحون على قفاه ليل نهار .واليد التي تضربه على قفاه، هي اليد نفسها التي ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيدته!

ولم ألاحظ أن هناك أية تفرقة جنسية عند الهنود غير هذه التفرقة بين الثور والبقرة!

وظلت كلمات هذا الرجل الإسباني ترن في أذني وقتًا طويلًا، وربما كان سبب التصاق كلماته في أذني أنه قالها بلهجة أعجبتني .أو أنه قالها في لحظة كنت أتهيأ فيها عقليًا لفهم الحياة في الهند ..وإن كنت أخالفه في رأيه في أن الهنود إذا تقاتلوا فلا حدود لهذه المعركة.

لم أعرف بالضبط ما الذي يقصده، ولا أي أنواع الهنود، فأنا لم أر شجارًا في الهند، لم أر اثنين قد أمسك واحد منهما في خناق الآخر لأتفه الأسباب كما يحدث في إسبانيا وإيطاليا واليونان وتركيا، ومصر!

ورويت لهذا الإسباني ما الذي أصابني عندما زرت إسبانيا، وكيف أنني لأسباب تافهة جدًا، وجدتني في خناقة دامية مع إحدى بائعات الفاكهة في مدينة مدريد ..مع أنني لم أتجاوز حدود الأدب، إلا إذا كنت قد نسيت أن أقول لسيدة غجرية تبيع التفاح بالواحدة يا صاحبة العصمة!

وتشاء الصدفة أن يكون فندق »فونسيكا «هذا قريبًا من سفارتنا بنيودلهي ..وصاحب هذا الفندق رجل برتغالي، والبرتغال كانت لها مستعمرة صغيرة على الشاطئ الغربي للهند اسمها »جوا«، وكلها من الهنود ولكنها نقطة ارتكاز قديمة جدًا للبرتغاليين عندما رست سفنهم من مئات السنين على ساحل الهند؛ وقد استردت الهند هذه المستعمرة بعد ذلك..

وكل موظفي هذا الفندق من أبناء »جوا «أيضًا..

ولهم طريقة خاصة في الكلام .ولسبب غير واضح يفخرون بأنهم من هذه المستعمرة الصغيرة.

وفي هذا الفندق عدد كبير من الأوربيين .ومن الغريب أنني وجدت معظمهم من أبناء السويد والنرويج، ولا أعرف ما الذي يبيعونه إلى الهند، ربما كان الورق والحديد والصلب.

وقد أعجبني هذا الفندق، ففيه مطعم أوربي وفيه أيضًا أطعمة أوربية .وهم يحرصون على أن يقدموا الطعام الأوربي .فمثلًا يقدمون الشوربة الساخنة، مع أن الجو نار والعة .وهم حريصون على أن يقدموا المسطردة .والمسطردة والعة نار أيضًا.

والهنود يأكلون أطعمة حريفة ..حراقة ..وهم يضعون هذه الشطة أو هذا الفلفل على كل طعام وشراب .بل لاحظت أنهم يضعون ذلك على الحلويات .على السكر مثلًا .وعلى الجاتوه الذي يقدمونه مع الشاي .وهذه ظاهرة موجودة في كل البلاد الحارة .فعلى الرغم من أن الشمس تتولى وضع الشطة في كل شعاع، وفي كل حجر وفي كل نسمة هواء إلا أن أهالي البلاد الحارة لا يكتفون بهذا القدر من الشطة الشمسية فيضيفون هذه الشطة النباتية.

ربما كان السبب هو أن حرارة الجو تؤدي إلى كسل في الكبد .وإلى خمول في الجسم، فيحس أبناء البلاد الحارة بانسداد أنفسهم عن الطعام.وربما كان عدم الإقبال على الطعام الذي سببه الجو، هو الذي دفعهم مع ذلك إلى الزهد، فالزهد والتقشف ليسا شيئًا صعبًا وليسا شيئًا غير طبيعي .وإنما هو حالة تمليها الضرورة؛ فالزهد يتمشى مع انسداد نفوس الناس عن الأكل والشراب؛ فهم لا يريدون أن يجعلوا تقشفهم بلا ثمن ..بلا مقابل ..ولذلك يجعلون للإضراب عن الطعام معنى دينيًا ربما يجازيهم الله عليه!

واشتهار هذه المناطق الحارة بالشطة والفلفل وكل التوابل هو الذي استدرج الأوربيين إليهم .وجعلهم يخوضون حروبًا دامية من أجل الحصول على التوابل، حتى كانت التوابل تساوي وزنها ذهبًا.

وغرف هذا الفندق مقفلة ليلًا ونهارًا .وطبعًا كل فندق أيضًا تفاديًا للحرارة والذباب والبعوض .وفي الهند وحدها مئات الأصناف من البعوض وفيها كل أمراض البعوض والذباب وفيها كل حشرة خلقها الله، لها أصل وفصل ومعجبون وضحايا ..ثم علماء يدرسون ويسجلون حركاتها .وفي الهند مراكز للأبحاث لها سمعة عالمية..

وفي الغرفة -غرفتي طبعًا -يوجد جهاز تكييف ..أو على الأصح جهاز تبريد هوائي .وهو يجعل درجة حرارة الغرفة باردة .ولكن يسمح في الوقت نفسه بدخول الرطوبة .ولأن هواء الغرفة بارد طول الوقت كنت أحتاج إلى كثير من أكواب الشاي .ومع أكواب الشاي يدخل البسكويت والمربى والبيض واللبن والزبدة والجبن، ونظرات لا أنساها من عيون الجرسونات ..فيها الكثير من النقد وفيها الكثير من الإشفاق .وفيها أكثر من ذلك :خوف من هذا المتوحش الذي يأكل كل هذه الممنوعات دون أن تنطبق السماء على الأرض .أين عدالة السماء؟ أين رحمة الأبقار؟ أين غضب الآلهة؟ كيف تسكت على أجنبي مثلي يأكل البيض ولا تنهد الدنيا، ويشرب اللبن ولا تزحف مياه المحيط فتغرق الهند من أجل هذه الخطيئة التي يرتكبها بنظام :ثلاث مرات في اليوم!

وبشعور من يريد أن يؤكد لهذا الجرسون المسكين أن هذه ليست مخالفات لقانون السماء، كنت آكل البيض وأشرب اللبن في حضوره، فلا السماء وقعت، ولا هو اقتنع!

ولا أدعي أبدًا أن شجاعتي قد لازمتني طول الوقت ..أبدًا .لقد تخلت عني منذ نزلت أرض بومباي .لقد دخل جسمي الكثير من المخاوف، لقد أصبحت أنا الخوف نفسه ..الخوف من ماذا؟ لا أعرف .الخوف من أن أصاب بأي مرض؟ لا أعرف ..أي الأمراض؟ إنني خائف بصفة عامة.

وعلى الرغم من أن المستشار الصحفي في سفارة الهند في القاهرة قد أفهمني أنه لا داعي للخوف فهذا الخوف إهانة له ..وإهانة لخمسمائة من ملايين الهنود يعيشون في سلام ومعظمهم لا يعرف المرض..

ولكن رغبتي في أن أعرف، هي التي تغلبت على خوفي، فأنا أريد أن أعرف بأي ثمن ..أريد أن أمشي في شوارع الهند وحواريها ..وأن ألمس أبقارها وأن أملأ أنفي ببخور معابدها ..ما الذي يمكن أن يحدث؟ لا شيء!

إن الدكتور فاوست الذي تحدثت عنه أساطير العصور الوسطى باع نصف عمره لكي يعرف..

إن حواء هبطت من السماء إلى الأرض ..وضحت بالسماء وجنة السماء، لأنها أرادت أن تعرف ..أن تعرف طعم التفاحة أو طعم المعصية فقررت أن تعرف فكأنها اختارت المعرفة، بأي ثمن .لو كان ذلك هو النزول إلى الأرض .وكانت تلك الأرض هي الهند!

إنني لا أبالغ في قيمة ما سأعرفه..

ولكن الذي جعلني أبالغ هو خوفي الشديد من كل مرض .وسبب خوفي هو أنني أجهل الطب .وسبب خوفي أيضًا أن الأمراض قد لازمت حياتي .ولا أقول لازمت جسمي .فقد رأيت المرض في بيتنا ..لم يبرحه ..وحتى الآن ..وقد رأيت الأطباء يدخلون ويخرجون ..يدخلون وجيوبنا ملأى، ويخرجون وجيوبنا فارغة .وجيوبهم ليست ملأى أيضًا .فالذي كان يملأ جيوبنا الصغيرة لا يمثل إلا ركنًا هزيلًا من جيوبهم الكبيرة!

وعندما ذهبت إلى سفارتنا، جلست إلى شاب لطيف من موظفي السفارة وراح يحدثني عن حياته في الهند ثم كشف لي عن عنقه ..لقد كان ملتهبًا .وقبل أن يغطي عنقه مرة أخرى أشار إلى أن عنقه ملتهب منذ أربع سنوات ..وعندما غصت في مقعدي وأسأله عن السبب أجاب بأن مياه الهند مليئة بالطفيليات .وأن الأرض تختلط بالمستنقعات والمجاري وأنه لا يمكن لإنسان أن يشرب الماء في الهند إلا إذا كان مغليًّا ..ولا أن يستحم طبعًا!

وهنا تأكد لي جهلي الشديد بطرق غلي المياه وتطهيرها .ومررت على كل موظفي السفارة أسألهم ما الذي يفعلونه كل صباح .كيف يشربون؟ كيف يغسلون وجوههم وأجسامهم؟ وإن كانت الإصابة بمثل هذا المرض الجلدي تظهر بعد أيام أو بعد أسابيع أو بعد سنوات ..ثم كيف تكون الوقاية منه؟ وكيف يكون العلاج إذا لم تنفع الوقاية؟

وأتيت بزجاجات الكولونيا ..وزجاجات الكحول ..تمامًا كما كنت أفعل في باريس.

فالفندق الذي نزلت به في باريس في الحي اللاتيني كان اسمه »نيودلهي «أيضًا !وهو بالقرب من ميدان سان ميشيل .وليس بهذا الفندق دش ولا حمام ..ومعظم الفنادق والبيوت في باريس ليست بها حمامات .وإنما عليك أن تحمل ملابسك وتستحم في أحد الحمامات العمومية .والحمام العمومي يبعد عن اللوكاندة مئات الأمتار ..أو إذا كنت كسولًا، ولا بد أنك كذلك، ما دمت في بلاد حارة وذهبت إلى باريس في الربيع أو في الصيف فعليك بزجاجات الكولونيا ..والزجاجة كان ثمنها عشرة قروش .ثم هات قطعة من الإسفنج وبللها ..وامسح جسمك كله ..كل يوم .وعلى فكرة معظم رجال ونساء باريس لا يعرفون الماء .ويقال إن هذا هو الشيء الوحيد الذي تعلمه محمد عبدالوهاب من فرنسا لأنه يستخدم الكولونيا في الاستحمام!

ونصحني بعض الأصدقاء من غير الهنود طبعًا، أن ألقي بالكحول على جسمي بعد الاستحمام بالماء الساخن .ونصحوني أيضًا بأن أحلق لحيتي بعد الحمام حتى لا تتسرب الطفيليات إلى دمي، خصوصًا أن دمي يسيل بعد كل مرة أحلق فيها .وهنا أدركت أن إطالة اللحية في الهند حكمة طبية ..فهم يهربون من الطفيليات الموجودة في الماء بأن يتركوا شعرهم يطول ولا يسيلون دماءهم بأمواس الحلاقة .بعض الهنود فقط من طائفة السيخ هم الذين يفعلون ذلك .وعددهم حوالي مائة مليون نسمة .ثم يضع هؤلاء السيخ سيفًا صغيرًا إلى جوار اللحية دليلًا على أنه ليس بسبب البخل أطالوا لحاهم .والدليل على ذلك أنهم وضعوا آلة الحلاقة إلى جوار الشعور الملفوفة في شبكة تشبه الشبكة التي تضعها المرأة عندنا، قبل ذهابها إلى الحلاق، أو إذا كانت على البلاج وتخشى من الهواء، هذا إذا كان شعرها ناعمًا .أما إذا كان خشنًا،فهذه الخشونة تجعله في مأمن من الهواء طبعًا!

ونصحني آخرون بأن أطيل لحيتي ..وإطالة اللحية في الهند شيء غير لافت .وربما ظن بعض الناس أنني مجامل للهنود .أو أنني توطنت ..تمامًا كما يفعل المستشرقون الذين يزورون البلاد العربية ..أو كما يفعل الفنانون في باريس!

وأطلقت لحيتي أسبوعًا .وبدأت أشعر بالوخز تحت الشعر .وخشيت أن أهرش .وتفاديت الهرش بالفعل لأن الهرش سيؤدي إلى ظهور دمامل .وأخشى أن تلتهب الدمامل وبذلك تصبح أكثر تعرضًا لأي مرض جلدي .وبإرادة من حديد، لم أهرش مطلقًا .ولكن في يوم ضبطت نفسي متلبسًا بالهرش في أثناء النوم !وحلقت لحيتي بالمقص .ثم بالموس..

وبعد ذلك كنت أستخدم الكولونيا، فكانت تلسعني وتكويني كأنها مليون موس حلاقة ..وكأن هذه الأمواس جميعًا نوع من ماء النار المتجمد!

ولاحظت في الصحف الهندية أنه لا يوجد إعلان واحد عن أمواس الحلاقة .وهذا طبيعي .ولم ألاحظ أيضًا أي إعلان عن صابون الحلاقة .واستنتجت من ذلك أن هناك أمواسًا أخرى يصنعونها في البيوت .وأن هناك نوعًا من الصابون يصنعونه في البيوت .أو ربما كانوا يلجئون إلى استخدام بودرة نباتية .تزيل شعر الوجه واللحية والشارب أحيانًا ..ووجدت هذا النوع من البودرة .وخوفي من الجروح ومن أمواس الحلاقة ومن الطفيليات، جعلني أفكر في استخدام هذه البودرة .ولولا أنني خشيت في آخر لحظة أن تكون لهذه البودرة آثار مؤذية لا أعرفها لاستعملتها!

وفي يوم جلست بغرفتي المخنوقة..

ولا بد أن أصف شكل الغرفة لتعرف كيف جلست .الغرفة بها سرير -طبعًا بها سرير -والسرير بالضبط تحت جهاز التكييف .ولو نمت والجهاز مفتوح فسأقوم من النوم وأنا لوح ثلج .ومعنى ذلك أنني لن أقوم .وإذا أقفلت جهاز التكييف ونمت فمعنى ذلك أنني سأقوم من النوم مسلوقًا، أي غارقًا في شوربة من العرق.

وكان الحل هو أن أغير وضع السرير.

وغيرت وضع السرير والمقاعد والمناضد والأباجورة.

على كل حال جلست أمام المنضدة في نفس الوضع السابق..

ووجدت أن عواصف من جهاز التكييف تلسعني في جنبي ..فأدرت المنضدة والمقعد إلى وضع آخر ..وضغطت على الجرس ..وبعد دقائق جاء الخادم لأطلب منه أن يعاونني على إصلاح جهاز التكييف وأن يقفل الحنفية التي ينزل منها الماء بصورة تضايقني وأن يربط مفتاح النور لأني أخشى أن تؤدي هذه الرعشة الموجودة في اللمبات إلى عمل ماس وإحراق الغرفة وتعطيل جهاز التكييف.

وبدون أن يقول لا أو نعم أو حاضر أو ربما أو حتى يهز رأسه ضرب الباب وراءه واختفى.

وبعد دقائق جاء نفس الجرسون ومعه ثمانية أشخاص .واستوضحته عن سبب مجيء كل هؤلاء الأشخاص؛ فقال لي إنهم سيصلحون كل ما في الغرفة :واحد لإصلاح التكييف والثاني لإصلاح النور والثالث لإصلاح الحنفية والرابع لإصلاح المقعد الذي أجلس عليه فقد شكا منه زبون سابق ونسيت إدارة الفندق أن تصلحه ..أما الخامس الذي جاء بعد ذلك فهو يريد مجموعة من طوابع بريد مصر !أما السادس فهو أحد سعاة السفارة ..والسابع هو سائق التاكسي الذي نسيت أن أدفع له الأجرة ..والثامن الذي جاء بعد ذلك هو صاحب التاكسي جاء يسألني كم دفعت للسائق لأن العداد كان مكسورًا!

وهذا هو أول استقبال رسمي قابلتني به نيودلهي عاصمة الهند العظيمة بسكانها الذين يبلغ عددهم 490مليونًا وبضع مئات من الألوف!

* * *

باسم الله..

سأدعوك إلى مطعم »موتي محل «أشهر المطاعم الشعبية في الهند ..المطعم صغير ..وعلى بابه يقف أحد الهنود في درجة حرارة تشبه درجة حرارة أسوان في الصيف ..ووراء باب المطعم توجد درجة حرارة أقل من ذلك بثلاثين درجة مئوية .عدد المناضد قليل .الإقبال شديد جدًّا على هذا المطعم.

لا تحاول أن تقرأ قائمة الطعام ..فغيرك أشطر .ضع إصبعك على أي شيء واطلبه من الجرسون.

أنت لا تعرف ما الذي ستأكله ..كثيرون مثلك حاولوا وفشلوا ..سيأتي لك »الجرسون «بأكواب من الماء، نصف باردة؛ فهم في الهند لا يشربون الماء المثلج .إنهم يواجهون الحرارة القاتلة بشرب الشاي ..والشاي فيه سكر قليل ..وهو طبعًا أحسن من أي شاي تشربه في القاهرة في أي مكان .شاي له ورق وله طعم ولون ورائحة ..ما علينا!

وبعد الماء ستحضر السلطة .أشكال وألوان .كثيرون من الأجانب عندهم حب استطلاع شديد .أكلوا من كل شيء ..وفي نهاية كل صنف ينفخون من النار ..من الشطة يعني!

هناك أرز به قطع من الفراخ ..لا بأس.

وهناك مكرونة بها أشياء، أغلب الظن أنها جبنة ومعها بعض الطماطم .وطعم آخر لا يمكن أن تعرفه ..ومن الصعب عليك أن تعرفه ..لأن كل ما تستطيع أن تقوله للجرسون :إيه الرائحة دي؟!

لا داعي فقد تكون هذه هي رائحة الجرسون نفسه .ويصبح سؤالك بائخًا جدًّا .ولكن بعد التجربة والرمرمة في الأكل، وجدت أن أحسن طعام هناك هو »التندوري «وهذه هي الكلمة الهندية الوحيدة التي عرفتها بعد ساعة من وصولي إلى المدينة، إنها فرخة كاملة ..فرخة شكلها غريب .مصبوغة باللون الأحمر، أحمر فاقع ..لقد غمسوها في هذا اللون 24ساعة .والفرخة مشدودة ممطوطة ..جناحاها طويلان ورجلاها طويلتان .وعلى ظهرها أثر كدمات .أو آثار ضرب عنيف ..هكذا تصورت ..فقد وجدت هذه الفرخة المشوية بها علامات عميقة في جسمها .وتخيلت أنهم في الهند ينطلقون وراء الفراخ ويضربونها حتى تموت ثم يرمونها في اللون الأحمر .وبعد ذلك ينقلونها إلى النار، ثم إليك!

ولكن الأمر مختلف عن ذلك .فهي فرخة عادية .ذبحوها، ثم صنعوا بها هذه العلامات العميقة في جسمها .بعد أن سلخوها تمامًا كالأرانب .وهذه العلامات تسهل عملية وصول النار إلى جسم الفرخة، ثم وضعوا فيها بعض الفلفل أو بعض الشطة .قليلًا جدًّا.

أما فيما عدا هذه الفرخة فلا يوجد طعام يستحق الذكر في الهند كلها ..هذه الفرخة هي العلامة المميزة للمطبخ الهندي.

نسيت أن أقول لك إنه لا داعي لاستخدام الشوكة والسكين ..بيدك أحسن وأسهل ..ولست وحدك الذي يفعل ذلك ..فكل الناس حولك يأكلون بهذه الطريقة .ومع هذه الفرخة يقدمون لك نوعًا من الخبز يشبه الرقاق وهو على هيئة أوراق الشجر الكبيرة .واسم هذا الخبز »بان «وطعمه لذيذ.

وبعد ذلك اطلب أي فاكهة طازجة ..فهذا أفضل وأحسن ..المانجو هنا ثمن الرطل منها يساوي قرشين أو أقل من ذلك .فهي أرخص وأكثر أنواع الفاكهة هنا.

بقي شيء مهم .انتظر سيقدم لك الجرسون مجموعة من الحبوب والحجارة، مد يدك إليها، لا تخف .إنها مجموعة من الينسون والحبهان والمستكة وقطع من سكر النبات ..ونباتات أخرى لم أعرفها حتى الآن ولكن سأسأل عنها فيما بعد .تستطيع أن تضع منها ما تشاء في فمك .يقولون إنها تساعد على الهضم..

وأنت حر في أن تأخذ هذه الأعشاب المهضمة هنا في المطعم أو أمامه ..فأمام المطعم يجلس رجل يبيع اللبان، نوعًا ممتازًا من اللبان .هذا اللبان عبارة عن خليط كبير من أعشاب وأملاح ونباتات وبهارات ..تصل إلى العشرين ..ويضعها لك في ورقة شجر .وعليك بعد ذلك أن تمضغها .سيكون لونها أحمر ..سيمتلئ فمك .سوف تحرك شفتيك كالجمل تمامًا ..تمضغ وتنفخ .وإذا ظهر شيء من بين أسنانك أو نزل على شفتيك فلا تمسحه .فالناس حولك كذلك ..انظر إلى نفسك في المرآة عندما تعود إلى البيت .لا تخف من نفسك ستبدو كأنك أكلت إنسانًا بدمه ..وفي استطاعتك أن تبصق على الأرض وأمام الناس .وإذا رفعت رأسك إلى أعلى بحركة عصبية وظن الناس أنك محافظ العاصمة فلا تكذبهم ..فهو يفعل مثلك تمامًا!

وستكتشف أن اللبان ليس أكلة شعبية ..أبدًا، فثمنه غال ..يصل إلى روبية .والروبية ثمنها حوالي سبعة قروش...

والناس هنا يجدون متعة في مشاهدة بائع »اللبان «وهو »يحوج «هذه المضغة ويختار لها الألوان البيضاء والحمراء والصفراء والسوداء ..وكلما تأخر البائع في عملية الخلط كان معنى ذلك اهتمامًا خاصًّا بالزبون..

وإذا لم يكن يعجبك هذا »اللبان «الهندي فإليك أي لبان آخر لا قيمة له كاللبان الأمريكاني أو اليوناني ..وعليك أن تواجه احتقار الناس إذ كيف تبلغ بك الغباوة هذه الدرجة فتتصور أن هناك في الدنيا لبانًا أحسن من اللبان الهندي؟!

وعلى فكرة، أنت طبعًا أعجبك الأكل ..إنه لذيذ وغريب ..وهو أكل أرستقراطي ..بقي شيء أهم من هذا كله، ويؤسفني أن أقوله لك .ولكن الصراحة لا عيب فيها ..عليك أن تضع يدك في جيبك وتدفع حسابك ..فنحن في الهند ..ويجب أن تفعل كما يفعل أهل الهند ..فلا أحد هنا يدعوأحدًا إلى الغداء أو العشاء..

فادفع الحساب لنفسك!

مرة أخرى..

وهذا منظر آخر :محل جايلورد في نيودلهي ..المحل ضيق والأضواء خافتة وفيه تكييف هواء ..وتدخله أحسن العائلات..

الزمن :الساعة الخامسة بعد الظهر .الأمطار شديدة جدًّا ..والحرارة مرتفعة خانقة..

في اللحظة التي أدخل فيها المحل ..أرى فتاة تبتسم وأحييها فترد التحية .وأفسح لها الطريق فتتقدمني.

وأشير إلى أحد المقاعد ..فتجلس..

ويجيء الجرسون فأسألها ماذا تريدين فتهز رأسها ..فأقول للجرسون :تعال بعد شوية..

وأقترب منها قليلًا دون أن أسألها عن شيء..

أنا :تعرفي إن ملامحك شرقية خالص ..مش كده!

هي... :

أنا :طبعًا إنت شرقية، أمال يعني هي الهند دي غربية؟ أما سؤال بايخ صحيح.

هي... :

أنا :تعرفي إن البنات في بلدنا لما الواحد يعاكسهم يعملوا زيك كده ..برضه ما يردوش؟

هي... :

أنا :قال إيه دلال ..وقال إيه تقل ..على كل حال بعض الرجالة بيحبوا الدلال ده .لأن هذا يغري الراجل أكثر ..يخليه يحس إنه أمام حاجة صعبة ..وإنه لازم يعمل مجهود كبير علشان يكسبها ..يخطفها ..لأن الراجل بطبعه صياد يحب يمسك بندقية ويضرب .ويحب يخطف البنت من أنياب الأسد، ويمكن مفيش هناك لا أسد ولا أرنب ..والبنت عارفة الحكاية دي ..تلاقيها هي كمان تسوق فيها ..مش بس كده .وأول ما تعرف إن الرجل متعلق بيها .تقول له :فلان خطبني ..وفلان بيتكلم ..وفلان بيتقدم .يعني هي عاوزة تخلق له أكثر من أسد وتحط نفسها بين أنيابهم .وعليه هو بقى أن يشدها من هذه الأنياب الوهمية ..إشمعنى العرسان والخطاب ما ظهروش إلا دلوقت؟ كانوا فين قبل كده؟ المهم إن البنت عاوزه تخلق صعوبات للراجل ..وأكثر من كده ..تروح تكلمه عن أهلها وأصلها وعن أخلاقها .وتحط نفسها فوق فوق ..يعني فوق جبل علشان يحفى وراها ..يطلع لها الجبل كمان ..برضه مش عاوزة تردِّي؟ زي بعضه ..أنا حافرض إنك مش موجودة .وأكلم نفسي .أنا عاجبني الكلام ..الله يا واد إيه الحكم وإيه الكلام اللي زي الجواهر اللي بتنزل من بقك؟ برضه مش عاوزة تضحكي؟

هي... :

أنا :وفيه حاجة بتعملها المرأة ..تتظاهر بأنها خلاص وقعت في دباديب الراجل ..ويشعر الرجل بأن المرأة تخلت عن دلالها وتقلها .وأنها لم تستطع أن تقاومه ..وينبسط وكرشه يكبر .ويقول يا واد مفيش منك .طبعًا الرجل حمار لأنه مش فاهم إيه الحكاية ..ولو كان الراجل ياخد باله من الصياد لما ييجي يضرب بالرصاص يلاحظ أن الرصاصة عندما تخرج من البندقية أحيانًا تكون شديدة لدرجة أنها تخليه يقع على الأرض .ولكن في الوقت نفسه تكون الرصاصة قد أصابت الفريسة ..فاللي يشوف الصياد وهو واقع يتهيأ له أن الرصاصة جات فيه هو ..في حين أنه هو القاتل ..وكذلك المرأة اللي يشوفها واقعة ومستسلمة كده .يتهيأ له إنها هي القتيل مع أنها القاتلة .برضه كلامي مالوش معنى .طيب جامليني ..قولي كده حاجة تدل على إن إحنا قاعدين مع بعض ..بيني وبينك أنتم أكثر منا كلامًا ..أنا لم أجد هنا في بيت واحد عندكم راديو ولا حتى في سيارة ولا في مكتبة ..وعرفت الحقيقة وهي أن الهنود كل واحد قد بلع الراديو اللي عنده ..فالراديو اختفى من البيت وظهر على ألسنتهم ..علشان كده كلامكم كثير ..بايخة النكتة دي؟

هي... :

أنا :طيب اضحكي ..اجبري بخاطري ..إنتم كده وحشين مع الأجانب ..برضه مش حتتكلمي ..هزي راسك زي أنا ما عملت للجرسون ..اغمزي بعينك ..طيب اعطسي .طيب خدي نفسك، انفخي بمناخيرك زي كلب البحر .على فكرة إحنا عندنا أكبر جنينة حيوانات في الدنيا ..وفيها حيوان زيك ..ساكت زيك ..بلاش حكاية الحيوانات دي..

هي... :

أنا :يعني عاوزة تفهميني أن الهنود مع الأجانب بالشكل ده؟!

هي... :

»ويجيء الجرسون يسأل ماذا نريد.«

أنا :اتنين حاجة ساقعة ..دا حتى انتم أخذتم البرود من الإنجليز مع إن بلادكم نار في نار ..الهواء نار ..والشمس جهنم ..والأرض والعة ..والشطة والعرق والرطوبة ..حاجات تخلي الواحد يتجنن ..أنا كنت أفهم إن لما واحد ييجي يعاكسك زيي ..طبعًا دي مش معاكسة ولا حاجة كنت تيجي واخداه..

هي... :

أنا :بالحضن على طول ..برضه مش عاوزة تضحكي !خايفة من الناس ..إنت عارفة كام واحد شايفك دلوقت؟ مائة واحد ..كلهم بيقولوا عليك كلامًا لا يعجبك .كلهم بيقولوا إيه البنت البايخة دي ..إيه الحجر ده ..إيه البقر ده ..مش عاجبك ده سيبيه ..قولي له يسكت ..إنما على رأي المثل :لا أنا عاوزك، ولا قادر على بعدك ..إنت مكسوفة مني؟

هي) :ضحكت وهي تنظر إلى ناحية من المطعم...(

أنا) :نظرت فوجدت رجلًا بكرش ومعه فتاة صغيرة (اسمعي إنت عارفة أنا قابلت كم راجل في بلدكم دي ..مئات من الوزراء والسياسيين والصحفيين والأدباء والرهبان والسواقين ..ولم يضايقني إلا رجال السلك الدبلوماسي ..قعدتهم تقرف ..تصوري إنت إنك قاعدة مع راجل طول الوقت يقول لك :ربما .قد يكون .فيما أعتقد ..من المحتمل ..من المفروض ..كلام بالشكل ده ..يقرف ولا لأ ..طبعًا يقرف .وأنا لما أشوف واحدة زيك وأرمي نفسي عليها كده ..من غلبي .وحياتك من غلبي كل الكلام ده .ويعني كويس كده إني أتكلم طول الوقت وإنت ساكتة ..برضه من غلبي .والله، ماشفت واحدة حلوة من نهار ما جيت البلد دي.

هي... :

أنا :يا نايمين قوموا اسحروا ..يا نايم وحد الدايم ..يا نايمة نامت عليكي حيطة .يابت ردي ..يابت انطقي ..نشفت ريقي الله ينشف ريقك في البلد اللي غرقانة مطر وطين دي..

هي... :

أنا :شوفي بقى ..أنا حاغني لك بشويش ..مش عاوزة تسمعي أغاني بلدنا .والله فيه شبه كبير من أغانيكم ..أقول لك إيه ..أقول لك :عطشان يا صبايا ..أقول لك النحل يا هوه ..أقول لك واحد اتنين ..خمسة في ستة بتلاتين يوم ..اسمعي أغنية يقولها الناس في الفلاحين عندنا :يا عم جوزة من الهند متركب عليها غاب .ومدندشة بالدهب ومجمعة الأحباب ..أنا خدت منها نفس والعقل مني غاب ..يا عم جوزة من الهند ..الله الله ..يا سلام ياواد ياسلام ..اسمحي لي أبدي إعجابي بنفسي وكمان حاسقف لنفسي .التسقيف هنا في بلدكم مالوش المعنى اللي عندنا ..أقول لك حكاية بقى ..طيب قولي أيوه.

هي... :

أنا :زي بعضه كأنني باتكلم في الراديو .أحكي لك الحكاية .أول ما جيت البلد دي ضربت الجرس ما جاش الجرسون .مرة واثنين وثلاثة ..وبعدين زهقت .فوقفت قدام باب الأوضة ولقيت جماعة من الجرسونات واقفين فقعدت أسقف لهم .والتفتوا جميعًا ولكن ولا واحد منهم اتحرك ..وإنما راحوا يضحكون وأنا مندهش جدًّا ..أسقف وبرضه عمَّالين بيضحكوا ..مش فاهم أنا ..وأخيرًا ناديت واحدًا منهم .ولما دخل الأوضه قلت له :إزاي يا أخي أنا عمال أسقف ومفيش واحد منكم راضي يتحرك؟ فقال لي :احنا كنا فاكرين حضرتك حترقص .لأن التسقيف عندنا في الرقص بس .ولكن مش علشان تنادي الجرسون ..وعلشان كده إحنا وقفنا مبسوطين منتظرين نشوف رقص بلدكم!

هي... :

أنا :الله يوجع دماغك.

)وأخرجت من جيبي بعض النقود ووضعتها في الطبق وأشرت إلى الجرسون وقمت.(

هي :إلى أين أنت ذاهب يا قيس؟

أنا :إيه؟ بتقولي إيه؟ وبتتكلمي عربي فصيح يخرب بيتك .طيب قولي كده من الصبح يا فضيلة الشيخة..

هي :أديني قلت يا دلعدي..

أنا :وكمان بالبلدي؟ إنت منين ..وساكتة ليه طول الوقت ..ومين جابك هنا؟

هي :جابني هنا ..حضرتك.

أنا :حضرتي يعني إيه؟

هي :طبعًا أنا جاية علشان حضرتك ..لأنك مش حتعرف طريق البيت ..وأديني جيت أنا والسواق ..وهو واقف بره..

أنا :سواق بتاع مين؟

هي :بتاع الناس اللي انت معزوم على الغدا عندهم..

أنا :يا بنت الإيه ..وانت بتشتغلي عندهم إيه؟

هي :مربية..

أنا :مربية لمين ..دا الأستاذ اللي انت بتشتغلي في بيته معندوش أولاد؟ يمكن مربية له هو..

هي :إيه بقى الكلام ده؟

أنا... :

هي :سُكُت ليه؟ بقى علشان ما انا لابسة ساري وسمره شوية وشعري له ضفيرة بقيت هندية خلاص ..بقيت شكل الناس دول ..مفيش حاجة تخليني أفترق عنهم ..الدم ..مش باين؟

أنا :الدم إيه؟ دمك كان واقف والا قاعد أنا عارف .يقطعك ميت حتة..

هي :ياللا بينا..

أنا :بينا إزاي؟ بس أفهم ..إيه اللي خلاك انكتمت طول الوقت ..إيه خلاك قاطعة النفس مرة واحدة كده؟

هي :هو إنت اديتني فرصة ..أنا بصيت لقيتك دخلت في عبي مرة واحدة كده ..وهات يا فلسفة .والناس اللي قاعدين قدامنا هناك في الركن قعدوا يقولوا من بعيد لبعيد ..اسكتي ..ما تتكلميش .خليه هو يتكلم ..وأنا لما كنت بضحك كانوا همه اللي بيضحكوني..

أنا :ناس مين دول؟ أنا ماشفتش حد خالص!

هي :ده ..اللي اسمه مش عارفه إيه ..اللي ساكن جنبينا..

أنا :عرفته الكلب ..هو اللي عمل الفصل ده.

هي :مش تقوم بقى؟

أنا :آه نقوم بقى ..أنا تعبان شدي إيدي..

هي :ياه ..للدرجة دي ..إنت زعلان مني ولا إيه؟

أنا :وأنا حازعل منك ليه ..بس أنا عاوز الناس اللي شافوك ساكتة يشوفوك وانت بتتكلمي ويشوفوك وانت بتشديني ..وبتتحايلي عليَّ علشان أقوم .يعني عاوز رد اعتبار لكرامتي..

هي :تكونش عاوز تغني..

أنا :عاوز والله ..قولي معايا :كسفوه ..كسفوه ..ولما جه يتكلم كبسوه ...كبسوه..

هي :ياريتني فضلت هندية على طول.

أنا :يا ريتك ..كنت لقيت حاجة أكتبها.

هي :بقيت وحشة دلوقت؟

أنا :بس لازم أنا اللي أمشي قدامك ..في الهند كده..

)ووقفت أمام الباب ..وتقدم منا السائق.(

هي :صحيح ..تعرف بقى حضرتك إن كل الكلام اللي أنا قلته ده تمثيل في تمثيل؟

أنا :إزاي بقى؟

هي :تعرف بقى إنِّي مش مربية عند فلان ده ..تعرف إنِّي زوجة صاحب السيارة دي.

أنا :يا نهار إسود ..إنت مراته ..يا خبر !والله أنا آسف جدًّا ..إنما بقى الكلام اللي أنا قلته ده مدح لذوقه ..إنه راجل عنده ذوق وعرف يختار..

هي :أيوه عرف يختار مراته لكن ما عرفش يختار أصحابه..

أنا :لأ ..أرجوك مش للدرجة دي .ثم إني ما أعرفكيش..

)وتوقفت السيارة فجأة ..وظهر صديقي وركب إلى جوار السائق.(

أنا :أهلًا إنت فين؟

هو) :ينظر إلى الفتاة (فين إزاي؟ مش راحت تجيبك ..مش كان فيه ميعاد بيننا ..أنا أرسلت لك أخت مراتي..

أنا :مين؟

هو :مين إيه؟ مش واخد بالك؟ ليه حصل حاجة؟ دي أخت مراتي إزاي مش عارفها يا أخي :إنت مش قابلتها يوم حفلة السفارة..

أنا :اسمع ..أرجوك !وقف العربية ..نزلني هنا ..أنا دماغي حيطق ..نزلوني ..نزلوني ..نزلوني هنا ..يا فرقة ممثلين ..يا فرقة الريحاني وإسماعيل ياسين يا فرقة كاريوكا ..نزلوني..

هو وهي :على فين؟

أنا :أروح أكتب الكلام ده كله..

»مفيش ستار علشان ينزل«

* * *

صاحب القداسة رفض!

في الصباح الباكر جاءت الصحف..

والصحافة في الهند ممتازة ..صفحاتها أنيقة .والطباعة جيدة .والموضوعات معروضة عرضًا ممتازًا .وأسلوب الصحفيين هنا لا يختلف عن أي صحفيين في أوربا وفي أمريكا أيضًا.

قرأت مجموعة من الكلمات ألقاها الزعيم الهندي نهرو في البرلمان .فصيح جدًّا نهرو، ومناقشاته حقيقية .والناس هنا يحبونه .بل يكنون له شيئًا أكثر من الحب .ولا يخفون خوفهم عليه وعلى صحته .ويتساءلون :ماذا يحدث للهند بعد نهرو؟

ويؤكد الهنود أنه لا يوجد رجل واحد يقف إلى جوار نهرو ..أو يصل إلى مركزه .وإن كانوا يذكرون في الوقت نفسه رجالًا ممتازين يقفون وراءه ..ولا يبعدون عنه كثيرًا!

والناس الواقعيون يقولون إنه لا خوف على الهند .ولا خوف على الشعوب بعد وفاة زعمائها .فقد عاشت الشعوب ومات الأفراد .وليس هؤلاء الأفراد الممتازون إلا سائقي سيارات التاريخ .فإذا مات سائق السيارة فالسيارة تتوقف من تلقاء نفسها إلى أن يظهر سائق آخر وبسرعة ومع سرعة انطلاق السائق الجديد يتنهد بعض الركاب، ولكنهم يمضون في طريقهم .والزعماء هم آباء الشعوب ..وقد عاشت الشعوب بعد وفاة آبائها ..فأنت مثلًا، ألم يعش أبوك بعد وفاة أبيه؟ لقد عاش وأنجبك، وأنت بعد والدك ستعيش وهكذا.

ولكنهم في الهند يشيرون إلى نهرو بتقديس أو احترام.

ويسمونه الِبانديت جي ..أي صاحب السيادة أو سيادة الرئيس ..وبالفعل نهرو شخصية فذة .تاريخه السياسي طويل .دخل السجن وتعب .وخرج من السجن واستأنف كفاحه .وهو رجل مثقف وواسع القراءة وتعلم في إنجلترا .وله كتب وله أسلوب في الكتابة باللغة الإنجليزية .ثم عنده إحساس غريب بأنه أب للشعب الهندي على اختلاف ألوانه وأديانه.

وهو يتصرف على أنه أب.

وقد وصفه غاندي بقوله :صدقوني إذا كان جواهر لال نهرو ليس في السجن الآن؛ فليس معنى ذلك أنه خائف من السجن .فنهرو قادر على أن يذهب إلى المشنقة وهذه الابتسامة العريضة على وجهه!

وظلت هذه الابتسامة على وجهه حتى اليوم، كأنه ينفذ أمرًا صدر من غاندي بأن يبتسم دائمًا!

وقد كنت في نيودلهي في أحلك المواقف السياسية بالنسبة للهند.

ففي الشمال يوجد زحف صيني على الحدود ..أو على الخط المعروف باسم خط ماكموهان..

ويوجد الدلاي لاما الذي هرب من التبت أمام القوات الصينية، والذي من أجله سافرت إلى الهمالايا..

وفي أقصى الجنوب توجد ولاية كيرلا التي نجح الحزب الشيوعي في أن يفوز في انتخاباتها بالحكم .وبذلك جاءت وزارة شيوعية رغم إرادة نهرو .أو رغم أنف حزب المؤتمر الذي يتزعمه نهرو..

والرأي العام والصحف تطلب من نهرو أن يضرب..

ولكن نهرو لا يضرب .فليس الضرب من سياسته ..فلا هو يريد أن يضرب الصين في هذه المناطق الجبلية من أقصى شمال الهند ..لأنه ليس من المعقول أن تفقد الهند صديقتها الصين من أجل بضع مئات من الكيلومترات الجبلية..

ولا يستطيع أن يضرب مواطنيه في كيرلا..

ودارت المناقشات في البرلمان وثار عليه أحد أعضاء حزبه .ولكنه كان أعقلهم وأكثرهم هدوءًا.

كانوا يضربون المنصة بأيديهم .وكان يبتسم .وكانت ابتسامته تشرق وتخفت بسرعة .كأنها شرر ولاعة ..وبنفس الهدوء الذي دخل به البرلمان خرج منه..

وتصدر الصحف تؤكد أن نهرو هادئ، إذًا فكل شيء هادئ..

وقد حدث أن أدلت ابنة نهرو وهي رئيسة حزب المؤتمر الذي يتزعمه أبوها في مؤتمر صحفي فشتمت الشيوعيين في جنوب الهند .وسئل أبوها عن رأيه .فأجاب بأن هذه هي ابنته .ثم ضحك وقال :لا أريد انشقاقًا آخر في داخل أسرتي!

والرئيس نهرو من مواليد 1889من مدينة الله أباد وهي نفس السنة التي ولد فيها العقاد وطه حسين والمازني وهتلر وشارلي شابلن والفلاسفة مارتن هيدجر وجبرييل مارسيل والمؤرخان توينبي وعبد الرحمن الرافعي .وهو ولا شك أكثرهم حيوية ونشاطًا وأحبهم أيضًا .فهو إلى جانب أنه كاتب وسياسي وزعيم هو إنسان من أشد الناس إيمانًا بالسلام بين الشعوب..

وأذكر عبارة لنهرو تقول :الاشتراكية بالنسبة لي ليست فقط نظرية أعشقها، وإنما هي عقيدة حيوية وأتمسك بها من كل عقلي وقلبي.

وهو صادق فيما يقول ..والناس يعلمون أنه صادق وأنه حريص على ذلك في داخل الهند ..وفي خارجها أيضًا، وموقفه بين الكتل السياسية في العالم، والتزامه جانب الحياد بين المعسكرات السياسية يؤكدان أنه يريد أن يحقق السلام في العالم كله..

وهو مطلب صعب ولا شك .ولكنه لا يساوي ما يبذله من مجهود في سبيل تحقيقه..

والصحف التي أطالعها كل يوم تؤكد هذا المعنى..

وتؤكد أن الصين حتى لو صبغت جبال الهملايا بلون الدم ..فإن هذا لن يغير من موقف الهند ..أقصد لو صبغت هذه الجبال بدماء الهنود طبعًا!

والصحف أيضًا تتحدث عن الدلاي لاما، ذلك المعبود الذي يحكم بلاد التبت روحيًّا .هذا الشاب الطيب هرب ومعه بعض الرهبان إلى الهند وقطع في هذه الرحلة ألوف الأميال الجرداء على ظهر جمل .ويقال على ظهر بغلة .ويقال على ظهور حوارييه والمؤمنين به .وأنا لا أصدق هذا الرأي الأخير .فقد رأيت المناطق الجبلية التي مشى عليها الدلاي لاما بعد ذلك وأعتقد أنه لا يكفيه مليون مؤمن لكي يركبهم عبر هذه الجبال والوهاد، وفي تلك الليالي الباردة ..أي ثلث سكان التبت .خصوصًا أن بلاد التبت صحراء باردة جدًّا .ولذلك يسمونها سقف العالم .حيث توجد أقدم النظم التي عرفتها البشرية وعدلت عنها لسخافتها :الحاكم الإله الذي يختاره الرهبان ..ثم أغرب من هذا كله نظام تعدد الأزواج ..أي عدد من الأزواج للمرأة الواحدة!

والصور التي أراها للدلاي لاما تؤكد أنه شاب رشيق ووسيم ومرح ..فعلى الرغم من المصائب التي انحطت فوق دماغ شعبه المؤمن في التبت وفي العاصمة لهاسا، فإن قداسته لا يتوقف عن الابتسام .لماذا؟ ربما كان السبب، هو أن الدلاي لاما باعتباره إلهًا لا يحق له أن يحزن .فهو يجب أن يؤكد لشعبه مدى قدرته على الاحتمال ..فهو يضحك، تمامًا كما تضحك الشمس من وراء السحب ..والأمطار لا تهمها!

أو لعله يريد أن يقول لشعبه إنه كان يعرف ذلك من قبل .وإن الذي حدث هو كلام مكتوب في اللوح المحفوظ عنده .أليس إلهًا؟ بلى إنه إله عظيم قادر على كل شيء .ومن ضمن قدراته التي لم تظهر بعد أنه سيعود إلى التبت وسيطرد الصين من بلاده .عدد الصينيين حتى هذه اللحظة 700مليون نسمة!

وقد قرأت كل ما كتبت الصحف عن الدلاي لاما..

ونزلت إلى المكتبة أشتري كتبًا عنه .لم أجد إلا كتابًا واحدًا كتبه رجل سويدي عن بلاد التبت .وكتابًا آخر كتبه رجل ألماني عن بلاد التبت أيضًا.

ولم أجد مجموعة التصريحات التي أدلى بها الدلاي لاما عن هذه الرحلة السرية الخطيرة التي قام بها في حماية المؤمنين من رجاله .ورغم الحراسة الصينية الشديدة على حدود الهند ..ورغم أن الحكومة الصينية وعدت كل من يعثر على الدلاي لاما حيًّا أو ميتًا بمبلغ كبير من المال، فإنه استطاع أن يهرب .ويقال إنه هرب ومعه أكياس من الذهب ..ويقال من الماس .ويقال من الأسرار والطلاسم التي ستؤدي -إذا ما وصل إلى الهند سالمًا -إلى خراب بيت ماوتسي تونج!

هكذا نشرت الصحف الهندية .ولا بد أنها كانت تسخر من الدلاي لاما، ولكن واجب الضيافة يحتم عليها أن تلتزم الأدب .والتزمت الأدب الشديد!

وعندما بدأ الدلاي لاما يدلي بتصريحات للصحف يهاجم فيها الصين، محرجًا بذلك حكومة الهند، أشاروا عليه أن يلتزم هو أيضًا الأدب.

والتزم الأدب ولم ينطق إلى أن قابلته أنا، فخرج عن حدود الأدب وشتم ..شتم الهنود الذين يحرسونه ويمنعون زائرًا كريمًا -هذه كلمته -مثلي جاء يزوره من آخر الدنيا ليسأله عن الصحة وليدعو له الله أن يعيده إلى بلاده سالمًا!!

وتمشيًا مع أقدم التقاليد الدبلوماسية أرسلت خطابًا إلى قداسة الدلاي لاما في مدينة ميسوري في أقصى الشمال من الهند أستأذن في المثول بين يديه ..وكان خطابي في غاية الأدب طبعًا.

وأذكر أنني قلت في الخطاب ما نصه بالحرف الواحد» :سيدي ومولاي اسمح لعبد ضعيف جدًّا جاء من مصر)عدد سكانها 30مليونًا (كلهم يحبونك وحزينون على ما أصابك على أيدي أعدائك من الصينيين .اسمح له بأن يتشرف فيلمس بيده النظيفة طرف ثوبك ..ولقداستك الحق في أن تختار المكان من الثوب الذي يشرفني أن ألمسه ..واسمح لهذا العبد أيضًا أن يسألك عن صحتك الغالية ..بل التي لا تقدر بمال ..واسمح له بأن يتشرف بالجلوس على مسافة تسمح له بأن يراك، وتسمح له في الوقت نفسه أن يسمع صوتك الهامس .واسمح له إن شئت أن يلتقط لك صورة ترفع قدره في عين القراء في مصر والعالم العربي ..وإذا وافقت يا صاحب القداسة، فهذا ما يتوقعه العبد من مولاه العظيم .وإذا لم تفعل يا صاحب القداسة، فإنه لن يفقد الأمل، ولن يعود إلى القاهرة في الطائرة التي تقطع المسافة في 15ساعة إذا لم تتوقف .وقد لا يعود إلى القاهرة وإنما سيموت من الحسرة على أنه لم تسعده لقياك ..فإذا مات من أجلك فستظل روحه ترفرف حولك..

فارحم هذه الروح من الدوخة حولك، واسمح لها بأن تسعد بالقرب من طلعتك البهية .وأدام الله قداستك .وأطال في عمر ألوهيتك ..المخلص دائمًا والمسكين إلى أن تأذن له.«..

وانتظرت طويلًا ..ورحت أقطع الوقت في شرب الشاي وأكل الأناناس وشرب اللبن والبيض وإغاظة كل جرسونات اللوكاندة..

وفي يوم دق جرس التليفون وكان المتحدث أحد موظفي اللوكاندة وقال لي إن خطابًا جاءني من الدلاي لاما..

وقررت في هذه اللحظة أن أحلق لحيتي .وأن أغرق جسمي في الكولونيا ..وأن أتعطر لكي أكون جديرًا بهذا الشرف الذي لم يسبقني إليه أحد .وتخيلت العناوين التي ستصدر بها صحف »أخبار اليوم «في القاهرة :أول صحفي يقابل الدلاي لاما ..أو حديث للدلاي لاما مع أخبار اليوم ..الدلاي لاما يوقع بأصابع قدميه على صورته هدية منه لقراء صحف أخبار اليوم ..التوقيع بأصابع القدم تقليعة لنجوم السينما في أمريكا ..أكبر دليل على أن الدلاي لاما أمريكاني ...إلخ.

وسمعت طرقات على الباب ..وكان الجرسون ومعه الخطاب .وبسرعة فتحت الخطاب وطارت عيناي من أول الصفحة إلى آخرها ..إخص عليك دلاي لاما .إخص على الذين جعلوك إلهًا ..إنهم مجموعة من البهائم لا تستحق إلا شابًّا أبله مثلك!

لقد كان الخطاب بالرفض.

قداسته يعتذر عن مقابلته لانشغاله.

انشغاله في أي شيء هذا الدائخ .العريان الذي لا يجد قوت يومه ..هذا الصعلوك الذي استغل سذاجة الناس فجعل من نفسه إلهًا ..هل من المعقول أن أصل إلى الهند ثم أكون على مسافة ساعات منه ولا أراه؟ !لا يمكن يا قداسة اللاما ..أو جناب الدلاي ..لا يمكن أن أعود إلى القاهرة دون أن أراك أو دون أن أتحدث إليك ..الموت أهون ..اعتزال الصحافة والكتابة والانتحار أهون من هذا كله ..إنك طاقة القدر بالنسبة لي ..وأنا الذي سأفتحها بيدي وأطلب من الله ما أريد وسأقفلها بيدي أيضًا ..أنا أفهم أنك تتأله على غيري يا طريد الاشتراكية!

ورحت أقلب في الأوراق أبحث عن أصل هذا الشاب .وكيف وقع الاختيار عليه ليكون إلهًا..

على كل حال لا تزال أمامي بضعة أيام في العاصمة قبل أن أتمكن من السفر..

* * *

إله في انتظاري!

الآن أصبحت عندي فكرة واضحة عن الدلاي لاما الرجل الذي يحكم بلاد التبت .هذا الشاب ليس له أصل واضح .فلا أبوه إله ولا أمه .ولا أي إنسان من أسرته تصادف أن اقترب من بيت الناس الذين حكموا بلاد التبت من ألوف السنين .وإنما هذا الشاب وقع عليه الاختيار ليكون إلهًا .فهو إله بالاختيار .أي أن الناس لم يولدوا ليجدوا أنفسهم مؤمنين به .وإنما انتظروه وتوقعوه وآمنوا به ..ثم إنهم يعرفون أمه ويعرفون أباه .وأبوه وأمه من الفقراء وعليهما ديون كثيرة مستحقة .ولا بد أن تكون السيدة والدته قد طلبت حلة من جارتها .أو كوزًا من الأرز أو قالبين من السكر، ومن المؤكد أنها لم ترد هذه السلفيات.

أما كيف يختارون قداسته فهذا سر من أسرار الرهبان الذين يحكمون هذه البلاد حكمًا حقيقيًّا، وليس الدلاي لاما إلا ذيلًا لهم، أو إلا واجهة للدكان الخفي الذي يديره هؤلاء الناس .وأنا أعرفهم وقد رأيتهم وصافحتهم ولا أزال أشعر بالامتنان لهم لأنهم اختاروا هذا الشاب الساذج ...وأنا أعود فأؤكده الآن.

فهؤلاء الرهبان، لا أعرف عددهم بالضبط، يختارون من بينهم واحدًا ولا بد أن يكون هذا الواحد أكبرهم سنًّا وأكثرهم صلعًا .لا بد أن تكون مساحة الصلع التي عنده أكبر من أي صلعة موجودة في الأديرة .لا أعرف كيف يتأكدون من ذلك .وأقرب إلى ظني أنهم يقومون بعمل مسابقة في جمال الصلع بين الرهبان .حتى يفوز هذا العجوز .ولا شك أن مركز هذا العجوز من الناحية الدينية يسمح جدًّا بتزوير أية انتخابات ولو كان شعر رأسه طويلًا كثيفًا كشعر الأسد..

وبعد أن يختاروا هذا العجوز الأصلع يطلبون إليه في عشرين يومًا ..ويقال ثلاثة وعشرين يومًا أن يبحث لبلاد التبت عن إله ..ويظل هؤلاء الرهبان يبكون ليلًا ونهارًا ويرجون هذا الراهب أن ينقذ البلاد من الشياطين التي تتربص بها في هذه الأيام العشرين .ولكن الراهب الأصلع يحبس نفسه في صومعته يفكر، وفي الوقت نفسه يفكر في طريقة لإنقاذ البلاد من الشياطين في الأيام التي خلت من وجود إله .وأخيرًا يتعطف الراهب ويتلطف ويعلن أنه قد عثر على طريقة ..وأن هذه الطريقة ستؤدي بغير شك إلى اختيار أصلح الآلهة لحكومة التبت!

وفي احتفال مهيب في مدينة لهاسا، عاصمة التبت، يظهر الراهب ويعلن للشعب في صمت وأسى أن مهمته شاقة جدًّا، ولكنه في الوقت نفسه لا بد أن يوفقه الإله إلى اختيار إله جديد .فمن الظواهر الغريبة في هذه البلاد أن الإله يختفي في سن الثالثة والعشرين ..لا أحد يعرف أين يذهب هذا الإله، ولكنه يختفي، وفي الوقت نفسه تظل روحه ترفرف حول بلاد التبت من أولها لآخرها، مساحتها نصف مليون كيلومتر مربع !أي نصف مساحة مصر.

والطريق الذي سيسلكه الراهب الأصلع معروف للرهبان؛ فهو عادة يحمل طعامه وشرابه وبعض ملابسه إلى شاطئ إحدى البحيرات ويظل ينظر إلى سطح الماء ليلًا ونهارًا .تمامًا كما تنظر أنت إلى مرآة في ضوء الشمس عشرين يومًا متواصلًا دون أن تغيب الشمس، وبعد هذه المدة المعروفة لدى الرهبان، يرى الراهب الأصلع الذي انعكست صورة وجهه على الماء ومن الماء إلى صلعته صورة الغلام الصغير الذي سيكون إلهًا للتبت .ويرى ملامحه ويتأكد منها ..من عينيه ومن أنفه ..وخصوصًا من أنفه؛ لأنه لا يمكن أن يكون الإنسان إلهًا إذا كان أنفه ضيقًا وإذا كان يتنفس بصوت عال؛ فالتنفس بصوت عال يقلل من هيبة الآلهة!

ويتأكد الراهب الأصلع من ملامح الطفل الذي يراه .وفي الوقت نفسه يتأكد من ملامح والديه .ويؤكد الرهبان أن كل هذا يبدو واضحًا في الماء .ويؤمن الراهب العجوز بأنه قادر أيضًا على أن يعرف عنوان بيت هذا الطفل ويصف شكل البيت ..تمامًا كما يفعل الذين يفتحون المندل فيرون في الفنجان الذي به قطرات زيت، شكل الناس وعناوين بيوتهم.

وبعد أن تتم ملامح الصورة أمام الراهب، ينحني راكعًا أمام البحيرة ..شاكرًا للإله السابق معاونته الصادقة في اختيار خلفه العظيم .ويعود الراهب إلى صومعته وقد استراحت نفسه .ويعم الفرح التبت؛ لأنها قد وجدت لها الإله المناسب .وتظل أيدي الناس معلقة .ويظل الدعاء معلقًا بين السماء والأرض .وتظل العيون حائرة بين ملامح الإله الجديد ..أما أحلام الناس فهي طائشة ضائعة، لم تتحدد لها وجهة بعد..

ورحمة بهؤلاء المؤمنين، يعلن الراهب أنه قد حدد يوم كذا ليكون احتفالًا بالإله الجديد..

وتستريح نفوس الناس .وينتظرون..

أما الراهب العجوز، فهو يذهب إلى إحدى القرى القائمة على إحدى البحيرات التي وقع اختياره عليها، ويختار الطفل الذي رآه على صفحة الماء .وينقل هذا الطفل إلى الدير ..وتجرى على الطفل بعض العمليات القاسية جدًّا، من بينها ختان الطفل ..ومن بينها أيضًا رسم علامات على ظهره وعلامات على قفاه وعلامات على قدميه ..هذه العلامات يستخدمون فيها الإبر الملتهبة.

ويقال :إن سبب ذلك هو تطهير هذا الإله من الشياطين ..أو تمييزه عن غيره من الناس .خصوصًا إذا جاء الموت..

وبعد ذلك يدخل هذا الطفل المقدس الدير ..وهناك يتلقى أصول العبادات وأصول هداية الناس وكيف يكون إلهًا ..فالبشر هم الذين يعلمونه كيف يكون إلهًا عليهم وعلى غيرهم - ..أي كيف)يتفرعن (عليهم !وهم طبعًا يتظاهرون أمام الناس بالتقديس له .ولكنهم في الواقع يستخدمونه لأغراضهم ..فهم الذين صنعوا هذا الإله، وهم الذين يعبدونه!

ويتقدم الشعب بكل أنواع التقديس لهذا الإله الجديد الذي لا يراه الناس إلا نادرًا .وفي المواسم الدينية ..وفي هذه المناسبات السعيدة يقدمون له الهدايا والطعام والأموال ..وإلى جانب أنه إله فهو حاكم للتبت .وله كل أموال هذه الدولة الصغيرة التي تضم أناسًا يعيشون في ظروف قاسية جدًّا تجعلك تتساءل :ولماذا يعيشون؟

وعندما كانت الصين تهاجم الدلاي لاما، كانت تسخر منه بقولها إن خروجه من التبت هو في الواقع إطلاق لسراحه فقد كان سجينًا في الأديرة ..ثم تقول أيضًا :إن الصين قد أطالت عمر الدلاي لاما عندما طردته ..فالدلاي

لاما يعلم أن كل الآلهة الذين حكموا التبت قد اختفوا وهم في الثالثة والعشرين ..فالرهبان هم الذين يتولون قتل هؤلاء الآلهة!

والدلاي لاما هو أحد اثنين يحكمان التبت..

فهو الحاكم الروحي الذي يملك الأرض ومن عليها وما عليها ..وهو يقيم في دير فوق تل بالقرب من العاصمة..

أما الثاني فاسمه)بانشا لاما (وهو يحكم التبت إداريًّا ..ولكن هذا الحاكم لا قيمة له ولذلك يعيش طويلًا ..يعيش إلى أن يموت كأي مواطن عادي!

والتبت تشبه جمهورية »سان مارينو «التي تقع في شمال إيطاليا، فهي إمارة مستقلة استقلالًا تامًّا وعليها سور مرتفع .وكان بها أحد أندية القمار وبها برلمان ويحكمها اثنان من الملوك !جمهورية يحكمها ملكان !كل واحد منهما لمدة ستة أشهر ..وهي الجمهورية الوحيدة في أوربا الغربية التي بها حكومة شيوعية!!

والفارق الوحيد هو أن التبت قاومت النظام الشيوعي ..ولكنها الآن قد ضمت نهائيًّا للصين الشيوعية ..وقد أقام الصينيون بها طرقًا طويلة ممتدة على حدود الهند .وأطاحوا بهذا النظام الديني وعينوا بصفة مؤقتة أحد رجال الدين ليتولى هذه السلطة الروحية للدلاي لاما ..ظاهريًّا طبعًا!

وبعد أن عرفت ما أراه ضروريًّا عن الدلاي لاما الذي أرسل خطابًا رقيقًا يعتذر فيه عن مقابلتي، فقابلت خطابه هذا بإجراء غير مهذب وغير رقيق ..تشهد بذلك سلة المهملات ..قررت أن أراه وأتحدث إليه، وليكن ما يكون!

بعد هذا كله بدأت أبحث عن طريقة للسفر إلى مدينة ميسوري حيث يرابط الدلاي لاما ورجاله في سفوح الهملايا في أقصى شمال الهند وعلى مقربة من حدود التبت..

إن الرحلة إلى ميسوري هذه لن تكون بالسيارة أو بالقطار ..وإنما سوف أدلك على الطريقة التي رأيت بها الدلاي لاما ..وأنا آخذك من يدك لمقابلة قداسة الدلاي لاما ..والأخذ باليد سيتكرر كثيرًا، كلما أهلت علينا طلعة الدلاي لاما ..ومن الممكن أن تسافر إلى ميسوري على قدميك ..ومن الممكن أن تسافر إليها على ظهر حمار أو ثور ..أو بطائرة هليوكوبتر..

أما من نيودلهي فالرحلة ستكون في سيارة خاصة تستأجرها ذهابًا وإيابًا، وأجر السيارة حوالي عشرة جنيهات إذا ذهبت ورجعت في نفس اليوم ..أما إذا بقيت حتى الصباح فيجب أن تدفع أكثر ..هناك وسائل مواصلات أخرى كالقطار مثلًا، ولكن القطار يقطع هذه المسافة في 18ساعة ليلًا ونهارًا ..والطريق من نيودلهي إلى ميسوري متعة، هذا إذا كان عندك صبر على المرور في الطين والوحل والأمطار .ولا تغضب إذا فوجئت بأن السائق قد توقف فجأة ثم ترك السيارة بلا سابق إنذار .فلا تظن أنه هرب وإنما قد اعترضت طريقه بقرة، والبقرة مقدسة، ولذلك فهو لا يستطيع أن يطردها أو يلمسها، وإنما يجب عليه أن يتركها حتى تمشي من تلقاء نفسها، وفي هذه الأثناء لا مانع من أن يركع لها ركعتين..

لا تضحك ولا تندهش فهناك ما هو أعجب وما هو أكثر غرابة من ذلك ..ستجد القرى على الجانبين شبيهة بالريف المصري ..بيوت من الطين وأناس كالطين أيضًا .ولكن هنا العدد أكبر والأمراض واضحة على وجوههم وعلى أجسامهم ..ستجد حولك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية ..مع الأسف هذه الأراضي لا قيمة لها؛ فالأمطار تحولها إلى بحيرات ويموت البذر والزرع ..وإذا تبقى للفلاح شيء أخذته السيول ..أخذت أبناءه وطيوره وحيواناته ثم هدمت بيته فلا يبقى له شيء.

كل عام تحدث مجاعات في بلاد الهند الغنية بالأرض والماء والأشجار، ويموت من المرض والسيول والجوع مئات الألوف .ومع ذلك لم تتمكن الدولة من وضع برنامج يطبقه الناس لتحديد النسل.

ستجد ببعض البلاد أن وسيلة المواصلات الوحيدة فيها هي الدراجات، والدراجة يقودها شاب ويركب وراءه أربعة أو خمسة من الناس.

كل واحد منهم في حجم هذا الشاب مرتين وثلاثًا .وسترى الإرهاق والعرق على وجهه والناس مشغولون في كلام وحديث.

ستقول :أعوذ بالله، هذه وحشية.

قل ما تشاء فلقمة العيش صعبة هنا .إن الركاب يتعبون أيضًا من أجل الملاليم التي سيعطونها له .إن حالتهم تدعو إلى الشفقة أيضًا .وسترى أن هذا الشاب يقطع بدراجته مسافات تبلغ عشرة الكيلومترات وهو يلهث.

وعلى الجانبين ستجد أشجارًا .هذه الأشجار لها أرقام مسلسلة .فالدولة رقمت الأشجار .فقد كان الناس يقطعونها ليستخدموا خشبها في الأفران .وكانت الحكومة تفاجأ باختفاء جانب من الأشجار فجأة ..فلا تعرف من الذي قطعها؛ ولذلك جعلت لها أرقامًا ليسهل على الحراس أن يتمموا عليها.

سأروي لك مشهدًا رأيته وأعتقد أنه يتكرر كثيرًا، وقفت بي السيارة أمام سيل جارف وانتظرنا بعيدًا حتى يتوقف المطر .ظللنا سبع ساعات .ونحن في السيارة نأكل ونشرب ولا نعرف كيف نقطع الوقت، ومن حين لآخر نفتح النوافذ للتهوية وكان السيل يجتاح البيوت ومن تحت البيوت تظهر رءوس الناس ..النساء والرجال والأطفال والأبقار، وبعض الناس كان يصعد إلى الأشجار ..ولكن هذه الأشجار كان يسبق الناس إليها عدد كبير من الطيور بعضها متوحش جدًّا كالصقور السوداء.

وقد رأيت طفلًا يقاوم السيول ويصرخ .ولا أحد يستطيع أن ينقذه، ولم يكد الطفل يصل إلى حجر مرتفع ويمد يده عليه حتى رأيناه يرتد ويختفي تحت الماء .لقد كان في استقباله ثعبان ضخم لدغه، فقتله .وراح الثعبان يسبح حيًّا ..أما الطفل فظهر بعد لحظات جثة طافية.

لم أنم تلك الليلة .وظللت أحلم أنني أنام تحت شجرة .وفجأة تتحول الشجرة إلى أفاع وإلى حيات، على هيئة غصون تتلوى ..ولهذه الغصون أوراق، وهذه الأوراق هي أجنحة البعوض ..أما الثمار فهي تشبه رءوس النمور والقرود وكلها تبرق ..فأصحو من النوم منزعجًا وأتمنى أن أبقى متيقظًا حتى الصباح.

لعلك تقول لي :إنني نسيت الموضوع الأصلي وهو الرحلة ..إن هذا من صميم الموضوع ..وإلا فماذا عساك أن تفعل أو تفكر في رحلة تطول إلى 14ساعة ولا تستطيع أن تتقدم أو تتأخر؟

وعندما تصل إلى مدينة ديرادون ستجد أن المنظر قد تغير قليلًا ..فالمدينة مليئة بالمحلات التجارية لأنها مدينة سياحية، ولكن الناس هم الناس، ستجد أسماء مطاعم وفنادق وبارات ..طبعًا قد لا تلتفت إلى ذلك ولكن لو عرفت أن كلمة »بار «هذه من الكلمات النادرة جدًّا في الهند، فستعرف أنك في مدينة راقية، فالخمور ممنوعة في الهند، ومسموح بها لعدد قليل جدًّا من المحلات العامة وفي أيام معينة وساعات معينة.

وبعد ذلك تبدأ الصعود في الطريق الجبلي .هذا الطريق يجب ألا تمشي فيه السيارة أسرع من عشرة كيلومترات في الساعة .سيكون المشي بطيئًا جدًّا والسائق هنا يسمع القوانين وينفذها حرفيًّا .وربما كل الناس في الهند كذلك .وبعد ذلك سيبدأ الصعود إلى الجبل .الطريق مرصوف وجميل .إنه يشبه أي طريق جبلي في أوروبا .ويظهر أن كل المناطق الجبلية واحدة ومتشابهة .الطريق طوله 12كيلومترًا .هذا الطريق يدور ويدور حول الجبل .كما يدور الشال حول العمامة ..أو »الألشين «حول ساق عساكر الحدود ..ستقطع السيارة هذا الطريق في ساعة بالضبط.

الفنادق هنا كلها جيدة .ستكتشف أنك أحضرت معك الملابس الصيفية ..وستذهب إلى الفندق ..والفندق جيد .وحجراته واسعة جدًّا .وهي لذلك باردة جدًّا ..وفي الغرف شيء غريب لا يعجبك وهو أن أبوابها مفتوحة

معظم الوقت، أو يمكن قفلها بصعوبة .ولا تعرف إن كان السبب هنا هو أنه لا داعي لقفلها بالمرة أو أن صناعة المفاتيح لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا الفندق.

هذا الفندق اسمه »شارل فيل «وقد عرفت هذا الفندق من نيودلهي .فالذي يملك هذا الفندق هو نفس الرجل الذي يملك الفندق الذي أسكنه في نيودلهي.

ووسيلة المواصلات واحدة هنا وهي الريكشا..

والريكشا عبارة عن محفة تشبه عربة كارو قد نزعت عجلاتها ..وبدل العجلات والحصان أو الحمار، يوجد عدد من الهنود القصار القامة يحملون هذه المحفة وينطلقون بك في أي اتجاه .وهم يلهثون وتزداد وجوههم صفارًا وتزداد عيونهم احمرارًا .وتحس أنك إنسان رأسمالي أو إقطاعي .أو على الأقل فيك كل عيوب الإقطاعيين والرأسماليين، بالمعنى الذي تشير إليه أكثر الكتب الاشتراكية تطرفًا ..فأنت تستأجر إنسانًا، أو تستعبد إنسانًا أو تركب إنسانًا كأنه حيوان ..كأنه ليس آدميًّا مثلك .وتضع رجلًا على رجل، فوق كتف هؤلاء المساكين ..فهل بعد هذا تسمي نفسك متحضرًا؟!

ولكن ما الذي يمكن عمله؟ فأنت لست المسئول عن هذا النظام غير الإنساني .وإنما المسئول الأول والأخير هو الفقر ..وصعوبة المواصلات هنا، وندرة الحيوانات أيضًا ..وكثرة الناس، وشدة الحاجة، ثم تشريفك إلى هذه المنطقة!

ولو فعل كل إنسان مثلك وعدل عن الركوب لأسباب إنسانية لارتكب أكبر الجرائم ضد الإنسانية ..إنك بذلك تقتل هؤلاء الناس من الجوع ..فأنت من اللحظة التي تريد أن تعاملهم كبشر، تقتلهم أيضًا من الجوع ..ومن الممكن أن تفعل مثلي فتعطيهم مبلغًا من المال على سبيل الصدقة، ولكن كم فقيرًا تستطيع أن تتصدق عليه ..كم فقيرًا في دولة بها ملايين الفقراء؟!

على كل حال، اركب ودع هذه المشكلة الإنسانية لدولة الهند فهي مشغولة بها أكثر منك ..وقبل أن يذهب بك الخيال مثلما ذهب بي، يجب أن تتأكد من أنهم سيسمحون لك بزيارة الدلاي لاما ..من هم الذين سيسمحون؟ إنهم نفس الذين رفضوا زيارتي له!

وهنا اسمح لي أن أروي لك ما حدث ..فإنه شيء مثير جدًّا ..ولنترك الريكشا جانبًا .فليست لها أية ضرورة ولا قيمة الآن مادام الطريق البعيد جدًّا إلى الدلاي لاما مسدودًا!

لقد اتصلت بالتليفون بقصر الدلاي لاما.

وعرفت أن قداسته ينزل في قصر اسمه »بيرلا هاوس .«وهذا القصر محاط بحديقة اسمها »الغابة المقدسة .«كل أشجارها مقدسة ..وممنوع منعًا باتًّا أن يدنو منها إنسان .ولا أعرف لماذا يقدسون الأشجار في هذه المناطق .ربما لأنها نادرة .فهم يمنعون أنفسهم من الاستفادة منها ..أو ربما كانت خدعة إنجليزية ليمنعوا الناس من الاقتراب من هذا البيت أو من ملعب الجولف .الحقيقة أنني لم أتأكد من هذه الواقعة .ولو أردت فلن أجد أحدًا ..فنحن هنا في قمة الدنيا ..نحن هنا في جبال الهملايا الشاهقة..

وفي التليفون ذكرت اسمي ووظيفتي ..وأكدت ما جاء في خطابي .ولكن الذي حدثني قد صارحني بأنه هو الذي بعث بالخطاب .وأن قداسة الدلاي لاما مشغول جدًّا هذه الأيام .ولم أشأ أن ألعن آباء الدلاي لاما؛ ولم أشأ أن ألعن آباء هذا السخيف الذي كلفته حكومة الهند برعاية شئون الدلاي لاما حتى لا ينطق أو حتى لا يكلم أحدًا من الناس، أو حتى لا يتصل بالصحفيين ويدلي بتصريحات تؤدي إلى أزمة بين الصين والهند ..وأفهمني هذا السخيف أن هذه هي مهمته وأنه مضطر إلى التمسك بوظيفته .وأنه لن يسمح لي ولا لغيري بمقابلته هذه الأيام.

وحاولت ألا تنتهي المكالمة عند هذا الحد، وقبل أن ترن سماعة التليفون في أذني معلنة نهاية آمالي، قلت له :إذن أنتظر يومًا أو اثنين..

وعاد هو بكل قنزحة يقول لي :أو أسبوعًا..

وأقفل السكة في وجهي .وفي هذه المرة ازداد إصراري .فالدلاي لاما الآن على مسافة مئات الأمتار مني ..وكان في الصباح على مسافة مئات الكيلومترات..

ولم أكمل فطوري، وارتديت ملابسي الخفيفة جدًّا .فقد نسيت أن الجو هنا بارد كسويسرا في أوائل الربيع .وارتديت البالطو، وابتلعت قرصين من الإسبرين، وأشرت إلى أحد عمال الريكشا أو تنابلة الريكشا على الأصح، وحملوني والمسافة طويلة باردة وهم يلهثون ويسعلون ويوجعون قلبي من الألم، ويتوقفون ليستريحوا، وينظرون إلى وجهي، لعلي أقدر مجهودهم .وقدرت مجهودهم طبعًا .ولكن لم أجد قلبي رقيقًا بعد هذه المكالمة التي صدمتني في أعز ما أملك ..صدمتني في آمالي.

ونزلت بي الريكشا في طريق منحدر .وعلى اليمين وجدت لوحة عليها :الغابة المقدسة ..ولم أجد شيئًا يستحق القداسة ..لا الغابة ولا الدلاي لاما .وأشرت إلى الذين يحملون الريكشا أن ينزلوا إلى مداخل فيلا الدلاي لاما..

ووقفوا عند بوابة من الخشب والأسلاك.

واقتربت منها .وسألني العسكري :هل عندي موعد؟ فقلت :طبعًا على موعد مع صاحب القداسة..

وسمح لي بالتوجه إلى بوابة أخرى.

وعلى الجانبين كنت ألاحظ أبناء التبت ..إنهم جميعًا يرتدون الملابس الحمراء، ولاحظت أن هذه الملابس يلبسونها على اللحم .رغم برودة الجو .وأن هذه الملابس تشبه الروب دي شامبر وقد لفوها بحزام ..ثم إنهم حفاة تمامًا كرهبان الفرنسيسكان .ولاحظت أن معهم عددًا قليلًا جدًّا من النساء .وهذه طبعًا ليست مشكلة .فهم يؤمنون بتعدد الرجال للمرأة الواحدة !ولاحظت أنهم غسلوا ملابسهم ونشروها .وشممت رائحة الطعام، ويبدو أن الطعام كثير .والسعادة واضحة على وجوه هؤلاء الناس .رغم أنه من الصعب أن تتبين مشاعر هذه الوجوه الجامدة لكنَّ بصيصًا غريبًا يلمع في عيونهم يمكن إدراكه بسهولة على أنه سعادة!

ووجدت أمامي خيمة ..وهذه الخيمة بها جنود هنود .واقتربت منهم وقلت بصراحة لا بد أن أقابل الدلاي لاما ..لابد .إن أحد الهنود الملحقين بخدمة الدلاي لاما قد رفض طلبي الذي أرسلته من نيودلهي، ثم عاد فأكد هذا الرفض في التليفون .وإنه لا يمكن أن أصبح على هذه المسافة القريبة وأبقى بعيدًا عن عينيه وأذنيه .لا بد أن أقابله وبأي شكل وبأية طريقة حتى لو أدى ذلك ..وقبل أن أكمل هذه العبارة -وفي الحقيقة لم أكن أعرف كيف سأكمل هذا التهديد الذي لا معنى له، والذي لا يمكن أن أحققه -تقدم مني أحد الرهبان، ورآني وحياني .وسألني باللغة الفرنسية :ماذا تريد؟ فشرحت له حكايتي .وشرحت له كيف أن أحد الهنود قد أساء إلى سمعة الدلاي لاما .وأنني مضطر أن أكتب هذا الذي دار بيني وبينه .وهي فضيحة ..ثم إنني أريد أن أعرف إن كان هذا هو رأي الدلاي لاما في كل من يجيء لزيارته من أقصى الدنيا..

ورأيت على وجه هذا الراهب الذي يرتدي الملابس القاتمة، ويعمل رئيسًا للوزراء؛ أنه لم يسترح إلى موقف هذا الهندي وإلى موقف كل الهنود الذين صادروا حرية الدلاي لاما ..والذين حبسوه في هذا المكان باسم حمايته والدفاع عنه.

وهز رأسه واختفى.

وجلست أتحدث إلى أحد الجنود وأروي لهم ما رأيت في الهند وما الذي أعجبني ..واخترعت لهم مجموعة من القصص، وأنا أتصور أن هذه القصص قد تكون لها أية قيمة في مقابلتي للدلاي لاما أو في تسهيل هذه المقابلة الصعبة ..فوصفت لهم المظاهرات التي ملأت شوارع القاهرة تهتف بحياة الدلاي لاما ..ثم الطوب الذي سقط فوق سفارة الصين الشعبية احتجاجًا على الموقف الشائن من قداسة الدلاي لاما ..ثم أخرجت من جيبي ورقة مكتوبة باللغة العربية وقلت :إن هذا خطاب من والدتي توصيني بأن أطلب إلى الدلاي لاما أن يباركها ويشفيها من مرضها ..وخطابات أخرى من تلميذات المدارس ونجوم السينما والصحفيين والفنانين ومضيفات الطيران ..الجميع يطلبون البركات من قداسة الدلاي لاما.

فأنا لست صحفيًّا فقط، وإنما أنا مندوب عن ملايين المصريين الذين أوفدوني للسؤال عن صحته والاطمئنان على أنه بخير وعافية .فإذا عرفت ذلك وتأكدت منه بنفسي -ولا بد أن يكون بنفسي -كتبت إلى القاهرة لتهدأ المظاهرات، ويتوقف ضرب سفارة الصين بالطوب!

وهذه مهمتي ببساطة..

ثم إنني بدأت أشكو من البرد ..وإذا بي أطالب -وهذا حقي -الدلاي لاما أن يشفيني بعد أن تسلل البرد إلى جسمي وأنا في بيته المقدس!

وهز الجنود رءوسهم موافقين على مطالبي العادلة..

ولم يكن لهؤلاء الجنود أي نفوذ أو قيمة ..ولكني كنت أحاول أن أقنع نفسي ..وأن أتمرن على الاختراع أو أستعد لمواجهة أي احتمال آخر.

وظهر الوزير وقبل أن أصارحه بلهفتي وقلقي .أشار برأسه قائلًا :لقد أطلعت قداسته على هذا التصرف السخيف من جانب الرجل الهندي وهو سيقابلك غدًا..

إذن هناك خلاف بين الدلاي لاما وبين الهنود المكلفين بحراسته ..ووزراء الدلاي لاما، المثقفون الذين يتكلمون لغة فرنسية سليمة، حريصون على التمرد على هذه القيود التي فرضتها الهند ..فكأنني أول مناسبة يثبتون فيها وجودهم ويخالفون تعاليم الحكومة الهندية ويسمحون لي بمقابلة الدلاي لاما، رغم أنف هذا الرجل الهندي الذي يتولى العلاقات العامة لصاحب القداسة.

وشكرت رئيس الوزراء، وطلبت إليه أن يبلغ صلواتي لقداسة الدلاي وأن يبلغ الوزراء تحياتي..

وشكرت الجنود ..وشكرت رجال الريكشا ..وأعفيتهم من حملي إلى الطريق الصاعد ..وطرت من الفرحة ..بعد أن أعطيتهم مبلغًا كبيرًا من المال ..وظلوا يلاحقونني بالريكشا وأنا أرفض أن أركب معهم .وحاولوا إقناعي بأن هذا حقي، وأنا أرفض .وحاولوا أن يفهموني أنهم أقوياء، وكان إصراري على الرفض.

ولأول مرة أشم هواء نقيًّا ..ولأول مرة أملأ صدري .ولأول مرة أجدني في قمة العالم ولأول مرة أتمنى أن يطلع النهار بسرعة.

وفي الفندق طلبت طعامًا ساخنًا وكثيرًا، وابتلعت حبوبًا منومة أستعجل بها طلوع الشمس...

* * *

وطلعت الشمس...

واليوم فقط أشم هواءً حقيقيًّا..

هواء لا تمتصه أجهزة التكييف من الشوارع..

هواء ليس نفاية الناس ..ولا فضلة خيرهم..

هواء لم تدوخه المروحة المشنوقة في السقف..

هواء اليوم من الجبل ..النافذة مفتوحة أمامي ..الطبيعة كلها رائقة جميلة مغسولة..

المطر جعلها مصونة مكنونة في ورق سلوفان ..أو كأنها تغطت بالحرير الهندي الشفاف .كل شيء له لون ثابت صادق لا يتغير ..كل شيء صدق .لا سياسة؛ لا أديان؛ لا لغات؛ لا جنسيات .فهذه الأشجار قد ظهرت قبل الدين والسياسة واللغة .ظهرت قبل الإنسان وماتزال كما كانت عالمية في معناها وكلامها وألحانها وعطورها.

طول ليلة أمس كانت الأمطار ثقيلة تلطم وجه الأرض .كأن ثقبًا فى السماء قد انفتح .أو كأن الملائكة كانوا يغسلون الكواكب والنجوم استعدادًا لأحد أعيادهم التي لا نعرفها..

في هذه اللحظات غرقت قرى كثيرة في الهند ..هلك فلاحون .أما الأبقار والجاموس فقد استراحت من أصحابها .انفلتت ...إن الليلة إجازة عندها من المحراث والعربات .أما الأطفال الذين باغتهم المطر فقد ماتوا ..وتحولت جثثهم إلى زوارق طافية تركبها الغربان والصقور وتقفز إليها الأفاعي ..لقد استراح هؤلاء الأطفال أيضًا..

وأمام الفندق الذي أقيم فيه مئات من عربات الريكشا ..ينام فيها أصحابها .إنها مأواهم الوحيد وهي بقرتهم الحلوب .إن أول شيء يعملونه في الصباح هو أن يعرضوا الريكشا في الشمس لكي تجف حتى لا ينفر منها الزبون ..وليس مهمًّا أن تجف ملابسهم هم..

النافذة لا تزال مفتوحة على شاشة من فضة ..على شاشة من زجاج لامع ..كل شيء ساكن .كأنه ينتظرني أن أرسمه ..كل شيء يحاول أن يقلد الصور المطبوعة .فالشجرة لا تتحرك ولا الورد ولا الدروب اللامعة التي تشبه أشرطة من الحرير الأزرق مطرزة بعلامات بيضاء ..وعلى الحوائط صور بنات جميلات .صورة لأودري هيبورن ..وصورة أخرى لمارلين مونرو ..وصورة لأنجريد برجمان ..صباح جميل فعلًا .كل شيء حلو.

كل شيء صنعته السماء ..فالإنسان لم يصح من نومه بعد ليفسد هذا الجمال الإلهي!

كل شيء هادئ كأنه ينتظر مني أن أتمم عليه ..أن أناديه بالاسم فأقول :أشجار السرو هنا؟!

فينحني صف من الأشجار على هيئة »نعم «وتطير العصافير إلى أعلى وتتحول :كل منها إلى نقطة فوق كلمة نعم.

وأنادي الورود وأنادي البلابل ..وأملأ صدري منها ولا حاجة لي أن أناديها..

كل شيء يحولك إلى شاعر .ويجعل قلمك فرشاة ..ويجعل لك ألف رئة وألف أذن .ويغريك بأن تمد يدك تلمس ما تراه كأنه قطعة من الحلوى ..وتشعر أنك أمام مائدة ضخمة وأنك وحدك في صدر المائدة ..وأنك الداعي وأنك المدعو ..وأنك صاحب البيت والضيف .وأنه لا معنى لأن تنتظر أحدًا .فليس هناك أحد سواك..

ومن بعيد أسمع بعض الأجراس ..إنها أجراس معلقة في أعناق الأبقار .لقد بدأت بنات الطبيعة في رحلتها اليومية الأبدية .إذًا أبناء آدم لم يستيقظوا بعد، فماتزال الدنيا بخير ماداموا نيامًا :فالفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها.

ولا يوقظ الفتنة إلا الشمس وإلا الجوع ..فالشمس هنا عكازة الفقراء ..فهي وحدها تدق أبواب أصحاب الأعمال والسائحين وتفتح نوافذهم ..ومن نوافذهم يرون الباعة وعربات الريكشا..

وتبدأ الشمس تتحسس طريقها وراء السحاب ..والسحاب هو »رغوة «الصابون التي غسلت بها الملائكة السماء والأرض ..ذاب الصابون ولم يبق إلا هذه الرغوة هائمة مثل إيشارب حول رأس الهملايا.

وتعود الشمس تهز الأشجار ..فتتساقط من الأشجار قطرات الندى كأنها دموع على الهدوء والسلام الذي ولى .وأما الطيور فتنهض مذعورة وتصرخ كلها في وقت واحد كأنها جنود باغتها رئيسها فراحت توهمه أنها لم تنم ..أو كأنها تريد أن تعتذر للنهار عن هدوء الفجر وسلام الليل ..وكأن الراحة خطيئة يجب الاعتذار عنها..

والماء الذي نزل من السماء .تحاول الشمس أن تسترده الآن ..إنها تبخره ..إنها ترفعه إلى أعلى ليسقط في شباك السحب ..فالشمس هي أمهر صياد ..إنها تلتقط الماء من الأرض وتخفيه في السحب.

وكلما ارتفعت الشمس في السماء تعالت الأبخرة من الأرض تحييها ..أبخرة الأتربة والتلال والأشجار وبقايا الناس والحيوان وأنفاس الزهر والثمار والتوابل والدموع والخنازير والأبقار وعرق الكادحين النائمين على الأرض المبللة..

وكأن الليل يسوي بين الناس ..بين الغني والفقير ..بين الهندي والأوربي ..بين اللاجئين من أبناء التبت وبين من جاءوا يتفرجون عليهم ..بين البوذي والسيخ ..بين المسلم والذين يعبدون النمل..

وعندما طلع الفجر اختفى الناس ولم يبق إلا ما صنعته السماء للناس..

وعندما طلعت الشمس، اختفى ما صنعته السماء، وظهر ما صنعه الناس بالناس وللناس..

زحام شديد من الكلام الصيني والهندي والإنجليزي والعربات والحيوانات والروائح والصراخ واللعنات ..والباب يدق ويدخل الخادم بوجهه الذي لا معنى له والذي له رائحة وفي يده الصحف والشاي..

وألقيت على الفقيدة الراحلة -على الطبيعة الجميلة -نظرة وداع..

لقد فتحت النافذة، فانفتحت نفسي ..ورأيت الناس فانسدت نفسي ..فسددت النافذة.

واختفى الصباح الجميل ..في مدينة ميسوري!

وقبل الموعد المحدد ذهبت إلى حيث البوابة الأولى ..والبوابة الثانية .ومشيت في طريق على جانبيه رهبان...

ثم مشيت في طريق آخر مرصوف بالظلط الأحمر والأصفر.

ووجدت نفسي وجهًا لوجه أمام القصر الإنجليزي الذي يقيم فيه الدلاي لاما ..القصر أصفر اللون ..ونوافذه بنية اللون ..وله زجاج نظيف كبير ..وأمام القصر مدينة صغيرة ..وبها عدد كبير جدًّا من الناس .قد سبقوني إلى هذا المكان.

وبين لحظة وأخرى يظهر أحد الرهبان ويهمس بكلام وعبارات .لا بد أنها شبه مقدسة ..ولا بد أنها تشبه الـ»د.د.ت .«تقتل السموم والشرور التي تحوم حول المكان وتريد أن تنقض على الدلاي لاما ..ففي الهند آلهة كثيرون وليسوا على وفاق مع قداسته ..رغم أن قداسته بوذي أو فيه شيء من البوذية.

ويختفي هذا الراهب ويظهر راهب آخر وحركة فمه مختلفة عن الأول وكأنه يستخدم كلمات أكثر إبادة للشرور والشياطين ..ويظهر ثالث ..وينظر يمينًا وشمالًا ولا ينظر لنا ..لأنه لا خوف منا ..ويبدو أنه تأكد من خلو الجو تمامًا من كل سوء...

أما وجوه الناس فأشكال وألوان ومعان غريبة ..هذه أم ومعها طفلها كلما حاول أن يتكلم سدت فمه .وهمست في أذنه بكلام غير مفهوم طبعًا ..ويسكت الطفل ويحاول أن يقاطع أمه وهي تصلي ..وهذه عجوز أتت ببقرتها ..وهذا شاب مجذوم ..وهذا رجل يحمل على كتفه اثنين من الأطفال..

وفجأة يظهر راهب ..كأنه يباغت الشرور التي لا بد أن الدعوات لم تصبها والصلوات لم تسقطها ..ثم يظهر الرهبان جميعًا ويفسحون الشرفة للدلاي لاما الذي يرفع يده ويحني رأسه ومن وراء منظاره الزجاجي تلمع عيناه ..تلمع أكثر من ملابسه الملونة الزاهية بالأحمر والأزرق والأصفر..

ويقترب منا قداسته بضعة سنتيمترات ويقول:

تكد ..ثك ..ره ..لي ..آه »لحظة صمت ..«بي ..أهو ..لي
تهوه ..شي ..منه ..بو ..تو ..توهان ..هاما ..سوفوت »صمت طويل ..«اده له ..آه!

ليست هذه أخطاء مطبعية ..وإنما هو كلام حقيقي ..كلام مقدس له أول وله آخر .وأنا رأيت أوله وهو يخرج من بين شفتين ناعمتين رقيقتين تستديران وتصبحان كخاتم سليمان، ثم تمتد إحداهما إلى الأمام في اشمئزاز مقدس، والأخرى تهبط إلى أسفل في قرف إلهي ..ورأيت آخر هذا الكلام وهو ينزل فوق رءوس حانية عارية.

رأيت الكلام ينزلق على الرءوس فتتلقفه الأيدى المبسوطة عند الركبتين ..ورأيت معناه في العيون الدامعة والصدور التي تعلو وتهبط وتلهث حائرة بين معاني هذه الآيات البلكونية -فقد كان قداسته واقفًا في البلكونة -ولا بد أن هذه البلكونة ترمز إلى إحدى السماوات أو الأبراج التي في السماء.

وفجأة يختفي الدلاي لاما ..ويقفل الرهبان الأبواب وراءه حتى لا يصاب بأنفاسنا الإنسانية الآثمة ..وحتى لا تزعجه أصوات المؤمنين الذين يطلبون المزيد من الآيات والنظرات ..والمزيد من لعناتي أنا!

12ساعة ذهابًا وإيابًا في الوحل والمطر والبرد ورائحة العفونة والبعوض وبعد ذلك :تكك ..تكد ..موه ..أوه!

روح يا شيخ منك لله!

وعدت في قرف شديد إلى الفندق ..ولم ألتفت إلى الحشد الذي يمثل عددًا من أبناء التبت لم تسعدهم الظروف لمشاهدة الدلاي لاما .ولو مددت يدي أو رجلي لقبلوها بالترتيب حسب الحروف الأبجدية!

وفي اللوكاندة، اتصلت برئيس وزارة التبت أطلب إليه أن يوافق على مقابلتي للدلاي لاما .لا أن أراه عن بُعد ..فلم تكن هذه مقابلة ..إنما هي مواجهة .كما يتواجه المجرمون والكلاب البوليسية في أقسام البوليس.

ولك الآن أن تعرف أينا المجرم وأينا الكلب البوليسي، بعد أن عرفت من طريقة خروج الحروف والكلمات من بين شفتي الدلاي لاما!

وبعد أن عرفت الكلب البوليسي الآن، فلا يمكن أن أكون أنا المجرم .فالاعتداء على راحتي وعلى آمالي واضح جدًّا!

وقد لمست من صوت رئيس وزراء التبت لهجة ليست ودية بالمرة .فلا أعرف إن كان الرجل قد رجع في كلامه .أو كان الرجل الهندي الذي يتولى قطع العلاقات العامة والخاصة للدلاي لاما قد أثر عليه.

ولاحظت أنني ذهبت في كلامي معه إلى أقصى درجات التوسل والرجاء، وفهمت من رئيس الوزراء أنه لا يستطيع أن يقابل الصحفيين في هذه الأيام .واستوضحت منه معنى »هذه الأيام ..«فهذه الأيام بالنسبة لنا نحن البشر معناها هذا الأسبوع أو هذان الأسبوعان على الأكثر .ولكن بالنسبة للآلهة ..فلا بد أن تكون »هذه الأيام «معناها السنوات أو القرون!

ومع عبارة خرجت من فم رئيس الوزراء تقول :اتركني أفكر ..بدأت أنا في التفكير..

وفي الصباح الباكر كنت قد نفذت فكرتي..

وجاءت الريكشا وتمددت عليها ملفوفًا بالبطاطين وملفوفًا بالفوط والبشاكير .واندهش الناس .وقلت لهم بصوت غير واضح :إنني مريض وعلاجي الوحيد عند قداسة الدلاي لاما..

وبين طيات ملابسي توجد كاميرا..

أما الرجل الذي يحمل الريكشا من الخلف فهو مصور محترف، وقد استدرجته إلى هذه المنطقة بين الجبال وراء أمل براق جدًا هو أنني موفد من إحدى شركات السينما العالمية لعمل فيلم عن الدلاي لاما ..ووعدته بأن يكون ضمن الذين سيشتركون في تصوير هذا الفيلم .وأشهد أن هذا الشاب المصور كان في غاية الإخلاص .ومع الأسف لا أعرف اسمه الآن فقد أحضر معه عدة كاميرات وعشرات الأفلام.

واجتزنا الحواجز الواحد بعد الواحد ..واقتربنا من الحديقة .ودخلت الباب الخارجي والصالة والسلالم.

ورآني رئيس الوزراء فسبقني إلى فوق، إلى حيث يعيش الدلاي لاما ..ويبدو أنه أدرك هذه الحيلة .وأدرك أيضًا أن هذا انتصار على الرجل الهندي قاطع العلاقات العامة..

وعلى المحفة صعدت السلم.

الآن أصف لك البيت أولًا ..السلم من خشب كسلالم البيوت الإنجليزية، ومفروش عليه سجاد من جلود الأغنام أو الجمال أو حيوان اللاما ..ولكن الخشب والجدران نظيفة كلها .وتفوح منها رائحة أقرب إلى البخور .وكل شيء هامس تمامًا ..والسلم ضيق ودرجاته ضيقة ..وهو يلتوي فجأة .وعند الالتواء تجد نفسك في مواجهة لوحات على الجدران .والأرض مغطاة بسجادة فخمة، جميلة الألوان ..وتتدلى من السقف نجفة .وكل الأبواب مقفلة .ولكي يضعوا المحفة على الأرض، كان لا بد من زحزحة بعض المناضد والمقاعد..

وابتسم رئيس الوزراء وأشار لي بأن أنهض من تحت البطاطين وأنه لا داعي لهذه الحيلة التي جازت على الرجل الهندي .وأن هذا يكفي .ولكني تمسكت ببعض الأغطية وبعض الفوط الملفوفة حول عنقي .ورغم حرارة الجو في هذا القصر الدافئ ورغم خوفي من تيارات الهواء عند انفتاح شباك أو باب .فإنني ظللت ملفوفًا مربوطًا وعلى استعداد لأن أقول آه ..بأعلى صوتي.

ومن ورائي انفتح باب صغير .وعند انفتاحه انحنت الرءوس التي ظهرت فجأة، وتقدم الدلاي لاما..

والآن أراه بوضوح وأصفه لك عن قرب :شاب متوسط القامة .لامع الوجه والابتسامة أيضًا ..وصوته غليظ وشعر رأسه قصير .ويمشي مرفوع القامة .وقد لاحظت لمعانًا غريبًا في عينيه .مع ميل إلى أن يغمض عينه اليسرى عند الضحك ..وهو لا يضحك وإنما يقهقه .ولم يكد يراني حتى تعالت ضحكاته ومد يده المقدسة ووضعها على رأسي، ثم لمس أنفي .ولا أعرف إن كان المقصود هو أنفي بالذات، أو أن يده أخطأت الطريق إلى فمي لعلي أقبلها ..ثم اتجه مباشرة إلى كرسي وثير وجلس واضعًا شبشبًا على شبشب ..فبعد أن جلس خلع الشبشب الذي يرتديه .ثم وضع واحدًا منهما على الآخر .تمامًا كما كنا نفعل في الريف عندما نتشاجر، فنضع طوبة فوق طوبة دلالة على أن المعركة مستمرة .وكنا نقول ونحن صغار :طوبة فوق طوبة تبقى المعركة منصوبة!

ولاحظت أن قدمي قداسته لا ترقيان إلى المستوى اللائق ..ثم أن أظافره مصبوغة بلون أصفر.لا أعرف إن كانت هذه صبغة أو أي شيء آخر..

وتحت الأغطية صرخت بشكل مكتوم :الله يخرب بيتك يا دلاي!

فقد وجدت في ساقيه آثار دمامل ..آثار هرش ..أي أنه بيده التي لامست وجهي قد هرش في ساقيه ..وهنا فقط لم أعد في حاجة أن أقوم بتمثيل دور الرجل المريض .فأنا بالفعل مريض وأنا في انتظار أي مرض .والذي هربت منه في نيودلهي، قد سبقني إلى ميسوري ..وعلى أعلى المستويات ..فوق الهملايا، وعند رجل إله!

وقلت :آه -ردًّا على سؤال منه، فقال المترجم :هل أنت مريض؟ وقلت :آه -ردًّا على سؤال آخر :وهل أنت صحفي؟

وقلت :آه -ردًّا على سؤال لم أكن أتوقعه :وهل تريد حديثًا معي وصورًا أيضًا؟

وهنا نزعت الأغطية .بعد أن أحسست بأنني خنقت نفسي من غير مبرر .وأن بعض هذه الأغطية كان يكفي للضحك على »قاطع العلاقات «الموجود في الدور الأرضي..

وجلست إلى جوار الدلاي لاما، لكي تظهر لي أول صورة نشرت له في العالم العربي .أول صورة تنشرها »أخبار اليوم «للدلاي لاما ..وأنا أبتسم له وهو أيضًا .وسبب ابتسامتي أنني رويت له نكتة .وسبب ابتسامته أنه يضحك عادة .وأنه ليس في حاجة إلى أي سبب لكي يضحك .وفي صورة أخرى لم أنشرها بعدما رأيت نفسي أقهقه .أما السبب فهو أن الدلاي لاما طلب مني أن أبلغ تحياته إلى المؤمنين به ..المساكين في شوارع القاهرة والإسكندرية والمنصورة وغيرها من المدن!

سألت الدلاي لاما :كيف هربت من التبت إلى الهند؟

فأجاب بصوت غليظ :سر..

وسألته :هل أخذت معك كميات من الذهب؟

فأجاب :سر..

قلت :هل تنوي نشر مذكراتك بعد ذلك؟

فأجاب :سر..

سألته :ما سر حرصك على أن يكون كل شيء سرًّا؟

فأجاب :سر..

قلت :ولكن كل شيء معروف عنك ..فمعروف عدد رجالك ..وماذا تأكلون وماذا تشربون ..إن الذين يتولون حراستك هم الذين ينشرون أخبارك في كل مكان.

فأجاب :إنني أعرف ذلك.

قلت :إذًا لا يوجد أي سر..

فضحك ..ثم عدت أسأل الدلاي لاما :هل أستطيع أن أعرف كيف تعيش هنا؟

وأشار إلى ملابسه وإلى غرفة في مواجهتنا وضحك..

وهنا التفت إلى المترجم أسأله إن كان المقصود هو أن قداسته قد زهق وأنه يكاد يطلع من هدومه..

ولكن المترجم لم يشأ أن يقول شيئًا..

وعدت أسأله :ما الذي قلته قداستك الآن؟

فضحك ولم يقل شيئًا.

وتلفتُّ إلى المترجم أسأله .ويظهر أن المترجم يريد أن يقول لي :هذا سر.

وسألت الدلاي لاما :هل جاء دورك لكي تختفي في سن الثالثة والعشرين كما هي العادة؟ أم وجودك في بلاد أجنبية يجعلك تعدل عن هذه العادة؟

وضحك.

وقبل أن ينطق قلت له :هذا رأي الصحف الصينية!

وسألته :ما هي حدود قدرتك كإله؟

وأعتقد أن السؤال كان صعبًا ولم يكن متوقعًا!

فأشار إلى الغرفة الضيقة.

والتفت المترجم يقول :إنه يصلي دائمًا..

أي إنه يطلب من آلهة أكبر أن تعاونه على أداء رسالته..

يعني هذا الدلاي لاما غلبان مثلنا!

وطلبت إلى الدلاي لاما، قبل أن ينهض وقبل أن يزهق من عشرات الصور التي التقطت له، والتي التقطها المصور الهندي صاحب الطموح العظيم، أن يسمح لي بتصوير صاحبة القداسة والدته .فالناس يتلهفون على التطلع إلى وجهها السماوي..

وهز رأسه بالموافقة..

وألقيت بآخر اللفات التي خنقت عنقي، واتجهت إلى الغرفة الضيقة التي كثيرًا ما أشار إليها قداسته..

والغرفة ضيقة جدًّا..

وعلى الأرض توجد سجادة ضيقة ..سجادة للصلاة..

وأمام السجادة توجد لفة كبيرة من الورق ..هذه اللفة تضم الأدعية والتراتيل التي يؤديها الدلاي لاما، كل يوم في الصباح قبل أن يباشر مهام ألوهيته ..واللفة يبلغ طولها نحو عشرين مترًا ..والكلمات مكتوبة عليها بالطول ..أي

السطر الواحد طوله عشرون مترًا، ولكي نقرأ السطر الذي يليه يعيد اللفة من أولها إلى آخرها ..واللفة الواحدة بها عشرون سطرًا طوليًّا.

وليست هذه إلا إحدى اللفائف الخاصة بهذا اليوم فقط .وقيل لي إن قداسته يقرأ حوالي عشرين لفة في اليوم الواحد!

إلى هذه الدرجة هو مشغول في الدعاء لشعبه الطيب؟

وعلى الجدران توجد لوحات للطواويس..

لا أعرف إن كانت هذه اللوحات لها أية دلالة دينية عند البوذيين الذين ابتدعوا منصب الدلاي لاما في أواخر القرن التاسع عشر ..أو أن هذه اللوحات تخص الإنجليز الذين كانوا يسكنون هذا القصر .وأنهم أتوا بها من إيران مثلًا..

وقد لاحظت فيما بعد عندما زرت قصر الإمام أحمد ملك اليمن السابق في صنعاء مثل هذه اللوحات التي تضم مجموعة من الطواويس الملتهبة الألوان؛ ولم أجد أحدًا أسأله عن دلالة هذه الطواويس، وإن كنت أعرف أنها لوحات مرسومة على سجاجيد إيرانية.

ولعل الدلاي لاما قد استعار ألوان ملابسه من هذه اللوحات.

وبينما أنا مندهش للفائف الطويلة، وللسجادة التي تشبه شريطًا من الورق مقصوصًا بغير عناية ..وللشبشب الصغير جدًّا الموضوع فوق السجادة، حتى لا تطير، إذ انفتح الباب أو الشباك فجأة..

وفي هذه اللحظة تقدم أحد الرهبان وزغدني في جنبي.

والتفت لأراه وقد أمسك زجاجة عطر .وعلى الطريقة البدوية لمس يدي بالزجاجة فنزلت قطرة من عطر لونه أصفر .وأدنيت العطر من أنفي .وكان لا بأس به .وقبل أن أسأله عن مصدر هذا العطر، وإن كان يشفي من الأمراض، وجدته قد اختفى..

وبعد أن أطلت التأمل في الغرفة التي ليس بها أي شيء أكثر مما قلت، والغرض من التأمل هو أن أبين للدلاي لاما أن في الغرفة شيئًا يغري بالتفكير والتأمل .والذي فكرت فيه وتأملته هو كيف يعتقد هذا الرجل العبيط أنه إله!

وخرجت بسرعة لأن السيدة والدته في انتظاري..

والله فرجت يا واد ..الدلاي لاما وأمه أيضًا!

والله طاقة القدر انفتحت لي مرتين!

والطريق إلى غرفة قداسة الأم عبارة عن ممر صغير .ولم ألتفت إلى شيء في الممر .فلم يكن هناك أي شيء.

وانفتح الباب .وطلت سيدة تضع منظارًا على عينيها .والسيدة ترتدي فستانًا من النايلون الأبيض .وظننت أنني جئت في الوقت غير المناسب خصوصًا أن قداستها لا تزال في قميص النوم.

ولكن قداستها ابتسمت وأشارت لي بالجلوس وهي تمد يدها تسلم عليَّ ..توقفت مدة أخرى .فأنا لم أكن أعرف أن السلام على قداستها ليس حرامًا ..وقابلت ابتسامتها وبساطتها بقولي :أنا كنت أتصور أنك أكبر سنًّا!

فقالت وكلها أنوثة عادية جدًّا :كم سني؟!

قلت :في الأربعين.

فضحكت وهي سعيدة جدًّا .هل تعرف أن أمي لا تزال على قيد الحياة وأنها شابة !ومعنى ذلك أنها صغيرة ..ولكن ما معنى أنها لا تزال على قيد الحياة؟ هل كان المفروض أن أمها تموت وهي في ريعان الشباب، تمامًا مثل الدلاي لاما الذي يجب أن يختفي في أجمل سنوات عمره !لا أعرف ولم أستوضحها .فمنظرها وملابسها وخجلي والزكام الذي بدأ يغزو أنفي ويلسعه من الداخل، كأنني تنشقت بمليون بعوضة، كل هذا منعني من الاستمرار في الكلام معها وفي التقاط صور لها في أوضاع مختلفة ..في الفستان ووراء الناموسية النايلون أيضًا.

وعدت أسألها :هل كنت تتوقعين أن يكون ابنك دلاي لاما؟

قالت :شعرت بهذا .وكنت أحيانًا أحلم بأنه على رأس جيش، وأحيانًا بأنه يطير في السماء .وكان المرحوم زوجي يتهمني بالجنون..

وقد رأيت وجه قداستها يتلون بالاحمرار، عندما أكدت لها أنها شابة ..وأنها أصغر بكثير جدًّا مما تصورت.

حتى أم الإله لم تنس أنها أنثى ..وربما كانت هي الوحيدة التي لا يعنيها أمر دولة التبت من أولها إلى آخرها .إن دخولها إلى الهند قد ملأ غرفتها الصغيرة بالملابس النايلون والأبيض والأحمر والسوتيانات .وأعتقد أنني لمحت بعض اللبان الأمريكي وبعض السجائر أيضًا!

وسألتني قداستها :من أي بلد أنت؟!

فقلت :من القاهرة عاصمة مصر.

وقالت :وهل جئت لترى صاحب القداسة ابني؟!

قلت :طبعًا.

وسألتني :ما رأيك؟

وهل يكون لي رأي .طبعًا رفعت يدي مضمومتين إلى أعلى، أحيي مجرد ذكر اسم صاحب القداسة الدلاي لاما!

واستأذنت منها ..لأتركها على حريتها تنزع الفستان النايلون وترتدي مسوح الراهبات .فهي راهبة طبعًا .ولا يحق لها أن تتزوج لعدة أسباب:

أولًا؛ لأنها أنجبت إلهًا والتبت لا تؤمن بتعدد الآلهة ..وثانيًا؛ لأنها أنجبت أربعة إخوة للدلاي لاما، رجلين وامرأتين .وإحدى ابنتيها تعيش في منطقة دار جيلنج على مسافة قريبة من الدلاي لاما، هذه المنطقة هي أحسن مناطق الهند في زراعة الشاي .ويوجد شاي عالمي باسم دار جيلنج .ولعلك تلاحظ أيها القارئ أنه مضت عدة صفحات لم أشر فيها إلى كوب واحد من الشاي دخل به جرسون أو رفضت أن أشربه ..والحقيقة أنني فقدت طعم الشاي واللبن والنوم والدنيا ..وفي اللحظة التي تحققت فيها أمنيتي برؤية الدلاي لاما بدأت أشعر بالزكام والسعال، وفقدت طعم الشاي واللبن والحياة.

ونزلت السلم بدون ريكشا .وقد سبقني الشيالون -أو الذين يحملون الريكشا -ولم ألتفت كثيرًا إلى الناس على الباب أو أمام الباب .حتى ضابط العلاقات الهندية، لم أجد في نفسي رغبة في أن أنظر إليه .ورأيت أنه من العبث وتبديد الطاقة أن أنظر إليه بشيء من الشماتة ..أو الاحتقار!

وخرجت والناس المؤمنون والرهبان يتلفتون ناحيتي .وكل عيونهم تحسدني وتقول بكل لهجات أهل التبت .يا بختك ..إتس ..إتس!

والكلمتان الأخيرتان هما اللحن المميز للزكام والسعال الذي انتقلت عدواه من صاحب القداسة إلى أنفي!

ولم أعرف على أي شيء يحسدني هؤلاء الناس؟ هل يحسدونني على المشوار الطويل الذي قطعته من مصر إلى الهند؟ أم من العاصمة الهندية في سيارة قديمة حتى وصلت إلى هذه المناطق الجافة القاحلة؟ أم على المغص الذي بدأ يلعب بأحشائي؟

أما السعال فقد انفرد بتمزيق صدري ..كأن السعال »فنان «عصبي المزاج، كلما كتب شيئًا راح يمزقه ..ولكنه بدلًا من أن يلقي بما يمزقه في فمي أو في أنفي .فإنه يحتفظ به في صدري .في مكان ما في صدري!

إتس ..إتس ..وإخص على قداستك!

* * *

وبنفس السيارة الطويلة العريضة عدت إلى نيودلهي، بعد أن ودعت الشيالين، وودعت المصور الذي تركته يحلم بذلك اليوم الذي تجيء فيه عدسات السينما العالمية لتلتقط قصة حياة صاحب القداسة، ويكون هو من ضمن الواقفين وراء الكاميرات..

وعندما ودعته، اضطررت إلى أن أقرصه .فقد كان نائمًا في أحلام سعيدة ..وفي ركن من السيارة بدأت أقرص نفسي، لأتأكد إن كنت حيًّا أو ميتًا، فلم أصدق نفسي وأنا أقول باللغة العربية :أول صحفي في العالم كله يقابل الدلاي لاما شخصيًّا، ويأخذ منه الزكام ..ومن المؤكد أنني أول صحفي في الكرة الأرضية يصور أم الإله، ولو طلبت مني أن أتزوجها لوعدتها فورًا!

إنه قداسة الدلاي لاما يتلقى الدعوات ويوزع البركات بمنتهى السخاء!..

حفاة تقدميون جدًّا!

انتهت مهمتي الأولى في الهند..

والمهمة الثانية هي أن أذهب إلى ولاية »كيرالا «في أقصى جنوب الهند، لأكتب قصة الصراع بين الحزب الشيوعي وبين الحكومة المركزية في نيودلهي ..فالهند مجموعة من الولايات، كل واحدة لها برلمان ولها وزارة .وهي جميعًا تتلقى التعليمات من الحكومة المركزية .وبعض ولايات الهند يبلغ سكانها ثمانين مليون نسمة!

وولاية »كيرالا «تقع على الساحل الغربي للهند ..إلى الجنوب من هذا الساحل.

ويقال :إن اسمها »خيرالله .«وإن هذه التسمية قد أطلقها العرب على هذه البلاد .والمسلمون قد دخلوا إلى الهند من هذه النقطة، واليهود أيضًا، فعندما انهدم المعبد في أورشليم هرب اليهود على سفن فينيقية إلى هذه البلاد وأقاموا لهم معابد كثيرة، وخصوصًا في مدينة كوتشين.

عاصمة هذه الولاية اسمها »ترفندروم ..«الاسم فقط جميل ..ولكن المدينة نفسها ليست كذلك.

جعلت ألف في شوارع نيودلهي بحثًا عن أية معلومات عن ولاية كيرالا .لم أجد في المكتبات إلا منشورات صغيرة .وأحيانًا فصولًا ضمن الكتب .وفي نيودلهي مكتبات ممتازة بها كل الكتب التي صدرت في إنجلترا بالذات.

ولم يكن أمامي إلا الحزب الشيوعي .وذهبت إلى مركز الحزب الشيوعي وسألت عن كتب هذه الولاية .وهناك وجدت بعض الكتب، وبحثت عن خريطة لهذه الولاية أيضًا وبدأت أجمع كل ما تنشره الصحف الهندية عن الموقف في كيرالا ..عن مظاهرات الطلبة ورجال الدين .وعن الهجوم على رئيس الوزراء نامبودريباد .وجمعت صوره وخطبه .ولاحظت أنه رجل قوي الحجة .وأن له تعبيرات خاصة، وهذه التعبيرات مألوفة ومتكررة عند كل الزعماء الشيوعيين .وقد ساعدتني وزارة الخارجية الهندية، فأبرقت إلى ولاية كيرالا وطلبت من المسئولين هناك أن ينتظروني وأن يحجزوا لي مكانًا في أحد الفنادق .وسافرت بعد أيام إلى مدينة »مدراس «في طريقي إلى ترفندروم عاصمة كيرالا.

و»مدراس «مدينة كبيرة واسعة..

وهي تقع على الشاطئ الشرقي للهند إلى الجنوب .وهي أيضًا لا تختلف عن المدن الأخرى ففيها نفس الروائح وربما كانت هناك أقوى .والجو هناك طبعًا حار والرطوبة عالية والبعوض كثير جدًّا .والناموسية المزدوجة لسريري لا تكفي لحجز البعوض، والفليت الذي يرشون به غرفتي لا يقتل البعوض .وإن هناك احتمالًا كبيرًا في القضاء علي أنا إذا استمرت الرشاشة تبصق هذه المواد السامة في وجهي.

وجلست في ردهة الفندق الكبير أقلب الصحف، ووجدت أشياء طريفة .قرأت موضوعًا عن البوليس النسائي .فقد لجأت هذه الولاية إلى الاستعانة بالبوليس النسائي وجعلت له زيًّا خاصًّا .ويبدو أن هذه الفكرة قد أثارت سخرية الناس؛ وأنا أعرف كيف يسخر الهنود، ولكن لا أعرف كيف يضحكون .فربما كان الشعب الهندي هو الشعب الوحيد في كل القارة الآسيوية الذي لا يضحك أو من النادر أن تجد على وجه أي إنسان أي بارقة ابتسامة ..على عكس كل القارة الآسيوية التي تضحك شعوبها بلا مناسبة .ربما كان هذا ما يسمونه التوازن الدولي!

وقرأت مقالًا طريفًا ..والمقال على شكل نداء موجه إلى الشعب في ولاية مدراس..

المقال يطلب من الناس أن يكفوا عن قتل الثعابين..

ويتساءل الكاتب لأي سبب يقتل الناس هذه الزواحف المسكينة ..هل هناك عذاب أو لعنة أصابت كائنًا حيًّا فحزن فقطع أرجله وفضل أن يزحف على بطنه مثل الأفاعي؟ ألا توجد في قلوب الناس رحمة ..ألا يذكر الناس أن الله لم يخلق لهم الأيدي ليقتلوا بها الكائنات التي بلا يدين ولا رجلين؟ ثم لماذا يقتل الناس هذه الأفاعي؟ يقتلونها لكي يسلخوها ..ثم يبيعوا جلدها ..ولا يمضي وقت طويل حتى يتحول الجلد إلى حزام لامرأة .أو جزمة لفتاة ..أو شنطة يد لعروس ..فهل كل هذه المجازر الشائنة من أجل إرضاء المرأة؟ هل المرأة تساوي كل هذه الدماء؟

ثم من الذي يذبح الأفاعي من أجل المرأة؟ إنه الرجل ..الذي أذلته المرأة وجعلته كالأفعى، يزحف على يديه وعلى رجليه وعلى شرفه .وعلى جثة كرامته!!

إن الرجل ينسى ما فعلته المرأة به..

أو لعله يتذكر جيدًا ما فعلته المرأة؛ ولذلك فهو يقتل هذه الحيوانات المسكينة انتقامًا من المرأة!

وشيء مهم جدًّا أشار إليه الكاتب..

وقال :لنترك هذه الاعتبارات الإنسانية ..إن هناك اعتبارًا اقتصاديًّا مهمًّا جدًّا، يحتم علينا، ولأسباب وطنية، أن نترك هذه الثعابين تعيش بيننا ..كما تعيش حيوانات أخرى كثيرة لا فائدة لها ولا ضرر أيضًا ..إن هذه الثعابين تأكل الفيران، والفئران إذا لم تأكلها الثعابين فإنها تأكل حقول القمح..

ويصرخ الكاتب قائلًا :هل عرفتم هذه الحقيقة؟ إن الفئران هي التي تأكل القمح قبل أن يتحول إلى دقيق لكم ولأولادكم؛ فلماذا لا تتركون الأفاعي والثعابين تدافع عنا بلا مقابل!

والفكرة وجيهة ..وهي مشكلة من المشاكل الموجودة في هذه المنطقة .ولا بد أن لها نظيرًا في ولايات أخرى.

ورفعت سماعة التليفون لأسأل عاملة التليفون :هل قرأت صحف اليوم؟ ولم تفهم هذا السؤال الذي يعتبر دخولًا في موضوع لا تعرف هي عنه أي شيء..

أو لعل هذه الفتاة قد تعودت معاكسة النزلاء، ولذلك فهي لا تستبعد أن يكون كلامي معها مجرد مداعبة ..وسيكون لهذه المداعبة ما بعدها..

يجوز ..وكان ردها استنكارًا ملفوفًا في ثوب مهذب من الدهشة المهنية، أي الدهشة التي تحتمها طبيعة المهنة، وأعدت السؤال مع شيء من التوضيح فقلت لها :هل قرأت ما كتبته الصحف اليوم من أنه يجب على المواطنين ألا يقتلوا الثعابين التي تأكل الفئران التي تأكل القمح؟ هل هذا رأيك أنت أيضًا ورأي اللوكاندة؟ هل أنتم تقتلون الثعابين، أم أنكم من أنصار الحياة ..أي إن الإنسان يجب أن يعيش وأن يترك غيره يعيش .غيره من الناس والأفاعي؟

وبالاختصار هل في غرفتي ثعابين أو فئران؟

أما الضحك الذي سمعته في التليفون فلم يقابله إلا غيظ شديد مني ..وألم متواصل في خدودي وفي قفاي ..قبلات وصفعات من البعوض الذي تسلل إلى داخل الناموسية ..وأنا أعتذر عن استخدام كلمة »تسلل «هذه .فمعناها أن البعوض قد وجد صعوبة في الوصول إلى وجهي .والحقيقة أن الطريق كان مفتوحًا.

وكان رد عاملة التليفون أن كاتب هذا المقال رجل مجنون ..والحقيقة أنها قالت :صحفي مجنون!

وقبل أن تسألني عن صناعتي، اكتفيت بهذه الشتيمة الموجهة إلى أحد أبناء مهنتي .ودخلت الغرفة في انتظار ثعبان أو فأر!

وفي الليل خرجت أتمشى في المدينة ..وركبت أحد التاكسيات ..إنها هنا كثيرة .فالتاكسيات في مدينة نيودلهي كلها من ماركة موريس الصغيرة .وكل سائقيها من طائفة السيخ، فالسائق يملأ المقعد وعمامته تضرب في سقفه .ومنظره غريب جدًّا .إن الذي يراه في القاهرة يحس لأول وهلة أنه حانوتي ..أو سائق عربة موتى .والمرور هنا أيضًا على اليسار .وكل دول الكومنولث البريطاني تمشي سياراتها على اليسار، مثل قطارات السكك الحديدية ..أي على عكس المرور عندنا وفي كل الدنيا!

وسألت سائق التاكسي :هل تعرف كيرالا؟!

وأجاب :طبعًا.

وسألته عن الأحوال هناك وما رأيه هو الشخصي .وأصبح رأيه معروفًا عندما قال لي إنه من مواليد كيرالا، وإنها جميلة .وإن الأزمة السياسية التي فيها لا بد أن تنتهي ولا بد أن ينتصر حزب نهرو مهما فعل الشيوعيون .وعرفت منه على الرغم من أنه شيوعي .ولكنه يعيب على الحزب الشيوعي هناك تفككه .فلو كان الحزب قويًّا لبقي في الحكم إلى الأبد.

ولم أجد في آرائه السياسية ما يشجعني على الاستمرار في هذه المناقشة ..وسألته عن الحياة هناك وعن الأمراض .وعرفت منه أنه لا توجد أية أمراض مشهورة .وإنما هناك كل الأمراض الموجودة في الهند مضافًا إليها مرض الفيل .وهذه الإضافة ليست من عند السائق .وإنما من عندي أنا، والذي أضافها ليس أنا الذي يكتب الآن، وإنما أنا الذي يخاف .الذي في خوف دائم من كل مرض .ومن اسم أي مرض.

والذي قرأته عن مرض الفيل أرعبني.

فهذا المرض ينقله الذباب وينقله البعوض أيضًا..

دودة هذا المرض لا تنشط في الدم إلا بعد منتصف الليل والساعة الثانية صباحًا، أي في الوقت الذي يكون فيه المريض نائمًا .ولا شك أن هذا يعتبر في منتهى الذوق من الدودة الحقيرة ..حتى الدود عنده ذوق في الهند!

فإذا جاء الطبيب ليكشف عن سر التهاب عين أو أنف المريض أو عنقه فلا بد أن يكون ذلك في هذه الساعات من الليل .فدودة مرض الفيل لا تعمل إلا في هدوء، أي في هدوء المريض ..فإذا تحرك المريض توقفت عن العمل..

وهم في هذه المناطق من الهند يلجئون إلى نوع من الذباب أو الحشرات التي تمتص دم الأماكن الملتهبة في الجسم .ولكن مرض الفيل المعروف، والذي يؤدي إلى تضخم جسم الإنسان، لا علاج له .وإن كان بعض الأطباء يستخدم مركبات السلفا .ولكن حتى الآن ليس له علاج أكيد ..فمرض الفيل هو نوع من التورم ..النفخة في كل أعضاء الجسم دون أن يكون ذلك مؤلمًا ..أي إنه مرض النفخة غير المؤلمة!

وهذه الدودة إذا دخلت الجسم انطلقت إلى الأعضاء الداخلية بسرعة ..وظلت كامنة هناك تنمو وتنضج في صمت، ولا تظهر أعراض الإصابة بها إلا بعد مائة يوم ..ولا تنضج الدودة تمامًا إلا بعد سنة!

والدودة الرفيعة الدقيقة الخاصة بالإنسان لها اسم رقيق جدًّا هو :لولو..

ومعلوماتي أيضًا أن هذه الديدان الفيلية موجودة في كل جزر المناطق الاستوائية، وموجودة في إفريقيا وأستراليا ..أي باختصار في كل البلاد التي سأقوم بزيارتها ..أما الوقاية منها فكل الكتب الطبية تؤكد أن الـ»د.د.ت «.هو أحسن شيء اخترعه الإنسان والـ»د.د.ت «.الغرض منه طبعًا القضاء على البعوض الذي يحمل هذه الدودة ..وليس علاجًا للمريض إذا أصيب بها .فليس أمامي إلا الوقاية :أولًا بالـ »د.د.ت «.وثانيًا بالناموسية.

فإذا عرفت أيها القارئ أنه توجد هنا في هذا الجانب من الهند جميع أنواع البعوض وجميع أمراض البعوض، ويوجد معهد خاص بدراسة البعوض الذي يوجد منه في الهند وحدها 250نوعًا، أدركت المأساة التي أعيشها، أو أدركت المأساة التي أنطلق إليها بسرعة 250كيلومترًا فى الساعة، هي سرعة الطائرة الصغيرة في أحسن حالاتها!

وربنا يستر ..وربنا هو الذي ينجي من المرض قبل الإصابة به وبعد الإصابة به .ولا أحد يعرف أين يموت ولا متى ولا كيف ولا بأي شيء، ثم إنه ليس من الضروري أبدًا أن أموت بكل هذه الأمراض، ثم إن البعوض في الهند ليس في حاجة إلى شخص غلبان يضاف إلى الـ 500مليون نسمة الموجودة في الهند، فالبعوض -ولله الحمد -لا يشكو من قلة العمل ولا نقص الغذاء.

وبهذا الاستسلام والتوكل على الله سافرت إلى ولاية كيرالا ..ونزلت الطائرة في مطار عريان من الأشجار ومن الناس ..الدنيا حر طبعًا .وإن كانت هناك نسمة خفيفة تدل على أننا على شاطئ البحر .والناس هنا عددهم أقل، والقليل منهم يتفرج على هذه الطائرة، وملابسهم هنا تغري بالفرجة، فهم يرتدون »الدوتي «هذا ما عرفته فيما بعد .وهو قطعة من القماش ملفوفة حول الجسم وملفوفة من الخلف .لم أحاول أن أعرف كيف يلفونها ثم يتحركون بها وبسرعة ..كل الناس الذين رأيتهم في المطار حفاة ..وبعضهم يرتدي الجاكتة وفي جيوب الجاكتة توجد أقلام باركر أو شيفرز، ولكنه مع ذلك أيضًا حافي القدمين!

ومن بعيد لمحت أشجار جوز الهند .والكثير جدًّا من الأشجار التي لا أعرف أسماءها .وبعد ذلك بدت الأرض كلها خضراء.

وتقدم مني شخص كل ملامحه تدل على أنه أحد الرسميين .وسألني إن كنت فلانًا الفلاني؛ فقلت :نعم .فلم يرحب بي وإنما أخبرني على الفور أنه تلقى من وزارة الخارجية إشارة تفيد بأنني قادم إلى هذه الولاية وأنه قد أعد لي كل ما أريد .وحجز لي غرفة في الفندق الكبير أو الوحيد في العاصمة .وأنه سيحاول غدًا أن يحدد لي موعدًا مع من أريد من الوزراء أو رئيس الوزارة..

وشعرت بالارتياح الشديد..

ونقلتني السيارة إلى الفندق .والفندق واسع جدًّا .ومريح .وغرفتي كانت على الحديقة ..الغرفة صغيرة ولها حمام ملحق بها .ولا أعرف لماذا لم أجده مريحًا في ذلك الوقت .ربما كان سبب ذلك أنه لا توجد ناموسية .ولكن الناموسية منصوبة حول سريري ..وأمام غرفتي ترابيزة وإلى جوارها كرسي لا يثبت في مكانه .لا أعرف من الذي ينقله في المساء ثم يأتي به في الصباح .نفس الكرسي .فقد علمت الكرسي بأن كتبت عليه اسمي .ومن الغريب أن كل الكراسي تختفي ثم يعود كل واحد إلى مكانه..

ومنظر الأشجار العالية جميل ..والجو هادئ، والهواء منعش، والناس في حالهم، ولون الأعشاب أخضر أميل إلى الزرقة .ولم يزعجني إلا الغربان وهي تخطف الأناناس من الأطباق أمامي .وفي الأيام الأولى لوجودي في هذه المدينة كنت أضيق بالغربان وبسوء أخلاقها .ولكن عندما عرفت أن الأناناس يشبه الخيار عندنا، في رخص الثمن وفي كثرته، كنت أرجو أن تخلصني الغربان من هذه الكميات الهائلة التي لا أعرف كيف أنتهي منها..

والأناناس لذيذ، والموز، والمانجو هنا ليسا لذيذين بالمرة .فالموز كبير جدًّا في حجم القثاء .والمانجو أحيانًا في حجم البطيخة الصغيرة، ولكنها غير لذيذة ولكن توجد كميات كبيرة من الكوكونتس ..أو البندق الهندي .وهو لذيذ الطعم جدًّا .ويأكلونه هنا ساخنًا مثل أبو فروة.

وقد لاحظت وجود عدد من الصحفيين من السويد والنرويج ومن ألمانيا وعرفت أنهم جاءوا إلى هنا لنفس السبب..

الكل يريد أن يعرف ما الذي يحدث لهذه الوزارة الشيوعية الوحيدة في كل الولايات الهندية ..أو كيف تغير الوضع في إحدى ولايات الهند ..أو ما مدى قوة نهرو؟

واندهشت جدًّا كيف أن الصحفيين السويديين والألمان الأوروبيين غير حريصين إطلاقًا على أن يلتقطوا صورة لرئيس الوزراء، أو صورة لهم مع رئيس الوزراء.

إن أحدًا في مصر لن يصدق أبدًا أنني جئت إلى هذه البلاد وقابلت رئيس الوزراء إلا إذا ظهرت معه في صورة، أو على الأقل زملائي الصحفيون!

بل إننا كثيرًا ما نجد في الصحف المصرية والعربية صورة لصحفي مع أحد الوزراء، كأن القارئ لا يصدق أو لن يصدق إلا إذا نشرت الصحف صورته مع الوزير ..مع أن مقابلة صحفي لوزير في القاهرة ممكن جدًّا .ومقبول جدًّا .ولن يندهش أحد لم ير صورة للصحفي والوزير معًا!

ومفهوم من كلامي هذا أنني لا بد أن أظهر في صورة مع سيادة رئيس وزراء كيرالا الذي قلب الدنيا في الهند ..والذي أصبح مركز آمال الأحزاب الشيوعية في الهند، وفي كل آسيا؛ فهو يعتبر نقطة تحول خطيرة في الحركة الشيوعية في الهند.

اتصلت بوزارة الاستعلامات .وطلبت تحديد موعد مع رئيس الوزراء .ولم تكن هناك أية صعوبة في مقابلته وطلبت مقابلة وزير الشئون، وهو وزير مسلم اسمه عبدالمجيد، ولم أجد أية صعوبة.

في كل مرة أتحدث إلى وزير في بيته يدور هذا الكلام بالحرف الواحد.

أقول :ولكن أنا لا أعرف البيت.

فيقول :السائق يعرف.

-أي سائق؟

-سائق أي تاكسي!

وفعلًا وجدت أن أي سائق تاكسي يعرف بيت أي وزير .فمدينة تريفاندروم عاصمة ولاية كيرالا صغيرة وليس فيها إلا شارع واحد رئيسي ..ثم إن بيوت الوزراء معروفة؛ لأنها بيوت رسمية .وليست بيوتًا خاصة.

هذا ما تصورته ولكن الواقع شيء آخر ..الواقع أن جميع شوارع وميادين العاصمة ليست لها أسماء، بل كل مدن الولاية لا يوجد بها شارع له اسم ..وإنما لكل شارع أوصاف .فيقال :الشارع الذي يبدأ بالمتحف وينتهي بالمعبد، أو الذي يبدأ بالحلاق وينتهي بالجزمجي، هكذا.

فهؤلاء الوزراء إذًا لا يهربون من الإجابة عن أسئلتي وإنما هذا هو الجواب الوحيد الذي يملكه أي واحد ..حتى رئيس الوزراء..

تحدد الموعد في الساعة الحادية عشرة صباحًا في بيت رئيس الوزراء »نامبودريباد «وهو الرجل الثاني في الهند، فالصحف لا تتحدث إلا عن رجلين :نهرو وهذا الرجل.

إنه ابن الأكابر .فأبوه من أعرق عائلة دينية في كيرالا على الإطلاق فهو ينتسب إلى أسرة »نامبودري «وهم سادة طائفة النابر وسادة الأسرة المالكة التي تسمى ثامبي ..ويكفي لتعرف مكانة هذه الأسرة أن المنبوذين كان يجب أن

يقفوا على مسافة عشرة أمتار من أي فرد من طائفة الناير وعلى مسافة 15مترًا من طائفة الثامبي ولكن على مسافة 35مترًا من طائفة نامبودري!

هذا هو إذًا ابن الأشراف المتدينين جدًّا الذي يتزعم حكومة شيوعية ملحدة .ومنذ أيام سأله الصحفيون ما هو الحل؟ فقال :في يد الله!

فضحكوا قائلين :وهل تؤمن بالله!

فأجاب :يعني!

فقالوا :يعني إيه؟!

وكان رده :أهوه كلام.

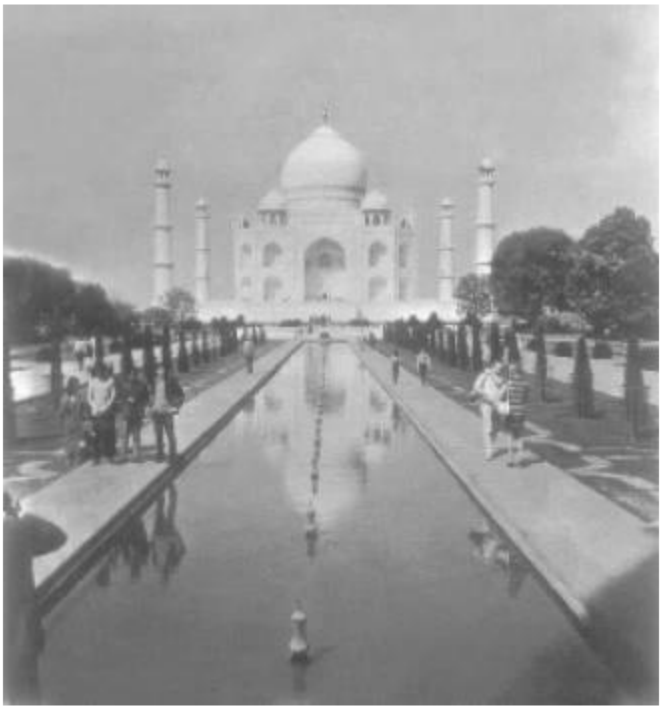

تاج محل :تحفة العمارة ورمز الحب والوفاء في كل العصور..

في أحد الأعياد لا بد من أن توضع الألوان والعطور والبخور..

وهذا الرجل قد تشرد باسم الحزب الشيوعي ودخل السجن وكان عضوًا بارزًا في حزب المؤتمر الهندي حتى سنة 1934 حين انشق عنه، وتزعم «لجنة كيرالا للحزب الشيوعي» سنة 1939.. وهذا هو الاسم الحقيقي للحزب الشيوعي في كيرالا الآن.. ودفع ما ورثه من أبيه للحزب.. وقد قدرت لي هذه الثروة بحوالي 50 ألف جنيه.

والطريق إلى بيته يمر في غابة من الأشجار المحلية.. الطريق رطب ظليل هادئ ساكن.. وتدخل السيارة في بوابة عليها حراس ويقول لهم السائق كلامًا لم أفهمه، ولا بد أن يكون معناه أنني على موعد.

وقفت أمام بيت من طابقين، له حديقة صغيرة. وأمام المدخل يتقدم إلينا سكرتير خاص.. إنه حافي القدمين أيضًا ككل سكان كيرالا.. وينظر في ورقة معه ويقرأ اسمي ويقول لي: نصف ساعة كفاية..

فأقول له: كفاية، أشكرك.

وفي المدخل توجد غرفة استقبال، انتظرت فيها لحظة حتى يتصل برئيس الوزراء في التليفون ويخبره بحضوري.

على الحائط صورة لغاندي، يبدو أن الرئيس السابق قد تركها في هذا المكان أو ربما كانت صورة جديدة.. فغاندي فيها يلبس قميصًا أحمر اللون!

* * *

وأشار السكرتير إلى السلم قائلًا: اتجه إلى اليسار دائمًا وادخل مباشرة.

واتجهت إلى اليسار، إلى السلم، فالطابق الثاني إلى اليسار. ودفعت الباب أمامي.. وكان الرئيس نامبودريباد في وجهي جالسًا إلى مكتب كبير.. المكتب عليه كتب معدولة ومقلوبة.. الكتب تتناسب مع ضخامة الرجل، إنه ممتلئ الجسم، ويبدو أكثر امتلاءً عندما يتحدث.. ولما وقف ليسلم علي رأيته قصير القامة، وكنت أراه في الصور طويلًا، ثم جلس واتجه لي مباشرة وقال دون أن يعطيني فرصة للكلام:

-من القاهرة؟

-أيوه.

-منذ متى هنا؟

-في كيرالا من أسبوعين .وفي الهند كلها من شهر.

-أين؟

-في نيودلهي والولايات الشمالية.

-مراسل دائم؟

-إني جئت في مهمة خاصة.

-ما اسم الصحف التي تمثلها؟

-اسمها دار أخبار اليوم.

-أخبار .هذه كلمة هندستانية معناها الصحف اليومية.

-عندنا صحيفة يومية اسمها الأخبار والصحيفة الأسبوعية اسمها أخبار اليوم.

-وكم صحيفة في القاهرة؟

-الصحف الكبرى ثلاث.

-كلها بأية لغة؟

-بالعربية .ولكن هناك صحف أخرى بلغات أجنبية ..بالفرنسية والإنجليزية واليونانية والأرمنية.

ودهش جدًّا لهذا العدد من الصحف الأجنبية وأمال رأسه للوراء وقال :ولماذا كل هذه الصحف؟!

-لأن عندنا جاليات أجنبية تقرأ كل هذه الصحف.

-وماذا يعمل هؤلاء الناس عندكم؟ وكم عددهم؟

-بضع مئات من الألوف.

-ياه لماذا؟ وهل هناك يهود؟

-بضعة آلاف.

-وأية لغة يتكلم اليهود عندكم؟

-العربية ولغات أجنبية أخرى لكن معظمهم من المصريين الذين عاشوا فيها من أجيال.

من الحرير كل هذا الثرى ..أما الألوان فهادئة ..وأما الجمال فأكثر هدوءًا ..عن قرب تبدو المدينة أكثر وضوحًا ..وتبدو هذه البقعة في الجبهة دليلاً على أنها سيدة متزوجة..

وكنت أول صحفي التقى بقداسة الدلاي لاما) ..ليس واضحًا في الصورة أن قداسته مزكوم .ولكني عانيت من ذلك فيما بعد!(

واحدة أو واحد من أتباع الدلاي لاما الذين هربوا وراءه من التبت إلى جبال الهيملايا..

منظر مألوف جدًّا في الهند ..هذه الأفعى لا تلدغ وإنما هي تعتصر الإنسان حتى الموت ..وهذا الرجل شحاذ!

عازفة في إحدى الفرق الموسيقية ..الموسيقى حزينة ولكن المعاني تدعو إلى حب الحياة وإلى الإيمان.

يمكن تمييز أبناء الولايات الهندية من ملابـس وزينـات المـرأة ..أما ملابـس الرجال فهي متشابهة إلى حد كبير.

-الشيوعية ما أخبارها؟

-ممنوعة قانونًا .لا نشاط شيوعي عندنا؟

-ما اسم عاصمة سوريا؟

-دمشق.

-دمشق فيها نشاط شيوعي أقوى من النشاط الذي كان في القاهرة.

-كان فيها !على كل حال لم تعد الشيوعية مشكلة إنما المشكلة هنا.

-هنا !..فين؟

-في كيرالا .أو في الهند كلها.

وضحك .ولمعت عيناه جدًّا ووضع يده على رأسه الكبير وهو عندما يتحدث يتهته طويلًا ثم يشهق ويفهق ويفتح فمه ويرجع برأسه إلى الوراء، ثم يندفع منه الكلام كأنه احتبس ثم أفرج عنه مرة واحدة.

وعاد يقول :هنا لا توجد مشكلة شيوعية .ليس لنا مشاكل، وإنما هي مشاكل الأحزاب الأخرى الضعيفة .ماذا نعمل نحن؟ لقد جئنا بصورة دستورية.

-لتقوموا بإلغاء الدستور فيما بعد؟

وضحك نامبودريباد، وكأنه يقول :قديمة!

وقلت :هذا هو مصدر الخوف منكم ..ليس اليوم ولكن غدًا.

-لا داعي للتفكير في الغد .أنا أريد أن يناقشني واحد منهم الآن ..دعوتهم إلى المناقشة والجلوس معي على مائدة واحدة وأنا أقدم لهم ما عندي وهم يعرضون ما عندهم ..رفضوا .قالوا عندنا كتاب أسود ..انتظرناه .فلم يصدر حتى الآن ..ماذا أعمل؟

-لا شيء إلا أن تبقى في الحكم كما أنت .مهما كان رأيهم ورأي المتظاهرين .لقد رأيتهم أمس بالألوف.

-يهتفون لنا..؟

-كلا ..يهتفون ضدكم..

-أنا لا أخاف من المظاهرات..

-إذًا ما الذي تخاف منه؟

-بيني وبينك لا شيء، نحن أقوياء، وأنا لا أراهم كذلك ..أين كانوا؟ ماذا فعلوا للناس؟ أين كشف حسابهم؟ كل ما يقولونه هو :استقيلوا..

-طبعًا غير معقول أن تستقيل حتى لو هدأت الأحوال ..وهم يعلمون ذلك، والصحف كل يوم تكرر هذا المعنى..

-إنهم يعطلوننا وبالتالي يعطلون مصالح الشعب .ومن بين هذا الشعب أناس أتوا بهم إلى البرلمان وأتوا بهم فيما قبل للوزارة ..من الذي يستفيد من هذا كله؟

-لاحظت أنك بعد مقابلتك للرئيس نهرو صرحت في أكثر من مؤتمر صحفي أنك متفائل جدًّا وأن احتمال تدخل الحكومة المركزية بعيد جدًّا ..فعلى أي أساس بنيت هذا التفاؤل.

-مجرد إحساس لا أكثر ولا أقل.

-يعني لا يوجد تصريح من نهرو بذلك؟

-لا.

-إن خصومك عندما قابلوا نهرو كانت لهم تصريحات مخالفة؛ فقد شعروا أن تدخل الحكومة قريب جدًّا وتأكدوا من أن رئيس الجمهورية سيطردك أنت ووزارتك الشيوعية !وأنهم لذلك متفائلون.

ولمعت عيناه تحت المنظار الغليظ، وعاد يتهته ويشهق ويختلج في مقعده جدًّا، ثم يبتسم ساخرًا، وهو يقول :كل الإحساسات غير مضبوطة ..ومن أجل هذا نحن نطالب بأن تكون هناك أسس علمية لا خلاف عليها ..هذا هو أساس الخلاف بيننا وبينهم ..المسألة عندهم عواطف ومشاعر ..والمسألة عندنا أرقام وقضايا منطقية ..طبعًا لا بد أن يكون هناك خلاف طبعًا ..لاشك في هذا وكأنه كان يتحدث إلى نفسه، ونظره إلى السقف.

-وهذا هو أيضًا سبب الثورة عليك في الكنائس؛ لأنك ضد هذه المشاعر التي ليست علمية..

-ضدها !أبدًا، ماذا فعلت ..أجراس الكنائس، أليست تدق كل يوم؟

وفجأة دقت الأجراس وارتعش رئيس الوزراء فوق مقعده؛ وكأنه سمع صوتًا يقول له :إن الله معنا..

ثم عاد يقول :لقد سمعت ..ماذا فعلت أنا؟ الصلاة قائمة ..ورجال الدين آمنون ..يقولون لك إننا ملحدون، هذا صحيح، ولكن هل قضى إلحادنا على دينهم ..هل دعونا إلى ذلك ..إنهم كاذبون أفاقون ..ليس لديهم ما يقولونه!

-عندهم ما يقولونه عن الأراضي والعقارات وقانون إصلاح الأرض.

واعتدل في جلسته ونظر إلى نظرة جادة شرسة، وكأنني أحد أصحاب الأراضي جئت أعترض على صدور القانون ..وبعد لحظة عندما تأكد أنني لست كذلك ابتسم وراح يحرك يديه الاثنتين قائلًا :هل تعرف أن القانون أصله من اقتراحات أحزاب المعارضة ..ما رأيك؟ فإذا تقدم به الشيوعيون صار كذا ..لماذا وافقوا عليه أولًا ..ثم وافقوا عليه ثانيًا ..والآن يعارضونه؟ لقد وافقوا عليه أول الأمر على أساس أنه لن ينفذ ووافقوا عليه للمرة الثانية على أساس أنه بعيد الاحتمال ..فلما حملناه محمل الجد ..ثاروا!

وفجأة وبلا أي مقدمات تلفت ناحيتي واقترب مني قائلًا، وعاد يسأل من جديد :والصحف تطبعونها باللينوتيب؟

-نعم...

-باللينوتيب أو الحروف تجمع ثم تربط وتطبع عليها الصحف.

-عندنا لينوتيب وأنترتيب .والدار التي أعمل بها عندها 20ماكينة لينوتيب ..وتوزيع صحيفتنا الأسبوعية يقرب من 400ألف.

-رقم كبير جدًّا، وباللغة العربية؟

-نعم..

-وما أخبار العراق؟

-قرأتها في الصحف..

-والأحوال مستقرة في العراق بعد ذلك يا ترى؟

-لا أعرف..

وحاولت أن أسأله أنا ..وأنا أقاطع أسئلته التي تنطلق الواحد وراء الآخر .قلت :وهل هناك أحزاب شيوعية أخرى لها نفس قوة حزبكم هنا؟

-طبعًا، هناك حزب شيوعي في ولاية إندارا وكانت له أغلبية الأصوات وإن لم تكن له أغلبية الأعضاء ..ولا أستبعد أن يكون بالغ القوة في الأعوام القادمة.

-وأحزاب شيوعية في الولايات الأخرى؟

-إنها في حاجة إلى تنظيم.

-ومتى ستنظم كلها وتصبح قوية؟

وضحك كثيرًا وبرقت عيناه وأدركت أنه سيتفادى الجواب على هذا السؤال الذي معناه :متى تسيطر الأحزاب الشيوعية كلها على الهند؟

وأجاب :الذي تقصد إليه بعيد ..فالموقف عندنا صعب جدًّا ..فنحن منقسمون إلى أقسام كثيرة طائفية لغوية ..وأنت ماذا سترى في ولاية كيرالا!

-قابلت رجال الدين.

-أنا أعرف ماذا قالوا لك، أنا أعرفهم أكثر منك ..وهل قابلت زعماء المعارضة؟ وأعرف ماذا قالوا لك ..وهل قابلت رجل الشارع؟ هل هو ضدنا؟ لا أعتقد.

-وقابلت رئيس الوزراء وأنت تعرف ماذا قال لي..

وضحك ونظر إلى التمثال الأبيض على مكتبه ..إنه تمثال لينين ..وأمامه كتب أخرى عليها أسماء لينين وماركس.

وهنا دخل أحد أبنائه .ولما سألته إن كان هذا ابنه؟ قال :نعم.

ونادى رئيس الوزراء أولاده الذين كانوا في الداخل ..وجاءوا ..إنهم ثلاثة من الأطفال وفتاة ..والتفوا حول أبيهم ووقفوا جميعًا يتطلعون إلى عدسة التصوير ..وكان أبوهم وراءهم ..كأنه أكبر الأطفال سنًّا مع أنه أخطر الرجال في الهند مركزًا وأشدهم عنادًا، ولكنه كان لا يعرف هل يبقى فى الحكم ..أم يخرج !هل يستقيل أم يعزل!

إنه رئيس وزراء، ولكنه لا يملك من أمره شيئًا.

وكنت آخر صحفي قابله وهو رئيس وزراء، فقد قرر نهرو إقالته من الوزارة بعد مقابلتي له مباشرة!

* * *

وفي الليل سقطت الأمطار بغزارة .بل إن كلمة بغزارة هذه ليس لها معنى على الإطلاق .فالذي حدث لا يمكن أن يكون مطرًا ..وإنما هو نوع غريب من ذوبان السماء فوق أدمغة الناس ..السماء كانت قبة من الثلج سخنتها الشمس فسقطت مرة واحدة .وتحولت الأرض إلى قنوات ..إلى بحيرات، وتحول الناس بقدرة قادر من مشاة إلى سباحين..

وبين الناس نزعت حذائي ..بل لم يكن لهذا الحذاء أي معنى .وعذرت الناس الذين لا يلبسون أحذية..

وملأت المظاهرات كل مكان وفي اتجاه واحد.

ومشيت في اتجاه المظاهرات وأنا أعرف أنها ضد الحكومة فقط .ولكن أي الأحزاب ضد الحكومة؟ !لا أعرف .والذي استطعت أن أفهمه فقط من هتافات المتظاهرين هي كلمة :سندباد أو إنداباد .ومعناها يعيش.

والناس هنا يتكلمون عدة لغات، من بينها لغة ..مالايلم ..والتاميل ..وفي الهند كلها توجد ألف لغة ولهجة ومائتا دين..

وانهالت الهتافات .وارتفعت المشاعل .ووقف أحد الحفاة يخطب في الناس .وانفضَّ الناس يهتفون .وفي صباح اليوم التالي لم أرَ شيئًا غريبًا لا في الشوارع ولا في المحلات التجارية.

لقد انتهت المظاهرات في سلام .وعاد الناس إلى عملهم .ولكنهم في الوقت نفسه ينتظرون سقوط الوزارة.

* * *

وبقي كل شيء على ما هو عليه..

وعدت إلى الفندق، كأن شيئًا لم يحدث ..واستأنفت نشاطي الغذائي..

وهذا النشاط يبدأ عادة بأن أشير إلى الجرسون، وبعد لحظات تجيء أكداس الأناناس وبعد دقائق تخطفها الغربان..ويضحك الجرسون وأشير إليه بأن يأتي بالأناناس وتجيء الغربان وتخطف الأناناس؛ لانشغالي بمقاومة البعوض وابتلاع بعض الأقراص والحبوب ..ثم لانشغالي بعد ذلك بتطهير أثر البعوض بالمواد المطهرة .وأتوهم بعد ذلك أنني نجوت من المرض.

وبعد الغداء وعلى غير العادة جاء مدير الفندق يسألني إن كنت لا أزال في حاجة إلى البالطو .ولم أفهم ما الذي يقصده، فعاد يقول لي :البالطو الذي أخذته للوقاية من المطر!

فصرخت :يا خبر ..لقد جرفته الأمطار وضاع في الزحام أمس.

وتركني الرجل دون أن أكمل اعتذاري عن البالطو الذي استعرته منه أمس وضاع.

وقبل أن أكمل حلاقة لحيتي، لأكون في حالة معنوية جيدة تسمح لي بالاعتذار الكامل عما حدث مع استعدادي لدفع ثمنه، جاءني الجرسون ومعه الفاتورة ..وكان ثمن البالطو سبعة جنيهات.

دفعتها والنار والعة في كل جسمي، كأنني سقطت في إحدى مستعمرات البعوض ..فقد كان البالطو قديمًا ممزقًا وقذرًا ..وكان من الواجب أن يحاسبني على تكاليف غسله في المطر .رغم أنه ضاع بعد ذلك .وأنا لا أستبعد أن يكون أحد جرسوناته قد سرقه ..فقد لمحت واحدًا منهم في المظاهرة.

هذا ما قلته لنفسي وأنا أغالطها .فقد كان من المستحيل أن أعرف أحدًا أو ألمح أحدًا، أو حتى أرى أحدًا!

وعلى مسافة بضع مئات من الكيلومترات، من عاصمة كيرالا توجد بقعة مقدسة للهند الحديثة..

والآن أصف لك ما الذي أراه، وكيف أراه..

أنا أجلس الآن في آخر شبر من بلاد الهند .هذا الشبر اسمه »رأس كومورين ..«وعنده تلتقي مياه بحر العرب من الغرب ومياه خليج البنغال من الشرق ومياه المحيط الهندي من الجنوب ..أما البحر الرابع فهو يهطل فوق رءوسنا

منذ 24ساعة وبلا توقف ..ولو سقط هذا المطر وبهذه الصورة المخيفة لمدة ساعة واحدة في القاهرة لأمسك كل ساكن في القاهرة بسنارة ووضع طوق النجاة حول عنقه، وربط أمام باب شقته في الدور الثاني زورقًا كبيرًا!

وأنا جالس على الأرض ..ومعي أحد أغنياء ولاية كيرالا .إنه من الأسرة التي كانت مالكة .واسمها »ثامبي .«إنه تعلم في إنجلترا ..ومع ذلك يمشي حافي القدمين .ويلف حول وسطه فوطة تمامًا كالتي كان يلبسها قدماء المصريين ..ويضع على عينيه منظارًا أمريكيًّا غاليًا .وفي جيب قميصه الحريري قلم شيفرز من الذهب ..وفي يده ساعة من الذهب والماس ..ومع ذلك يجلس على الأرض ..إنها التقاليد .ونتناول طعام الغداء .ولم نحضر معنا طبقًا واحدًا ولا شوكة ولا سكينة .وإنما أحضرنا معنا عددًا من الأواني الصغيرة في حجم سلطانية الزبادي .وجاء معنا خادم عارٍ تمامًا إلا من فوطة يد صغيرة جدًّا لفها بشكل ما!

ووضع الخادم أمام كل واحد منا ورقة من أوراق شجر الموز، خضراء ناعمة مغسولة .فهذه الورقة هي الصينية وهي الأطباق ..وأفرغ لكل منا كمية كبيرة من الأرز المسلوق ووضع عليه ملعقة من زيت جوز الهند ..ثم بدأ يفرغ العلب أو الأواني الصغيرة .وأعطي كل واحد ملعقة ..ملعقة بطاطس مسلوقة ..ملعقة تابيوكا، وهي تشبه البطاطا ثم ملعقة كاري في طعم النار ..وألوانًا وأشكالًا من المانجو المخلل والمملح والمخلوط بالمربى والمانجو بلا ملح ولا شطة ..وبعد ذلك قطعًا من الموز المجفف والموز المشوي ..وحبوبًا غريبة الأشكال والألوان ..وبعض الزبادي بالطماطم ..كل ذلك قد وضع الواحد إلى جوار الآخر على ورقة الموز ..ثم وضع كوبًا من النحاس به سائل لونه بني ..هذا السائل هو عصير الدوم ..وهو مليء بالشطة أيضًا.

والخطوة الثانية هي أن يتركنا الخادم على حريتنا .أما حريتنا فهي أن نلخبط هذا كله بأيدينا وأن نجعل منه كرة واحدة وأن نأكلها بالهناء والشفاء؛ ولم يكن في هذا الطعام لحم .فصاحب البيت من الهندوس الذين لا يأكلون اللحوم ..حتى اللبن لم يكن حليبًا، وإنما هو لبن زبادي ..والزبادي عبارة عن خميرة صنعتها البكتريا ..يعني ليس حرامًا!

ولاحظت أن زوجة صاحب الدعوة جاءت وسلمت وجلست وتحدثت بعض الوقت بلغة إنجليزية سليمة ..وعندما نهضنا للطعام -أى وقفنا لكي نجلس للطعام -انسحبت في هدوء، ولم تأكل معنا .ويبدو أن هذه هي العادة في البيوت المحافظة ..فالنساء لا يأكلن مع الرجال.

وبعد هذا الغداء النباتي الخفيف اتجهنا إلى نهاية الهند ونزلنا منحدرًا من الرمال واتجهنا إلى الصخور التي كان يتعبد عليها رهبان الهند بين الماء والعواصف في وحدة أو وحشة تامة..

وفي هذا المكان البعيد الهادئ أقامت الهند مبنى تذكاريًّا للمهاتما غاندي .هذا المبنى لا يضم شيئًا ..وإنما فيه صندوق حديدي مكتوب عليه» :هنا يرقد رماد المهاتما غاندي.«

فبعد مقتل غاندي أحرقوه .وما تبقى من جسمه من رماد وضعوه في هذا الصندوق الحديدي!

كأن غاندي أراد أن يمد في حدود بلاده ..أراد أن يضيف إليها ولو قليلًا ..أراد أن يعطيها بعض الذي أخذه منها ..مع أنه عاش جائعًا عاريًّا حافيًّا ..فأعطاها حفنة من رماد حياته ..لقد أعطاها الكثير جدًّا!

وتركنا معبد غاندي ..وصفت السماء ..كأن السحاب ستار ارتفع أو نزل لتظهر الشمس المحرقة على مسرح الكون ..حتى العواصف سكنت ..كأن الطبيعة حبست أنفاسها .وبدأنا نحن نلهث وننفخ ..وعادت السحب مرة واحدة ونزل المطر ..وبدأ موج البحر يثور ..كأن الطبيعة تحاول أن تفصل بين البحور الثلاثة، فهناك ثورة على الحدود كالتي بين الهند وباكستان وبين ألمانيا وروسيا، أو كأن البحر لحاف استراحت تحته العواصف لحظات ثم ضربته وخرجت.

لقد اكتشفت هنا حقيقة مهمة لم أكن أعرفها..

اكتشفت سر هذا التقلب في الأرض والسماء ..فنحن هنا في منطقة خط الاستواء ..وخط الاستواء هو »حزام «عريض من النار تلفه الأرض حول وسطها، وهي لذلك تتمايل وتتعوج وتتقصع ..بكتفيها وساقيها وصدرها ..كأن السحب هي شعرها الأسود الغزير، وكأن الرعد هو بعض أسنانها، وكأن البراكين هي دقات قلبها ..وحركاتها ليست رشيقة كأنها راقصة مبتدئة ..مع أنها عجوز وعمرها بالملايين ..ولكنها لم تتقدم في فن الرقص، فليس هناك أحد ينافسها.

وعندما لا يجد الإنسان أو الحيوان أو حتى الأرض من ينافسها؛ فسترى نفسها أعظم راقصة في الكون.

وفجأة سكن كل شيء :الهواء والموج والمطر والسحاب ..كأنها لحظة تغيير »النمر «كما يحدث في الكباريهات ..وأظلم كل شيء.

وكأن الأرض توقفت عن الاهتزاز، وكأنها ألقت بحزامها في وجوهنا وقالت :طيب ارقصوا إنتم!

...ورقصنا من الألم!

* * *

ونحن أطفال كنا نتصور أن الطريق إلى الجنة يمر على النار ..وأن هذا الطريق معلق فوق نار جهنم كحبل الغسيل .وأن هذا الحبل أدق من شعرة الرأس وأكثر حدة من موسى الحلاقة ..وأن الإنسان يمشي على هذا الموسى أو على هذه الشعرة وقد يسقط في النار، وقد يصل إلى الجنة !ولم نسأل أنفسنا في ذلك الوقت :ولماذا يصل إلى الجنة ولماذا يقع في النار !وهل هذا الحبل حقيقي أو هو مجرد رمز؟ وشغلتنا الدنيا عن الآخرة وعن الجنة والنار ولم نسأل أو نتساءل.

وكأننا أرجأنا هذه الأسئلة إلى سن الشيخوخة أو المرض أو الإحالة إلى المعاش والتفكير في هذه الأشياء على مهل.

ولكنني منذ أيام وجدتني أفكر ليلًا ونهارًا في هذا الخيط الدقيق الذي يمر على النار إلى الجنة ..فأنا هنا في الليل لا أدري ماذا أفعل ..لا شيء أبدًا ..فلا سينما ولا سهرات ولا حفلات ولا موسيقى ولا غناء ولا راديو في أي مكان ..ليس في الفندق ولا في المطاعم ولا في السيارات ولا عند الجيران ..وأنا لا أستطيع أن أستمع إلى أي جار، ففوق السرير مروحة تدور ليلًا ونهارًا .وفي الحمام مروحة .وفوق عند السقف جهاز تكييف ..فأنا أشعر دائمًا أنني على ظهر مركب ..أو أنني لم أهبط من الطائرة بعد ..وفي كل مرة أدخل إلى السرير أشعر أنني لا بد أن أربط حزامي وأنظر من الشباك إلى السحب والبرق والرعد ..تمامًا كما يفعل المسافرون في الطائرة.

أو كأنني أعيش في وابور طحين ..إنه يطحن ساعات الليل والنهار ويجعلها ناعمة كالدقيق ..ولكن ليس لها أول ولا آخر!

وأنزل من السرير وأدخل الحمام فأجد على الباب ورقة صغيرة تقول :لقد وضعنا الـ »د.د.ت «.من أجل صحتك، على كل حال إذا شعرت بأي ارتفاع في درجة الحرارة ففي استطاعتك أن تستدعي الأطباء الآتية أسماؤهم ..وقد اتفقت معهم إدارة الفندق.

ملحوظة :طبعًا نفقات انتقالهم واستدعائهم في ساعة متأخرة من الليل على حسابك ..ونحن في خدمتك دائمًا..

وعلى الباب الرئيسي للغرفة أجد هذه اللافتة» :إذا لم تكن أطفأت النور والمروحة وجهاز التكييف فيحسن بك أن تفعل الآن .فنحن نفكر لصالحك.«

وأنا أتمنى أن أقفل هذه الطواحين كلها وأنعم بلحظة هدوء ..لحظة واحدة ..ولكن إذا أقفلتها قتلني الحر وخنقني العرق ..وإذا تركتها ونمت هلكت من هذه العواصف .وإذا فتحت النوافذ دخل البعوض وإذا بقيت في الغرفة فهذا عذاب.

وإذا خرجت فإلى أين أذهب .فالدنيا حر جدًّا والمطر غزير جدًّا .ولا توجد مطاعم فيها موسيقى ولا أماكن يسهر فيها الإنسان إلى ما بعد العاشرة مساءً..

وإذا ذهبت لكي آخذ دشًّا عملًا بنصيحة بريجيت باردو، فهي عندما لا تجد ما تعمله أو تفكر فيه فإنها تذهب إلى الحمام، فإني أرثي لحالي أنا..فالماء مليء بمواد زيتية عجيبة ولا يكاد يمر على جسمك حتى تشعر بأكلان شديد جدًّا ..وإذا لم أستحم ازداد هذا الأكلان.

وإذا عطشت فماذا أشرب ..هل أشرب طول الليل وطول النهار شايًّا وقهوة لأنها مكونة من ماء مغلي ..إذًا فقل على النوم السلام ..وكذلك في الأكل وفي المشي وفي الحديث إلى الناس أيضًا إنهم يتحدثون الإنجليزية .كثير منهم .والذين يتحدثون الإنجليزية لا تفهم منهم شيئًا .وقليلون جدًّا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة ورصانة رائعة!

وأنا هنا أتمنى أن يخترع لي »العلماء «جهازًا يشبه الراديو .ولكنه جهاز لاستقبال الهواء فقط .فأنا أضبطه مثلًا على بلاج سيدي بشر فيأتي بهواء سيدي بشر، أضبطه على بلاجات الريفيرا والكوت دازير وشاطئ ميامي فإذا هذا الهواء كله حرير ناعم حلو معطر يهفهف على وجهي!

الدنيا هنا واسعة جدًّا .والناس طيبون جدًّا .وكل شيء عندهم.

ولكنني أراها ضيقة، أضيق من عين الإبرة .ومن هذه العين يخرج هذا الخيط الدقيق الذي أمشي عليه وأجلس -أقصد أنام -عليه القرفصاء، والذي آكل منه، كالجنين الذي يتغذى من الحبل السري من بطن أمه ..إنه خيط دقيق أيضًا .فالذي أراه قليل، والذي أسمعه قليل، والذي أذوقه قليل، وساعات النوم هي عدد أصابع إحدى يديك.

وأخيرًا بدأ الخيط يتسع ..بدأت الشعرة الدقيقة تصبح ضفيرة غليظة .ففي بلاد الهند مناظر طبيعية فاتنة حقًّا .لديهم غابات وطرق زراعية وشواطئ ومدن جميلة وخصوصًا في أقصى الجنوب ..بل إن الناس هنا ملامحهم حلوة :النساء وحتى الرجال أيضًا.

إن الصراط المستقيم بدأ يتسع ويلتوي ..إنه أصبح كأنه كورنيش على النيل والسين والراين ..لماذا؟

لأنني بعد أيام سأودع الهند!

* * *

وكلما سألت عن سبب إقفال دواوين الحكومة قيل لي :إنه مهرام ..عيد مهرام!

وفي نفسي أقول :لا بد أنه أحد الهنود أو أحد الزعماء ..فلا داعي للمناقشة ..والذين سألتهم ينطقون هذه الكلمة، وكأنه حقيقة كالشمس، فكيف أتساءل أنا عن الشمس .فأهز رأسي كأنني نسيت السيد مهرام هذا!

واستدعيت أحد الخدم، وسألته فقال :إنه مهرام أحد خلفاء المسلمين .إن الاحتفال غدًا سيكون ممتعًا ..لا بد أن تراه.

وأقلب في رأسي وكأنه جيب ممزق في جلباب قديم ..وأسحبه إلى الخارج، وأعيده مكانه ..وكأن رأسي جيب حقيقي كله ثقوب؛ فيتساقط منه كل شيء ..من هو مهرام هذا ..هل هو محمد أو المهدي؟

وأخيرًا انتهى مهرام هذا إلى »محرم «شهر محرم .وأعياد شهر محرم .وأنا لا أعرف ما هي أعياد شهر محرم في الهند ..ولا أعرف حتى إن كنا في شهر محرم أو في شهر ذي القعدة .فالصحف هنا لا تذكر إلا الشهور التي تبدأ بيناير وتنتهي بديسمبر.

وذهبت إلى حيث ستبدأ المهرجانات وسمعت ورأيت الأعاجيب ..هذا العيد هو ذكرى يوم 10محرم، يوم مقتل الحسين بن علي .وهو عيد الشيعة، وفي العام الماضي رأيت مدينتي النجف وكربلاء في العراق .وزرت مسجد الحسين والإمام عليٍّ .ورأيت أبناء العراق وقد لبسوا السواد ونقلوا السواد إلى أبوابهم ونوافذهم ..وأيامهم ولياليهم ملئوها بالدموع ..واتجهوا إلى أجسامهم فراحوا يضربونها بالحديد والسيوف، ندمًا على مقتل الحسين.

وهنا في مدينة »تريفاندروم «عاصمة ولاية كيرالا ..يحتفلون بمقتل الحسين بصورة مزرية مضحكة، فيبدأ المهرجان بطبول تشبه طبول الأراجوز بالضبط؛ ويتقدم المهرجان عشرون شابًّا وطفلًا، وقد دهنوا أجسامهم بالزفت وراحوا يرقصون ويخرجون ألسنتهم للناس ويتهجمون على المحلات العامة وعلى المشاة ويطلبون منهم شيئًا لله وبالقوة، وقد التفوا حولي ..وكنت قد أطلقت شاربي ولحيتي ولبست بالطو مطر فصرت كأنني أحد المبشرين..

وخشيت على ملابسي من الزفت فأعطيتهم بعض الروبيات فتركوا المهرجان وراحوا يقتسمونها ..وبعد هؤلاء »المزفتين «يجيء عدد آخر من العراة وقد صبغوا جلودهم باللون الأصفر الأرقط تمامًا كجلد النمر ..وصبغوا وجوههم باللون الأصفر وجعلوا فيها ملامح النمر أيضًا ..وبعد هذا يجيء الخليفة على ظهر الحصان وقد ارتدى طاقية صوف ..وأخيرًا نموذج صغير من الفضة لمسجد الحسين ..والطبول والأصوات والصفير تكتسح الجميع!

ويتجهون إلى النهر وينزلون إليه جميعًا ثم يرمون في النهر بمجموعة من الأيدي المصنوعة من الفضة ومن الذهب ..وأشياء أخرى في كل بلاد الهند في هذا اليوم.

ملحوظة :فاتني أن أنبه إلى أنني أكتب هذا كله وأنا جالس مقرفص في السرير وفي ناموسية ..والناموسية هي أغرب مخبأ ضد غارات الناموس ..مخبأ مرتفع مضاء، كل شيء فيه واضح ..والناموس الذي يغير على ساكن هذا المخبأ يطلق صفارات الإنذار قبل أن يلسعني ..أشكره!

فإذا جاءت أفكاري مقرفصة مثلي فاعذرني، وإذا جاءت أفكاري منكوشة كشعري فاعذرني..

والذي يراني جالسًا يخيل إليه أنني قمت من النوم، مع أنني لم أقم ..والذي يراني نائمًا يخيل إليه أنني جالس، مع أنني أتحايل على النوم.

والذي يرى احمرار عيني يتوهم أنني شبعان نوم ..إن احمرار عيني سببه أنني أمسحها في جدران الليل..

ولولا عجزي عن النهوض من الفراش لبحثت في القاموس عن كلمة أخرى للناموسية، لأنها ليست عربية .وأعتقد أن المجمع اللغوي يسميها »المبعضة «نسبة إلى البعوض، وعلى وزن »المذبة «أي المنشة، لأنها »تذب «الذباب.

ولما كانت هذه الناموسية واسعة الفتحات لا تمنع إلا بعض الناموس كان لا بد أن أغير اسمها إلى :المبعضة لبعض البعوض!

...والله أعلم!

* * *

يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم..

فلتت مني هذه العبارة وأنا أقلب في الصحف التي صدرت اليوم ..لقد قرأت مقالًا قصيرًا يلعن أجدادي ويتهمني بأخطر أنواع التهم ..ويقول إنني لم أر إلا كل ما هو قبيح وقذر في الهند ..وأن الهند التي فتحت ذراعيها لواحد مثلي كان جزاؤها مني ...إلخ!

فقد نشرت »الأخبار «و»أخبار اليوم «و»آخر ساعة «و»الجيل «كل ما كتبته عن الهند، ويبدو أن هذه المقالات قد ترجمتها وكالات الأنباء ..وقرأ الهنود هذه المقالات، وثاروا عليها.

ولما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهور عرفت أن السفارة الهندية قد نشرت بلاغًا رسميًّا تلعن فيه الكاتب -الذي هو أنا -وتلعن فيه الفلسفة التي تعلمها وأوربا التي أفسدته ..وقالت إنني ذهبت إلى الهند أفتش عن باريس، وأنني ذهبت إلى معابد الهند أبحث عن صناديق الليل في روما ..ولو عرفت السفارة الهندية أنني عندما ذهبت إلى باريس نزلت في فندق اسمه نيودلهي، لعرفت مدى اهتمامي بكل ما هو هنديٌّ حتى في فرنسا.

وهنا فقط أدركت أنني هدف حقيقي ..وأن أي هندي يستطيع -لو عرفني -أن يلقي بي في نهر من هذه الأنهار، فأصبح طعامًا لا بأس به لبعوضة الفيل التي تنفخني حتى أصبح فيلًا، ثم أصبح بعد ذلك لحمًا أبيض لحيوانات الغابة الرائعة القريبة من العاصمة.

ولكن إحساسي بأن الهنود متسامحون جدًّا .وأنهم لا يحبون الدماء .وأنهم يقابلون كلماتي هذه بروح متسامحة، جعلني أفكر في البقاء يومًا أو يومين آخرين قبل أن أحزم أمتعتي وأسافر إلى جزيرة سيلان أفتش فيها عن السنوات العشرين التي أمضاها الزعيم أحمد عرابي هناك..

ولكن الحقيقة أنني ازددت خوفًا .وبدأت أفسر نظرات الجرسونات تفسيرًا خاصّ ّ ًا، فأنا لا أستبعد أن يكونوا قد قرءوا ما نشرته الصحف ولا أستبعد أيضًا أن تكون الغربان قد دربوها على الهجوم على وجهي وخطف عيني إذا لم تجد طعامًا .فكل شيء في الهند ممكن .فهم يدربون القرود والثعابين والنمل.

لقد رأيت واحدًا من الهنود يخرج كيسًا به ثعابين ويطلق هذه الثعابين، فإذا هي تزحف اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة ..ثم إذا هو يطبل ويزمر فتصبح هذه الثعابين على شكل حروف ..هذه الحروف يتكون منها اسمي ..بالتقريب .وأغرب من ذلك أن هذا الحاوي الهندي سألني إن كان هذا اسمي، فأنكرت أول الأمر فنطق هو باسمي كاملًا.

ومن المستحيل أن يكون هذا الرجل قد عرف اسمي .فقد كنت في الطريق بين نيودلهي ومدينة »تاج محل ..«وتوقفت بي السيارة فجأة .وخرج هذا الحاوي من حقول القصب!

ولذلك لا أستبعد أن تكون هذه الغربان قد سلطها أحد الحواة المثقفين الذين قرءوا هذا المقال ..أو أحد الحواة الذين يعملون للدولة كخبراء في تطفيش الأجانب من الهند..

وكان لا بد أن أنهي مدة إقامتي بالهند ..فلايزال أمامي طريق طويل جدًّا.

ولكن لو قدر لي أن أزور الهند مرة أخرى لفعلت، فهي بلاد فيها كل شيء..

كل الألوان وكل الأديان وكل الطبقات ..ومئات اللغات وألوف اللهجات ..والذين يملكون ألوف الملايين ..والملايين الذين لا يملكون أي شيء حتى طعام اليوم الواحد!

مظاهرة انتخابية في إحدى المدن الهندية ..ومهما كانت أسباب المظاهرة فالهنود ليس فيهم عنف ولا ميل لإراقة الدماء

تأملات هندية!

قالت الأسطورة :جلس الإله يستريح بعد أن خلق العالم ..وبدأ الإله يفكر في حياة المخلوقات ..وكيف تكون هذه الحياة .وعرضت له مشكلة كم يكون عمر كل واحد منها.

وأخيرًا قرر أن يجعل عمر كل كائن حي 30عامًا.

واستدعى الحيوانات واحدًا واحدًا، وبدأ بالحمار وقال له :جعلت عمرك 30سنة .ما رأيك؟

قال الحمار :يا إلهي ماذا فعلت؟ إن هذه الحياة طويلة .سأقطعها كلها في العمل والكفاح .أتوسل إليك يا إلهي أن تنقص هذا العمر الطويل .اقصف عمري أرجوك..

وجعل عمر الحمار 18سنة فقط ..وبعد ذلك استدعى الكلب وقال له :سيكون عمرك 30سنة .ما رأيك؟ وهنا نبح الكلب قائلاً :يا إلهي هذا كثير .إن هذا العمر طويل ..لا أريده ..لا أستطيع أن أتحمله ..هل يرضيك أن أقضي العمر كله في النباح ومطاردة الناس ..أرجوك يا إلهي ..اجعل عمري قصيرًا..

وجعل عمره 12سنة.

وجاء دور القرد وعندما سمع أن عمره سيكون 30سنة ثار وبكى وقال للرب براهما :يا إلهي حرام ..هذا كثير ..هل يرضيك أن أقطع كل هذه الشهور والسنين أقفز من شجرة إلى شجرة وأتعلق من ذيلي 30سنة ..أرجوك!

وجعل الإله عمره 10سنوات .وأخيرًا جاء الإنسان وقال له الرب :ما رأيك، سيكون عمرك 30سنة .هذا كثير أو قليل؟

وبكى الإنسان وقال :تقول ثلاثين سنة يا إلهي .إن هذه حياة قصيرة جدًّا .إنني لم أبدأ حياتي إلا أخيرًا، لم أفرغ من بناء بيتي وزراعة بعض الأشجار وأريد أن أستريح .إن هذه الأعوام الثلاثين لا تكفي .ثم ما مصير زوجتي؟ وما مصير أولادي عندما يكبرون ولا يجدون أباهم بينهم ماذا يفعلون؟ !أرجوك يا إلهي .أتوسل إليك أعطني عمرًا أطول لكي أربي أولادي وأطمئن إلى مستقبلهم .أرجوك يارب..

وأجاب الرب :سأعطيك 30سنة أخرى أخذتها من عمر الحمار والكلب، هل هذا يكفي؟

فأجاب الإنسان :لا يا إلهي ..هذا لا يكفي لأن أولادي سيكون لهم أولاد، وأريد أن أرى أولاد أولادي ..أريد أن أعيش معهم ..أن أعانقهم، أن أحتضنهم ..أرجوك يا رب ..أرجوك..

وقال الرب :لقد أعطيتك الكثير ولكنك كائن طماع لا تشبع .سأعطيك 20سنة أخرى أخذتها من حياة القرد فهل يرضيك هذا؟

وشكره الإنسان واختفى بين الغابات.

ومنذ ذلك اليوم وعمر الإنسان 80عامًا.

والثلاثون عامًا الأولى منها هي حياته هو .وهو في هذه السن يكون قانعًا راضيًا.

وبعد ذلك تجيء الـ 12سنة التي أخذها من عمر الحمار .وفيها يعمل الإنسان ويكد ليلًا ونهارًا من أجل أسرته.

وبعد ذلك يجيء الـ 18سنة التي أخذت من عمر الكلب .وفيها يتحول الإنسان إلى رجل يرقص ويلعب مع أحفاده ويخطف الطعام منهم ويقفز من مكان إلى مكان فلا يربطه بالناس إلا شيء قليل..

وبعد ذلك تجيء السنوات التي أخذها من القرد ويكون عجوزًا يندم على أيام النط من شجرة إلى شجرة ..ولا يجد من هذه الأشجار كلها إلا عكازًا في يده!

وكل إنسان هو خليط من الحمار والكلب والقرد.

وقد عرفت تاريخ هذه المراحل وعليك أن تبحث عن نفسك، أي واحد من هؤلاء...

* * *

وعلى سبيل التجربة ومعرفتي لنفسي اكتشفت أمس أن ملابسي كلها ممزقة ..البنطلونات والقمصان، ولاحظت أن ألوانها أيضًا تغيرت ..قميصي الذي كان رصاصيًّا أصبح اليوم نحاسيًّا ..وبنطلوني الذي كان نحاسيًّا أصبح اليوم برونزيًّا..

إنها أشعة الشمس والغسيل والمكوى وكثرة الاستعمال ..ولو عرفت كم عدد القمصان التي معي، لدهشت كيف أسافر بها خارج بلادنا .إن الذين رأوا الحقيبة التي أحملها لم يصدقوا أبدًا أنني سأبقى خارج القاهرة 220يومًا ..إنها ملابس تكفي أي إنسان لمدة أسبوع في الإسكندرية.

ولكني قررت ألا أشتري أي ملابس من الهند ولا من إندونيسيا ..وقررت أن أشتريها من سنغافورة .ففيها ملابس جميلة ورخيصة .وعندما ذهبت إلى سنغافورة عدلت رأيي ..وقلت لا تزال أمامي بلاد أخرى أجمل وأحسن ..بلاش يا واد دلوقت..

والواد لم يصدق خبرًا ..وراح يلبس الممزق ويقلع الممزق..

وملابسي الصيفية تبدو شتوية هنا في الهند..

إنها ثقيلة جدًّا .مع أننا في القاهرة نقول إنها خفيفة جدًّا .وأحد أصدقائي ذهب في نقدها لدرجة أنه قال لي :يا أخي بلاش الهدوم الشفتشي دي!

وأمس فوجئت بدعوة موجهة لي من رئيس وزراء منغوليا ..الدعوة في فندق أشوكا الأنيق.

ولا بد أن أرتدي بدلة كاملة .وهذه مسألة تضايقني جدًّا .فأنا أكره الكرافتة وأكره الجاكتة وأكره الياقة التي تلتف حول عنقي .وأحس أنني مربوط من شعر رأسي إلى السقف، كأنني كيس قطن أوشوال أرز..

وتذكرت أن لي بنطلونًا عند الترزي، وطلبت منه أن يستعجل البنطلون ..واكتشفت أن هناك حذاء آخر عند الجزمجي .البنطلون يجب تصليحه والحذاء يجب تصليحه..

وأخيرًا وقبل الحفلة بساعة حضر البنطلون والحذاء.

وحمدت الله، فأنا الآن على ما يرام، ومن باب الاستطلاع نظرت إلى الحذاء فأعجبني تصليحه ..لا توجد أية آثار للخيط ولا للماكينة أو الإبرة ..عال ..وأمسكت البنطلون فوجدت أن التصليح واضح جدًّا ..رقعة على اليمين ورقعة على الشمال والخيوط واضحة جدًّا ..الخيوط تمسك الرقعة حتى لا تقع .والخيوط ألوان أيضًا حتى لا تخفى على العين ..ولعل الرجل أراد أن يلفت نظري إليها حتى لا أظن أنه لم يعمل أو لم يبذل مجهودًا..

وفي الحفلة التي شهدها نهرو ورجال السلك الدبلوماسي كلهم أحسست أن هذه الحفلة قد أقيمت للفرجة على الرقعتين ..واحدة هنا وواحدة هناك..

وأحسست أن هذه الابتسامات الكثيرة موجهة لي ..كلها مواساة أو كلها تريقة ..ولم أجد مكانًا أضع فيه يديّ .لا أستطيع أن أضعهما في جيوبي، فهذا لا يصح، وثانيًا هذا يكشف الرقعتين .ولا أستطيع أن أضع يدي في يد أحد لأنني لا أعرف أحدًا..

فوضعت يدي ورائي..

وكلما مر الجرسون الذي يحمل المشروبات قلتُ له :أنا مريض ..آسف ..مريض ..شربت ..متشكر.

وأحيانًا كنت أنسى فأضع يدي إلى جواري.

وأتذكر فأردهما إلى مكانهما فجأة فترتطمان في سيدة فأستدير لأعتذر فأضرب واحدة أخرى ..أو واحدًا آخر..

ووقفت إلى جوار الحائط ..ظهري للحائط..

وعاد الجرسون يطاردني فقلت له :وحياتك مريض ..إنني مريض »باللوز!«

وهذا صحيح لأن الترزي قد وضع لوزة للبنطلون كالتي يضعها الجزمجي للحذاء القديم..

طبعًا لا داعي للندم ..إن الغلطة غلطتي أنا..

كان يجب أن أبعث ببنطلوني للجزمجي، وأن أبعث بجزمتي للترزي!

وهنا فقط أدركت أنني وحدي الذي لا أزال في مرحلة الحمار؛ أي يجب أن أعمل، وعملت!

* * *

وفي الليل جلسنا معًا ..شلة ..وفجأة نهض واحد منا وأقفل الراديو على أم كلثوم وهي تقول :وأقول أقابلك فين!

وقال :تقابليه فين؟ هنا يا أختي في النار والرطوبة!..

وجلس وكأنه قام بعمل عظيم .وهو فعلًا قام بعمل عظيم بل جسيم، لقد حرمنا من أغنية جميلة ..ثم التفت إلينا بحركة عصبية وقال :ما تحبوش تسمعوا كلام بلدي حلو؟

ولم ينتظر حتى يقول واحد منا :نعم ..والحقيقة أننا جميعًا لم نكن قادرين على أن نقول كلمة واحدة ..الدنيا ليل، والحرارة مرهقة، والرطوبة مرهقة أيضًا .ولا مانع من أن يقول أي شيء .فهو لن يضيف إلينا تعبًا ولا قرفًا أكثر من الذي نعانيه..

وواحد منا وجد عنده بقايا قوة فقال له :قول يا أخي .قول يا سيدي ..نعم .سمع .هس!

وجلس صاحبنا على الأرض وظهره للمقعد وقال :يا جرح .يا جرح .وقلنا كلنا في نفس واحد :يا إيه؟ موال ده والا إيه؟

ولكنه مضى يقول الموال وهو ينظر إلى أعلى .كأن هناك فتاة تطل من ثقب السقف :يا جرح الجبال ماتوا..

وانت فاضل حي..

منين أجيب لك الطبيب..

صفصف علينا الحي..

من الصغر للكبر عمال تألمني..

راح تقول إيه بين أيادي الحي..

رد جرحي وقال..

ومين قال لك اني أنا حي؟

مين اللي مات له طبيب ولسه فاضل حي؟

زي الضرير يمسك في حبال دايبة..

والشمعة بتموت ولهيبها بيفضل حي..

ومن غير أي تفكير قال واحد آخر باللغة الصعيدية:

تعالَ يا طبيب شوف ما جراي..

رش الدوا بالدناشي..

وإن عشت يا طبيب لأديك ما جراي..

وإن مت يا طبيب ما بدناشي!

وتفسير الكلمات الصعيدية :ما جراي الأولى معناها ما جرى لي .وما جراي الثانية معناها :فلوس ..والدناشي الأولى معناها :قليلًا قليلًا .والدناشي الثانية معناها :ما بيدناشي !أرجو أن تكون قد فهمت ..وأنا أعتذر لإخواني الصعايدة إذا كانت لهذه الألفاظ أي معانٍ أخرى خبيثة.

وقال ثالث :أحسن كلام بلدي سمعته هو الذي يقول:

ليالي الهجر تطلع شمسها بكره

وليلة الوصل تطلع شمسها المغرب

ومضى يقول :شوف المعاني الحلوة ..تصوروا ليلة الهجر طويلة ..شمسها تطلع في اليوم الثاني .وليلة الوصل قصيرة شمسها تطلع بعد ما تغرب على طول..

وسكتنا كأننا تعبنا من الكلام أو من الاستماع إلى الكلام.

وفجأة تحدث الصديق الأول وقال :حد فاكر أغنية :أكل المحشي ما ينفعشي، للمطرب الشيخ الصفتي ..أغنية مشهورة قديمة .عاوزين تقولوا إن كلكم مودرن .كلكم شبان؟ أعوذ بالله ..إنتم مالكم ما بتتكلموش كده ليه؟ النهارده إيه في الأيام؟ النهارده التلات .يبقى اليوم معناه إيه يا أستاذ يا بتاع الأيام وفوائد الأيام؟

ورد عليه واحد منا قائلاً :اسمع وأنا أقول لك ..شوف يا سيدي .الحكيم البلدي القديم قال:

السبت للصيد..

والحد للبنا يا عم..

ويوم الاثنين سافر..

ويوم التلات خد دم..

ويوم الأربع تداووا..

وفي الخميس ينفك الهم..

ويوم الجمعة شرح أحوال النساء يا عم ..يعني النهارده ناخد دم، إيه رأيك؟ مش ننام أحسن ..أحسن ما نعيا النهارده ونتعالج يوم الأربع.

وكان التعب كخيط قديم ..تمزق الخيط وتفرقنا واحدًا واحدًا ..كل واحد يتثاءب ..كأن في بطنه ذئبًا عاويًا، يريد أن ينطلق إلى الفراش ..وكأن الفراش حمل وديع..

ومشى كل واحد منا إلى غرفته ..وفجأة ارتفع صوت أم كلثوم يقول وكأنها تتحدث إلى النوم الذي لا أجده :ولما أشوفك يروح مني الكلام وانساه!

* * *

منذ آلاف السنين كتب السلطان »بابار «أحد ملوك منغوليا مذكراته :لو عرف أبناء وطني فوائد الشطة، كما عرفها أبناء الهند لغزوا العالم كله!

ولحسن الحظ لم يعرف شعبه فوائد الشطة والكمون والفلفل..

والأوربيون عندما اكتشفوا هذه البلاد امتلأت أنوفهم برائحة الشطة وأفواههم بطعمها .فنقلوها من الشرق إلى أوربا، وكانوا يبيعونها بأسعار غالية جدًّا كانت الشطة تباع بوزنها ذهبًا وفضة.

وفي الهند وفي كل البلاد الآسيوية الحارة تجدهم يتناولون كميات كبيرة جدًّا منها ..وأنت لا تعرف لون الشطة، فقد تكون حمراء أو صفراء أو سوداء أو خضراء ..ولكنها تدخل كل الأطعمة .إنهم يضعونها أيضًا في الفاكهة وفي الحلو.

المهم أن تكون هناك شطة!

ويظهر أن الشطة هذه لا بد منها في المناطق الحارة .فالناس من شدة الحرارة كسالى جدًّا، والمعدة كسولة والكبد كسول، والدم يتسكع في الشرايين، والفكر يتمسح في الأعصاب ..كل شيء في حالة تراخ تام.

والشطة هي النار التي تلسع كل عضو وكل فكرة ..وهي الكرباج الذي يبتلعه الهنود ليسوقهم من الداخل إلى الحياة.

وأمس صدر كتاب في الهند لعالم إنجليزي كبير اسمه البروفيسور »راي.«

هذا الكتاب كله عن مزايا الشطة التي تنشط الدم والهضم ..وإنه لولا هذه الشطة لمات الناس من الأمراض المعوية والكبدية..

ومن رأيه أن الإنسان يجب أن يتناول الشطة بقدر ما يستطيع .وهو ينصح الأوربيين أبناء الشمال الذين يعيشون على اللحوم أن يضعوا القليل من الشطة في اللحوم .وبذلك لا يصابون بالقرف الذي يصيبهم عادة .وأحسن طريقة لطبخ الشطة هي أن تضعها والطعام يغلي ..ففي هذه الحالة تتحول إلى مواد كيماوية نافعة جدًّا ..فهي أحسن بكثير من تناول أقراص قبل الأكل وأملاح بعد الأكل وحبوب أثناء الأكل، كما يحدث في أمريكا وأوربا.

والذين لا يذوقون الشطة محرومون من متعة حقيقية .فالشطة هي لذة ملتهبة ولهيب لذيذ..

ولو ..فلن أذوقها!

* * *

الهنود تعلموا من الإنجليز أشياء كثيرة، والذي تعلموه لا يزالون يؤدونه كما هو ..فهم تعلموا اللغة الإنجليزية وينطقونها بطريقة لا يمكن فهمها في كثير من الأحيان..

وتعلموا منهم النظام والطاعة..

فهم يقفون في طوابير أمام الأتوبيسات وأمام شبابيك التذاكر .هم منظمون فعلًا وإدارات الحكومة والشركات منظمة، الإجراءات فيها بسيطة .وكل الأعمال تتم بنظام.

وشيء آخر تعلموه أيضًا ..لا أعرف ماذا أسميه .ولكن سأذكر لك الأمثلة وعليك أن تجد الكلمة المناسبة .فقد اختلفنا هنا في وصفها..

مثلًا أنا أسكن في أحد الفنادق..

وفي الصباح يدخل الخادم يحييك ويشير إلى أنه سينظف الغرفة ..وبعد لحظات يخرج .وبعد لحظات يجيء خادم آخر ويشير إليك أنه سينظف الغرفة ..ولا يثير دهشتك أنه يوجد اثنان من الخدم لغرفة واحدة ..وبعد لحظات يخرج ويدخل ثالث .وهنا تلتفت ماذا عساه أن يفعل هذا الثالث والرابع ..وفي اليوم التالي يجيء ثلاثة أو أربعة آخرون طبعًا ليس هذا اهتمامًا غير عادي بشخصك .فأنت مهما كنت لا يعرفك أحد هنا .وهؤلاء الخدم معينون قبل تشريفك بزمان.

وتفسير ذلك أن كل عمل له رجل خاص ..فالذي يعد لك السرير غير الذي يكنس لك الأرض، غير الذي يغسل لك الحمام، وغير الذي يأتي لك بالماء، غير الذي يأتي لك بالفطور ..غير الذي يحضر لك العشاء..

إنهم كثيرون جدًّا وأجورهم رخيصة جدًّا..

أذكر أنني أشرت إلى أحد الخدم أن يجمع بعض الأوراق من الأرض فهز رأسه وبعد لحظات عاد ومعه خادم آخر وانحنى هذا الخادم وجمع الأوراق من الأرض.

وأذكر أن جهاز التكييف تعطل .وأشرت إلى الخادم فذهب وأحضر رجلًا آخر ..مع أن إصلاح جهاز التكييف لا يحتاج إلى أخصائي، أو خبير فني متخصص .فقد كنت أريد ربط مسمار فقط!

وحاولت أن أدق الجرس ليجيء الخادم ولكنه لم يفعل...

فاستخدمت التليفون، وجاء الخادم ونبهني إلى أن التليفون يجب استخدامه فقط بعد منتصف الليل .أما قبل ذلك فيجب أن أستخدم الجرس..

وحاولت أن أتفاهم مع أحد الخدم ويبدو أنه لم يفهم كلامي، فقلت له وأنا أضحك :ابعث لي المختص ..فأنا أريد أن أتخانق معه ..هل أنت المختص بالخناق؟!

فهز رأسه جادًّا جدًّا وقال إنه ليس المختص.

وجلست أقرأ .وبعد لحظات جاء الخادم ومعه رئيس الخدم ..فقلت له ضاحكًا :أنت المختص بالخناق؟

ولم يضحك الرجل وقال :لا..

وخرجت ..وعرفت أنه سيأتي بمدير الفندق!

* * *

يقيم هنا في الهند طبيب مصري جاء يدرس بعوض الملاريا في الهند، وسيبقى هنا بضعة شهور ..زرته في الفندق ..ليس في غرفته إلا كتب وخرائط وعينات للبعوض في الهند ..وهو مشغول بالأمراض ومقاومتها ..وكيف ترش الـ "د .د .ت ".على الجدران بدرجة معينة وبطريقة معينة..

قلتُ للدكتور :تفتكر إن الطريقة الوحيدة للقضاء على البعوض هي أن ترش البيوت فقط، وماذا ستعمل الهند في المساحات المائية الهائلة والغابات والحقول؟ إن الناس معظمهم ينامون خارج البيوت؛ فالبعوض سيصيبهم خارج البيت ولن ينتظرهم في داخل البيوت حتى يعودوا..

ولكن الدكتور قد أعد لكل سؤال جوابًا، وقال إن البعوض لا يلدغ حيثما اتفق؛ فهناك قواعد للدغ البعوض .هناك بعوض يقيم بعض الحفلات قبل أن يمتص دم الإنسان، وهناك بعوض لا يلدغ إلا الإنسان النائم ..والبعوض لا يلدغ الإنسان المتحرك .على كل حال هناك 43نوعًا من أنواع البعوض موزعة على مقاطعات الهند.

وكل بعوضة لها طريقة في نقل المرض.

ولكن الذي يلدغ عادة من البعوض هو الإناث فقط!

وبلاد الصين قد ضربت المثل على إمكان تحقيق المستحيل؛ فقد قضت على الذباب في وقت قصير، الشعب كله قام وقضى على الذباب .والهند تحاول هي الأخرى أن تقضي على البعوض، فهناك وحدات طبية كثيرة تعمل على أسس علمية سليمة وتعاونها الصحة العالمية ..ويظهر أن النتائج مؤكدة.

وفجأة تلفت الدكتور قائلاً :طبعًا أنت ستضحك مني الآن ..طيب والله العظيم الست اللي هناك دي فيها شبه من بعوضة الفيل التي تنقل مرض الفيل ..وهو موجود بالهند بكثرة شديدة جدًّا.

وسكت الدكتور وعاد يهمس في أذني ويقول :ولكن سيبك انت ..ربنا المنجي ..يعني أنا لم أعتد أن آخذ أي دواء ..الوقاية خير من العلاج ..يجب أن ينام الإنسان في ناموسية..

قلت :وفي الشارع ماذا يعمل؟!

قال :ولا حاجة ..خليها على الله.

وسكتنا نحن الاثنين ..هو يفكر في البعوض .وأنا أفكر في الوقاية من البعوض..

وأخيرًا تكلم الدكتور :على فكرة البلد اللي حتسافر لها ..هذه البلدة هي مركز بعوض مرض الفيل في العالم كله..

فصرخت فيه قائلاً :ياللا قوم بينا..

-على فين!

-على الأجزاخانة!

* * *

وفي اليوم التالي جاءني صديق آخر ملهوفًا كأنه يحمل لي كنزًا ثمينًا :نصيحة كانت مثل طوق نجاتي ..هي المظلة التي سأهبط بها إلى بر الأمان ..هي دعاء الوالدين ..هي الحكم ببراءتي ..هي وصية الحكيم لقمان ..قال لي :أنت مسافر غدًا، ولماذا اخترت هذه المنطقة بالذات؟ أنت لا تعرفها..

ولم تكن هناك أية فائدة من المناقشة .ومد يده إلى المنظار فمسحه .لقد أخفى دموع عينيه ..ولكن المنظار فضحه ..إن منظاره الزجاجي كان يبكي من أجلي..

البلاد التي سأسافر إليها غدًا تبعد خمسة آلاف كيلو عن هذا المكان .أمطار دائمة وعواصف ورعد وبرق وأوحال ..كل قطرة عليها بعوضة، وفي جناح كل بعوضة مليون جرثومة ..وكلها في انتظار أي إنسان ..فلماذا أكون أنا ذلك الإنسان دون سائر الناس؟!

ولكن لهفته وخوفه وقلقه كان معناها أني المقصود بهذا كله ..بالمطر والوحل وكل الأمراض..

فيجب ألا أشرب الماء مطلقًا ..لأن الماء في موسم الأمطار يختلط بالمجاري ولا يمكن تطهيره أبدًا إلا بغليه ثلاث مرات ..أول مرة لدرجة التبخر .وبعد ذلك يتركه حتى يبرد ثم يغلي مرة أخرى حتى درجة 80 وبعد ذلك يغلي الماء لدرجة التبخر وأتركه حتى يبرد وأعصر عليه بعض الليمون!..

ولا بد أن أنام داخل ناموسية؛ لأن هذه المنطقة هي مركز توريد ذباب مرض الفيل في العالم كله .والإنسان عندما تلدغه هذه الذبابة فإنه لا يصاب بأي ألم ولا تظهر عليه أعراض هذا المرض في نفس اليوم أو الأسبوع، وإنما بعد سنوات !هذا إذا تناولت الأقراص المضادة لهذا المرض.

* * *

وإذا ذهبت إلى حديقة، فيجب ألا يكون ذلك في ساعة مبكرة من النهار، أو ساعة متأخرة من الليل .ففي الحديقة أشجار لها عطر -طبعًا .فالبلاد مليئة بالغابات ويجب ألا تغريني هذه العطور والألوان الحمراء والصفراء المنتشرة بين أزهار الشجرة وأوراقها .فهذه الأشجار تجتذب نوعًا من الأفاعي، له سم يقتل بعد 48 ثانية -أيوه ثانية -والذين شبهوا المرأة بشجرة تلتف حولها أفعى لم يكونوا خياليين .فالسم وراء العطور والألوان!

وهناك نوع من الأفاعي اسمها »الكوبرا السلطانية «أو »الكوبرا الملكية «بعضها ينام على الأشجار ذات العطور وبعضها ينام بلا عطور .وهذه الأخيرة سمها يقتل في نصف المدة ..أي في 24 ثانية ..أي قبل أن يقول الإنسان :آه ..يعني الموت هنا أسرع من الصوت!

وإذا سمعت في غرفتي صرصارًا فيجب ألا تغفل عيني فأنام .يجب ألا أنام أبدًا، فهناك نوع من الأفاعي صوته يشبه صوت الصرصار بالضبط .وهذا النوع من الأفاعي أعمى .ولكنه يهتدي بأذنيه إلى الأماكن التي يسمع فيه أنفاس النائمين .وهو يعض وليس سامًّا .ولكن مفاجأة العضة يا ناس!!

انتهى بند الأفاعي.

* * *

وإياي أن أسكن في فندق له حديقة ..ففي هذه المنطقة ملايين القرود، وكلها شرسة .وحادثة الصحفي الأمريكي الذي ظل طول الليل يكتب، وفي الصباح وجد الآلة الكاتبة والأوراق وملابسه كلها غير موجودة ..وأبلغ إدارة الفندق ..وفي قسم البوليس أتوا له بالمتهم وفي يده السلاسل ومعه الآلة الكاتبة وكوم من الأوراق الممزقة ..وكان المتهم قردًا!

* * *

أما أحدث اكتشاف طبي، فهو أنني يجب ألا أصاب بأي إمساك..

والإنسان معرض دائمًا للإمساك في البلاد الحارة؛ لأنه يشرب سوائل مثلجة .ولأنه متعب ولا يعرف كيف ينام ..ولكن يجب ألا أسرف في الشطة؛ فهي ولا شك تؤدي إلى اختفاء الإمساك وظهور أمراض أخرى من بينها الإسهال والدوسنتريا .وهذا المرض الأخير -ولا داعي لتكرار اسمه -قاتل في هذه البلاد.

* * *

ثم لا بد أن أضع منظارًا على عيني، لأن هناك نوعًا من التراب ملتهبًا ..إنه كالبارود ..إنه يجلو العين؛ بمعنى أنه يمسح سوادها نهائيًّا .فاحترس!

* * *

ووضع يده على كتفي :لكن ربنا يسترها وياك!

ثم عاد يقول :وأهم من هذا كله مدينة »الله أباد «وهي المدينة التي ولد فيها الرئيس نهرو..

هذه المدينة بالقرب من إحدى القرى ..فيها أجمل فتيات الهند ..وكلمة »كده ولا كده «معناها أن أصحو من نوم ثقيل لا أعرف كيف بدأ فأجدني مربوطًا من ذيل جلبابي وجلبابي مربوطًا في ذيل فستان ..صاحبة الفستان هي عروسي الهندية ..كيف بدأ هذا؟ بدأ بأني قلت كلمة كده ولا كده، أي أبديت اهتمامًا، فمعنى ذلك أن الفتاة أعجبتني .والإعجاب معناه الحب والحب معناه الزواج فورًا .وأهلها يفرحون للعروسة ويحملون العريس على الأعناق بعد أن يدقوا رأسه بعصًا خضراء ويملئوا فمه بشراب أحمر، فيدوخ وتوضع أمامه النيران وعلى النيران يلقون بالسمن وتزداد النار اشتعالاً ..وبالرفاء والبنين!

وانتهت نصائحه..

وهمست أنا في أذنه :أنت سمعت هذا الكلام من فلان.

فقال :نعم.

قلت :أنا الذي قلت له هذه الحكايات كلها!..

قال :يعني هزار!

قلت :صحيحة كلها، لكن ليس معقولًا يا أخي أن تتجمع كل هذه المصائب من أجلي وتصيبني أنا وحدي دون السبعين مليونًا في هذه الولاية.

قال :يعني مسافر!

قلت :طبعًا مسافر!..

قال :وياك..

وسافرنا معًا وأنا أكثر خوفًا منه ..فأنا الذي أعطيته الطمأنينة التي لا أجدها..

كنت كالشجرة التي تمددت تحتها روحه المسالمة وجعلته يغط في نوم عميق ..أما أنا فتحرقني الشمس وتهزني الريح..

..ليس صحيحًا المثل الذي يقول :فاقد الشيء لا يعطيه !فأنا فقدت الطمأنينة، ومع ذلك أعطيتها له، بل الذين يفقدون الأمل هم الذين يتحدثون عنه .والذين يفقدون الحب هم أكثر الناس تغنيًا به ..إن الشمس التي هي مصدر الحياة للدنيا كلها، ليست فيها حياة!

ملحوظة :نحن هنا في الهند ..وكل الناس حكماء وفلاسفة!

* * *

لا تسمع في مدن الهند صوت راديو، ولا تجده في البيوت ولا في السيارات، مع أنه معروض في المحلات التجارية .والسبب أنهم يكرهون الضوضاء أو لا يقدرون على شرائه!

* * *

إذا تزوجت في الهند؛ فأنت ضامن أن حماتك لن تزورك أبدًا .لأن هذا حرام ..وإذا زارتك فمرة واحدة كل بضع سنوات .ولا يجوز للحماة أن تأكل أو تشرب في بيت ابنتها، لأن هذا حرام أيضًا .وإذا زارتها فالجيران هم الذين يقدمون لها الطعام والشراب..

* * *

وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة والأنهار التي تغرق مئات القرى كل يوم، فإنك تجد في مدينة نيودلهي عربات لبيع الماء البارد، هذه العربات تابعة لمحلات كبيرة تشبه جروبي في القاهرة، ولكن مع الفارق الكبير جدًّا.

* * *

في الهند توجد الموتوسيكلات التي تتسع لأربعة أو خمسة من الركاب وهي رخيصة وسريعة وتحل أزمة الأتوبيسات .وهي أحسن وسيلة لإنقاذ أزمة المواصلات في القاهرة!

أول شيء يلفت النظر هو فساتين السيدات .إن المرأة تلبس الساري وهو قطعة من الحرير تلتف حول الساقين وترتمي على الكتف .ويبدو كأنه فستان من قطعتين منفصلتين تمامًا ..بلوزة قصيرة جدًّا ..وجيب تحت الساري، ويبدأ من تحت الوسط ..وأنت ترى منطقة عارية من جسم المرأة عرضها شبر .فإذا لفت هذا نظرك، وضبطتك المرأة وأنت تنظر إليها فإنها تندهش جدًّا ويبدو عليها الضيق .كأنك أنت الذي زحزحت البلوزة عن الجيب !يا سم!

* * *

يسمون الجرسون هنا :بيرر وهي كلمة إنجليزية معناها :شيال، وأعتقد أنها أحسن من كلمة »جرسون «الفرنسية التي معناها ولد أو شاب صغير .فأحيانًا يكون الجرسون في سن الوالد أو الجد .وفي ألمانيا يسمونه :هر أوبر وفي إيطاليا يسمونه :كماريري .وفي العراق يسمونه :بوي وهي كلمة إنجليزية معناها ولد أي جرسون وفي العراق والكويت ينادون الجرسون مهما كانت سنه :تعال يا ولد !ولكن في الهند أحسن ..والعرب القدماء كانوا يسمون الجرسون بالندل ....ما رأيك؟

* * *

إنهم هنا يكرهون القسوة ..يكرهون أن يقضي إنسان على حياة إنسان أو حيوان ..إن الناس يكرهون تحديد النسل؛ لأن هذا قتل لأرواح بريئة ..إنهم يتركون الحيوانات ترعى في أحسن شوارع العواصم .الأبقار في الشارع والقرود على الشجر .ولا يقتلون النمل أو الصرصار أو الثعبان أو البرص؛ فلها جميعًا رزق، ولنا جميعًا رب اسمه الكريم!

* * *

والهنود لا يدعون أحدًا إلى بيوتهم، وإذا دعوك فلا تنتظر أن يقدموا لك شيئًا على الإطلاق ..وإذا سمعت الأطفال يروحون ويجيئون، وسمعت صوت ملاعق أو أطباق أو أكواب، فمعنى ذلك أنهم انتهزوا فرصة المصابيح التي أضيئت بمناسبة زيارتك وجعلوا يغسلون أطباقهم وملابسهم.

* * *

الشاي يقدمونه لك ومعه طبق من الحمص واللب المقشر وبعض اللوز أو البندق وبعض الأرز وقطع من الخبز، وكلها غارقة في الشطة!

* * *

إن الشعب الذي عدده 500 مليون نسمة لا يعرف معنى كلمة مليون، ولا ملايين فعندهم كلمة لاك وهي تساوي 100 ألف، وعندهم كلمة :كرور وهي تساوي مائة لاك!

* * *

مركز المرأة في آسيا كلها أحسن من مركزها في إفريقيا؛ فهي هنا في الهند رئيسة أعظم حزب وهو »حزب المؤتمر «وهي وزيرة ونائبة وزير ومستشارة وقاضية وهي وكيلة البرلمان ورئيسة مئات من الهيئات الرسمية.

* * *

كنت قرأت مرة للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا عبارة على لسان رجل مشكلته أنه لا يعرف كيف يحدد النسل، فيقول :نحن فقراء غير قادرين على الذهاب إلى السينما أو الحدائق، فماذا نعمل؟ إننا ننام في ساعة مبكرة ..وتجيء الأولاد!

ومررت بهذه العبارة ضاحكًا ولم أقف عندها طويلاً ..والهند هي أحسن تفسير لهذه الجملة ..فالليل عندهم يبدأ من بعد الظهر حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي فلا سهرات ولا حفلات ولا سينمات!

وتجيء ملايين الأطفال ..طبعًا!

* * *

كل شيء هنا يتم ببطء شديد .الزمن بطيء والصيف بطيء، والشتاء بطيء والحياة بليدة جدًّا .إنها الحرارة التي تصيب الكبد فتنقل متاعبه إلى بقية أعضاء الجسم .ويقال إن الإنجليز عندما دخلوا هذه البلاد قرروا أن يعودوا إلى بلادهم لولا الكسل الذي أصابهم فمكثوا فيها ثلاثة قرون!

* * *

أحسن ما في الهنود هو طريقة التحية عندهم ..فأنت لست في حاجة إلى أن تصافح كل الموجودين عند دخولك وخروجك ووداعك ..وإنما يكفي أن تضم كفيك وترفعهما إلى أعلى ..وفي هذا تحية لواحد، ولمليون واحد!

* * *

ليس على لساني غير هذه الأغنية :أكلك نار ..شربك نار ..بعدك نار ..قربك نار!!

ولا يمكن أن يفهم أحد في القاهرة معنى نار، إلا إذا سافر إلى الهند .النار حقيقة ..تخرج من أنفك وتدخل في صدرك ..الطعام كله شطة حمراء، وكما يوجد هواء سائل، توجد أيضًا نار سائلة توضع في كل شيء .النار في يدك وفي فمك، وفي معدتك ..نار يا حبيبي نار..

* * *

الهواء هنا غير موجود ..لقد زحف البحر على البر فانسحب الهواء .أنت تتنفس بخارًا من الماء .ولو سقطت سمكة من السماء الآن فلن أدهش، لأننا جميعًا نخوض في الماء ..بل لو سقطت هذه السمكة مشوية فلن أدهش، بل لو سقطت وهي في منقارعصفور محشو بالأرز بالكاري ومكتوب عليها السعر فلن أدهش أبدًا ..فنحن في بلاد الملايين ..ملايين الناس والحواة والأديان واللغات والحيوانات ..كل شيء جائز!

* * *

لقد كنت في الهند كالسيارة التي ارتفعت حرارتها، وتعطل فيها جهاز التبريد ..المروحة واقفة ..الماء يغلي .ولا أستطيع أن أوقف الموتور لكي تنخفض درجة الحرارة..

* * *

والجراثيم هنا تشبه السمك؛ إنها تسبح في هذه البحار وتنتقل من إنسان إلى آخر وبسرعة، ويكون ضحاياها بالألوف!

* * *

ملابسي ملتصقة بجسمي، كأن عشرين جردلًا من الماء ألقيت على رأسي وعلى ظهري ..ويبدو أن هذا منظر مألوف في الهند ..فالأجانب لم يتعودوا بعد على هذه النار ..أما أبناء الهند فلا أحد يشكو من العرق أو من النار.

* * *

قرأت كتاب »أذرع وسيقان «لعبد الحميد جودة السحار .إنه عندما كان في الهند كان ينام عاريًا وأمامه مروحة ..إنني في نفس الوضع ..الغرفة مقفلة النوافذ ..وأنا عريان، المروحة أمامي كأنها فراشة دائخة، وأنا أريد أن أنزع جلدي لأنه لحاف ثقيل يرفع درجة حرارتي .ولذلك اقترحت على مدير الفندق أن يأتي بمروحة أخرى لتقوم بتبريد هذه المروحة التي تبصق النار في كل شيء حولها، وفي وجهي.

* * *

قرأت لـ»سومرست موم «أن الإنسان في الهند يشعر بأنه فوق ..فوق الناس جميعًا فحياته مستحيلة من غير أن يتخفف من كل ما يحمله من ملابس ومن طعام ومن هموم ..إن راحته الكبرى في أن يجلس فوق ..فوق الجبال بعيدًا عن مشاغل الدنيا..

فعلاً ..أستطيع أن أكون كما أريد هنا في الهند ..أن أمشي عاريًا حافيًا ..أن أنام على المسامير ..فمثلي مئات الألوف ..أن أقف على ناصية أحد الشوارع وقد حلقت رأسي بالموسى ولففت غطاء حول نصفي الأسفل، وفي يدي طبق كما يفعل رهبان البوذية ..وأنتظر من الناس أن يضعوا في الطبق ما تجود به نفوسهم ..ولن أكون أعجوبة ..لن يلتفت أحد إلى هذا الشحاذ الذي ضاقت عنه بلاده، فجاء في »بعثة شحاذية «إلى الهند..

ملايين الناس ..رائحون في الشوارع وجالسون على الأرصفة ..ينظرون إليك ولا يهمهم أمرك ..أنت الآن في الهند حر ..تمامًا ..بل أكثر حرية من أبناء الهند ..حر من عيون الناس ومن كلام الناس.

تستطيع أن تكتوي بالنار على الوجه الذي تريد ..بالهواء، بالمطر، بالمشي، بالجلوس ..بالأكل بالإضراب عن الأكل.

نار !!وأرجو أن تكون الألف ممدودة حتى آخر هذه الصحيفة!

* * *

قررت أن أمسك نفسي، ألا أصرخ، ألا أكون عصبيًّا .قررت ألا تكون لي أعصاب .قررت أن أكون مثل بيت انقطعت منه أسلاك النور والراديو والتليفون .وحتى عندما تسري الكهرباء في هذه الأسلاك يجب أن تكون فلسفتي هي :ودن من طين والودن الثانية من طين أيضًا.

لماذا؟ لأنه لا فائدة من الصراخ ..لا فائدة من الثورة ..فأنا لا أستطيع أن أصلح الدنيا حولي .ولا أستطيع أن أغير طباع الناس لكي تعجبني .يجب أن أتغير أنا ..لا لكي أعجب الناس، ولكن لكي أعيش مع الناس؛ حتى لا أصطدم بالناس ..أو على الأقل لكي أستريح..

وأقسمت بيني وبين نفسي أن تكون هذه هي فلسفتي اليوم فقط .واليوم على سبيل التجربة..

ومددت يدي إلى الجرس .وضغطت عليه .وفي هدوء تام مددت يدي إلى كتاب وجعلت أقلب فيه ..صفحة بعد صفحة، واستغرقت في الكتابة والقراءة، واكتشفت فجأة أنه منذ عشر صفحات لم يحضر الخادم .فنهضت بسرعة مندفعًا نحو الجرس ..وتذكرت الاتفاق بيني وبين نفسي وألقيت بنفسي في المقعد .وتمنيت أن تكون نفسي هذه قد سبقتني إلى المقعد .لكي أفعصها وأنا أرمي فوقها بثمانين كيلو من اللحم والشحم.

وفي هدوء تمثيلي جدًّا مددت يدي إلى نفس الكتاب وقلبت فيه وأنا أقرأ الصفحات ولا أراها .وحاولت أن أقاوم غيظي فجعلت أغني وأقول :يا عطارين دلوني الصبر فين أراضيه ..وقلت لنفسي .إذا كانت للصبر أراض، فهي الهند .إنها تتحداك ..إنها تستنفد أي رصيد من الصبر مهما كان ..إن النبي أيوب -عليه السلام -لو جاء إلى هذه البلاد لأحس أن صبره ليس إلا قليلًا من »الفكة «الصغيرة .فكل مواطن هنا مليونير في الصبر وهدوء الأعصاب ..نعمة من عند الله .يعني يبقى لا أكل ولا لبس ولا صبر كمان؟!

وفجأة دق الباب ودخل الخادم .وفي هدوء قلت له :من فضلك عاوز شاي!

ولم يقل الخادم شيئًا واختفى وانطلقت وراءه أناديه ..وتذكرت الاتفاق الذي لم يمض عليه سوى دقائق، ثم قلت له في هدوء :من فضلك عاوز شاي .يكون الشاي لوحده والميه السخنة لوحدها.

وأحنى الجرسون رأسه ومشى ..وناديته :يا أخي استنى لما أكمل كلامي ..الميه تكون مغلية ..يعني الميه من غير شاي ..والشاي ناشف ومحطوط في طبق ..وبيني وبين نفسي قلت :حتى لو جاب الشاي زي الطين والله ما انا متكلم ..ساعة صبر مش قادر ..ساعة واحدة بس!

وبعد دقائق عاد الخادم ووراءه خادم آخر ..ووقفت أتفرج على البراريد والفناجين وأطباق الشاي الجاف ولم أفهم لماذا كل هذه الهيصة ..ولم أنطق بكلمة .وعندما خرج الاثنان وجدت ما يأتي :برادًا من الشاي، وبرادًا من الماء المغلي، وطبقًا من الشاي الجاف، وبرادًا من القهوة ..ولم أجد قالبًا واحدًا من السكر .فمددت يدي إلى الجرس، وجاء الخادم في ثانية، ودخل الغرفة وجمع كل البراريد وخرج دون أن يقول كلمة .ودخل خادم آخر ومعه براد ماء ساخن، وطبق فيه شاي جاف وبعض السكر ..وخرج .وناديت الخادم لأفهم منه ما هذا الذي حدث..

وعرفت أن الخادم الأول قرر أن يعمل في مكان آخر من الفندق، لما سألت عن السبب قال لي :إنك تهين الخادم.

فقلت :أهينه كيف؟ لا أعتقد أن هناك أي سبب يجعلني أهين أي خادم هنا!

وناديت الخادم، وسألته عن هذه الإهانة؛ لكي أعتذر له إذا كنت مخطئًا، ورفض الخادم أن يحدثني عن حقيقة الإهانة، ولكنه أهانني عندما قال :يا سيدي، إنني خادم، وليس من حقي أن أعترض مهما فعلت، مهما قلت؛ فأنا خادم وأنت سيد، وهنا أحسست أنني مزقت الاتفاق بيني وبين نفسي وقلت :أرجوك أيها السيد ..أنا خادمك ..أريد أن أعرف لماذا أهنتك ..أرجوك ..إذا لم تقل فورًا فسأنزل للمدير وأطلب منه أن يكرهك على الاعتراف ..فأنت أهنتني أيضًا ..إنك أهنتني في الصميم وجعلتني أمزق اتفاقًا غاليًا!

وقال وهو لا يدري معنى ما أقول :آسف يا سيدي إذا كنت قد تسببت في هذا كله .وأخيرًا قال :يا سيدي أنت كل يوم ..كل يوم تطلب مني نفس الطلب .وتطلبه بالتفصيل ..إنك تقول :براد من الشاي مليء بالماء المغلي وإلى جواره طبق به شاي جاف ..كل يوم تقول لي نفس الكلام ..كأنني حمار أو بغل .إنك تسيء الظن بي إلى درجة لا يتصورها العقل.

وقلتُ له :أنا آسف ..لي تجارب كثيرة في الفنادق ..هذه التجارب جعلتني أتوقع أن يحدث أي شيء ..وأنا لا أريد وجع دماغ ..آسف..

وانحنى الرجل ..ورفع رأسه في ضيق وهو يقول :هذه هي آخر مرة أعمل هنا ..أنا قررت ذلك ..وهذه هي آخر مرة أقدم لك فيها الشاي!

وأقفلت الباب وجلست وأعصابي مهتزة، تشبه أسلاك تليفونات لها دوي، ولكنني لا أدري ماذا يدور فيها ..ومددت يدي إلى براد الشاي..

وعقدت اتفاقًا سريعًا بيني وبين نفسي ..وقررت أن أشرب فنجانًا من الشاي وفنجانًا من القهوة ..وبلا سكر ..وأنا أحتفظ بأعصابي في براد) ..كلمة براد نسبة إلى البرد، مع أن الماء فيه يغلي.(

وأصبحت في كل يوم أجلس أمام البراد وأصب ما أجده فيه دون أن أفتح فمي .لا بالكلام ولا بالشراب!

* * *

كل شيء هنا له معنى وله قصة يعرفها الناس..

مثلًا إذا نظرت إلى شعر الرأس .هل هناك شيء أبسط من شعر رأس الرجال؟ ولن أتعرض لشعر السيدات .فليست فيه أية تقاليع.

هناك رجال يطلقون شعر الرأس واللحية طول العمر .ودينهم يمنعهم من أن يقصوا شعرة واحدة ..ويضع الواحد منهم عمامة كبيرة ملفوفة حول شعر أطول من شعر أية امرأة، هذه العمامة ملونة :خضراء، زرقاء، حمراء .كأنها كرافتة وصاحبها يلونها كما يريد، ولحية طويلة أيضًا .ومعظمهم يضعون على اللحية شبكة كالتي تضعها الفتيات فوق الشعر ..وبعضهم يكتفي بأن يضع منديلًا مشدودًا حول اللحية.

هؤلاء هم »السيخ «وهم من أنشط الأقليات الهندية .وتجدهم في كل مجال من مجالات العمل .ويظهر أن رجال السيخ يمتازون بقوام سليم .ولهم بنات وزوجات من أجمل فتيات الهند مع الأسف!

ويوجد في مطعم »جايلورد «في نيودلهي رجل من السيخ مشهور، وسبب شهرته أنه ليس في رأسه أو وجهه أو لحيته شعرة واحدة .وهو لذلك حزين جدًّا .إنه أقرع الرأس واللحية والشارب ..حتى حاجباه مرسومان بقلم من الفحم!

وهناك رجال يضعون المشط في الرأس..

وهناك رجال يضفرون شعر الرأس بعد سن معينة .ويضعون في هذه الضفائر مشطًا نصف دائري.

ويوجد في الهند أناس يحلقون شعر الرأس تمامًا بالموسى، ويتركون مجموعة من الشعر في منتصف الرأس ولا يحلقونها طول العمر..

وهناك المسلمون الذين يطلقون شعر اللحية، ولكنهم يقصرونه قليلًا بصورة تلفت النظر إلى أنهم ليسوا من السيخ، وهم لا يعرفون من اللغة العربية إلا »السلام عليكم.«

أما شعر المرأة فطويل أسود يوجع قلب كل نساء أوربا!

* * *

والملابس تروي قصة أخرى..

فهناك »الدوتي «وهي قطعة من القماش طويلة جدًّا تلتف حول الجسم .وأحيانًا على شكل بنطلون يشبه اللباس الذي يرتديه أبناء البلد في الإسكندرية ..قماشه أكثر من اللازم.

وهناك من يكتفي بأن يضع شريطًا من القماش يغطي به مساحة ضئيلة جدًّا من الجسم من أسفل .أما الباقي فعريان.

هناك من يرتدي الجاكتة الطويلة جدًّا كالبالطو وتحتها بنطلون ضيق جدًّا وملاصق للساق.

والرجل العظيم نهرو كان يرتدي هذا الزي دائمًا..

وأشكال من الجاكتات والبنطلونات والملابس الداخلية غريبة..

أما رداء الرأس فهو أعجب ..هناك عمائم مشدودة، وعمائم مفكوكة، وعمائم لها »عرف «كالديك وعمائم لها ذيل كالطاووس ..وعمائم »زعرة «بلا ذيل ولا منقار.

* * *

إن الهند ليست دولة ولكنها قارة واسعة.

الرجل الهندي يستطيع أن يعيش في أسوأ الظروف وفي أصغر مساحة من الأرض وبأقل طعام وشراب ممكن .ولا يشكو، ويجد من دينه وفلسفة بلاده ما يجعله يرضى بهذا القليل من كل شيء.

ولكن أي أجنبي في الهند يملك من الحريات ما لا يملكها في بلده ..فأنت في الهند تستطيع أن تمشي نصف »عريان «وأن تطيل لحيتك وشاربك .وأن تنظر إلى الأرض، وأن تنظر إلى السماء ..وأن تأكل والطعام في يدك وأن تضعه على الأرض ..وأن تموت من الجوع وأن تموت من الشبع..

* * *

في الهند صحافة تحتفي بك، وصحافة تشتمك، وصحافة تدعو لك، وصحافة تدعو عليك ..وصحافة تجعلك تكره الصحافة!

وبين الصحفيين الهنود من يعرف بلادك، كأنه يحدثك عن أسرته وأولاده ..وبينهم من ينظر إليك وإلى بلادك كأنها غير موجودة، وكأن الأراضي التي تحتلها بلادك هي مجرد »بياض «على الخريطة وعلى الكرة الأرضية..

* * *

كل شيء هنا موجود، من الممكن أن تحب الهند وأن تكره آسيا كلها ..ومن الممكن أن تهنئ نفسك لأنك جئت إلى هذه البلاد.

ونهرو هو أعظم رجل في الهند، ولا يعرف الهند من لم يعرف نهرو، ولا يعرف آسيا من لم يعرف الهند، ولا يعرف مستقبل العالم من لم يعرف آسيا!

والهند هي رأس آسيا ..وهي شعرها الطويل والقصير ..هي العمامة أم ديل، والعمامة بلا ديل، هي العنوان الذي كله معنى، وهي عنوان لا علاقة له بالموضوع .هي أغرب ما في آسيا وأغرب ما في الدنيا ..لكنها شيء كبير ..كبير جدًّا!

* * *

نشرت الصحف اليوم أن الحكومة قد تمكنت من القبض على 80قردًا ..وهذه القرود كانت تهجم على دواوين الحكومة وتمزق الدوسيهات، وقد اتفقت الحكومة مع عدد من الصيادين للقبض على هذه القرود بسعر 80قرشًا للقرد الواحد.

وتمكن هؤلاء الصيادون من إمساك القرود ..أما طريقتهم فهي أنهم أتوا بقرد صغير وراحوا يضربونه والقرد يصرخ ..فجاءت القرود الكبيرة لإنقاذه فسقطت في الشبكة..

واحتج الصيادون على ضآلة الأجر، وهددوا بإطلاق القرود ..فأعطتهم الحكومة عشرة قروش أخرى لكل قرد!

* * *

فوجئ الناس في العاصمة هنا بأن وجوههم مغطاة بالسواد ..بالهباب ..وظن بعضهم أن هذا بفعل الشياطين أو الأرواح الشريرة، وذهبوا إلى البوليس ..واكتشف البوليس أن هذا الهباب الذي يملأ وجوههم وأجسامهم وطعامهم، قد هبط من إحدى مداخن المصانع المجاورة ..وليس بفعل الشياطين..

* * *

في الهند يسألون عن الجو وعن حال الجو، مع أن الهند صيف معظم السنة، وليس هناك تغير ملحوظ في الجو ..والصحف كذلك تهتم أيضًا بالجو ..كأن هذه الصحف تصدر في إنجلترا!

* * *

عندما وصل رئيس وزراء منغوليا إلى نيودلهي وزعت سفارة منغوليا هذه القصة الجميلة .والقصة لها مغزى ..وهي من الأدب الشعبي في منغوليا..

يقال :إنه كانت هناك دولة صغيرة سعيدة .ليس فيها فقر ولا مرض ولا شجار بين الناس .السماء في وفاق دائم مع الأرض ورسائل السماء إلى الأرض يحملها المطر وتحملها الطيور وتكتبها الزهور، وتخفيها الثمار حلاوة ورائحة جميلة..

وفي يوم جلس الملك بين الحاشية يقول :بلادنا سعيدة، وأعتقد أنني مصدر هذه السعادة؛ فلو لم أكن ملكًا عاقلًا عادلًا طيبًا لما وجدت البلاد هذه السعادة التي تراها على وجه الطفل وعلى وجه أمه وأبيه..

ولكن الملكة تلفتت إلى الملك وقالت :بل لولا وجودي أنا ..إنني عرفتك شابًّا طائشًا كثير النزوات، كل يوم على حال ..أنا التي وضعت عقلي في رأسك ..ورأسك هو الذي يدير هذه الدولة، وأنا التي أدير رأسك ..فأنا إذن التي أدير هذه الدولة ..أما سعادتها، فأنا مصدرها الوحيد..

وتلتفت الملكة إلى الحاشية..

ولكن أفراد الحاشية تهامسوا وقالوا فيما بينهم :إننا مصدر السعادة؛ فالملك لا يرى إلا بعيوننا ولا يحكم إلا بنا، فنحن عيناه وأذناه ويداه .ونحن السلالم إلى الشعب ومن الشعب ..وإذا كان الملك عقلاً، فلا عقل بغير جسم ..ونحن الجسم.

واختلف الجميع..

وأخيرًا اتفقوا على أن يسألوا أحد الحكماء.

وذهبوا إلى أحد الحكماء وسألوه :ما سر السعادة في بلادنا، أهو الملك، أهي الملكة، أهم الحاشية؟

ولكن الحكيم نظر إليهم ضاحكًا وقال :لا أحد من هؤلاء، وإنما سر السعادة في بلادنا يختفي وراء أربعة من الأصدقاء هم :الفيل والقرد والأرنب واليمامة ..هؤلاء الأصدقاء الأربعة يعيشون في سلام وحب وسعادة..

وقال الحكيم :في يوم اختلف هؤلاء الأربعة أيهم أكبر سنًّا ..وأيهم أصغر سنًّا ..ووقف الأربعة بالقرب من شجرة كبيرة في السن أيضًا.

فقال الفيل :عندما كنت صغيرًا كانت هذه الشجرة أقصر مني..

وقال القرد :عندما كنت صغيرًا كانت هذه الشجرة تلقي ظلاً أصغر من جسمي.

وقال الأرنب :عندما كنت صغيرًا كنت آكل أوراق هذه الشجرة وهي لا تزال على وجه الأرض..

وقالت اليمامة :هل تعرفون أن هذه الشجرة كانت بذرة في منقاري وأنا التي ألقيتها على الأرض..؟

فآمنوا جميعًا بأن اليمامة هي أكبرهم سنًّا، ولذلك كانوا إذا ساروا صعد القرد على ظهر الفيل وصعد الأرنب على ظهر القرد ..أما اليمامة فهي تجلس على رأس الأرنب وهي وحدها التي تلتقط الثمار من أعلى الأشجار.

ومنذ ذلك اليوم لم تعد هناك ثمرة مهما كانت عالية لا يستطيع هؤلاء الأربعة أن يقطفوها..

وعندما يكون هناك خطر فإن اليمامة تطير إلى أعلى وتدلهم على اقتراب الخطر ..فيهربون جميعًا ..الفيل يحمل القرد، والقرد يحمل الأرنب، والأرنب يحمل اليمامة..

الخلاصة :لا يوجد شيء كبير أكثر من اللازم ولا يوجد شيء صغير أكثر من اللازم ..فالكبير في حاجة إلى الصغير، والصغير ينفع الكبير..

والمثل الشعبي المصري يقول :النواة تسند الزير .ومعنى ذلك أن الزير يحتاج إلى نواة لكي تسنده!

* * *

قرأت كتابًا بعنوان »الشرق شرق «للكاتب المرح چورچ ميكش -أرجو أن تنطقها چورچ ميكش فهذه إحدى أمنيات الكاتب الإنجليزي الجنسية المجري المولد -والكتاب يتحدث عن الهند واليابان .وفورموزا، وهونج كونج، وتايلاند، والفليبين، وتركيا ..والكتاب 290صفحة ممتعة مضحكة..

وچورچ ميكش يدهش من الذين يقولون :إن آسيا »قارة «أو
يقولون »الشعب «الآسيوي ..أو »الروح «الآسيوية ..أو التقاليد الآسيوية.

فآسيا ليست قارة وإنما هي مجموعة من القارات، وكل واحدة منفصلة جدًّا عن الأخرى ..فالصين قارة في آسيا ..والهند قارة في آسيا ..وكل واحدة مختلفة تمامًا عن الأخرى.

ويضحك من الذي يقول» :الشعب «الآسيوي، لأن آسيا مجموعة من الشعوب المختلفة بعضها عن بعض ..فالهندي لا يشبه الصيني والصيني لا يشبه الفليبيني ..والأفغاني لا يشبه اللبناني ..وكل واحد من هؤلاء له طريقة خاصة في الأكل وفي الملبس..

وإذا كانت معالم الجمال عند المرأة الصينية هي نعومة البشرة وقلة الشعر في الجسم ..فليس كذلك عند المرأة الهندية ..أو عند الرجل من طائفة السيخ ..بل إن في داخل كل دولة من هذه الدول ولايات كبيرة .كل واحدة تساوي عدة دول أوربية، ففي الهند وحدها توجد ولاية عدد سكانها 50مليونًا، وفي إندونيسيا جزيرة واحدة عدد سكانها 65مليونًا، وفي اليابان جزيرة واحدة عدد سكانها 40مليونًا ..ففي هذه الدول شعوب وشعوب، ومئات اللغات ومئات الأديان، كالهند مثلاً..

والذين يقولون »الروح «الآسيوية، أي مجموعة الصفات التي يمتاز بها جميع أبناء آسيا .ماذا يقصدون؟ هل تستطيع أن تقول ما وجه الشبه بين الياباني واليمني أو بين المغولي والتركي؟ لا توجد روح واحدة وإنما توجد عشرات الأرواح، وكلها تتفق على شيء واحد هو كراهية »الاستعمار ..«كراهية الأجنبي..

والكلمة الملعونة في كل آسيا هي »الاستعمار«، معناها استعمار رجل أبيض لرجل أصفر، بغير سبب وبغير تقدير لظروفه .فالرجل الأبيض يقول للرجل الأصفر :أنت غير قادر على حكم نفسك بنفسك .إذن أنت قادر على حكم نفسك بغيرك ..وهذا الغير هو أنا.

ولا تزال في آسيا دروس وعبر وعظات لم يعرفها الغربيون بعد، أما أعظم درس للغربيين والبيض عمومًا فهو أنه لم يعد لهم عيش هنا، فإذا لم يكن واحد منهم يصدق ذلك فليحضر إلى هذه القارة ليرى!

* * *

سيلان جزيرة الشاي

عندما وجدت نفسي مرة أخرى في مطار مدراس شعرت بسعادة غريبة .ولم يكن عندي متسع من الوقت لكي أفتش في نفسي عن أسباب هذه السعادة .أو لم أجد أي داع لأن أبحث عن أصلها ومن هم آباء وأجداد هذا الشعور الذي نزل ضيفًا على قلبي وعلى عقلي، فجعلني أتمدد على كنبة خشبية وإلى جواري رجل يهرش بصفة دائمة في أماكن عميقة دقيقة من جسمه، ومع ذلك لا ألتفت إليه، وإنما أنظر إليه كأنه فتاة جميلة تضع الأبيض والأحمر تمهيدًا لظهورها في أحد عروض الأزياء!

لهذه الدرجة كنت سعيدًا ..أو كنت مشغولًا بسعادتي عن النظر إلى هذا الرجل أو إلى رجال آخرين ..حتى الضوضاء في المطار لم تضايقني .وحتى عندما جلسنا في غرف متباعدة ومعلق على أبوابها كلمات :ممنوع الخروج، ممنوع الدخول ..وحتى عندما فوجئت بأن صحيفة هندية أخرى قد نشرت تعليقًا على مقالاتي التي ظهرت في القاهرة .وراحت تلعن اليوم الذي نزلت فيه بلادهم!

وإذا لم أكن مخطئًا، فأنا أعتقد أن مصدر شعوري بالسعادة هو أنني مسافر إلى بلد جديد ..لا أعرف إن كان هذا البلد أحسن من الهند، أو أغنى من ناحية الألوان الدينية والاجتماعية .لا أعرف .إن الرحالة العربي ابن بطوطة قد أضاع ثلاثة أرباع عمره يتغزل في جمال الهند .فقد قرأ على مدخل أحد المعابد الهندية في العاصمة عبارة تقول :هنا ..فقط توجد الجنة!

ولكن يكفيني أن أذهب إلى مكان جديد .فأي بلد جديد هو الجنة بالنسبة للبلد الذي قبله ..فليس أروع ولا أمتع من رؤية بلد جديد ..من معرفة شيء جديد ..من الخوف من جديد والقلق من جديد ..والاطمئنان من جديد!

وعندما تقدمت إلى ضابط الجمرك طلب مني جواز السفر .فأعطيته الجواز ووقفت .ويبدو أن سعادتي كانت زائدة عن اللزوم فلما سألني عن وظيفتي وأين كنت في الهند أعطيته بضعة عناوين لأناس أعرفهم وآخرين لا أعرفهم في الهند .ثم طلب مني بعدم اكتراث شديد أن أذهب إلى الغرفة المجاورة.

ولما سألته عن السبب لم يشأ أن يرد .ولكن لاحظت أن الوقت المتبقي لقيام الطائرة لا يزيد على عشر دقائق .فنبهته إلى أن الطائرة قد استقرت الآن على أرض المطار ومن الضروري أن أذهب إليها فورًا ..ولكنه أصر على أن أبقى قليلًا إلى أن يتصل ببعض المسئولين.

وأشار الرجل إلى خمسة من موظفي الجمرك وأمسك ورقة وقلمًا وسألني في غاية الجد:

-معك حشيش؟!

-لا...

-معك أفيون؟

-لا...

-معك ذهب؟!

-لا...

-معك مجوهرات؟

-لا...

-مخدرات طبية؟

-لا...

-مواد ملتهبة؟

-ملتهبة يعني إيه؟

-آه ..طيب أشوف المواد التي معك وأنا أقول لك)وامتدت يده إلى حقيبتي وراح يقلب فيها ..فيجد قمصانًا وظروفًا وعلبًا فارغة وزجاجات حبر وكولونيا وأملاح الصودا والإسبرين (أمال فين المواد اللي انت بتقول عليها..؟

-يا أخي أنا ماقلتش حاجة ..أنا سألتك فقط ..مجرد استطلاع، لكي أضيف إلى معلوماتي شيئًا جديدًا ..خصوصًا وأنا لا تزال أمامي مطارات كثيرة ورجال جمارك كثيرون ..مجرد حب استطلاع من جانبي فقط!

-معك قنابل ..أحماض ..أفلام تصوير ..أنت ماذا تعمل؟

-مكتوب في جواز السفر..

-لم أتمكن من قراءته..

-أنا أدلك عليه) ..لاحظت على وجهه رغبة واضحة في أن ألتزم حدود الأدب .وأقف عند المكان الذي يجب أن يلتزمه أي مسافر خارج من الهند.(

-بالضبط ماذا تعمل؟!

-مطرب) !قلتها وأنا أحاول أن أكون ظريفًا.(

-معاك فلوس طبعًا؟!

-لا...

-معاك كم من الفلوس؟

-الستر)لم يفهمها.(

-بالعملة الهندية كم؟

-الستر لا يقدر بأي مال..

-هل هو قطع من الأحجار الكريمة؟

-الستر كلمة عربية معناها شعورك بأنك لست في حاجة إلى أحد ..وأن يخرج الإنسان من بلد كما دخلها بلا فضيحة) !حاولت أن أضحك.(

-إذن كيف ستعيش في جزيرة سيلان؟

-سأعمل في إحدى الفرق الغنائية هناك.

-الفرقة التي وصلت أمس؟

فقلت :لا أعرف)وأنا فعلًا لا أعرف!(

-لحظة واحدة من فضلك!

ودار كلام باللغة الهندية طويل ..وظللت أضحك أنا ..وأحسست أني بايخ جدًا ..وأن الضحك في هذه الأوقات لعب بالنار وإشعال للبنزين في مهب الريح.

واتجهت إلى الرجل وقلت له :إنني أداعبك فقط ..ومهنتي الحقيقية هي الصحافة ..صحفي يعني ..والله صحفي في بلدنا ..وأنا أحاول أن أداعبك قبل أن أرحل من بلادكم العظيمة بابتسامة عريضة..

وجعل الرجل يقلب في جواز سفري وهو حائر بين الأسف والضحك والأدب والوقاحة، والغناء والصحافة..

وأخيرًا قال لي :معك فلوس.

-معي هذه)وأعطيته روبية هندية.(

-ما هذا؟

قلتُ إنها أزيد من المبلغ الذي نص عليه القانون ..فالقانون ينص على أن يحمل المسافر معه 75روبية وأنا معي 76روبية!..

ولم تعجبه النكتة وراح يقلب في الحقيبة ..وأشار إلى أحد الشيالين أن يحملها .وعندما خرجت من الجمرك طالعت إحدى الصحف..

وفي الصفحة الأولى قرأت أن أحد المطربين في فرقة موسيقية قادمة من بيروت في طريقها إلى كولومبو كان يخفي في ملابسه سبائك من الذهب!

وقرأت أن هذه الفرقة الراقصة فتشوها تفتيشًا كاملاً .اشترك فيه رجال ونساء وكلاب البوليس ..وكان معهم ذهب ولؤلؤ وحشيش وأفيون..

ومن المفترض أنني أحد أفراد هذه الفرقة!

وشكرت ضابط الجمرك واعتذرت له.

وتقدم لي هو أيضًا بالاعتذار الكافي، لا عن التفتيش وسوء الظن بي، ولكن على التأخير ..فقد قامت الطائرة إلى سيلان .ولا بد أن أنتظر طائرة أخرى في اليوم التالي..

ونمت جالسًا أو جلست نائمًا على مقعد غير مريح حتى صباح اليوم التالي .وكنت أهرش تمامًا كأي واحد من موظفي المطار ..ولو رآني أحد المهتمين بالقضايا السياسية لأعطاني الجنسية الهندية فورًا!

* * *

وفي اليوم التالي كأي تلميذ ضربوه علقة، ركبت الطائرة محطم الجسم .فلم تكن جلستي مريحة ..ولا ليلتي هادئة، فقد أحسست بأنني أخذت شلوتًا .والسبب هو محاولتي أن أكون ظريفًا وأن أنكت .وتعلمت ألا أضحك في الهند بعد ذلك .وقررت أن ألتزم نفس السياسة في جزيرة سيلان .فأبناء سيلان وأبناء الهند أولاد عم، إن لم يكونوا إخوة.

والمسافة التي تقطعها الطائرة بين مدراس وكولومبو كانت الأساطير القديمة تتحدث عنها وعن وجود جسر تاريخي عبر المحيط الهندي .هذا الجسر أقامته القرود بأن تماسكت بعضها في بعض .حتى قام أحد الأمراء وعبر على ظهر القرود من الهند إلى سيلان .ولذلك فالقرود حيوانات مقدسة!

فهنالك أكثر من قصة وأكثر من تاريخ يربط شبه جزيرة الهند، وجزيرة سيلان.

وفي الطائرة جلست إلى جوار رجل أوجع رأسي بالكلام .ولكني استسلمت للنوم الذي كأنه سد أذني بالقطن ووضع ترباسًا على فمي ودق مسمارين في مقعدي، فلم أكن أتحرك لا يمينًا ولا شمالاً...

ولما يئس الرجل قرر أن يوقظني بشخيره، ولكني تمسكت بموقفي، أقصد بحالتي التي أنا عليها .وكل نكتة جاءت في رأسي شنقتها فورًا .وكل محاولة للتعليق على شيء أخمدتها في حينها .وتخيلت نفسي بطلًا يخوض معركة ضد الكلام .ونجحت في أن أسكت نفسي بنفسي..

حتى عندما هبطت الطائرة أرض سيلان ورأيت البهجة على وجوه الناس، وحتى عندما عرفت أن الطائرة قد أصابها عطل في أحد محركاتها، وأننا وصلنا بمعجزة لم أهنئ نفسي على سلامة الوصول ..ولكن صفقت لنفسي لنجاحي في أن أسكت..

ونقلتني السيارة من المطار إلى الفندق.

ولم أحدد الفندق الذي أريده ...ولكن من نافذة السيارة وجدت المناظر جميلة ..وجدت النسيم يغسل نفسي ..وفتحت صدري لكي أسهل للهواء الطريق إلى قلبي، ويبدو أن قلبي نام .وأن عقلي استرخى ...وانتشيت .وتمددت في مقعدي وانتهزت فرصة لأبدي إعجابي للسائق ببلاده .وكأنه كان يتوقع ذلك فأضاف هو أيضًا أوصافًا جديدة إلى جزيرة سيلان..

وفي شارع طويل على جانبه الأشجار العالية .انطلقت السيارة .وانحرفت .ودخلت في بوابة من الأشجار الغليظة ثم توقفت .وأمام باب الفندق وجدت عددًا كبيرًا من السائحين الإنجليز ..الوجوه بيضاء .والعيون حلوة ..والملابس نظيفة ..والكلام همس ..والضحك سعيد.

والفندق عبارة عن جناحين..

الجناح الجديد هو الذي يضم المطعم وقاعات الجلوس ..والبار ومكتب الاستعلامات...

أما الجناح القديم فهو الذي نزلت به..

وفي أعلى طابق كانت غرفتي..

ومن نافذة فندق »مونت لافينيا «بجزيرة سيلان أطل على البحر..

لا شيء غير عادي ...الموج عالٍ يضرب الشاطئ .الموج ثائر ولكن ثورته بيضاء .الموج أبيض والشاطئ أحمر .فلا استطاع البحر أن يغير لون الشاطئ ولا استطاع الشاطئ أن يغير لون البحر .السحب عالية جدًّا .ولن يكون مطر قبل ساعة .الأطفال في ملابسهم البيضاء وأحذيتهم البيضاء يركبون المراجيح ...إعلانات)باتا (في كل مكان .لا شيء جديد .ومن الممكن أن تجد هذه المناظر في الإسكندرية أو بورسعيد.

ولكن لو أنك أمضيت شهرًا في الحر والعرق والمطر والطين والنوم من الساعة الثامنة والتاسعة كل يوم، لو أنك ركبت طائرة ذات محركين يلعب بها الهواء ويلقي بها فوق سطح السحب .ورأيت وجوه المضيفات أصفر في لون الليمون ..لو أنك مددت يدك إلى الصحف التي صدرت في نفس اليوم ورأيت صورة طائرة ذات أربعة محركات، قد اشتعلت فيها النار ..ولو تأملت المضيفة السمراء ذات العيون الزرقاء وهي تمسك قطعة من القماش الأحمر وتقول لك :إننا الآن سنمر على المحيط، وهذا هو جهاز النجاة .عندما تسقط الطائرة في الماء، ضع هذا على صدرك، اربطه جيدًا .انفخ في هذه الأنبوبة .ستبقى عائمًا حتى تجيء السفن أوالطائرات لإنقاذنا ..ولكن إن شاء الله نصل بسلام!

وبعدها بلحظة واحدة ترى الأضواء الحمراء تعلن أننا يجب أن نربط الأحزمة، فالطائرة ستمر في أحد المطبات الهوائية..

لو أنك قضيت عشرات الساعات فوق السحاب وفوق الماء، لا ترى الدنيا إلا من فوق ..لا تراها إلا على هيئة نقط وبقع وعلب كبريت ..لو أنك شعرت أنك لأول مرة تشم هواء قادمًا من البحر ..هواء طبيعيًّا ..لو أنك شعرت هكذا لوجدت أن منظر البحر في سيلان شيء عجيب غريب .حتى طعم الهواء ..حتى طعم الرطوبة الموجودة في هواء سيلان..

لقد كان منتهى أملي أن أصل إلى هذه الجزيرة وأستغرق في النوم أي عدد من الساعات .وآكل كل الأشياء التي حرمتها على نفسي ..وبعد النوم أسهر حتى الصباح، صباح أي يوم أو يومين أو ثلاثة ...مش مهم!

ولكني في هذا اليوم أحسست بأنني لست في حاجة إلى نوم أو أكل أو شرب أو سهر ..إن مجرد شعوري بأنني وصلت إلى هذا المكان من الجزيرة، آمنًا سالمًا ..هذا الشعور ملأ عيني بالنوم، ونفسي بالراحة، ومعدتي بالطعام ..واكتفيت بهذا القدر.

إنني أتطلع إلى السقف في الظلام ..كأنني أراه لأول مرة .وكأن الفنادق التي نزلت فيها كانت بلا سقف ..أو كأنني كنت أنام على السقف فليس فوق رأسي شيء، إلا الضيق والقرف..

إن المصابيح في الغرفة أراها شيئًا آخر ..أراها مضيئة خافتة كأنها نهدا فتاة جميلة ..فتاة خرافية ترضع الليل لبنًا مخلوطًا بالشاي ..ليس هذا غريبًا فنحن في جزيرة الشاي..

حتى السيجارة في يدي لها معنى آخر ..إن دخانها يتصاعد إلى أعلى ..إنني أراها شيئًا آخر ..أرى السيجارة قلمًا من نوع غريب ..القلم ساكن وحبره الأبيض هو الذي يتحرك ويكتب على ورقة فوقه ..القلم تحت والورقة فوق ..والحبر يتصاعد إلى الورقة .وأنا الذي يمسك القلم لا أعرف ماذا يقول.

هذه هي جزيرة الشاي، أشهر شاي في العالم..

هنا مزارع ليبتون وبروك بوند .هذه الجزيرة استعمرها الهولنديون 150سنة، وطردهم البرتغاليون واستعمروها 150سنة أخرى .وطردهم البريطانيون ولا يزالون فيها منذ 263عامًا ..والآن قد أصبحت جمهورية مستقلة كالهند وباكستان ولكن ضمن التاج البريطاني..

قمت إلى النافذة أقفلها ..فإنني أحب البحر ولكن صوته يذكرني بصوت مليون محرك طائرة ومليون مروحة ومليون جهاز تكييف .وحاولت أن أقفل النافذة فلم أستطع .فليست هناك نوافذ وإنما ستائر فقط.

وجلست أشرب الشاي ..شاي له أصل من ناحية اللون :أبوه الذهب وأمه الوردة ..الشاي هنا له وطن ..فالشاي في هذا الفنجان مأخوذ من هذه الشجرة التي تبعد عني مائة متر..

* * *

وكان لا بد أن أنتقل إلى فندق آخر في قلب العاصمة .واخترت فندق »جول فيس.«

وبقيت في الفندق أيامًا..

عندما اطلعت على كشف الحساب في فندق »جول فيس «في مدينة كولومبو عاصمة سيلان ..زقعت بالصوت فعلًا ..لا أعرف كيف، ولكن هذا ما حدث..

ولما سألني الصراف عما حدث قلت له :مغص كلوي من تغيير الجو ..وترحمت على أرخص وأحسن فندق تركته في الهند .في مدينة تريفاندروم عاصمة كيرالا .كنت أنزل في فندق ماسكوت، الفندق تديره الحكومة، الغرفة على الطرقة بها مروحة .والسرير في منتصف الغرفة .وعليه ناموسية، وهناك غرفة كبيرة بها حمام، وفي الحمام »كوز «يتسع لطفل صغير عمره تسعة شهور وقد ابتلع بطيخة!

ولكن الله يرحم أيام هذا الفندق.

ففي الساعة السابعة صباحًا يدق الخادم بابي ويفتحه ويدخل ويضع لي الصحف اليومية .وفي الساعة الثامنة والنصف أذهب إلى غرفة الطعام لأتناول الفطور :شاي وبيض وشمام أو موز أو مانجو وبعض البندق ..أي كمية تعجبني ومربى وزبدة وعيش محمر.

وفي الغداء شوربة ..وسمك مقلي ثم لحم دجاج ومعه أرز بالكاري ولحم آخر ..ثم لحوم مشوية ومعها بعض جوز الهند المفروم وبعض المانجو المفروم وبعض البندق مرة ثانية وفنجان من القهوة..

وفي الساعة الخامسة يدق الخادم باب غرفتي..

ويضع صينية على منضدة صغيرة أمام الباب الذي يطل على حديقة جميلة بها أشجار جوز الهند والمانجو والدوم ..هذه الصينية عليها الشاي واللبن والبسكوت وبعض حبات المانجو والموز..

وفي العشاء :شوربة ولحوم وفواكه بكميات كبيرة جدًّا..

هل تعرف كل هذا بكم؟ لا أحد يصدق ..كل هذا بحوالي 110قروش !!كل هذا مع الاحترام التام والتحيات والسلام ..وهذا يفتح لك الباب وهذا يقفل لك الباب .وهذا ينزل لك الناموسية، ورابع يرش الـ د.د.ت وخامس يسحب عليك الغطاء وسادس يقفل لك الأبواب ويسألك متى تشرب شاي الصباح..

وطبعًا كل هؤلاء ستدفع لهم البقشيش..

كان ذلك في الهند!

أما فندق »جول فيس «فقد حاسبني على أساس ستة جنيهات غير القهوة والشاي والمكالمات التليفونية والصحف وغير 5%نظير خدمة أخرى ..وغير أن رحم الله فندق ماسكوت ..إن المعلومات التي تجمعت عندي عن الفنادق التي أنزل فيها بعد ذلك قد أطارت النوم من عيني، لا تَنْسَ أنني أكتب سنة .1959

* * *

يقال إن آدم -عليه السلام -عندما نزل من الجنة إلى الأرض كانت جزيرة سيلان هي أول مكان نزل فيه .وبعض الناس يعتقد أن مكان قدميه لا يزال واضح الأصابع.

وقد ذهبت إلى هذا المكان ولم أجد أثرًا لقدمي والدنا آدم ..وإنما وجدت الكثير من المياه والرطوبة .ولم أستبعد أن تكون رحلته من السماء إلى الأرض شاقة مرهقة .ولا بد أن العرق تصبب منه .على كل حال إن الجبال لا تزال تحتفظ ببعض هذا العرق ..بعضه على هيئة بحيرات وبعضه على هيئة دموع في أعيننا نحن السائحين ذوي الملاليم المحدودة!

وأحسست بيد على كتفي تضربها بعنف ..إنه أحد الأمريكيين التجار .لقد رأى الفاتورة وقال لي :ادفع يا بطل!

قالها بالعربية، فسألته :وكيف تعلمت لغتنا؟!

فأشار بيده :إنها قصة طويلة ..لقد كنت في القاهرة وسهرت في الأوبرج ورأيت أحسن راقصة عربية .إنها »نادية جمال..«

فقلت له :قصدك سامية جمال؟!

فأجاب مؤكدًا ..لا..لا ..إنها نادية جمال .أنا أعرفها ..حدثها عني ..قل لها هل تذكرين فو ..فو ..فوستر..

قلت :كانت تدللك هكذا؟!

فأجاب :ادفع أولًا وأنا أحكي لك بعدين.

ودفعت وجاء يهمس في أذني :تحب تسمع حكايتها؟

قلت :لا..

قال :لماذا؟

قلت :معنديش فلوس!

* * *

هذه الجزيرة الصغيرة تعتمد على زراعة الشاي وبيع الشاي للعالم كله ولا شيء يشغل الناس هناك غير بيع الشاي ..والشاي يزرعونه على سفوح الجبال .وكلما ارتفعت السفوح عن سطح البحر، كان الشاي أحسن ..والشاي الذي ينبت في أرض منخفضة هو شاي رديء جدًّا والشَّاي درجات .شاي ناعم وخشن، وطويل وقصير، ورائحته قوية أو ضعيفة، ولونه فاتح أو غامق ..ومعرفة طعم الشاي ووضعه في رتبة أو درجة مسألة صعبة وليست سهلة كما كنت أتصور!..

أما شجرة الشاي نفسها فهي تعيش في الأرض 14سنة ..وجذعها غليظ وقوي ..وأوراقها تشبه أوراق الملوخية ..وفي كل يوم يقطفون أوراق الشاي ..طبعًا ليس كل الأوراق ..وإنما التي ظهرت حديثًا ولونها أصفر فاتح، وربما كان عدد الأوراق المقطوفة من شجرة لا يزيد على كبشة واحدة .وعملية الجمع مرة كل أسبوع ..ومرة كل أربع سنوات ينزعون كل أوراق شجر الشاي، وينزعون أغصانها أيضًا لكي ينبت عليها ورق أصفر جديد ..والشاي لا يمكن زراعته في بلادنا؛ لأنه يحتاج إلى أمطار مستمرة وإلى حرارة شديدة وإلى ظلال وإلى تربة حمراء.

وكل فدان من الأرض به خمسة آلاف شجرة ..وهناك نظام جديد لزراعة الشاي ينص على زيادة عدد الأشجار إلى سبعة آلاف شجرة ..وهناك نظام جديد آخر يقضي بأن تكون زراعة أشجار الشاي بطريقة »التعقيل«، أي عن طريقة »العقل «كالعنب عندنا ..وكان الفلاح الهندي والسيلاني يعتمد على زراعة الشاي عن طريق البذور..

وفي جزيرة سيلان مئات الألوف من الأفدنة مزروعة شايًا ..ولكن مع الأسف يملك الأجانب 80%منها ..والأجانب هناك هم الإنجليز ..فلهم مزارع واسعة جدًّا .والمزرعة تتكون من عشرات الألوف من الأفدنة تقوم فيها المصانع والفيلات الأنيقة جدًّا للمهندسين وكبار الموظفين.

* * *

وانتشار الشاي في العالم له قصص غريبة ..فيقال مثلًا إن أحد الملوك كان يغلي الماء في »حلة «ليشربه فسقطت فيه ورقة من شجرة فلاحظ أنها أعطت الماء لونًا جميلًا .وكانت هذه »الحلة «هي أول فنجان من الشاي في العالم .وكان ذلك من خمسة آلاف سنة..

وبعد ذلك انتقل الشاي من اليابان إلى الصين إلى سيلان إلى أوربا..

والعملية التي يتم بها تحويل ورقة الشاي الخضراء إلى الورقة السوداء التي تراها تستغرق في المصنع حوالي 22ساعة.

وتبدأ العملية بأن تنقل العاملات سلال الشاي إلى إحدى العربات وتنقلها العربات إلى المصنع ..وفي المصنع يوضع الشاي الأخضر على ألواح تتعرض للهواء الساخن الطبيعي أو للهواء الساخن الصناعي والغرض من ذلك هو تخفيف الرطوبة الموجودة في الشاي على الأقل إلى النصف.

وبعد ذلك ينقل الشاي إلى عملية أخرى ..وهي وضعه في الآلات لتحطيم أوراقه ..وبعد تحطيمها تجعلها مبرومة ..والغرض من تحطيم أوراق الشاي هو إخراج العصارة الموجودة فيها.

وبعد ذلك تبدأ عملية تجفيف أخرى ..تجفيف بخار الماء ..فلا يبقى إلا الشاي المركز فوق الورق المبروم المحطم ..ويدخل الشاي في أفران كهربية تهزه بصورة مستمرة ..وبذلك تصبح الرطوبة الموجودة في الشاي هي عبارة عن 3%من الماء الذي كان به عند دخوله المصنع..

ثم ينتقل الشاي المحطم المجفف الذي أصبح أسود اللون، إلى الغرابيل تهزه، أما الشاي الناعم فينزل إلى الأرض النظيفة، والشاي الخشن يعود مرة أخرى لتحطيمه وتجفيفه من جديد.

وهذا الشاي الناعم ينتقل إلى عملية تجفيف في الهواء العادي..

وبعد التجفيف ينتقل الشاي إلى عملية فرز أخرى ..فرز حسب طول الورقة..

* * *

ولكن العملية المهمة جدًّا بعد ذلك هي عملية رتب الشاي ودرجاته..

والذي يحدث أن عينات صغيرة تؤخذ من الشاي في المعمل، ويوضع الشاي الجاف في الفناجين ويوضح عليه الماء الساخن لمدة ست دقائق ..ولا بد من تغطية الفناجين ..وكل ست دقائق يتقدم الرجل »الذواقة «لتذوق طعم الشاي ..ويعرف بتجربته الطويلة، رائحة الشاي ودرجة حموضته ولونه ..والرجل الذواقة له طريقة خاصة في معرفة رتب الشاي ..فهو »يشفط «الشاي بصورة عنيفة حتى يملأ به كل حلقه ..وينتظر لحظة ثم يلقي بكل ما في فمه، ويجرب ذلك مئات المرات في اليوم..

والرجل الذواقة لا يشرب الخمر ولا يدخن؛ لكي يحتفظ بحساسية فمه سليمة.

St.336.

Bi hamdi ka ya bari al alameen	بِحَمْدِكَ يَا بَارِئَ الْعَالَمِيْنْ
Va Anthar Rahima Va Anthal Mueen.	وَأَنْتَ الرَّحِيْمُ وَأَنْتَ الْمُعِيْنْ
Va iyyaka na'budu fee kulli heen	وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ فِيْ كُلِّ حِيْنْ
Va iyyaka ya rabba na nasthaeen.	وَإِيَّاكَ يَا رَبَّنَا نَسْتَعِيْنْ
Izas subhu ahda ilayna sana	إِذَا الصُّبْحُ أَهْدَى إِلَيْنَا سَنَا
Arafna bi sham sika nooral Haya	عَرَفْنَا بِشَمْسِكَ نُوْرَ الْحَيَا
Bi jad vaka nahya va anthal Ilah	بِجَدْوَاكَ نَحْيَا وَأَنْتَ الْإِلٰهْ
Tha alay tha ya Arhamar Rahimeen.	تَعَالَيْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيْنْ
Fa barik sarandiba fee ilmiha	فَبَارِكْ سَرَنْدِيْبَ فِيْ عِلْمِهَا
Va mah hada Aada bi hamzahira.	وَمَعْهَدَ آدَابِهَا الزَّاهِرَةْ
Va Ali aladdahri zikras miha.	وَعَالِ عَلَى الدَّهْرِ ذِكْرَ اسْمِهَا
Va ahsin li abna ihal Aakhirah.	وَأَحْسِنْ لِأَبْنَائِهَا الْآخِرَةْ

بهذا النشـــيد استقبلت الكلية الزاهرة فى مدينة كولومبـــو عاصمة ســـيرلانكا (سيلان) الزعيم المصرى احمد عرابى يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠١

بهذا النشيد استقبلت الكلية الزاهرة في مدينة كولومبو عاصمة سيرلانكا)سيلان (الزعيم المصري أحمد عرابي يوم 12سبتمبر سنة 1901

صور من مقالاتي التي نشرتها في مجلة آخر ساعة عن رحلتي إلى جزيرة سيرلانكا)سيلان.(

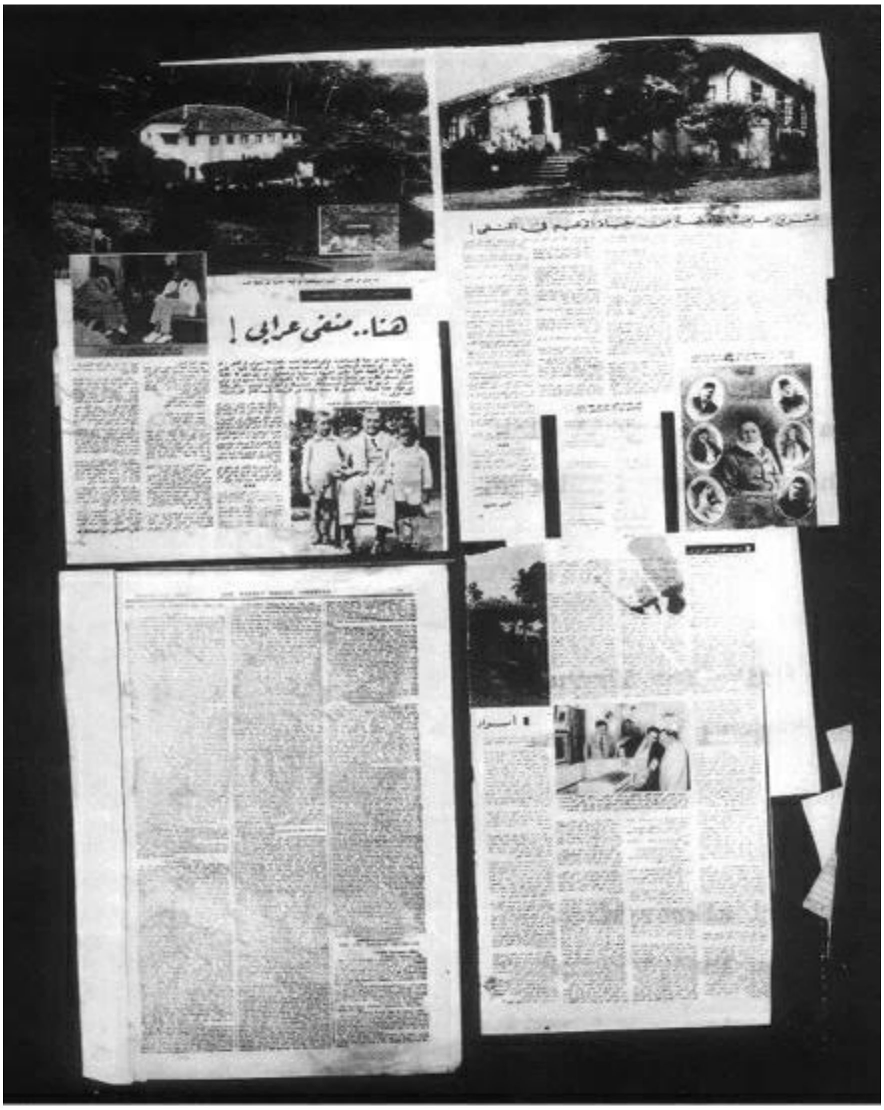
هنا.. منفى عرابى !

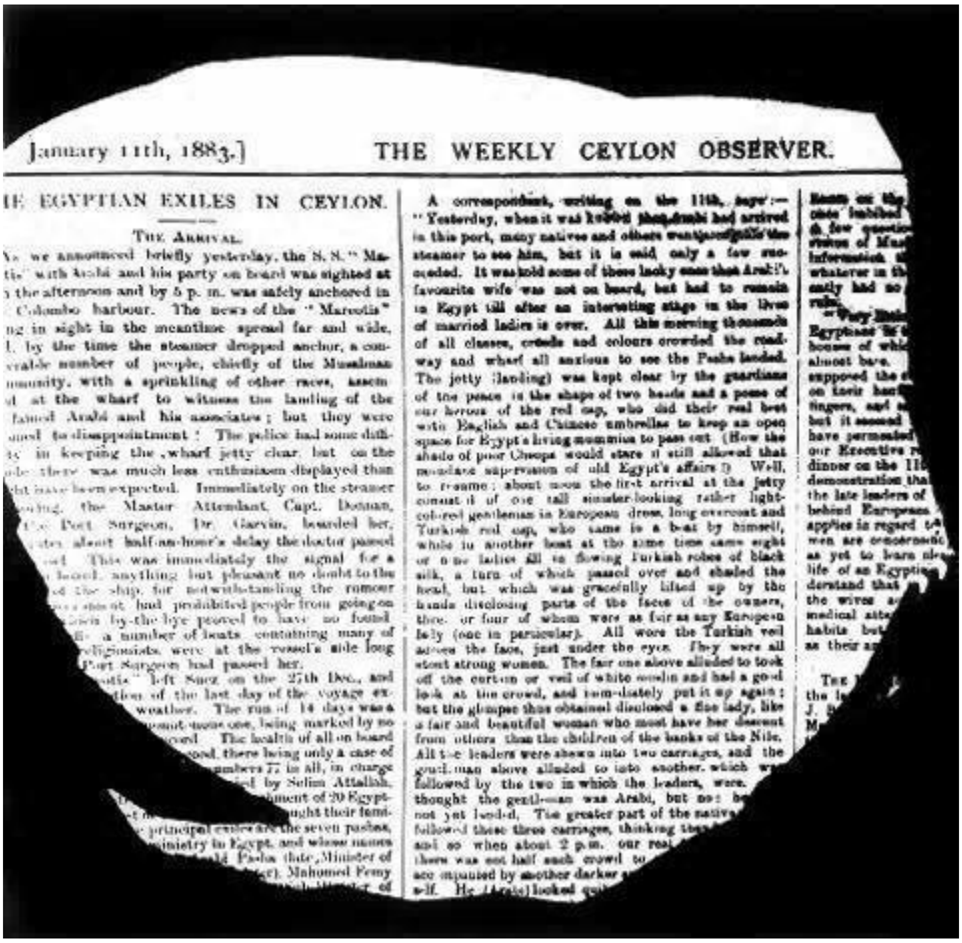

January 11th, 1883.] THE WEEKLY CEYLON OBSERVER.

THE EGYPTIAN EXILES IN CEYLON.

THE ARRIVAL.

As we announced briefly yesterday, the S. S. "Mareotis" with Arabi and his party on board was sighted at in the afternoon and by 5 p. m. was safely anchored in Colombo harbour. The news of the "Mareotis" being in sight in the meantime spread far and wide, and by the time the steamer dropped anchor, a considerable number of people, chiefly of the Musalman community, with a sprinkling of other races, assembled at the wharf to witness the landing of the famed Arabi and his associates; but they were doomed to disappointment! The police had some difficulty in keeping the wharf jetty clear, but on the whole there was much less enthusiasm displayed than might have been expected. Immediately on the steamer arriving, the Master Attendant, Capt. Donnan, and the Port Surgeon, Dr. Garvin, boarded her, and after about half-an-hour's delay the doctor passed her. This was immediately the signal for a rush on board, anything but pleasant no doubt to the ... the ship, for notwithstanding the rumour ... had prohibited people from going on ... by-the-bye proved to have no foundation ... a number of boats containing many of ... religionists were at the vessel's side long ... Port Surgeon had passed her.

... "Mareotis" left Suez on the 27th Dec., and ... of the last day of the voyage ex... weather. The run of 14 days was a ... one, being marked by no ... The health of all on board ... good, there being only a case of ... numbers 77 in all, in charge ... by Selim Attallah. ... of 20 Egypt... brought their fami... principal exiles are the seven pashas, ... ministry in Egypt, and whose names ... Pasha (late Minister of ...). Mahomed Femy ... of

A correspondent, writing on the 11th, says:—"Yesterday, when it was known that Arabi had arrived in this port, many natives and others went alongside the steamer to see him, but it is said only a few succeeded. It was told some of these lucky ones that Arabi's favourite wife was not on board, but had to remain in Egypt till after an interesting stage in the lives of married ladies is over. All this morning thousands of all classes, creeds and colours crowded the roadway and wharf all anxious to see the Pasha landed. The jetty (landing) was kept clear by the guardians of the peace in the shape of two heads and a posse of our heroes of the red cap, who did their real best with English and Chinese umbrellas to keep an open space for Egypt's living mummies to pass out (How the shade of poor Cheops would stare if still allowed that mundane supervision of old Egypt's affairs!) Well, to resume: about noon the first arrival at the jetty consisted of one tall sinister-looking rather light-colored gentleman in European dress, long overcoat and Turkish red cap, who came in a boat by himself, while in another boat at the same time came eight or nine ladies all in flowing Turkish robes of black silk, a turn of which passed over and shaded the head, but which was gracefully lifted up by the hands disclosing parts of the faces of the owners, three or four of whom were as fair as any European lady (one in particular). All wore the Turkish veil across the face, just under the eyes. They were all stout strong women. The fair one above alluded to took off the curtain or veil of white muslin and had a good look at the crowd, and immediately put it up again; but the glimpse thus obtained disclosed a fine lady, like a fair and beautiful woman who must have her descent from others than the children of the banks of the Nile. All the leaders were shown into two carriages, and the gentleman above alluded to into another, which was followed by the two in which the leaders were. ... thought the gentleman was Arabi, but not ... not yet landed. The greater part of the native... followed these three carriages, thinking ... and so when about 2 p.m. our real ... there was not half such crowd to ... accompanied by another darker ... self. He (Arabi) looked ...

صورة من المجلة الأسبوعية)سيلان أوبزرفر (بتاريخ 11يناير سنة 1883وقد نشرت مقالًا عن زعماء الثورة العرابية الذين نفاهم الإنجليز في جزيرة سيلان.

فـي هـذا البيـت كان يعيش الزعيــم أحمد عرابي في مدينة كولومبو.

وفي هذا البيت في مدينة كاندي كان يقيم الزعيم أحمد عرابي وأولاده .. اللافتة تقول »بيت عربي «أي بيت عرابي..

وتذوق الشاي يتم بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة للشاي.

وعن طريق تذوق الشاي يمكن معرفة درجته ومعرفة سعره أيضًا.

وكل الشركات لها معامل في جزيرة سيلان ويبعثون بتقاريرهم إلى المركز الرئيسي في لندن .. وفي لندن تجرى تجارب أخرى على الشاي .. وكثيرًا ما جاءت الأنباء من لندن تطلب من المعمل أن يعيد النظر - أقصد يعيد »التذوق «من جديد.

والشاي درجات .. وكل شعب له لون خاص من الشاي .. وهنا في الشركات الإنجليزية أناس متخصصون .. كل واحد في شاي خاص. هذا في شاي جنوب إفريقيا .. وهذا في شاي بريطانيا .. وهذا في شاي الجمهورية العربية. والشريب عندنا يفضل الشاي الناعم الأسود القوي. فحتى يصلك هذا الشاي الأسود يكون قد قطع رحلة طويلة من الحقل إلى النار إلى المعمل ثم إلى البورصة ثم إلى الصناديق، و 15ألف ميل في البحر!

لا داعي لأن تهز فنجان الشاي ولا داعي لأن تقلبه على وجهه .. إنني سأقرأ لك هذا الفنجان وهو معتدل مستقر في طبقه، وهو مليء بهذا السائل الأحمر.

اسمع يا سيدي .. بهذا الفنجان الذي شربته أنت، يصبح عدد الفناجين التي شربت اليوم 800مليون فنجان في العالم كله. والشاي الذي تشربه في القاهرة قد جاء ثلثاه من الهند، والثلث الباقي من الصين. والصين هي أول دولة في العالم عرفت الشاي.

ويكفي أن أقول لك: إن أول إنسان شرب الشاي كان في سنة 2727قبل ميلاد المسيح. هذا الإنسان هو الإمبراطور شن توانج، وكان من عادة هذا الإمبراطور أن يغلي الماء قبل شربه، وقد حدث وهو يشهد عملية غليان الماء أن - كما قلت لك من لحظات - سقطت ورقة جافة من إحدى الأشجار وانزعج الإمبراطور ولكنه لاحظ أن هذه الورقة قد غيرت لون الماء فوضع أوراقًا أخرى وأعجبه اللون والطعم. وكان الإمبراطور أول شريب للشاي في العالم.

ويقال إن چنكيز خان قد نقل الشاي بهذه الصورة من آسيا إلى أوربا..

وبدأ الشاي ينتقل إلى كل هذه المنطقة حتى إن إمبراطور اليابان عندما عرف الشاي جعله خاصًّا بالأسرة المالكة، وكان ذلك سنة 185وكان الإمبراطور يقيم الحفلات لشرب الشاي..

وأوربا لم تعرف الشاي إلا في القرن السادس عشر .وحرمته الكنيسة وهاجمه الأدباء والشعراء وأعلنوا الحرب على شرب الشاي الذي يفسد الأخلاق ويضعف القوى العاملة .وكان الأوربيون يشربون الشاي بغير سكر.

وتقول الأديبة الكبيرة مدام دي سفينيه :إن أول امرأة في العالم خلطت الشاي باللبن هي مدام سابليه وكان ذلك في سنة .1680

وأديب إنجلترا الكبير الدكتور جونسون اعترف صراحة بأنه يشرب الشاي وأن البراد الذي يصنع فيه الشاي لا يبرد أبدًا .واعتبره المجتمع الإنجليزي رجلًا صريحًا أكثر من اللازم، بل قيل عنه إنه رجل لا يستحي من إدمانه الشاي وتناوله علنًا أمام النساء!

وأؤكد لك أن الشاي الذي ستشربه سيكون أجمل لونًا وأجمل رائحة، فقد ذقت هذا الشاي قبلك .فهنا في مدينة كولومبو توجد بعثة رسمية من مصر، وقد رأيت البعثة وهي تتذوق الشاي وتختاره لك ..ورأيت عملية الخلط وذقت الشاي المخلوط .لقد رأيت الشاي الحقيقي ..هذا الشاي ستتولى وزارة التموين خلطه لك .لن تتركه للتجار كما حدث في الشاي الذي تشربه الآن .فالتجار لا يخلطون الشاي كما يجب .إنهم يقدمون لك الشاي الصيني .أما الشاي الهندي أو السيلاني الممتاز فهم يحتفظون به.

وهذا الشاي الذي ستشربه قد رأيته على أشجاره ..رأيته أخضر اللون .أو على الأصح أصفر اللون .ومشيت مع هذا الشاي خطوة خطوة .ورأيت عملية »تمريك «أي جعل ماركات للشاي ..والشاي له درجات كثيرة جدًّا ورتب تبلغ الأربعين أو الخمسين رتبة ..رتب حسب لون الورقة وحسب لون التفل وحسب الطعم وحسب اللون وحسب الرائحة ..وكل شيء له أصول وقواعد.

وينقل الشاي في صناديق كبيرة إلى معامل الشركات.

وهناك تجرى عليه تجارب غريبة .فالشاي الوارد من المزرعة يعرضونه على رجل »ذواق «وبالعربي الفصيح »ذواقة «مثل رجل علامة وبحاثة ورحالة ..وكل فنجان يتذوقه يكتب عليه أنه من نوع كذا ودرجته من فئة كذا وسكره يجب أن يكون كذا ..هذا الرجل يتقاضى حوالي 500جنيه في الشهر وهذا الرجل الذواقة لا يشرب الشاي أبدًا ..إنه قرفان منه .فهو يملأ عينيه وأنفه وفمه .إنه يقضي حياته كلها يضع الشاي في فمه ثم يلقي به في برميل كبير.

إن صانع الشاي لا يذوقه، وإذا ذاقه فلا يشربه ..فاحمد الله أنك تشرب الشاي ولا تذوقه!

* * *

ومن المؤكد أنك لا تستطيع أن تعمل الشاي ..فالشاي الحقيقي له قواعد ..وأنا أنقل لك ما قرأته في كتب »أصول الشاي:«

أولًا :يجب أن تضع بعض الماء الساخن في فنجانك قبل أن تصب فيه الشاي..

ثانيًا :إذا غليت الماء يجب أن يكون ذلك مرة واحدة .فالماء الذي غلى كثيرًا يفسد طعم الشاي ولونه ورائحته .ويجب ألا تغلي الماء كثيرًا .ويكفي أن ترى الماء يغلي فتنزل البراد بعيدًا عن الوابور أو البوتاجاز.

ثالثًا :إذا كان البراد يتسع لأربعة فناجين مثلًا يجب أن تضع فيه خمس ملاعق شاي صغيرة .يعني ملعقة أزيد دائمًا .لماذا؟ لم أفهم .ولكن هذه هي الطريقة المثالية.

رابعًا :اترك البراد وبه الماء المغلي والشاي لمدة ست دقائق، ولا بد أن يكون البراد مغطى؛ لأن الضوء يفسد لون الشاي ورائحته وطعمه.

خامسًا :أحسن طريقة لتذوق الشاي هي أن »تشفطه «وأن تكون عملية الشفط هذه قوية حتى يملأ الشاي فمك وينبه كل أعصابك ..الطريقة الرقيقة الهوانمي في شرب الشاي مفسدة لطعم الشاي.

طبعًا الطريقة المثالية هي أن تضع الشاي في »قلة «أو إبريق وأن تشربه كما يفعل أبناء الريف ويكون للشاي -وهو ينساب في حلقك -صوت كنقيق الضفادع.

لم يقل الرجل »الذواقة «هذه العبارة، ولكنها محاولة مني لتعريب نظريته..

سادسًا :شرب الشاي من المستحسن أن يكون مع الأصدقاء، وحبذا لو كان مع فتاة أنت تحبها .وسبب ذلك أن الشاي يجب أن يشرب على فترات متباعدة، يجب أن تشربه على شوق .أما إذا كنت وحدك فأنت تشربه مرة واحدة أو تتركه نهائيًّا ..ولذلك فاشرب الحلبة أو الينسون ..أحسن!

ولكن عندما تكون معك فتاة فإذا كان الشاي من صنعها فستجاملها وتشرب وستجد لذة .وإذا كان الشاي من صنعك فستجاملك هي وتشرب بلذة وستصدق أنت كلامها وتؤمن بأن الشاي مصنوع جيدًا ..وستشرب بلذة ..ولذة أخرى..

سابعًا :أحسن طريقة لشرب الشاي أن نشربه من غير سكر..

ثامنًا :رأيي الشخصي هو أنني جربت كل هذه القواعد ووجدتها فعلًا مضبوطة فيما عدا القاعدة السابعة..

* * *

وأمس حدث لي شيء غريب..

أبناء الهند وسيلان يلبسون الدوتي وهو عبارة عن فوطة تلتف حول الوسط وليس فوقها إلا قميص.

وقد تجد من بين هؤلاء الناس من تعلم في إنجلترا أو أمريكا ويتكلم الإنجليزية بطلاقة.

ولكن عندما انشغلت بحرارة الجو هنا وعندما أغرقتني الأمطار الشديدة وجدت أن هذه الملابس هي أنسب زي، فالجو الحار لا ينفع معه البنطلون والجاكتة بل إن البنطلون عبء ثقيل جدًّا والأحذية لا ضرورة لها ما دامت مياه الأمطار تصل إلى منتصف قصبة الرجل وأحيانًا إلى الركبة ..ثم إن الدوتي هذا يمكن رفعه إلى الخصر عند الضرورة..

وقد حدث عندما كنت في جنوب الهند أن استمرت الأمطار تتساقط يومين متواليين لا أستطيع أن أخرج من غرفتي .وإذا خرجت فلكي أتأكد من أن الأمطار لن تصل إلى سريري ..ورأيت أنها فرصة لكي أجرب الدوتي ..وطلبت من مدير الفندق أن يعيرني أي »دوتي «عنده .ودخلت الغرفة ووجدت أن الدوتي هو عبارة عن ملاية سرير ..ولكن كيف ألفها حول وسطي ثم كيف أربطها ربطًا متينًا حتى لا تسقط وبدون حزام .لم أتمكن ..فإذا ربطتها من هنا سقطت من هناك ..وقررت أن ألفها حول وسطي وأضع فوقها الحزام لكي يمسكها ..ولاحظت وأنا أمام المرآة أنه لا ينقصني إلا أن أضع على صدري إبريقًا كبائع العرقسوس وأنزل إلى الشارع وأنادي :شفا وخمير يا عرقسوس!

وقررت أن أخرج ..إنني أحد الملايين .لن يلتفت إليَّ أحد ..ولكن لاحظت أنني شددت الدوتي على وسطي أكثر من اللازم .وأنه »دوتي «محزق قوي .دوتي بناتي كده ..فككت الحزام وأعدت لف الدوتي وبحبحت الحزام قليلًا وخرجت إلى الشارع أنظر إلى الناس، ولم يهتموا ..أو هكذا قلت لنفسي ..وبدأت أقوم بحركات عصبية، فالإنسان عندما يشعر بالحرج يحاول أن يضع يديه في جيبه ..كأنه يتساند على نفسه حتى لا يقع.

ولكن لا جيوب .وحاولت أن أضع يدي على وسطي حتى لا يسقط الدوتي ..ومن شدة ارتباكي غصت في الماء وتبلل الدوتي ووصل الماء إلى ركبتي وشعرت بالبرودة في الزحام ..ورفعت الدوتي إلى أعلى ..وشددته فوق الحزام ..ووجدت أن الحذاء لا لزوم له ..فنزعت الحذاء وأمسكته في يدي .ولاحظت أنني لا أزال ألبس جوربي ..فنزعت الجورب ووضعته في الحذاء ..وانحشرت وسط الناس ..وفي الزحام تزحزح الدوتي وانسحب من تحت الحزام كأنه هو الآخر يريد التحرر ..وكأنني مغتصب له وهو يريد أن يعود إلى صاحبه .كأن الدوتي حمام زاجل، فإذا أطلقته عاد إلى الفندق.

ووضعت الدوتي على كتفي.

والصورة الآن هكذا :المطر على وجهي شديد جدًّا ..شعري منكوش ..وجوز جزمة في يدي، والجزمة قد ابتلعت جوربي وزجاجتين من ماء المطر ..الدوتي على كتفي ..والقميص التصق بجسمي ..وتلفتُّ إلى الناس فوجدتهم مثلي..

وحمدت الله على أنني لم أنس ملابسي الداخلية -بعضها فقط!

لقد دفعت ثمن هذا اليوم غاليًا ..من السعال والزكام والعرق والنوم تحت أغطية من الصوف في عز الصيف وفي قلب المنطقة الاستوائية!!

* * *

هنا منفى عرابي

عشرون عامًا من حياة الزعيم أحمد عرابي لا يعرفها أحد ..قضاها في المنفى، لم يقربه أحد ..لم يتحدث إليه أحد ..لم يكتب عنه أحد ..الذين عرفوه ماتوا ..الذين اشتركوا معه في الجهاد ماتوا ..الذين أحبوه وساروا وراءه ماتوا، لم يبق منهم إلا خادمة عجوز تسكن بالقرب من بيته في مدينة كاندي، إنها لا تتكلم ولكن عندما تسمع اسم عرابي تبكي ..لم يبق إلا أربعة من أصدقاء أبنائه في كنجوود كوليدج، ولكل واحد من هؤلاء قصة ورواية ..ولم يبق إلا سيدة أخرى هي التي تملك البيت الذي كان يسكنه أحمد عرابي!..

* * *

ولكن كيف عاش عرابي؟ وأين كان يسكن؟ وماذا عمل؟ وما المشروعات التي تقدم بها؟

هل تعلم أن عرابي هو الذي أدخل الطربوش إلى الجزيرة؟

هل تعلم أن المسلمين يرتدونه حتى اليوم؟

هل تعلم أن عرابي هو الذي أدخل الزي المصري إلى الجزيرة؟ حتى الأطعمة أدخلها عرابي..

هل تعلم أنه -وهو الذي لم يتعلم الإنجليزية إلا في رحلته من السويس إلى سيلان -دعا المسلمين إلى تعلم اللغة الإنجليزية، وأن المسلمين هنا ثاروا عليه؛ إذ كيف أن الإنجليز اضطهدوه ونفوه ثم يتعلم لغتهم بعد ذلك؟

* * *

وعندما زار الدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر جزيرة سيلان دعته)مدرسة الزاهرة (في 17من مايو سنة 1955لرفع الستار عن لوحة أحمد عرابي ..واللوحة رسمها أحد الطلبة عن صورة من إحدى مجلات القاهرة ..وتحدث في ذلك اليوم مدير المدرسة السناتور عزيز ..وروى كيف أقام عرابي في هذه البلاد وكيف كانت مشروعاته وكيف أحبه الناس..

وفي نهاية كلمة السناتور عزيز وقف طلبة المدرسة ينشدون باللغة العربية التي لا يفهمونها نفس النشيد الذي ودعت به المدرسة الزعيم أحمد عرابي يوم 12من سبتمبر سنة 1901، أي قبل رحيله إلى مصر بستة أيام ..وكان ذلك آخر تكريم لعرابي.

وقف الطلبة ينشدون:

بحمدك يا بارئ العالمين

وأنت الرحيم وأنت المعين

فبارك سرنديب في علمها

ومعهد آدابها الزاهرة

وأحسن لأبنائها الآخرة..........

.........إلخ

و»سرنديب «هي جزيرة سيلان كما كان يسميها العرب..

وعندما سمع الزعيم عرابي هذا النشيد بكى وأطال البكاء ..وقد تعوَّد في أيامه الأخيرة أن يبكي من شدة الأسى والحزن ..وكان يخشى أن يموت بعيدًا عن بلاده التي أحبها ..وكان الشيب قد توج رأسه تمامًا مع أنه لم يكن قد تجاوز الستين إلا قليلًا، ولكنه شاب قبل الأوان.

وقصة العشرين عامًا تبدأ بعد الحكم على عرابي بالنفي مدى الحياة.

نقل عرابي من القاهرة إلى السويس ومعه ستة من زملائه في الثورة..

كان عددهم جميعًا 57من الرجال والنساء ..وفي ميناء السويس ركبوا الباخرة الإنجليزية »ماريوتيس «وهي سفينة صغيرة حمولتها 1391طنًّا ..وكان يحرسهم عشرون من الجنود المصريين، يرأسهم موريس بك ..وكان يرافق الزعماء السبعة مترجم هو سامي عطا الله.

قطعت الباخرة الرحلة في 14يومًا ..ولم تقع حوادث في أثناء الرحلة ..ولكن عكف الزعماء جميعًا على تعلم اللغة الإنجليزية ..حتى عرابي كان يضع في جيبه كتابًا عن تعلم اللغة الإنجليزية وكان ينصح بقية الزعماء بضرورة تعلم هذه اللغة.

وتدل التقارير على أن صحة الزعماء كانت طيبة جدًّا فيما عدا عبد العال حلمي فكان يشكو دائمًا من ضيق التنفس، وكثيرًا ما كان يصحو من النوم يصرخ، فينهض الباقون لإنقاذه ..ولا يعرف أحد على التحديد نوع

المرض الذي كان يشكو منه .وعبد العال حلمي هو أول من مات من هؤلاء الزعماء ..فقد توفي في مدينة كولومبو وله قبر يزوره المسلمون .وعلى مدخل الضريح يوجد اسم عبد العال حلمي.

وفي أثناء الرحلة شكا عرابي من اللحوم التي تقدمها السفينة.

وسأل إن كانت من لحم الخنزير فقيل له إنها ليست كذلك ..فسأل إن كانت هذه الأبقار قد ذبحت أو خنقت ..فقيل له إنها مخنوقة ..وامتنع عرابي عن تناول اللحوم هو وكل المصريين من ركاب السفينة..

وقبل أن تصل الباخرة إلى سيلان كانت صحيفة »الأوبزرفر «السيلانية الأسبوعية قد نشرت مقالًا شنيعًا في 26من ديسمبر سنة 1882هاجمت فيه عرابي وثورة عرابي.

وفي اليوم التالي أعلنت الصحيفة أن الباخرة التي تنقل عرابي قد غادرت مياه السويس في 27من ديسمبر سنة 1882وأنها ستصل إلى ميناء كولومبو يوم 10أو 11من يناير سنة .1883

وأنقل كلام الصحيفة نفسها -وهي المصدر الوحيد -بتاريخ 19من يناير عام :1883

»بدأ الناس يفدون من كل أنحاء الجزيرة ..معظمهم جاء من مدينة كاندي ..جاءوا ومعهم أطفالهم ونساؤهم، ومعهم حيواناتهم ..إنهم جميعًا يحلمون برؤية البطل عرابي ..ويسمونه أحمد عرابي المصري.«

وفي يوم 20من يناير كتبت نفس الصحيفة» :ظهرت في الأفق من بعيد الباخرة التي تقل الثوار المصريين، وفي مقدمتهم أحمد عرابي، ويبدو أن الباخرة لن ترسو على الشاطئ قبل الكشف على صحة الباشوات، وعلى ذلك فلن يتم نزولهم إلى الشاطئ قبل صباح اليوم التالي ..وعلى المسلمين في الجزيرة أن يستحضروا من جديد مبادئ الدين الإسلامي، فهو الدين الذي يدعو إلى الصبر والكفاح.«

وأنقل الآن الوثيقة الوحيدة في العالم التي تصف كيف تم نزول الزعماء إلى ميناء كولومبو ..إنني أنقل عن صحيفة الأوبزرفر أيضًا:

»اقتربت الباخرة من الشاطئ .لا شيء غير عادي عليها، كل ما هناك هو بعض العساكر المصريين بملابسهم الزرقاء، وبعض بحارة الباخرة ..والشيء غير العادي هو الموجود على الشاطئ ..الناس يقفون على أطراف أظافرهم ..أرى الآن أن أحد الزوارق قد ابتعد عن الشاطئ وكان عليه بعض كبار الضباط البريطانيين، صعدوا إلى الباخرة .وأقاموا فيها حوالي ساعة ونصف الساعة ..ولا بد أنهم تحدثوا إلى عرابي وإلى الزعماء ..أما لماذا طال الوقت؛ فلأن أحدًا من الزعماء لا يعرف اللغة الإنجليزية ..ولا بد أن الضباط البريطانيين قد طمأنوهم على الحياة هنا.«

وقالت الصحيفة» :وقد صعد مراسلنا إلى ظهر السفينة وقابل عرابي ..وهو يسجل أن عرابي يبدو عليه أنه إنسان طيب وأن السماحة واضحة على وجهه وله ابتسامة فيها بساطة وفيها كبرياء أيضًا ..ويبدو من كلامه وحركاته أنه إنسان من السهل أن تحبه ..والزعماء قد سألوا المراسل عن الحياة في الجزيرة وعن مستوى المعيشة، إن هذا يدل على أن الزعماء السبعة قد وطنوا أنفسهم على الحياة في الجزيرة واستسلموا للأمر الواقع.«!

وكتبت صحيفة الأوبزرفر في 21من يناير سنة 1883تصف نزول الزعماء، فقالت بالحرف الواحد» :لقد كانت الحماسة أمس بالغة .وارتفعت اليوم إلى أقصاها .فقد هز القلق الناس بدرجة غير معقولة، وكل واحد منهم يريد أن يرى الزعيم المصري عرابي ..المسلمون أكثر المتفرجين قلقًا ..وكانت الساعة المحددة للنزول إلى الشاطئ هي السابعة، ولكن البوليس لاحظ أن النزول سيكون عسيرًا جدًّا، ولذلك طلب من الجماهير أن تبعد عن الميناء وإلا فلن ينزل عرابي، بل سيبقى في السفينة.«

ومضت الصحيفة تقول» :إن أول من نزل إلى الشاطئ كان علي فهمي وأفراد أسرته ..نزلوا في زورق وفي صمت تام، والجماهير تتهامس، فقد تصوروا أنه أحمد عرابي .وحتى عندما نزل إلى الشاطئ وركب إحدى العربات صارت الجماهير تطارده وهو يبتسم.«..

وبعد ذلك وقفت سيدة بجلباب تركي من الحرير الأسود ونظرت إلى الجماهير ثم رفعت النقاب عن وجهها وأعادت النقاب ..لقد كانت بيضاء اللون كأية فتاة أوربية ملامحها جميلة جدًّا ..وكانت هناك ثماني نساء أخريات شقراوات كأنهن أوربيات ..ثم نزل بعد ذلك محمود سامي ومحمد فهمي، الاثنان معًا وتحير الناس أيهما يكون عرابي باشا.

أما عرابي باشا فقد نزل من الباخرة في الساعة الواحدة بعد الظهر، نزل هو وأفراد أسرته وكان عددهم ستة .وهنا هتفت الجماهير ..وهجموا على عرابي يقبلون قدميه ويديه، وكان الرجل عالي الرأس، كأنه يستقبل مظاهرة في القاهرة أو الإسكندرية ..وأحس الناس بحيرة شديدة، هل يمشون وراء عرابي دون أن يروا بقية الزعماء ..أم ينتظرون حتى يروا البقية ..لم يصبر على هذا الامتحان العسير إلا القليلون جدًّا، وظلوا يتطلعون إلى بقية الزعماء ..أما الألوف فقد مشت وراء عرابي..

ثم نزل طلبة باشا وأفراد أسرته وعددهم ثلاثة.

ونزل يعقوب حلمي باشا وأفراد أسرته وعددهم ..12ولما تلفت يعقوب باشا إلى الجماهير راح يحييهم ويصافحهم واحدًا واحدًا ..وظن هؤلاء الواقفون أنه عرابي باشا، فأشار يعقوب باشا إلى أن عرابي قد نزل منذ وقت طويل..

وآخر الذين نزلوا إلى الشاطئ كان أحمد فهمي باشا ومعه خمس من بناته، ومثلهن من الأولاد ..وكان بادي الحزن والأسى ..وظن بعض الواقفين على الشاطئ أنه مريض ..فتقدم بعضهم يعطيه ثمار جوز الهند، وكان يقبلها شاكرًا .ونزل كل واحد من هؤلاء الزعماء في بيت مستقل ..أما الزعيم عرابي فقد نزل في بيوت متعددة ثم استقر في بيت واحد.

وفوجئ الزعماء بأن هذه البيوت لا يوجد بها أثاث!!

ونشرت صحيفة الأوبزرفر مقالًا طويلًا تتساءل فيه إن كانت الحكومة البريطانية تعلم ذلك أو أن الاتفاق تم مع حكومة الخديو على هذا كله ..ثم قالت» :إن الجزيرة ترحب بقدوم هؤلاء المتمردين ولا مانع عندها من أن تخلي لهم جانبًا من مستشفى الأمراض العقلية ..أو تبني لهم بيتًا واحدًا عالي الجدران كالسجون، واسع النوافذ كالقصور.«

ولم يمض وقت طويل حتى علم كل المصريين أن الخديو قد جعل لكل منهم مكافأة يومية قدرها روبية -أي ثمانية قروش بسعر اليوم -كلهم في ذلك سواء.

وتقول الصحيفة إن مراسلها قابل الزعيم عرابي في بيته وسأله :وماذا ستصنع بأولادك؟!

فقال عرابي :سأدخلهم المدرسة.

-ولكن المدرسة مسيحية وعلى رأسها قسيس؟

-هذا لا يؤثر في الموقف فأولادي حفظوا القرآن.

-وهناك مدرسة خاصة للبنات.

-هذا أحسن على كل حال..

-هل عندك مانع في أن المرأة المسلمة يعالجها طبيب مسيحي؟

-لا مانع.

-وهل المرأة المسلمة تثق في العلاج الذي يصفه الطبيب المسيحي؟

-إنها تترك الأمر لضمير الطبيب نفسه.

-وهل للرجل غير المسلم ضمير؟

-أعتقد ذلك.

وعلق المراسل على ذلك بقوله :ليس عرابي بالرجل الجاهل .ولكنه يعرف كيف يصوغ معلوماته القليلة في عبارة ترضي البسطاء من الناس.

وبعد نزول عرابي وزملائه إلى جزيرة سيلان واستقرارهم في مدينة كولومبو لا نسمع عنهم أية أنباء .ولا نرى أي كلام عنهم في الصحف ..فقد سكتت صحيفة الأوبزرفر تمامًا، ولم تعاود شتم عرابي إلا بعد أن صدر عفو الخديو عباس حلمي الثاني في 11من يونيو .1901

وقد أقام عرابي في كولومبو حتى سنة 1892في بيت موجود الآن في حي بوريلا وفي شارع أوف كوتا، والبيت كانت مساحته كبيرة جدًّا لا تقل عن عشرين فدانًا .وكان معظم هذه المساحة حديقة واسعة أو على الأصح غابة ..وقد نزعت أشجار هذه الحديقة وأقيمت عليها البيوت ..أما البيت الذي يسكنه عرابي فلا يزال كما هو فيما عدا بعض التعديلات التي أدخلت عليه ..فقد كان للبيت مدخلان :أحدهما يطل على الشارع والثاني لا يزال يطل على الحديقة ..وقد انقسم هذا البيت الآن إلى قسمين ..القسم المطل على الشارع يسكنه الصحفي »دفنون مالدريتش «رئيس قسم الأخبار بصحيفة »تايمز أوف سيلان «المسائية، وتوزيعها 20ألف نسخة ..وقد حضر إلى القاهرة أيام العدوان الثلاثي على بور سعيد ..ويدفع إيجارًا شهريًّا قدره 200روبية أي 16جنيهًا.

وهذا الجانب من البيت مكون من أربع غرف واسعة عالية الجدران ..والجدران لا تزال سميكة -طوبتان ونصف الطوبة -والغرفة التي على يمين الداخل كان يجلس فيها عرابي ويستقبل ضيوفه ..ثم جعلها غرفة نوم ..وبعد ذلك نقل غرفة نومه إلى الداخل ..حيث القسم الثاني من البيت الذي يقيم فيه الآن صاحب هذا البيت الدكتور رولاند فوسيريا طبيب الحميات بالمستشفى الحكومي في كولومبو.

قال لي الدكتور رولاند إنه اشترى هذا البيت في سنة 1922وكانت المنطقة المحيطة به كلها من الغابات والأعشاب البرية ..وكان يملك هذا البيت رجل آخر هو أوبسيكا باندرانيكا ابن أخي رئيس الوزراء الراحل باندرانيكا .ثم أدخل عدة تعديلات على البيت ..فأضاف إليه جراجًا للسيارات ..وعددًا من الأبواب والنوافذ.

وقال الدكتور أيضًا إنه سمع عن عرابي باشا، وكل الذي يعرفه أنه رجل طيب وأنه كان مشغولًا بالقراءة والصلاة وأنه أحد زعماء المسلمين ..ولكنه لم يره شخصيًّا، بل سمع من والده أن عرابي رجل عظيم ..ووالده لم يتحدث إليه ..وكان منظر عرابي يقنعك بأن هذا الرجل بطل من الأبطال.

وقد أقام عرابي في هذا البيت تسع سنوات بالضبط .واعتلت صحته .وطلب من السلطات البريطانية أن تأذن له بالسفر إلى الشمال حيث الجو أحسن، وسمحوا له.

وعرابي باشا كان له نشاط في كولومبو.

فهو الذي دعا إلى تعلم اللغة الإنجليزية ..وكان يخطب في المسلمين ويردد الحديث القائل» :من تعلم لغة قوم أمن شرهم ومكرهم.«

ولأول مرة يرى الزعيم عرابي الغضب والتمرد في عيون المسلمين ..إنهم بدءوا ينشقون عليه ..فقد لاحظ أن الذين يترددون على داره قد نقص عددهم ..فلما سأل عن السبب قالوا له :دعوتك لتعلم الإنجليزية!!

ورأى عرابي أن يذهب هو إلى بيوتهم .وراح يستميلهم ويقنعهم الواحد بعد الآخر ..واقتنعوا به ودعاهم عرابي لإنشاء مدرسة للمسلمين يتعلمون فيها أصول الدين ..وطلب من المسلمين أن يتبرعوا بالقليل من أموالهم لإنشاء مدرسة للتفقه في الدين ..ونجح عرابي في أن يجمع 25 ألف روبية ونجح في أن يأخذ من الحكومة البريطانية مثل هذا المبلغ .وفي يوليو سنة 1892 وضع عرابي أساس »المدرسة الزاهرة «التي أصبحت الآن »الزاهرة كوليدج «ولا يزال الجانب الذي أنشئ في عهد عرابي موجودًا حتى الآن وقد أضيفت إليه أجنحة عديدة حتى أصبحت تتسع لألفي طالب.

وأصبح عرابي الرئيس الفخري لهذه المدرسة..

وبين الحين والحين كان عرابي يزور المدرسة، رغم أن المسافة بين مسكنه الجديد والعاصمة كولومبو تزيد على المائة كيلو متر من الطرق الجبلية الصعبة..

وترك عرابي في كولومبو جثمان الزعيم عبد العال حلمي الذي توفي في 10 من مارس سنة 1892. ولا يزال له ضريح يزوره المسلمون..

* * *

أما يعقوب سامي ومحمد فهمي وطلبة عصمت..

فقد انتقلوا مع عرابي وأقاموا معه في مدينة كاندي.

أما البيت الذي سكنه عرابي في مدينة كاندي فهو لا يزال قائمًا!

إنه في شارع هالولا .وهالولا هو اسم إحدى القرى التي ينتهي بها هذا الشارع ..والبيت مقام على ربوة وكان إيجاره الشهري مائة روبية ..وقد استأجرته السلطات البريطانية من أسرة فيمانيكا .والبيت من دورين .وهو عبارة عن غرفتين كبيرتين في الطابق العلوي، بينهما صالة واسعة ..وهناك سلم خشبي يفضي إلى الدور الأرضي، حيث توجد ثلاث غرف ..إحداها كان ينام فيها عرابي والأخرى لزوجته أو لزوجاته.

وقد أقام عرابي في هذا البيت عشر سنوات.

وكان في مدينة كاندي بيت آخر يقيم فيه محمد بك وهو أكبر أبناء عرابي ويقال إن زوجته كانت سيدة من سيلان .وكانوا يسمونه الباشا الصغير ..وفي مدينة كاندي توفي محمد فهمي في يوليو سنة 1894، واندثرت الآن معالم قبره..

وقد شاهدت هذا القبر في مدينة كاندي ..وبعد ذلك توفي يعقوب سامي في أكتوبر سنة 1900 ودفن بجوار محمد فهمي..

وبدأت بعد ذلك السنوات المريرة في حياة عرابي باشا ..وأصبح بياض شعره كالثلج، بل ودنياه كلها صارت بيضاء مبهمة، فقد ضعف بصره ..وفي سنة 1900 أفرج الخديو عن طلبة باشا، فعاد إلى مصر ومات بعد خمسة

شهور ..ومحمود سامي البارودي فقد بصره نهائيًّا وعاد إلى مصر ومات في ديسمبر سنة 1904.. وبقى علي فهمي وعرابي معًا..

ورحت أفتش في مدينة كاندي عن الذين عرفوا عرابي ..أو عرفوا أولاده، معظم الناس سمعوا عنه ولم يروه.

قابلت شري جورو وهو سمسار متقاعد في الثالثة والسبعين من عمره وقال لي إنه رأى عرابي باشا .وكان رجلًا ضخمًا طويلًا ممتلئًا ..إنه نوع غريب من الناس لم يكن مألوفًا بالنسبة لهم ..فالناس يمشون إلى جواره وكأنهم أقزام ..وكان عرابي باشا يركب حصانه وينتقل بين الشوارع ويخرج إلى الجبل أو يزور بعض أصدقائه..

وقال شري جورو إن أولاد عرابي كانوا زملاءه في مدرسة سانت بول ..كانوا ثلاثة أو أربعة ..إنه لا يذكر على التحديد ..وكانت أشكالهم تلفت النظر ..فقد كان لونهم أبيض ..وكانوا منعزلين ..ولا يتحدثون إلى أحد.

وسألني إن كنت أعرف أحدهم الآن، فقلت له أعرف أحدهم، هو المرحوم عبد السميع وكنا نعمل معًا في جريدة الأهرام سنة 1950.. وقد توفي منذ سنوات..

وسألني :هل كان أبيض اللون؟!

قلت :لا.

قال :أنا لا أعرف هذا ..ولا بد أنه ولد بعد ذلك .فقد كان عرابي متزوجًا من عدد من نساء سيلان ..وكن صغيرات في السن جميعًا.

أما صاحب البيت الذي يسكنه عرابي فهو »فيمانيكا «الأب وكان صديقًا لعرابي .وبعد سفر عرابي إلى مصر قرر صاحب البيت وهو من أغنياء كاندي ومن أصحاب مزارع الشاي أن يحتفظ له باسم عرابي ..ولا يزال اسم عرابي مكتوبًا بالإنجليزية على جانب الربوة التي أنشئ عليها ..الاسم هو »عربي هاوس.«

وقد توفي فيمانيكا الأب، وأرملته تعيش الآن .وورث البيت ابنه الدكتور فيمانيكا الذي مات سنة 1956.. وأرملته تعيش الآن في لندن ..وقد زارت مصر في سنة 1958..

وأهدت سفارتنا في سيلان علبتين من النشوق كان يستخدمهما أحمد عرابي.

ولا يزال الطابق العلوي من هذا البيت مقفلًا ..فقد أمرت السيدة بإقفاله حتى تعود ..وقد علمت من أخت زوجها التي تقيم الآن في كولومبو بشارع هوجز كورت رقم 14.. أن في هذه الغرفة المقفلة صورًا للزعيم عرابي وبعض الأدوات والملابس التي كان يرتديها، وأن زوجة أخيها احتفظت بهذه الآثار تنفيذًا لوصية زوجها الدكتور فيمانيكا.

وقالت لي أخت الدكتور فيمانيكا إنها تذكر بوضوح عرابي باشا ..إنه لم يكن يتحدث إلى أحد .ولكنه عملاق وضخم، وإنه كان يركب الحصان، وإن الناس كانوا يحترمونه جدًّا ..وإن هذا الشارع كان معروفًا في أيام عرابي باسم عربي ..وإنها تعلم أن أحد أولاده كان يسكن بالقرب منه.

وقالت لي :إنني أذكر واقعة واحدة ..أذكرها لأنني رأيت فيها لأول مرة المرأة المصرية ..فقد رأيت سبعًا منهن أو أكثر .وكن جميلات ولونهن أبيض وعيونهن جميلة ..هذا اليوم احتفل فيه عرابي »بطهور «أحد أولاده ..وقد ذهبت أنا وأختي إلى بيت عرابي ..ورأيت المصريين والمصريات .وقد جلست النساء في الطابق الأرضي ..ولم أر زوجة عرابي .وسمعت في ذلك الوقت أن له زوجة بيضاء .وأنه تركها في القاهرة، وأنه تزوج من بنات سيلان، ولا أحد يعرف كم عددهن ..وأنا أعلم أن المسلمات يجدن في زواج شخصية مثل عرابي باشا شرفًا لكل أسرتها..

وقال الصحفي محمد رفيق نائب رئيس تحرير الأوبزرفر أيضًا، إن جده كان صديقًا لعرابي باشا ..وإن تاريخ حياة جده هذا قد سجله علي فؤاد طلبة ابن طلبة باشا في كتابه »سيلان الساحرة دائمًا «وأنه عندما مات جده كان عرابي باشا في مقدمة المشيعين .وإن المسلمين رأوا في هذا شرفًا عظيمًا ..وكانت هذه هي آخر مرة يرى الناس فيها عرابي باشا..

وقال لي محمد رفيق :إن عرابي باشا هو الذي أدخل الطربوش إلى الجزيرة، وإنني سمعت من والدي أن أحدًا لم يكن يلبس الطربوش قبل عرابي ..وأن عرابي هو الذي أدخل البنطلون الأبيض أو السروال إلى الجزيرة.

وقال أيضًا :إن عندهم طاهية في البيت هي ابنة الطاهية التي كانت تعمل في بيت عرابي ..وإن هذه الطاهية لا تزال حتى الآن تقدم أطعمة غير مألوفة في الجزيرة من بينها الكنافة والقطايف والغريبة والباذنجان والقوطة المحشوة ..وتصر الطاهية على تقديم هذه الأطباق لأنها تحية للزعيم الذي يحب هذه الأطعمة وكان يطلبها منها دائمًا..

أما الطاهية العجوز نفسها فليس لديها إلا الدموع ..وهي ترفض أن تتحدث عن عرابي باشا.

والكلمات القليلة التي سمعتها منها معناها أن الناس هم الذين قتلوا عرابي ..وأن القتلة هم هؤلاء المسلمون ..فلو كانوا أقوياء لطردوا الإنجليز من مصر ومن الجزيرة ..وأن المسلمين كانوا يتزاحمون على عرابي ..ولكن عرابي كان يتأوه آخر الليل دون أن يشكو لأحد..

والكلام الذي فهمته منها أن عرابي في آخر أيامه كان قد يئس ..ولم يمنعه من فقدان الأمل، إلا إيمانه بالله وبعدالة قضيته..

وفي أيامه الأخيرة كان يتحدث عن قرب سفره إلى مصر ..ولم تكن لدى عرابي معلومات محددة عن سفره، ولكنه شعور يتردد في نفسه ..وكان أصدقاؤه يستمعون إليه وهو يتحدث عن حنينه إلى الوطن ويشفقون عليه .وكان عرابي يقول دائمًا :أريد أن أموت في بلدي، وأن أدفن في الأرض التي دافعت عنها .وقد سامحت كل الناس وعفوت عنهم..

وأصدر عباس حلمي الثاني قرار العفو عن عرابي وعن علي فهمي..

وأحس عرابي بالسعادة .وكان يتحدث دائمًا عن الوطن والعودة، وأن الله لم يخيب أمله .وأن الله قد حقق له الشيء الوحيد الذي يريده..

وواجه عرابي مشكلة لم تكن في حسابه..

لقد صدر قرار العفو ولكنه لا يعرف كيف يعود إلى مصر ..فليس معه مال..

وقالت صحيفة الأوبزرفر» :أما السفر إلى مصر فليس هناك اعتمادات مالية لذلك ..والحكومة لم تتخذ بعد قرارًا في هذا الشأن، والفرصة أمام المسلمين سانحة ليبدوا إعجابهم وعطفهم على الزعيم أحمد عرابي بصورة عملية مالية.«!

وسافر عرابي باشا على الباخرة الألمانية »برنسيس إيرين «في 18من سبتمبر سنة 1901، ووصل إلى السويس في أوائل أكتوبر واتجه بالقطار إلى القاهرة ..إلى النسيان ليموت في 21من سبتمبر سنة 1911نسيًا منسيًّا!

وقبل أن يغادر عرابي سيلان، ذهب إلى المدرسة الزاهرة التي أرسى أساسها وغنى له الطلبة -وهو يبكي -نشيدهم الساذج الطيب..

وعندما استقل عرابي الباخرة التف الناس حوله ..وعندما تقدم ابنه محمد بك طوقوا عنقه بالزهور ..وبكى الناس .بكت النساء والرجال .ودخل عرابي غرفته وراح يبكي .ولأول مرة منذ شهور نام عرابي واستغرق في النوم.

* * *

وهناك مشروع وافق عليه الرئيس جمال عبد الناصر بشراء بيت عرابي الموجود في كاندي وتحويله إلى متحف أو مكتبة أو مكان سياحي..

ومشروع آخر لبناء نصب تذكاري للزعيمين اللذين ماتا في كاندي وهما يعقوب سامي ومحمد فهمي، وإن الاتفاق تم مع حكومة سيلان على أن تعطينا قطعة أرض في كولومبو، في مقابل قطعة أرض أخرى في القاهرة تبنى عليها سفارة سيلان.

وقال لي السناتور عزيز عضو مجلس الشيوخ ومدير »الكلية الزاهرة «إن لديه مشروعًا لبناء جناح جديد في الكلية التي أنشأها عرابي، وإنه طلب من الجامعة العربية مساعدته ماليًّا، وإن الجامعة وعدته بذلك.

ومن المنتظر أن ينقش حجر الأساس في القاهرة ويرسل إلى كولومبو.

* * *

إن قصة عرابي لم تكتب بعد ..إن المئات من صفحاتها مكتوبة باللغة السنهالية، لغة أهل سيلان .والقليل جدًّا مكتوب بالإنجليزية .والكثير جدًّا مات مع أبطال هذه القصة.

لقد مات عرابي مؤمنًا بأن دمه لن يضيع هباء .لقد انتقم مواطنوه له..

فبعد أربعين عامًا من وفاته خرج الإنجليز من مصر ومن سيلان!..

* * *

جزر المالديف بلاد السمك

حدث انقلاب على مسافة 400كيلومتر من كولومبو .ولا أحد يدري به مع أنه يهمنا جدًّا .فالذين قاموا بالانقلاب جماعة من المسلمين .أصلهم عربي .ولا يوجد في بلادهم أجنبي واحد .ولا توجد كلاب أيضًا .ثم يوجد بهذه البلاد ضريح واحد، صاحب الضريح هو الرجل الذي حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه أبو البركات البربري .واسمه مكتوب على الضريح .ومكتوب أيضًا اسم الملك الذي أسلم على يديه ..فأسلم كل الناس .عملًا بالعبارة التي تقول :الناس على دين ملوكهم!

البلاد التي أتحدث عنها اسمها جزر المالديف..

ولا أدعي أنني سمعت بهذه الجزر في حياتي وفي المرة الوحيدة التي رأيت فيها اسم هذه الجزر كان على خريطة آسيا، ظننت أن المالديف هو اسم الرجل الذي قام بتصميم الخريطة!

وجزر المالديف عبارة عن مجموعة جزر صغيرة يبلغ عددها ألفي جزيرة ..مقسمة إلى 18مجموعة ..ومعظم هذه الجزر في حجم جزيرة الزمالك .والأرض جيرية بيضاء مغطاة بأشجار جوز الهند وأشجار المناطق الاستوائية ..فنحن هنا طبعًا في منطقة استوائية دائمة الحرارة والرطوبة والأمطار.

وأهل هذه البلاد يعيشون على صيد السمك، وخصوصًا التونة، والسمك يصدرونه إلى جزيرة سيلان .وهم مرتبطون بها ارتباطًا حيويًّا .ويدينون لهذه الجزيرة بالكثير من الفضل خصوصًا إبان الحرب العالمية الثانية عندما ضربت غواصات اليابان زوارق صيد السمك والسفن التي تحمل السمك وكاد الناس يموتون جوعًا .وعاونت سيلان أهل المالديف وعددهم مائة ألف نسمة .ومعظم أبناء المالديف من أصل سيلاني .حتى اللغة المالديفية خليط من اللغات الأردية والسنهالية والسنسكريتية والعربية أيضًا.

وكلمة مالديف -معناها جزيرة السمك .فكلمة مالد :معناها سمك وديف أصلها »ديب «أو»ذيب «ومعناها جزيرة .والكلمة كلها سنسكريتية.

وكان ابن بطوطة يسمى هذه الجزر باسم جزر ديب المحل ..أو ذيبة المحل أو محل ديب..

وابن بطوطة الرحالة المغربي قد زار هذه الجزر في سنة 1345وأقام بها عامًا واشتغل فيها قاضيًا .ولم يعجبه في نساء المالديف أنهن يمشين عاريات الصدر .وقد تزوج من بنات المالديف وحجب امرأته عن عيون الناس .وبعد ذلك سافر إلى سيلان.

واللغة التي يستخدمها أبناء المالديف يكتبونها هكذا :ج ز ر ..ال م ال د ي ف ..ز ا ر هـ ا .ابن بطوطة ..وزار هـ ا .أبوالبركات البربري..

فهم يكتبون الكلمات بحروف متفرقة .أما أسماء الناس وخصوصًا الأسماء العربية فإنهم يكتبونها كما هي .بنفس الشكل.

وقد قابلت في مدينة كولومبو أحمد حلمي ديدي.

وهو السفير الوحيد لجزر المالديف في سيلان وفي العالم كله .والرجل مليء الجسم أسمر وكل ملامحه هندية أو سيلانية وشعره أسود ..ويتكلم الإنجليزية .والمكتب الذي زرته فيه، هو مكتب السفارة ..أو السفارة .وفي المكتب أناس كثيرون ..رجال ونساء وصوت آلات كاتبة وخريطة لهذه الجزر.

وعندما جلست إلى السيد حلمي ديدي ..وهو من الأسرة التي تحكم المالديف .فالملك اسمه السلطان ديدي .وكلمة ديدي غير معروف معناها بوضوح .وإن كان يقال :إن كلمة دي معناها يعطي .فربما كانت كلمة ديدي معناها الرجل الكريم.

والمالديف تخضع لنظام ملكي منذ ثمانية قرون.

وقد تحولت إلى النظام الجمهوري سنة واحدة وبعد ذلك عادت إلى النظام الملكي .ومن المنتظر أن تعود إلى النظـام الجمهوري للمرة الثانية بعد استفتاء شعبي، ينهي حكم السلطان ديدي وأسرته.

أخبرني السيد حلمي ديدي أن أحد التجار قام بانقلاب ضد الحكومة .وأنه جمع عددًا من الرجال وأعلن استقلال جزر المالديف أو بعض هذه الجزر .وطالب الأمم المتحدة بالاعتراف بالدولة الجديدة .ويقول » :إن الإنجليز وراء هذا التاجر الجاهل الذي اسمه عبد الله عفيف .والذي يناصره فقط أبناء جزيرة واحدة،مساحتها عشرة كيلومترات مربعة وعدد سكانها ستة آلاف نسمة.

* * *

وقد استولى البرتغاليون على هذه الجزر .ولكن أهل المالديف طردوهم .ولهم معارك مشهورة.

ومتاعب هذه الجزر بدأت بالفعل سنة 1887عندما تعاقدت بريطانيا مع السلطان معين الدين ديدي .وتقضي هذه الاتفاقية بأن تتعهد حكومة الملكة فكتوريا بالدفاع عن هذه الجزيرة ضد العدوان الأجنبي..

وفي سنة 1948تجددت المعاهدة بين إنجلترا وجزر المالديف، فتعهد الملك چورچ السادس بالدفاع عن هذه الجزر، ثم طلب من السلطان أن يأذن له باستئجار إحدى الجزر لتقيم عليها الإذاعة البريطانية إحدى محطات الإرسال في هذه المنطقة من جنوب آسيا ..وقد أقامت بريطانيا أخيرًا مطارًا هائلًا على إحدى الجزر واسمها جزيرة جان في مكان متوسط بين عدن وسنغافورة .فالمطار يبعد ألفي ميل عن كل منهما..

أما الإيجار الذي تدفعه إنجلترا عن هذه الجزيرة فهو مبلغ ألفي جنيه إسترليني.

وفي سنة 1953جددوا المعاهدة وكانت حكومة المالديف جمهورية في ذلك الوقت بسبب اضطرابات داخلية ..وعلى أثرها عاد النظام الملكي فجدد البريطانيون المعاهدة مع الدولة الملكية الجديدة.

ومما قاله لي السفير ديدي أن أهل الجزيرة التي استقل بها عبد الله عفيف هذا قد عانوا الشقاء والبؤس، ومعظمهم هرب إلى جزيرة ماله، وهي الجزيرة العاصمة .وأخيرًا قام السلطان على رأس قوة من البوليس من 50رجلًا -قوة البوليس كلها 300رجل -واستطاع أن يحتل مجموعة جزر سودوا التي كانت قد أعلنت انفصالها واستقلالها التام عن بقية الجزر.

ولم نعد نسمع شيئًا عن هذه الجزر ولا عن ثورتها..

وفي الأيام الأخيرة حين قام عفيف هذا بمحاولة عمل انقلاب آخر، كان من الواضح أن البريطانيين وراء هذا الرجل .ولكنه أمام ضغط الشعب وأمام إصرار الناس على مواقفهم من هذا الرجل، نقله الإنجليز إلى جزر سيشل، وكان في نية عفيف هذه المرة أن يفسد الاستفتاء الشعبي الذي يجرى لانتخاب رئيس جمهورية جديدة للمرة الثانية..

* * *

وقد فوجئت بوجود خمسة من أبناء المالديف يدرسون العلوم الدينية في القاهرة .ولاحظت أن واحدًا منهم يحمل لقب ديدي، ولكنه أخفاه وتستر عليه .كأنه عار أن يكون واحدًا منتسبًا إلى الأسرة التي كانت مالكة، مع أنه لو أبقى هذا اللقب على ما هو عليه، فإن أحدًا في مصر لا يدري به ..ولكن يبدو أن هذا هو شعوره أمام زملائه الأربعة.

وعرفت من هؤلاء الشبان الخمسة أنهم عندما يعودون إلى بلادهم سيتولون مناصب القضاء.

ونبهني هؤلاء الشبان إلى أن الدكتور حسين فوزي قد كتب عن جزر المالديف .وأعجب بها جدًّا .لولا أنه تندر عليهم بعض الوقت .وهم لم ينسوا له هذه العبارات الساخرة التي أطلقها على البلاد -عفا الله عنه -وطلب العفو عنه ليس من عندي، ولكن من عند هؤلاء الشبان الخمسة!

وقد روى لي الدكتور حسين فوزي أنه أعجب جدًّا بهذه الجزر وأنها جنة الله في أرضه .وأنه يتمنى لكل إنسان، لو استطاع، أن يزور الجنة العائمة.

وأخبرني الدكتور حسين فوزي أنه روى للملك السابق أحمد فؤاد أن سلطان المالديف له طريقة خاصة في حل أية أزمة وزارية .وقال :إن الملك فؤاد سأله بلهجته العربية المكسرة :فيه كمان أزمات وزاريات في جزر المالديف؟ فقال له :نعم .وسأله كيف يفعل السلطان بالوزراء؟

وضحك عندما أخبره الدكتور حسين فوزي أن السلطان يضع الوزراء في زورق ويأمرهم بالرحيل بعيدًا عن البلاد .وكان الملك فؤاد في أزمة وزارية وأعجبته الفكرة ولم يتمكن من تنفيذها.

وإنما نفذت في ابنه فاروق بعد ذلك!

ومنذ أيام قرأت أن ماء المحيط قد أغرق بعض هذه الجزر .ويقال إنه أغرق 700جزيرة .وحرصت وكالات الأنباء على نشر ذلك على أوسع نطاق ..ولكن إغراق مثل هذه الجزر لا يعتبر خبرًا؛ لأن الخبر أن الماء سوف ينحسر عنها بعد أيام ..إنها لعبة الماء مع المد والجزر من ألوف السنين!

* * *

سنغافورة أرخص بلد في الدنيا

(1)

أجمل مدينة رأيتها حتى الآن هي سنغافورة ..إنها جزيرة عدد سكانها مليون ونصف مليون ومساحتها 200ألف فدان، ولها حكومة يرأسها حاكم صيني ..فقد استقلت أخيرًا.

والوزارة كلها من الصينيين، لأن عدد الصينيين هنا مليون والباقون من أبناء الملايو والهنود وجاليات أجنبية أخرى..

المدينة حلوة نظيفة فيها كل ما يتمناه عروسان من ملابس وهدايا وعطور وفسحة .المحلات التجارية هنا ممتلئة جدًّا .إنها محلات بكرش .وكروشها طالعة لبره ..الأسعار رخيصة جدًّا ..شنطة اليد من جلد الثعبان ثمنها ستة جنيهات، زجاجة العطر التي تباع في القاهرة بعشرة جنيهات ثمنها هنا خمسون قرشًا .البلوزات والجيبات والراديوهات الصغيرة كلها تباع هنا على عربات اليد كما يباع عندنا الترمس والفول السوداني..

والقمصان التي يلبسها الشبان هنا تظهر على أجسام الأغنياء عندنا أو بعض الطيارين فقط .أما ملابس النساء ففي غاية البساطة والجمال..

والذي يدخل محل »جون ليتل «أو »روبنسون «هنا يفقد عقله على مدخل أي واحد من هذين المحلين ..وقد كنت أتصور في يوم من الأيام أن بيروت هي المدينة الوحيدة التي يجد فيها الإنسان كل شيء، وبيروت فعلًا بها كل شيء إلا شيئًا واحدًا هو :الرخص..

الأسعار هنا رخيصة جدًّا والسلع الموجودة هنا كثيرة جدًّا..

الحقيقة أن أول يوم نزلت فيه إلى الشارع أحسست بدوخة وأنني أخطأت الطريق إلى سنغافورة .وأنه كان يجب أن أمر على البنك الأهلي أولًا، وبعد ذلك أجيء هنا، ما الذي تريده ..هل تريد أن تضحك، موجود أماكن الضحك واللهو كأية عاصمة في العالم ..كباريس ولندن بل وتوجد هنا »سينيراما «وهي ليست موجودة حتى في أوربا ..وموجودة هنا كباريهات لا يمكن حصرها ..وتوجد فتيات جميلات من كل بلاد الدنيا .والمثل الذي يقول :لبس البوصة تبقى عروسة .هذا المثل طبعًا ليس دقيقًا، وإنما من رأيي أن يكون المثل هكذا لبس العروسة تبقى عروسة، لبس البوصة تبقى بوصة..

وكان من عادتي عندما أنام أن أقفل باب غرفتي وأنام وأقفل الحقيبة الكبيرة التي معي ..ولكن بعد أن رأيت هذا الذي بهرني وقهرني في سنغافورة تركت باب الغرفة مفتوحًا، وتركت الحقيبة مفتوحة وكتبت ورقة للخادم أقول فيها :وحياة أبوك ما عندكش طريقة أتخلص بيها من الكراكيب اللي انا جايبها معايا؟

طبعًا القميص الذي يلبسه الخادم يباع عندنا بثمن مرتفع ..وكذلك الحذاء الإنجليزي الذي يلبسه ..والساعة الزنيت التي في يده ..وقلم الباركر 61في جيبه .ومنظار شمس أمريكاني ..غير الأشياء الموجودة عنده في البيت .ولا بد أنها تجنن.

إنها مدينة رائعة بلا شك.

بلد على هيئة جزيرة ..من أية ناحية أنظر من الفندق أرى الماء ..ومن بعيد أرى جزرًا صغيرة ..أما في الميناء فهناك مئات السفن ..ومن هذه السفن تدخل خزانة المدينة مائة مليون جنيه سنويًّا.

وسكان الجزيرة من أبناء الصين .والصينيون في غاية النشاط والنظافة والبساطة .والرجل الصيني لا يتعب من العمل وذكي ويرغمك على أن تشتري منه بأي شكل ..والفتيات الصينيات يعملن أيضًا .وأعتقد أن للفتاة الصينية سحرًا خاصًّا.

* * *

تناولت طعام الغداء مع فتاة صينية جاءت من إندونيسيا تزور أقاربها هنا، وسألتها :لاحظت أنك تأكلين الكثير جدًّا من الأرز ..فهل يا ترى أنت كل يوم كده؟ !ولا النهارده بس؟

قالت :ليه؟

قلت :يعني ..سؤال كده..

قالت :كل يوم لا بد أن شكلي فظيع وأنا ألتهم الأرز.

-أبدًا ..ولا فظيع ولا حاجة ..دا شكلي أنا وأنا باتفرج عليك.

-ليه؟

-إذا كنت بتاكلي الكميات دي كلها ..أمال مش باين عليك ليه؟

وفعلًا لا يبدو عليها أنها تأكل على الإطلاق ..كأنها لا تشرب ولا تتنفس ولا تنام ..مختصرة جدًّا ..وليست هي وحدها ولكن 80٪ من بنات الصين هكذا ..يبقى خلقة ربنا بقى!

سألتها :ما وسائل الإغراء عندكم؟

قالت :إزاي؟ مش فاهمة..

-يعني إذا كانت الواحدة منكم لابسة بيجاما ليلًا ونهارًا .والرجل يرى ملامحها بوضوح جدًّا ..فما الذي لا يراه الرجل ويحاول أن يجري وراءه ولا يناله إلا بالزواج؟

-مش فاهمة..

-إزاي بقى؟ يعني مفيش حاجة في جسمك مستخبية عن عين الرجل؟

-إن الرجال لا ينظرون هكذا.

-هكذا يعني إيه؟ يعني زيي أنا ..هوه أنا بصيت إلا وانا باكلمك دلوقت؟ لا صحيح ..عاوز أعرف.

-تفتكر إن البدائيين اللي عايشين عرايا لا يتزوجون؟!

-طبعًا يتزوجون كده بالغريزة .كالحيوانات تمامًا، دون أن تكون هناك وسائل للإغراء أو الفتنة.

-لازم الإغراء عندكم؟

-عند كل الناس ..طيب إنت لابسه كويس كده ليه ..وقفت قدام المرايا قد إيه !ليه؟ علشان إيه !مش علشان الرجالة!إنت مكسوفة .هو انت لوحدك .كل البنات كده!

-قصدك إن الفتاة الصينية لا يمكن مقاومتها..

-رأيي مفيش داعي .لأنني أضعف أمام الفتاة الصينية ..ولا أقوى على مقاومة أية فتاة جميلة بالصين أو باليابان..

-أنت تفرجت على المحلات التجارية هنا؟

-بعضها.

-شفت البائعات.

-آه ..جميلات ..يعني مش كفاية البضائع، لازم كمان البائعات !البضائع لا يمكن مقاومتها فما بالك إذا كانت البائعات جميلات أيضًا.

-تحب تشتري حاجة؟

-أبدًا..

طبعًا لا يمكن أن أشتري قلم رصاص، فأنا في منتصف الرحلة، وما زال أمامي أكثر من 15ألف ميل، وبعد ذلك أمامي 30ألف ميل أخرى إلى القاهرة ..لا يمكن أن أشتري شيئًا ولا أضع في حقائبي أي شيء ..إنني أكره »الشيلة «الثقيلة حتى لو كانت أجمل فتاة صينية.

لقد تعودت هذه الأيام أن أترك باب غرفتي مفتوحًا وباب حقيبتي مفتوحًا وباب قلبي مفتوحًا ..اللعنة على المفاتيح، فليس في الدنيا أحسن من حياة بلا مفاتيح ولا أقفال!

(2)

وسنغافورة معناها مدينة الأسد ولها قصة غريبة ..فقط اشتراها ضابط إنجليزي بخمسة آلاف جنيه من سلطان جوهور منذ 145عامًا .والضابط الإنجليزي اسمه رافلس، وكان يبحث عن قاعدة بريطانية يضرب منها الهولنديين ..وقرر رافلس أن يجعل هذا الميناء حرًّا، تدخله كل البضائع وكل الفلوس بجميع ألوانها .وما زالت سنغافورة حرة، ولا تزال فيها كل فلوس هذه المنطقة.

واسم رافلس هذا في كل مكان له ميدان ورصيف وشارع ..والمكان الذي هبط إليه بالجزيرة فيه تمثال للرجل الذي اشتراها لحساب الإمبراطورية البريطانية.

الساعة الثالثة صباحًا أقف أمام الفندق الوحيد الذي وجدت به غرفة خالية فينهض من فوق إحدى المناضد خفير الفندق ..وينفتح باب كبير وتضاء الأنوار وأمد يدي إلى أحد الدفاتر الكبيرة وأسجل اسمي والجهة التي قدمت منها وجنسيتي وعدد الأيام التي سأمكثها في الفندق.

قلت للبواب :أوضه كويسة» .يهز رأسه .«فيها تكييف؟

-وفيها مروحة أيضًا ..وبسريرين؟

-وسريرين ليه بقى؟

-مفيش غيرها ..ولمدة يوم واحد..

-وبعدين؟

-بكرة تبحث لك عن فندق آخر.

-كده ..طيب أعمل إيه بالسرير الثاني؟

» -يهز رأسه «ضع عليه الشنط.

-دي شنطة واحدة..

) -يهز رأسه (أبعث لك شنطة أخرى تضعها إلى جوار شنطتك..

-طيب شيلوا السرير ده ..وتبقى أوضه بسرير واحد..

-إذا شلناه نحسبها بسريرين برضه ..هي كده.

-بقى من رأيك أنني أؤجر الأوضة من الباطن..

» -يهز رأسه.«

-وعلى كده أدفع فيها كام؟

28 -دولارًا..

-إيه؟ 28كام ..دولار إيه؟!

-دولار ملايو ..يعني حوالي أربعة جنيهات إسترلينية..

-يعني لازم بكرة أفطر وأتغدى وأتعشى هنا ..مش معقول..

-على حسابك.

-يعني إيه؟!

28 -دولارًا ..نوم فقط ..والأكل على حسابك..

-ليه بقى !ما تخلى النوم على حسابي كمان..

-الدور الرابع أوضه ..102تصبح على خير »بالإنجليزية.«

وصعدت إلى الدور الرابع ..ورأيت غرفة واسعة جدًّا وسريرين وتليفونًا وجهاز تكييف وميكروفونًا، إذا أردت أن أستمع إلى موسيقى الروف جاردن.

ونزعت ملابسي وتمددت على السرير أفكر في الفندق القادم ..ومددت يدي إلى »دليل سنغافورة «ورحت أبحث عن الفنادق الأخرى ..ووجدت صفحتين كلهما عن الفنادق وأوصافها وأسعارها، وقرأت عن الفندق الذي نزلت به فوجدت أن السعر ليس 28دولارًا كما قال لي البواب ..إن السعر 32دولارًا لأن غرفتي بحمام وماء ساخن وبارد ..وأن الفندق يبعد عن مدينة سنغافورة حوالي ثمانية كيلومترات.

ومددت يدي إلى المصباح لكي أطفئ النور فوجدت ورقة صغيرة أنيقة موضوعة على السرير مكتوبًا عليها :أهلًا ..أهلًا..

فألقيت بها على الأرض في حركة عصبية يائسة، وانقلبت الورقة على الوجه الآخر وكان مكتوبًا عليها أيضًا :أهلًا ..أهلًا..

بعبارة أخرى يعني :انفلق!

(3)

وفي الصباح قابلت السيد إبراهيم عمر السقاف من أغنى أغنياء سنغافورة ..يقولون إنه يملك مئات الملايين .وله عمارات في القاهرة، من بينها عمارة الإبراهيمية على الكورنيش أمام سينما الجزيرة ..وكل أفراد أسرة السقاف جاءوا من)حضرموت (وتفرقوا في البلاد .وفي الحجاز والعراق وإندونيسيا والملايو وفي الجمهورية العربية المتحدة)مصر سابقًا .(وغير معروف على التحديد مصدر ثرواتهم الهائلة ..وإذا قابلت أي فرد من عائلة السقاف قال لك إنه ورث هذه الثروة عن والده .ووالده من أين أتى بها؟ أتى بها عن والده أيضًا، وهذا صحيح فعندهم أربعة أجيال على الأقل من الأغنياء جدًّا.

والسيد إبراهيم السقاف رجل نحيف قصير القامة ..يعمل الآن قنصلًا فخريًّا لجمهورية العراق ..وهو يتحدث اللغة العربية بلهجة أهل الحجاز .ويتحدثها بشهية مفتوحة؛ لأنه لا يجد أحدًا يتحدث إليه .فأبناؤه لا يعرفون العربية وإنما يتحدثون الإنجليزية أو الملاوية.

حدثني السيد إبراهيم السقاف فقال :إنه كان يملك إحدى الجزر .وهي أكبر من سنغافورة وهي قريبة جدًّا من سنغافورة، لا تبعد أكثر من عشرين كيلومترًا واسمها جزيرة القمر .وقد اشتراها بحوالي خمسة آلاف جنيه ..وكانت مليئة بأشجار المطاط وجوز الهند، ويوم أن اشتراها كان رطل المطاط بحوالي خمسة قروش، ويوم تركها كان رطل المطاط قد وصل إلى ثلاثين قرشًا وهو لم يبع هذه الجزيرة وإنما أهداها إلى جامعة جوججا كارتا بإندونيسيا ..ومساحة هذه الجزيرة حوالي 35كيلومترًا مربعًا.

والقصر الملكي في مكة كان يملكه السيد إبراهيم السقاف ثم أهداه للملك عبد العزيز آل سعود .وقال لي إن الصحف المصرية نشرت أن الرئيس عبد الناصر قابل الملك السعودي في قصر السقاف .ولا يزال الناس هناك في مكة يسمون القصر الملكي بهذه التسمية..

وقد اشتغل السيد إبراهيم السقاف بالصحافة وبصورة غريبة ..فقد أصدر صحيفة يومية وثلاث مجلات أسبوعية ومجلتين شهريتين في وقت واحد، لأول مرة ظلت هذه الصحف تصدر لمدة تسعة شهور، وخسر فيها جميعًا نصف مليون جنيه!

وسألت بعض أبناء سنغافورة فقالوا :إن خسارته كانت أكبر من هذا بكثير.

وعنده اليوم مجلة شهرية تصدر بالإنجليزية اسمها العالم الإسلامي .وفي نيته أن يوقفها؛ لأن رئيس تحريرها قد عينته الحكومة نائبًا عامًّا، وليس عنده متسع من الوقت ليصدر مجلة شهرية في 32صفحة.

وعلى مكتب السيد السقاف بعض الصحف العربية، وهي تصل إلى هنا بعد صدورها في القاهرة وبغداد بيومين أو ثلاثة ..وسألني السيد السقاف :هل تعرف أحدًا من عائلة السقاف؟

قلت :الملحق الصحفي بسفارة إندونيسيا عندنا اسمه السقاف.

قال :لا أعرفه.

قلت :وأعرف أديبات في مصر يحملن نفس الاسم.

قال :أنا لا أعرفهن ..يمكن، طرف قرابة العائلة كبيرة.

وضع يده في درج مكتبه وأعطاني بطاقته الشخصية ..والبطاقة مليئة بالكتابة المطبوعة على الوجهين بالإنجليزية، وهذا نصها:

داتوه السيد إبراهيم بن عمر السقاف رئيس المجلس الاستشاري الإسلامي بسنغافورة .رئيس جمعية الدعوة الإسلامية لبلاد الملايو .رئيس مجلس إدارة الكلية الإسلامية العليا في بلاد الملايو ..قاضي الصلح .القنصل الفخري للعراق في سنغافورة وأنحاء بلاد الملايو .رئيس منظمة زعماء الأديان بسنغافورة .رئيس تحرير ست صحف ومجلات أسبوعية وشهرية.

وبعد ذلك عشرات الأرقام التليفونية.

وقرر السيد السقاف أن ينسحب من الحياة العامة؛ لأنه تعب وأنه تجاوز الستين، ويقال السبعين.

سألته :ما مشروعاتك القادمة؟

قال :أبدًا ..أسافر إلى القاهرة وأنقل ابني إلى سويسرا وربنا يساعدنا في الفلوس..

قلتُ :في الفلوس يعني إيه؟ .إنت متصور إنك حتشيل فلوسك كلها على صدرك.

فضحك وقال :إنت بتصدق كلام الناس؟ والله كل فلوسي لا تزيد على بضعة ملايين ومعها بضع آهات.

..آهاتي أنا طبعًا!

(4)

اليوم نشرت الصحف خبرًا مهمًّا:

جمعت الحكومة في سنغافورة الباعة المتجولين وبنت لهم أكشاكًا على الكورنيش .الأكشاك نظيفة جدًّا وتشرف عليها الحكومة ..وضعت أمام الأكشاك مئات المناضد والمقاعد، وهذه الأكشاك تبيع المشروبات والمأكولات الشعبية ومعظم هذه المأكولات يطبخونها أمامك.

وأعجب الأطعمة هي الصينية بلا شك، والصينيون أناس في غاية النظافة والنشاط .والمرأة الصينية جميلة ونشيطة وحلوة ومختصرة كده ..وتجد المرأة الصينية هنا في الشوارع والمحلات العامة بالبنطلون والجاكتة ..وهو زي يشبه البيجامات بالضبط، وكلها من الحرير .وتلبس القبقاب الخشبي الخفيف ومعظم الصينيات يبعن في هذه الأكشاك.

جلست أنتظر الجرسون فجاء ولم أفهم كلمة واحدة مما يقول، فعدد الذين يتحدثون الإنجليزية في سنغافورة قليل جدًّا .وقررت أن أذهب إلى أحد الأكشاك وأختار الطعام الذي يعجبني .وأشرت بيدي إلى بعض اللحوم، فقال الرجل بالإنجليزية :ساتو ..ساتو..

والساتو اسم أكلة ملاوية وليست أكلة صينية ..وهي عبارة عن لحوم موضوعة في أسياخ من القش أو الخيزران الرفيع ..وهي مشوية في مادة حلوة ..ومعها نوع من الأرز يسلقونه في سعف النخيل .وسعف النخيل مجدول على هيئة محفظة صغيرة .ويضعون الأرز في البخار وهو في سعف النخيل ويتحول الأرز إلى عجينة تمامًا وعليك أن تغمس الأرز واللحم في شطة مصنوعة من الفول السوداني وجوز الهند والمانجو.

والأكلة لذيذة جدًّا..

وكان معي الدكتور زكي بدوي الأستاذ بجامعة سنغافورة، وهو من خريجي الأزهر ومن مواليد قرية النخاس بمديرية الشرقية، وقد تعلم في إنجلترا، واشتغل بالتدريس في الأزهر بعض الوقت وعاش هنا في سنغافورة مع زوجته الإنجليزية وأولاده.

والدكتور زكي واسمه بالكامل محمد أبو الخير زكي بدوي يتكلم الإنجليزية بطلاقة وبلهجة إنجليزية صحيحة، ويتكلم العربية بلهجة شرقاوية فظيعة لم أسمع لها مثيلًا في حياتي، وتجيء على لسانه ألفاظ غير مألوفة، ولا أدري كيف احتفظ بها وهو يمر فوق المحيطات والجبال ولم يفكر في أن يلقي بها إلى الأبد ..والدكتور زكي هو العربي الوحيد في جزيرة سنغافورة، ويعرفه كل الناس وتلجأ إليه الحكومة إذا ما وقعت في مشكل بالنسبة لأي عربي.

وله مواقف صارخة أيام العدوان على بور سعيد، فكان يخطب في الجامعة ضد الإنجليز مع أنهم أصحاب الجزيرة .وكان يكفي أيام العدوان على بورسعيد أن يقول لسائق التاكسي إنهم اعتدوا على بلادي ..فيرفض السائق أن يتقاضى الأجر ويرفض صاحب المطعم ويرفض الطبيب أن يتقاضى الروشتة.

وكنا نركب في سيارة الدكتور زكي عائدين إلى الفندق، فقلت له :سنّتي يا دكتور؟

قال :سنانك بتوجعك؟

قلت :بتوجعني ..ولازم لي واحد جواهرجي.

قال :إيه ده بتجول إيه؟!

قلت :يا شيخ باضحك ..إنت ما شفتش فيلم عبد الوهاب وراقية إبراهيم بيقولوا الكلام ده في الفيلم.

وأشار بيده إلى مستشفى أنيق جدًّا ..وإلى مجموعة الممرضات الحسناوات وقال :تعرف النوم هنا بكام ..بعشرة جنيهات ..مجرد النوم ..غير الأكل وغير العلاج وغير زيارات الطبيب المتكررة ..إيه رأيك؟!

فقلت :اللوكاندة أرخص .محفظتي يا دكتور.

قال :يلزمك واحد جواهرجي برضه؟

قلت :يلزم لي الدكتور وزير الاقتصاد.

ملحوظة :أعتذر عن تساقط بعض الحروف وبعض الأفكار ..فأنا أكتب بقلم باركر جديد ولا أعرف كيف أحركه على الورقة ..فهو يشبه الحذاء الجديد، ضيق وجاف وأفكاري تتعثر به ..أما لماذا اشتريت هذا القلم .فلأنه أرخص من الأقلام الرصاص..

(5)

وقفت في ميدان رافلس بسنغافورة أمام محل روبنسون الذي يشبه شيكوريل في القاهرة مع فارق قيمته عشرة ملايين من الجنيهات ..يشبهه من ناحية البناء فقط ومن ناحية موقعه في شارع رئيسي .وكلما مرت سيارة أشار صديقي الصيني قائلًا :هذا مليونير صيني ..وهذا مليونير .وهذا عنده على الأقل مائة مليون جنيه ..وهذه زوجة أحد أصحاب الملايين .وأخوها مليونير أيضًا.

ولو كان هذا الصيني من عامة الناس لقلت إنه ساذج، أو فشار أو متعصب لأبناء جنسه ..ولكن هذا الصيني طبيب وتعلم في إنجلترا ويتكلم الفرنسية أو الألمانية واليابانية ..ثم هو يتعلم العربية الآن؛ لأنه يريد أن يزور القاهرة وبيروت لمدة شهر واحد .وكان قد قابل فتاة مصرية في روما من عائلة الدراويش أو درويش أو أبو درش لا أعرف ..ويقول :إنه وعدها بالزواج سنة 1955ولا يزال حريصًا على وعده، ويطلب مني أن أعلن ذلك وأن أذكرها بالحب القديم..

وقرر صديقي الطبيب الصيني أن يجمعني بأحد أصحاب الملايين على سبيل الفرجة ..فأنا لم أر في حياتي مليونيرًا واحدًا سوى كروب صاحب مصانع الصلب في ألمانيا، وسوى »علي خان «وبعض أصحاب الملايين العرب..

وذهبنا معًا إلى بيت المليونير المعروف جدًّا في الملايو وسنغافورة واسمه »تك تشا ..«يبدو هذا الاسم لا معنى له، ويبدو كأنه من اختراعي، ولكن ذكر هذا الاسم في منطقة يشبه الكوكتيل من أسماء روكفيلر روتشيلد وعشرة بنوك أخرى!

الشاب الذي قابلته في السابعة والثلاثين رقيق لطيف مهذب جدًّا وصوته جميل عندما يتحدث الإنجليزية المكسرة، وزوجته فاتنة، أول ما رأيتها قلت :ما عندكيش أخت يا مدام؟

قالت :ليس لي أخت.

قلت :فعلًا مش ممكن يكون لك أخت.

لا لأنها حلوة فقط، ولكن لأن »المدام «أبوها مليونير وتقدر ثروته بحوالي 200مليون جنيه موزعة في بنوك هونج كونج وسنغافورة .ولا داعي لأن أصف كيف كان هذا القصر الذي تعيش فيه، وكيف أنه في قمة جبل وأن أمامه عشرات من السيارات المرسيدس والكاديلاك والرولزرويس ولكن أروع ما فيه هو الذوق الصيني الساحر ..ولا يمكن وصفه لا من قريب ولا من بعيد ..هل أصف الأبواب أو النوافذ أو المفارش أو فناجين الشاي ..لو كان عندي فنجان واحد وطبق من هذا النوع لأقمت له معرضًا في شارع الهرم وأجعل الدخول بعشرين قرشًا !أما كيف أصبح هو مليونيرًا فالمسألة بسيطة جدًّا؛ لقد ورث هذه الملايين عن والده!

ثم فتح شركة بدأت مساهمة ثم انفرد بها ورأسمالها الآن حوالي سبعة ملايين جنيه ..وسيفتتح بنكًا في القريب العاجل بسنغافورة أو في هونج كونج ..أما أمواله فمودعة كلها في لندن ..أما كيف جاءت هذه الثروة إلى والده، فهو الآخر ورثها عن والده وهو الرجل الذي دخل هذه البلاد وليس معه مليم واحد.

جده -رحمة الله عليه -رجل قصير القامة ..صورته أمامي على الحائط يجلس على دكة، رجل ذكي، ولا شك، جاء إلى هذه البلاد على ظهر مركب شراعي صغير وكان ذلك منذ 70عامًا ..جاء هذا الرجل أولًا بمفرده، ترك زوجته وأولاده في الصين ..ومكث هنا وحده عشرة أعوام ثم استدعى زوجته وأقاموا جميعًا في سنغافورة .وفوجئ الأولاد بأن أباهم قد افتتح دكانًا صغيرًا وأنه ينام في هذا الدكان ليلًا ونهارًا .وفوجئ الأولاد بأن والدهم قد اشترى بيتًا صغيرًا وجعل للبيت حديقة، وأنه هو الذي يحرث الحديقة .وأنه لديه عشرة من العمال كلهم من الشبان الصغار واشترط عليهم ألا يتزوجوا قبل مضي مدة معينة، وأن كل من سيتزوج سيخفض مرتبه ..ولاحظوا أن هذا الرجل يعمل ليلًا ونهارًا وأن نصف العمال يعملون ليلًا، والنصف الآخر يعملون نهارًا ..وأنه لا ينام إلا ساعة واحدة في اليوم، فقد أصيب بأرق دائم..

أما الذي يبيعه هذا الرجل فهو نوع من الزيت اسمه »زيت النمر ..«هذا الزيت يشفي من الروماتيزم وأوجاع المفاصل والظهر .وكان هذا الرجل يقوم بتوزيع هذا الزيت مجانًا على الفقراء الصينيين .وكان يطلب من كل صيني أن يتحدث ولو دقيقة واحدة لأحد أقاربه عن مفعول هذا الزيت ..وربما كان هذا الرجل هو أول تاجر في العالم كله استخدم رجال الدين في الدعاية لزيت النمر ..فقد أصيب أحد الرهبان بآلام حادة في أصابع قدميه وعالجه بهذا المرهم، وعندما حاول الراهب أن يدفع الثمن أخبره الرجل العجوز بأن الثمن هو كلمة واحدة عن الدواء الذي يعطيه للناس مجانًا، كلمة واحدة قبل الصلاة أو بعدها..

وفي اليوم التالي اختفى هذا العجوز، وظن الصينيون الطيبون أن هذا الرجل ليس إنسانًا فراحوا يبحثون عنه فلم يجدوه ..وبعد ثلاثة أيام ظهر الرجل في دكانه حزينًا، وكلما سأله الناس عن السبب قال إنه مضطر أن يبيع الزيت بالفلوس بعد أن عاهد ربه على أن يعطيه للناس مجانًا، غير أنه رأى في المنام أن الآلهة يصرون على بيعه بالفلوس من أجل العمال الذين يعملون عنده .ومن أجل طفل في بطن سيدة تزوجت سرًّا من أحد العمال.

وأقبل الناس على الزيت يشترونه.

أما الزيت فلا يعرف أحد من أي شيء استخلصه هذا الرجل ..وشركة النمر تنتج الآن الكثير جدًّا من الأدوية والأطعمة وعشرات المواد الغذائية وأدوات الزينة، كلها من صنع شركة النمر التي أسسها هذا الرجل الذي قدرت ثروته بعد موته بأكثر من 250مليونًا من الجنيهات!

هل تعرف أن هذا الرجل لم يركب سيارة قط ولا عربة ولا حصانًا؟ هل تعرف أنه اشترى ثلاثة أحذية في كل حياته؟ هل تعرف أنه لا يعرف القراءة؟ هل تعرف أنه لم يمرض قط؟ هل تعرف أنه كان يحتفظ بأسنانه كاملة وبنظره سليمًا، وأنه مات غريقًا في الثمانين من عمره؟

إن أصحاب الملايين في سنغافورة وفي الملايو وفي إندونيسيا كلهم من أبناء الصين..

والحكومة الموجودة الآن يرأسها رجل صيني هو زعيم حزب العمال الشعبي، والحكومة السابقة كان يرأسها يهودي صيني اسمه »مشعل «غير اسمه وجعله مارشال.

وفي سنة 1959أقفلت أسرة »النمر «هذه صحيفتها الكبرى وفاجأت المحررين بقرار الإقفال .وآخر عدد صدر لها هاجمت فيه عبد الناصر وقالت :إن تهديده لإسرائيل حقيقي وليس على سبيل »التهويش «أو المناورة السياسية وإن الدول الكبرى يجب أن تضرب رأسها في الحائط لأنها فشلت في معركة بورسعيد!

لقد أقفلوا هذه الصحيفة وافتتحوا صحيفة أخرى في الملايو..

أما الرجل العجوز فقبل أن يموت تبرع بعشرين مليونًا من الجنيهات لفقراء الصين المقيمين في سنغافورة ..وأنفق أربعين مليون جنيه أخرى على إنشاء حديقة النمر الموجودة هنا في سنغافورة ..وهي من أروع الأعمال الفنية التي يمكن أن يراها إنسان؛ فكلها من التماثيل الملونة البارزة وبالحجم الطبيعي ..والدخول عام بالمجان ..وهي تصور حياة الصين كلها قديمًا وحديثًا .والعادات والتقاليد والرذائل والفضائل والخرافات في الأدب والتاريخ وصور التعذيب التي كان يلجأ إليها الأباطرة .إنها رائعة مثيرة مخيفة مذهلة، إنها تزيل الأوجاع والآلام، وتزيل الزمن الذي يشبه العرق في حياتنا ..إنها أكثر سحرًا من زيت النمر!

إن هذا الشاب الذي رأيته ليس مليونيرًا، وإنما هو ملاييني!

(6)

اليوم فقط أول أيام الشباب هنا في سنغافورة .رئيس الوزراء الصيني دعا الشباب إلى مساعدة الدولة في قطع الأشجار وإحراق الأعشاب وتمهيد التربة لإنشاء حدائق وملاعب للشباب ..تطوع اليوم للعمل أكثر من عشرين ألف شاب ..تقدمهم رئيس الوزراء بالقميص والبنطلون وبدأ يعمل .لم يعمل دقيقة ولا خمس دقائق وإنما عمل خمس ساعات متواصلة .رفض أن يأكل الطعام الذي قدمته زوجته المحامية .وإنما جلس على الأرض إلى جوار العمال المتطوعين وفوجئ العمال برئيس الوزراء يجيء مرة أخرى بعد الظهر ويستأنف عمله بنفس القميص والبنطلون ومعه ثلاثة من خدمه وسائق سيارته.

وأعلن رئيس الوزراء هنا أنه لن يمضي أكثر من شهر واحد حتى تكون هذه المساحة من الأرض قد تحولت إلى قطعة من الجنة.

لقد مررت على هذه الأرض عند منتصف الليل ..إن الشبان يعملون تحت الأضواء القوية ..سألت إن كانوا هم نفس الشبان الذين عملوا بالنهار؟ قالوا إنهم دفعة أخرى، عددهم لا يقل عن شبان النهار .فسألت إن كان رئيس الوزراء قد حضر فقالوا :لقد حضر فعلًا، ولكن الشبان منعوه، وطلبوا منه أن ينام ليعاود العمل في الصباح.

نشرت الصحف عن العمال المتطوعين وعن روحهم المعنوية وعن السعادة التي عملوا بها .وكيف أنهم كانوا منظمين .وقالت صحيفة »التايمز «في افتتاحيتها :إن هذه الأرض لكم؛ لأن المستقبل لكم، أما نحن فذاهبون ..إننا المعدية التي نقلتكم من شاطئ الماضي إلى شاطئ الحاضر، فانزلوا إلى الأرض التي هي لكم، لا تنتظروا أجرًا أو ثوابًا أو حتى شكرًا .بل نحن الذين ننتظر هذا منكم .لقد أودعنا باسمكم ثروة في بنوك الغد!

(7)

تعطل المرور واتجهت السيارات إلى الشوارع الضيقة .والمرور في الهند وسيلان وسنغافورة على الشمال دائمًا، وعجلة القيادة على اليمين في السيارة -تقاليد إنجليزية، ونزلت من السيارة لأبحث عن مصدر الطبول والموسيقى ورأيت طلائع الفرح والورود والبخور والموسيقى النحاسية يضربونها بصورة صارخة ..وهناك شبان في ملابسهم الزرقاء، ووضعوا على رءوسهم قبعات حمراء .وعربة صغيرة توزع عليهم المظلات والمراوح ..وبعدهم تجيء عربات نقل ضخمة عليها أعلام ولافتات باللغة الصينية وفيها أجهزة تسجيل تذيع موسيقى صينية حالمة ثم فرقة موسيقية أخرى لها لون خاص ولها لحن خاص .وعربات نقل كبيرة عليها لافتات وورود وأعلام .والناس فيها يضحكون ويتلفتون إلى المتفرجين وكل واحد منهم في فمه سيجارة ..وعربات غريبة الشكل ..وفرقة موسيقية ..ثم طابور طويل مزدوج من الناس قد أمسكوا حبلًا وراحوا يجذبونه إلى الأمام ..والحبل مربوط بعربة نقلت عليها الزينات ..ولكن العربة تتحرك من تلقاء نفسها وليست في حاجة إلى حبل ولا ناس يشدونها، وعليها زينات، وفيها بعض الناس قد جلسوا وحولهم الورود .ولا بد أن يكونوا أهل العروسين، ثم فرقة موسيقية أخرى ..وعربة نقل ضخمة وضعت فيها الهدايا وكلها من الأقمشة الصوفية الإنجليزية الفاخرة ..وكل قطعة قماش عليها اسم الرجل الذي أهداها إلى العروسين.

ثم عربة أنيقة جدًا ..ويبدو أنها خرجت من الباخرة أمس على الأكثر إن لم تكن الآن، وعليها صورة أنيقة .إنها صورة العريس نفسه، أما صورة العروس فلم تظهر ويبدو أن التقاليد لا تسمح هنا بنشر صورة العروس..

والآن أرى بوضوح العروسين أو أهل العروسين ..فقد ارتدوا جميعًا ملابس بيضاء ناصعة وتعلقوا بإحدى العربات الغريبة الشكل ..ويظهر أنهم يبكون على فراق العروسين ..تمامًا كما يحدث في الريف عندنا ..ولا بد أن هؤلاء السيدات من أهل العروسين ..أخت العروس وأمها وأخت العريس وأمه ..والدموع على خدودهن جميعًا ..ووراءهن عشرات من النساء والرجال ومعهم المباخر والورود والموسيقى التي تضرب النحاس بعضه ببعض بعنف، والناس قد اصطفوا على الجانبين .وسألت فتاة صينية واقفة إلى جواري ولا بد أنها رأت دهشتي باهتمام غريب:

أمال فين العروسين يا مدموزيل؟

وضحكت ..وضحكت ..هذه جنازة ميت.

قلت :أمال فين الميت؟ هو العريس هنا بيقولوا عليه ميت؟ ميت في العروسة ولا هو الراجل الذي ماتت حريته ..يبقى ميت عندكم؟

والله حلوة الفكرة دي ..الحرية معناها الحياة والجواز معناه الموت :حلوة قوي !أمال فين الميت؟

قالت :هذا الذي رأيت صورته ..وجثمانه في العربة التي يجلس فيها إخوته وأولاده ..وهو الميت ..ميت حقيقي!

وهذه بالفعل جنازة .والدموع على فراق الميت!

وعرفت بعد ذلك أن كل هذه الزهور وكل هذه الهدايا سيحرقونها على قبر الفقيد ..وأن هذه الهدايا ستصعد مع الدخان إلى السماء، حيث صعدت روح الفقيد، أما هذه الطبول العادية فهي لطرد الشياطين ..إنها تنظف الطريق أمام روح الميت حتى يصعد إلى السماء بسلام .والموسيقى فعلًا مزعجة يهرب منها العفريت!

إنها جنازة ميت ..ميت بحق وحقيق!

(8)

اليوم أحسست فعلًا أن أذني لها طبلة ..إن جلدها يشبه جلد الطبول غليظ لا يحس بالأصوات الرقيقة ..إنني لا أتصور ما حدث لي .إنني لم أعد أستمع إلى أي موسيقى ولا أية أغان مع أنني -ولا فخر -أحفظ كل أغاني عبدالوهاب وأم كلثوم وعبدالحليم ..وبلغت بي الجرأة أنني غنيت لعبدالوهاب أمام عبدالوهاب!

وسمعت أن جلود الطبول مصنوعة من جلود حيوانات لا داعي لذكر اسمها حتى لا يرتبط كلامي في ذهنك بصورة هذه الحيوانات.

لا أعرف ماذا حدث ..إنني أتهم نفسي بأن وزني زاد ..يعني أنني تخنت ..والميزان يكذبني ولكن شعوري يقول :لا.

واليوم أحسست أن التخن كله في أذني.

كنت فيما مضى أسمع أفكار النمل ..كنت أسمع المفتاح وهو يتعثر فى الشقة التي في الدور الأول في بيتنا وأنا أسكن في الدور الخامس .وكنت أسمع الراديو في أي مكان بعيد، وأعرف ماذا يقول، وكنت أدخل في مراهنات على قوة سمعي ..وكانت الموسيقى تحرك أذني ..تحركها كما تتحرك أذن »ميكي ماوس «في أفلام والت

ديزني ..كأن أذني تخرج بعيدًا وتلتقط الأنغام وتعود وتصبها في رأسي ..كانت الموسيقى كالمشط »يسرح «شعوري .وكانت شعوري »مسبسبة «لا تحتاج إلى مجهود موسيقى أما الآن فشعوري »مجعدة «يتعثر فيها المشط ويكاد ينكسر.

ومعقول أن هذه الموسيقي التي تنبعث من الميكروفون إلى جوار سريري لا تهزني لا تشيلني وتهبدني في الأرض وترميني داخل الدولاب فأرتدي ملابسي وأصعد إلى سطح الفندق ..إلى حيث تجيء هذه الموسيقى؟ أبدًا وحياتك ولا حاجة ولا كأنني أسمع شيئًا، ولا حتى عندي أية رغبة في الهرب من فراشي ..إنه برود ..جمود ..موت!

هذه الكلمات الأخيرة قلتها لنفسي بصوت عال ..فأنا عندما أتحدث إلى نفسي أرفع الكلفة وأشتم وأقول ألفاظًا لا يصح نشرها .ولم تعجبني لهجتي مع نفسي ..لم تعجبني الصورة التي أرى بها نفسي الآن ..كأنني أنظر إلى نفسي في مرآة مكسورة ..مرآة مصغرة ..في مرآة تجعل وجهي ملتويًا كأنني أنظر من فوق سور حديقة ..أو كأنني أتفادى صفعة على خدي الأيمن أو الأيسر.

ومشكلتي قفزت فجأة أمامي..

فلم يكن ذلك برودًا ولا جمودًا ولا موتًا، وإنما هي مأساة يجب أن أعيشها يومين على الأقل.

لقد طار عقلي عندما دخلت غرفتي ولم أجد ملابسي ..إنها ليست بالشيء الذي له قيمة، ولكن لا أستطيع أن أشتري غيرها الآن ..فليس في جيبي مليم واحد، وإنما كل فلوسي محولة على بنوك، بيني وبينها عشرات الساعات بالطائرة، وأمسكت التليفون وصرخت أقول :إنت فين يا ماما ..ماما تونجو؟

وجاء صوت »ماما تونجو «هامسًا عجوزًا يتعثر على أسلاك التليفون كأنه صرصار أعرج.

وبعد دقائق جاءت مديرة الفندق.

وقلت لها :أين ملابسي؟

قالت وصوتها يعرج بالإنجليزية الصينية المكسرة :ملابسك؟ لا أعرف ..سأسأل الخادمة.

وأمسكت التليفون وسمعت كلامًا صينيًا لا أعرفه ..وأنزلت السماعة، وقالت :بعد لحظات ستعرف.

وبعد لحظات جاءت الخادمة.

وعرفت الحقيقة :لقد حملت كل ملابسي؛ البدلة الوحيدة والبنطلونات والجاكتات حتى الكرافتات والمناديل والقمصان ..كل ما عندي ..لم تترك إلا البيجاما التي أرتديها.

أما كيف حدث ذلك؛ فهو أنني خرجت أزور أحد أصدقائي في الفندق في الصباح الباكر .وتناولت الفطور عنده .وقرأت الصحف وسمعنا نشرات الأخبار، ويظهر أنني فتحت حقائبي أفتش عن شيء وأخرجت الملابس كلها وتركتها فوق السرير .ولم أفكر أبدًا أن أعيدها إلى الحقيبة ..ويعلم الله أن الملابس كلها مكوية ومغسولة في نيودلهي قبل سفري، ولكن الخادمة لم تتخيل أبدًا أنها مغسولة أو مكوية -وعلى كل حال هذه شهادة ضد الغسالين والمكوجية في الهند، ثم جمعت كل هذه الملابس وانصرفت..

ونظرت إلى الخادمة فأحنت رأسها وكأنها تركع وتقول لي :إن شاء الله بعد غد..

وصرخت فيها :بعد إيه؟ يا نهار إسود ..دنا حاجز في الطيارة بكرة.

-ولكن بكرة إجازة.

-إذن آخذهم من غير غسيل.

-ولكن الملابس في بيت الغسالة الآن.

-أروح لها البيت..

-إنها عادة تتفسح يوم الإجازة ولا توجد في البلد.

-تتفسح فين؟!

-في جزيرة بعيدة..

-الغسالة بتتفسح وعندها فلوس منين؟

-من حضرتك..

-حضرتي؟ ليه؟ هيه حتاخد مني قد إيه؟

-كم قطعة ملابسك؟

-والله ما انا عارف..

واستأذنت ماما تونجو وخرجت.

وسحبت الغطاء وابتلعت بعض الحبوب لكي أستعجل النوم وأحلم بأن ملابسي المغسولة قد نشرتها إحدى المضيفات على جناحي الطائرة ..وبين الحين والحين أتخيل المضيفة وهي تفتح باب الطائرة وتقلب الملابس!

(9)

لو كنت أعرف كيف أشتري أي شيء في الدنيا؟!

لو كنت أعرف كيف أدخل أي محل وأمد يدي إلى الأقمشة والقمصان والكرافتات والزجاجات العطرية والراديوهات الصغيرة وأدوات الحلاقة والزينة، ثم أقلب فيها وأنظر إلى ماركاتها بأعصاب من حديد وأقول للبائع:

-قل لي من فضلك .أنتم أسعاركم غالية كده ليه؟

-غالية !!إنت أول واحد قال الحكاية دي ..دعني أفتكر ..قال الحكاية دي مين من مائة سنة!

-إنت غلطان يا حضرة ..هناك واحد قال كده قبل مني ..عارف مين؟ الرجل اللي اشترى جزيرة سنغافورة ..عارف اسمه؟ اسمه رافلس ..الراجل ده اشترى الجزيرة دي بخمسة آلاف جنيه ولكن بعد فصال بينه وبين الملك استغرق عدة شهور ..يعني كان شايف ثمنها غالي قوي ..مش مهم، برضه أسعاركم غالية ليه؟

-ليه غالية؟!

-أولًا زجاجة البارفان دي ثمنها كام؟

-زجاجة ماجريف ..أكبر مقاس ثمنها أربعة جنيهات ونصف تبقى غالية؟!

-طبعًا غالية ..لقد رأيتها في عدن بثلاثة جنيهات فقط.

-معك حق ..ومع ذلك فنحن أرخص من أي بلد في الدنيا.

-طيب وريني دي ..بكام دي؟

-علبة بودرة من الذهب ..مطعمة من الذهب ..مش غالية ..بستة جنيهات؟!

-وريني ده من فضلك.

-شتوي ..بلوفر أورلون رجالي ..يساوي كام في عدن؟

-أظن يساوي جنيهين ..صوف إنجليزي ..أقصد صوف أسترالي ..وريني ده والله .بكام ده؟

-بلوفر أورلون حريمي ..بجنيهين برضه .خد بالك فيه حرير أيضًا ..وممكن نديه لك أرخص.

-لا ..مش عاوز ..وريني الجزم الإنجليزي كده؟

-اتفضل اقعد هنا ..مقاسك؟

-بكام يا حضرة؟ لا بد أنها أغلى هنا.

-أربعة جنيهات ..جزمة إنجليزي ..يدوب العمر وهيه ما تدوبش.

-متشكر ..سلام عليكم) .قلتها بعنطزة شديدة أقرب ما تكون إلى قلة الذوق أو قلة الأدب!(

-عليكم السلام.

أتمنى أن يدور هذا الكلام بيني وبين أي بياع ..أملي أن تكون عندي شجاعة .المرأة عندما تدخل أي محل ..وتشوف ده وده وتقلب في كل حاجة .البدل والبنطلونات ولعب الأطفال والحلل والأكواب ..ساعة وساعة ..وفي آخر النهار تشتري إبرة لوابور الجاز!

نفسي أدخل أي محل وحدي وأشتري أي شيء..

وهذه هي المرة الثالثة التي أسافر فيها إلى سنغافورة في خلال شهرين ..في أول مرة توقفت فيها عشرة أيام ..واشتريت ملابس داخلية ..وجدت عددًا من الناس يشترون فحشرت نفسي وسطهم ..وعندما فقدت شجاعتي أمام البائعات قررت أن أنسحب؛ وضبطني بائع خضار، سألني ماذا تريد؟ فقلت :ملابس داخلية..

وأمسك المتر وجعل يقيس طولي، وعرضي ويكتب في ورقة ..وبعد لحظات عاد لي بلفة كبيرة، ومددت يدي وأخذتها ودفعت الثمن ..ولم أعرف عددها ولا إن كانت تصلح لي أو لا تصلح ..إن محلات الخضراوات تبيع الملابس الداخلية أيضًا!

واليوم أحلم بأن أذهب إلى هذا المحل وأستدعي هذ البائع الغشاش وأحاسبه على الإساءة إلى سمعة أكبر محل في سنغافورة ..الإساءة إلى محل »جين ليتل «الذي يوجد به من البضائع ما يكفي لكسوة سكان مدينة كبيرة كالقاهرة وأقاربهم في الريف..

وتمنيت أن يدور بيني وبينه هذا الكلام:

-إزاي يا راجل إنت بتبيع لي ملابس داخلية تتمزق من غسلة أو غسلتين !هذا غش ..هذا ضحك على الأجانب ..أنت إذا كسبت مني جنيهًا فلن يزيد في ثروة المليونير صاحب المحل ..ولكنه يسيء إلى سمعته ..وسمعة سنغافورة كلها ..أهذا يرضيك؟

ويقول الرجل :يا أستاذ أنا لم أسئ إلى أحد ..ولكن كل قطعة اشتريتها حضرتك مكتوب معها على ورق أنيق كيف يجب غسل هذه الملابس ..حضرتك قرأتها؟

-الحقيقة لا.

-الغسالة قرأت هذا الكلام؟

-لا .طيب يا أخي مش لازم تنبهوا الزبائن إلى هذه التعليمات؟

-عندما يكون الزبائن لا يعرفون الإنجليزية..؟

-افرض يا أخي.

-يبقى ناقص نعلمه كيف يرتدي هذه الملابس.

-حضرتك بتهزر معايا؟

-العفو يا أفندم ..حتى طريقة ارتداء الملابس مكتوبة في التعليمات، ومع ذلك إذا كان فيها عيوب يمكن إصلاحها فنحن على استعداد لإصلاحها.

-مش المهم ده ..المهم سمعة المحل وسمعة البلد..

-نحن نشكرك على غيرتك على بلادنا..

وأحسست بكسوف وأنا أدير هذه المناقشة في رأسي ..فبعد أن ذابت كل ملابسي اكتشفت أن لها طريقة خاصة في الغسيل ..وأن هذا الرجل لو تحايل عليَّ لكي أرد إليه هذه الملابس فإنني لن أستطيع ..فقد أصبحت تشبه »شيش «الشبابيك ..كلها فتحات طولية وعرضية..

ولكن كيف أدخل أي محل وأشتري أية حاجة ..نفسي أشتري ..نفسي أعرف ..أفضل في وسط الناس وأقول :هات ..خذ ..هات ..إيه القرف ده !هات.

يا رب لقد أعطيتني الشجاعة فارتديت ملابس ممزقة، فأعطني الشجاعة لكي أشتري ملابس جديدة!

أشياء غريبة

في سنغافورة أحياء صينية كاملة وفيها ما يشبه حي السيدة زينب تمامًا ..خصوصًا ميدان السيدة ..به عربات عليها كلوبات وأمامها مقاعد يرى فيها الناس الأطعمة على النار ويختارون منها ما يعجبهم .وقد يذوق الواحد منهم الطعام فلا يعجبه فيلقي به في الأرض ولا يدفع مليمًا واحدًا.

* * *

من الممكن أن تطلب من بائع الصحف نسخة من أية جريدة وتظل تقرأ فيها عشر دقائق ثم تردها إليه لأنها لم تعجبك.

* * *

لا توجد طريقة لنداء الجرسون في أي مطعم وإنما يجب أن تنتظر حتى يقرب منك وينظر إليك، فتنظر أنت إليه.

* * *

مدينة الملاهي هنا أروع ما فيها المحلات التجارية، إنهم يبيعون فيها كل شيء ..أجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة جدًّا والكبيرة جدًّا ..ويبيعون الحرير والأصواف والعطور التي جاءت من باريس اليوم أو أمس على الأكثر، والأسطوانات من كل بلد ومن كل حجم ويتحايلون عليك ويطاردونك..

* * *

لاحظت أن الصينيين ليسوا صفرًا دائمًا، بل هناك صينيون بيض اللون جدًّا ..رأيت صينيات شقراوات ..ولا يميزهن عن الأوربيات إلا عيونهن وشعرهن الأسود الناعم..

في سنغافورة تستطيع الفتاة أن تلبس الملابس الأوربية وأن تلبس البيجاما الحريرية وأن تلبس القبقاب ..القبقاب الصيني جميل ..وأن تلبس الفستان المشقوق شقًّا طوليًّا كأنه آهة طويلة جدًّا ..والشق يبدأ من ذيل الفستان على الجانب أو على الظهر أو من الأمام ..يا أخي ولا أحد ينظر؟!

* * *

تسمع وأنت جالس في الفندق طبولًا ودقًّا غريبًا طول النهار ..وتنظر من النافذة فتجد رجلًا يدفع أمامه عربة ..أو رجلًا يركب دراجة ..هذه هي المناداة هنا ..فهم لا ينادون على السلع وإنما يدقون لها الأجراس والطبول ..وكل سلعة لها جرس خاص ..وأحيانًا تجد البائع وبعده بخمسين مترًا ترى طفلًا يضرب قطعتين من الخشب الواحدة بالأخرى .كأن لسانه ولسان أبيه قد نشفا فراح يدقهما معًا!

* * *

هل رأيت في حياتك -قبل عناق خروشوف وأيزنهاور -الدولار الأمريكي مع الروبل الروسي والإسترليني والروبية الهندية والسيلانية والإندونيسية والكب اللاوسي والجنيه المصري .كل هؤلاء معًا على منضدة واحدة؟!

هذا من المناظر المألوفة هنا في مطار سنغافورة، فهناك تجد رجلًا حافيًا يغير لك كل أنواع العملات وبسهولة جدًّا.

* * *

البوليس هنا يرى الناس يملئون جيوبهم بكل أنواع العملات المهربة من كل بلد في الدنيا ..ولا يفتح فمه بكلمة واحدة ..فسنغافورة مدينة للتهريب.

* * *

وفي استطاعتك أن تأخذ التاكسي من المطار إلى أي بنك وتضع فيه كل أموالك وتحولها إلى أي بلد في العالم في عشر دقائق ..اغمز بعينيك لأي رجل صيني والباقي يتولاه هو بعناية، وعناية أجمل بنات الصين.

لقد ظننت أن كل هؤلاء الفتيات اللاتي تمشين بالألوف ورائي بسبب »الغمز «المتواصل من عيني، فقد أصيبت عيناي بالتهاب، جعلهما تذرفان الدمع طول النهار.

وبعد ذلك اكتشفت أنهن في طريقهن إلى حفلة في الفندق الذي أنزل فيه!

* * *

إندونيسيا لا مكان لي؟!

وجدت نفسي فجأة على طائرة صغيرة تابعة لشركة خطوط الملايو ..وابتسمت المضيفة، وقالت :مع السلامة.

والحقيقة أنني لم أجد نفسي فجأة، وإنما عندما دخلت الطائرة أحسست أنني انعزلت تمامًا عن الجزيرة الحلوة والمدينة الحلوة والأشياء التي تتلألأ كعيون أبناء الصين وكأسنانهم وكالزراير في فساتين بنات الصين..

وكان الكرسي الذي أجلس فيه ضيقًا ..كأنه فستان محزق .أو كأنه كرسي صيني ..أو كأنه دعوة عملية لأن أخس ولو قليلاً.

في هذا الجو المحزق وجدت نفسي..

وتحركت الطائرة واختفت الابتسامات ووجدت عيني في قفا الذي أمامي ..القفا نظيف والحلاقة عالية جدًّا ..فشعر الرأس يبدأ على ارتفاع شبر من ياقة القميص .وقبل أن ألعن ميوعة الشباب في هذه المنطقة وجدت أن القفا الذي أمامي هو رجل عجوز مع أن كل شعره أسود وأسنانه بيضاء ..عجيبة!

وفي مطار جاكرتا وجدت المناظر التقليدية التي لا تعجب ولا تسر ..وجدت أعمال التفتيش على أشدها .لقد رأيت سائحًا أمريكيًّا نزعوا ملابسه من الحقائب ..ونزعوا قميصه من البنطلون .وتوقعت أن تواري السيدات وجوههن بعد أن يتولى رجال الجمارك نزع بنطلون الرجل .لولا أن الأمريكي مال على الرجل وهمس في أذنه بشيء ضحك له الأمريكي فقط .وتشكك فيه الرجل الإندونيسي.

لقد كان الأمريكي يرتدي القميص والبنطلون على اللحم!

ولا أعرف سر اختفاء الأمريكي بعد ذلك، هل سمحوا له بالخروج؟ أم أنهم يتولون تفتيشه بصورة »أعمق «في إحدى الغرف الملحقة بالمطار..

شيء فظيع!

ووجدت نفسي في إندونيسيا ..أي على عتبة ثلاثة آلاف جزيرة .الجزيرة التي وضعت فيها قدمي اسمها جزيرة جاوة .وجاكرتا هي عاصمة كل إندونيسيا .وهذه الجزيرة بها سبعون مليونًا من المسلمين، إندونيسيا كلها 120مليونًا .وليس بين هؤلاء المسلمين جميعًا واحد يمد يده إلى الغريب الذي جاء من بلاد الأزهر الشريف ويأخذ عنه حقائبه، أو يدله على طريقة يتفاهم بها مع أحد .فالناس هنا يتكلمون لغتهم طبعًا والقليل جدًّا منهم يعرف الإنجليزية .ويظهر أن كلمة مصر معناها أيضًا مصر في لغة إندونيسيا ولكن ينطقونها بشكل آخر..

أنا الآن ملطوع أمام باب المطار .فقد سمحوا لي بالخروج؛ فأنا مصري وهذا يكفي .فهم هنا من أعز الأصدقاء .وأنا أعتقد أن خروجي من المطار، بعد أن رأيت ما فعلوه بالأمريكي منتهى الترحيب .يكفي أنهم لم يضربوني قلمين وشلوتين ..يكفي أنهم لم يجعلوني فرجة لمن يساوي ولمن لا يساوي، ولم أجد حولي أحدًا يساوي شيئًا!

وخرجت أجر كرامتي وأحشر نفسي بين الناس..

والعربات قليلة جدًّا ولكنها مليئة بالناس.

ومشكلتي واضحة جدًّا وهي كيف أصل إلى أي فندق ومن هذا الفندق أتصل بالسفارة.

وفي هذه الأثناء ظهر رجل كنت قد هززت له رأسي في الطائرة .ويبدو أن هذه الهزة لها معنى خاص .ويبدو أن هذا المعنى الخاص كان بعيد الأثر .ولو سألتني لماذا هززت رأسي لعرفت أن السبب هو أنني اصطدمت به وكدت أوقع المنظار من فوق أنفه وألقي به تحت قدمي -تحت سبعين كيلوجرامًا هي وزني، ليحمله بعد لحظة واحدة، حفنة من الدقيق الأبيض..

وجاء الرجل ودعاني إلى السيارة التي ستقله إلى الفندق ..إذن هذا الرجل قد حجز فندقًا .فهو من أبناء الملايو وكثير التردد على إندونيسيا، فله فيها أعمال كثيرة .إنه رجل يشتغل بالسينما والملاهي والألعاب الرياضية.

وإلى جواره جلست في السيارة .وأمامي أناس كالفيلة وورائي أيضًا ناس كالأبقار، كلهم ضخام الأجسام .فهؤلاء هم الرياضيون، أو هم السيرك الذي يتجول به من دولة إلى دولة .ولما عرف أنني مصري رأيت السعادة على وجهه واعتدل في جلسته ليبدي لي إعجابه ..أو أسباب إعجابه بمصر وأبناء مصر .وكل الذي توقعت أن يقوله لم يقل منه شيئًا واحدًا ..فلا عرف الأهرام ولا لاحظ وجه الشبه بين أنفه المطبق وأنف أبي الهول ولا بين جلسته الآن على المقعد وبين الكاتب المصري الجالس القرفصاء..

وإنما قال لي بحماس :لقد رأيت سامية جمال!

فسألته :إن كانت سامية جمال جاءت هنا؟

وكان رده :لا..

وسألته :إن كان هو سافر إلى مصر..

وكان جوابه :لا ..رأيتها في أحد الأفلام.

ومن حركة شفتيه أدركت طعم سامية جمال في فمه .ومن بريق عينيه أدركت انعكاس ساقيها اللامعتين ..ومن اهتزازته في مقعده .أدركت كم هي مثيرة بالنسبة لهذا الرجل، ومن تراجعه إلى الخلف تخيلت مساحة السرير الذي يتمنى أن يتمرغ عليه!

وقال لي إن حكومة الملايو منعت أفلامها المثيرة .وعرفت فيما بعد أن الرقابة في إندونيسيا تحذف رقصات كاريوكا وسامية جمال .أما السبب فهو أن ظهور هذه الرقصات يصدم الشعور العام هنا؛ فالناس يعتقدون أن كل ما تصدره مصر هو أفلام دينية وتفسيرات لكتاب الله ..وإذا ظهرت هذه الرقصات .فإن الجمهور لا يحب أن يضع هؤلاء الراقصات بين آيات الله وأحاديث رسوله ..إلا إذا كان الغرض من ظهورهن هو بيان الطريق اللذيذ الذي يؤدي إلى جهنم، وبئس المصير!

قال لي هذا الرجل الرياضي إنه حدث في الملايو أن شاهد الناس أحد الأفلام المصرية الذي يتحدث عن بطولات العرب وكيف أن الناس يعتبرونها نوعًا من الحج، ولذلك فبعضهم يدخل السينما وقد خلع الحذاء ..ومعظم هذه الأفلام قد سقطت في مصر سقوطًا مريعًا ولكنهم في الملايو يرونها بصورة أخرى لحسن الحظ.

عندما انفعل هذا الرجل في استجوابي عن راقصات مصر .أدرك أن جهلي بهن واضح، بدأ يشك في أنني مصري .ولذلك قررت على الفور أن أروي قصصًا شخصية جدًّا عن راقصات مصر وعن علاقاتي بهن وغرامياتي، وليسامحني الله في كل ما قلت .فلم أكن أريد سوى أن أقدم أوراق اعتمادي لهذا الرجل ..وإلا تسليته حتى نصل إلى الفندق، وأنا حسن النية جدًّا ..وأنا لن أعتذر لراقصات مصر، فقد تحدثت فقط عن حاضرهن ومستقبلهن، والله يعلم أنني لم أشر إلى ماضيهن!

فالماضي للتاريخ، والحاضر لهن، والمستقبل للجميع!

نسيت أن أقول إنني كنت أرفع صوتي بالكلام ليتمكن من سماعي كل هؤلاء الوحوش الذين أرغموني على وضع يدي في جيوبي، فقد ضغطوا عليها حتى كادت تتحول إلى كفتة .ويظهر أن من عادة هؤلاء الوحوش الآدمية أنني إذا قلت شيئًا أعجبهم، عندما يترجم لهم، فإنهم يسحبون يدي ويصافحونها بعنف إعجابًا بما قلت .ولعل هذا هو السبب في أنني أنكرت صلتي بأية راقصة في مصر، أو فنانة عربية.

ووقفت السيارة وقبلها وقف قلبي أيضًا..

وكان الفندق اسمه »ديزاند «وهو الفندق الوحيد في العاصمة .والذي تحتكره معظم السفارات .ومن النادر أن يجد فيه الإنسان مكانًا إذا لم يكن قد حجز ذلك من قبل، والحجز ممكن .ولكن المشكلة هي »من قبل ..«من قبل كم يومًا أو كم شهرًا!

تركني الرجل لأدبر شأني .فسألت عن غرفة لي فلم أجد ..وقال لي موظف الاستعلامات في استنكار شديد :كيف يمكن أن تجد غرفة الآن؟ !إن أقرب غرفة يمكن أن أحجزها لك تخلو بعد أربعة أسابيع!

ولا ينصحني بأن أحجزها لأنها مخنوقة، وهو يفضل غرفة أخرى مطلة على الشارع، وهي ستخلو بعد شهرين!

وأخيرًا عثر على غرفة عندما قلت له إنني مصري ولا أعرف أحدًا هنا، فيما عدا موظفي السفارة الذين لا أعرفهم .وإن كان من السهل أن أتصل بهم وأطمع في مساعدتهم.

وصعدت السلالم وانفتح الباب عن غرفة في حجم ثلاثة توابيت فرعونية ..وأحسست على الفور أنني أحد قدماء المصريين ..سأتمدد في تابوت وأضع ملابسي في تابوت وطعامي في تابوت ثالث ..ولست في حاجة إلى دورة مياه، فالموتى لا يغتسلون .لأن الموت قد طهرهم من كل ما هو جسد .أي من كل ما هو عرق وتراب وقبلات!

وليست فيها مراوح ولا تكييف، مع أن الأرض هنا في مستوى سطح البحر .وإنني على خط 6جنوب خط الاستواء .أي على نفس الامتداد بين كولمبو ونصف جزر المالديف ..فالدنيا حارة جدًّا ..والرطوبة تصل إلى 80و.90%

وفي الغرفة -والله العظيم أقول الحق -يوجد سرير صغير، والسرير من شدة الخجل التصق بالحائط ..تمامًا كما يفعل المارة عندنا لسبب ما!

وتمنيت أن أنام أمام باب اللوكاندة!

وابتلعت هذه »الأمنية «بكوب من الشراب بارد، لم يعجبني طعمه، ولكني مع ذلك شربته دون أن أعرف طعمه إلا عند آخر قطرة .كنت أظن أن)الأمنية (هي عبارة عن أقراص شديدة المرارة، وأن هذا السائل سيحملها إلى أعماقي دون أن أشعر بطعمها ولكن جف ريقي من جديد ولم أعد أشعر إلا بطعم هذه الأمنية المريرة!

وتذكرت ما دار بيني وبين أحد الأصدقاء في القاهرة عندما سألني :هل تسافر إلى الهند وإندونيسيا؟

ولم يشأ أن يتوقف عند هذا السؤال وإنما مضى يقول :في هذا الجو الحار ..ووسط هذه الأمراض التي لا حد لها؟

قبل أن أقول »يا ريت«، راح يضاعف من مخاوفي بقوله :هل تقوم بهذه المغامرة؟

وكأنني لم أسمع إلا السؤال الأول فقلت مترددًا وفي رأسي صور مهرجانات السينما التي تقام في البندقية وفي برلين وفي كان ونيس وسان سباستيان وصور وذكريات وآمال جديدة ورغبات في الهرب ..ثم فرحتي ببلاد لم أرها كالهند وهي بلاد حارة وغريبة وعجيبة .واعتقادي أن التاريخ الجديد سيكتب هنا في آسيا .وأن الخطر القادم سيكون من الصين ومن الهند، وأملي في أن وزني سينقص ولو خمسة كيلو ..فأنا وزني الآن 82كيلو وأريد أن أصل بأية طريقة إلى 78أو 79ولا بد أن حرارة هذه البلاد والتعب ..لا بد أن هذا كله سيحقق لي هذا الحلم .وكان ردي:

أ ..ر ..و ..ح!

ولم أجد في كل هذه البلاد الحارة إلا كل الوسائل الناجحة لزيادة الوزن، فالجو حار جدًّا، وهذا يجعلك تشرب الكثير من السوائل ..ويجعل المشي صعبًا عليك ليلًا ونهارًا ..فلا بد من السيارة ..وهذه البلاد كلها تأكل الأرز .وهذه البلاد الحارة تصيب الكبد والمعدة بكسل شديد .فلا بد أن تضع في طعامك بعض الشطة .والشطة تفتح الشهية فتجعلك تأكل أكثر وأكثر .ثم إن هذه البلاد كلها لا تسهر الليل .وإنما تنام من الساعة الثامنة أو التاسعة على الأكثر .ولا يوجد هنا أي نوع من أنواع الملاهي الليلية ..وأنا من الذين تعودوا على السهر على الأقل حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحًا كل يوم ..وكلما وجدت نفسي في حالة ضيق أو غيظ احترقت كميات السكر الموجودة في دمي وأحسست بالجوع وعدت إلى الطعام من جديد .وهناك أناس إذا غضبوا لا يأكلون وآخرون إذا غضبوا أكلوا ..ولم يكن للطعام أي معنى .وأنا من هؤلاء وكأننا -نحن الذين إذا غضبنا أكلنا -ننتقم من الذين أغضبونا ونرفزونا فنأكلهم!

وتكون النتيجة هي زيادة كمية الأرز ونقصانًا في الحركة وسوء هضم..

ونحاول أن نقضي عليه بزجاجات الصودا -وهذا سائل أيضًا -أو بأملاح الفواكه -وهذا سائل أيضًا -أو بتناول كميات من الزبدة الطازة وهي أحسن وسيلة للسمنة!

وسألت عن السبب الذي من أجله لا يصاب الناس بسمنة في الهند أو سيلان أو حتى هنا في إندونيسيا، مع أنهم يأكلون بالضبط ما نأكله وأكثر ..فلماذا؟

قيل لي إنهم يأكلون الأرز بغير سمن أو زيت ..وجدت نفسي عاجزًا عن أكله .لأن رائحته فظيعة .وحتى أكله بالزيت صعب جدًّا لأنهم يطبخونه بزيت جوز الهند .وطعمه حلو .ولأنهم لا يشربون الكثير من الماء ويكتفون بالشاي .وحاولت ذلك وعجزت ..فنحن نشرب الماء كثيرًا في بلادنا ..الإكثار من الشاي يسيء إلى الهضم .ويصيبني بالأرق .ولأنهم يمشون كثيرًا جدًّا والشمس لا تضايقهم ..وهذا ما لا أستطيع أن أفعله.

ولكن قررت في إندونيسيا أن أبدأ تجربة جديدة وهي أن أمتنع عن الأرز وعن السوائل وأن أمشي كثيرًا وأنام قليلاً ..ومن اليوم الأول عدلت عن هذا القرار، فقد دعاني ملحقنا الثقافي إلى الغداء ورأيت من الذوق أن آكل معه ..وأكلت وكنت جائعًا .وشربت كمية من السوائل تكفي لتبريد ثلاث سيارات في طريقها إلى الإسكندرية بالطريق الصحراوي ..وفي العشاء كان كل الجالسين معي من المواطنين .ورأيت أن الذوق يقضي بأن أكون لطيفًا وأن يمتد فمي إلى كل يد تحمل طبقًا من الأرز بالكاري، وطبقًا من اللحم بالشطة، وطبقًا من السلطة بالفلفل .وكوبًا من الماء بالبعوض .وكوبًا من الشاي بلا سكر.

وفي اليوم الثاني نسيت هذا القرار تمامًا..

نسيت؛ لأن الإنسان ينسى كل شيء يكرهه أو يضايقه ..فالنسيان هو »الكماشة «التي تخلع المسامير من أحذية حياتنا ونحن لا ندري ..نسيت لأنني مشغول بأشياء أخرى، هذه الأشياء تضايقني وتقلبني في فراشي كاللحم في النار .وهذا يضايقني مرة أخرى .وكل الذي يضايقني يحرق السكريات في جسمي، وجسمي لا يغفل عن مطالبه .فهو يطلب التعويض سرًا، والتعويض لا يكون إلا بالطعام.

فإنني كلما تضايقت من كثرة الطعام ازدادت رغبتي إليه..

كأنني قررت أن أمتنع عن الأكل لأسباب جسمية.

والنتيجة :شجرة جميز انضمت سرًا إلى »الجمعية السرية «لأشجار الجميز في القاهرة!

وفي اليوم التالي دعاني أبطال المصارعة إلى حضور التمرينات التي تسبق المباراة ..لماذا دعوني؟ لأنني أصبحت صديقًا لهم .ولأنني صحفي من بلاد بعيدة، ولأنهم يتفاءلون بأول صديق .ويبدو أنهم فهموا أنني مهتم بالرياضة ولا أعرف إن كانوا قد فهموا أنني من المعجبين بأبطال المصارعة، لا أدري، فأنا لا أعرف لغتهم، والرجل الذي يترجم لهم قد سافر إلى أقصى الجنوب ليقوم بالدعاية لهم.

وجاءت بطاقة الدعوة .وذهبت إلى أحد الأندية الصغيرة ودهشت عندما وجدت جمهورًا لا يقل عن مائة من الرياضيين .وعندما دخلت توقف اللعب وامتدت الأيدي تصافحني من وراء الجدران المنخفضة .وجلست في جانب ..ولكن فوجئت بمقعد فخم قد وضع لي ..وبدأ الفأر يلعب في عبي ..وبعد تزايد عدد الفئران عندما وقف واحد منهم وأعلن بعبارة قوية مدوية شيئًا لم أفهمه ..وبعد ذلك رأيت العيون تتجه ناحيتي وتبتسم وتنتظر مني أن أقول شيئًا، ووقفوا ووقفت وابتسمت وأنا لا أفهم وقلت بالإنجليزية :ألا يوجد بينكم واحد يفهم الإنجليزية!

وسكت الرياضيون لحظة ..وتوقف اللعب نهائيًا .ولم أر أية دلالة من دلالات الفهم على وجوههم ..وبعد ذلك توالى التصفيق ..ولم أفهم وظللت واقفًا وظلوا جالسين ..ومعنى ذلك أنني يجب أن أخطب ..أن أقول فيهم كلمة ..أحييهم .أعبر لهم عن حيرتي وخيبة أملي ووقعتي التي لم تخطر لي على بال!

وفي دوخة وذهول أعتقد أنني قلت كلامًا شبيهًا بهذا:

»أيها الأصدقاء ..لا بد أن هناك خطأ .فأنا لست من الرياضيين ..وإنما أنا أزعم في بلادنا أنني ألعب التنس ..وأقسم أنني نسيت هذه اللعبة ..فقد حاولت أن ألعب التنس منذ أسبوعين في أعالي جبال سيلان مع جماعة من المهندسين ..وسقطت على الأرض ..وأكلت الرمال جانبًا من جلد يدي ..وهوه انا لو كنت غاوي رياضة معقول أغوى رياضة زي دي؟ !شوفوا الراجل أبو كرش ده ..شوف الراجل اللي بيبرق ده ..شوف الراجل الغرقان في العرق ..شوف الراجل اللي عاوز ياكلني ده ..الحقوني ..مفيش حد فيكم بيعرف عربي ..عاوز أهرب من الناس ..عاوز أجري أريد الخلاص ..الحرية ..مرديكا مرديكا.«..

وكلمة مرديكا معناها بالإندونيسية :الحرية..

وفوجئت بأن الناس رددوا ورائي :مرديكا ..مرديكا!

وفي ذهول تام جلست أستريح وأستعد للهرب بأية صورة..

ولكن فوجئت بمن يضع يده على كتفي ..إنه رجل في الخمسين من عمره لطيف، على وجهه ابتسامة ترحب بك، بل تدعوك إلى الغداء والعشاء والإقامة، ابتسامة كريمة جدًا، وقال :اسمح لي أيها السيد العزيز.

وهنا دخت حقيقة..

وأعتقد أنه قال :أنا أترجم كلمتك الدقيقة إلى الإندونيسية.

ولم أستطع النظر إلى وجوههم ..وأعتقد أنني خرجت كما يخرج السكران طينة من الكباريه عائدًا إلى بيته!

* * *

ما لا يعجب سيدات مصر!

* * *

ولحسن حظي انتقلت إلى بيت صديقي -منذ ساعات -ملحقنا الثقافي الدكتور محمد رضوان ..ولحسن حظي مرة أخرى كانت زوجته وأولاده لا يزالون في القاهرة ولذلك وجدت لي مكانًا في بيته .وجدت لي غرفة وسريرًا وصديقًا أتسلى معه .وأعرف منه الكثير عن أحوال إندونيسيا وأهل إندونيسيا الطيبين الدائمي الضحك..

وأشهد أنني ما كرهت الأرز والدجاج في حياتي كما كرهتهما في بيت هذا الصديق، فالأرز كثير وفي كل ساعات النهار والليل .والدجاج رخيص وكثير أيضًا .والطريقة التي تقدم بها الخادمة هذا الطعام تضايقني جدًّا ..وبعد ذلك لم تضايقني ..ولكني لم أحب الأرز والدجاج .والخادمة فتاة سمراء إندونيسية ..ولكنها إندونيسية جدًّا في كل ملامحها ..في إندونيسيا أناس من أصل صيني وآخرون من أصل ياباني، وأناس من أبناء حضرموت .ومن أصول عربية .وعلى فكرة الفتاة الإندونيسية تحب الرجل العربي .لا أعرف السبب .ربما كان السبب دينيًّا .مع أن العرب الذين يترددون على هذه البلاد ليسوا متدينين إلى هذه الدرجة!

والخادمة قصيرة القامة نظيفة جدًّا، فهي تستحم ثلاث أو أربع مرات في اليوم .وربما كان استحمام خادمة ليس شيئًا له أهمية الآن .ولكن المرأة الإندونيسية والرجل أيضًا نظيف .وهم يلبسون الملابس على اللحم .وحتى لا تلتصق هذه الملابس بأجسامهم فإنهم يغسلونها في النشا وبذلك تكون متباعدة عن الجسم .والسيدة المصرية عندما ترى الفتاة الإندونيسية لأول مرة -وقد حدث هذا -يرتفع قلبها ولا ينزل إلا بصعوبة .فهي رشيقة حلوة وبسيطة .وبشرتها كخد التفاحة ملساء ناعمة مشدودة .ثم إنها مختصرة أو أميل إلى النحافة مع أنها تأكل الأرز واللحم والفواكه .ويظهر أن طريقة طهو الأرز هنا هي التي تقطع نفس الأرز وتخلصه تمامًا من المواد النشوية ..فلا يبقى منه إلا شيء لا هو عجين ولا هو أرز .ثم إنهم لا يعرفون السمن البلدي ولا الزبدة ولا المواد الدهنية التي نضعها في طعامنا ..وكلمة الأكل »المسبك« ليس لها معنى عندهم .إنها غريبة على الآذان كغرابة أن نقول لهم :إنه يوجد بلد في العالم ليس به بعوض!

والفتاة مثلها الأعلى أن تكون من النوع الذي نسميه في مصر :العرسى!

وهذه الخادمة من الممكن أن تستحم وتغسل ملابسها عيني عينك ..ومن الممكن أيضًا أن يكون لهذه الخادمة صديق .وهذا الصديق تدعوه إلى غرفتها ليتناول بعض الطعام .بعض طعامك ..ممكن جدًّا ..ومن الأدب أن تسكت ..ومن التقدم أن تبدو لها متسامحًا .ومن الحرية أن تحترم حريتها!

وطبعًا كل هذا لا يعجب أية سيدة مصرية..

ولذلك لا تكاد السيدات المصريات يصلن إلى هذه البلاد حتى يبدأ موسم فصل الخادمات بالجملة ..أي موسم اقتلاع أغصان البان، وزراعة أشجار الجميز!

وعندما دعيت إلى حفلات خاصة لاحظت أن الفتاة الإندونيسية لا تأكل إلا قليلًا جدًّا .وتندهش إذا عرفت أنها تعيش على الحد الأدنى من الطعام .ملعقة من الأرز وقطعة من اللحم وبعض الفاكهة والقليل جدًّا من الماء أو من السوائل .فهي تعلم أنها رشيقة وهي تحرص على ذلك.

والحياة في مدينة جاكرتا ليست مسلية بالمرة .فلا يوجد بها لهو ولا مرح .وإنما يوجد بها فندق واحد .وفي مواجهة هذا الفندق يوجد مطعم.

ويوجد الحي الصيني .وهو متعة.

فأبناء الصين يمثلون النشاط التجاري والحياة والمرح والأرستقراطية .إن عددهم في كل إندونيسيا حوالي ثلاثة ملايين، ولكنهم أصحاب المصالح الحقيقية ..إنهم الأقلية الساحقة ..والإندونيسيون هم الأغلبية المسحوقة ..وهم أصحاب المصانع والقصور والمطاعم والشركات والسيارات .وهم الذين يتولون التهريب من الثلاثة آلاف جزيرة وإليها إلى سنغافورة وهونج كونج والفلبين!..

وفي الحي الصيني تجد الدنيا كلها ..تجد صورة صغيرة من سنغافورة الصينية ..تجد السلع من كل لون ..تجد المرح ..كل ألوان المرح ..تجد الأطعمة الغريبة ..تجد دور السينما ..تجد كباريهات الرقص..

ولعلك تلاحظ أنني قلت كباريهات الرقص، فأنا لا أعرف كيف أسمي اثنين يرقصان معًا ..ومتباعدان جدًّا .ولا يكلم أحدهما الآخر ثم ينصرفان .فالشاب يتقدم ويقطع تذكرة وتتقدم له فتاة ترقص معه في مكان عام مفتوح وتنتهي الرقصة ويذهب كل واحد لحاله .أو هكذا يبدو لنا!

وهذا طبيعي في الرقص، ما دام الرجال يلبسون الملابس على اللحم، والنساء كذلك!

وكل شيء تشتريه هنا يجب أن تفاصل فيه على قدر ما تستطيع، فلا توجد أسعار محددة لأي شيء!

بما في ذلك الفتاة التي تطلبها للرقص على مسافة بعيدة منها!

وفي تلك الأيام شاهدت فيلمًا مصريًّا عن بورسعيد..

لقد ظل هذا الفيلم معروضًا شهورًا طويلة ..واحتجت السفارة الفرنسية على عرضه وظل الفيلم معروضًا .ورأيت الناس يقفون ساعات لكي يحجزوا لهم مقعدًا، ولم أتمكن من مشاهدة هذا الفيلم، فأنا أعرف بورسعيد، وأعرف كيف كانت لنا، وكيف أصبحت لنا .من الأفضل أن أترك مكاني لمن لا يعرفها!

وكنت أنتقل في سيارات الأصدقاء ..ولولا ذلك لاضطررت إلى أن أركب البيتشا ..وهي عربة يجرها شاب ..أو عربة تتحرك بقوة ساقي شاب وهو يبدل على دراجته ..وهذه هي وسيلة المواصلات الوحيدة في البلاد .ومن الغريب -أو ليس غريبًا -أن هذه البيتشا يملكها رجل صيني!

ربما بدت هذه الملحوظة غير مهمة بالنسبة لك، ولكي أبين لك غرابتها أقول لك :تصور أن رجلًا يهوديًّا هو الذي يملك الترام والمترو والأتوبيس في القاهرة الآن؟!

وبعد أسبوع أمضيته في إندونيسيا، تجمعت عندي كل المؤهلات -فيما عدا الشكل -التي تجعلني إندونيسيًّا مائة في المائة .فأنا أحببت البلاد وأحببت أهلها .وأكلت أرزها ولحمها .ولم أعد أخاف من غارات الملايين من بعوضها، وأركب البيتشا ..وأهم من هذا كله فأنا أضحك بسبب ومن غير سبب ..ومن غير سبب أكثر!

ثم إن هذه البلاد تحتفل بأعيادها يوم 17أغسطس ..ولذلك فأعيادها على مسافة 24ساعة من عيد ميلادي ..وكل شيء يدل على أن هذا العيد سيكون شيئًا خطيرًا .وقد تلقيت دعوة من وزارة الاستعلامات تدعوني إلى مشاهدة الرئيس سوكارنو وهو يخطب، ثم مشاهدة الحفل الكبير الذي سيعقب ذلك.

ولم أتمكن من متابعة ما تنشره الصحف في ذلك الوقت ..أما الصحف الإنجليزية فهي قليلة والصحف الأمريكية أيضًا، وكذلك الكتب الأجنبية..

وجاء يوم »توجوبلاس «ومعناها 17أغسطس، واحتشدت الشعوب الإندونيسية من كل الجزر..

واستعرضت قوات الجيش ..ومن الغريب أن زوجة أحد الوزراء كانت ضمن الحرس الوطني..

وكانت الشمس أكثر التهابًا من حماس الجماهير..

وخطب سوكارنو ..وفي خطابه عبارات كثيرة باللغات الأوربية .وإشارة
إلى »الجحيم «و»المطهر «و»الفردوس «للشاعر الإيطالي دانتي الليجيري.

ووصف سوكارنو المراحل التي مرت بها الثورة ..فقال إنها اجتازت)جحيم (الاستعمار ودخلت
في)التطهير (الاشتراكي وهي على أبواب)الفردوس (الموعود.

وتذكرت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استشهد في كتابه »فلسفة الثورة «بمسرحية »ست شخصيات تبحث عن مؤلف «للأديب الإيطالي لويجي بيراندللو ..فقد تصور الرئيس عبد الناصر هو وزملاؤه من الثوار أنهم كانوا مثل ست شخصيات عندهم أفكار وعندهم حماس وصدق، ولكن ينقصهم البرنامج والخطة..

وطال العرض العسكري وشوتنا أشعة الشمس ..وخرجت ألهث..

وفي الليل شاهدنا الحفل الساهر..

لقد كان استعراضًا لألوان الرقص الشعبي من كل الجزر الإندونيسية ..ألوان وراء ألوان ..والفتيات كل واحدة منهن كالثعبان والموسيقى كالمسامير أو كالنمل قد تسلل إلى جسمها فيقرصها أحيانًا بإيقاع ونظام موسيقي ..وأحيانًا تكون لسعات النمل بصورة مرتجلة.

ثم صفق الناس إلى غير نهاية عندما ظهرت فتاة ورقصت نصف عارية أو ربع عارية، وكان رقصها طويلًا جدًّا ..إنها ابنة سوكارنو!

والرقص من معالم الحياة والثقافة في إندونيسيا.

إن سوكارنو نفسه لا يجد أي حرج في أن يرقص ..مع أنه في الخطبة هاجم الميوعة وهاجم الروك آندرول بالذات .ولم يكن التويست قد ظهر بعد!

وأذكر أن الصديق الأديب عبد الحميد جودة السحار عندما ذهب ضمن وفد ثقافي إلى إندونيسيا سألوه في المطار :وأين الراقصات؟

وزالت دهشته عندما عرف أن الرقص من أهم الفنون الشعبية.

وأذكر أن سفيرنا أقام حفلة في بيته وحضر الحفلة عدد كبير من الوزراء ثم حضرها عدد كبير من أبناء الجزر الذين كانوا يطبلون ويزمرون وهم جالسون على الأرض ..وقد اندهشت عندما نهض أحد العازفين وطلب من زوجة أحد الوزراء، وكان وزير الأوقاف، أن تسمح له بأن يرقص معها ..ورقصت زوجة الوزير مع ابن الغفير .وعندما أحسست بدوخة كنت أظن أن الدنيا انقلبت، وأن الدوخة التي أصابتني تشبه سلندرات مطابع الصحف وأنها إن شاء الله ستكون فضيحة بجلاجل!

ولكن هذه الدوخة كانت شخصية جدًّا .وأصابتني وحدي .أما الإندونيسيون فلم يفعلوا أكثر من الضحك والانشغال براقصات أخريات!

والمرأة هنا تستمتع بحريات أكثر..

المرأة مقياس لحضارة أي مجتمع.

هل هي سيدة؟ هل هي خادمة؟ هل تمشي وراء الرجل؟ إلى جواره؟ أمامه؟ إنها في أوربا تمشي إلى جواره .وفي أمريكا تمشي أمامه.

ومكانة المرأة تدل على عقلية الرجل ..لأن الرجل هو الذي يضع القوانين وهو الذي يطبقها.

ولا شيء يدل على عقلية الرجل ومدى ثقافته وتقدمه أو تأخره غير نظرته إلى المرأة.

وفي إندونيسيا أرى الرجل هنا يحترم المرأة ويجعلها تقف إلى جواره وأحيانًا يقدمها عليه .والمرأة الإندونيسية هي ست بيت تحب بيتها وتخدم زوجها .ولا ترى عيبًا في أن تكون ست البيت هي خادمة الزوج .وهي ليست خادمة بعقليتها، بل خادمة بوظيفتها .ولكن عندما تخرج إلى الشارع أو إلى الحفلات
فهي »ست «وهي »أخت ..«وهي محترمة..

وإندونيسيا تضع الفتى إلى جوار الفتاة في كل مراحل التعليم بما في ذلك المرحلة الثانوية -على عكس بلادنا ..وإندونيسيا بدأت هذه التجربة في ظل الاحتلال الياباني أي من سنة .1942ونجحت التجربة .ولا توجد في إندونيسيا جرائم خلقية .لا اغتصاب ولا اعتداء على الفتيات، لأن الفوارق بين الجنسين متلاشية .فالشاب يشارك الفتاة في كل مكان ..في البيت ..ولا أحد يعترض، وفي الشارع وفي المدرسة والحفلات وفي السينما ..والشاب الإندونيسي لا يعاكس الفتاة في الشارع ..بل إن الشاب الإندونيسي رقيق جدًّا .إنه من النوع الذي يعجب الفتاة في كل مكان .إنه خيالي شاعري رقيق..

لها أصدقاء .وبعض هؤلاء الأصدقاء يعرفهم أبوها .وينصحها أن تترك هذا وأن تمشي مع ذاك، ولكن الفتاة الإندونيسية تبقى محترمة في كل هذه الأحوال .ومن الممكن أن يذهب الصديق إلى بيت والدها .ومن الممكن أن يستأذن الوالد ويترك ابنته مع الصديق دون أن تشعر الفتاة أو أبوها بأي خوف أو ضيق ..أبدًا ..إنها مسألة عادية جدًّا.

ومن الممكن أن تجد أمام معظم بيوت إندونيسيا فتيات وفتيانًا يتكلمون وعلى وجوههم عبارات طويلة باهتة أو صارخة للحب والهيام..

سيدات إندونيسيا في دهشة من سيدات بلدنا اللاتي لا يظهرن في الحفلات الرسمية.

والحقيقة أن السيدة العربية تدهش للحريات التي تتمتع بها الفتاة الإندونيسية ..والبساطة التي تعيش فيها ..ولأن الصداقة والزمالة والحب مسألة عادية جدًّا لا تحتاج إلى قانون أو إلى تشريع.

والمرأة الإندونيسية تحب البيت والأولاد .وهي ككل النساء تريد أن تكون أمًّا وتفضل هذه الأمومة على أي عمل.

والمرأة الإندونيسية رشيقة أنيقة ..وجميلة .لا أعرف كم عدد الإندونيسيات في القاهرة .ولا أعرف ما هي ملامحهن، ولكن الذي أراه بالملايين فاتن ورائع ..إنها رشيقة تراها في الستين من عمرها فتبدو في الأربعين، لقد رأيت في منزل الصديق أحمد والي الذي كان ملحقًا صحفيًّا طاهية في الخامسة والستين ..رشيقة لا معجرة الوجه، تمشي على قدميها أميالًا كل يوم ..ليس لها كرش ..لا يوجد في جسمها ملليمتر من اللحم أزيد من اللازم..

والبلاد كلها غابات ..وفي الغابات يعيش الرجل والمرأة بلا فوارق ..فالغابة لكل الناس ..لا أحد يملك شيئًا..

وفي الغابات يختفي العشاق واللصوص ..وما أكثر العشاق، وما أكثر اللصوص!

* * *

جالان ..كون؟!

أعتذر عن عدم ذكر أسماء السادة المحترمين الذي اشتركوا في حضور هذه الجلسات فقد وعدت ..ووعد الصحفي دين عليه ..لقد كان السفير والملحق العسكري والملحق الصحفي والملحق الثقافي وزوجاتهم..

والمهم أنني رأيت بعيني ولم أسمع، وقد بدأ الفأر يلعب في عبي فعلاً .وبدأت أرى أن لعب الفأر معقول .ولم أعد أحاول أن أجعل من أفكاري مصايد لهذا الفأر، بل إنني أحاول أن أخطط عبي ليلعب الفأر على أسس رياضية صحيحة!

ولا أريد أن أؤثر في أحد قبل أن أروي الأشياء الغريبة التي رأيتها وحاولت أن أفهمها .ولم أصل بعد إلى رأي.

يظهر أن هناك روحًا أو نفسًا أو شيئًا مختلفًا عن الجسم .وإلا فما هو الفرق بين الميت والحي .هناك فارق طبعًا .هو هذه الحياة .ولكن ما هذه الحياة؟ نقول :نشاط ..طاقة ..حرارة .دورة للدم ..تفاعلات مستمرة ..لا تتوقف ليلًا ونهارًا.

ويظهر أن هذه الحياة أو النفس أو الروح لها وجود حقيقي خارج جسم الإنسان ..ولكن عندما تخرج أو تطرد أو تنطلق من الجسم فإنها تبقى متأثرة بهذا الجسم .فالجسم يشبه الثوب .وإذا كان الثوب مبللًا فسيترك أثره في الروح .وإذا كان من الحرير أو من الشوك أو من النار أو من القلق فإن الروح تبقى بعد الموت كذلك.

وإذا أنت حملت حقيبة ثقيلة لمدة ساعة أو خمس ساعات ..ثم وضعتها على الأرض، فإن ذراعك ستبقى متعبة كأنك لم تضع الحقيبة بعد .وإذا أنت ركبت باخرة يومًا أو شهرًا أو خمسين عامًا متواصلة، ثم نزلت منها إلى الشاطئ فستشعر بعد هبوطك إلى الشاطئ أن صوت البحر لا يزال في أذنيك وأن الأرض لا تزال تهتز تحتك..

ويبدو أن هذا هو الذي يحدث للروح ..فهي تعيش في سجن اسمه الجسم .وكل خلية حية في هذا السجن عبارة عن قيد، وعن سلسلة ..إنها ملايين السلاسل ..فإذا تم الإفراج عن الروح بالموت، فسيبقى أثر هذه السلاسل، هذه القيود، وستبقى الروح متأثرة بهذه القيود، بهذه الحياة التي قطعتها فوق سفينة قلقة ..سفينة بها عشرات الغرائز التي تشبه قطاع الطرق واللصوص..

يبدو لي هذا ...وإن كنت لا أعرف التفسير العلمي الدقيق لما رأيت..

* * *

والآن أدخل في الموضوع .لقد حدث هذا كله أمس في مدينة »بوجور «على مسافة 70كيلومترًا من جاكرتا ..البيت الذي نحن فيه الآن خليط من أبناء دمياط وجاكرتا .وكانت الساعة الرابعة عصرًا، وقد علمت أن هذا الوقت غير مناسب لإجراء هذه التجربة، والتجربة اسمها باللغة الإندونيسية »جالان كون«، ويقال إن معناها »الهيكل العظمي «ويقال ليس لها معنى.

وقد أصدرت الحكومة هنا قرارًا صريحًا بتحريم هذه التجربة .فقد شغل بها الطلبة عن مذاكرة الدروس، وقد تفرغت لها العائلات .وهي في إندونيسيا أكثر انتشارًا عن قراءة الفنجان وفتح الكوتشينة عندنا..

وفي استطاعتك أن تجربها في بيتك ..فلم أر أسهل ولا أعجب منها في حياتي..

هات سلة ..سلة عادية جدًّا .وضع فيها خشبة طويلة على هيئة صليب .وضع على هذا الصليب قميصًا .وفي أعلى القميص ارسم صورة وجه على ورقة، وضع في أعلى الرأس عودين من البخور.

ثم ضع في مقدمة السلة قلمًا من الرصاص، ضع القلم بين فتحات السلة، وعليك بعد ذلك أن تحمل السلة أنت وصديق لك على أطراف الأصابع .على أن يمسك زميل آخر بورقة أمام القلم، أطلق البخور، وردد كلمات :جالان كون ..جالان بيس ..ومن الممكن أن تقرأ الفاتحة أو أي كلام ديني..

هكذا سمعت..

بعد ذلك، أي بعد دقيقة سترى السلة تندفع إلى الأمام وتكتب بلغة الروح التي حلت في هذه السلة.

تستطيع أن تكلمها، أن تسألها :من أنت؟

وسترد عليك -كتابة -بلغتها..

اطلب منها الروح التي تريدها ..ستحضر حالاً..

ومن هذه الأرواح التي رأيت كتابتها روح رجل حشاش توفى في باب الشعرية اسمه »محمود صالح ..«إنه يروي النكت ..نكتًا قديمة جدًّا، لم نسمعها أبدًا، ويبدو أنه كان يعمل كناسًا أو بائعًا للخضر في القاهرة ..ثقافته لا تزيد على ذلك.

وقد لاحظت أن السلة تكتب بلغة عامية جدًّا.

ملحوظة :اللذان كانا يحملان السلة اثنان من الإندونيسيين ولا يعرفان كلمة عربية واحدة.

ثم طلب الحاضرون روح السيدة »روز اليوسف «ولم أكن موجودًا .فقد شتمت الحاضرين جميعًا.

وكتبت لهم :مفيش معاكم حد صحفي؟

فقالوا :لا..

كتبت :بلاش لعب عيال..

وطلبت منهم أن يصرفوها ..وقالوا لها :انصرفي.

وبعض الأرواح تطلب من الحاضرين أن يأذنوا لها بالبقاء .وبعضها يصر على البقاء.

ومن ضمن الأرواح روح رجل اسمه ناصر الدين ..وهو عصبي ..فهو يضرب السلة في وجوه الحاضرين .ويصر أن يكتب دائمًا..

وسئلت إحدى الأرواح :ألا يمكن أن تظهر الروح بدون سلة.

فأجابت :هل يمكن أن تمشي من غير ثوب..

طبعًا من الممكن .ولكن الأرواح يبدو أنها لا تعرف كل شيء ..وإنما هي تتحدث بتجاربها السابقة في الحياة.

* * *

ولا يوجد ممن يعتقدون في تحضير الأرواح أحد في إندونيسيا لا يسأل السلة عن صحته وعن حياته ..وعن مستقبله ..وعن مرضه وعن أحوال الناس الآخرين ..ومتى يسافر فلان ومتى تلد فلانة ومتى تتزوج فلانة .وهل فلان هذا طيب، وهل زوجته كذلك؟

كل أحوال الدنيا والدين، الكبيرة والصغيرة يسألون فيها هذه السلة..

وقد أصدرت الحكومة في إندونيسيا قرارًا بمنع استخدام هذه السلة إطلاقًا، وكان هذا القرار على أثر حادث غريب .فقد شاهد البوليس ثلاثة من الأطفال يحملون في أيديهم سلة ويمشون بها في الشارع وكان ذلك بعد منتصف الليل.

والذي حدث أن السلة كتبت لهم :أريد أن أذهب إلى بيت فلان.

وكان هذا البيت يبعد عن العاصمة عشرة كيلومترات .ولما ضبطهم البوليس مزق السلة واعتقل الأطفال الثلاثة.

وأصبحت هذه السلة ممنوعة.

* * *

وهناك تجربة أغرب من الجالان كون بزمان..

هذه التجربة رأيتها في بيت أستاذ جامعي تخرج في جامعة القاهرة، وعاش في القاهرة عشرين عامًا .والتجربة تحتاج إلى ضبط أعصاب أكثر..

اقفل الغرفة عليك .واجلس في الظلام واقرأ أية سورة من القرآن ..ولكن هذا الأستاذ قال لي إنه يجب اختيار بعض آيات من القرآن .وعندما تختارها اطلب من »خادم «الآية أن يحضر.

أما حضور خادم الآية .فقد كان بصورة غريبة ..إنه يضرب أي شيء في الغرفة ..يزحزح المنضدة أو يضرب الحائط .ولكن لا ترى شيئًا..

وامسك قطعة من الزجاج الأسود اللون واسأل هذا الخادم أو هذا الجني أية أسئلة، وانظر إلى الزجاجة ستجد الكتابة بلون لامع كأنها عقارب الساعة أو كأنها النيون..

أنا شخصيًّا رأيت هذا ..في أكثر من عشرين بيتًا..

ولم أجد بيتًا واحدًا لا تحضر فيه الأرواح أو العفاريت أو الجن المسلمون ويكتبون باللغة العربية .والكتابة واضحة جدًّا.

والكثير من الشعب الإندونيسي يؤمن بهذه الظواهر ويستخدمها في حياته اليومية..

قال لي هذا الأستاذ الجامعي أمام كل أعضاء السفارة المصرية هنا ..إنه يستطيع أن يجري هذه التجربة أمامي .وإنه يستطيع أن يكسر رجل أي إنسان الآن، وإنه يستطيع أن يكسر رجل أي حيوان بعد جلسة واحدة في غرفته هو.

بل إنه ذهب إلى إجراء تجربة على أحد أعضاء السلك الدبلوماسي العربي دون أن يقول له ..أو دون أن يعرف .ولكن التجربة كانت قاسية فأشفقنا منها ..لقد طلب منا أن نوافق على أن نجعله يوقظ هذا الدبلوماسي العربي في ساعة محددة من الليل .ويجعله ينهض من الفراش ويمسك ورقة وقلمًا ويكتب رسالة نعرفها نحن مقدمًا ..ويذهب بالرسالة ويضعها في مكان معين نعرفه نحن ..كل هذا وهو لا يعرف.

ورفضنا ..ولكنه يؤكد أنه يستطيع ذلك ..ويؤكد ألوف الإندونيسيين أنهم يفعلون ذلك في بيوتهم.

والزوج الذي يعرف أن زوجته تشتغل بتحضير الأرواح يخشى على نفسه منها .ولذلك يشتغل هو أيضًا بتحضير الأرواح ويسخر روحًا خاصة لحمايته من زوجته.

إنني لم أسمع مثل هذا العدد من قصص الأرواح في حياتي كلها.

أما النوم بعد هذه القصص، وأما الراحة بعد هذه الظواهر الغريبة المفزعة، فخرافة ..النوم هو أصعب شيء ولكن هؤلاء الناس ينامون وبعمق ..أما أنا فكان الله في عوني!

وظلت السلة حائرة بين أيدينا طول الليل .أو على الأصح ظلت الأرواح حائرة بين أيدينا طول الليل ..وكلنا يستدعي موتاه أو أقارب موتاه وينتظر وتهتز السلة وتترنح ..ويكتب القلم بلغة لا يعرفها الاثنان اللذان يحملان السلة.

واستدعينا سعد زغلول وبتهوفن وسيد درويش ونابليون وشفيقة القبطية وسارة برنار..

والسلة عادة تأخذ الأوضاع التي تناسب الروح التي تحل بها..

فعندما ظهرت روح بتهوفن اعتدلت السلة وراحت ترتجف بجنون .والذين يقولون »بجنون «يعرفون أن بتهوفن قد وصل إلى حالة الصمم التي أفضت إلى الجنون ..طبعًا واحد موسيقار مثل بتهوفن يصاب بالصمم لا بد أن يؤدي به ذلك إلى ما يشبه الجنون أو الجنون نفسه!

وعندما استدعوا روح شفيقة القبطية يؤكدون أن السلة كانت ترقص .على واحدة ونص ..أنا شخصيًّا لم أتبين ذلك بوضوح وإن كنت لا أستبعد.

وعندما ظهرت روح نابليون كانت السلة ثقيلة وشامخة كأنها مدفع .وأحس اللذان يحملان السلة بشيء من القرف كأنهما يريان خيول نابليون تدوس حرمات المساجد في القاهرة!

وسيد درويش عندما حل في السلة مالت إلى جانب ثم عادت واعتدلت وتساقطت على الجانب الآخر ..وتدلى القلم من السلة كأنه الغابة التي توضع في الجوزة ..ويستنتجون من ذلك أنه صحيح أن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات وأن الرجل لم ينكر ذلك عندما استدعوه!

* * *

لعبة مسلية يلعبها الناس في كل بلاد إندونيسيا.

أنا رأيت هذه الظاهرة ودارت مناقشات بهذا الشكل الغريب ودهشتي لم تنته ..وقد لاحظت السلة دهشتي واستنكاري ..وثارت وطالبت بإخراجي من الغرفة .وقالت إن وجودي يضايقها..

وقلت :إن حركتها تضايقني وتجعلني أشعر بشيء من القرف هو خلاصة الخوف والدهشة والاحتقار لها ولنفسي إذا صدقت شيئًا من هذه الخرافات.

ولكن كل هذا الكلام قرأته مكتوبًا أمامي..

فهاتوا »الثبت - «وهي كلمة عربية فصيحة ومعناها »السبت «أي السلة والقلم واسألوها أنتم!

* * *

اليوم 18أغسطس...

أحسست فجأة أنه لم يعد عندي ما أقوله ..خلاص ..القلم ريقه نشف والدنيا أمامي كلها بيضاء ..لقد تعبت عيناي من القراءة والكتابة ..كل شيء أبيض كأنني كنت أغمس القلم في سواد عيني ..فلم يعد سواد.

كنت إذا جلست إلى المكتب أحس أنني بكرش من كثرة المعلومات التي عندي .أما الآن فإنني أرى المكتب يزحف على بطني ويفصله عن جسمي فأحس كأنني تمثال نصفي استقر فوق الورق لا يكتب ولا يقرأ.

ولكن لا بد أن أكتب ..لا بد أن أقول شيئًا ..إن كل ما في رأسي هو بقايا أشياء ..في رأسي طفاية سجاير وكل ما فيها أعقاب ..رأسي براد شاي شربوه، ولم يبق فيه إلا التفل ..وقلمي هذا هو »بزبوز «البراد ..إنه مسدود ..وبين الحين والحين تنزل قطرة.

إنني أكتب هذه السطور وأبتسم..

إنها ابتسامة رجاء، ابتسامة دعاء، ابتسامة توسل ..ابتسامة هي بقايا ثقة في النفس ..ابتسامة الشحاذ للمارة في الشارع..

ولكن ولا فكرة في رأسي..

إنها ابتسامة تشبه اللمعان والبريق الذي يسبق التقاط الصور ..ابتسامة تضيء لأفكاري الطريق إلى الورق ..ابتسامة أطلقها قبل التقاط أفكاري الهاربة.

إن قلمي يلتوي في يدي ..وهذه الابتسامة تشبه »الجوهرة «التي تخرج من فم الثعبان لتضيء له الطريق إلى أوكار العصافير..

إنها تشبه المشاعل التي كانت تلقيها الطائرات قبل إصابة الهدف ومع ذلك ليست في رأسي فكرة واحدة..

لا عصافير، ولا صور، ولا أهداف ..لا شيء..

أريد أن أقول :إن اليوم هو عيد ميلادي.

طبعًا مسألة شخصية لا تهم أحدًا ..وإذا حاولت أن أجعل لها مناسبة فسأخترع قصة كفاح ..قصة اللبن الذي هزته الأيام حتى جعلته زبدة ..هذه الزبدة هي أنا وحياتي الآن..

قصة الحديد الذي دخل النار فأصبح صلبًا لامعًا طريًّا..

هل أقول كنت طالبًا فقيرًا من أب فقير ..كافح هذا الأب حتى أكمل تعليمي..

قصة ابن لأم مريضة تعبت وشقيت حتى تعلم ابنها وعمل.

لا أقول هذه القصة ولا أحبها وأرفضها فهي مليئة بالادعاءات ..فأولاً :أتصور أنني كنت فقيرًا وأنا اليوم غني .وهذا وهم..

ثانيًا :كأنني أقول إنني كنت لا شيء ثم أصبحت شيئًا ..وهذا وهم..

وثالثًا :كأنني أريد أن أقول إن المسافة بيني الآن وبين الماضي قد بعدت في الزمان وبعدت في المكان، وأنني لا بد أن أذكرها حتى لا ينسى الناس.

الناس؟ وهل هذا مما يعني الناس؟ إن أحدًا لا تعنيه هذه القصة..

ثم هناك وَهْم آخر وهو أنني قطعت الطريق وحدي دون مساعدة من أحد .أو دون حظ!

لا شيء قد تغير ..لا شيء ..فأنا لا أزال فقير النفس ..متسول العقل ..مهلهل القلب ..وأنا وأفكاري وعواطفي على باب الله!..

أما لماذا أكتب الآن ..فالسبب هو أنني أسجل مولدًا جديدًا..

مولدي الجديد..

فقد تلقيت من »مصطفى أمين وعلى أمين «ثلاث برقيات .كل واحدة منها هي شهادة ميلاد.

قالت البرقية الأولى :موضوعك عن الدلاي لاما ممتاز نشرناه في الصفحة الأولى من أخبار اليوم ..موضوعك عن مشكلة كيرالا منشور في الصفحة الأولى من أخبار اليوم ..وصورتك مع رئيس وزراء ولاية كيرالا منشورة على ثلاثة أعمدة في الصفحة الأولى ..أهنئك على نجاحك المتواصل الذي يقدره الجميع هنا.

والبرقية الثانية تقول :موضوعك عن عرابي باشا ممتاز أهنئك ولك أحسن التمنيات.

والبرقية الثالثة :موضوعك عن عرابي باشا ممتاز ستنشره آخر ساعة بصوره ووثائقه، أهنئك وأتمنى لك حظًّا سعيدًا.

لم أطفئ شمعة وإنما حملت هذه البرقيات وصنعت منها شمعة وأشعلتها هناك بعيدًا ..بعيدًا في أعماقي..

* * *

وانتهزت هذه الفرصة السعيدة، أو التي يجب أن تكون سعيدة، ودعوت عددًا من الأصدقاء إلى أن يتناولوا طعام الغداء على حسابي..

وليس معقولًا أن يقبلوا الدعوة ..فأنا ضيف عليهم .وقبلوا الدعوة ولكن بشرط أن أكون أنا على حسابهم .وهذا ما توقعته عندما دعوتهم طبعًا!

ولكنها حركة مكشوفة من جانبي كما فهمت .وأنا معذور فالفلوس لا تصل هنا إلا بصعوبة .والفلوس هنا لها أكثر من سعر .في البنك لها سعر ..وأمام البنك لها سعر ..وفي الشارع بعيدًا عن البنك لها سعر ..ولكن الروبية الإندونيسية لا قيمة لها إطلاقًا في أي بلد آخر ..إنها تشبه تذاكر الترام، لا يمكن الاستفادة منها إلا في ترام جاكرتا!

وذهبنا إلى المطاعم الصينية .وكانت هذه فكرتي وكنا خمسة :سيدات ورجالاً ..وجاء الجرسون الصيني وقدم لنا قائمة الطعام ..والحقيقة أنها قوائم الطعام..

وبدأت المناقشات الغريبة:

-من فضلك هات نمرة ..92خمس مرات..

هذا الرقم هو أحد مائة صنف مكتوبة على قائمة طعام طويلة جدًّا وباللغة الصينية وترجمتها بالإندونيسية.

-يعني إيه نمرة 92؟

-إنهم يضعون لكل طعام نمرة ..ونمرة 92هذه نوع من العصافير المشوية.

وبعد دقائق جاء الجرسون ومعه عشرات الأطباق ..الشوربة بالشطة أو الشطة بالشوربة وأكوام من الأعشاب من بينها أشجار الخيزران الخضراء المسلوقة ..وأعشاب أخرى تشبه البرسيم .وحشرات تشبه الأسماك التي توحمت على الجمبري ..وأكوام من الأرز المسلوق والمسحوق أو المعجون ..وبدأت المناقشة مرة أخرى:

-معقول ده عصافير؟

-طبعًا أمال يعني أرانب!

-أرانب يا شيخ بلاش قرف والنبي بلاش تجيب سيرة الأرانب أحسن نفسي تغم علي ..إنها تشبه الفئران.

-بلاش سيرة الفيران من فضلك ..أحسن أنا عندي قصة مقرفة.

-بلاش دلوقت ..خليها لبعد الهباب ده ..وده إيه ده؟!

-ده سرطان البحر...

-أعوذ بالله..

-من حق، هيه حرم زميلنا «...»عندها إيه؟

-بلاش السيرة دي .ربنا يشفيها وخلاص ..ربنا ما يكتب علينا المرض في إندونيسيا ..ده حتى الأسبرين بالروشتة ..شربة الزيت بالروشتة ..لا المرض هنا ولا الموت هنا..

-ما حدش يعرف نكتة يا جماعة؟

-أي والنبي ..بقى ده معقول عصافير ..وناشفة كده ليه ..أمال فين الأجنحة بتاعتها ..وفين الكبدة والقنصة ..اسأله كده..

-جرسون، بس مش عارف كبدة يعني إيه باللغة الإندونيسية..

وراح يشير إلى قلبه وهو يقول للجرسون إنه يريد شيئًا كهذا ..واختفى الجرسون وعاد ومعه كمية من البصل ..وضحكنا؟

-أما لو كانت دي أرانب ..تبقى مصيبة..

-حرام عليك ..أرانب في البلاد الحارة دي ..أعوذ بالله ..حترجع تاني ..أف ..يا خبر ..إيه النار دي ..نار.

-وحشة خالص...

-بتتكلموا جد...؟!

-بنضحك ..المطاعم الصينية نظيفة جدًّا ..ويمكن الاعتماد عليها دائمًا.

وأحسست بالملل كأننا في الفصل الأول من قصة »عودة الروح «لتوفيق الحكيم ..ففي هذا الفصل تدور المناقشات حول ورك الوزة وطوله وعرضه ومن الذي أكله ومن الذي اشتراه ومن الذي يطبخه ..إلى أن ظهر لنا صديق سادس وسحب مقعدًا وجلس إلى جوارنا ..وطلب هو الآخر رقم 92وبدأ يتكلم مباشرة:

-تعرفوا إن أحسن أنواع الضفادع هي التي أكلتها في باريس..

-إزاي؟

-إنها طرية لينة لها طعم لذيذ ..ولكن هنا وأشار إلى الأطباق التي أمامنا ..جافة لأنهم لا يعرفون كيف يحمرونها في السمن ..ثم إنهم يقتلونها ..طبعًا لا يذبحونها ..وهي صغيرة ..هات شطة يا جرسون ..إيه ده ..يا نهار!!

واكتشفت بعد ذلك أن هذا الذي أكلناه، لا هو ضفادع ولا هو أرانب ..ولكن حشرة أخرى ..تمشي وتنام على الجدران!

* * *

وضحكت كثيرًا في ذلك اليوم على الطريقة الإندونيسية أو على الطريقة المصرية ..ومن غير سبب ولسبب..

ولم أكد أصل إلى بيت صديقي أحمد والي حتى سألني سؤالًا غريبًا، وطلب مني أن أجيب عنه بسرعة .قال لي ..معاك فلوس قد إيه؟

قلت :ليس كثيرًا.

قال :كم؟

قلت :مائة جنيه !لماذا؟

قال :كم ورقة؟

قلت :عشر ورقات!

قال :يا نهار أسود !!أخيرًا وجدت لك عملًا في إندونيسيا.

قلت :لا أفهم.

قال :في استطاعتك أن تدق الأبواب وتقول لله يا أسيادي!

....لقد خفض الرئيس سوكارنو قيمة الورقة من فئة الألف روبية إلى مائة روبية والورقة من فئة الـ 500إلى 50روبية..

وكان الغرض من هذا القرار هو القضاء على التهريب الذي يتولاه الصينيون إلى خارج إندونيسيا.

وأعلن الراديو أن الرئيس سوكارنو سيشرح الموقف للشعب .وجاء في بيانه الذي استغرق 12دقيقة وأعلن فيه أنه راض تمامًا عن هذا القرار وأنه يراه ضرورة لا بد منها .وأن الطبيب يلجأ أحيانًا للدواء المر لشفاء المريض .ولكن لا بد من الصبر والتضحية.

وأقفل الناس الراديو وعادوا إلى الكلام عن تخفيض العملة .وغلبت الابتسامات على الحادث، آه على الكارثة التي حلت بي في ذلك اليوم السعيد!!

إنني مع الأسف لا أستطيع أن أمد يدي إلى أحد، فمددتها أمامي، ثم رفعتها إلى أعلى وطلبت من الله أن يغنيني عن السؤال!

* * *

أجراس طول الليل!

اليوم سافرت إلى باندونج ..الطريق إلى هذه المدينة التاريخية جميل .فيه غابات وأشجار ومياه وجبال وبراكين ..وحمامات للسباحة لا أعتقد أنني رأيت لها مثيلًا في أي بلد في العالم ..إن مساحة بعض الحمامات تساوي مجموع الحمامات الموجودة في كل نوادي القاهرة ..بل إنها أروع وأجمل..

أما جاكرتا فحارة جدًّا ..والهواء يبدو أنه معتقل ..ومدينة جاكرتا تسمع فيها أجراسًا غريبة طول الليل..

ولكن إذا خرجت من تحت الناموسية واجتزت حديقة بيتك -كل البيوت لها حدائق -فستجد أنهم مجموعة من الباعة المتجولين ..كل بائع له نداء خاص، أقصد له جرس خاص.

ومع هذه الأجراس ستجد كلمات غير مفهومة :آه ..أوه ..آي ..آي ..إنهم ينادون على اللحوم والأرز والشاي والفواكه ..فالمحلات التجارية تتركز في بعض المناطق ..ولا تجدها في مئات الشوارع ولا توجد وسيلة للمواصلات في جاكرتا إلا الريكشا ويسمونها البيتشا..

وجاكرتا تشبه بيروت .وقد لا تجد الهواء في »ساحة البرج «اللبنانية إلا بصعوبة في حين أن جبال لبنان رائعة .إنها تشبه جبال المغناطيس فهي تجذب كل ما في جيوبك من مال وأنت سعيد!

وجاكرتا تشبه »بون «عاصمة ألمانيا الغربية ..فهذه المدينة هي قرية صغيرة منخفضة أيضًا وليست صحية ..بل إن الناس يشكون فيها من الإرهاق والتعب المستمر ..لقد مكثت في بون أسابيع عديدة وكنت أنهض من النوم وأنا مريض فعلًا كأنني كنت أنام تحت السرير .أو كأن السرير كان يتمدد فوقي..

أما باندونج هذه فهي جميلة ..مدينة أوروبية ..فيها فنادق ممتازة نظيفة وفيها نواد ليلية .وفيها كل شعوب العالم .ولكنها في الوقت نفسه مدينة إندونيسية فالفنادق قليلة ومزدحمة.

وقد طرقنا الفنادق واحدًا واحدًا ..ولم نجد غرفة واحدة، وأخيرًا عثرنا على زميل قديم في الدراسة .إنه يعمل أمينًا لأرشيف السفارة العربية هنا وكان ينزل في غرفة بها سريران وتنبهت إدارة الفندق إلى أننا سننام جميعًا في غرفة واحدة ..وهذا ضد اللوائح .ولكننا قررنا أن نبيت في هذه الغرفة وإدارة الفندق قررت أن يبيت اثنان فقط.

وكنا نتناوب البقاء في هذه الغرفة .واحد يبقى في المطعم واثنان في الغرفة فإذا جاء الليل سهرنا حتى ساعة متأخرة جدًّا .وننتهز فترة نوم الخدم ونتسلل إلى الغرفة ..حتى الصباح.

وكل غرفة مزودة بكتاب من ست صفحات يحدثك عن كيفية استخدام التليفون الأتوماتيكي -أي العادي عندنا -ومعظم الفنادق هنا لا توجد بها تليفونات وإذا وجد فهناك خط واحد فقط!

ومع ذلك فباندونج أحسن وأجمل مدينة في إندونيسيا كلها!

* * *

والمرأة الإندونيسية تعيش حياة المرأة الأوربية .وهناك فتيات جميلات يمشين بالجملة في الشوارع ويبتسمن لك ابتسامات عريضة جدًّا .ونحن في القاهرة نقول عن البنات الجميلات إنهن بنات نادي الجزيرة أو شارع سليمان باشا وهنا يقولون :بنات شارع آسيا وإفريقيا الذي عقد فيه مؤتمر باندونج سنة 1955.. أو بنات :آسيا إفريقيا ...أ ...أ...

وكنت أظن أن »أ .أ «معناها في اللغة الإندونيسية أنهن جميلات جدًّا أو درجة أولى ..ففي اللغة الإندونيسية لا يوجد جمع .فلا يوجد .رجال أو أشجار أو بنات ..وإنما يوجد رجل رجل ..أو شجرة شجرة ..أو بنت بنت ..فتكرار الكلمة الواحدة معناه الجمع ..وهم الآن يضعون فوق كل كلمة رقم 2 للدلالة على أنها جمع..

فبنات باندونج تستطيع أن تضع فوق كل واحدة منهن رقم 4 ،3 ،2 فهن أجمل ما في شارع :أ :أ !أي آسيا وإفريقيا!

والذي يرى غابات وبحيرات وجبال إندونيسيا .وحقول الأرز يشعر فعلًا أنه أمام مائدة ضخمة ..مائدة خضراء عليها أطباق جميلة وبها ملاعق من ذهب وشوك من فضة وجرسونات وطهاة كلهم ممتازون.

ولكنك في كل مكان تجد الناس يضحكون ..إنهم شعب ضاحك ولكنهم شعب قليل المرح ..فهم أكثر منا ضحكًا ولكنهم أقل منا مرحًا.

والفرق بين الضحك والمرح كالفرق بين الذي يأكل الكثير من الطعام وبين الذي يتذوقه ويبتدع فيه أشكالًا ألوانًا ..ونحن أكثر ضحكًا من الشعب الإنجليزي ولكننا أقل منهم مرحًا ..فليس عندنا أديب جعل من المرح فلسفة ومن السخرية سلاحًا كما فعل برنارد شو وأوسكار وايلد ووِيند هام لويس.

فالرجل الإندونيسي ضاحك دائمًا ..بل إنه مغرق في الضحك ولكنه لا يدرك النكتة ولا يخترعها ..ولا يطلب المرح ولا يتفنن فيه ..ويظهر أن المستعمرين لم يتركوا لإندونيسيا شيئًا إلا الكنوز المطمورة في الأرض .والذي تركوه لإندونيسيا يحتاج إلى صيانة ودفاع .فإندونيسيا لها شواطئ 3 آلاف جزيرة لا يمكن الدفاع عنها ...ولذلك كانت ثروات إندونيسيا في غربال أو مصفاة، فهي تتساقط من تلقاء نفسها..

والذي يهز الغربال ويضغط على المصفاة هم الصينيون ..إنهم أنشط الناس وهم الأقلية والإندونيسيون هم الأغلبية.

ولكنهم يضحكون ..دائمًا ..حتى إذا لم يكن على المائدة طعام وهم سعداء بالطعام الذي تعلن عنه الأجراس!

الجو هنا جميل ونظيف ..فباندونج عالية بعيدة عن سطح البحر ومحاطة بالغابات من كل الجهات .والناس هنا أحسن مزاجًا وأصفى بشرة .وقد تعودوا على رؤية الأجانب ولذلك فهم لا يندهشون لوجودهم..

ومن الغريب أنك تجد عددًا من الهولنديين الذين كانوا مستعمرين لإندونيسيا وبعض هؤلاء الهولنديين يحدثك عن خيبة الأمل التي ستصيب إندونيسيا بعد خروجهم منها لأن الإندونيسيين لن يتمكنوا من زراعة الشاي ولا استخراج البترول ولا استخلاص الحديد من الأرض ..بينما كانوا أثرياء أيام الاستعمار الهولندي.

واللهجة معروفة لنا نحن أيضًا .لقد قالها الفرنسيون والإنجليز والأتراك عندما أُخرجوا من مصر .وقالوها عندما أممنا القناة وتوقعوا أن تقف الملاحة وأن تهجم الصحراء على القناة فتسدها وتتحول السفن كلها إلى رأس الرجاء الصالح..

وكل ذلك؛ لأن المستعمرين قد تركوا هذا الفراغ الهائل الذي توهموا أنه سيبلعنا !وهو كلام لا معنى له .ولا بد أن يقوله الرجل الأبيض الذي خرج من إفريقيا السوداء وآسيا الصفراء!

وقد حدث في أحد المطاعم أن تعرفت على سيدة هولندية هي وزوجها وقد تأكدت من أنه زوجها لأنه لا يتحدث معها كثيرًا أو قليلاً .وإنما ينظر إليها كما ينظر إنسان إلى فيلم رآه عشرين مرة، أو إلى نكتة بايخة سمعها ألف مرة ..وفي كل مرة يلمسها يعتذر لها ..أو يعتذر إلى يده التي أخطأت الطريق إلى فتاة أخرى تبعد عنا بمسافة شخصين يلتهمانها بالنظر وبالكلام وباللمس ..والدفاع عنها بالحملقة إلينا!

قلت للزوجة الحزينة :جميلة إندونيسيا؟

قالت :جدًّا ..هل أعجبتك؟

قلت :جدًّا..

قالت :أي شي أعجبك فيها؟

-بساطتها ..ورقتها ..وضحكاتها.

-كم يومًا عشت فيها؟

-ليس العمر بالأيام ولا بالسنين..

-شاعر أنت؟

-العواطف هي التي تخلق الصورة التي يعبر بها الإنسان .فاللوحة تختار الإطار الذي يناسبها ..والطعام يختار الطبق الذي يناسبه .فأنت لا تضعين اللحم في كأس ..ولا تضعين النبيذ في طبق.

-إذا لم يكن هذا شعرًا فما الذي تسميه؟

-أسميه صدقًا في التعبير أو محاولة لأن أكون صادقًا معك..

-معي أنا؟

-هل عندك مانع من أن أكون صادقًا معك؟ ..وهل الصدق معك من اختصاص رجل آخر؟ هل تجاوزت حدودي؟ أنا آسف!

-لا أسف أبدًا .إنما أنت وصلت إلى نتائج بعيدة عن خيالي وبسرعة.

-أكرر أسفي.

-أؤكد لك أنك أخطأت فهم ما أقول ..إنما أنا أتحدث عن إندونيسيا .وعن الصدق عامة وليس عن الصدق معي..

-ولكني أتحدث إليك ..ولا أتحدث إلى الشعب الإندونيسي.

قالت :اسمع هل في نيتك أن تفسد هذه الليلة الجميلة؟

قلت :إنما حاولت أن أكهربها .أن أثير فيها بعض العواصف ..لكي نواجه هذه العواصف بأن يمسك كل منا بالآخر ضد الريح وبذلك نصبح كأننا حائط منيع!

قالت :ومن أين تهب الريح؟

قلت :من هنا.

والتقت عيوننا عند رجل واحد..

وضحكت وهي تقول :إنه ابني من زوجي الأول ..وكان إندونيسيًّا!

وكنت أظنه صديقها ..وكنت أظنه قد تجاهلها وانشغل عنها!

واستمعت من هذه السيدة إلى حماقات الرجل الأبيض في إندونيسيا -ولم أشأ أن أحدثها عن حماقته في بلادنا .وكلامها معناه أن هذا الرجل الأبيض لو التزم العقل والحكمة، لكان لا يزال على قيد الحياة هنا ..ولظل سيدًا لمصير هؤلاء الملونين..

والسيدة الهولندية الأب، الإندونيسية الابن .لم تدرس التاريخ ..ولو درست التاريخ لعرفت أنه يحتم خروج الرجل الأبيض ..سواء كان مهذبًا أو حقيرًا.

فلا بد أن ينتهي الاستعمار ..والاستغلال..

ولا بد أن تعود كل أرض إلى أهلها ..ولا بد أن تعود كل قطعة أرض إلى الذي يحرثها وتتسابق على سطحها حبات القمح مع حبات العرق!

وتفضلت هذه السيدة ووجهت للشعب الإندونيسي نصيحة يعرفونها جيدًا وهي أن الهولنديين كانوا أرحم بزمان جدًّا من أبناء الصين .فالاستعمار الهولندي كان واضح اللون، أما الاستعمار الصيني فهو يتستر وراء نفس اللون الإندونيسي ..فملامح الجسم واللون واحدة .ثم إنهم آسيويون ومعظمهم عنده الجنسية الإندونيسية ..ولكنهم يودعون أموالهم بعيدًا عن هذه البلاد!

واتجه الحديث إلى الأسعار والمنتجات التي تبيعها مدينة باندونج..

وسمعت نصيحتها وذهبت في الصباح الباكر إلى محلات بيع الجلود ..فلم أجد جلد التمساح رخيصًا كما قيل لي ..فقد وجدت أن جلد التمساح الذي طوله متر ثمنه حوالي ثلاثة جنيهات .وقد رأيت أن هذا الثمن بالمقارنة إلى الفلوس القليلة التي معي غال جدًّا، وحاول أحد الباعة أن يعطيني أسرة كاملة من التماسيح بعشرة جنيهات ولكني رفضت مدعيًا أن التماسيح في السودان أرخص .والبائع يناقشني عن مكان السودان .ولكن لهجتي الحادة القاطعة جعلته يتراجع ويرتطم بالحد الأدنى للأسعار ..ويقف عند العشرة جنيهات!

وبحثت عن الأقمشة، على سبيل الفرجة..

ولاحظت أن الألوان صارخة، وعليها لوحات فنية ..ولكن الذوق مش ولابد ..أما التماثيل المصنوعة من الخشب ومن العاج ومن العظام فهي رائعة ورخيصة جدًّا .ووجدت أنه من السخف أن أملأ حقائبي بهذه التماثيل .لا لشيء إلا لأنها رخيصة!

وحاولت أن أشتري بنطلونًا..

ولم أجد مقاسي في أي مكان ..ولم يحاول أحد أن يعدني بتفصيل بنطلون على قدي ..أو يعدني بالانتظار حتى يموت أحد الأمريكان ثم يبيعني بنطلونه.

وعدلت عن الشراء نهائيًّا ..وتولاني فزع غريب عندما سمعت أن الثوار -هناك ثوار ضد الحكم القائم -يحاولون الزحف على باندونج ..وأنه لن يمضي وقت طويل حتى نكون أسرى حرب..

وقد سمعت أن هؤلاء الثوار قد ألقوا القبض على السفير المصري .ولم يتركوه إلا عندما تأكدوا من أنه عربي وأنه مسلم .فقد أرغموه على الصلاة وطلبوا إليه أن يقرأ الفاتحة وقرأ الفاتحة .ثم طلبوا إليه أن يؤذن للصلاة .وأذن للصلاة.

ثم اختلف هؤلاء الثوار فيما بينهم ..فبعضهم تشكك في أن يكون هذا السفير عربيًّا .فوجهه أبيض أميل إلى الحمرة .وعيناه خضراوان وشعره أصفر ثم إنه يرتدي الملابس الأوربية..

وأخيرًا اتفق الثوار على أن يطلبوا إليه أن يقرأ سورة معينة من القرآن.

وشاءت الصدفة أن يكون السفير قد حفظ القرآن ..جانبًا من القرآن عندما كان طفلًا فقرأ هذه السورة ..واستوقفوه ليتلو آية بالذات عدة مرات.

وتأكدوا أنه عربي وأنه مسلم وأنه ليس جاسوسًا أمريكيًّا أو إنجليزيًّا يعمل لحساب الحكومة ضد الثوار.

ومن الصدف النادرة أن هذا السفير كان يقود سيارته بنفسه..

وتستطيع أن تتخيل الرعب الممزوج بالإغماء الذي شل حركة السفير وهو يقود سيارته بعيدًا عنهم.

وقد أقسم لي كثيرون من العرب ومن المصريين ومن الرسميين في باندونج أن هذه الواقعة قد حدثت .ولكنهم نفوا أن يحدث أي زحف على باندونج فهم لا ينكرون وجود ثوار، ولكن ينكرون أنهم بهذه القوة!

وربنا ستر ولم يحدث هجوم ..ولذلك عدنا سالمين إلى العاصمة .فريسة للبعوض من جديد!

* * *

أنا في جزيرة النهود

الشيء المثير الذي كان يجذب السياح إلى جزيرة »بالي «هو منظر النساء عاريات الصدر..

إن السياح يجيئون إليها من أنحاء العالم لكي يشاهدوا تقاليدها ومعتقداتها التي تختلف تمامًا عن تقاليد ومعتقدات الـ 2499جزيرة الأخرى..

إن إندونيسيا بلاد إسلامية ولكنها تحترم معتقدات الأقليات فيها ..وكأن بالي »أقلية «صغيرة وسط الشعب الإسلامي في هذه الجزر .ومع ذلك حافظت حكومة إندونيسيا على حرية العقيدة في الجزيرة الصغيرة الشهيرة.

جزيرة بالي يسمونها جزيرة النهود لأن معظم نسائها يعشن عاريات الصدر.

والذين سافروا إلى بالي إذا سألتهم قالوا لك إنهم ذهبوا ليروا الجبال الرائعة والطبيعة الغنية والموسيقى الساحرة ..إلى آخر هذا الكلام!!

إننا نعيش في عصر جين راسل وجينا لولو وصوفيا لورين وكلوديا كاردينالي، وكلهن ذوات صدور عارية شامخة، وقد وصفت الدعاية السينمائية جين راسل بأنها صاحبة الصدر الذري -نسبة إلى القنبلة الذرية -ولكن عندما رأيناها في القاهرة وجدنا صدرها ذريًّا فعلاً، ولكن نسبة إلى كيزان الذرة.

والصدور العالية مسألة مهمة شغلت الفنانين والأدباء والشعراء ..ويقيم في هذه الجزيرة عشرة فنانين أوروبيين لا يرسمون إلا الصدور العارية فقط..

وشاعرنا نزار قباني له ستة دواوين في وصف النهود ..وشاعرنا علي محمود طه عندما رأى تمثال فينوس عاليًا وصفها بأن لها ثديين عاليين »كأنهما يُرضعان القمر.«

والفتاة اليوم لا تريد -إذا تزوجت -أن يكون لها أولاد، حتى لا يفسدوا صدرها بالرضاعة فيترهل ..وقد عرفت شركات الجمال هذا الخوف عند المرأة فصنعت لها »السوتيانات «أشكالًا وألوانًا، من الحرير ومن الكاوتش..

* * *

ارتفعت بنا الطائرة فوق السحاب .وعلى الرغم من أنها بمحركين فإن طائرات »جارودا «الإندونيسية جيدة، والخدمة فيها ممتازة أيضًا، وبعد ساعتين نزلنا في مطار سورابيا ..ثم عادت الطائرة إلى الارتفاع فوق سحب كثيفة واهتزت بعنف حتى أحسسنا بأننا سنموت دون أن نرى »بالي «أو الجزيرة التي سقطت من الجنة.

ويقال إنها سقطت من بين قدمي آدم عليه السلام.

و»بالي «تبعد عن القاهرة ..كثيرًا جدًّا، والفرق الزمني هو ست ساعات، وحين يخرج الناس من دور السينما عند منتصف الليل في القاهرة، نصحو نحن من النوم ..ومساحتها نصف مليون فدان، وتقع تحت خط الاستواء بثماني درجات ..فنحن هنا في نصف الكرة الجنوبي ..وليس عندنا أمطار وإن كنا قريبين من الشتاء، وعندنا درجة رطوبة عالية، والذي يرى الشمس عند الشروق، يجدها قطعة من النار الملتهبة، حمراء ذهبية دامية، بل إن أشعتها نزيف من الدم ..أو شلال من الدم ..أو طاقة مفتوحة في حائط جهنم.

وعندما هبطت الطائرة إلى أرض المطار في مدينة دنباسر التصقت وجوهنا بالنافذة نريد أن نرى سكان بالي ..طبعًا لم نجد إلا رجال المطار في أيديهم جرادل الماء وسلالم وأعلام حمراء وبيضاء، وفي ملابس كاملة، ودخلنا الجمرك وتم تفتيشنا بدقة، مع أننا قادمون من جاكرتا، أي من عاصمة إندونيسيا.

وركبنا السيارة إلى »فندق بالي «الكبير .وفي الطريق إلى الفندق كنا نختلس النظر إلى المارة.

وبعد ذلك عندما اقتربنا من المدينة رأينا البنات يركبن الدراجات، بالألوف ..وجوههن سمراء، والبشرة ناعمة، والعيون حلوة، والشعر طويل ناعم وعليه عمامة بيضاء، كأنهن خرجن من الحمام توًّا .والسيقان ممتلئة كأنها من الصلب المرن..

ورأينا النساء جميعًا في ملابس عادية .وكنت أتطلع إلى وجوه الركاب .إنهم جميعًا يخفون شعورهم .وكان إلى جواري رجل أمريكي .قلت له:

-ما رأيك؟

قال :وأنت ما رأيك؟

-فقدت النطق ..فين الـ...

-يظهر أن المرأة أكلت صدرها ..لقد اختفى!

وكان العرب فيما مضى يقولون» :تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ..«أي أن المرأة الحرة تفضل الموت على أن تعري صدرها أو على أن تبيع نفسها..

والعرب طبعًا لم يدركوا عصر المرضعات والدادات والممثلات والراقصات ..اللاتي يعشن من صدورهن وهن في الوقت نفسه يستمتعن بالحرية وأشياء أخرى كثيرة!

ولم يعرفوا أن هناك جزيرة اسمها بالي تعيش على ثدييها .فذهب الناس إليها وأنفقوا ملايين الجنيهات فاشترى بعض النساء البلوزة والسوتيان!

وإذا عرفت البلوزة والسوتيان فلن يجيء إليها الناس بعد ذلك!

وفي كل الشوارع تجد عشرات المعابد ..وهي تشغل مساحات كبيرة من الأرض، والناس هنا يفضلون تقديم الهدايا للتماثيل على أن يأكلوها ..ويفضلون الحياة في ظل المعابد..

وفي الليل تسمع أنواعًا غريبة من الطبول..

فالديانة هنا هي الهندوسية، وهي تختلف عن ديانة الهندوس في الهند، فقد أضاف إليها أهل بالي الكثير من الخرافات..

فالرجل من حقه هنا أن يتزوج أكثر من امرأة، والرجل من حقه أن يطلق زوجته.

ولكن الجزيرة ظلت معزولة عن الدنيا لم يمسها أوربي واحد إلا في سنة 1597، وكان هولنديًّا، ومن يومها دخلها الهولنديون بالتدريج ولم يحكموها حكمًا مباشرًا إلا في سنة 1882، ومع الهولنديين دخل المسيحيون وبعض الهندوس أيضًا، أما المسلمون فقد جاءوا بعد ذلك بمئات السنين..

والجزيرة لا تعتمد كثيرًا على السياحة، وإنما تعتمد على الزراعة وعلى صيد الأسماك وزيت جوز الهند ..والسياحة في أيدي الصينيين وفي كل مرة تجد معبدًا إندونيسيًّا، تجد إلى جواره فندقًا ومطعمًا يملكهما رجل صيني.

وكل شيء في هذه الجزيرة له قصة، والقصة لها رقصة، والرقصة لها موسيقى، ولها أوقات..

فالسنة هنا 13 شهرًا تبدأ بنياثر وتنتهي بشهر أفير ..وعدد أيامها 210 أيام، ولا يمضي يوم واحد دون أن يكون هناك احتفال لأي سبب .فالكثير من أهل الجزيرة يحافظون على تقاليدهم الموروثة..

فالأم عندما تحمل، يجب أن تحتفل الأسرة بهذه المناسبة السعيدة، فيجيء الراهب ويقرأ قصص البطولة على الأم.

ويروي لها قصص الأخلاق الكريمة، ومعه تدق الموسيقى..

وعندما يولد الطفل تحتفل الأسرة بهذا الضيف الجديد وتستقبله استقبالًا حارًا، ويذهب كل أفراد الأسرة إلى الغابات فيجمعون ورقة من كل شجرة بحيث لا يزيد عدد أوراق الشجرة على 7425 ورقة!

ثم يضعون هذه الأوراق تحت قدمي الأم، وعلى الأم أن تخطو عليها ورقة ورقة، والراهب وراءها يسدد خطاها ويتمنى أن يعيش ابنها بعدد الأوراق 7425 مرة !ثم يحرق البخور ويأكلون جميعًا عشرات من أطباق الأرز المسلوق الموضوع فوق أوراق الموز، ثم يأكلون رجل سلحفاة مائية ..ويشربون عليها عصير الدوم، ثم بعض الأسماك المجففة.

وبعد ثلاثة أيام يعاد الاحتفال بالطفل الصغير..

ولكن في هذه المرة يجب على الأم أن ترقص مدة ساعة ..ومعظم النساء يرقصن مدة ثلاث ساعات بلا توقف.

وعندما يصبح عمر الطفل 42 يومًا، تحتفل الأسرة كلها باستحمام الطفل لأول مرة، تحتفل أيضًا بنجاة الأم بعد الإغماء الذي أصابها .أما الراهب فلا يحضر هذا الاحتفال.

وأخيرًا يعود أهل الطفل.

وعند منتصف الليل يجيء الراهب، ويجلس بينهم دون أن ينطق بكلمة، ويلتفون حوله ويسألونه ماذا حدث، ولكنه لا يرد ..ويشير الراهب إلى الفرقة الموسيقية لكي تعزف لحنًا خاصًا وتعزف الفرقة وترقص نساء الأسرة العجائز أولاً، والشابات ثانيًا، ثم البنات الصغيرات، ويشير الراهب إلى خنزير فيذبحونه، ثم إلى بطة فيذبحونها، ثم إلى كتكوت صغير فيذبحونه ..ثم يضحك.

وهنا ترقص الأسرة كلها..

وعندما يبلغ الطفل عامًا تحتفل به الأسرة وتناديه باسمه الذي لم يكن يعرفه ..وفي هذا الاحتفال يجب أن يرقص الأب، والطفل لا يلمس الأرض قبل مضي عام ونصف عام .وبعد ذلك لا تحتفل الأسرة مطلقًا بأي عيد من أعياد ميلاد أي طفل، ذكرًا كان أو أنثى .وأول احتفال بعد ذلك عندما يصبح الشاب أو الفتاة في سن البلوغ .والشاب يبلغ في السابعة عشرة، أما الفتاة ففي الرابعة عشرة ..وهذا حادث مهم جدًا عند الهندوس.

وعندما تدرك الأم أن ابنتها قد بلغت، تحرق البخور وترتل الألحان الدينية، إلى أن يجيء الراهب ويدق الباب وتفتح له الفتاة ويباركها ويرش عليها الماء.

وأروع الحفلات هي ولا شك حفلة الزفاف .ولا يزال الزواج حادثًا مهمًا في حياة كل الناس، في هذه الجزيرة، وفي أي مكان آخر ..والأسرة تأتي بآخر ما عندها من طعام وشراب ومال وملابس وزينات ورهبان.

وقد رأيت حفلة زواج استغرقت 18 ساعة .لقد حملت طعامي معي ..اللحم والأرز والسلطة والموز وجوز الهند والباباي -فاكهة تشبه قرع العسل -والقهوة ومقعدًا مريحًا وبعض الصحف وبعض الشطة!

إحدى الرقصات المقدسة في إندونيسيا ..وبصفة خاصة في جزيرة بالي التي تدين بالديانتين البوذية والهندوكية..

أم إندونيسية وقد حملت طفلها بين طيات ثوبها -منظر مألوف جدًا

البساطة الشديدة أهم علامات الأزياء في إندونيسيا عند الرجال والنساء

المهم في هذه الصورة حب الزهور والظهور أيضًا ..الزهور في اليد والرأس ...إلخ

كان بيت العريس يبعد عن الفندق حوالي 29 كيلومترًا .والوسيلة الوحيدة إلى هناك ليست إلا عربة يجرها حصان ويسمونها هنا :الدوكار، في بعض مناطق مصر يطلقون عليها نفس الاسم!

المهم أننا ذهبنا أولًا إلى بيت العروس ..ولم يكن هناك إلا أهلها وقالوا لنا إن العروسين في الطريق .ودخلت العروس مزينة وارتدت بلوزة من الحرير ..لا أعرف ما اسم هذا اللون .أعتقد أن اسمه »سيكلامان «وفي الريف عندنا يسمونه »لحم الهوانم .«غير أنه لا يمكن أن توجد هانم في الدنيا لحمها بهذا اللون .وتحت البلوزة الملفوفة حول الصدر، توجد جيب ملفوفة أيضًا .ولكنها من الحرير المشجر، الأحمر والأخضر والبني ..وفي أصبعها خاتم لا أعتقد أنه من الذهب ..وفي أذنها قرط أحمر اللون وهي تعمل راقصة..

وفعلًا جسمها لا عيب فيه .جسم سليم عدل -بكسر العين.

والعريس كان يمشي وراءها ..إنه يلبس الطاقية كعادة أهل »بالي .«وهي قماش يشبه الشال في الريف عندنا، ولكنه من القماش المشجر .ويرتدي قميصًا مكويًّا ..وبدلًا من أن يلبس البنطلون، يضع حول وسطه فوطة كبيرة زاهية اللون، ملفوفة ومعقودة من الأمام، وفي قدمه حذاء، وفي أصبعه مجموعة من الخواتم ..والعريس يعمل مدرسًا في إحدى المدارس ..وهو باسم الوجه..

وصلى العروسان أمام الراهب في خشوع ..بينما وقفت الحماة تشعل النار في الحطب ..ويظهر أن هذه هي مهمة الحماة هنا :إشعال النار خارج البيت لا داخله!

ثم ينهض العروسان ويلفان حول هذا الكوم من القش 17 لفة ..وفي اللفة الرابعة عشرة تقف أخت العروس وأخت العريس، وقد أمسكتا بخيط، تعترضان طريق العروسين .ولكن كلا العروسين، الواحد بعد الآخر، يبعد الخيط من طريقه، مرة بعد مرة ..وفي اللفة السابعة عشرة يتقدم العريس ويقطع الخيط ويأخذ نصفه ويضعه بين شعره .وتأخذ العروس النصف الآخر وتضعه في شعرها ..ثم يجلسان مرة أخرى أمام الراهب.

ويمضي الراهب في صلواته وتعاويذه ثم ينزل العروسان أمام البيت ..وهناك تجري طقوس أخرى ..فكل منهما يحمل شجرة جوز هند صغيرة .وعلى العريس أن يغرس شجرة العروس في مكان ما، والعروس تفعل نفس الشيء .والعريس يمسك الشجرة بيده اليمنى، والعروس تمسكها بيدها اليسرى .ومع العريس تذهب أمه، ومع العروس يذهب أبوها ..ويعودان بعد ذلك إلى بيت العريس ..وفي الطريق إلى بيت العريس تمشي أخت العروس وقد أمسكت بذراع العروس، وأخو العريس يمشي إلى جواره ..وتتردد العروس في دخول بيت الزوجية فيدفعها العريس إلى الأمام.

وفي بيت العريس توجد أكداس وأكداس من الهدايا ..كلها عبارة عن مقاطف وسلال وقفف وكميات من الأرز المسلوق وأرجل الخنازير والدجاج ..وبين الحين والحين يتقدم أحد الجيران بهدية ..إنها أيضًا أرز مسلوق في »مشنة «لها غطاء من الخوص الملون.

وبعد هذه الطقوس يدخل العريس غرفته وينزع ملابسه ويرتدي ملابس أخرى ..وكذلك تفعل العروس..

وبعد عشر دقائق يخرج العريس ..وتخرج العروس..

ويبدأ جلوس المدعوين..

هل تعرف من الذي يقدم الطعام، ومن الذي يقدم السجائر؟

إنها العروس ..لقد انتهت الزفة وأصبحت زوجة عادية ..وعلى حماتها أن تستريح ابتداء من هذه اللحظة.

هل تعرف أن التقاليد تقضي بأن الحماة تبدأ في معاكسة العروس أول يوم فقط .وتضربها وأحيانًا تبصق عليها ..وتعيرها بأنها من أسرة فقيرة وأنها اختارت رجلًا غنيًّا ..في حين أن كل سكان الجزيرة من الفقراء!

* * *

أهم الاحتفالات جميعًا في هذه الجزيرة؛ وفي أماكن كثيرة جدًّا في العالم هو تشييع الميت..

والأهرامات في بلادنا عندنا هي أكبر مقابر في التاريخ..

وهي تدل على حفاوة المصريين القدماء بالموت والبعث بعد الموت..

وكذلك هؤلاء الهندوس يرون أن الموت هو مجرد انتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر..

والميت الذي يدفن في الأرض ينتقل على مهل..

أما الذي يحرقونه فهو ينتقل بسرعة، وكأنه انتقل إلى السماء في صاروخ؛ ولذلك لا بد من حرق الميت ..وعملية الحرق لا تتم بعد وفاة الإنسان ..وإنما يجب أن يستعد أهل الميت ليوم الحرق لأنه يكلفهم الكثير جدًّا من المال ..فلا بد من القرابين الغالية من اللحوم والملابس وأدوات الطبخ وغرف النوم ..وكلها يجب إحراقها أيضًا .أما الذي يكلفهم أكثر فهو النعش؛ لأنه لا يكون من الخشب العادي، بل من الخشب الغالي جدًّا، ويجب أن يكون على هيئة ثور ..وهذا الثور يركبه أصغر أبناء المتوفى ..والميت والثور وأصغر أبناء المتوفى يحملهم جميعًا أقارب الميت.

أما الجنازة فتتقدمها أجمل فتيات الأسرة، وقد حملت كل منهن برجًا عاليًا من عدة طبقات .وكلما ارتفع البرج كان دليلًا على ثراء الميت ..وفي أعلى البرج توضع دجاجة حية ..والدجاجة ترفرف بجناحيها..

وفي مكان ما توضع كل هذه الأشياء، وبعد صلوات طويلة، وموسيقى وغناء وتراتيل، يقف الراهب ويشير بيديه، وقد أدار ظهره للميت ..وهنا ينهض 13رجلًا ويصبون الزيت فوق كل هذه الأشياء، وتشتعل النيران وبعد مدة نصف ساعة تفوح رائحة الميت.

وتنتهي الحفلات في هذا اليوم.

وفي اليوم التالي ذهبت مع الألوف في سيارات وعربات ..واجتمع أهل الفقيد حول بقايا النيران، وفي موسيقى عاوية جمعوا هذا الرماد ووضعوه في إناء واتجهوا إلى البحر ..وألقوا به في مكان حدده الراهب ..وعادوا إلى بيوتهم.

ولا يكاد يمضي يوم من الأيام دون أن يكون هناك رقص أو غناء ديني فعندهم 198عيدًا دينيًّا ..وبعض الأعياد تقتضي الرقص والغناء حتى الصباح .وعدد هذه الأعياد »الصباحي 32 «عيدًا .أكبرها عيد يوم 13أغسطس.

وكل رقصة لها قصة دينية ..وهذه القصة يرويها أحد المنشدين في أثناء الغناء والرقص.

ولا شك في أن أبناء وبنات بالي من أبرع الراقصات في العالم..

فالطفل يتمرن على الرقص والغناء وهو في الثالثة من عمره ..وقد رأيت أطفالًا في الخامسة والسادسة من العمر يعزفون بخفة وإتقان تام على آلات معقدة جدًّا ..ورأيت فتيات صغيرات في التاسعة والعاشرة يرقصن ساعات كاملة، دون أن ترى على وجه واحدة منهن أية علامة من علامات التعب، أو يظهر عليها العرق ..وهذا يدل على أنها ترقص بأقل مجهود ممكن.

والفتيات الصغيرات لهن رقصات خاصة، أشهرها رقصة اللاجونج..

وحفلات الرقص هذه كان يعدها الفندق هنا في مدينة دنباسر، ولكنهم عدلوا عنها في هذا العام ..والحفلات كلها تقام بعيدًا عن المدينة، وفي قرية »ياويني «على مسافة عشرة كيلومترات من هذه المدينة ذهبنا لنشهد رقصة اللاجونج...

لقد جلس الناس في مكان يشبه الجرن في الريف، كلهم على الأرض .والفرقة الموسيقية مكونة من عشرين عازفًا على الطبول الطويلة المستديرة والمربعة وعلى الحديد، ومن نافخين في المزامير أو عظام أصلها أرجل بقر أو خيول ..وفي أقصى اليسار إذا كنت تنظر إلى الفرقة الموسيقية -توجد شبه خيمة .ووراء هذه الخيمة اختفت الراقصات ..وبين الحين والحين، ترفع راقصة طرف الخيمة من أسفل فتبدو قدمها ويصرخ الناس كأنهم رأوا شيئًا لا يجوز أن يروه ..وتعود الراقصة وترفع الستار إلى أعلى شيئًا فشيئًا وصرخات الناس تتبعها ..وأخيرًا تخرج واحدة ثانية وثالثة ..وعشر فتيات في سن الثانية عشرة ..وقد ارتدين ملابس جميلة ويرقصن يمينًا وشمالًا .ولهن عيون كالخرز الأسود، تتحرك معًا يمينًا وشمالًا، كأنهن إحدى اللعب اليابانية ..ولهن حركة عصبية غريبة؛ فالواحدة تميل إلى أحد الجانبين حتى تكاد تسقط على الأرض، ثم ترتفع في سرعة خاطفة ..أما أصابع اليدين فهي تتمشى مع نغمات الموسيقى في دقة تامة.

وحركات هذه الرقصة معقدة جدًّا .ولكن الخطوات مضبوطة تمامًا كأبرع راقصات الباليه في أي بلد أوربي.

وهذه الرقصة كانت لا تقام إلا في القصور ولكنها أصبحت الآن شعبية، وهي تروي قصة أحد الملوك الذي كان يتشاءم لأتفه الأسباب .فإذا مشى في الطريق وتعثر في حجر، عاد إلى البيت إيمانًا منه بأن هذا الحجر دليل على النحس ..وإذا عطس فهو يرتعد، ظنًّا منه أن روحه كادت تخرج منه ..وفي يوم من الأيام وقف غراب فوق رأسه -والغراب دليل على النحس في هذه البلاد أيضًا -وكاد الملك يموت ..فهجم على الغراب وقتله .ولم تمض أيام حتى مات الملك نفسه، وفي اللحظة التي تخرج روحه فيها، يظهر الغراب فوق رأسه، فالغراب لم يمت..

ومعنى ذلك أن النحس سيلازمه في رحلته إلى العالم الآخر.

أما كيف تعبر الفتيات الصغيرات عن هذه القصة، وكيف تصور أصابعهن الصغيرة طيران الغراب ورفرفته فوق رأس الملك، وكيف انزعجن لرؤية الغراب ..بل كيف انزعجت هذه الموسيقى البدائية، شيء لا يمكن وصفه.

والذين رأوا باليه »بحيرة البجع «على مسرح الأوبرا في القاهرة أو في باريس أو روما، ودهشوا ولم تنته دهشتهم سيصابون بذهول إذا رأوا في جزيرة بالي »رقصة الحوريات الأربع.«

وقصة الحوريات الأربع ناعمة لطيفة لا تخلو من معنى ديني وأخلاقي وفني ..الحوريات أربع فتيات في سن الثانية عشرة، ويجب ألا تزيد الواحدة على هذه السن أبدًا ..هكذا التقاليد ..وقد ارتدين ملابس فضية ووضعن الورود على الرءوس وحول الآذان ..والرجال أيضًا يضعون الورود خلف آذانهم وفي آذان التماثيل أيضًا ..ومرت علينا الراقصات وأخذ كل منا وردة ووضعها وراء أذنه ..وكلما سقطت الوردة لأي سبب عادت إحدى الفتيات ووضعت وردة أخرى ..وبعد ذلك يبدأ الرقص..

ولست في حاجة إلى أية لغة لكي تفهم قصة هؤلاء الحوريات ..فقد حدث ذات مرة أن ذهبت أربع حوريات إلى البحر ونزعن ملابسهن المسحورة ..وفي ذلك الوقت مر صياد، وهو شاب جميل، ونظر إلى الحوريات وأعجبته واحدة منهن، فأخفى ملابسها ثم توارى وراء الأشجار وراح ينفخ في الناي وسمعت الحوريات صوت الناي فانطلقن إلى الشاطئ .وارتدت كل منهن ملابسها واختفين عن الأنظار ..إلا الرابعة، أجملهن جميعًا، فإنها لم تجد ملابسها .آه لو رأيت هذه الراقصة وهي تبحث عن ملابسها ..آه لو رأيت الموسيقى التي تشبه المقشات وهي تكنس الأرض بحثًا عن الملابس ..إنها لوحة بدائية مثيرة ..وهنا يظهر الصياد، وترجوه الفتاة وتركع عند قدميه.

ويوافق على أن يعطيها ملابسها بشرط أن تتزوجه، وتقبل الفتاة، ولكن الصياد يرفض أن يتزوجها لأنه لا يحب أن يتزوج فتاة بالإكراه ..وإن كانت تقاليد الزواج هنا هي أن يخطف الفتى عروسه ويخفيها في بيته ثلاثة أيام، ثم يضع أهلها أمام الأمر الواقع..

ثم يقول لها كلامًا معناه :إنني لا أريد الزواج منك الآن ..ولكن فيما بعد، فقد أحببتك منذ وقت طويل.

وتزفهما الموسيقى.

* * *

وهناك رقصة تشبه رقصة العرب في محافظة البحيرة..

وأنا لا أزال أذكر هذه الرقصة بوضوح فلها عندي ذكرى لا يمكن أن أنساها .ففي محافظة البحيرة نجد العرب يرقصون ويغنون :وين ..وين ..يا عرب ويلتفون على شكل دائرة وترقص بينهم فتاة ثم تشير بعصاها إلى واحد ممن يمسكون لها الوحدة بالتصفيق فيتجه إليها ويرقص معها ..ويحسده الواقفون لأنها اختارته دون غيره..

وهذه الرقصة يسمونها هنا »رقصة الدلال ..«فالفتاة ترقص وحدها وفي يدها منديل، ثم ترمي المنديل على أحد الحاضرين فينهض للرقص أمامها ..والذي يرفض أن يرقص أمامها -كما فعلت أنا -تعتقد أنه أهانها إهانة شديدة...

ولم أمسح هذه الإهانة إلا عندما تظاهرت بالعرج بعد نهاية الرقصة!

والفتاة لا تزال تختار الواحد وراء الآخر حتى يصل عددهم إلى 11راقصًا، وبعد ذلك ترقص وحدها والحزن بادٍ على وجهها وعلى ما أصابها؛ لأنها لم تجد الفتى الذي تريده ..ويخرج لها من بين الحاضرين أحد الراقصين المحترفين ويرقص معها ساعة كاملة وهي سعيدة به ..وتختم الموسيقى هذه الرقصة لا بالتدريج
ولكن »قطم ..«مرة واحدة!

وأجمل الرقصات التي رأيتها في جزيرة بالي هي رقصة »البارونج «وهو حيوان يرمز به للخير ويشبه الأسد .وهذا الحيوان قد نزل من مكان لا يعرفه أحد ليساعد الناس في القضاء على »الرانجا «وهو الشر ..وهو يشبه الغوريلا ..أما إله الخير فيمثله اثنان من الرجال يلبسان معًا هيكلًا من القماش له ذيل ورأس وأنياب، ويرقص الرجلان معًا برشاقة وقد تعلما بعض التهريج لإرضاء السياح الأجانب، فقد رأينا الأسد هذا يعاكس الأطفال الصغار ويخرج عن نطاق الموسيقى..

ويبدأ الصراع بين الخير والشر؛ فالشر يريد أن يقتل شابًّا صغيرًا وحيد أمه فيتدخل أحد خدام الخير ويعطي هذا الشاب الحياة الأبدية .ولكن الشر لا يعلم ويحاول قتله، أو أكله فيفشل.

ولا يسعك إلا أن تنبهر وأنت ترى ضربات السكين والموسيقى معًا ..ومحاولة وضع الأنياب في جسم الشاب ومعها الناي ..فعلًا منظر جميل جدًّا..

كل ذلك يجري على التراب ومن حفاة لا يعرفون القراءة أو الكتابة وينتقلون من هذه القرية إلى المدينة التي تبعد عنهم 20كيلومترًا.

ومن بين الراقصين رجل عريان في السبعين ..إنه أخف وأرشق من كل الراقصين ..إنه يقفز إلى أعلى على السلم الموسيقي في غاية الرشاقة ..وقد علمت أن هذا الرجل سافر إلى أمريكا وظهر في برودواي، ولكنه لم يتمكن من إظهار براعته؛ لأنه أصيب بسعال شديد .لقد كانت هذه الرحلة لأول مرة في حياته واضطره الأمريكيون إلى ارتداء ملابس كاملة!..

ولكن هل ينتهي الصراع بين الشر والخير .طبعًا لم ينته، فقد رأيت أنصار إله الخير يحاولون قتل إله الشر ..وينجحون في قتله ويرقصون ..ولكن الشر يعود إلى الحياة وهم يرقصون ..فيحزنون حزنًا شديدًا ويضربون أنفسهم بالسكاكين والسيوف ويتمرغون على الأرض ..وفجأة يظهر الخير ويبدو الخجل على الشبان .ولكن الخير يحتضنهم ويقول لهم كلامًا على لسان السيدة التي تروي قصة هذا الصراع :إن الشر لن يموت وأنتم متفرقون ..يجب أن تتساووا كالأسنان في الدفاع عني ..ولكنكم لم تفعلوا..

ويزداد حزن الشبان، ولكن الخير يتركهم ويتجه إلى صراع الشر الذي فوق أحد السلالم ..ويصعد إليه الخير ويختفي الاثنان ..وبين آونة وأخرى تسقط علينا ملابس إله الخير وملابس إله الشر ..ومعنى ذلك أن الصراع مستمر أمام عيوننا وفي أماكن أخرى لا نراها.

واللوحة الفنية الكاملة هي رقصة الوداع ..إن هذه الرقصة ليس فيها موسيقى ..ولكن الفرقة الموسيقية تتكون من هؤلاء الراقصين وهم يجلسون حول عمود النور في الظلام ..ويتقدم واحد منهم ويشعل المصابيح والراقصون يصرخون حوله ويرددون كلمة» :كاتشاك ..كاتشاك «..مئات المرات ..ويرقصون معظم الوقت وهم جالسون ثم يترنحون ويرتمي بعضهم على بعض في صورة فنية جميلة، وبين هؤلاء تظهر فتيات صافيات البشرة والألوان ..فساتينهن زاهية، وعلى رءوسهن أكداس من الورد والياسمين على هيئة تاج تبرز منه ريشة ذهبية، ويبدأ الرقص ..وهم جالسون، وهم نصف جالسين، وهم واقفون، وهم راكعون، وهم ساجدون ..كل حركاتهم مضبوطة جدًّا، رشيقة ناعمة جدًّا..

ويبدأ الراوي يحكي لنا قصة الوداع.

وكل قصة وكل حوار له رقصة رائعة.

وفي عيد استقلال إندونيسيا، أقيمت حفلات استعراض رائعة في القصر الجمهوري ..ومن بين هذه الرقصات كانت رقصة الوداع .وقامت بها مائة فتاة وصفقت الجماهير وصفرت ..ولكن عندما بدأ الرقص أحس الناس بخيبة أمل هائلة، فعلى الرغم من أن الفتيات جميلات فإن الرقص لم يكن جميلًا .فكل الفتيات كن من العاصمة، وليس بينهن واحدة من جزيرة بالي ..وعلى الرغم من وجود مسرح وأزياء أنيقة وموسيقى فإن رقص بالي الذي يقوم به الرجال العراة والحفاة في الطين، كان أروع..

وكانت هذه هي أحسن تحية لجزيرة بالي.

هذه الأعياد ترفع فيها الأعلام وتدق فيها الطبول لتدعو الناس في جزيرة بالي إلى رؤيتها ..وهذا ما يشغل الناس ليلًا وحتى الصباح..

أما الذي يشغلهم نهارًا فشيء آخر.

ففي كل بيت تجد عددًا كبيرًا من الديوك .وأمام كل بيت تجد أقفاصًا دائرية .وفوق كل قفص قالب طوب وتحت القفص يوجد ديك كبير تبدو عليه الشراسة.

فمصارعة الديوك هي الهواية المفضلة هنا.

ولو رأيت الأموال التي يدفعها الناس عند مصارعة الديوك لأحسست أنهم من أصحاب الملايين.

والديك ثروة وصاحب الديك يستطيع أن يتفاخر أمام الناس كصاحب خيول السباق الناجحة .فهذا فلان صاحب الديك الذي اسمه ثعلب أو الديك الذي اسمه قرد أو الديك رعد، والشوارع يعرفها الناس بالديوك الموجودة بها ..وقد ظللنا نصف ساعة نبحث عن الشارع الذي يوجد به مكتب شركة الطيران ولم نهتدِ إليه ..والذي أدهشنا أن الناس يسألوننا :بالقرب من أي ديك؟

وطبعًا لم نعرف .وأخيرًا عرفنا أن مكتب الطيران في شارع »الديك الأبيض بلا نقط سوداء.«

وصاحب الديك يظل طول اليوم يسن أصابع الديك ومنقاره ..وكان أصحاب الديوك فيما مضى يضعون السموم في أصابع الديوك وفي مناقيرها ولكنهم عدلوا عن ذلك؛ لأن هذه السموم تنهي المعركة بسرعة وذلك بقتل أحد الديكين أو الاثنين معًا!

واكتفوا بوضع سكين مربوط إلى ساق كل ديك ..سكين قاتل.

والغريب أن عدد المقامرات أكبر من عدد المقامرين .ومن الممكن أن تجد الزوجة تكسب من هذا القمار ويخسر الزوج .ويقال :إن المرأة اختارت القمار لتنعم بالراحة في بيت أهلها بعيدًا عن الزوج!

أما جمهور الديوك فيشبه جمهور الكرة عندنا..

وبعد انتصار الديوك تقام حفلات رقص وغناء في الشوارع المجاورة وبعض الناس ينقشون اسم الديك على أذرعهم، أو على صدورهم، أو يطلقون اسم الديك على أولادهم أو على دكاكينهم ..وفي بيت صاحب الديك الذي فشل في المصارعة يخيم الحزن والغم.

وكان أبي من هواة مصارعة الديوك أيضًا!

ومن أهم معالم هذه الجزيرة سيدة جميلة هي الآن أرملة طروب واسمها السيدة »ني بالك «وهي زوجة الفنان البلجيكي لومايير .تسكن في البيت الذي تركه الفنان لها بالقرب من شاطئ صافور وفندق سيجارا ..والمسافة بين بيتها وبين الفندق حوالي عشرة كيلومترات..

ذهبت إليها في الساعة الرابعة بعد الظهر .وهو موعد قيامها من النوم ..هكذا قالوا لنا، ووجدنا بابًا بالبيت أو المتحف مفتوحًا ودخلنا فلم يقابلنا أحد .اللوحات على الحائط لهذه الأرملة الجميلة وكلها من رسم زوجها لومايير .لوحات بالزيت وأخرى على الخشب وعلى القماش وعلى قشر جوز الهند، وانتقلنا من غرفة إلى غرفة ..ووجدنا سيدة قد تمددت على سرير ..وتراجعنا ..ولكنَّ خادمة عجوزًا طلبت إلينا أن ندخل وخشينا أن نزعج السيدة النائمة، ثم عرفنا أنها هي الأرملة .ودخلنا ووقفنا إلى جوار سريرها نتظاهر بأننا لا نتفرج عليها، ولكن السيدة ظلت في سابع نومة، كأن أحدًا لا يتحرك في الغرفة، لقد تمددت على السرير عارية تمامًا وأدارت وجهها للحائط ولم نر إلا جسمها النحاسي الطويل الممتلئ وإلا بشرتها الحية، وإلا جانبًا من وجهها اللامع .وخرجنا بعد أن تعمد بعضنا أن يُحدث أية ضجة لإيقاظها، ولكنها لم تتقلب!

وعرفنا من الخادمة أنها ستصحو في الساعة الرابعة والنصف ..وهي تصحو عادة من تلقاء نفسها ..وسألناها وكيف تعرف الوقت بالضبط؟

وأبدت الخادمة حيرتها وأشارت إلى السقف ومعناها دي حاجات بتاعة ربنا!

وفي اليوم التالي قابلناها على الشاطئ .لقد نزلت تستحم وحدها وحارت عدسات السائحين بين أيديهم وبين أمواج البحر ثم خرجت سمراء بالي إلى الشاطئ تنفض الماء عن جسمها وتلقي به فوقنا وكأنها تقول :حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي!

ورددنا هذه العبارة بلغات مختلفة..

وأما الأمريكيون فقالوا :تساوي مليون دولار!

وأما الفرنسيون فقالوا :إنها غجرية رائعة.

والإيطاليون قالوا :يا ماما ..وكيف يموت أي إنسان إذا كانت هذه زوجته؟

ولغات أخرى لا أعرفها ..باليباني والصيني والإندونيسي..

سألتها :وكيف تمضين الوقت؟

قالت :ألم تأت أمس إلى البيت؟

قلت :جئت فعلًا.

قالت :هكذا أمضي وقتي.

قلت :في النوم؟

قالت :وفي الاعتذار عن النوم الطويل للسائحين أمثالكم..

ولم أجرؤ على سؤالها كما فعل سائح أمريكي :ألم تفكري في الزواج؟

فأجابت :لا أفكر.

قال :ولماذا؟

قالت :ليس هناك من هو أحسن من زوجي!

وسألها أمريكي آخر :وأنت الآن ألا تسمحين لأحد أن يرسمك كما كان يفعل زوجك؟

فأجابت :لا أسمح.

وغمزت بعينها غمزة أوربية فقلنا :لا بد أن هذا من تعاليم المرحوم!

وانتقلنا معها إلى البيت .وعرضت علينا لوحاتها وكانت تقف إلى جوار كل لوحة ..وننظر إليها وإلى اللوحات ..وكنا نقول :هي أجمل ..وكنا نقول :ولكن اللوحات أبقى!

إن بيتها وسور بيتها وملابس الخدم والأبواب والنوافذ وكل شيء فيه عمل فني كامل ..وصورها العارية تمامًا هي من أروع ما رسمت ريشة زوجها الفنان الكبير.

والذي لم ير هذه الأرملة الجميلة كأنه لم ير شيئًا مهمًّا جدًّا في جزيرة بالي فهي تمثل حياة فنان كبير جاء من بلجيكا وقع في غرام هذه الراقصة واختارها لنفسه، وعاش لها كل سنواته الأخيرة ..وإذا كانت الفتاة لم تستمتع بالحياة مع الفنان الكهل فإنها قد ضحت من أجل جزيرة بالي، فهي تشبه عروس النيل التي كان الفراعنة يلقون بها في النيل ليفيض ..وقد فاض نيل السائحين هنا بملايين الجنيهات كل عام ..فالناس يجيئون من آخر الدنيا ليروا الرقصات الدينية والمعابد وهذه الحسناء..

هذه هي جزيرة بالي -بالك.

بالي ..هو اسم الجزيرة، أما »بالك «فهو اسم زوجة الفنان البلجيكي التي تعيش في أروع معرض صنعه زوجها في أروع جزيرة.

* * *

ما رأيك في رحلة إلى هذه الجزيرة التي يصعب أن تحددها على الخريطة؟

أنا أقول لك على السكة :اركب الطائرة من القاهرة إلى بومباي بالهند في تسع ساعات، ومن بومباي إلى مدراس في أربع ساعات، ومن مدراس إلى كولومبو عاصمة سيلان في ثلاث ساعات، ومن كولومبو إلى سنغافورة في ست ساعات، ومن سنغافورة إلى جاكرتا عاصمة إندونيسيا في ساعتين، ومن جاكرتا إلى سورابايا في ساعتين، ومن سورابايا إلى دنباسر عاصمة جزيرة بالي في ساعة واحدة ..والمسافة قصيرة كما ترى وهي فركة كعب لا تزيد أبدًا على عشرة آلاف كيلومتر!

(2)

الجزيرة تشبه المعبد الكبير .كل ما فيها صلاة، ولكنها معبد بناه ويصلي فيه فنان؛ ولذلك فالصلوات فيها فنون :رقص وغناء وموسيقى.

ليلًا ونهارًا.

وكل أبناء الجزيرة فنانون ..الصغار والكبار.

وفي جزيرة بالي أرشق الرجال ..وأجمل النساء في كل إندونيسيا .وألوانهم سمراء فيها صفرة خفيفة ..ولكن المرأة الإندونيسية رشيقة وقوامها نحيف ..ومن النادر أن تجد امرأة بدينة ..نادر جدًّا..

عشت في هذه الجزيرة أسبوعًا لا أرى إلا الرقص وإلا الغناء، كأنني أخطأت الطريق إلى بالي ..وذهبت إلى أحد معاهد الموسيقى حيث الأطفال والشيوخ يتمرنون على الرقص قبل استعراض كبير.

وأروع ما رأيت هناك هو حفلات الزواج وحفلات حرق الموتى ..وصلوات وطقوس وهدايا.

وكل الناس يبكون في الأفراح وفي المآتم..

إنهم يشعرون أنهم فقدوا عزيزًا عليهم..

أذكر أنني ذهبت لرؤية عقد قران .البيت متواضع جدًّا .ويشبه بيوت الفلاحين عندنا ..العروس حلوة صغيرة في السن ..والعريس أكبر منها بحوالي عشرين سنة .ولكنه رغم ذلك رشيق ووسيم ..جلس العروسان أمام الراهب وهو المأذون الهندوسي -والهندوسية هي دين الجزيرة -وراح يقول كلامًا طويلًا لم أفهمه.

وطالت الصلوات والدعوات.

سحبت مقعدي إلى الوراء وجلست في أحد الأركان ورحت أتحدث إلى المرشد الذي جاء معنا..

وقلت :هذه فتاة جميلة فعلًا.

وأشرت إلى إحدى قريبات العروسين .ونظر المرشد إلى فتاة في الثامنة عشرة من عمرها سمراء نحيفة عيناها سوداوان وشعرها أسود ولها ملامح مرسومة بعناية غريبة وضحك المرشد قائلاً:

عاوز تتجوزها؟

فضحكت ..وعاد هو يسألني ضاحكًا :عاوز تتجوزها؟

فقلت ضاحكًا :أيوه..

وطبعًا هذا كلام ..مجرد كلام..

وأبناء إندونيسيا يضحكون على الفاضية وعلى المليانة ..وعندما يفهمون يضحكون وعندما لا يفهمون يضحكون أيضًا.

وعدنا إلى الراهب، إنه لا يزال يقوم ويجلس ويطلق البخور ومللنا مراسم الزفاف ..فوقفت أمام بيت العروسين أتطلع إلى الرجال وهم يحملون جوز الهند ووراءهم النساء .وقد وضعت كل منهن وردة وراء أذنيها..

وبعد ساعة عدت إلى بيت العروسين؛ فوجدت الراهب لا يزال يقول كلامًا، والعريس باسم الثغر والعروس سعيدة ..وبين الحين والحين ترفع رأسها ولكنها لا تقول شيئًا .والكلام حرام عند عقد القران..

دخلت أرى آخر مراسم الزواج..

وأشاروا إليَّ لكي أجلس ..وجلست وراء الراهب..

ثم أتى بمقعد وجلس أمامي ..وراح يقول كلامًا ويلف بالبخور حول رأسي ..ويقدم لي جوز الهند ..وأمد يدي وأطبق يدي على قطعة من جوز الهند الجاف كالحجر .ويدور الراهب حولي..

وجعلت أتلفت وأحسب الوقت الذي سيقطعه الراهب في اللف حول عشرين رجلًا وسيدة من الأمريكيين والألمان والفرنسيين والإيطاليين جاءوا لمشاهدة عقد القران ..سيستغرق ساعتين على الأقل..

ولكن الذي حدث هو أنه بعد أن دار ولف حولي ..تركني وعاد إلى مكانه ..وبعد لحظات أتوا بمقعد ووضعوه إلى جواري وفوجئت بفتاة تجلس إلى جواري ..إنها نفس الفتاة التي قلت عنها إنها جميلة ..وراح الراهب يدور حولي ..وأصبت بذهول ..إنهم أخذوا المسألة »جد ..«مش معقول.

إنني أنظر إلى وجه الفتاة فأجده قبيحًا .وأرى عينيها كعيني البقرة ..وأرى أنفها كأنه مقبرة وشعرها الأسود القاتم كأنه مجموعة من السلاسل وخيوط النايلون الأسود كلها ستلف حول عنقي ..حول حياتي ..وأنظر إلى قدميها وقد اتخذتا لون التراب ..وأرى فستانًا يشبه قماش المراتب..

وأتلفت ورائي فأجد كل السائحين الأجانب في دهشة وبعضهم في ذهول وبعضهم يضحك من قلبه ويقرصني ويقول :مبروك..

-مبروك إيه؟!

قررت أن أجري ..أو أهرب ..وفعلًا نهضت من مكاني وانطلقت إلى خارج البيت ..ولكنَّ أحدًا لم يعترضني ..لم يمسكني ..وبحثت عن حنطور وانطلقت إلى الفندق ..وبحثت عن أحد من المرشدين أسأله عن حقيقة ما حدث ...ولكن المرشدين جميعًا خرجوا مع السائحين في أماكن مختلفة من الجزيرة ..ذهبت إلى مكتب السياحة ..فلم أجد أحدًا ..جلست في غرفتي قلقًا، لا أعرف كيف أفكر ولا كيف أواجه الزواج ..وماذا أعمل بالفتاة ..وأنا لا أعرف ما هي التقاليد بعد ذلك .وهل سأخرج من الجزيرة سالمًا ..وإذا خرجت بقوة القانون فأين أذهب بها ..ثم كيف أتخلص من هذا الموقف الغريب؟ قابلت مدير الفندق ودار هذا الحوار المتعب جدًّا بيني وبينه .قلت:

اليوم شاهدت حفلات الزواج..

قال :أعجبتك؟

قلت :جدًّا ولكن يظهر إنها مليئة بالمفاجآت..

-آه طبعًا..

-من الممكن أن يدخل الرجل أعزب ويخرج متزوجًا دون أن يدري؟

-طبعًا..

-طبعًا إزاي؟!

-عادتهم غريبة جدًّا هنا ..افرض أن واحدًا دخل أعزب وخرج متزوجًا دون أن يدري ..فماذا يعمل؟

-ولا حاجة.

-ولا حاجة إزاي؟ افرض مثلًا يعني ..واحد زيي مثلًا يعني ..أهو أنا سائح أجنبي ..ذهبت إلى أحد الأفراح وأعجبتني فتاة مثلًا وقلت لها إنها تعجبني .فهل معنى ذلك أنها تصبح زوجة لي مباشرة؟ مفيش حاجة أقل من الزواج.

-يحصل كتير قوي..

-وبعدين؟!

-الناس يتزوجون هكذا..

-افرض يعني أن هذا حدث لي ..مثلًا يعني ..فماذا أعمل بمثل هذه الزوجة..؟

-إنها خادمتك ..خذها إلى أي مكان ..إن بنات بالي لا يتكلمن ولا يعترضن على إرادة الزوج ..والمرأة في بالي لا تعرف الطلاق ولا الرجل أيضًا ..إلا في ظروف نادرة جدًّا..

-مش فاهم ..افرض مثلًا يعني ..أن هذا حدث لي .وتركت هذه الزوجة في بالي فماذا يحدث؟

-ستبقى زوجة لك إلى الأبد ..سواء تعيش معها أو تتركها..

-يعني لا تتزوج بعد ذلك؟

-لا...

-من الممكن أن تموت هذه الزوجة من الجوع.

-ليس إلى هذه الدرجة..

-ولكن يجب أن تترك بيت والدها فورًا بعد الزواج..

-وأنت مشغول لهذه الدرجة بالزواج هنا؟

-أبدًا ..أصلي عاوز أكتب مقالة كده..

-مقالة ..أنا عندي موضوعات غريبة ..عن أنواع الزواج الغريب هنا ..هنا أعجب أنواع الزواج..

-زي إيه كده.

-أيوه ..حكايات طويلة ..نلتقي في الليل ...إلخ.

كلام غير مريح وكلام كله عايم..

وفي الليل حاولت أن أجده لأسأله عن الزواج الغريب .ولا بد أن يكون زواجي هذا من أغرب القصص ..وربما كان من أقلها غرابة ..ومعنى ذلك أنني يجب أن أنتظر ما هو أغرب..

وفي الليل كان لا بد أن نشاهد إحدى الرقصات الجماعية على مسافة 70كيلومترًا من الفندق ..وكانت الرقصة رائعة ولكن كان بيني وبينها ستار أسود ..هذا الستار يتحرك أمامي يمينًا وشمالًا ..كأنه مرسوم في داخل عيني ..إنه صورة الزوجة التي لم تكن على بالي..

وبعد انتهاء الحفلة ذهبت إلى غرفتي ..لم أذهب إلى المطعم ..أحسست بضرورة قاسية إلى أن أجلس وحدي ..فوجئت بأن شبحًا يجلس أمام غرفتي .إنه نفس الفتاة وأمامها لفة من الملابس .عندما رأتني ابتسمت ونهضت واقفة ..وابتسامتها حلوة .وأنا حائر لا أعرف كيف أكلمها، وكل ما أعرفه من اللغة الإندونيسية لا يزيد على عشرين كلمة.

وحاولت أن أعمل جملة واحدة معناها :إيه اللي جابك هنا؟ وإيه الحكاية؟

ويبدو أنها فهمت كلامي وكان ردها :بو ..أباه بئ .أوه.

وأنظر إلى وجهها فأجده يبتسم ..وجهها حلو .ويبدو أنها غسلت وجهها وارتدت فستانًا جديدًا ..وسألتها عما إذا كانت قد تناولت العشاء ..فلم تجب ..وطلبت لها عشاء ورأيتها وهي تأكل بيدها الكبيرة.

والمصيبة أنني لم أجد أحدًا أسأله.

وجلسنا نحن الاثنين على مقعدين متواجهين .أنا أضع يدي على خدي وهي تراجعت في مقعدها وهات يا نوم ..وأنا في دهشة من نومها العميق ..وعندما استغرقت في النوم تركتها ودخلت غرفتي..

وبين الحين والحين أنظر إليها من وراء الباب فأجدها نائمة..

وفي الصباح وجدتها قد غسلت وجهها ولا أعرف أين ..وجلست في حيوية ونشاط وبشرتها صافية ناعمة ..وأنا أحمر العينين مصدع الرأس ..ولم تكد تراني حتى نهضت تبتسم قائلة :سلامات باجي.

ومعناها صباح الخير..

وأمرت لها بطعام ..ولم أجلس لأرى كيف تأكل وإنما قررت أن أذهب لهذا الراهب أنا وبعض الأصدقاء لأجد لي حلًّا ..فالمسافة بيني وبين سفارتنا في جاكرتا طويلة ..إنها أربع ساعات بالطائرة..

أما هنا فلا أجد أحدًا أسأله عن الزواج والطلاق والنفقة ومقدم الصداق ومؤخر الصداق..

وتصادف أنني مررت أمام غرفة أحد الأصدقاء في الفندق وسمعت ضجة وهمسًا وضحكًا متواصلًا ..إنه مقيم في هذه الغرفة وحده ..فما الذي يحدث ..وفتحت الباب.

وقابلتني عواصف من الضحك ..إن هذا الصديق هو مليونير أمريكي يحب الدعابة، ومعه فلوس في حجم المقطم ولا يدري ماذا يفعل بها ..إنه يلهو ويلعب ..تصوروا أنه قد دبر كل هذه التمثيلية من أولها لآخرها مقابل مبلغ من المال..

وبعد ذلك نظرت إلى البنت فوجدتها حلوة مرة أخرى ..حلوة ..وسألني :ما رأيك تتجوزها؟

قلت وقلبي زي الحديد :أيوه مستعد!

(3)

ألا يحدث أنك تبحث عن صورك وأنت صغير لتعرف كيف كان وجهك وجسمك، وكيف كان لون شعرك الذي ذهب ولمعان عينيك الذي خفت !ألا يحدث أنك تسأل والدتك عن طفولتك ..ماذا كنت تعمل وماذا كنت تقول؟

وجزيرة بالي هي طفولة الإنسان، ففيها كل شيء يدل على سذاجة تفكيره وبساطة إدراكه لنفسه ولغيره..

وأنا أحدثك هنا عن طفولتنا جميعًا..

الجزيرة ليست صغيرة كما كنت أتصور ويبدو أن العقل الإنساني لم يكن صغيرًا كما نتصور أيضًا..

والناس يقضون نهارهم في الحقول أو أمام الأنوال اليدوية، أو حفر الخشب، أو تلوين القماش، أو تلوين قشر جوز الهند، أو التمرين على الرقص والموسيقى، أو تدريب الديوك على المصارعة .أما الليل كله فللموسيقى والغناء والرقص .لأسباب دينية .ويظهر أن الإنسان يحتاج إلى دين ليتقن أي عمل .فهم يتقنون الرقص والغناء والموسيقى وبراعتهم في هذه الفنون مذهلة .فالأطفال يبدءون العزف والغناء في الثالثة.

والفتيات يرتدين تيجانًا من الورد وفساتين من الحرير الملون وحافيات الأقدام وكأنهن أوراق ورد تناثرت ..أو كأنهن بقايا ملائكة أو قطع من السماء.

والمعابد هنا أهم المباني كلها ..وفي كل مكان رقصات القرد وغابات القرود ولوحات القرود ..وكلمة »قرد «في لغة جزيرة بالي لها مشتقات كثيرة ويطلقونها على كثير من الأطعمة والنباتات الغريبة ..مثل كلمة »ماكينة «في اللغة الإيطالية التي يطلقونها على ماكينة الحلاقة وعلى الطائرة!

وأنت هنا في بالي يجب ألا تخاف من الناس ..فهم مسالمون طيبون.

ولكن الجزيرة رائعة ..إنها كفتاة جميلة عيبها أنها تخلف المواعيد ..حاجة بسيطة!

ولكنها حلوة ويزداد حرصك عليها فتصلي للسماء أن تشفيها من مرض المواعيد.

إنها ليست أجمل الجزر التي رأيتها ولكنها أغربها جميعًا .لقد رأيت جزر كابري وصقلية وكورسيكا وكريت وقبرص وسيلان وسنغافورة ..والآن أقيم في جزيرة جاوة ..ولكن بالي أغرب هذه الجزر جميعًا...

وكل الدعاية لهذه الجزيرة تقول :إن الناس هنا يعيشون على الفطرة ..ليس سكان الجزيرة وحدهم ..وإنما السياح أيضًا..

هكذا قلت لنفسي وأنا نصف عريان أمام الفندق!

* * *

وفي الطائرة العائدة إلى جاكرتا كان من نصيبي أن أجلس بجوار سيدة هولندية إحدى بنات المستعمرين لهذه البلاد لمدة ثلاثة قرون .وكان لا بد أن نقول أي كلام؛ فما تزال أمامنا أربع ساعات قبل أن نصل .وعرفت أنها أمضت في جزيرة بالي أكثر من ثلاثة أسابيع.

ولم تعجبها هذه الجزيرة ..وقد كانت تفضل أن يبقى الناس بدائيين حفاة عراة كمعرض حي يستحق أن يأتي إليه الناس من أقصى بلاد العالم .ولكن كل شيء تغيرت معالمه، فهناك سيارات ودراجات وأحذية وبلوزات وچيبات.

وعرفت أنها جاءت إلى هذه الجزيرة قبل عشرين سنة وتنهدت على الذي مضى ولم أسألها عن الذي مضى فلا بد أن الناس كانوا كلهم عراة رجالًا ونساء، ولا بد أن الحياة كانت على الفطرة الكاملة..

والتفتت فجأة ناحيتي وقالت :أين كنت أمس؟

فقلت :في الليل ذهبنا لمشاهدة حفلة زفاف أحد الأثرياء.

وبدا على وجهها القرف وقالت :كانت فضيحة ...فضيحة ..فضيحة..

وسألتها :كيف؟ لم ألاحظ أي شيء..

قالت :ألم تر ما فعله البيض ..ثلاثة من البيض قاموا يرقصون ..وضحك الرجال والنساء ..وكانت فضيحة ..فضيحة!

أنا لا أذكر شيئًا من هذا الذي تحدثت عنه السيدة ..بل أنا لا أذكر كيف انتهى هذا الاحتفال ..والاحتفالات تنتهي فجأة وبلا تنبيه وبلا حماسة.

وخشيت أن أسألها كيف انتهى هذا الاحتفال..

ولاحظت أنها عندما تحدثني لا ترفع عينيها عن النافذة ترقب محركات الطائرة، أما أنا فيجب أن أجعل أذني قريبة منها لأسمع ماذا تقول...

وانشغلت عنها تمامًا ..ولم أعد أسمع ما تقوله لي ..ولا أعرف إن كانت تحدثني أو تحدث نفسها..

وتذكرت أننا ذهبنا فعلًا إلى حفلة الزفاف وأننا كنا نتابع الحفلة باهتمام شديد .وطال الاحتفال وعزفت الموسيقى ..ونحن لا نعرف كيف نعود إلى الفندق.

فالمسافة طويلة والأبواب مغلقة لأن العروسين يتشاءمان من الذين يخرجون قبل نهاية الحفلة ..ونخشى أن نطلب فنجانًا من القهوة؛ فنحن لا نعرف كيف يصنعون هذه القهوة، نحن في حيرة تامة.

وفجأة فكرنا أن نضع المقاعد في أقصى المكان ونتمدد عليها وننام حتى ينتهي الاحتفال ..ولكنه مكان موحش مفزع .والطبول لها صدى مخيف ..ولو اقتحمنا الباب فنحن لا نعرف النتيجة فكل مدعو يضع وراء ظهره سيفًا ..والطريق أمام البيت مظلم تمامًا وفيه أشباح غريبة تروح وتجيء..

والنوم مستحيل أيضًا..

وفجأة تذكرت ..لقد ظهرت العروس ومعها صينية عليها فناجين صغيرة وفي حركة آلية نهضنا جميعًا واقفين وجلست العروس وقدمت لنا القهوة وهي جالسة وشربنا القهوة واقفين..

ولا أذكر بعد ذلك إلا أنني صحوت في اليوم التالي ثقيل الأذن والعين والجسم.

حاولت أن أسأل إدارة الفندق بصورة غير مباشرة ..ولكنَّ أحدًا لا يتكلم ..إنهم يبتسمون فقط ولا يقولون شيئًا.

حاولت أن أسأل المرشد ..إنه هو الآخر يبتسم..

حاولت أن أعثر على الأمريكي والإيطالي اللذين كانا معي ..لقد سافرا إلى الشمال وسيعودان بعد أيام.

أما ماذا حدث فعلمُ ذلك عند السيدة الهولندية ..لقد كنت أحد الذين شربوا القهوة المسمومة ..وحدث مغص ..وتمرغت على الأرض دائخًا تمامًا .ولا أعرف كيف نقلونا جميعًا إلى الفندق!

وكانت هذه هي الفضيحة!

إن كل الجنسيات تجدها هنا في جزيرة بالي ..ولكن أكثر السائحين -أقصد السائحات -من أمريكا وأكثرهن عواجيز وفوق 60سنة ..والغرف التي عن يميني وشمالي تسكنها عواجيز أمريكيات يقضين الليل كله في السعال والكلام .وكان من بين الأمريكيين رجل طويل عملاق ضخم ..ولكن دمه خفيف جدًّا ..أصبح صديقي بسرعة غريبة .وكنا نذهب إلى حفلات الرقص والغناء معًا .وينام الفندق ونظل ساهرين حتى تنام الضفادع وتصحو العصافير..

وكان »جيم «هذا لا يكف عن الضحك والأكل والشرب .ولكنه يحتفظ دائمًا بروح معنوية شابة ..على الرغم من أنه تجاوز الخمسين من عمره..

وكانت تبهرني بساطته ..فهو إذا لم يجد مقعدًا جلس على الأرض، في التراب، في الطين .إنه لا يهتم ..وإذا لم يجد طعامًا نام حتى الصباح بلا طعام ..وليس لحياته برنامج وهو سعيد جدًّا.

وفي يوم ذهبنا إلى الفندق متأخرين عن موعد الطعام ..أما أنا فثرت ودخلت المطبخ وقابلت مدير الفندق أطالب بطعامي؛ لأنه لا توجد مطاعم محترمة في الجزيرة، وطالبت بالحد الأدنى من الطعام :بعض اللحوم والسلطة أو عصير الطماطم .ولكن المدير أمر بإحضار طعامي كاملًا ونسيت في ثورتي أن أسأل »جيم «إن كان يريد أن يأكل، وعندما عدت إليه وجدته يقرأ في رواية بوليسية كانت في جيبه .وجاء الطعام وأكل دون أن يسأل أو يعترض ..بل إنه كان يأكل أطعمة لها رائحة كريهة جدًّا ..وإذا سأله الجرسون أجابه :ممتازة.

وبعد أن يتركنا الجرسون يقول لي :إنه لم يذق في حياته أسوأ من هذا الطعام!

وفلسفته في ذلك هي :أنه لا داعي لتحطيم روح أناس أقاموا فندقًا صغيرًا في جزيرة بدائية ..يجب تشجيعهم على إتقان عملهم وبناء فنادق أحسن وأروع ..وثانيًا :لأنه هو شخصيًّا وُلد فقيرًا وعاش كالفقراء ..وثالثًا :أنه جاء إلى هذه الجزيرة ليستريح .وهو لن يسمح لإنسان أو طعام بأن يضايقه..

كلامه معقول!

وعندما كنا نذهب إلى حفلات الرقص كان »چيم« هو آخر من يبحث عن مقعد أو مكان قريب من الرقص، وكان إذا رأى سيدة بدائية واقفة نهض وأجلسها، فإذا رفضت حملها ووضعها فوق المقعد .. والناس يضحكون وهو سعيد..

وأصبحنا صديقين ودعاني لزيارته في هونج كونج..

وفي الطائرة وأنا عائد من بالي إلى جاكرتا كنت أقلب في المجلات فوجدت إعلانًا في صفحتين في مجلة »لايف« ووقعت عيني على اسم أعتقد أنني سمعت به من قبل .. ومددت يدي إلى جيبي أبحث عن البطاقة التي أخذتها من »چيم« وعليها اسمه وعنوانه .. قرأت البطاقة وقرأت العنوان والشركة التي يعمل بها .. إنه يعمل في شركة باسيفيك لبناء السفن ومركزها هونج كونج ورأسمالها 150 مليونًا من الجنيهات .. بل إنه مديرها العام وصاحب أكبر الأسهم فيها.

هذا الرجل يملك هذه الملايين؟ وهو بهذه البساطة؟!

لقد كنت أناديه باسمه مجردًا من أي تكليف وأنا متردد .. وأخيرًا كنت أناديه باسمه الصغير چيم هاي چيم .. هالو چيم..

ولم أكن أعرف أنني وأنا أرفع الكلفة بيني وبينه كنت أرفع سبعة من الأصفار ستكون ثمانية وتسعة إن شاء الله!

بهذه البساطة بل بسبب هذه البساطة أصبح مليونيرًا!

* * *

أستراليا القارة السعيدة!

اضطررت وأنا في إندونيسيا أن أعود إلى الهند مرة أخرى، فقد قامت حرب الحدود بينها وبين الصين . وكان الخلاف على خط اسمه خط ماكموهان . والخط قديم وهو يفصل بين الهند والصين . وهو طبعًا خط على الخريطة . ولا وجود له على الأرض . وقد توغلت القوات الصينية إلى داخل الأراضي الهندية . واعتدت على قوات الحدود وثارت الصحف في الهند .. وثار الرأي العام . وحركات الصين على الحدود تدل على أنه من المحتمل أن يتسع نطاقها في أية لحظة.

والصور التي التقطت للقوات الصينية تؤكد أن طرد الدلاي لاما ليس إلا خطوة في برنامج طويل يهدف إلى تصحيح الحدود بين البلدين . أو بعبارة أخرى، هذه الحدود لم يعد لها معنى . فقد كانت هذه الحدود بين دولتين لم يعد لهما وجود الآن .. فقد كانت بين الصين في عهد الإمبراطورية . وقد ذهب هذا العهد .. وأصبحت الصين جمهورية . وبين الهند أيام كانت مستعمرة بريطانية واليوم استقلت الهند وأصبحت دولة أخرى!

وكلام مثل هذا كثير جدًّا؛ ولذلك تقدمت القوات الصينية وأطلقت النار وجرحت وقتلت وأسرت . وهددت إمارات صغيرة على حدود الهند وتعيش في رعاية الهند مثل ولايات :سكيم وبوتان وغيرهما.

وسافرت إلى الهند مارًّا بسنغافورة مرة أخرى .وبكلكتا ثم نيودلهي .وعندما سمع مستشار سفارتنا صوتي في التليفون كاد يفقد النطق من هول المفاجأة وقال وقد خانه ذوقه الدبلوماسي، والصداقة الجديدة :وأنت ما الذي أتى بك ..هذه مصيبة!

وعرفت أن سفارتنا كانت قد وقعت في أزمة بسبب ما كتبته عن الهند .ولكن الهنود كانوا أكثر تسامحًا وأكثر هدوءًا ..واعترف لي الكثيرون منهم بأن بلادهم في حاجة إلى إصلاح ..ثم أي بلد في الدنيا ..بهذا العدد، وحديث العهد بالاستقلال، في حاجة إلى إصلاح..؟!

ثم إن الهند ليست بلدًا ولكنها بلاد وأديان ولغات!

وأمام هذه الرقة، وفي رحابة الصدر، وفي النظرة الثابتة إلى هذه البلاد الواسعة العريضة الغنية العميقة، تمنيت أن أعود إليها وأن أعيش فيها ..وأن أمشي على قدمي وأن أفسح الطريق للأبقار والقرود وأن أتركها تعيش كما أعيش..

فليس من حق الإنسان أن يقتل ليعيش هو..

وفي رطوبة المعابد ..وفي عبق رائحتها وفي الأعياد، وفي حماس الذين يعرفون عن الهند، وعاشوا فيها مدة أطول، وتجاوبوا معها أكثر، تمنيت أن أعود إليها سريعًا..

ولم تطل إقامتي في الهند..

فقد سافرت بعدها مباشرة إلى أستراليا ..فلا فتحت حقائبي ولا بدلت ملابسي ..وكل ما فعلته هو أنني توقفت في مطار سنغافورة ..وأمام رجل حافي القدمين، أو يرتدي حذاء يشبه صنادل الآباء الفرنسسكان، وقفت أعد له ما في جيوبي من روبيات هندية ..وأطلب إليه أن يحولها إلى جنيهات أسترالية ..وكان من رأي هذا الرجل أنه من الأفضل أن أحتفظ بهذه الروبيات فسعرها أغلى في أستراليا ..والروبية الهندية هي أحسن أنواع العملات في كل القارة الآسيوية ..ولكن أمام عدم اكتراثي الواضح بهذه النصيحة، قدم لي عددًا من الجنيهات أخفيتها في جيبي ..واتجهت أتسلى بالتطلع إلى الوجوه التي رأيتها من قبل..

كان كل شيء في مكانه لا يتغير ..وكأنني لم أذهب إلى أقصى الجنوب، وأصعد إلى أقصى الشمال ..فبائعة السندوتشات كما هي ..وابتسامتها تسبقها إلى كل الناس .وبائعة أوراق اليانصيب في مكانها ..وأقلام الشفاه كريستيان ديور وأقلام الحبر الشيفرز والباركر كلها على الأرض ..متجاورة وملخبطة كما يتجاور على رصيف محطة القاهرة البيض والسميط والطعمية واللبان ..والفتاة التي تحجز غرف الفنادق لا تزال وراء النافذة الزجاجية ولا يزال وجهها إلى الأرض .تمامًا كما رأيتها من قبل ..فهي لا تنظر لأحد ..وإذا رفعت وجهها لك فمن الصعب أن تعرف إن كانت تتحدث إليك وحدك، أو إليك وإلى الواقف بجوارك في وقت واحد ..وهي لأنها تحفظ أرقام كل الغرف الخالية لا تنظر إلى الغرفة..

حتى الأطفال الإنجليز الذين جاءوا يمضون إجازاتهم السنوية وعددهم بالمئات لا يزالون واقفين في الطابور ..لا بد من الطابور .وكل واحد يمسك جواز سفره في يده ..إن بعض هؤلاء الأطفال لا يمشي وإنما يحبو ..وبعضهم حتى غير قادر على أن يحبو ..إنه ممدد في سرير صغير تدفعه المضيفات من طابور إلى طابور!..

وعندما ركبت الطائرة إلى أقصى الجنوب .كانت معلوماتي عن أستراليا تحددها الدهشة والسعادة والرهبة..

كل النشرات الرسمية التي أمامي تذكر كل شيء إلا شيئًا واحدًا ..إنها تتحدث عن المصانع الحديثة .وعن السكك الحديدية والمباني الجديدة ..وهناك أرقام وإحصائيات عن مستوى المعيشة وكيف أنه مرتفع وكيف أن أستراليا اليوم هي جنة العالم كله .تصوروا قارة كبيرة جدًّا يسكنها تسعة ملايين فقط .أو يسكن جانبًا منها تسعة ملايين

فقط .ومع ذلك فهذه القارة أقفلت الهجرة في وجوه كل الناس، أو على الأصح في وجوه الملونين فقط ..أي السود والصفر وحتى البيض تشترط أن يكونوا أصحاب مهنة فنية..

وفي هذه النشرات صفحات كاملة عن تربية الأغنام وصناعة الصوف وتصديره.

وصفحات أخرى عن السكان الأصليين لهذه القارة وكيف أن الحكومة في أستراليا حريصة على بقائهم ولذلك تضعهم في مدارس محاطة بالأسلاك كأنهم حيوانات نادرة!

وأقلب في النشرات وأتفرس في الصور وفي الوجوه .لا شيء إلا الصناعة وإلا التنس وإلا الأغنام وقطارات السكك الحديدية ..وصور رجال ونساء في غاية الصحة ..وحدائق ونوادٍ وملاعب.

وكان إحساسي أن أستراليا هي دكان كبير جدًّا أو مزرعة كبيرة أو ورشة ..ولكن أين حياة الناس؛ لا أعرف.

ودار الحديث مع جاري في الطائرة حول أستراليا وكل واحد منا يتحدث عن شيء..

وهذا المتحدث أسترالي..

هو :إن بلادنا عظيمة وستكون أعظم من أمريكا في الخمسين عامًا القادمة.

أنا :ممكن جدًّا ..ولكن كيف يعيش الناس عندكم؟!

-أحسن حياة ..إن دخلهم مرتفع ..وفي بلادنا كل شيء .وهم يعملون وناجحون.

-ولكن بعد العمل أين يذهبون؟

-إلى بيوتهم ..أو إلى الحدائق والنوادي ..فنحن كما تعلم أشهر دولة في لعب التنس..

-أقصد الرجل وزوجته أين يذهبان بعد نهاية العمل؟

-إلى أي مطعم أو دار للسينما لمشاهدة أي فيلم سينمائي ..أو زيارة الأصدقاء.

-أقصد الفتاة والفتى أين يذهبان لقضاء وقت لذيذ؟!

-الإحصائيات تقول إن %25من الشبان يلعبون التنس ..وملاعب التنس فيها المجتمع الأسترالي الحقيقي.

-أقصد بعد أن يلعبا التنس أين يذهبان؟

-لا أكاد أفهم.

-معك حق ..أنا أريد أن أقول أين يذهب الشباب من الجنسين بعد أن يفرغا من العمل ومن لعب التنس ومن العشاء ..أين يمرحون؟

إن الشارع الذي أقيم فيه به 14عمارة كل واحدة 17دورًا وكلها جديدة في مقدمتها عمارة شركة الطيران »كانتاس «وهي أجمل عمارة في مدينة سيدني ..وهناك أنفاق تحت الأرض وجسور عالية وأكبرها كوبري سيدني ..والسيارات التي تمر على أي طريق من طرقه الستة تدفع ضريبة صغيرة تتضاعف بعدد الركاب وحجم السيارة..

وأستراليا هذه ليست دولة وإنما قارة كبيرة في حجم الولايات المتحدة ..ومساحتها 3ملايين ميل مربع .ونصف هذه المساحة حار والنصف الآخر معتدل ..ويعتقد علماء الجغرافيا أن هذه القارة قديمة جدًّا ..وربما كانت أقدم المناطق في العالم التي عاش بها الإنسان .فتاريخ الحياة فيها يرجع إلى 100مليون سنة مضت، ويقال إن كل جزر إندونيسيا التي تقع شمال أستراليا كانت جزءًا من أستراليا القديمة.

وأستراليا قديمة جدًّا وجديدة جدًّا، ولم يذهب إليها الأوربيون إلا في القرن الثامن عشر ..أو على التحديد في سنة 1788عندما نزل الرحالة الإنجليزي جيمز كوك يوم 26مايو واستولى على هذه القارة ورفع عليها العلم البريطاني .وفي ذلك اليوم نزل إلى الشاطئ ألف رجل أبيض ..ومن هؤلاء تكون المجتمع الأسترالي الأبيض وظل تابعًا لبريطانيا من ذلك اليوم.

وقبل هذا الرحالة الإنجليزي وصل إلى أستراليا رحالة آخر هولندي، ولكنه رأى القارة من بعيد ولم يهبط إليها، وبعده جاء رحالة برتغالي ورأى القارة أيضًا وعاد إلى بلاده ومات هناك.

وأستراليا معناها :الأرض الجنوبية؛ لأنها في جنوب العالم المعروف ..أي جنوب آسيا..

* * *

وتزايد عدد سكان أستراليا بقدوم المهاجرين من كل بلاد العالم بعد سنة 1901عندما اكتشفوا مناجم الذهب.

والآن أصبح عدد سكان أستراليا حوالي عشرة ملايين يسكنون هذه المساحة من الأرض .ففي كل ميل مربع يقيم ثلاثة أشخاص -بريطانيا كل ميل مربع يسكنه 754شخصًا!

ومن بين هؤلاء الملايين يوجد 45ألفًا من السكان الأصليين..

هؤلاء السكان الأصليون هم أغرب مجموعة بشرية في العالم كله ..فقد حار العلماء في أمرهم ..لم يتفق العلماء على أصل هؤلاء الناس .لا أحد يعرف..

ثم إن هؤلاء الأستراليين الأصليين قد عاشوا في هذه القارة ألوف السنين .فلم يتركوا حضارة، أو يبنوا بيتًا، لم يصلحوا أرضًا .لم يستأنسوا حيوانًا واحدًا، لم يكتبوا ورقة ..عاشوا هكذا في حال ارتحال ..إنهم يتركون بيوتهم ويهيمون على وجوههم ..حتى اليوم.

ولهم طريقة غريبة في المشي، فهم يمشون في خط مستقيم دائمًا في حين أن الناس المتحضرين يمشون في خطوط ملتوية إذا صادفتهم عقبة التفوا حولها ..أما هؤلاء فيمشون في خطوط مستقيمة..

وهؤلاء الأستراليون يعيشون الآن على صيد السمك .وعلى الأعشاب وصيد الحيوان ..والدولة هنا تحاول أن تحتفظ بهم حتى لا ينقرضوا ..فقد نقص عددهم في المائة سنة الماضية حوالي 350ألف نسمة؛ ولذلك فإن الدولة تفتح لهم المدارس، وتبني لهم البيوت، وتحاول أن تجعل من بينهم مدرسين وقساوسة ..وكثير من هؤلاء الأستراليين الأصليين قد تفوق في الفنون والغناء والرقص، ولكنهم حتى الآن ما زالوا يعيشون على حافة الحضارة.

نسبة التعليم هنا 100%ومعظم الناس لا يشترون الصحف ولكنهم يشتركون فيها ..فالصحف توزع في البيوت في ساعة مبكرة جدًّا، وبأسعار أرخص .هنا تصدر ثلاث صحف يومية .واحدة عدد صفحاتها 26صفحة ..كل يوم وتوزيعها نصف مليون نسخة والعدد الأسبوعي في 72صفحة وتوزيعه ثلاثة أرباع المليون وثمنه خمسة بنسات أي حوالي 15مليمًا!

* * *

ووجود هؤلاء الأستراليين الأصليين في أستراليا يجعلهم يرتعدون من الملونين ..من السود والصفر ..ولذلك عمدت أستراليا إلى السياسة البيضاء .وقد كانت أول الأمر أستراليا للإنجليز ..وبعد ذلك أصبحت :أستراليا للأستراليين.

وبعد الحرب الأخيرة وبعد أن زاد عدد المهاجرين من كل أوربا أصبحت سياستها :أستراليا للبيض..

إن الصفر من الصين والسمر من الهند ليس لهم مكان هنا ..ولكن الذي حدث أن الصفر أحاطوا هذه القارة من كل النواحي ..فهم في الشمال في إندونيسيا، وفي الشمال الغربي في سيلان والهند والفليبين، وفي أقصى الشمال في الصين واليابان ..ومنذ أيام منحت أستراليا الجنسية الأسترالية لعدد من الصينيين الأغنياء؛ لأنهم أقاموا مدة طويلة في هذه البلاد .وستعطي أستراليا الجنسية لـ 500طفل أسترالي ولدوا من أمهات يابانيات في أثناء الحرب الأخيرة.

* * *

وقد نشرت صحيفة »الديلي تلجراف «بتاريخ أغسطس سنة 1959 مقالًا للمؤرخ البريطاني الكبير »أرنولد توينبي «يتحدث فيه عن مستقبل أستراليا في الخمسين عامًا القادمة ..طبعًا مدح البلاد وجمالها وثرواتها وتقدمها السريع جدًّا ..وهو طبعًا على حق في كل ما قال ..ثم تحدث عن هذه القارة الكبيرة التي يعيش فيها فقط عشرة ملايين كلهم من الأغنياء، ورأى أن أستراليا إما أن تقسم ثروتها مع غيرها أو ستضيع منها هذه الثروة ..أو بعبارة أخرى يجب على أستراليا أن تفتح أبوابها للملونين ..للصفر ..للصينيين ..واقترح المؤرخ الكبير أن يعجل الأستراليون بالزواج من الآسيويات!

وأستراليا من الممكن أن تتسع لمائتي مليون نسمة يعيشون في رخاء.

وفي مدينة سيدني الآن محلات ومطاعم صينية .بل هنا جالية صينية قليلة لا تتجاوز بضع مئات ولكنها جالية نشطة جدًّا .ويتكاثر عددها في صمت ودون أن يشعر بها أحد.

وأكبر الجاليات الأجنبية هي الجالية الإيطالية وتعدادها حوالي 140 ألفًا، وتليها الجالية اليونانية وعددها 120 ألفًا، ثم الجالية اللبنانية وعددها يزيد على 25 ألفًا .وقد رأيت النادي الجديد؛ أقصد العمارة الجديدة التي بناها اليونانيون هناك .العمارة اسمها »النادي الهلليني «أي اليوناني ..عمارة أنيقة جميلة تكلفت ربع مليون جنيه .والعضوية فيها للجميع .وقد اختاروني عضوًا للبرهنة على أنها ليست مقصورة على اليونانيين وإنما هي لكل الناس المقيمين والمسافرين.

والجالية الإيطالية في أستراليا تحتكر بعض الأطعمة وبعض المشروبات .ومعظم الجرسونات هنا من الإيطاليين، وتوجد هنا مقاهٍ صغيرة كالتي توجد في إيطاليا .وهنا قد عرفوا كلمة كابوتشينو -أي قهوة بلبن -وكثير من الأستراليين لا يعرف إن كانت هذه الكلمة إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية؛ لأن الإيطاليين قد أدخلوها في اللغة منذ وقت طويل.

* * *

وعلى الرغم من أن أستراليا مجتمع إنجليزي صميم فإن الجيل الجديد هنا بدأ يتحرر من القيود الإنجليزية، بل إن الناس يشتمون الإنجليز ويتهمونهم بالبرود الشديد وبالكسل .قال لي رجل أعمال كبير جدًّا :إننا نكره هؤلاء الناس .إنهم باردون ..وقذرون أيضًا .إن الرجل الإنجليزي من النادر جدًّا أن يستحم ..وأحسست برغبة شديدة في الهرش، فأنا الآخر لم أستحم منذ وقت طويل .والبرد يا ناس على الرغم من أن الربيع بدأ رسميًّا من أسبوعين!!

وقال لي رجل أعمال آخر إنه عندما ذهب إلى إنجلترا كاد يختنق من برود الإنجليز ومن شدة تمسكهم بالتقاليد .وأعربت له أنا الآخر عن إحساسي ببرود الأستراليين وشدة تمسكهم بالتقاليد، وأنه لا بد من أن يرتدي

الإنسان البدلة كاملة طوال النهار وطوال الليل .فبهذه البدلة يستطيع أن يدخل أي مطعم أو أي مكان يسهر فيه، ومن غير البدلة والكرافتة يصبح طريدًا طول الليل وطول النهار..

أما الجيل الجديد هنا فقد بدأ يتحرر ..وبدأ يمشي بالبنطلون الضيق والقميص المربعات والقميص البقري -أي نسبة للبقرة وأولادها المرسومة عليه!

وبدأ الجيل الجديد يطلق الأسماء الأمريكية على البلاچات ..منها بلاچ ميامي ..وفلوريدا ..ولاس فيجاس..

وفي الصحف الآن معركة بين أنصار التقاليد البريطانية والبدع الأمريكية .وبدأت الصحف تنقل للناس هنا أن الأمريكيين يسخرون من هذه الأسماء المسروقة ..ولكن الجيل الجديد مُصِرٌّ على هذه الأسماء، مُصِرٌّ على الارتباط بأمريكا أكثر من ارتباطه بإنجلترا..

ومع ذلك فالأفلام هنا تبدأ بالسلام الملكي فيقف كل الناس، وتطل الملكة إليزابيث هي وزوجها وأولادها عند بداية ونهاية كل فيلم .وأستراليا ما تزال خاضعة للتاج البريطاني .وما يزال لها حاكم عام بريطاني .ولها نفس العادات والتقاليد واللغة ..العادات في البيت وفي الشارع والمطعم..

* * *

ولكن أعتقد أن شيئًا جديدًا هنا قد حدث!..

فمثلًا في البنك وهو مكان ليس فيه مجال للمجاملات ولا للرقة ..إنهم أناس يشتغلون في الأرقام والحسابات ومشغولون جدًّا .هذا في كل الدنيا، ولكن هنا في أستراليا يعاملونك بأدب شديد جدًّا ..تذهب إلى أحد المكاتب لتطلب تحويل أي مبلغ من المال، تتقدم إليك سكرتيرة وتفتح لك الباب، وتسحب لك مقعدًا وتظل واقفة حتى تجلس كأنك في طائرة، وكأنها هي مضيفة ..وبعد لحظات تذهب بك إلى الموظف المختص وتقدمه لك ..ويسحب لك هو الآخر مقعدًا، وينتظرك حتى تجلس ..وفي لحظات كلها أدب ورقة ينهي لك ما تريد ..وينهض واقفًا، ويسبقك إلى الباب يفتحه لك ويودعك ويتمنى لك رحلة سعيدة .مع أن الفلوس التي كسبها البنك لا تتجاوز عشرين قرشًا ..وليس هذا في البنوك فقط .وإنما في الشركات وفي المحلات التجارية..

أذكر أنني دخلت محل »وولورث «وهو من أشهر المحلات في أستراليا وفي كل دول الكومنولث ..وكنت أبحث عن الفرع الخاص بالصابون ..وظللت ألف في المحل، في أدواره السبعة ..وأجلس في المقهى وأحتسي الشاي .ثم أصعد إلى المطعم وأتناول بعض السندوتشات وبعد ذلك أنزل إلى المكتبة وإلى أقسام العطور والملابس ..ساعة من الوقت وأنا ألف ..ونسيت أنني جئت لشراء قطعة صابون ..وفوجئت بأن إحدى البائعات تمشي ورائي طول الوقت .وعندما هممت بالخروج سألتني :لماذا لم تشتر شيئًا؟ فقلت :والله كنت عاوز أشتري قطعة صابون ..لكني مش لاقي فين.

وعادت بي إلى الدور الثالث واشتريت قطعة الصابون وثمنها لا يزيد على ثلاثة قروش وودعتني حتى الباب وابتسمت ابتسامة تساوي ثلاثة آلاف قرش!

وفي شركة طيران كانتاس الأسترالية العالمية تذهلك معاملتهم ..أدب ورقة ..من المضيفة إلى الموظف ..كأنهم جميعًا »خدامين أبويا..«

لا أعتقد أن شيئًا من هذا يجري في المجتمع الإنجليزي..

فعندما كنت في لندن ذهبت إلى محل سلفريدج ..وهو من المحلات الكبيرة، وحاولت صرف بعض الشيكات السياحية ولاحظ الموظف أن إمضاءاتي كلها مختلفة بعضها عن بعض فدهش ..وقلت له إنني لم أتعود أن أوقع بحروف لاتينية ..وإنما بحروف عربية ..واقتنع الرجل وقبضت المبلغ وانصرفت .ثم ناداني بعد ذلك

قائلًا :أرجوك أن تشرح هذا لبعض زملائي، لأنهم أغبياء، ولأنهم يتصورون أن بلاد العالم كلها تكتب وتتكلم الإنجليزية..

ولكنهم في أستراليا مؤدبون ومؤدبون كمان مرة ..وابتسامتهم تبدأ في بلادهم وتنتهي في بلاد الإنجليز!

أما الجيل الجديد فقد ترك الأدب والرقة للوالدين، وانطلق هو نحو البساطة الأمريكية..

* * *

سألني بعض الناس :قماش بدلتك منين!

قلت :من عندنا.

قالوا :طيب والتفصيلة!

قلت :من عندنا برضه.

قالوا :والبدلة دي بتاعتك!

ونظرت إلى البدلة وقد تكرمشت ونقص طولها من البرد قلت :كانت بتاعتي!

والحياة الاجتماعية والسياسية والنيابية إنجليزية مائة في المائة ..فهنا برلمان من مجلسين .مجلس نواب وأعضاؤه 126عضوًا، ومجلس شيوخ وأعضاؤه 60عضوًا ..المجلس الأول لمدة ست سنوات ويسقط نصف أعضائه كل ثلاث سنوات..

وفي كل ولايات أستراليا الخمس مجلس نيابي واحد .وهذه الولايات الخمس تظهر على شكل خمس نجوم على العلم الأسترالي..

الصحافة هنا تصدر 650جريدة يومية .بل إن بعض الأحياء في المدن تصدر صحفًا يومية..

وقد دهشت جدًّا عندما قرأت في الصفحة الأولى أمس أن وزيرًا يتهم زميلًا له بالرشوة!

وعلمت أن قصة الوزيرين هذه لا بد أن يناقشها الخطباء في حديقة الدومين.

وقررت أن أخصص يوم الأحد القادم لأستمع إلى قصة الوزيرين بصراحة..

* * *

والمرأة الأسترالية هنا تساوي الرجل تمامًا ..في كل شيء..

إلا أن هناك قانونًا يجعل مرتبها دائمًا يساوي 75%من مرتب أي رجل ولكن القانون يعطيها عندما تتزوج نصف ما يملكه الرجل من أرض ومال وعقار!

والمرأة الأسترالية هي أول امرأة في العالم كان لها حق التصويت والترشيح في الانتخابات .فقد قرر ذلك قانون صدر سنة .1893

والدولة تشجع الفتاة الأسترالية على الزواج وتشجع أيضًا على إنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال، فكل طفل يولد له ثلاثة جنيهات مساعدة من الدولة .. للغني والفقير. وفي كل دور السينما في أستراليا يرى الناس شريطًا مسجلًا لزوجين أنجبا 11 طفلًا من الذكور والإناث.. ويظهر على الشاشة مندوب شركة التأمين على حياة هذه الأسرة ومعه مبالغ كبيرة من المال قدمتها الدولة لهذه الأسرة.

والمرأة الأسترالية تهتم جدًّا بصحتها وبأناقتها.. فلا توجد امرأة لا تشترك في نادٍ من الأندية، ونظرة واحدة إلى فترينات المحال في شوارع بيت وچورچ وكاسلري وفي ميدان «كروس» تدلك على أن هذه القارة ليست إلا ملعبًا كبيرًا لكل أنواع الرياضة.. وأهم الرياضات هنا التنس والكريكيت.. وقد فازت أستراليا بكأس ديفيز للتنس 14 مرة. وكان ترتيب أستراليا الثالث في الدورة الأولمبية السادسة عشرة في سنة 1956، جاءت بعد الاتحاد السوفيتي وأمريكا. وجمهور التنس معظمه من النساء.

والمرأة الأسترالية حريصة على رشاقتها لدرجة أنها تموت من الجوع ولا يضاف لها درهم واحد من الشحم.. وكل يوم تزن نفسها عارية تمامًا.. وكل يوم تنهض من النوم وتمسك خيطًا تقيس به وسطها.. وفي الأجزخانات توجد وصفات كثيرة لإنقاص الوزن وإذابة الشحم. وهناك عدد كبير جدًّا من المحال اسمها: محال الفيتامينات.. أو محال مائة سنة بلا شحم.. أو محال الوزن الذهبي!..

وكل نساء أستراليا طويلات القامة.. ومعظم النساء هنا يلبسن البلوفرات الصوفية الملونة في كل فصول السنة.. حتى في الصيف يرتدين بلوفرات من الصوف والحرير.. والآن تمشي الفتيات بالبنطلونات القصيرة جدًّا في الشوارع. وكل المحلات تذيع في الميكروفون بأصوات نسائية عن السلع التي عندها ومعظمها سلع حريمي.

والفتاة هنا تدهش جدًّا إذا أنت دفعت لها الحساب.. كما تفعل فتيات إنجلترا والسويد والدانمرك.. وهذه بداية عيوب التقليد الأمريكاني.. والمرأة هنا مهما كان دينها فإنها تستطيع أن تُطلِّق من زوجها دون أن ترجع إلى الكنيسة. وإذا انفصلت امرأة عن زوجها، فإن الزوج الجديد يجب أن يدفع تعويضًا.. والتعويض ليس كبيرًا جدًّا، والقانون هنا يسمح للشاب بأن يتزوج في سن 12 وللفتاة أن تتزوج في سن 14.. الدولة تريد نسلًا كثيرًا، تريد أن يزداد عدد سكانها من الداخل.. لا عن طريق الهجرة من الخارج!..

وفي سنة 1964 ذهب أحد الوزراء إلى أوربا لإقناع ثلاثة آلاف فتاة بالهجرة إلى أستراليا..

ثلاثة آلاف عروسة طبعًا..

واختار بنات إيطاليا لأنهن جميلات ولأنهن يجدن الطهي.. ولأن في أستراليا جالية إيطالية كبيرة..

ومن بنات سويسرا لأنهن يجدن إدارة الأعمال.. وأستراليا دولة صناعية ناهضة..

مطلوب فتيات لأستراليا.. الرجال يشكون من قلة النساء.. على عكس الدول الأوربية التي أكلت الحرب معظم رجالها ولم تترك إلا الفئران والنساء!

وعندي حل -وهو مرفوض مقدمًا ولكنه معقول وليس جديدًا- وهو أن تسمح الدولة بتعدد الزوجات!

طبعًا تعدد الزوجات حرام في الديانة المسيحية.. ولكن البابا -وهو رأس الديانة الكاثوليكية- قد سمح بتعدد الزوجات في أواسط إفريقيا..

ولكن سبب ذلك هو أن تعدد الزوجات عادة مقبولة في هذه القبائل الإفريقية. والإسلام عندما انتشر بين القبائل كان بسبب أنه لا يعارض في تعدد الزوجات.. بينما كانت المسيحية تعارض؛ ولذلك رأى البابا أنه ليس من الضروري، ولهذه الاعتبارات الخاصة، ألا يصدم الشعور الديني بتحريم الجمع بين زوجتين.. فتفضل قداسته

وفتح الباب على الآخر وسمح للرجال، شيوخ القبائل خصوصًا، بأن يتزوجوا أي عدد من النساء وأحيانًا من الراهبات..

وفي أستراليا، ولهذه الاعتبارات التي تجعل أستراليا للبيض فقط، من الممكن الجمع بين أكثر من امرأة ..واحدة منهن زوجة على الأقل ..والثانية والثالثة كالزوجات ..وفي هذه الحالة يجب على الدولة أيضًا أن تنظر بشيء من الارتياح إلى اللقطاء، كما تفعل السويد!

فما دامت أستراليا حريصة على زيادة عدد النسل بين البيض بالذات ..فيجب أن تصفق لكل من يأتي بولد جديد ..وما دامت ستصفق، معنى ذلك أنها سترفع يديها الاثنتين عن القيود وعن تنفيذ القوانين التي تسأل :هذا الطفل من أين؟ وأين وجدتموه؟ إلى آخر هذه الأسئلة السخيفة التي تؤدي إلى تحديد النسل وتؤدي في نفس الوقت إلى سد نفس الرجل، فلا يقبل ولا يعانق ..وإلى كسر قلب الفتاة فلا تحب ولا يمتلئ بطنها بالحب!

هذا رأي أعرضه مجانًا لمن يهمه مضاعفة عدد سكان الأستراليين من البيض فقط.

ومع الأسف لم يتسع وقتي لكي أتقدم بهذا الاقتراح إلى حكومة أستراليا ..ولا لكي أسجله حتى لا يلطشه مني أي شاب وشابة ..ويشرعان في تنفيذه تحت أقرب شجرة!

وأنا أنتهز هذه الفرصة لأحدثك عن يوم في حياة فتاة أسترالية!..

ليكن اليوم مثلًا هو يوم الأحد..

إنها تنهض من النوم في السابعة صباحًا مثلًا ..وتلعب بعض الألعاب السويدية ..وبعضهن يستحم في هذا اليوم ..وتمسك الخيط وتقيس وسطها، هل زاد؟ هل نقص..؟ وتقف عارية على الميزان لتعرف ..وتقف أمام المرآة وترسم حواجبها ..قول كده يا سيدي في نصف ساعة، والحواجب لا بد أن تكون غليظة وتسريح شعرها لا يستغرق بضع دقائق لأنه شعر حرير على الخدود يهفهف ويرجع يطير إلى آخر الأغنية المعروفة ..وبعد ذلك تمسك الصحيفة اليومية، وتقرأ النشرة الجوية ..وليكن الجو لطيفًا فترتدي البنطلون القصير ..وتضع المايوه في الحقيبة ثم تختطف فنجانًا من القهوة بالزبدة وبعض اللحوم الباردة وبعض أقراص الفيتامينات ..وتنطلق إلى الشارع، إلى الترام، إلى الميناء، وتركب أحد الزوارق إلى حديقة الحيوانات وتمضي اليوم كله هناك..

وبعد الظهر تذهب إلى النادي ..أو إلى الشاطئ وتشرب البيرة في الساعة الخامسة ..وتذهب إلى السينما ومعها بعض السندوتشات وتخرج من السينما في الثامنة وتتناول العشاء وتنطلق إلى البيت لتلحق آخر برنامج في التلفزيون..

وتتحدث في مكتبها عن اليوم الرائع الذي أمضته تحت الشمس في الهواء ومع رجل أجنبي جاء إلى هذه البلاد لأول مرة..

وتروي لزميلاتها قصصًا كيف أنه يدعي أن في بلاده عمارات عالية ومطارات ودورًا للسينما، وأنهم يتكلمون اللغات الأوربية في ظلال الأهرام وأبو الهول!

طبعًا وتنسى وزميلاتها أنهن جميعًا ولدن وعشن وسيمتن في أستراليا دون أن يسافرن إلى أي بلد آخر..

يوم لذيذ ..ما رأيك؟

وعندما تعود هذه الفتاة إلى البيت ستركب الأتوبيس ..ولن يتسع وقتها لقراءة المجلات .ومعظم هذه المجلات هنا تتحدث عن الجمال والشباب..

ويظهر أن المرأة هنا لم »تَتَأمْرَك «أي تصبح أمريكية فهي لا تحب الصحف المثيرة التي تتحدث عن الجرائم ..وربما كان السبب هو أن هؤلاء الأستراليين من سلالة المجرمين الذين كان الإنجليز يحكمون عليهم بالسفر إلى هذه البلاد على سبيل العقوبة ..فالجريمة تجري في دمائهم ..ويظهر أن الجريمة تجري فقط في الدم ..ولكنها ليست الدم نفسه ..فهم أناس طيبون مسالمون ..يكفي أنهم يريدون أن يعيشوا وأن يجعلوا لحياتهم طعمًا ولونًا ..ويكفي أن واحدة منهن أبدت إعجابها الشديد ببلادي وأعجبت بأخلاق المصريين ..وبعيونهم وشعرهم الأسود الخشن ..وبثقافتهم وسفرهم بين القارات .وسألتها إن كانت قد قابلت أحدًا من المصريين!

وكانت هزة رأسها، وهي تقول :لا، أكبر دليل على غباوتي.

ولكن عندما وازنت بين غباوتي، وبين التحية العظيمة التي وجهتها لشخصي، أحسست بالخسارة الفادحة التي أصابت بلادي .عندما أضاع أحد أبنائها هذا المجد العظيم بحسن نية!

ووعدت بلادي، بيني وبين نفسي، أن أعوضها عن هذه الخسارة عند أول فتاة أصادفها في أستراليا بعد ذلك!

ولاحظت أيضًا أن الفتيات في أستراليا لا يملن كثيرًا إلى استخدام التليفون .فالتليفون هو وسيلة المواصلات عند الفتيات العاجزات عن الكلام بصوت مرتفع ويقلن ما يعجبهن وعلى عينك يا تاجر!

وهي تمشي في الشارع بسرعة كأنها على موعد مع أحد الطيارين على سلم إحدى الطائرات النفاثة التي تأخرت عن موعد قيامها دقيقة ونصف دقيقة!

والحياة هنا في الليل غريبة ..فالمحلات كلها تقفل أبوابها في الساعة الخامسة مساء، كل المحلات طبعًا ما عدا بعض المطاعم تقفل أبوابها في الساعة التاسعة والنصف .وفي بعض الأحيان تقفل المحلات في الحادية عشرة ..بعدد أصابع يدك محلات أخرى تقفل نوافذها في الساعة الثانية عشرة، أما الأبواب فتبقى مفتوحة حتى الثانية صباحًا وفيها هيصة وخمور ورقص ..ولكن الكباريهات هنا قليلة جدًّا ..ويظهر أن التلفزيون قد علم الناس البقاء في البيت، فالتلفزيون قد نقل الأفلام والحفلات الراقصة كلها إلى الناس في بيوتهم -جهاز التلفزيون بالتقسيط 37جنيهًا، ونقدًا وحالًا بمبلغ ثلاثين جنيهًا!

والرجال إذا سهروا فهم يذهبون إلى البارات ويشربون البيرة واقفين .ويقطعون الليل كله بين البار وبين دورة المياه -آسف دورة البيرة!

ولا يوجد هنا طعام لوكس .ولا شراب لوكس ..وإن كانت توجد فقط شوربة من ذيل الكانجرو ..هذا هو أحسن شيء يقدمه لك الأسترالي.

والكانجرو تقاومه الحكومة الآن لأنه يأكل الأعشاب التي تأكلها الأغنام ..والأغنام أهم..

أما الكانجرو فيمكن الاحتفاظ به في الحدائق للزينة.

* * *

ومدينة سيدني وعدد سكانها حوالي مليونين، هي المدينة الوحيدة المودرن..

أما بقية المدن مثل كانبرا وملبورن ونيو كاسل وبريس بن وداروِن وبيرث -فهي مدن إنجليزية شكلًا وموضوعًا وعادات وتقاليد ..والناس هناك ينظرون إليك بدهشة ..ويكاد الواحد منهم يسألك :أمال حضرتك جاي ليه هنا؟

فتقول له :والله أتفرج.

فيقول :يعني حتقابل الناس؟

وترد عليه :أيوه!

وتفاجأ به وهو يقول :إزاي تقابل الناس وانت مش لابس بدلة سودة وكرافتة سودة يا أخي!..

ولكن الطريق إلى هذه المدن الإنجليزية جدًّا أو الإنجليزية بعض الشيء ..رائع فاتن ..لا تجد له نظيرًا في أي مكان من العالم ..وشكل الوديان والجبال والأنهار والأبقار والسيارات والمداخن والمصانع ..والهواء النظيف ..وكل شيء نظيف ..الناس والحيوانات والأعشاب ..كل هذا يغسلك من داخلك ..يجعلك تملأ صدرك بكل شيء دون خوف ..فالبلاد كلها صحة ..وكلها شباب، وكلها ترحب بالأجانب ..فهنا عشرات الألوف من الأجانب، امتلأت أجسامهم وجيوبهم بالملايين!

ولكن سيدني أجملها جسمًا..

أذكر أن الطائرة عندما أخذت تحوم فوق سيدني ليلًا، كانت سيدني كعشرات الألوف من قطع الماس تناثرت فوق قطيفة سوداء ..وظلت الطائرة تلف وتدور أكثر من نصف ساعة، فقد كان المطار مليئًا بالطائرات وكانت عجلات الطائرة لا تطاوعها في النزول ..وفهمت أن الطائرة ستنزل في مطار آخر ..في هذه اللحظة أحسست أن عقلي سيطير إذا لم أر هذه المدينة في الليل..

واليوم بعد أن مشيت في كل شوارع مدينة سيدني، ومررت بكل معالمها ومتاحفها والميناء ..وملأت عيني منها ..يكاد عقلي يطير إذا لم أسافر منها اليوم أو غدًا لأرى بلادًا أخرى..

مهما كانت أستراليا جنة وأروع بزمان من أي جنة ..فليست الجنة أن ترى شيئًا واحدًا كان حلوًا، ولكن أن ترى الكثير وأن تعرف الكثير .فالجنة في التنقل لا في البقاء حيث أنت .فأنا أرفض أن أبقى حيث أنا حتى لو كنت من أغنياء أستراليا ولو كان عندي أعظم نادٍ للقمار وبه ألف ماكينة للبوكر تبلع أموال الناس طول الليل وطول النهار ..وهي واقفة على حيلها لا تكلفني إلا تنظيف التراب الذي تساقط من أيدي المقامرين الخاسرين..

ليست الجنة في أن أشير إلى التفاحة فتسقط في فمي وأن تشير إليها معدتي فتسقط في أمعائي ..وأن تلعب بها معدتي فلا أعرف أين تذهب بعد ذلك.

ولكن الجنة هي أن أجري وراءها وأتصيدها من الوحل وآكلها خضراء تلسع لساني ..وأشكو منها ومن طعمها وأملأ بالشكوى هذا الورق ..وألوف الصفحات ..أمال يعني أعيش منين!..

* * *

أستراليا تعرف الشيء الكثير عن لبنان، إن فيها 25ألف سفير يمثلون لبنان !..ومن بينهم أصحاب ملايين بدءوا حياتهم ببيع الأطعمة اللبنانية.

وهناك مثل يقول :تقتل اللبناني يطلع تاني ..وأنا أعتقد أن هذا المثل صحيح ..بل أعتقد أن قتل اللبناني مستحيل ..فهو لا يموت..

إنك تضعه في أية بيئة مهما كانت عسيرة، فيعيش ويتفوق .وفي أستراليا عدد كبير من التجار الناجحين، بل بينهم أصحاب ملايين ..جاءوا إلى هذه البلاد منذ 70عامًا ..وعاشوا في ظروف قاسية وتفوقوا على هذه الظروف بشرف ونزاهة وصبر عجيب .سألت المليونير أو الملايينير تشارلز سكاف، أو سكيف :كيف جمع هذه الثروة ..وكيف أصبحت له هذه المصانع وهذه المحلات التجارية لبيع الأقمشة القطنية والصوفية؟ وكيف أن اسمه

يرن في سنغافورة وفي هونج كونج؟ وسألت أخاه المليونير روبي سكيف، وأخاه المليونير چون سكيف :كيف أصبحوا أصحاب ملايين؟ كل واحد منهم له قصة.

وقابلت أناسًا عاديين جدًّا ..وبعضهم لا يقرأ ولا يكتب وقد جاءوا من قرى مجهولة جدًّا في جبال لبنان، وقطعوا هذه المسافات الطويلة جدًّا من الزمان والمكان، قرروا وهم في هذه القرى المجهولة أن يعيشوا في أستراليا..

قابلت فتاة في الطائرة اسمها» :حنة بوطنوس «من قرية »بلوزا«، وجدت المضيفات حائرات في أمرها ..إنها تطلب منهن أشياء بلغة غير مفهومة وتجمعت حولي المضيفات يسألنني إن كنت أعرف اللغة اللبنانية -وهي فعلًا لغة مختلفة عن لغتنا، بل عن لغة أهل المدن في لبنان نفسها -ودار بيني وبين الفتاة اللبنانية كلام تفهمه مني ..وكلام لم أفهمه منها ..وعرفت أنها تريد أن تشرب »لاموناضة «أي ليمونادة أو عصير ليمون..

لقد جاءت هذه الفتاة إلى أستراليا لتعيش مع أخيها الذي لا يعرف القراءة والكتابة ..وقابلته في المطار فعرفت أنه سيبقى وسيتعلم اللغة الإنجليزية هو وأخته..

قابلت فريد جبور إسطفان ..إنه صاحب مطعم الأرز في أعظم شوارع العاصمة في شارع بيت ..ومطعم الأرز في الطابق الثاني من عمارة صغيرة ..وفريد متزوج من لبنانية ولدت في أستراليا، وهما الآن في أستراليا ..وفريد كان يعمل سائق تاكسي، وكان يعمل صبيًّا في مطعم ..وهو منذ 11سنة في أستراليا ..وقرر أخيرًا أن ينتقل إلى القاهرة وأن يسترد جنسيته اللبنانية فقد سمع أن التجارة عندنا أحسن ..وهو مستعد أن يعمل في أي مكان وأن يبدأ من جديد..

قابلت تريزة بو خاطر وهي متزوجة من شاب إيطالي وقد افتتح الاثنان مكتبًا للسياحة هنا ..والمكتب يعمل بنجاح هائل، وهي على الرغم من أنها لا تعرف الكثيرين من اللبنانيين هنا فإنها لا تشعر بالغربة ..فأي مكان كأي مكان ..والحياة عمل..

وعرفت أن عدد الذين هاجروا من قرى بلوزا وزغرتا وبشرى وكفر منعان المجهولة في جبال لبنان حوالي عشرة آلاف رجل وامرأة ..وعرفت أن اللبنانيين هنا يسمون المهاجرين الجدد باسم الأستراليين الجدد.

وقد حاول أصحاب الملايين اللبنانيون :سكيف ومنصور وكاندل أن يقنعوني بأن جمع مليون جنيه أو عشرة ملايين جنيه ليس صعبًا ..أبدًا ليس مستحيلًا .إن المهم أن تجمع المائة ألف الأولى فقط..

روى المليونير تشالز سكيف كيف أن والده جاء إلى هذه البلاد من 65عامًا، وكيف أنه بدأ حياته ببيع الأطعمة اللبنانية ..وكيف أنه كان يصنع الطعام في البيت ويمر على الناس في البيوت، لم يكن له مطعم ولا مطبخ ولا اسم ولا مكان .ولكنه قضى عشرين عامًا يحمل الطعام على كتفه؛ عشرين عامًا افتتح محلًّا صغيرًا لا للطعام ولكن للأقمشة ..ولما مات تفرق أولاده كل واحد في عمل ..ونجحوا جميعًا ولكن كيف نجحوا؟ يقول أصحاب الملايين اللبنانيون إن النجاح ليس له سر .ولكن الصبر والبساطة في الحياة هما سر النجاح..

ويقول روبي سكيف ونحن في قصره الجميل على ميناء سيدني :أعتقد أن سر النجاح هو في التواضع ..فالإنسان يجب أن ينحني لعمله لا أن يجعل العمل ينحني له ..وهناك كثيرون تخرجوا في الجامعة ومعهم شهادات جامعية ..معظم هؤلاء لم ينجح .لماذا؟ لأنهم يترفعون عن العمل بأيديهم بينما ينجح الرجل الذي لم يدخل الجامعة؛ لأنه يرى أن العمل أكبر منه وأنه تلميذ في جامعة الحياة وأنه لم يتخرج بعد، ولن يتخرج أبدًا..

ولاحظت أن أولاد أصحاب الملايين يعملون معهم في المكاتب وفي المحلات التجارية ..جميعًا .ففي مكتب تشالز سكيف توجد ابنته »جميلة «سكيف ..إنها تعمل سكرتيرة عادية جدًّا ..ترد على التليفون وتكتب الرسائل على الآلة وتحضر في مواعيد العمل ..وكذلك الأولاد الذكور ..إنهم ولدوا ليعملوا ولينجحوا أيضًا..

هنا 25ألف لبناني قرروا أن يعيشوا ..إن معظمهم لا يعرف اللغة العربية ..ومعظمهم لم ير لبنان ولكن أي عمل جليل يؤدونه للبنان أكثر من أن ينجحوا هنا أو في أي مكان ..وأن يكونوا أحسن صورة لها .إنهم هنا أستراليون، ولكنهم يفتخرون بأنهم من لبنان.

إنني أحييهم وأنحني للصبر والكفاح والنجاح والشرف.

وأتمنى ألا يسألني الناس بعد اليوم :أمال مفيش حد من بلدكم هنا ليه؟

أسترالي نموذجي :صحة وشباب وأمل فهو مسكين في أغنى قارة .عدد سكانها عشرة ملايين ويمكن أن تستوعب 500مليون

في زمهرير الجنوب!

بدأت معركة الشتاء ..أو معركة البرد ..فالغرفة التي أحتلها -الحقيقة أحتل جانبًا من جانب السرير الذي بها -بدأت أشكو فيها من شدة البرودة؛ ففيها سرير صغير، والجدران عالية، وعارية أيضًا .في جانب منها حوض للماء ..والحنفية طول الليل لها صوت كأن في جوفها ثعبانًا كبيرًا يريد أن يبتلع الصابونة الموضوعة على الكرسي ..أحاول أن أجد جرسًا فلا أجد .أتصل بالاستعلامات في التليفون ويكون الجواب عليك أن تبحث عن الخادمة ..والخادمة لا أعرف أين هي ..الفندق كبير جدًّا ..والطرقات طويلة وملتوية ..وأنا ..ماذا أريد من الخادمة ..أريد أن أشرب أي شيء دافئ ..بل أي شيء يغلي ..بلاش شاي ..عاوز بطانية ..لا بد أن أبحث عن الخادمة ..وأخيرًا عرفت مكان الخادمة ..إنها في بيتها ..لأن اليوم إجازتها ..وغدًا ستحضر في الساعة السادسة والنصف صباحًا ..ولكن كيف أصل إلى الساعة السادسة والنصف ..أريد أن أكون في حالة تسمح لي بمقابلتها

غدًا ..أريد أن أنام ..أغمض عيني حتى لا تكونا حمراوين في الصباح، فتخاف مني ..لا فائدة ..يجب أن أنام بالطول أو بالعرض ..لكن طول مين وعرض مين؟ !إن الغرفة ليس لها طول وليس لها عرض ..إنها زنزانة ..وجربت النوم على مرتبة من الكاوتش وفوقي بطانيتان ..وضعت واحدة تحتي والأخرى فوقي .وانكمشت ..الحقيقة هذه الكلمة لا تناسب حالتي أبدًا ..فأنا فعلت أكثر من الانكماش، ولكن البرد يلسعني ..يقرصني في أماكن أخاف منها ..فهنا في الجانب الأيمن وهنا في الظهر ..وأنا في حالة لا تسمح لي أبدًا بتشخيص هذه الأمراض الجديدة ..فتحت النور ..فكرت في أن أنقل السرير بعيدًا عن الحائط ..ونقلته ووضعته في منتصف الغرفة، ولكن البرد يترصدني ..فكرت في أن أنام بلا غطاء، فالمراتب ألواح من الثلج مرصوصة ..والبطانية ألواح من الثلج طلع فيها شعر ..هل أنام في الدولاب كأنني عشيق سمع أقدام الزوج فاختبأ في أقرب شيء وجده ..هل أفتح حقيبتي وأدخل فيها كالقواقع أو كالسلحفاة..

أصبحت الآن أعتقد أن السلحفاة المسكينة مرت بهذه التجربة ..لا بد أنها هي الأخرى نزلت في فندق كهذا ويئست من البرد ..فخلعت جدران الغرفة وحملت أحجارها على ظهرها وهربت!

ولكن كيف أهرب وإلى أين؟

وفي اليوم التالي جاءوا لي ببطانية أخرى..

ولكن البرد يتسلل من بين البطاطين ..وانتقلت إلى غرفة أخرى ..وكانت أسوأ من الأولى ..وانتقلت إلى غرفة ثالثة ..وفي الصباح طلبت الخادمة قبل أن تذهب إلى بيتها ..وقلت لها :أنا الراجل السقعان ..أنا عاوز..

فقالت :عارفة ..بطانية.

-لا ..عاوز دفاية.

-إيه دفاية؟ يادي الفضيحة !على فكرة إزاي واحد شاب زيك يخاف من البرد ..وإزاي؟

-عارف حتقولي إيه ..سمعت السؤال ألف مرة ..يا ستي أنا من بلاد تأكل النار وتشرب النار ..المية عندنا بتغلي ..السمك في الأنهار مسلوق ..الطيور متعلقة مشوية على الشجر ..أشجار القمح عندنا بتطرح عيش شمسي ..أشجار الأرز عندنا بتطرح محشي ورق عنب ..يا ستي أنا من الماو ماو ..صحيح بلادنا حارة بس أنا هنا حاموت من البرد ..يعني أعمل إيه؟ حضرتك مش رحت جنينة الحيوانات بتاعتكم، مش شفت الفيل كاشش ونايم جنب الحيط .ليه؟ من البرد .أهو أنا بقى من بلاد تركب الأفيال ..مبسوطة؟ !عاوز دفاية ..في عرضك!

أجمل حيوانات أستراليا ..إنك تجده في كل الحدائق وعلى كل الأشجار ..ليس ضارًّا..

الكانجارو وليس له وجود إلا في أستراليا ..سريع القفز يعتمد على ساقيه وذيله ..يقفز قفزات واسعة جدًّا..

الحنين إلى الحياة البدائية :الشواء في الهواء الطلق والرقص بعد ذلك في أحد أعياد الحصاد..

وأنظر من النافذة فأجد الناس في ملابس خفيفة ..بدل فقط ..أو قمصان وبنطلونات ..والنساء في ملابس خفيفة ..ولكن النساء ليست مقياسًا لدرجة حرارة الجو ..فالمرأة تلبس الفساتين السوداء في عز الصيف والبيضاء في قلب الشتاء .حسب الموضة، لا حسب الترمومتر!

وأصبحت الآن أتعرض كل يوم لدهشة خادمة ..أصبحت »فرجة .«كل خادمة تدخل تجد المدفأة في غرفتي تبدي دهشتها ..وأخيرًا تضايقت جدًّا ..وقلت للخادمة :هل قرأت الصحف اليوم؟

قالت :طبعًا.

قلت :ما الذي لفت نظرك؟

قالت :لا شيء.

قلت :هناك شيء لفت نظري أنا ..لقد صورت الصحف طائر البطريق ..طائر البنجوين في ميناء سيدني..

قالت :أيوه ..رأيت الصورة.

قلت :هه ..إيه رأيك ..يبقى الدنيا حر والا برد؟ أهو الطائر ده جاي من القطب الجنوبي ..ليه؟ لأن هنا برد ..وده طائر ولد في الثلج ويعيش ويدفن في الثلج ..يبقى أنا معذور والا لأ؟

قالت :لا..

قلت :يا ستي زي بعضه ..المهم إني أنام وبس ..ومن فضلك لما تكتبوا عن بلادكم ابقوا قولوا لنا »لطيف «في الصيف يعني إيه .لأن »لطيف «عندكم معناه »يا لطيف «عندنا..

وبدأت أشكو من البرد..

فقالوا لي :سيب أستراليا كلها أحسن.

فقلت :حاضر، أسيب اللوكاندة!

* * *

عندي طريقة كلما نزلت أي بلد جديد..

فأنا أحدد الشوارع والبيوت بطريقة خاصة..

هناك أناس يحددون الشوارع بالبنوك الكبرى ..فلا أحد يجهل مثلًا البنك المركزي في القاهرة ..أو البنك المركزي في أية عاصمة.

ولكن أنا أعتقد أن الناس فعلًا يعرفون البنك المركزي، وهم في الواقع يعرفونه بالسماع ولكنهم لا يعرفون مكانه ..فمعظم هؤلاء الناس الذين نسألهم من المشاة ..وهذا الماشي لا يمكن أن يعرف البنك ..إنه رجل فقير أو متوسط الدخل يمشي على رجليه ولا يملك سيارة ..وحتى الذين يملكون السيارات ليست لهم أموال في البنوك -مثلي -هؤلاء يكرهون البنوك..

يعني لا يجب أن تحدد الأماكن والشوارع بالبنوك..

وفي مدينة سيدني بالذات لا أنصحك بالاعتماد على البنوك، لأن هذه المدينة فيها أكثر من سبعين بنكًا ..كل بنك له عمارة أكبر من عمارة إيموبيليا) .نحن الآن في سنة .(1959وكل هذه البنوك تبدأ بكلمة من الكلمات الثلاث :أسترالي ..سيدني ..كومنولث..

أنا أحدثك عن تجربة، فقد دخت دوخة الكواكب في السماء ..فهناك أموال محولة لحسابي هنا، ولكني لا أعرف اسم البنك بالضبط ..لقد كنت أتصور أن البنوك في عدد أغنام جحا، لا في عدد أغنام أستراليا!

ولذلك فأنا أحدد الأماكن هنا أولًا بمحطة السكة الحديدية ..وأحددها بالبوستة العمومية ..وأنا شخصيًّا عندي حاسة الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية ..ولا أذكر أنني ذهبت إلى بلد في العالم لم أر فيه محطة السكة الحديدية، أو لم أعش في محطتها ..أنا لا أذكر..

إن هذه المحطات تسحرني ..بكل ما فيها من ضوضاء ودخان وزحام ..لا أعرف السبب على التحديد ..ولكن منظر الناس وهم يجرون ..منظر الناس وهم ينتظرون ..منظر الاهتمام على وجوههم ..مجرد أن لكل واحد منهم هدفًا ..كل هذا يسحرني ..يثيرني ..شكل القطار ..وهو عالي الرأس وقد تربع على عجلات من حديد والدخان يخرج من رأسه، وصوت الماء وهو يغلي كأنه عقل يفكر ..منظر المحطة وكأنها خطة موضوعة ..كأنها خطة ينفذها ألوف الناس كل يوم..

شيء لا يخطر لك على بال -إنه قطن وبكميات وفيرة جدًّا!!

كما كان الناس يفعلون في أوربا من مئات السنين :يعصرون العنب بأقدامهم تمهيدًا لصنع قدح من النبيذ!

إن هذا الإحساس بأنك على سفر دائمًا ..بأنك ستترك أناسًا وتلتقي بأناس ..بأنك ستفقد أحدًا، أو ستكسب أحدًا ..هذا الإحساس يسكرني ..إن أتعس شيء في الدنيا أن نكون »هنا« دائمًا ..أو نكون »هناك« دائمًا ..ألا نفقد أحدًا ..ألا نكسب أحدًا ..أن تكون أنت وظروفك وبيئتك وكل الناس مثل توءمي سيام لا تنفصلان أبدًا..

إن منظر التهيؤ لشيء يعجبني ويثيرني ..إن منظر الراقصات والراقصين لا يهزني ..ولكن منظر الاستعداد والتهيؤ للرقص هو الذي يعجبني ..إن شكل الشفاه وهي تقترب والشعور الذي يغمر المتعانقين قبل التقبيل هو الذي له كل معنى..

ولكن كل شيء كامل، كل شيء تام دون حركة، كل شيء على رصيف المحطة ولا يغادرها ..كل شيء لا يرتبط بقطار، بسفر، بانتقال، كل شيء لا ينتقل من »هنا« »إلى »هناك«؛ ولا يكون في حركة دائمة ..كل هذا هو الموت ..ولذلك فأنا أحب الاهتمام بشيء، والاستعداد لشيء والتصميم على شيء، وأن تحمل متاعك، وأن تحمل همومك ومشاريعك وتنتقل ..كل هذا تجده في محطات السكك الحديدية ..أو في المطارات أو البوستة العمومية..

لقد عشت أيامًا طويلة في محطة روما ..وأيامًا جميلة في محطة ميونيخ وأيامًا رائعة في محطة ليون في باريس ..ومطار فرانكفورت ومطار زيورخ ..وهنا في محطة سيدني توجد السكك الحديدية . .ويوجد الترام وتوجد الزوارق البخارية .وتوجد المطاعم، والمقاهي، والصحف والكتب، وصناديق البريد ..هنا حياة ..فاجعل طريقك إلى الحياة في سيدني -أو أي بلد كبير -يبدأ من مركز ومحطة الحياة!

هذه الأشياء الغريبـة!

●كل شوارع سيدني وملبورن وكانبرا فيها علامات، وعلى العلامات كلام كثير .فالمشي هنا من الساعة كذا للساعة كذا ..وممنوع مشي المشاة في هذا الشارع كله ..وأية دراجة تمشي هنا عليها غرامة 50جنيهًا!

●بعض السيارات تتدلى منها قطعة من الحديد تمس الأرض .ويقال إن بعض الذين يركبون السيارات يشكون من آلام في المعدة، والسبب في ذلك وجود شحنات كهربية في السيارة .ولذلك يجب تفريغ هذه الشحنة عن طريق هذه القطعة من الحديد!..

●مواقف السيارات هنا يملكها أفراد ..والموقف عبارة عن قطعة من الأرض مرتفعة حوالي ثلاثة أمتار عن الشارع ..ويجب أن يقف عليها عدد من السيارات، وبعد ذلك تعلق اللافتات تعتذر عن ضيق المكان!

●توجد في سيدني دار سينمائية لا تعرض إلا الجريدة الإخبارية والكرتون والموضوعات الصناعية والزراعية ..والعرض يبقى ساعة ..والعرض متواصل من الثانية عشرة صباحًا حتى الثانية عشرة مساء ..التذكرة ثمنها شلنان!

●فنجان شاي وقطعة من الخبز وقطعة الزبد ثمنها خمسة شلنات ..العشاء يصل إلى 170شلنًا، العشاء طبق لحم مشوي وبعض السلطة الخضراء.

●وفي حديقة الحيوان هنا غراب أبيض، وكان العرب يقولون إن الغراب الأبيض مستحيل الوجود ..مفيش مستحيل يا عرب!!

●المكتبة العامة التي أكتب فيها الآن ..الكتب موضوعة على الجدران ..وأنت تدخل وتبحث عن الكتاب وتعيده إلى مكانه ..كأنك في بيتك تمامًا وكأنك في بيتك أيضًا لا تخرج والكتاب في يدك ..وهي مفتوحة من العاشرة صباحًا إلى العاشرة مساء!..

●أحسن طريقة ونصيحة للذين يخافون من البرد ولا يجدون خادمة الفندق أن يفعلوا مثلي :أن يناموا بين المراتب .ولقد فعلت .واسترحت إلى ذلك تمامًا .ولا يهم أن يتكسر عظمك من ضغط المرتبة .هذا أرحم من الروماتزم.

* * *

البحث عن مرجريت شبرا

غرفتي الجديدة لا تطاق، ضيقة، رطبة، ليس فيها منضدة، وإذا طلبت منضدة فأين أضعها، وإذا وضعتها فكيف أجلس إليها أو عليها أو أدخل فيها، وإذا استطعت فإن المدفأة سترسل حرارتها الكسيحة إلى ظهري، أما صدري ووجهي ويدي فستبقى جميعًا قطعًا من اللحم الجاف ..وأحاول فتح النافذة لأرى الشمس عملًا بنصيحة جحا عندما وضعوه عاريًا فوق أحد الأسطح وأشعلوا النار على بيت بعيد عنه ..وقالوا له :الدفء بالعين!

ورأيت الشمس فعلًا ولكن الشمس كانت طالعة فيها جدًّا، كأنها فتاة حلوة تتدلل على ابن الجيران ..فهو يراها ولكن تتظاهر بأنها لا تراه .وإذا رأته فإنها لا تشعر به .وإذا شعرت به فإنها تخفي هذا الشعور.

بالاختصار كانت الشمس مرسومة في السماء وليست شمسًا حقيقية.

وأمس قررت ألا أذهب للمكتبة .فقد تعودت أن أذهب إليها كل يوم وهناك أضع أوراقي والصحف الصباحية وبعض الكتب والبالطو والبلوفر والكوفية وزجاجة الحبر وبعض السندوتشات وبعض الجوارب

الاحتياطية ..ولكن لاحظت أن الطلبة والطالبات يتركون الكتب والقراءة والكتابة ويتفرجون على طريقتي في الكتابة ..فإنني أكتب من اليمين إلى اليسار، وكنت قبل ذلك لا أتضايق إذا نظر إليَّ أحد وأنا أكتب تمامًا كالمطرب أو كالعازف على القانون أو كالمؤذن ..كلهم لا يخجلون من الجمهور ..ولكن في أستراليا شعرت
بالضيق ..وشعرت أن نظراتهم تجعل الورق الذي أكتب عليه أحيانًا خشنًا كالحائط يتعثر فيه الكلام، وأحيانًا رقيقًا كورق السجاير يتمزق تحت القلم..

وفي كثير من الأحيان كنت أشعر كأنني بهلوان يأتي بحركات غريبة، وكأن القلم)زانة (أقفز عليها من أول الصفحة إلى آخرها ..يعني نظراتهم مش لطيفة.

وعدلت عن الكتابة في مطعم المحطة ..فقد لاحظت أنني أجلس مدة طويلة ثم لا أطلب سوى واحد شاي، وفي النهاية لا أدفع أي بقشيش .مع أنه كان في نيتي أن أدفع لولا أن تعليمات الحكومة صريحة بعدم دفع البقشيش، وأنا لا أريد أن أبين لأهل أستراليا أن أبناء الجمهورية العربية المتحدة)مصر سابقًا (أقل منهم تمسكًا بالقانون.

وقد اكتشفت أن هذا القانون لا يتمتع بأية شعبية ابتداء من بوفيه المحطة حتى بوفيه المطار!

* * *

وذهبت إلى بنت بلدي..

إلى مرجريت وليدة شبرا .وهي المواطنة الوحيدة في هذه البلاد .وفي المطعم الذي تديره جلست في أحد الأركان وقدامي الشاي والقهوة والسندوتشات ..وبدأ الناس من جديد يتفرجون ويتساءلون ..من هذا الغريب الذي يجلس وتحت قدميه مدفأة وأمامه عشرات من الأكواب والفناجين ولفائف الطعام وأمامه زهرية ورد..

وكان الموقف لا يحتمل أبدًا .فأنا لا أستطيع أن أرهق مرجريت الطيبة فأنا لا أعرفها إلا منذ يومين ولا داعي أبدًا إلى أن أضيف إليها متاعب أخرى ..فهي تكافح هنا في هذه البلاد ..وإيرادها محدود، ثم إن ثمن البنزين مرتفع وسيارتها التي لا تفارقني تكلفها الكثير ..وهربت ..وعندما سألتني عن سبب الهروب رويت لها قصصًا كثيرة.

وقررت شيئًا غريبًا .ولكن الفكرة أعجبتني ونفذتها فورًا.

لقد قررت أن أفعل شيئًا في حديقة الدومين ..حيث يوجد الخطباء والساسة والمجانين..

وفي الطريق إلى الحديقة مررت على أحد محلات الموبيليا واشتريت منضدة صغيرة، وطويتها ووضعتها تحت إبطي ودفعت فيها جنيهًا ..وكلما توهمت أن أحدًا ينظر إليَّ كشرت في وجهه كأنني أحد الخطباء ..ولما رأيت أناسًا كثيرين ينظرون لي كادت المنضدة تسقط من يدي وكادت ساقاي تقفزان فوقها وينطلق لساني يلعن أبو خاش كل الناس الذين يزعمون أن بلادهم حرة ومع ذلك يحولون بيني وبين حريتي.

وفي الحديقة وضعت المنضدة وفوقها أوراقي وبدأت أكتب ومضت ساعة هادئة لا أشعر فيها بأحد لولا أن كلمات تساقطت على أذني تقول :لاجئ ..يوغسلافي ..تركي ..مجري..

ولما سمعت كلمة إسرائيلي، تضايقت جدًّا وأفلتت مني صرخة، خرجت من أنفي ..إنها لشدة اضطرابها أخطأت الطريق إلى فمي!

واكتشفت أن عددًا من النساء والرجال تجمعوا في مقاعد مجاورة وراحوا يتفرجون ..وبعضهم بدا عليه الفزع كأنهم تصوروا أنني أكتب خطبة طويلة وأنني سألقيها كلها عليهم ..ولم أفهم لماذا يدهشون ..ألا يحدث أن الرسام ينقل أوراقه إلى الحديقة ويرسم هناك، وعازف الكمان ألا ينقلها إلى الحديقة وتحت شجرة يحرك أصابعه،

والسيدات ألا تنقل كل واحدة منهن مجموعة من البكر والإبر وتقطع ساعات النهار في عمل بلوفر أو جاكتة ..ولكن هذه المناقشة بيني وبين نفسي لم تقنع الناس بالسكوت عن التعليق.

وأواسي نفسي وأقول :برد برد يا أخي ..سيكون هناك دفء في مانيلا ..ستكون هناك ليالٍ ممتعة في هونج كونج ..ستكون هناك فلوس في طوكيو .بس اكتب ولا يهمك!

ولكن الناس يتوقعون مني أن أقف على يدي أو أنزع ملابسي وأصرخ كما كان يوحنا المعمدان يصرخ في الصحراء وقد ارتدى جلود الحيوانات ..ولاحظت أن الساندوتشات قد سقطت إلى جوار قدمي ..فمددت يدي وأخذتها وبدأت آكلها بصورة أراحت الناس ..لأنهم يتوقعون مني أن أقوم بأعمال شاذة ككل الذين يجيئون إلى هذه الحديقة!

وأخيرًا اعتدلت في جلستي ونزعت الساندوتش من فمي عندما وقف أمامي عسكري بوليس ضخم وسألني إن كان معي تصريح ..فلم أفهم السؤال ..فأعاد السؤال فلم أفهم أيضًا.

وفي قسم البوليس عرفت أن كل إنسان يخطب في هذه الحديقة يجب أن يخطر البوليس ..وبعد ذلك عليه أن يقول ما يشاء .وهو حر في أن يلعن كل الناس ابتداء من رجال البوليس، حتى التاج البريطاني!

وقلت له إنه لم يكن في نيتي أن أخطب أبدًا ..وإنما أنا أكتب مقالًا وجواز سفري يدل على أنني صحفي ..ورويت لرجال البوليس كل ما جاء في أول هذا المقال ..ثم إنه لو كان في نيتي أن أخطب فلماذا أكتب الخطبة بالعربية لأقولها بالإنجليزية ..فأنا أعرف الإنجليزية وأستطيع أن أتكلم بها، دون ورقة ودون إعداد أو تحضير..

ولكنه قال لي :إذا أردت أن تأتي وتحضر بمنضدة فيجب أن تستأذن البلدية؛ لأن شغل الطريق يحتاج إلى إذن..

يعني أنا وبائع السجق والكوكاكولا سواء ..يجب أن تحصل على إذن ..وكان ردي أنني لا أعرف القانون، وكان الرد الطبيعي هو أن جهلي بالقانون لا يعفيني من أن يصفعني أحد عساكر البوليس!

والغرامة جنيهان ونصف..

كدت أدفعها لولا أن رجل البوليس اقتنع بكلامي وأعفاني من هذه الغرامة .وبعد ساعتين بالضبط خرجت من القسم وفي نيتي ألا أذهب إلى المكتبة العامة أو إلى مطعم مرجريت ..بل قررت أن أذهب إلى حجرتي وأن أكتب وأنا جالس على قرافيصي.

وأشهر كاتب في الدنيا هو الكاتب المصري الجالس القرفصاء!

ولكن هذا الكاتب الشهير كان في مصر الدافئة، ولم يعرف أستراليا الباردة..

والحل الوحيد هو أن أذهب إلى مطعم الفندق وبحزام حول وسطي وكرافتة حول عنقي، وبين أناس يشربون وأنا أكتب، وبين أناس يمرحون وأنا أتلوى .بدأت أكتب ..وقبل أن أضع القلم على الورقة سمعت اسمي في الميكروفون، ولما ذهبت أسأل عن السبب وجدت العسكري إياه ومعه وصل ببيع المنضدة، فالقانون لا يسمح لي بأن أبيع شيئًا اشتريته دون إذن .وتولى البوليس بيع المنضدة لحسابي..

وبالقروش القليلة التي قبضتها نفذت نصيحة صديق من القاهرة ..واشتريت »خرزة زرقاء «ووضعتها حول قلمي ..وأرسلت الباقي إليه لكي يوزعه على القراء الذين أحسدهم على أنهم قرءوا هذا المقال من أوله إلى آخره!

* * *

وفي النادي الأيرلندي في مدينة سيدني اجتمع ذات ليلة عدد كبير من الأسر اللبنانية هنا ..ألفان أو ثلاثة آلاف ..لا أعرف ..فأكثر الحاضرين من الأطفال .نسبة المواليد بين اللبنانيين هنا عالية ..رأيت الرءوس الكبيرة العريضة من الوراء ومن الأمام، والحواجب الغليظة والعيون السوداء ..وبدأت أسمع كلمات بعضها عربي وأكثرها إنجليزي بلهجة أسترالية .وكان من المفروض أن يرتفع الستار في الساعة الخامسة ..وظللنا ننتظر حتى السادسة ونفد صبرنا في السابعة ولكن الستار ارتفع في السابعة والنصف، فقد كانوا في انتظار القنصل الجديد ..وتوالى الخطباء وتباروا في مدح قنصل لبنان ..وكل الخطباء يتكلمون العربية الفصحى .ومعظم اللبنانيين هنا ولدوا في أستراليا ولا يعرفون من الكلمات العربية سوى »كِبة«، بكسر الكاف، و»تبولة «ولحمة مشوية بكسر التاء و»زحلة «بكسر كل هذه الكلمات!

وطلبوا من القنصل أن يلقي كلمة ..والقنصل فصيح، وخطيب متحمس، وعاد وجلس إلى جواري وهمس في أذني :إنني الأب الروحي لكل لبناني هنا..

مناسبة الحفلة هي أن جمعية جديدة تكونت هي »جمعية ليالي لبنان الفنية «تأسست في أستراليا سنة 1958، وأحيطت هذه العبارة بأشجار الأرز ..والجمعية تضم موسيقيين هواة وتضم مطربات لبنانيات وراقصات .وقد رأينا رقصة شرقية ..هز بطن ونوم على الحائط وسقوط على الأرض وحركات هي خليط من رقص نجوى فؤاد وكاريوكا، ثم رقصة أخرى لم أرها قبل ذلك وهي رقصة الكوب على الرأس ..وضعت الراقصة الأسترالية لا اللبنانية كوبًا من الماء فوق رأسها ..وراحت وجاءت وتمرغت على الأرض وكأن الماء قطعة من الثلج لم يسقط على رأسها أو على وجهها..

وغنى أحد المطربين اللبنانيين أغنية »كل ده كان ليه «لمحمد عبد الوهاب .وصوته جميل وألحانه مضبوطة والأداء سليم جدًّا، والمطربات يتبارين في الألحان اللبنانية الصميمة مثل :عبده حابب غندوره ..وليش ما تحاكينا ..وكيف حالك يا ضيعتنا ..واللومة اللوما ..ووصلتينا لنص البير وقطعت الحبل فينا .ولاحظ القنصل أن اللبنانيين قد أصبحوا أستراليين على الآخر يعني ساكتين كأنهم في دار الأوبرا .فطلب إليهم أن يصفقوا وأن يردوا على المطربات ..وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك ..وتعالت الهتافات عند ذكر كلمة »يا ليل «وبعدها..

ولا شيء يدل على أن اللبنانيين هنا يكونون مجتمعًا حيًّا سوى وجود خطباء وفنانين ..ثم شعراء ..معظم أبناء لبنان ينظمون الشعر والزجل والأغاني ..إن معظم الذين نظموا الشعر لا يعرفون كيف يكتبونه ..إنهم هكذا يشعرون به وينظمونه ويلقونه ..إنها الشاعرية والأذن الموسيقية :وطبعًا ترددت شجرة الأرز مئات المرات في كل القصائد ..بل إن شاعرًا أعلن أن كل شيء في لبنان يشتاق إليه من الأرز إلى البطيخ إلى التبولة ..ولبنان هي أصغر بلد ..ولكن جبلها أعلى الجبال..

وواحد منهم اسمه »رفيه قهوجي «يقول في شعر لا يعرف كيف يكتبه بالعربية، وإنما يكتبه بحروف لاتينية:

جبـل لبنـان مــدروك حـده

لحـد اليـوم ما في فكر حـده

صغير وبس فيه له مقام عالى

وعلى أكبر دول بيشوف قده

بمياهه الصافية بأرزه الشمالي

بمناخه بمنظره وحسنه الجمالي

ولكن وأحسن ما قاله الشاعر رفيه قهوجي:

وبيقولوا بالقمر موجود عيبه

هــدى تقشر الأرز بخــدوده

انحنى يبوسها وهي عما تصده

ومعنى هذه الأبيات بالعربي :إن الناس يقولون :إن في وجه القمر بعض الخربشة، هذه الخربشة سببها أن أشجار أرز لبنان حاولت تقبيل القمر فمنعها ..فخربشت وجهه..

وشعراء آخرون مجدوا لبنان وأهل لبنان..

إنه مجتمع حي ..مجتمع متماسك يجعلك تشعر أنك لم تترك لبنان أو أنك لم تترك البلاد العربية..

وهمس القنصل في أذني يقول إنه عندما قابل رئيس وزراء أستراليا قال له :إن الجالية اللبنانية هي الوحيدة التي ليس بينها واحد دخل السجن ..ليس من بينها واحد سارق أو قاتل أو نصاب ..في حين أن الجاليات الأخرى قد خالفت القانون في كل مواده..

شطار أيها اللبنانيون ..تجار أيها اللبنانيون ..فيكم حياة وشباب وكفاح وقدرة على الحياة في الصخر ..إن كلمة عربي في هذه البلاد لها معنى واحد :لبناني ..وأشهد أن العرب هنا قد شرفوا قدرنا..

وأن هذه الحفلة كانت تكريمًا لبلادي ..فقد أحيتها وأضاءتها وأسعدتها أغاني أم كلثوم وعبدالوهاب.

* * *

الفليبين 7000جزيرة!

بلاش لعب عيال!

وهذه العبارة لم أقلها لأحد ..وإنما شخطت في نفسي وقلتها بصوت مرتفع وأنا أعرف أن أحدًا لن يدري بما أقول .فلعله يظن أنني أقرأ شيئًا بلغتي .فقد نطقت هذه العبارة بما يشبه الرجاء لنفسي ألا أكون عيلًا وأن أرتفع إلى مستوى شهادة ميلادي .وأن أكتسب صلابة الجبال التي رأيتها، وعمق المحيطات التي عبرتها، وشجاعة المسافرين الذين ركبوا معي طائرات تصيبها السحب بالسعال..

وقد نطقت بهذه العبارة عندما وقفت في مطار سيدني وفي يدي حقائب السفر إلى الفليبين وأنا أريد أن أرجع في كلامي وأبحث عن طائرة أخرى..

وأمامي في المطار أحدث طائرة ابتكرها الإنسان :بوينج ..707هذه الطائرة قد تعطلت فجأة وقبل أن ترتفع عن أرض المطار .قالت الصحف، التي لا تعرف شيئًا عن هندسة الطائرات النفاثة الجديدة، إن بعض الماء دخل في البنزين، أو بعض الماء دخل في المحركات النفاثة ..وهي سميت نفاثة لأنها تسحب الهواء من الأمام وتنفثه إلى الخلف ..فكأنها تشد حبلًا من الهواء بسرعة ألف كيلومتر في الساعة ..وعملية الشد والسحب هذه هي التي تدفعها إلى الأمام ..وتعطيل طائرة من هذا النوع معناه أن الحبل الهوائي قد انقطع .أو أن الأصابع الرهيبة التي لا نراها

قد تكسرت .أو أن لغزًا لا يمكن حله قد صادف الطائرة .ولا بد من استدعاء الأمريكان الذين اخترعوها ..وجاء الأمريكان.

وقف الناس يتفرجون على الطائرة وعلى الذين اخترعوها وعلى الذين سيضعون الأصابع العجيبة على الحبل الخفي ..لتشد حيلها وتقوم مشكورة بعبور المحيط الهادي في طريقها إلى الفليبين.

ولم تفلح المحاولات التي بذلها الأمريكان..

وصدرت الصحف بعد ظهر نفس اليوم تحمل العناوين المثيرة ومن بين السطور تلمس رائحة الشماتة .وتلمس أيضًا الدعاية الإعلانية التي تؤكد أن العطب بسيط جدًّا وأنه كان من الممكن أن يرتفع بها الطيار، لولا حرصه على راحة الركاب..

يعني أن الإصابة خدش وليست كسرًا..

وظللت واقفًا في المطار أنتظر من رجال الجمارك أن يستدعوني .وسألت لماذا لم يستدعني أحد .وكان الرد أنهم ليسوا في حاجة إلى استدعائي ..وأن حقائبي قد نقلت دون تفتيش -يا عيني -إلى الطائرة!

وبكسوف الذي يتظاهر بأنه كان يعرف ذلك ثم نسيه، أمام الحدث الجلل، صعدت الدرج، وأنا أخفي رأسي في البالطو، ويدي في جيوبي، ونفسي بين المسافرين ولم تكن الطائرة نفاثة ..إنما من ذات المحركات الأربعة ولكنها أحسن وأمتن .وشعر الطيار وملاحو الطائرة بشيء من الاستعلاء، فقد أدى ظهور النفاثات إلى أن تحولت الطائرات ذات المحركات إلى حناطير جوية، ولكن هذه الحناطير الجوية لا تتعطل كهذه السيارات الجوية ..وحتى إذا تعطلت فعذرها أنها حنطور!

وأغلق باب الطائرة ..وارتفعت إلى الطريق الذي مررت به من قبل ..من سيدني عبر القارة الأسترالية إلى مدينة دارون ..إلى المطعم الإيطالي .وشعرت بالارتياح عندما تكلمت باللغة الإيطالية .وحرصت على أن تكون اللهجة إيطالية على أصلها .وظن هؤلاء الجرسونات مواليد أستراليا أنني من إيطاليا وهي الدولة الأم، وأحسست بشيء من الارتفاع عن مستواهم .وأحسوا هم أيضًا أنهم إيطاليون من الدرجة الثانية، وليسوا من الدرجة الأولى مثلي ..وهذا الشعور، شعورهم، كان يبرر لي أن أجعل عباراتي غير واضحة، وكلماتي غير مفهومة ..ويظنون هم -وهذا حسن ظن طبعًا -أن هذه لهجة مستخدمة في الوطن الأم وأنهم تعساء هنا لم تسعدهم الظروف التي أسعدتني فيفهموا هذه الكلمات، وكنت أهز رأسي كأنني البابا أدعو لهم بسلامة العودة وقربها، إن شاء الله..

تشاو ..تشاو ..أريفيدرلا..

والكلمتان الأوليان معناهما :سلام ..أو تحية..

والكلمة الأخيرة معناها إلى اللقاء ..وكان من الممكن أن أستخدم الكلمة المألوفة :أريفيدرتشي .ولكني حرصت على النطق بكل ما هو غير مألوف .ومن الجائز جدًّا أنهم في مطار سيدني بعد ذلك سيستخدمون هذه الكلمة باعتبارها أحدث ما ورد إليهم من أرض الوطن!

وأشرت بيدي مودعًا، واتجهت إلى الطائرة التي انطلقت في الظلام تعبر المحيط الهادي في طريقها إلى مانيلا ..أشهر مدن الفليبين ..أو العاصمة الدبلوماسية والسياحية..

والفليبين مثل إندونيسيا تضم ألوف الجزر ..فالفليبين سبعة آلاف جزيرة .ولكي أكون دقيقًا أقول إنها سبعة آلاف ومائة ..وبها عشرة آلاف نوع من الزهور وبها سبعون لغة و 65نوعًا من الخفافيش ..وألف نوع من الطيور ..وهي لا تعرف الحيوانات التي ترضع صغارها ..فيما عدا الفئران والخفافيش!

وهذه الجزر أخذت اسمها من الملك فيليب الثاني، أحد ملوك إسبانيا، والإسبان دخلوا هذه البلاد مع البرتغاليين الذين ارتادوا كل هذه المناطق وأقاموا فيها .ومر الإنجليز مرورًا »عابرًا «على هذه البلاد ..واستقر الإسبان بها .ولذلك فاللغة الإسبانية لا تزال لغة معظم الناس .وإن كانت اللغة الرسمية اسمها تاجولج.

والناس والشوارع والمدن لها أسماء إسبانية.

ثم إن الإسبان نقلوا الديانة المسيحية الكاثوليكية إلى هذه الجزر .والفليبين هي الدولة المسيحية الوحيدة في آسيا .ولكن المسلمين سبقوا الإسبان إلى هذه البلاد .ونقلوا الإسلام والدم العربي إلى جزر الجنوب وخصوصًا جزيرة مندناو التي نرى فيها الطفلة الصغيرة تضع الأحمر في شفتيها حتى التاسعة من العمر ..أما بعد ذلك فهو حرام شرعًا!

أما الهولنديون فقد أقاموا فيها بعض الوقت..

والأمريكان احتلوها من 66عامًا .ثم انسحبوا منها إلى اليابان أيام الحرب العالمية الثانية ثم عادوا ليمنحوها الاستقلال أيام الرئيس كايزون وهو من أعظم زعماء الفليبين، ومن ألطفهم وأحبهم إلى الأوربيين!

والفليبين تدخل ضمن الأسرة المنغولية الواسعة جدًّا التي تضم الملايو وإندونيسيا ومعظم جزر المحيط الهادي..

وهم شعب يحب المرح .والقليل جدًّا الذي أراه أمامي في هذه الطائرة يؤكد أن مرح أبناء الفليبين ألطف بكثير جدًّا من مرح أبناء إندونيسيا .وقد لاحظت على الملحق العسكري الذي كان يسكن إلى جواري في مدينة جاكرتا أنه لا يتوقف عن الرقص كل ليلة ..عنده ألوف الأسطوانات ..وكان يطلب من أصدقائه أن يراقصوا أخته .وكانت أخته مضبوطة دائمًا على إبرة البيك آب ..في اللحظة التي تهبط فيها الإبرة على الأسطوانة ..كانت أخت الملحق العسكري تتلوى كالأسطوانة وتدور مثلها وتدوخ مثلها أيضًا ..وتعلو وتهبط مثل الإبرة .ولكي لا أتجاوز الحقيقة أقول إن الدوخة كانت تصيب أي ضيف يدعوه الملحق العسكري إلى بيته .فقد كان الضيف يجامل صاحب البيت فيرقص عشر أسطوانات، ويجامل الأخت فيرقص عشرين أسطوانة .وأمام إصرار الأخت، وحرصًا على الشهامة الإسبانية، يرقص عشر أسطوانات أيضًا ..ويسقط في أي مكان ..وتظل الأخت ترقص حول جثته ..كأنها إحدى بنات الغابة وكأنه غزالة سقطت تحت سهام رجال القبيلة!

وفي الطائرة شيء من هذا ..فالرجل الذي جلس إلى جواري رغم تعليمات مضيفات الطائرة يضع في جيبه راديو ترانزيستور ..والراديو موجه إلى الفليبين أو إلى أستراليا ..فلا يذيع إلا الأغاني وإلا الرقصات وهو يترنح بشدة تارة مع الموسيقى وتارة من الخمر، وتارة في المطبات الهوائية التي تنزل فيها الطائرة..

وكان يعطيني الراديو لكي أضعه على أذني، لعلِّي أهتز مثله ..وكنت أهتز بالفعل .ولكن لا أستطيع أن أعرف السبب الحقيقي لهذا الاهتزاز، لعلها رعشة على أثر الحقنة التي أخذتها في الصباح قبل السفر للوقاية من أمراض نسيت اسمها الآن .وربما لأن الكرسي ليس مربوطًا ربطًا محكمًا .فالطائرة يبدو أنها قديمة .كان في نيتي أن أؤدي خدمة جليلة لشركة كوانتاس الأسترالية، فأنبه المضيفة إلى هذا الخلل الموجود في المقعد .وهي خدمة خالصة الثمن ..ففي اللحظة التي سأنهي إليها هذا الخبر سأتلقى الثمن على شكل ابتسامة عريضة ..وربما على شكل اصطدام خدها بخدي غير المحلوق..

ولكني عدلت فأنا أخشى أن يكون المقعد ثابتًا في مكانه، وأن يكون الاهتزاز في داخلي أنا .ثم لاحظت أنني لا أجلس على المقعد الذي يقع على الممر حيث تتحرك المضيفة ذهابًا وإيابًا وكأنها تمشي على الأرض ..وكأنها تغيظ الناس فتتمايل على هذا وتتساقط على ذاك ..كأنها راقصة بين مقاعد أناس مخمورين في إحدى الحانات ..ومن الغريب أن المخمورين جالسون ثابتون، وأن التي ليست مخمورة هي التي تتمايل وتترنح بينهم!

وأضيئت الأنوار الحمراء في الطائرة..

وكان ذلك إشارة إلى أننا في انتظار عاصفة على المحيط، مع أن هذا المحيط اسمه المحيط الهادي ..ربما كان السبب هو أننا نجتاز خط الاستواء .ولم ألاحظ ذلك عندما عبرته قبل ذلك قادمًا من إندونيسيا ..ولاحظته قبل ذلك عندما عدت من إندونيسيا إلى الهند..

واهتزت الطائرة بعنف كأنها اصطدمت بهذا الخط الوهمي .خط الاستواء .وكأنه حدث ما يحدث في الريف عندنا ..فهم لكي يقطعوا الصابون مثلًا -صابونة الغسيل الضخمة -فإنهم يلفون حولها فتلة دوبارة ثم يشدون الفتلة ..فإذا هي تقسم الصابونة إلى قطعتين ..والفتلة المشدودة هنا تقوم بدور السكين ..فعملية شد الفتلة تعطيها قوة..

ولكن لأن الطائرة ليست صابونة ولأن خط الاستواء وهمي، عدت إلى الهدوء أحاول أن أفرز الحقائق من الأوهام .واندمجت مع جاري في سماع الموسيقى .واعتبرت أن هذه الموسيقى نوع من الجو الإقليمي للفليبين .فكأنني دخلت الآن الهواء والماء والموسيقى الإقليمية للفليبين..

وضحكت مع جاري كثيرًا .وكلما سألته عن بلاده ..أريد أن أعرف منه شيئًا عنها، أشار إلى أنه لا داعي لأن أستعجل الوقت ..يكفي أن الطائرة تقطع الوقت بهذه السرعة المخيفة ..وسأعرف كل شيء هناك بسهولة وبنفسي وعلى طريقتي ..فالرجل مبسوط .ولعله يريد أن ينسى أنه عائد إلى الفليبين .فهو يعيب على الطائرة أنها مستعجلة!

وأضيئت الأنوار الحمراء وربطنا الحزام وسحبنا المقاعد إلى الأمام .وأطفئت السجائر وابتلع كل إنسان ريقه واكتشفت المضيفة أن جاري معه راديو صغير فعاتبته بشدة، ثم طلبت منه أن يعذرها .فهذا الراديو الصغير يحدث ارتباكًا لأجهزة اللاسلكي بالطائرة..

وخارج الطائرة كان الجو دافئًا ولكنه مليء بالرطوبة .وكنت قد نسيت هذه الرطوبة والحرارة في أستراليا .ولكن تذكرت الهند وإندونيسيا وسيلان فورًا.

والذي رأيته في المطار يختلف كثيرًا جدًّا عن الصور التي رسمتها في ذهني وأنا أستمع إلى الموسيقى في الطائرة أو في بيت الملحق العسكري .ولم أجد فتاة واحدة في المطار تشبه أخت الملحق العسكري، ويظهر أنهم اختاروها تمثل أجمل ما في الفليبين من فتيات ..مع أنها ليست جميلة جدًّا فهي على خلاف بنات الفليبين أكبر أنفًا وربما تكون الداية أو الطبيب المولد قد سحبها من أنفها ..ولما رأى أن الأنف قد طال في يده أكثر مما يجب حاول أن يعيده إلى مكانه الطبيعي فلم يفلح ..فبقي الأنف بعيدًا عن الوجه ..ثم هو منفوخ من الأمام تحت ضغط أصابع الطبيب أو الداية ..فهو أنف لا هو بالطويل ولا هو بالقصير ..وإنما هو أنف منفوخ.

وأمام سلم الطائرة وقفت فتاة ممتلئة وفي يدها إكليل من الورد ..أو طوق من الورد وعينها على ركاب الطائرة .وفي وجهها ابتسامة مدخرة، أو ابتسامة في حالة تربص .وشفتها العليا تضغط على شفتها السفلى ..كما تضغط الإصبع على زناد مسدس .وظهر الرجل الذي تريده .وانطلقت الابتسامة واهتز عقد الورد وسقط كطوق نجاة حول عنق الرجل الذي تنتظره ..وكان أمريكيًّا .وشكرها وسألها إن كان أحد قد حضر ليأتي له بحقائبه .إنه رجل عملي وقد مل هذه الأطواق وهذه الابتسامات السخيفة ..وأسخف من هذه الابتسامات أنني وجدت نفسي ضحية لواحد من هذه الأطواق ..مع أنني لا أعرف أحدًا، ولا جئت هنا قبل ذلك، ولا من رجال الأعمال الأمريكان.

وتذكرت ما فعله الرئيس الفليبيني كايزون عندما عاد ذات يوم إلى زوجته وقد لف حول عنقه عقدًا من الورد ..وكان العقد ضخمًا فأذهلها، ولما سألته عن المناسبة أجاب :لقد تزوجت اليوم.

ويقال إن الزوجة بكت..

وهنا أدرك كثيرون أن زوجته تحبه .فخلع العقد ولفه حول عنقها هي وقال لها :كأننا تزوجنا مرة أخرى.

وفكرت في أن أصعد الطائرة مرة أخرى .وأبتسم لهذه الفتاة عند نزول السلم وأشير إليها أن تضع العقد حول رقبتي وأشكرها وأقول لها :كأنني جئت بلادكم للمرة الثانية ..وأين الذين سيحملون حقائبي إلى خارج المطار؟

والسؤال الأخير سؤال حقيقي وله معنى مخيف لا يمكن أن تعرفه أو تحس به إلا إذا سافرت إلى هذه البلاد ..وإلا إذا أحسست بالخطر الذي يزلزل جسمك المرهق عندما يميل عليك أحد الواقفين في المطار وقد ارتدوا هذه القمصان المخططة ونكشوا شعورهم ومضغوا اللبان الأمريكي وقال لك :لا تركب التاكسي الذي هناك.

وتتلفت لتنظر أين هذا التاكسي، وتجد عربة ككل العربات، وقد تسأل هذا النصاب :ولماذا؟ فيقول :لأنه قتل اثنين من الأمريكان في الأسبوع الماضي واستطاع أن يرشو البوليس فأطلقوا سراحه.

وهذه الحادثة ليس من الصعب أن تقع، فالرشوة ممكنة جدًّا وعند أعلى المستويات ..والقتل كالهرش هنا ..الدولة تعترف بذلك وتحذر الناس من الناس ومن رجال البوليس أيضًا!

والمطر غزير والرطوبة شديدة ونحن عند منتصف الليل ..والمطار بدأ يصفصف ..والمضيفة الحلوة قد استردت كل صفاتها الأرضية، فهي تمشي دغري ولا تبتسم ..واستقلت سيارة الشركة واختفت في الظلام ..وبقيت وحدي.

وتوكلت على الله وركبت في أول تاكسي وقلت له :أحسن لوكاندة -بالإنجليزية طبعًا .فهنا يتكلمون الإنجليزية بلهجة أمريكية ويحسن بك أيضًا أن تتعلم هذه اللهجة وليس من الضروري أن تتعلم الإنجليزية.

فرد بسرعة فهلوية :آه ..لوكاندة فليببيناس!

والطريق مظلم .والأضواء خافتة .والمطر يغطي زجاج نافذة السيارة .والسائق حاول أن يفتح أي موضوع وأنا أسده بصمتي .أو بهز رأسي ..أو بفتح النافذة حتى أصاب بقليل من الزكام يعاونني على اصطناع »الخنافة «المطلوبة عند الكلام باللهجة الأمريكية هنا، ولما استكملت خنافتي قلت له :أحسن لوكاندة هنا؟

فقال :نعم يا سيدي .وستكون مبسوطًا جدًّا .كل شيء فيها ..الموسيقى والمشروبات ..والبنات الحلوة ..هل أنت من هوليود؟

-بلدي أبعد من هوليود.

-أيوه أمريكا واسعة جدًّا ..أريد أن أسافر إلى أمريكا ..فهناك أقاربي ..وهم أغنياء .وقد أرسلوا لي خطابات كثيرة.

-وما الذي منعك من السفر؟

-يا سيدي أنت تعرف، الرحلة طويلة وتكاليفها خرافية ..وأنا فقير ..أنا وزوجتي وأولادي .والحياة هنا غالية.

-قالوا لي الحياة هنا غالية جدًّا ..خصوصًا التاكسيات!

وتردد هو قليلًا ثم عاد بذكاء يقول :الأجر متوسط ولكن كرم السياح هو الذي يجعلني أحتمل الحياة هنا!

-حلوة يا واد !برافو عليك)قلتها بالعربية.(

يكفي أنني وصلت الفندق .ومستعد أن أدفع الأجر مضافًا إليه الكرم ومضافًا إليه بدل تسليتي وتهدئتي طوال الطريق الذي يبلغ حوالي عشرة كيلومترات من الطين والظلام ..ومن شيء أقسى من الطين والظلام وهو :الخوف!

* * *

وأمام شباك الاستعلامات في الفندق الأوربي الهندسة والأثاث عرفت لأول مرة أن مخاوفي متواضعة جدًّا..

فقد طلبت مني إدارة الفندق أن أترك أموالي وأوراقي، وفي حالة ركوب أي تاكسي يجب أن أعطي الفندق رقم التاكسي والوقت الذي أتحرك فيه .ومن الأفضل، حرصًا على سلامتي، أن أخبر الفندق عن تحركاتي أولًا بأول .لماذا؟ لأن الأمن غير مستتب في هذه البلاد ..وفي هذه الساعة من الليل..

وكانت الساعة الواحدة صباحًا.

وعندما صعدت إلى غرفتي وجدت لافتات طويلة عريضة تؤكد هذا المعنى :الفندق غير مسئول عن اختفاء أي شيء في غرفتك..

الفندق يرجوك :أن تضع أسلحتك النارية وأية متفجرات معك في مكتب الاستعلامات!

ومعنى هذا أن الناس يحملون الأسلحة ويتولون الدفاع عن أنفسهم، فالعمل الذي كان يجب أن تقوم به الدولة، يتولاه الأفراد!

والسؤال الذي حيرني في الفليبين ولم أجد عنه جوابًا :من هو حاميها ومن هو حراميها؟

وبعد إقامتي في الفليبين اكتشفت أن الجواب عن السؤال موجود في نفس السؤال :احذف علامة الاستفهام واحذف كلمتي :من وهو!!

وفي الصباح أكدت لي إدارة الفندق أن حركاتي يجب أن تكون معروفة بالنهار أيضًا .فمدينة مانيلا هذه لا تعرف الليل أو النهار .ففيها كباريهات لليل وكباريهات للنهار .بل إن نفس كباريهات الليل عندما تجيء باخرة أمريكية مثلاً، وهذا شيء مهم ويؤدي إلى رواج السلع التي لها علاقة بالمرح، تقفل أبوابها ونوافذها ..وهات يا موسيقى وهات يا رقص ..وهات يا فلوس ..وهات يا ضرب نار ..وأول من يهرب من المعارك رجل البوليس!

وبدأت أتخلص من اندهاشاتي الأولى..

وجعلت أتعود على هذه البلاد وعلى الحياة هنا ..وأحسست بشيء من الراحة ومن المتعة أيضًا..

وفي صباح كل يوم أفتح الراديو المختفي في سريري وأستمع إلى الموسيقى وأقرأ الصحف التي تشتم رئيس الجمهورية بعبارات حمراء .وتتهم وزير الخارجية بتعدد الزوجات .ووزير الدفاع بالتزوير في الانتخابات وعشرات الصفحات في توديع السفير الأمريكي واستقبال السفير الأمريكي الجديد..

* * *

ثم شعرت فجأة بأن اعتباري قد رد لي..

نعم اعتباري ..يعني قيمتي ..يعني سعري أصبح في سعر الذهب ..يعني أصبحت كل تصرفاتي كالأوراق المالية لها غطاء ذهبي ضخم .لقد كنت في أستراليا أشعر كأنني قزم صغير .الناس طوال ولونهم أبيض وأحمر،

وعيونهم زرقاء وخضراء .وبدلًا من أن أمشي وعلى طراطيف صوابعي وطراطيف أفكاري لكي أقف مع الناس على رأس المساواة ..كنت أحس أنه لا فائدة من أن أشد حيلي وأقف إلى جوارهم ..فهم أطول وأبسط .كان هذا شعوري أول الأمر في أستراليا..

وبعد ذلك اكتشفت أن هناك من هم أقصر مني أو يمكن في طولي -طولي 180سم في الأيام الحارة ..-ولكن عندما جئت إلى الفليبين لاحظت أن الناس قصار القامة كأبناء إندونيسيا والصين والملايو وكمبوديا ولاوس وفيتنام ...إلخ ..والناس وجوههم صفراء سوداء كالحلبة عندما نخلطها بالعسل الأسود ..أي في لون »المفتأة ..«الرجال قصار ..النساء قصيرات وأكثر نحافة ..وشعرت بأنني طويل وأنني أبيض جدًّا وأن لون عيني فاتح ..والشعر هنا سائح نائح أي يروح ويجيء على الوجه كأنه يولول .وأنا شعري أسود وأكرت .وهذه كلها مزايا ومن علامات الجمال ..ولاحظت أن الرجال يقولون لي هذا ..وأن النساء يقلن هذا ..النساء يقلن هذا علنًا ..بل إن النساء المحترمات جدًّا جدًّا يقلن ما هو أكثر من ذلك، مثلاً :هناك واحدة حلوة جدًّا صاحبتي ..وتحب أن تراك..

وطبعًا أنا لا أسأل ..ولماذا تحب أن تعرفني ..إنما أفهم من كلامها أن هذه الصفات -صفاتي -من الملامح التي تعجب النساء هنا ..وقلت في نفسي :أيوه كده!

لقد رد اعتباري كأنني مطالب بالعرش ثم أعيد لي عرشي، وملكي .ولكن ماذا أفعل بهذا العرش؟ ليست هذه مشكلة في مانيلا .فأنا بهذه المزايا أستطيع أن أتسلق الأسوار بل إن الأسوار تذوب أمامي.

وبدأت عملية إذابة الأسوار .كما أذاب الألمان أسوار ماجينو في فرنسا..

هنا الليل جميل والجو رطب ..وبدأت أمشي في شارع ديوي -كثير من الشوارع هنا لها أسماء أمريكية لأن الأمريكان احتلوا هذه البلاد حوالي خمسين عامًا -وفي هذا الشارع معظم الفنادق الكبرى والكباريهات ..وفي الشوارع نداءات غريبة ..إنها الفنادق تنادي في الميكروفون على سيارات التاكسي المارة بالقرب من الفندق.

واخترقت قطعة واسعة من الأرض مغطاة بالعشب وعدد من الفتيات والفتيان في حالة اتحاد فيدرالي عاطفي -أي اتفاق في الدفاع عن النفس والسياسة الخارجية.

وكنت ما أزال في الساعات الأولى من الليل ..فأخرجت من جيبي ورقة رسمية عنوانها »الحالة الصحية في مانيلا ..«الورقة تقول :معظم أبناء الفليبين مصابون باضطرابات معوية ..ومعظم هذه الاضطرابات على هيئة دوسنتريا..

وتقول الورقة :لا توجد في الفليبين بعوضة الملاريا.

وفي الصحف قرأت مقالات تهاجم الحكومة لأنها لم تتخذ الاحتياطات اللازمة ضد الملاريا ..وبعض الأطباء يستنكر كلام الصحف ويقول إن حماية البلاد من الملاريا كحمايتها من العواصف أو من أمواج البحر -يعني مستحيل!

ولكنني أميل إلى رأي الحكومة لأنه لا يوجد بعوض الملاريا في هذه البلاد .وأحب أن أؤكد للحكومة أنه لا يوجد سوى بعوضة واحدة غرست خرطومها في عنق مستشارنا فلزم المستشفى أسبوعًا كاملاً!

ومددت يدي إلى جيبي وأخرجت كتابًا صغيرًا لمؤلف أمريكي ينصح القراء بأنهم إذا ذهبوا إلى الفليبين فيجب ألا يشتروا شيئًا أبدًا .فالفليبين هي أغلى بلد في الدنيا كلها .وشعرت أنني ميال إلى تصديق كلام هذا الأمريكي لأنه أولًا مضبوط، وثانيًا لا توجد معي فلوس كثيرة، ولأن الطريق إلى شراء أي شيء محفوف بفوارق العملة والبقشيش، ولأن هناك بلادًا أجمل من الفليبين ..وأن الفليبين ليست إلا إحدى المحطات الاختيارية في مشواري الطويل.

وتذكرت ما سمعته اليوم وأمس وأول أمس من أنه إذا ذهبت للسهر في أي مكان فيجب أن تبلغ أحد أصدقائك بذلك أو تبلغ إدارة الفندق أو مركز البوليس.

وظللت أمر طول الليل على الفنادق الكبرى وأتطلع إلى الكباريهات والبارات من بعيد لبعيد عملًا بنصيحة جحا وهي :حلق ولا تمسكش ..فأنا أحلق فوقها وحولها دون أن ألمسها..

وأحسست أنني كالصعيدي الذي أنعم عليه برتبة البكوية فقرر أن يذهب إلى القاهرة ليعلن ذلك للناس .ولما نزل في محطة مصر قابله أحد الشيالين فبادره بقوله :رايح فين يا بيه؟

وانبسط الصعيدي جدًّا وقال له :هي البهوية وصلت لحد هنا؟

وقرر الصعيدي أن يعود إلى بلاده فلا داعي للإقامة في القاهرة ما دام الناس يعرفون أنه أصبح من البهوات..

وأنا اكتفيت برد اعتباري وارتفاع أسعاري وعدت إلى الفندق أجلس إلى التلفزيون وأستمع إلى الموسيقى ..والناس حولي أشكالهم لطيفة مسمسمة وينظرون بعيون، كلها ترحيب كأن كل عين مصلحة سياحية وأنني السائح الوحيد!

وصعدت إلى غرفتي وأنا سعيد بأن »البهوية «بلغت الفليبين!

* * *

ومدينة مانيلا هي أشهر مدن الفليبين، ومع ذلك ليست العاصمة .فالعاصمة هي »كيزون سيتي «وهي ضاحية بعيدة عن المدينة .ومثلها تمامًا مدينة »سيدني «في أستراليا، إنها أشهر المدن والعاصمة هي كانبرا ..وأكبر جالية أجنبية في هذه المدينة هي الجالية الصينية فعددهم حوالي 50ألفًا..

والبيوت هنا مزدحمة جدًّا بالسكان ..وقد نشرت الصحف اليوم أن أبناء الفليبين يجب أن يعدلوا عن عاداتهم ..فالضيف يجب أن يبقى يومين أو ثلاثة لا أن يبقى أسبوعًا، وكذلك أقارب الزوجة ..واقترح أحد المحررين أن ينقل الفقراء بيوتهم الخشبية إلى شاطئ البحر لكي يقذف بما زاد عن حاجته من الزوار في البحر ..واقترح أن ينقل صاحب البيت بيته من مكان إلى مكان ..وإيجار المساكن مرتفع جدًّا، فملحقنا الثقافي يسكن في شقة إيجارها 120جنيهًا، والشقة عبارة عن غرفة واحدة وصالة ومطبخ.

والأطعمة هنا لها طعم غريب ..فلا يوجد لبن طبيعي في هذه البلاد ..وإنما يوجد اللبن المسحوق ..لبن العلب ..ويوجد هنا نوع من البامية ليس له طعم ويقال إن له طعمًا في بعض البيوت..

لقد أكلتها في بيت أحد المصريين وقد لاحظت أن خادمته اقتصادية جدًّا في وضع الماء والملح والزيت والبامية ..ولاحظت أن لها أسنانًا ذهبية ..فعرفت أنها اقتصادية جدًّا جدًّا لدرجة أنها تخفي كل فلوسها في فمها!

فما بالك بالبامية!

* * *

اليوم قررت أن أمشي على كيفي فقد سمعت عشرات الممنوعات من أصدقائي هنا ومن الرسميين ..ومن إدارة الفندق ..كل شيء ممنوع ..المشي ممنوع ..والأكل ممنوع ..والسهر ممنوع ..الحقيقة لم أقتنع..

في الصباح المبكر سحبت يدي من فوق الجرس فقد قررت أن أتناول فطوري خارج الفندق.

ونزلت إلى شارع ديوي على خليج مانيلا ..الجو لطيف والسماء ملبدة بالسحب، ومن المحتمل أن تتساقط الأمطار؛ فنحن لا نزال في الصيف..

واخترت مطعمًا صغيرًا ..وانحنى الجرسون في أدب فقلت له في أدب أيضًا :شاي وبيض.

وبعد لحظات جاء الرجل بصينية كبيرة عليها شاي وجبنة وبسكويت وخبز »مأمر «أي »مجمر - «نسبة إلى الجمر -وزبدة وبيض ولبن وكوب ماء مثلج.

وأمسكت البيضة وبرشاقة الكتكوت وهو ينقرها من الداخل لكي يخرج ..كسرتها أنا لكي أدخل فيها ..أدخل فيها الملعقة ..وأدخلت الملعقة فوجدتها جافة .لقد كان بها كتكوت صغير ..فقرفت ..ومددت يدي إلى بيضة ثانية وثالثة ..كتاكيت ..فتراجعت وضممت شفتي في قرف كأنني أحد أسود كوبري قصر النيل، ثم بدأت أتلفت في قرف كأنني أسد سينما مترو .وجاء الجرسون وسكت ينتظر مني أن أقول شيئًا فأشرت إلى البيض، والذي أدهشني جدًّا أن الجرسون سألني :فيه إيه؟!

وبعد ذلك عرفت أن البيض هنا لا يأكلونه إلا هكذا .بعد أن توضع البيضة تحت الدجاجة عدة أيام ويشعرون بأنها تماسكت وأن الكتكوت بدأ يكبر يسحبونها من تحت الدجاجة ويقدمونها للزبون.

طبعًا لا توجد في كل مطعم دجاجة نائمة باستمرار .وإنما توجد أجهزة تدفئة لإنتاج الكتاكيت ..وعرفت أن هذا هو الطعام القومي هنا.

طبعًا لا داعي لأن تقرف أيها القارئ العزيز فأنت تفعل نفس الشيء .ألم تأكل أم الخلول، إنها هي الأخرى تشبه البيض الفلبيني، ورائحتها ألعن.

وفي الغداء اخترت أحد المطاعم وطلبت لحمًا مشويًّا وبعض السلاطة الخضراء وجاءت اللحمة ..شكلها جميل .وأنا لا أحب اللحم، ولكن قيل لي إنها أفضل من السمك .إنها على هيئة قباب كبيرة وتخرج منها أعواد من الخشب مزقت أكباد الدجاج، وإلى جوارها يوجد عدد من الليمون الأخضر الصغير في حجم الزيتون .وجاءت السلاطة بيضاء باهتة جدًّا .إن هذا الأخضر الفاتح هو نوع من الخس، وهذا نوع من الخيار أو الكوسة أو البطيخ الأقرع لا أعرف ..وتوجد ملاحة تشبه رشاشة الـ "د. د. ت".، وأبعدت طبق السلاطة فقد تذكرت ما قرأته أمس عن انتشار التيفود بسبب الخضراوات غير المغسولة.

ومددت يدي إلى الليمون وعصرته على الماء ..ولاحظت أن عصير الليمون أصفر ..كأنه ليمون مخلل.

هذه هي أول مرة في حياتي أجد ليمونًا ينزل من الشجر مخللًا وبه ثوم وشطة .وعرفت أن كثرة الليمون سببها أنه يخفي معالم اللحم فلا يعرف الزبون كيف كان طعمها ..ولا إن كانت طازة أو بايتة!

وبعد الأكل قُدم لي چيلاتي لذيذ ..وهو عبارة عن چيلاتي عادي ولكنهم يضعونه في نص جوزة هند ..إنها تشبه البوظة عندنا التي يضعونها في نصف قرعة، ولكنهم لا يأكلون القرعة .والشيء الذي ليس عندنا هو ثمن هذه الوجبة .إنه 150 قرشًا!

وأحسست كأنني ابن النبي نوح -عليه السلام -وأحسست أن كل أصدقائي ينصحونني بالعودة إلى العقل وإلى الاستماع إلى نصائحهم حتى لا أغرق ..وكأنهم يقولون لي :يا بني اركب معنا .وأنا أقول لهم :سآوي إلى جبل يعصمني من الماء .ويقولون لي :لا عاصم اليوم..

والحقيقة أنه لم يكد يأتي الليل حتى وجدت أنني أنفقت عشرة جنيهات ..وأن هذه العشرة جنيهات قد أصبحت كحجر ثقيل تدلى من عنقي وأغرقني معه في بحر من الندم.

وقالوا :اركب معنا.

فقلت :بل أمشي وراءكم!

* * *

يوجد هنا في مانيلا عدد من أصحاب الملايين العرب من لبنان ومن سوريا ومن فلسطين، وكل واحد منهم له قصة :كيف جاء، وكيف قرر البقاء، وكيف أصبح غنيًّا؟ ويكفي أن أذكر بعض الأسماء :فهنا المليونير السوري المولد الأمريكي الجنسية ألبرت عوض ..فله مصنع أسلاك كهربائية وكابلات وله زوجة جميلة تتحدث العربية ..وهنا الإخوة أنطون وفيلكس ويعقوب أسعد ..إنهم من لبنان وهم أصحاب ملايين ولهم مصانع نسيج بها أكثر من 3آلاف عامل .والمليونير يعقوب أسعد يملك عقارات إيجارها الشهري 30ألف جنيه.

وهنا المليونيرألفريد كيروزه، من لبنان أيضًا ..وهو يحتكر صناعة الدراجات..

حتى قنصل لبنان هنا من رجال الأعمال الناجحين جدًّا، وهو يقيم في الفليبين منذ 35عامًا .وله زوجة لبنانية أنجبت له طفلتين.

وقد كتبت عنه مقالًا فقلت فيه :إن زوجته »أنجبت «له طفلين فغضب من كلمة »أنجبت «له، فقال :هي اللي أنجبت ..أمال شو باعمل أنا!

وأمثلة أخرى مشرفة للعرب الذين جاءوا إلى هذا الجانب من العالم وعاشوا في ظروف قاسية جدًّا .وتغلبوا عليها .وتحولوا إلى أصحاب أعمال وأموال واحتكروا الأعمال والأموال في بلاد غريبة.

وأعتقد أن أحسن قصة نجاح هي قصة السيدة وديعة هاشم وزوجها حنا جميل ..جاءت السيدة وديعة إلى هذه البلاد منذ 75عامًا ..وقبل أن تبلغ العشرين تزوجت حنا جميل .وبدأت قصة كفاح رائعة .بدأ الاثنان معًا يبيعان الأقمشة وكل منهما يحمل بضاعته على كتفه، وكان الاثنان يقتسمان مدينة مانيلا .كل واحد منهما يبيع في شوارع محددة .وفي آخر النهار يلتقي الاثنان ..وكانت السيدة وديعة هي التي تمسك الدفاتر ومن رأيها أن التاجر الناجح هو الذي يحفظ جدول الضرب ..بكل معاني الضرب!

وكانت السيدة وديعة قاسية على نفسها وعلى غيرها، وفي آخر أيامها كانت تضرب العمال وتضرب الصحفيين، وكان من رأيها -وأقول من رأيها لأن لها آراء غريبة ستعرفها فيما بعد -أن التاجر لكي ينجح يجب ألا يكون له أبناء في أول حياته .وإنما يهتم بالأبناء فيما بعد، ولذلك لم تنجب السيدة وديعة إلا في آخر حياتها وظلت وديعة وحنا جميل يعملان ويجمعان الأموال وينتقلان من حال إلى حال أحسن ..من البيع المتجول إلى حالة الاستقرار في دكان صغير ثم في دكان كبير ..وأخيرًا خطرت لوديعة فكرة، أن تشتري قطعة أرض بعيدة عن مانيلا ..مساحة هذه القطعة من الأرض حوالي مائة فدان .وثمن الفدان في ذلك الوقت حوالي قرش صاغ .وأقامت على جانب صغير من هذه الأرض مصنعًا صغيرًا للنسيج تحول فيما بعد إلى المصنع الوحيد في الفليبين لصناعة الثلاجات والمكاتب وأجهزة التكييف.

ولاحظت السيدة وديعة أن المصنع بعيد جدًّا عن المدينة وأن أحدًا لا يعرفه .فأهدت قطعة من الأرض إلى قيادة الجيش، وكان الجيش يبحث عن قطعة أرض قريبة من المدينة .فأقام الجيش معسكراته هناك وشق طريقًا مرصوفًا يمر بالمصنع ويمر بمركز القيادة، وبدأ الناس يمشون في هذا الطريق ويعرفون المصنع ..ثم اهتدت إلى فكرة أخرى ..أهدت قطعة ثانية من الأرض إلى الكنيسة وأقيمت الكنيسة بالقرب من المصنع ومن مركز القيادة ورأى المصلون المصنع ..ثم أهدت قطعة أرض أخرى إلى وزارة المعارف لتقيم عليها مدرسة ..وأنشئت المدرسة .ثم بدأت السيدة وديعة تقيم البيوت والفيلات ليسكنها الناس .لقد أنشأت أكثر من مائة بيت وزرعت الأشجار على جانب هذا الطريق وطريق آخر واختارت أشجار المانجو ..وكانت تترك الأشجار للناس يأكلون

ثمارها فيما بعد ..فلم تكن الثمار هي الشيء المهم عندها وإنما تردد الناس على الطريق وعلى الكنيسة وعلى المدرسة ..ورؤية المصنع ..والقصر الذي بنته السيدة وديعة لنفسها يقيم فيه الآن قنصل إسرائيل في الفليبين.

والسيدة وديعة بعد وفاة زوجها حنا جميل الذي أنجبت منه ولدين أصبحت هي صاحبة المصنع الكبير .وتزوجت أحد الدروز المسلمين وهو كامل بك حمادة ..وكان هذا الرجل طويلًا عريضًا لافتًا للنظر .وكان نشيطًا .فقد استطاع استثمار أموال وديعة التي بلغت عند زواجهما حوالي 50ألف جنيه من الذهب ..وتعاون الاثنان معًا في بناء المصنع الوحيد الآن والمعروف باسم »صلب اسمايل «واسمايل هو النطق الفليبيني لكلمة :جميل..

وقد سألت مدير المصنع وهو ابن أخت حنا جميل عن قيمة ما ينتجه المصنع سنويًّا، فقال إنه حوالي مليون جنيه، وإن الربح سنويًّا هو حوالي نصف مليون جنيه ..ولا يوجد من اللبنانيين في هذا المصنع سوى المدير وأخيه وسائق سيارته ..والباقون وعددهم 500عامل كلهم من أبناء الفليبين.

وكانت السيدة وديعة حتى وفاتها في السابعة والسبعين سنة 1952قوية عنيفة وكانت تمسك خزائن البنك وتحمل المفاتيح حول عنقها ..وكانت هي التي تشتري ملابس زوجيها الأول والثاني .ولها ضريح كبير هي التي اختارت تصميمه ومكانه وقدرت نفقاته قبل وفاتها ..وأصرت على ألا تزيد نفقات الدفن والجنازة عن مبلغ معين.

وقبل أن تموت وزعت التركة من غير عدل بين ولديها وبين أحفادها فأعطت الأحفاد أقل من الولدين.

أما حكمتها في ذلك فهي أن الأحفاد لا مستقبل لهم ..أما الأولاد فلهم مستقبل ..وأن الأحفاد سيكونون أقل صلابة من الأولاد، ولا شيء يشد ظهورهم فوق خيول الحياة، إلا المال.

ويبدو أن نبوءتها قد صحت ..فأحد الأحفاد الآن تزوج ألمانية، ويعيش في أمريكا ثلاثة شهور وأربعة وستة من كل عام..

ألم أقل إنها لها آراء غريبة ..ولكنها معقولة أيضًا؟!

* * *

مغامرة في الليل!

لسبب غير واضح قررت أن أقوم بزيارة لذلك السياسي العجوز ..وأنا لا أعرف كم يساوي عند مواطنيه .ولكن بشعور من الغربة أحسست برغبة في أن آوي إليه، وبشعور من اليتم قررت أن أتأباه -أي أجعله أبًا -إذا صح هذا التعبير..

ولا أعرف اليوم إن كان حيًّا أو ميتًا .فقد كان في التسعين عندما رأيته ..وحتى عندما رأيته لم أعرف إن كان حيًّا أو ميتًا..

فأولاده يحرسونه كأنه ضريح ..ويتطوعون بالتهليل لعباراته قبل أن ينطقها كأنه طفل مريض ..ويقسمون على صحة ما يقول كأنه رجل مخرف ..ويدفعونه إلى الكلام وإلى أن يقول ويقول ..لأنه قال ذلك كثيرًا جدًّا ..فهم يهوّنون من حالة الملل والسأم التي لا بد أن تكون قد أصابت سياسيًّا متقاعدًا منذ خمسين عامًا ..يرى الدنيا ولا يشارك فيها ..أو يشارك فيها دون أن يراه أحد!

ولا أعرف ما إذا كان هذا السياسي الفليبيني الذي اسمه أجينالدو يساوي هذه المغامرة التي قمت بها مع ملحقنا الثقافي في الفليبين أم لا ..فقد ركبنا سيارة تاكسي من مانيلا ..وهذه مخالفة خطيرة لقوانين البلاد .وكان من الواجب أن نخطر السلطات عن رقم السيارة واسم السائق وعن المكان الذي سنذهب إليه .وما دامت السلطات لا

تعرف فنحن قد اخترنا الموت .ومعروف أين ومتى وكيف سنموت .سيقتلنا هذا السائق في أطراف هذه المدينة ..أو يخنقنا اثنان من زملائه ..أو يلقي علينا غازًا »مخدرًا «كل هذا سيحدث الليلة على أي حال!

والسلطات في الفليبين يشرفها أن يموت اثنان من الجمهورية العربية المتحدة)مصر سابقًا ..(لتنتهزها فرصة وتعرب عن أسفها عن هذا الحادث، بعد أن فاتها أن تعرب عن أسفها عن الحادث السابق ..وستنتهزها فرصة لتقول للرأي العام إنها معذورة فهي لا تستطيع أن تدافع عن كل البلاد بنفس الدقة .ولا تستطيع أن تتخلى عن الشعب، وتهتم بالدفاع عن الأجانب..

وقد لا تجد أي معنى خاص في أن ينظر السائق في المرآة التي أمامه .لعلك تقول إنه يريد أن يعرف السيارات التي وراءه ..إلا في الفليبين فإنه ينظر إليك ليعرف مدى خوفك ..حالتك المعنوية .وفي السيارة تليفون لاسلكي .ونحن نعرف معنى هذا التليفون .فعن طريقه وقع الحادث السابق لسفارتنا في مانيلا .فقد خرج مستشارنا من أحد المستشفيات الذي لزمه أيامًا، على أثر لدغة بعوضة ملاريا .ويومها أعلنت وزارة الصحة في الفليبين أنها البعوضة الوحيدة التي دخلت البلاد!

وحتى لو لم تكن الوحيدة، فإن أحدًا لا يستطيع أن يطلب من الدولة أن تضع ناموسيات على آلاف الجزر لآلاف الأميال ..إنها بعوضة والسلام، وسقطت على عنق مستشارنا فسقط هو تحتها يغلي ويرتجف ويهز سريرًا قديمًا ويملأ سماءه بهلوسات لا حد لها!

ولم يكد يركب المستشار سيارة التاكسي ينتقل بها من البيت إلى أحد الأندية ..وأظن أنه نادي البحرية وهو النادي الوحيد هناك .والمسافة قصيرة، ولكن بالنسبة لرجل مريض يحتاج إلى تاكسي ..وجاء التاكسي .وركب المريض .وانحرف التاكسي إلى شارع جانبي ثم إلى شارع آخر .وفي التليفون تحدث السائق .ولا بد أنه نظر في المرآة إلى الوراء .ورأى أن الراكب متعب ومتهالك في مقعده .وفي إحدى الحواري الجانبية تقدمت سيدتان ..أو تقدم سيدتان ..فهما رجلان قد ارتديا ملابس النساء .وهجما على المستشار ونزعا حافظة نقوده ..ولم يكن معه كثير .ونزعا الساعة الذهبية ..واختفيا.

ويبدو أن السائق رق لحال المستشار فوعده -وهذا ولا شك فضل منه -بأن يوصله إلى قرب البيت ..ثم يتركه فلا شأن له بهؤلاء اللصوص .فهو موظف عندهم فقط ونصيبه من كل هذه المسروقات قليل جدًّا!

ومكافأة للسفارة العربية على صمتها .وعلى أنها قد وضعت فوق الخبر ماجورًا، أعاد البوليس الأوراق المفقودة والساعة الذهبية والخاتم ..ولكن البوليس لم يستطع أن يرد شيئًا مفقودًا هو :الطمأنينة!

وبشيء من الطمأنينة الكاذبة ..وبشيء من رؤية الهدف دون الطريق إليه، ركبت السيارة وجعلت ملامح وجهي قاسية ..وأقرب إلى التحدي قليلًا وكلما نظر لي السائق في المرآة ..سقطت عيناه على واجهة رخامية ..وعلى احتقار جامد .وانحرفت بنا السيارة ..ولكن لم نهتز لهذا الانحراف وتحدث في التليفون ولم نعبأ بذلك ..ودخل محطات البنزين ..فنزلنا نتفرج على السيارة ..وببعض عيني تظاهرت بأنني ألتقط رقم السيارة، وبعض العلامات الموجودة في الرفارف .وانتظرت حتى يفتح لي السائق الباب، إمعانًا في التعالي عليه .ولو عرف السائق ما يدور في أعماقي لأوقفنا في أي مكان ودون أن ينطق بحرف واحد فإنني سأعطيه كل ما مع ملحقنا الثقافي من أموال!

والطريق كلما ابتعدنا عن مدينة مانيلا متجهين إلى الريف تتغير معالمه ..فقد تجاوزنا الجانب المرصوف ..ومع الأسفلت اختفت المصابيح .وتعالى التراب مع غروب الشمس ..ولم نعد نر إلا الأشجار ..الخوف يجعلها على شكل أشخاص ..ثم على شكل أشباح ..ثم تلاشى كل شيء ..فلم نعد نرى إلا التراب هائمًا أمام مصابيح السيارة.

وانحرفت السيارة مئات المرات ..ثم توقفت أمام قصر فخم ..وصعدنا الدرج ..ودخلت الصالون الطويل العريض ..وعلى الجدران لوحات وأسلحة ..وكل شيء يدل على أن هذا البيت قد أعد إعدادًا خاصًّا قبل هذه الزيارة .فلا تزال رائحة التراب عالقة في الجو ..فكأن التراب كان نائمًا وأيقظوه ..ولكنه لم يبرح المكان ..إنه

يتردد في أن يصحو ..ولا تزال على المناضد آثار المقشات ..خطوط سمراء في خطوط سوداء ..ثم ريش متناثر على المقاعد وعلى الأرض..

ثم جاء الرجل ..ولم يكن هو الزعيم السياسي أجينالدو .إنه ابنه ..إن الابن قد تجاوز الخمسين ولكن فرحته وخفته لم تجعلاني أتصور أنه الأب ..ولما رأى حفاوتي به اعتذر بأنه ليس الزعيم ..وإنما الزعيم سيجيء حالاً .وقد حرص الزعيم على أن يكون هذا الاستقبال رسميًّا تمامًا كما كان يفعل إذا زاره إنسان عظيم، ليس مهمًّا هذا التفسير أو هذا التعليل ..فالزعيم رجل عجوز وهو لم يبرح ماضيه، وحرصه على أن يرتدي ملابسه ليس إلا حرصه على أن يعيش في الماضي ..وأبهة الماضي ..وزيارتنا له ليست إلا مناسبة سعيدة ..أو يجب أن تكون سعيدة له.

وجاء الرجل ..لا أعرف إن كان قد مشى على رجليه ..أو حملوه حملاً ..أو دفعوه في مقعد له عجلات ..فقد نهضت من مكاني قبل مجيئه ودخلت إحدى الحجرات أتفرج على اللوحات، وألقي نظرة على ماضيه الذي لا أعرف عنه إلا القليل جدًّا ..أما الكثير جدًّا فهو ما سوف أسمعه الآن..

وعندما عدت وجدت الزعيم على مقعده..

لقد امتلأت بشيء، لا أدريه بالضبط ..ولكني أستطيع أن أصفه دون أن أفسره الآن ..فأول ما أحسست به أن هذا الإنسان طيب ..وأنه صادق ..لا أعرف مدى صحة هذه المعاني ولا مدى صدق هذه الأحكام ولكنه مجرد إحساس ..أو هو إحساس مجرد من أية مصلحة ..أو من أية معلومات تاريخية أيضًا!

وأحسست كأنه مدفع قديم جدًّا في طابية منهارة..

كأنه عربة حربية ماتت خيولها، ولم يبق منها إلا بعض الألواح الخشبية الملونة..

كأنه رجل دفنوه حيًّا، ولما أحس المشيعون بذلك تركوا النعش وهربوا..

كأنه جندي يحمل معدات الميدان في معركة قد انتهت من عشرات السنين وهو لا يدري.

كأنه أحمد عرابي باشا .لا أعرف بالضبط وجه الشبه بينهما .وربما كان ذلك بسبب أنني عشت في جزيرة سيلان مشغولًا بالسنوات العشرين التي قضاها عرابي هناك .ورأيت كل الأماكن التي عاش فيها وتردد عليها ..ورأيت بعض الناس الذين عرفوه .إنهم لا يزالون على قيد الحياة .لقد مات عرابي منذ 53عامًا ..إنه مثل عرابي، فيه صدق، وله هيبة، ولكن وطنيته كانت أقوى من سلاحه .أو كأنه لطفي السيد ..وقد زرت لطفي السيد في بيت قد انحرف إلى حارة كأنه سيارة مغروزة في العشب ..أو كأنه باخرة قد ارتطمت بالشاطئ ولم تتحرك ..وكأنه هو قائد السفينة الذي أصر على أن يلزمها حتى ينجو كل من فيها ..ونجا كل من فيها ولم تغرق السفينة!

وهذا الرجل أجينالدو قام بثورة على الإسبان الذين حكموا الفليبين مئات السنين وتركوا طابعهم الثقيل على هذه الجزر .ولم يدفعوا الناس فيها إلى الأمام، وإنما كان همهم فقط أن ينقلوا ما فيها إلى بلادهم ..وأن يظل الناس يتفرجون على أناقة الإسبان ويتمنون أن يكونوا عبيدًا في مدريد.

وهناك أغنية تقول :عبيد في مدريد ولا أسياد في مانيلا..

ولم تكن قوات أجينالدو منظمة، وإن كان هو يؤكد أنها كانت كذلك، وأن الخونة قد طعنوه من الخلف، وأنه لولا هؤلاء الخونة لخرج الإسبان منذ زمن طويل .وهرب أجينالدو إلى هونج كونج ..ووافق الإسبان على أن يعطوه مرتبًا شهريًّا، بشرط أن يظل هناك مدى الحياة..

وعندما استولى الأمريكان على الفليبين أعادوا هذا الرجل بشرط أن يعتزل الحياة السياسية .واعتزلها منذ أوائل هذا القرن، ويوم جلس أجينالدو في مقدمة الصالون الذي أجلس فيه الآن يعلن أنه أبو الوطنية في الفليبين، في هذه اللحظة بالذات سقط عرابي باشا من فوق المصطبة في قريته ميتًا!

مسكين عرابي باشا عاش كريمًا في المنفى، ومات ذليلًا في وطنه!

وسألت الزعيم أجينالدو عن حياته ..فقال ما معناه ..أنه يقضي وقته كله في التأمل.

لعل التأمل الذي يتحدث عنه هو ما نسميه عادة بالسرحان ..فلا هو تفكير مركز، ولا هو تفكير .وسألته إن كان في نيته أن يكتب مذكرات..

ولا أعرف بالضبط ما الذي قاله الابن لأبيه لكي يقوله لنا، ثم يترجمه الابن ..ولكن بعد مناقشة طويلة بينهما قال الابن مترجمًا ما قاله أبوه :لدي الكثير الذي أريد أن أقوله ..ولكن أحسن طريقة لكتابة المذكرات هي أن تكتبها أولًا بأول ..فإذا عدت إلى كتابتها بعد ذلك يجب أن يكون في أوقات متقاربة..

وقال وأشهد أنني رأيت ابتسامته لأول مرة :عندنا مثل يقول إن البذور القديمة لا تنمو .ولم أقل له إن هذا هو عكس ما يعتقده أجدادنا الفراعنة!

وقد استغرقني التفكير في هذا الرجل..

فأنا لا أعرفه، ولكن في نفس الوقت كنت مشغولًا به .ولا أعرف ماضيه هل هذه النهاية هي التي تشغلني؟

هل إحساس الإنسان بأنه أصبح موضة قديمة هو الذي يخيفني؟

هل هو الإحساس بأن الصدق كأي عملة، في كل يوم لها سعر؟

هل لأن الوطنية هي شرف للجميع هي الأخرى كالعملة كل يوم لها سعر؟

ولا أعرف أي جوانب هذا الرجل الذي انتهى، هي التي تتحدث إلينا.

إنه »آخر نفس «في سيجارة شربتها الوطنية في الفليبين..

إنه تمثال نصفي صنعته السيول البُركانية ضد الإسبان..

إنه كومة من أشرطة مسجلة ..لا يعرف سرعة الجهاز الذي سجلت عليه.

سألته وأنا لا أتوقع جوابًا :هل من الممكن أن أرى بعض صفحات مذكراتك ..هل من الممكن أن يترجم لنا ابن سيادتك صفحة أو صفحتين؟

وعاد النقاش بينهما وبدا لي أنهما لم يتفقا على شيء ..وجاء كلام الابن يؤكد أنها مفاجأة، وأنه يحتاج إلى وقت طويل لينفض التراب عن هذه المذكرات..

وسألته :إن كان قد سمع شيئًا عن عرابي باشا..

وطبعًا لا يعرفه كما أن أحدًا لا يعرف عن هذا الرجل الذي نصفه صيني ونصفه فليبيني..

وسألته إن كان يعرف بلادنا .فاهتز في مقعده .واحتبست في داخله المعلومات أو الانفعالات وارتفعت إلى وجهه حمرة خفيفة كالتي تجدها في واجهة جهاز الراديو قبل أن ينطلق ..ونطق الابن وقال :طبعًا.

أما الذي قاله بعد ذلك فتستطيع أن تخمن ما سيقوله رجل إذا رفع يديه إلى أعلى وأشار بثلاث أصابع ..الأهرامات طبعًا..

ولو وضع يده على أنفه وضغط قليلًا لفهمت أنه يتحدث عن أبي الهول..

ولو زحف على الأرض، لفهمت أنه يتحدث عن التماسيح التي تسبح في شوارعنا ..فالرجل من مواليد نصف القرن التاسع عشر!

ولم يضايقني أنه لا يعرف إلا الأهرامات ..وكان يضايقني أكثر لو دبت الحياة في يديه وتحدث عن التماسيح فعلًا !ولو تحولت أمواج النيل إلى تماسيح فإنها لن تبلغ عدد التماسيح التي تحرس شواطئ الملايو وإندونيسيا والفليبين!

ورأيت لمعانًا خفيفًا في عيني الرجل ..وأصبحت عيناه نيشانين جديدين أضيفا إلى النياشين التي علقها على صدره .فقلت له، وأنا أراه لوحة أصلية وأن ابنه لوحة تقليد :هل كانت لك غراميات؛ فليس بالحديد والنار يعيش الإنسان؟

فقال وهو مصمم على الضحك :مرة واحدة..

وكطفل صغير نظر إلى ابنه.

فقلت له :ولم تتزوجها طبعًا؟

فهز رأسه بما معناه نعم..

وأضاف الابن أن لوالده غراميات أخرى كثيرة .ولكن الحرب والسياسة حرمتاه من الحب، وعوضتاه عن ذلك بحب الناس..

ولم أسأله طبعًا إن كان حب الناس ..يكفي!

فمن يدري ربما كان نصيبه هو من احترام الناس وحبهم أكثر مما يستحق .فحب الناس هذا ليس أبديًا، ولا شيء أبدي، وعند الناس من المشاغل والهموم والمعارك اليومية ما يشغلهم عن غيرهم وعن أنفسهم ..فكل واحد مشغول بالنجاة فقط ..بالنجاة من الفقر والمرض والنسيان ..وهم لكي يعيشوا يجب أن ينسوا .ولكي يعيشوا يجب أن يدوسوا غيرهم أيًا كان هذا الغير ..وهو -هذا الرجل -يعيش في قصر، أو يموت في قصر، وملايين غيره ينامون على الأرض ..يعيشون على الأرصفة ..ويحلمون بأن يموتوا على أرصفة ألطف.

وبهذه المعاني خرجت وأنا أرى أنه أخذ ما يستحق ..وأنه في هذه السن لا يطمع في أكثر من أن يتمدد في انتظار السائح إياه ..ذلك الذي يجيء مرة واحدة ..وبعد زيارته لا شيء ..وهذه عبارته هو، وعبارة كل الناس في هذه السن..

وفي هذه السيارة شعرت بأنني أحسن حالاً..

وقد استعرت هذا الإحساس من السائق الذي رأى في زيارتنا لهذا الزعيم القديم أهمية خاصة لنا ..والذي لا بد أن يكون قد استنتج من تكرار كلمات :سينما ..وفيلم ..وهوليود وأنا أتحدث مع ابن الزعيم أنني مخرج أو مؤلف وأننا

جئنا لعمل كبير عن حياة هذا الرجل، وأنه من الممكن أن نستفيد من خبرة هذا السائق في قيادة السيارة في الظلام ..وفي اللف من حارة إلى حارة دون أن يصطدم بسيارة أخرى ..ثم إخلاصه في حراستنا ..لدرجة أن واحدًا منا لم يمت!

وعندما وقفت السيارة أمام الفندق، والسائق لا يقدر مدى سعادتي ولا سببها، لمست يدي خده فابتسم، وأخرجت قلمي لأعرف اسمه فضحك، وعنوانه لأرى الدموع في عينيه ثم قلت له شيئًا لم يكن يتوقعه:

هل تعرف أن وجهك يصلح للشاشة؟!

ثم حدثت نهاية سينمائية..

لقد تقدم أحد رجال البوليس واعتقل هذا السائق ..فقد ارتكب جريمة قتل في الصباح، ثم هرب بنا إلى الريف.

مسكين ..إنه لم يكن ينظر في المرآة ليرانا وإنما كان يتطلع إلى رجال البوليس!

* * *

مطلوب كلب بلدي!

كان الفيلسوف الألماني نيتشه يقول :عش في خطر!

وكان ينصح الناس بأن يعيشوا عند قمم البراكين التي تهتز وترتجف ..استعدادًا لسيول ملتهبة وسحب من الدخان ..وبرق يتحول إلى كرابيج والعة نار ..ورعد يتحول إلى تكسير وتحطيم ..ويموت الناس في قبور مشتعلة!

والنتيجة :الموت المؤكد..

واللذة :هي أن يشعر الإنسان ولو لحظة واحدة أنه معلق بين الحياة والموت ..وأنه يكون قد اختار المكان والطريقة التي يموت بها .ومعنى ذلك أن الإنسان يكون له رأي في نهاية حياته .وبذلك لا يظل الإنسان في حالة انتظار دائم للنهاية ..فإذا عاش على قمة البراكين، فهو يعلم مقدمًا أنه سيموت ..ويعلم مقدمًا كيف سيموت!

وركوب البحر خطر ..والطائرة خطر ..والمشاركة في الحياة العامة خطر ..وكل شيء في الدنيا خطر ..فكأن الحياة نفسها نوع من الخطورة والمخاطرة..

وفي هذه الحالة أجد لعبارة نيتشه معنى!

ولكن الذي أراه في الفليبين هو نوع من الخطورة لا معنى له .وليست فيه أية لذة، ولا هي فلسفة!

* * *

ولا بد أن أعود إلى الكلام عن التاكسيات ..فهي الخطر الذي يجري على عجل !فأي شارع أمشي فيه تلتف التاكسيات حولي ..وتتزاحم ..وكل واحد يفتح الباب ويقول كلامًا لا أعرفه ..وكل واحد يتقدم بورقة .وعن قرب وجدت أن الورقة بها أسماء فتيات وأرقام تليفونات ..وأول الأمر كنت أظن أن هذه أرقام تليفونات ..ولكن عندما اقتربت أكثر عرفت أنها أعمار الفتيات!..

وأحيانًا يكررون كلمة :مستيسا؟ !مستيسا؟!

وهذه الكلمة معناها »خليط ..«أي أن الفتاة التي يعرضها من أصل إسباني ..أي أنها جميلة .والفتاة الخليط من الإسباني والفليبيني تعتبر جميلة .يكفي أن ملامحها أوربية وأن لونها ليس أسمر أصفر ..وإنما لونها أقرب إلى البياض وعيناها ملونتان..

وفي هذه المنطقة من العالم ينظرون إلى ذوات اللون الفاتح على أنهن من جنس آخر لأنها من لون ومن سلالة الناس الذين حكموا هذه البلاد .وكان الحال عندنا في مصر أيام حكم الأتراك ..فالفتاة التركية الشقراء ..هي ست البنات ..وأعتقد أن الفتاة السمراء في كل الدنيا هي التي تكسب في أية مباراة للجمال ..فالرجال يفضلونها سمراء، والنساء يفضلنه أسمر أيضًا!

أذكر أنني دعيت للعشاء في أحد البيوت هنا وتوقعت أن أرى مرحًا أكثر مما رأيت ولكن الذي رأيته هو شيء في غاية الاحتشام، وسألت إن كان وجودي هو الذي حول البيت إلى كنيسة كئيبة ..وقالوا لي :أبدًا ..إننا عادة هكذا..

فسألت :إن كان المقصود بالعادة هكذا هو هذا البيت فقط .أو كل بيوت مدينة مانيلا.

فقالوا :هذا البيت فقط..

حاولت أن أعرف إن كان هناك أي سبب خاص لهذا الاحتشام الذي يميل إلى الحزن مع بعض الابتسامات المكتومة..

فقد ارتدت معظم السيدات فساتين بيضاء مطرزة من فوق الصدر والياقات والأكمام ومعظم الرجال ارتدوا القمصان المطرزة أيضًا .وهذا هو اللبس القومي .وقد وضعت النساء ورودًا في شعورهن ..معظم الورود كانت على جانب من الوجه ويبدو أن المرأة حريصة على أن نرى منها جانبًا واحدًا من الوجه ..كأنها تريد أن تقول عن نفسها إنها صريحة ..لأن لها وجهًا واحدًا فقط!

لم أجد في الأطعمة التي أمامي أي شيء غريب فيما عدا الأرز .فله رائحة غريبة، وهو مخلوط ببعض البهارات التي تجعل له طعمًا حريفًا ..وإلا حرص أصحاب البيت على أن »يعزموا :«والله تأكل هذه ..والله تأكل هذه القطعة من اللحم ..واللحم عادة يكون صغيرًا مثل قوالب السكر!

وبعد أن تناولت الغداء أوصلوني إلى الباب الخارجي مع التحيات والسلامات وتركوني وحدي أبحث عن تاكسي .وهم جميعًا يعلمون خطورة ركوب أي تاكسي.

ومر تاكسي ووراءه آخر ..وثالث ..وينفتح الباب وكل واحد يدعوني إلى الركوب معه وأنا أرفض ..وأعتذر أو أتصنع عدم الاهتمام .وأخرج من جيبي المفاتيح أوهم هؤلاء السائقين بأنني من أصحاب السيارات التي لا يملكها إلا الأثرياء جدًّا هنا..

وعند ناصية أحد الشوارع توقفت سيارة ..وكان السائق رجلًا أبيض ..ويبدو أنه أمريكي ..وسألني :هل تعرف أين توجد سفارة مصر؟

فقلت بشيء من السعادة؛ لأنني وجدت من يوصلني إليها مجانًا وفي أمان :أنا مصري..

واندهش الرجل الأمريكي هو وزميله الذي يركب معه وقال :إذن أنا سعيد الحظ جدًّا ..سعيد جدًّا..

وكنت لا أعرف مكان السفارة إلا إذا كنت بالقرب من الفندق .فطلبت إليه أن يتجه إلى الفندق، وفي الشارع المجاور إلى الفندق انطلقت السيارة، وبعد مئات الأمتار وقفت أمام باب السفارة وصعدنا الدرج ..الدور الأول به دكاكين .الدور الثاني يسكنه قنصل لبنان .الدور الثالث على الشمال توجد شقة السفارة .ودخلت ومعي اثنان من جنود الطيران الأمريكي يريدان مقابلة السفير لأمر خاص .ويؤكدان أنه مهم أيضًا..

وتطوعت أن أؤدي لهما أية خدمة..

ولكن الأمر مهم وخاص ولا بد من مقابلة السفير ..وبعد أن عرفا أن السفير مشغول جدًّا .وافقا على أن يتحدثا في الأمر المهم إلى الملحق الثقافي ..أما الأمر فهو أن أحدهما لديه مشكلة وقد تعب في حلها .والمشكلة هي أن لديه »كلبة «من النوع البلدي .وقد اشترى هذه الكلبة من سان فرانسيسكو وقد طارت معه هذه الكلبة إلى اليابان وإلى كوريا ..وقد نقل هو الآن إلى الفلبين لمدة ستة أشهر..

وهو يريد أن يعرف إن كان من السهل أن يجد كلبًا ذكرًا من نفس النوع لأنه هو شخصيًّا قد تعب في البحث عن كلب بلدي .وقد اتصل بتجار الكلاب في سان فرانسيسكو وقد وعده بعضهم .ونشر إعلانًا في إحدى مجلات الكلاب في أمريكا -التي عددها 375مجلة -يطلب هذا النوع من الكلاب ثم فقد الأمل أخيرًا.

ويطلب من السفارة أن تعاونه في معرفة بعض الأمور الخاصة بهذا النوع من الكلاب .كم يبلغ وزنها عندما تصل إلى سن معينة؟ كم تعيش؟ هل تزيد سرعتها عن كذا متر في الثانية؟ ويقول إنه قاس سرعة هذه الكلبة فوجدها كذا .ويريد أن يعرف إن كانت هذه أقصى سرعة لها أو أنه يمكن أن تزيد السرعة عن ذلك ..وهل تعلو أكثر أو أن هذه الدرجة من العلو هي الحد الأقصى..

وفي جيبه نوتة صغيرة مكتوب فيها جهة وتاريخ ميلاد الكلبة، وثمنها ووزنها وكل ما يظهر عليها من أعراض الصحة والمرض ..ومقاييس سرعتها ..إلخ .إلخ..

وأنت تستطيع الآن أن تتخيل دهشتنا جميعًا ونحن نسمع رجلًا جادًّا وفي اهتمام شديد جدًّا ..ثم هو يتحدث عن إحدى الكلاب البلدية ..واحدة من الكلاب التي يقتلها السماوي -أي الرجل الذي يسمم الكلاب -في أوائل الصيف .ثم تجد نفسك عاجزًا عن مساعدته .فلا أحد يعرف أية معلومات عن هذا النوع من الكلاب ولا عن أية أنواع أخرى.

وعندما طلب منا هذا الرجل أسماء بعض الكتب الخاصة بالكلاب ..وإن كان يوجد في السفارة كتاب واحد أو مجلة واحدة ..طبعًا لم يجد لا كتابًا ولا مجلة ولا أحد سمع عن كتاب أو مجلة.

وعلى سبيل التخلص منه أعطيناه عنوان قسم الحيوان بكلية زراعة جامعة القاهرة .ولا بد أن القسم قد تلقى خطابات من هذا الطيار الأمريكي وبها صورته مع الكلبة البلدية .ولم يتلق ردًّا!

ولا يزال موظفو السفارة يتوارثون هذه النكتة!

وعندما رويت هذه الحادثة لعضو مجلس شيوخ جاء إلى مصر كثيرًا ضحك ليروي لي حادثة أغرب .قال إن أحد الأمريكان من جنود البحرية أقام عدة أسابيع في إحدى الجزر النائية ..نصب هناك خيمة وحمل معه طعامه وآلات تصوير ..وعاد ليعرض على الدولة شراء شيء نادر جدًّا .فقد تمكن من اصطياد نوع من الخفافيش النادرة ..إنها ملونة ويصدر عنها صوت يشبه الجرس.

وطلب الأمريكي ثمنًا لهذا الوطواط بضعة ألوف من الجنيهات.

وأصيب الناس بذهول ..وما قيمة وطواط ..إن في كل بيت في الفلبين واحدًا على الأقل ..ولا يلتفت الناس أبدًا إلى لونها أو صوتها وكل ما يفكرون فيه هو كيف يتخلصون منها ..خصوصًا أن هناك بعض الوطاويط لا ترى في الليل، فهي تصطدم بوجوه الناس أو كثيرًا ما أسالت دماءهم.

وسافر هذا البحار إلى أمريكا ..وبعد ثلاثة شهور عاد لتنشر الصحف أنه باع هذا الوطواط بالمبلغ الذي أراده، وأنه فاز بميدالية ذهبية من إحدى الجمعيات العلمية في أمريكا!

* * *

وقبل أن أودع الفليبين، هذه الجزر السابحة في الدفء والرطوبة والتي تعلو وتهبط ويزيد عددها ويتناقص في كل يوم مع المد والجزر .ذهبت إلى مطعم في أقاصي المدينة .والمطعم قد اتخذ مكانه على شاطئ بحيرة بركانية ..البحيرة كانت فوق بركان خامد ..وكل البراكين هنا خامدة ..والسلالم بركانية أيضًا ومصنوعة من سائل كان مشتعلًا من مئات السنين ..والمناضد مصفوفة ..والجو منعش جدًّا ..وينذر بقليل من المطر فنحن على خط عرض 15شمالًا ..والهدوء لا نظير له إلا في مناطق الجبال ..هدوء ساحر ناعم كالذي أحسست به في منطقة كاندي في سيلان ومنطقة ميسوري في الهند، والذي أحسست به في كانبرا بأستراليا ..وفي جبال الألب في أوربا ..الجو هنا لا ينقل الصوت .لا أعرف ..إن الهواء يمتص الصوت ويقتل الصدى في لحظة مولده ..يجيء الجرسون ويروح ونحن لا نسمعه كأنه طيف ..كأنه شبح ..ويقدم لنا الطعام وينسحب شاكرًا ..أو ينسحب مشكورًا.

والأيدي تشير إلى الجزر التي أمامنا ..إنها جزر صغيرة لونها أميل إلى السواد وهي ملفوفة في غلالة من الضباب الأبيض ..وأحشاء المحيط واضحة ..إن هذه الجزر لم تكن هنا أمس، لقد انحسر ماء المحيط نهارًا .فظهرت هذه الجزر .وفي الليل عندما يطلع القمر يسحب معه ماء المحيط ..فيدفن بغلالة داكنة كل هذه الجزر الصغيرة ..ومع ذلك فهذه الجزر التي تقب وتغطس، ليست ضمن السبعة آلاف جزيرة التي اسمها :الفليبين.

وعلى فكرة ..أهل الفليبين يسمون مدينة مانيلا :جوهرة المحيط!

وهي بالفعل جوهرة ولكن في الوحل..

أما الجزيرة التي أستعد الآن للسفر إليها فهي بالفعل جوهرة..

وستعرف حالًا أن هناك نوعًا من الوحل ..ولكن هذا الوحل في داخل الجزيرة.

وليس حولها ..ولكي أكون صادقًا أقول لك هي الأخرى جوهرة في الوحل، وجوهرة فيها وحل!

..فإلى جزيرة هونج كونج.

* * *

هونج كونج لؤلؤة البحار!

كأن الطائرة وهي تحوم فوق هونج كونج نملة تزحف على لوحة جميلة معلقة فوق حائط من الزجاج الأزرق..

كأن العمارات الطويلة الرفيعة الحمراء والصفراء والبيضاء مصنوعة من العملات الذهبية والفضية والنحاسية، قد وضعها بعضها فوق بعض ملايين التجار المهربين، فلما سمعوا صوت الطائرة هربوا إلى الغابات والجبال..

كأن الميناء، هذه القناة التي تفصل بين طرفي هذه المستعمرة البريطانية، شق في فستان فتاة، والفستان من اللبني المشجر بالأحمر،والمغطى باللؤلؤ..

وكأن هذه الزوارق الصغيرة، وهي تروح وتجيء رأت الكثير مما تحت فستان الفتاة الحلوة، فانكسفت وأخفت رأسها في الماء، فلم تعد ترى إلا ساقيها الملتصقتين، وهما جميلتان ..والبقع الحمراء الصغيرة التي تراها من بعيد ليست إلا أظافرها المصبوغة بدماء الناس ..وستكون أنت واحدًا منهم!

كأن الناس والسيارات والعربات وهي تجري بين العمارات الفاتنة، جيوش نمل تزحف على ملايين من قطع الجاتوه والملبس..

كأن جزيرة هونج كونج سيدة جميلة وضعت الأبيض والأحمر، ووضعت عقودًا وخواتم وأقراطًا من اللؤلؤ وجلست على بساط أخضر ..متربعة كأنها شهرزاد تروي قصة ألف ليلة للملك شهريار..

وليس هناك شهريار سواك ..فهنا ألف شهريار وشهريار ..ولا توجد إلا شهرزاد واحدة .في انتظارك دائمًا .انتظار رؤيتك لكي تلقي لها بمحفظتك التي امتلأت بالمال عند ست الحسن والجمال، ملكة البحار والمحيطات :هونج كونج.

وكأنها ..وكأنها ..وليست هناك طريقة أخرى للحديث عنها إلا بهذا الشكل ..ولكن ما هي؟ ما جمالها؟ ما سحرها؟ هي أروع من أي كلام ..ومن أي »كأن.«

وليست كلمة »كأن «إلا محاولة لوضع منظار أسود على أي تعبير قبل أن تبحلق في جمالها..

ليست كلمة »كأن «إلا عكازًا تتوكأ عليه المعاني وهي تقطع المسافة الطويلة بين الخيال وبينها..

ليست »كأن «إلا نوعًا من الفلتر تضعه في مخك للوقاية من أنفاس هونج كونج..

ليست »كأن «إلا نوعًا من البالطو الأبيض الذي يقيك من الإشعاعات الذرية وأنت تقترب من هونج كونج ..أي إشعاع أروع وأجمل من أن تكون حرًّا وأن تكون قادرًا على السعادة ..إسعاد نفسك وغيرك ..وبلا خوف ..أروع ما في الدنيا أن تكون بلا خوف!

* * *

وفي مطار هونج كونج حملت حقائبي .وناديت إحدى سيارات التاكسي وقلت للسائق :فندق أستور من فضلك!

وانطلق السائق .وطال الطريق .الهواء منعش لمدة أربعة كيلومترات .العمارات جميلة عن قرب أيضًا .الجبل يحتضن العمارات كأنه »دادة «زنجية كبيرة الصدر، ممتلئة الساقين، ولها كرش ..ولكن يبدو أنها طيبة ..فهي لم تضربني بالطوب عندما أقترب من كرشها..

بدأت أسأل السائق عن الشوارع .وأنا في الحقيقة أريد أن أعرف منها أجرة التاكسي .فالعداد يطلع وينزل بسرعة، والأرقام أمامي بالدولارات .وعندما أشار العداد إلى رقم 8 وقفت السيارة أمام أحد الفنادق وتقدم اثنان من الشيالين .وحملا الحقائب التي تعودت أن أحملها وحدي فهي لا تزيد عن 18 كيلو ..وكانت قبل ذلك 23 كيلو، وفي نيتي أن أجعلها 15 فقط .فلست في حاجة إلى أحذيتي ولا في حاجة إلى البلوفرات القديمة التي كنت أسترها بالجاكتة في أستراليا ..ولا تزال عندي زجاجات فارغة شربت ما فيها .وبقيت الزجاجات الفارغة كأنها فواتير تدل على أنني اشتريتها!

واتجهت مباشرة إلى الموظف المختص وسألته عن غرفتي التي حجزتها بالأمس -كدهوه -ولكن الرجل لم يتهوش من لهجتي الأمريكية في الكلام ..وفي التبسط معه .واتجه هو الآخر إلى دفتر كبير، واتجهت أنا إلى دفتر صغير عن هونج كونج، وبدأ يقرأ باهتمام وبدأت أقرأ بقرف، وتحول قرفي إلى اهتمام، وتحول اهتمامه إلى قرف .ونظرت إليه باهتمام، وأغرقني في قرفه عندما قال لي:

-مفيش حاجة بالاسم ده.

وعرفت أن البرقية التي بعثتها أمس من مانيلا لم تصل إلى الفندق .وأفلتت مني عبارة:

»يا نهار أسود .«إذا كانت البرقية لم تصل أمس، فمتى تصل خطاباتي ومقالاتي إلى القاهرة؟

وفهمت أن كل غرف الفندق محجوزة ولكن هناك أَمَلٌ في أن تخلو إحدى الغرف بعد 27يومًا..

وبدأت البحث عن فندق آخر قريب ..وهناك ثلاثة فنادق ..ذهبت إلى الفندق الأول .وقابلني أصحابه بترحيب شديد جدًّا .وحملوا الحقائب وصعدت السلم، أول طابق والثاني والثالث والرابع .والغرفة صغيرة .وفيها جهاز تكييف وليس فيها حمام ..وإنما الحمام بجوارها ..وتنبعث منها رائحة غريبة..

ولا بد أن منظري وأنا أعتذر عن قبولها، ومنظرهم وهم يحملون الحقائب ويسحبون ترحيبهم وابتساماتهم ..كان أبشع من الغرفة ..بل إن أيديهم سحبوها ووضعوها في جيوبهم وبدأوا يشخشخون بالفلوس، ومعنى ذلك :مش محتاجين لفلوسك!

والفندق الآخر أبعد من هذا بشارعين، مدخله حلو، جميل، أضواء ومقاعد ومراوح وورد، واستقبال شعبي ..نفس الوجوه، نفس الأسنان، نفس الأيدي التي مالت على الحقائب وعلقتها على الأكتاف وراحت تتمتم ورائي بعبارات غير مفهومة، وصعدنا الدورين الأول والثاني، وعلى اليسار وإلى جوار الحمام العمومي انفتح باب .ووجدت على السرير قطة وأولادها .ومن غير أية مناسبة كشرت وعدت إلى الدور الأرضي وتركت حقائبي، وانطلق الناس ورائي يسألون عن السبب طبعًا .السبب واضح وهو أن الغرفة رديئة جدًّا .وقلت لهم:

-إننا في بلادنا نتشاءم جدًّا من القطط، وهذه القطة ستدفعني إلى السفر الليلة من هنا الآن .اتركوني ..اتركوني .تاكسي للمطار يا أسطى.

أما المطار المزعوم فكان فندقًا آخر قررت أن أنزل فيه بأي ثمن .وكان الثمن 36شلنًا ..غرفتي أول غرفة في الفندق كله ولها مزايا ..أولًا :ليس فيها جرس، ولكن الباب أفتحه بصعوبة، فإذا انفتح الباب أحدث صوتًا يوقظ الخادم الذي يخشى أن يتحطم زجاج الباب والنافذة فينطلق ناحيتي فأقول له:

-واحد شاي من فضلك.

وعندما يحضر الشاي أتجه إلى الباب أشده ناحيتي فيصرخ الباب والخادم فأقول له:

-أمال فين الجرايد يا أخي !وبعدين وياك أنت والباب بقى.

وثانيًا :إن عمليات الغسل والكنس تبدأ في الساعة الثامنة ومن الدور الخامس إلى الدور الأول، فالشاي والجرايد لن تصلني إلا في العاشرة والنصف بعد أن أكون فرغت من الاستماع إلى نشرات الأخبار وكتابة بعض المذكرات..

وثالثًا :فإنني أطل من نافذتي على فندق »أستور «الذي لم تصله برقيتي بعد 24ساعة من إرسالها ..وأضع يدي على خدي وأتحسر على مقالاتي التي بعثتها في خطابات لا في تلغرافات، وهل تصل، وأضرب رأسي في النافذة!

عندما كنت في جزيرة سنغافورة تصورت في ذلك الوقت أن سنغافورة هي أرخص بلد في الدنيا ..والحقيقة أن هناك بلدة أخرى أرخص منها وأجمل منها جدًّا .ولا تزال مستعمرة بريطانية تسكنها أغلبية من أبناء

الصين ..وهي ميناء حر مثلها تمامًا .واسمها هونج كونج .طبعًا حصل عندك تنهد شديد .أنا أعذرك .فقد تنهدت قبل ذلك كثيرًا .والآن أتنهد لأنني سأتركها بعد أيام وأصبح مثلك بعيدًا عنها.

أرجو أن يكون معلومًا أن الراديو الصغير وهو الموضة في كل الدنيا، في الهند وإندونيسيا والفليبين وأستراليا ثمنه لا يزيد عن خمسة جنيهات بأي حال، ثم هناك راديو صغير بطارية وفيه بيك آب للأسطوانات العادية وهذا الراديو الجديد ثمنه 12جنيهًا، وهنا راديو على شكل قلم باركر وحجمه لا يزيد عن »قلمين باركر «متجاورين وصوته قوي جدًّا وثمنه سبعة جنيهات.

ولكن أذكر هنا أسعار الحرير والروائح، فهي أرخص من سنغافورة وأرخص من أسعار ميناء عدن أيضًا..

وأكتفي هنا بذكر اللؤلؤ ..إنهم يشترون اللؤلؤ ..من اليابان، وهو في اليابان رخيص .ولكنه هنا في هونج كونج أرخص، فطاقم اللؤلؤ :حلق وخاتم وعقد، ومن أي لون لا يزيد على 16جنيهًا.

وأشياء كثيرة جدًّا بالنسبة للسيدات لا يمكن أن نجد أرخص منها، ومع ذلك فلا بد من المساومة، ومع المساومة تنزل كل الأسعار .وأما البدل الرجالي فيمكن تفصيل البدلة في 24ساعة ..والبدلة الصوف من الإنجليزي ثمنها 12جنيهًا .وقد اشترى هذه البدلة وبهذا السعر وفي هذا الوقت كثيرون جدًّا من العرب الذين قابلتهم..

وفي استطاعتك أن توصي أي محل هنا أن يرسل لك أية سلعة على أن تدفع ثمنها عند التسليم ..وأكثر من هذا في استطاعتك أن تشتري أي سلعة وأن تترك للمحل أن يشحنها لك في أي مكان في العالم ..وستصلك قطعًا لأنهم هنا أمناء جدًّا..

فالأمانة من أهم خصائص المجتمع التجاري لا تنس أننا زراعيون وأخلاقنا زراعية يعني فلاحين!

* * *

دخلت أحد المحال بقصد الفرجة ..وأعجبتني ولاعة سجائر يابانية، هي عبارة عن ساعة صغيرة ومعها قلم حبر جاف لا يزيد على أصبعين في يد فتاة صينية، ولم أكد ألمسها حتى اقترب مني البائع وقال لي :عجباك..؟

فهززت رأسي فقال :ثمنها جنيهان.

فقلت :ياه غالية كده ليه؟

فقاطعني قائلًا :أخفض لك ثمنها، يرضيك جنيه ونصف.

فقلت :غالي برضه.

فقال البائع :أعطيك الولاعة هدية إذا وعدتني بشراء ولاعة أخرى.

فقلت :آسف .غدًا ستكون معي فلوس..

فقال :ما يهمش، إديني عنوانك وأنا أبعثها لك، ثمنها علشان خاطرك بجنيه.

وخرجت ساكتًا واجمًا ومررت على محل آخر فوجدت نفس الولاعة بتسعين قرشًا ..فأنا لو كنت في القاهرة وقرأت هذا الكلام لتضايقت جدًّا وقلت في نفسي:

آدي حال الدنيا، يعطي الحلق للي بلا ودان، يعني الواحد لا يعرف يشتري ولا يعرف ياكل ولا يشرب ولا يلبس وليس له مزاج في أن يشتري أي حاجة من العجايب اللي يشوفها دي، وواجع دماغنا بيها، ده يسافر ويروح هونج كونج وأنا هنا بقى مش كنت أسافر بداله، والله ظلم.

وأنا شاعر بهذا الظلم ..أكثر منك.

* * *

على باب غرفتي موجودة هذه التعليمات:

هذه الغرفة شخصية يعني لا يقيم فيها إلا شخص واحد ..وإذا ظهر أن هناك أي إنسان، فالفندق سيقاضيه الثمن فورًا.

حضرات الضيوف -رجالًا ونساء -نرجوهم أن يسجلوا أسماءهم في دفتر الزيارات ..إذا كانت في نيتك أن تترك الفندق؛ فيجب أن يكون ذلك قبل الساعة الثانية عشرة ظهرًا ..أما بعدها بدقيقة فسيضطر الفندق إلى احتساب اليوم عليك.

الفندق غير مسئول عن ضياع أموالك أو الأشياء الثمينة التي تحتفظ بها أو إصابة أمتعتك بأي تلف ..وإذا كانت لديك أمتعة مهمة، فأعطها من فضلك للإدارة .ويجب أن تأخذ وصلًا بالتسلم، ويجب أن يكون الوصل مكتوبًا على الآلة الكاتبة المعترف بها قانونًا .الدعارة ممنوعة .والقمار ممنوع .والتزييف ممنوع.

اقفل الباب وراءك من فضلك.

من حق اللوكاندة تطبيق هذه القواعد دون إخطارك.

الحساب كل ثلاثة أيام.

واسم هذه اللوكاندة هو لوكاندة »كارنرفون «وهو الرجل الذي اكتشف مقبرة توت عنخ آمون ولدغته إحدى الحشرات، ويقال إنه مات بسببها ..ويقال إن لعنة الفراعنة التي أصابته، أصابت أولاده وأحفاده واحدًا بعد واحد..

وأعتقد أن لعنة الفراعنة أن يقيم أي إنسان في هذا الفندق.

هذا رأيي ..وأرجو أن يكون هذا أيضًا هو رأي الفراعنة.

وقد أذهلني منظر الناس وهم يمشون وقد أحنوا رءوسهم كأنهم حانوتية ..وكأنني أنا المرحوم..

وكنت أتخيل أن كل الناس في هونج كونج يلبسون بدلًا من الشاركسكين الأبيض، وفي أيديهم ساعات أوميجا ذهبية .وفي جيوبهم راديوهات صغيرة، وفي أقدامهم أحذية إنجليزية، ويدخنون السجائر الأمريكية .ولما انفتح باب الطائرة ورأيت أناسًا كأنني أعرفهم من قبل ..كأنني رأيتهم في الهند وإندونيسيا والفلبيين، أناسًا قصار القامة صفر اللون وعيونهم بياضها شديد وسوادها أشد .وبالبيجامات ..كأنهم أعقاب سجائر ..ووجوههم كالحة كالنحاس ..وأيديهم تمتد لحمل الحقائب ..وكلمة يا سيدي تتردد مئات المرات، وأول مرة سمعتها في هونج كونج كانت هامسة خجولًا لدرجة أنني تخيلت أنها صادرة مني .ولكني تأكدت أكثر من مرة أنها كانت موجهة لي..

وعرفت بعد ذلك أن هذا هو حال المدينة ..ففيها ذهب وفيها أناس في لون الذهب ..وفيها أغنياء جدًّا وفيها فقراء جدًّا .وفيها ناطحات للسحاب وفيها ناطحون للأرض.

المطار اسمه كاي تاك ..يبعد عن المدينة أربعة كيلومترات..

ومعنى هونج كونج :شذى الورد ..أو الهواء المعطر ..لا أعرف بأي شيء كان الهواء معطرًا هنا من مئات السنين!

ولكنه الاسم ..وقديمًا قال شكسبير في مسرحيته روميو وچولييت :وماذا في اسم؟!

طبعًا ولا حاجة!

* * *

والذي لا يعرفه الكثيرون أن هونج كونج لها عاصمة اسمها فيكتوريا وأن هونج كونج اسم يطلقونه الآن على الجزيرة وعلى مساحة أخرى من الأرض تبلغ عشرة أمثال جزيرة هونج كونج .فهناك في مواجهة هونج كونج توجد شبه جزيرة اسمها »كولون «ومساحتها 365كيلومترًا مربعًا ..وكولون هذه فيها كل المصانع ومراسي السفن ..ووراءها مساحة من الأرض السهلة يعيش فيها عدد من الصينيين حياتهم الفطرية ..يزرعون الأرض كما زرعها أبناء الصين من ألوف السنين ..ويأكلون الأرز ويبيعونه ..ويصيدون السمك ..وبعضهم يملك جاموسة وبعض الدواجن .ولكنهم مشغولون بالأرز عن العالم الذي يضج بأحدث الآلات ..ولا يسمعون رنين المال في كولون في هونج كونج.

وهونج كونج مستعمرة بريطانية منذ سنة 1841فقد كانت بريطانيا تتاجر مع الولايات الصينية الجنوبية..ولكن الصينيين طردوا البريطانيين في معارك متوالية معروفة باسم حرب الأفيون .(1842 - 1840)فقد كان البريطانيون يحملون صناديق الأفيون من الهند ويبيعونها للصين حتى أدمن الشعب الصيني تعاطي المخدرات القاتلة ..وبلغ عدد صناديق الأفيون التي صدرتها بريطانيا إلى الصين في سنة 1898حوالي 40ألف صندوق!

ولكن أحد ملوك الصين قاوم السم وجمع كل ما يملكه التجار وأحرقه وهدد بإعدام كل من يبيعه أو ينقله أو يتعاطاه ..وانسحبت إنجلترا واستولت على هونج كونج ..بما يشبه القوة أو بالقوة ..وأغرب من ذلك،فإنها طلبت من الصين بعد ذلك قطعة أخرى من الأرض لتحمي هذه الجزيرة، ووافقت الصين، فاقتطعت بريطانيا من أرض الصين المنطقة المواجهة لجزيرة هونج كونج وهي منطقة كولون .وكولون معناها العفاريت التسعة، واستأجرت بريطانيا هذ الأرض لمدة 99عامًا بدأت سنة 1898وبعد ذلك أضافت إليها مساحة أخرى تبلغ 300كيلومتر مربع.

* * *

وهونج كونج ميناء حر ..يعني تدخله البضائع وتخرج منه .الدخول بلا أي ضرائب ..والخروج بضرائب تافهة جدًّا ..وفي استطاعتك أن تدخل فيه بأية عملة وأن تخرج بأية عملة ..وبأية كمية ..إنهم في الجمارك يسألونك إن كانت معك سجائر ..فقط ..وإن كانت هذه السجائر تزيد على 200سيجارة ..أسئلة شكلية من أولها لآخرها ..الوحيد الذي فتشوه في ثلاثة أيام بين ألف مسافر هو شاب عربي نحيف جدًّا ..ولا أحد يعرف السبب، وقيل لنا في ذلك الوقت ..إنه نحيف شاحب ..وربما اعتقدوا أنه من أبناء الصين الشعبية!

أهل هذه الجزيرة فيهم 99%من الصينيين .والباقي ينتسبون إلى 55دولة أخرى .وعدد سكان الجزيرة الآن حوالي ثلاثة ملايين ..وكل يوم يهرب من الصين الشعبية بعض الناس ..والإنجليز يشددون الحراسة على هذه الجزيرة لأنهم يخشون من تضخم عددها برغم ضيقها وصغرها .ولكن إذا جئت إلى هذه الجزيرة ورأيت أشكال الناس وكثرتهم وتزاحمهم صعب عليك أن تفرق بين المقيم وبين اللاجئ ..بين الصيني الأبيض والصيني الأصفر ..والنتيجة أن الناس يتزايدون بالنسل أو بالهرب..

ومع ذلك فهونج كونج تعيش على سفوح جبل كبير ..على هامش الجبل ..ولكن هذا الهامش هو أجمل من الجبل وأروع ..إنه مبني على أحدث طراز .إن العمارات تشبه الكتابة الصينية ..فالكتابة الصينية يكتبونها من فوق لتحت ..ولا يكتبونها بالعرض مثل بقية بلاد العالم ..والعمارات هنا طويلة جدًّا وعلى الأرض ضيقة ..العمارات ثابتة في الصخر ..ولها ألوان زاهية ..وأصحاب هذه العمارات لايرونها ولا يشعرون بلذتها؛ فهم مشغولون بجمع المال في المحال التجارية التي لا عدد لها.

يكفي أن ترى أي محل تجاري .أي محل في أي حي ..محل على الطراز الصيني أو على الطراز الأوربي .وقد شحن هذا المحل بالسلع بصورة مذهلة ..وأنا أختار على سبيل المثال »بائع السجائر «إنه يبيع كل أنواع السجائر الأمريكية ..العلبة بخمسة قروش ..وإلى جوار السجائر يبيع آلات التصوير وإلى جوارها أجهزة الراديو الصغيرة .وهناك الأدوية، وأقمشة صوفية، وفي الناحية الأخرى من المحل توجد مكتبة لبيع الأقلام الجافة والسائلة، ثم يوجد حقائب لبيع التفاح الياباني .وعلى الأرض ستة من الأطفال الصغار إنهم أولاد صاحب المحل ..وصاحب المحل يقف بمجرد ما يمر بجواره أي إنسان ..إنه يشبه الأبواب الأوتوماتيكية التي تفتح بمجرد اقترابك منها ..وأحيانًا ينطلق وراءك ويحاول إقناعك بكل الطرق ولا يتعب ولا يخجل.

ومن عدم التعب وقلة الخجل يتكون التجار الصينيون في كل مكان في الشرق الأقصى!

وشيء آخر هو تفوق الصينيين في التجارة ..إن الرجل الصيني عنده جلد على العمل أكثر من أي إنسان في الدنيا .فالصيني يقبل أي أجر ويقبل الحياة في أية ظروف..

يقبل أن يكون حيوانًا على أمل أن يكون إنسانًا في يوم ما، ويجعل كل الناس حيوانات..

إنه على عكس غيره من الناس الذين يحلمون بأن يكونوا ملائكة ويصبحوا بعد ذلك حيوانات ..إن الصيني خطر على أناس كثيرين ..لأنه الآلة الإنسانية التي إذا اشتغلت تعطلت ملايين الأيدي..

قال لي مليونير أمريكي هنا :إن الرجل الصيني يقبل أي أجر وهذا معناه القضاء على كل البيض عندنا ..لذلك نحن نبعد صغار العمال الصينيين حرصًا على حياة الأوربيين هنا!

وكثير من أصحاب الملايين الصينيين بدءوا من الأرض ..بدءوا باعة متجولين ..وكثيرون من الأغنياء الصينيين يؤكدون لي أنه لا يوجد صيني واحد كان يملك مالًا في يوم من الأيام .كلهم بدءوا بصفر ثم تكاثرت الأصفار أمام الواحد منهم.

وهونج كونج هي خلية من النمل أو النحل ..بل خلية من أناس يروحون ويجيئون طول الليل وطول النهار ..والناس هنا يمشون دائمًا ..وإذا رأيت الناس في الساعة الخامسة والنصف وقد خرجوا من مكاتبهم ومحلاتهم يخيل إليك أنهم في طريقهم إلى العمل وأنهم لسبب ما تأخروا عن الساعة المحددة ..إنهم لا يعرفون التسكع ..إنهم يعملون ..وهذه المحال المزدحمة تجد فيها أناسًا يشتغلون بالإبرة .لقد رأيت سيدة تبيع للزبائن ..وكلما ابتعد عنها الزبائن ثانية أو دقيقة أمسكت الإبرة وعادت للعمل ..وكان الشاعر الفرنسي فيكتور هيجو يعزو عظمته إلى شيء واحد هو أنه يكتب كل يوم ..وكان شعاره :سطر واحد كل يوم!

وهذه الصينية -وكل صيني -شعارهما غرزة واحدة كل يوم.

إن هناك عددًا كبيرًا جدًّا من النساء الصينيات يقمن بأعمال شاقة كقطع الصخور ودفع الزوارق وبيع الأسماك والفاكهة، وكل واحدة تحمل طفلها أو طفليها على ظهرها ولكنها تعمل ليلًا ونهارًا..

وكل هؤلاء النساء العاملات والخادمات لا يهمهن أبدًا رأيك فيهن ..فالعمل دين، والصينيون متعصبون لدينهم..والدين المعاملة والصينيون يحسنون المعاملة..ومن معاني المعاملة الفلوس ..والصينيون يعبدون الفلوس

ويبحثون عنها من أي طريق، نعم من »أي «طريق، وعليك أن تتخيل كما تريد كل معاني »أي «هذه ..ومهما فعل الرجل الصيني فهو في الغالب مهذب..

مثلًا ..ذهبت إلى مطعم وطلبت بعض اللحم المشوي ..المطعم لا بأس به، فيه موسيقى وجرسونات وبنات لهن فساتين مشقوقة ..هذه الفساتين تشبه القناة التي تفصل بين هونج كونج وكولون ..يعني محترم هذا المحل .وأحضرت الفتاة اللحم المشوي ..وحاولت أن أمزق اللحم بالسكين أو بالشوكة ..لم أتمكن، استعصى اللحم وناديت صاحب المطعم ..أو هو الذي تنبه لمشكلتي فابتسم وأتى بسكين حادة جدًّا يبدو أنه أعدها لهذه المناسبة التي تتكرر كل يوم ..وفعلًا بدأ اللحم ينهار أمام هذه المقصلة ..ولكن المشكلة لم تُحَل فأسناني ليست حادة كالسكين .فاقترحت على صاحب المطعم أن يأخذ السكين وأن يبحث عن ذئب متوحش!

المهم أنه حل المشكلة وأتى لي بلحمة مشوية تمامًا ..إنه لا يتوقف .إنه يبحث عن أي حل ..ولا يتوقف أمام أي شيء ..ولما لم تعجبني هذه اللحمة أخذ اللحم وأتى لي بسمك!

* * *

ادخل أي محل وليكن محل بيع الحقائب الجلدية مثلًا ..سيهجم عليك خمسة أو ستة من موظفي المحل ويعرضون لك كل الأنواع ولديهم كلام حلو يقولونه .وهم يستمعون إلى كل ملاحظاتك ..فإذا نجحت وقلت :الشنطة دي مش بطالة ..بس الإيد بتاعتها كبيرة شوية ..فيرد عليك أحد الباعة في المحل :غدًا في هذه الساعة نصنع لك شنطة أخرى بالمواصفات التي تريدها ..ما هي اقتراحاتك..؟ !أي حجم وأي لون؟!

وتحاول أنت أن تتهرب بصورة أخرى فتقول :هي الإيد مش كبيرة قوي ..بس اللون بلدي شوية.

-كده ..إيه اللون اللي يعجبك؟ عندنا خمسون لونًا.

فتقول :أنا عاوز لون أحمر على أخضر على أزرق على أصفر والأرضية في لون الباذنجان المحشي.

وتتصور أنت أن هذا يجعل موقفهم مستحيلًا ..والمفاجأة هي أن هذا اللون مصنوع منه فستان صاحبة المحل وأن المصانع قد صنعت عشرين طقمًا من هذا اللون كلها شنط وأحذية وخواتم..

يعني لا بد أن تشتري..

أذكر أنني ذهبت إلى إحدى المكتبات ..ولم أجد الكتب التي أريدها وخرجت من المحل في يدي كيلو طماطم وثلاثة كيلوجرامات من البصل الأخضر!

ذهبت أمس إلى آخر جزيرة هونج كونج ..فهناك مدينة عائمة ..اسمها أبردين ..الناس فيها يعيشون في عوامات .!أقصد في قوارب عائمة ..يعيشون في هذه الزوارق وعددهم 150 ألفًا ..زوارق مهدمة قديمة .والشحاذون لهم زوارق، ومن هذه الزوارق تمتد أيديهم..

وأيديهم الممدودة والمجاديف التي تلطم وجه الماء وملابسهم السوداء وعيونهم الحزينة، كلها معًا تصور سيمفونية الفقر ومباريات السباق مع الأسماك في زيادة عدد النسل ..في هذه المنطقة المؤلمة توجد مطاعم أنيقة جدًّا جميلة جدًّا ..وكل مطعم له زوارق خاصة تنقلك من الشاطئ إلى حيث يوجد المطعم العائم ..في الزورق تشد يدك -مع أنك لست في حاجة إلى ذلك -فتاة صينية بالبيجاما أو بالفستان المشقوق وتركب الزورق النظيف الحلو والفتاة تجدف لك حتى تصل إلى المطعم ..وعند سلم المطعم يشد يدك اليسرى -آسف -يدك اليمنى جرسون ..أما يدك اليسرى فتشدها فتاة حلوة لها فستان باسم -أي مشقوق -وهي تشدك من الناحية اليسرى من ناحية القلب .ويستقبلك ثلاثة جرسونات ..وتنهض لاستقبالك فتاة أخرى لها فستان مشقوق جدًّا كأنه يقهقه من فوق هذه الساق ومن فوق

تلك الساق ..أحيانًا تبدو فتحة الفستان واسعة ومترهلة كأنها شفتا إسماعيل ياسين وقد ظهر من تحتها طاقم أسنان جديد.

وفي الأعلى -لأن المطعم العائم من طابقين -يستقبلك أربعة آخرون ويأخذون بيدك رغم أنك أطول وأعرض منهم، ويأخذونك إلى حيث الأسماك تسبح في قلب زوارق أخرى ..وهناك يقف جرسون يعرض عليك الأسماك التي تريدها .الأسماك الحية طبعًا ..ومن المؤكد أن هذه الأسماك لن يطهوها لك، وإنما سيقدمون لك أسماكًا ماتت منذ أيام ..ولكن في الهيصة والاستقبالات يقدمون لك الأطباق الصينية والملاعق الصينية التي
تشبه »لبيسة «الجزمة عندنا ..وبعد ذلك يقدمون لك شوربة السمك وفيها خضراوات هي عبارة عن الغاب الأخضر وبعض البرسيم .ثم شرائح من السمك الذي تتوهم أنك رأيته حيًّا .وأخيرًا ينهضون لتحيتك ويتكرر المنظر السابق كله ..من توديع على الباب لتوديع على السلم لترحيب بآخرين ..وبعد أن تستقر على المقعد النظيف في التاكسي -وهو زورق عائم -تكتشف حقيقة مهمة جدًّا وهي أن الصينيين لصوص .لقد سرقوا منا حكمة بلدية قديمة، سرقوها وترجموها حرفيًّا، وهذا هو عيب الترجمة الحرفية لأي شيء ..أما الحكمة فهي :لاقيني ولا تغديني!

وقد استقبلوني أحسن استقبال -أما الغداء فإن الحكمة لم تنص عليه!

العمارات في هونج كونج تلتف حول الجبل ..إنها على الشاطئ أو على السفح والعمارات الآن تزحف على الجبل، وتظل صاعدة بأشكال مختلفة ..الأرض هنا ضيقة جدًّا، ولذلك فالعمارات تشيد على مساحة ضيقة، إنها لا تتمدد على الأرض، فحيث توجد الأراضي الواسعة يبني الناس الفيلات ذات الحدائق، كمصر الجديدة ومدينة نصر .وحيث تكون الأرض ضيقة ترتفع المباني إلى أعلى كنيويورك وهونج كونج وسيدني، بل إن المحال التجارية هنا تستفيد جدًّا من هذا الضيق .فأنت تجد البائع لا يستطيع أن يضع مكتبًا ومقعدًا، ويضع في المكتب الفلوس ..أبدًا إن البائع يعلق الفلوس في السقف ..أو يعلق خيطًا يشبه سلك الترام وينزل من هذا السلك سنجة، وهذه السنجة فيها محفظة للفلوس ..وعندما يريد بعض الفكة يضغط على السنجة فتنطلق الفلوس إلى الداخل، وفي الداخل يوجد شخص واقف يفك الفلوس ويعيدها لك ..لا يوجد مكان .كل شيء ضيق وممتلئ بالناس.

لقد رأيت صالون حلاقة على الرصيف .والصالون عبارة عن كرسي أنيق جدًّا ومرآة أنيقة جدًّا، كل هذا معلق فوق الحائط، فمن السهل الحصول على كرسي أنيق لأنه رخيص، ولكن ليس من السهل الحصول على مكان لهذا الكرسي؛ لأن الأرض غالية..

وإذا مشيت في الشارع فستجد الناس كالبضائع، بعضهم فوق بعض، أي محل به عشرون طفلًا صغيرًا .أي شارع به ألوف الأطفال .أشهر شارع في هونج كونج هو شارع الملكة، والباقي شوارع صغيرة، والعاصمة اسمها فيكتوريا ولا أحد يعرفها .والمنطقة الأخرى، أقصد منطقة »كولون «بها شارع مهم هو شارع سالسبري، وفيه فندق بنتسولا -أي شبه الجزيرة -وشارع آخر اسمه شارع ناتان، ويتفرع منه شارع اسمه شارع كارنرفون، وبه فندق، وفيه غرفة يسكنها العربي الوحيد هنا :أنا.

وتصل بين طرفي المستعمرة زوارق بخارية كبيرة وسريعة ..الدرجة الأولى بعشرين سنتًا -الدولار هنا مائة سنت والدولار هنا يساوي عشرة قروش تقريبًا..

والدرجة الثانية بعشرة سنتات، وفي الدرجة الثانية لافتات تقول لك »احترس من النشالين «وفي الدرجتين لافتات تقول لك :ممنوع البصق من فضلك ..وهذه الزوارق دقيقة مضبوطة، وفيها علامات للنزول والدخول .وتتم هذه العملية دون أن يتكلم إنسان ..نظام دقيق وسريع..

والمسافة بين جانبي المستعمرة حوالي 700متر.

هذه المسافة اسمها ميناء فيكتوريا الجميل الهادئ السمح ..لأن هذا الميناء يقع على القناة وفي حمى الجبال فلا توجد به أمواج بل توجد به زوارق شراعية تروح وتجيء في هدوء ..وعندما تهب العاصفة تطيح بهذه الزوارق الصغيرة ..وقد هلك ألوف الناس وتحطمت زوارقهم عندما كانت العواصف تهب فيما مضى، أما الآن فالعواصف لم تعد تخيف أحدًا، فالأرصاد الجوية تعلن عن هبوب العاصفة قبل وصولها بساعات .وفيما مضى كان الناس هنا يتنبئون بالعواصف عن طريق الفراشات التي كانت تأوي إلى أماكنها وتبيض كثيرًا في الليلة التي تسبق العاصفة، وكأن هذه الفراشات طائرات أدركت أنها ستهبط اضطراريًّا إلى الأرض فراحت ترمي حمولتها قبل أن تزحف على الأرض.

ومع ذلك بقيت هونج كونج بعيدة عن عواصف الطبيعة وعواصف السياسة أيضًا ..وقد فكر تشانج كاي شيك أن يحتل هذا الكنز الذهبي، ولكنه عدل، وفكر الشيوعيون أن يأخذوها، واحتلها اليابانيون في الحرب الأخيرة بعد أن سقط ميناء برل هاربور، إحدى مدن ولاية هاواي الأمريكية ..وبعد الحرب طالب أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني بإعطاء هونج كونج للصين الشيوعية، وثارت الجزيرة وهرب الأغنياء منها، ولكن بريطانيا تمسكت بها، ولا تزال .تتكاثر !أو كأنها في مواجهة الموت!

والناس هنا يتكلمون الصينية ولغة كانتون وشانغهاي .والصحف التي تصدر هنا عددها سبع ..خمس منها بالصينية والصحيفتان الأخريان بالإنجليزية ..والإذاعات خمس، إحداها بالإنجليزية والأخريات بالصينية .وليس كل عساكر المرور يضعون شارة حمراء على أكتافهم .فالشارة الحمراء تدل على أنه يعرف الإنجليزية.

وهونج كونج هي مدينة المرأة .المدينة التي تدخلها أية امرأة فتشتري الحذاء ومفتاح السيارة الكديلاك بأسعار رخيصة جدًّا ..حتى الفراء هنا، فراء الثعلب والدب والأستراكان، كلها بأسعار أرخص من الاتحاد السوفيتي وأمريكا ..وأقلام الروج بسعر أقلام الرصاص عند سور الأزبكية، وعلب البودرة بسعر كيزان الذرة المشوية على كورنيش النيل .حتى فساتين النساء يمكن تفصيلها وعمل البروفات لها ولبسها في يومين فقط .وهنا توجد حقائب يد لم أر لها مثيلًا في أي بلد، لا في أستراليا ولا حتى في سنغافورة ..وهذه الحقائب رخيصة جدًّا ..وهنا توجد أنواع حديثة من حقائب اليد، بها راديو صغير على هيئة توكة وتوجد ساعة أو مكان ساعة صغيرة ومكان لعلبة سجاير صغيرة ومكان للمفاتيح ..وبالحقيبة فص لؤلؤ، هدية من المحل وثمنها عشرون جنيهًا.

الحقيقة، أن نصيب السيدات في مبيعات هونج كونج أكثر من نصيب الرجال؛ فهنا توجد البلوفرات الأورلون والبرلون، وهي أرخص من أستراليا ..لقد رأيت أجمل بلوفرات في أستراليا؛ فهي بلد الصوف ..هذه البلوفرات تباع هنا أرخص .إن أجمل بلوفر أورلون يساوي هنا جنيهين ونصف جنيه، وهذا سعر خيالي؛ لأنه في بريطانيا يصل إلى ثمانية وعشرة جنيهات.

ومنتجات إليزابيث أردن وريفلون وكوتي وهلينا روبنشتين..كلها هنا تباع في المقاطف كالفجل والخيار عندنا .ولكن مين يفهم، ومين يقرأ ومين يكتب -إنني أتحدث هنا عن نفسي!

والحرير الطبيعي الياباني، المتر منه بخمسين قرشًا..

وأسماء وأصناف توجع القلب ..هونج كونج هي مدينة النساء، ويكفي أن تنظر إلى السيدات لتعرف الأقمشة والبلوزات والجوارب النايلون والأحذية من جلد التمساح وجلد الثعبان..

وفي هونج كونج، برغم ذلك شيء مهم جدًّا يعجب السيدات ..فيه »فصال .«فصال من عشرين لعشرة، وفيه باعة متهاودون جدًّا ..وهذا لا يعجب السيدات لأن السيدات يردن البائع الذي »ياخد ويدي «في الكلام يتحايل عليها وفي النهاية »ينزل «لها قرشًا أو قرشين ..والباعة هنا كلامهم كثير ومحاولاتهم أكثر، وعيبهم أنهم يخفضون الأسعار بالعشرات.

والمرأة الصينية هنا، وفي كل مكان، أنيقة وبسيطة وفستانها مشقوق من الجنب أو الجنبين أو في الظهر أو من الأمام ..وجسمها يتثنى في الفستان وعيناها تنظران من فوق كأنهما تتحققان من نظرتك إليها ..عيناها صغيرتان تحت شعرها الأسود الناعم ..وبالاختصار الأجسام هنا جميلة مائة في المائة ..والوجوه 90٪ منها مش ولابد ..يعني يجب أن ترد إلى أصحابها لإصلاحها قبل عرضها في السوق.

والفقيرات يرتدين البيجامات في الشارع .والفقيرات جدًّا يلبسن القباقيب الخشبية الملونة كالقلل عندنا ..ثم يرتدين البيجامات المصنوعة من الشمع ..لا غسيل ولا مكوة ولا حاجة ..وفي الصينيات عدد كبير جدًّا من السيدات الصلعاوات ..سيدة صلعاء أو قرعاء، شيء فظيع، وإذا أضيف إلى هذا بشاعة وجهها ووحاشة لغتها وفقرها، وإصرارها على أنها تأخذ منك حسنة ..صورة مؤلمة ..موجود هنا ما هو أبشع وأكثر إيلامًا من ذلك.

* * *

ومن معالم هونج كونج حديقة »تايجر بالم ..«أو »زيت النمر ..«وتوجد حديقة بهذا الاسم في سنغافورة ..وأقيمت الحديقتان باسم واحد لسبب واحد؛ لأن صاحب الحديقتين هو رجل صيني مليونير ..أقصد »ملايينير «أي صاحب ملايين وليس صاحب مليون فقط ..هذا الرجل صيني، وتوفي سنة 1954 بسكتة قلبية في المستشفى الحكومي في هونولولو، وأحرقت جثته ودفن هناك.

وهذا الرجل الصيني الغني اسمه »أو ..بون ..هاو «وكسب مئات الملايين من الجنيهات عن طريق وصفة طبية اخترعها وأسماها »تايجر بالم «أو »وصفة النمر «وهذه الوصفة تشفي أمراض البرد والروماتيزم والسعال وضيق التنفس..

وسمعت مثل هذه القصة في مانيلا عن رجل يهودي اسمه ليوبولد كاهن ..فالفليبين بلاد مسيحية كاثوليكية متعصبة جدًّا، وفي كل مدينة وقرية كنيسة؛ وكان ليوبولد يتبرع بشراء أجراس الكنائس الجديدة ويطلب من القسيس أن يشير إلى ذلك في الصلاة ..فكان يقول :أيها الأصدقاء، هذا الجرس الذي ناداكم هدية من الطيب القلب والسيرة أخيكم ليوبولد كاهن..

وعند خروج المصلين من الكنيسة يجدون محلًّا يحمل اسم ليوبولد كاهن يبيع المسابح والصلبان التي كتب عليها أنها صنعت في إيطاليا.

وبذلك أصبح مليونيرًا تدق له الأجراس..

وحديقة تايجر بالم أعجوبة فنية، هنا وفي سنغافورة .لقد تكلفت هذه الحديقة حوالي ثلاثة ملايين من الجنيهات، إنها منحوتة في الصخر، وتروي حياة الصين وحضارتها ..وقصص البطولة في تاريخها وفي أديانها وفي أدبها ..وتروي قصص الخير والشر .والحديقة تشغل مساحة قدرها ثمانية أفدنة، والفكرة فيها أن الرجل الصيني »أو «رأى أن جميع أمواله من الشعب ويجب أن يردها إليه، فبنى هذه الحدائق للنزهة ..وأقام المستشفيات والمدارس والجمعيات الخيرية، وأوصى بأن 66٪ من ثروته تعطى للفقراء كل سنة .وإلى جوار هذه الحديقة الآن توجد بيوت من الصفيح والصناديق الخشبية، ويعيش فيها بعض الفقراء كأنهم ينتظرون أن ينزل السيد من حديقتهم ليعطيهم كما كان يفعل فيما مضى ..ولكن السيد واقف هنا وسط هذه الحديقة، فله تمثال صغير متواضع، ووراء التمثال توجد مقبرة رمزية، وإلى جوار المقبرة الرمزية يوجد برج يسمونه بالصيني »باجودا «تحية منه لوالديه.

وبقية الحديقة مليئة بالحيوانات والطيور والأفاعي والحشرات وكلها من الصخر ..وكلها من الألوان، وإذا رأيتها فإنك لا تدري إن كانت حية أو ميتة ..الفن هنا مذهل للعقل..

فقد حدث».. شيخ ينج« باسم معروف عيد لأنه أكتوبر شهر طول الجبال ويصعدون الحديقة هذه يزورون الناس منذ آلاف السنين أن رأت سيدة في نومها أن قريتها ستغرقها السيول ..فأخبرت أهل القرية، فهجروا القرية إلى الجبال ..ونجا سكان القرية ..وأصبح هذا تقليدًا منذ ذلك اليوم ..فالناس يصعدون الجبال تفاديًا لشرور العام القادم؛ ولذلك فالزحام شديد على هذه الحديقة لأنها على ربوة عالية، وقد أنشئت سنة 1935، وهي أصغر جدًّا من حديقة تايجر بالم الموجودة في سنغافورة.

وكل الحديقة قصص تاريخية ..فهنا الراهب البوذي الذي ذهب إلى بلاد التبت وقابلته الوحوش في الطريق ..قرود وأفاع وعفاريت ولكنه قاوم وانتصر.

وهناك قصة الملكة الجميلة المسكينة التي لا تعرف كيف تطلع الملك على جمالها؛ فطلبت من الحاشية أن يوهموا الملك بأن هناك عدوانًا على المدينة..وخرج الملك ..وتلفت حوله فلم يجد جنوده ..وانطلق إلى داخل القصر فوجد زوجته الجميلة التي نسيها منذ سنوات عارية تمامًا تستحم في حوض جميل، وتنبه الملك إلى أنه من الممكن أن يكون هناك عدوان على هذا الجمال إذا لم يصنه جلالته ..وقد صانته الصخور!

وقصة لألم تسو ..ملك الصين الذي جمع كل الأفيون الذي صدره البريطانيون إلى الصين وأحرقه جميعًا ..إن السحب ترمي العفاريت وقد داخت، وتساقطت عند قدمي الملك.

وأروع ما أعجبني في هذه اللوحات جميعًا، أو هذه التماثيل البارزة، أو الحياة المتفجرة والتي جمدت من البرد على هذه الصخور، صور يوم القيامة.

ففي الديانة البوذية يرون أن الإنسان سيحاكمه الله أمام عشر محاكم:

المحكمة الأولى :يقف أمامها الإنسان بعد وفاته ..فإذا نظرت مجموع خطاياه وأعلنت أنه مذنب ..بدأ العذاب فورًا.

المحكمة الثانية :يقف أمامها الإنسان الذي يعصي والديه ..وعصيان الوالدين هو الجريمة الكبرى التي تستحق أكبر عقاب، فيكوونه بالنار إلى الأبد، ويضربون رأسه بالحجارة.

والمحكمة الثالثة :يقف أمامها كل إنسان يغش في الدواء ..وكل إنسان يسخر من الفقراء، ويتملق الأغنياء ..إنهم يفقئون له عينيه ..ومعه الذين ارتكبوا جرائم القتل ..إنهم يوضعون فوق صخور مدببة .والذين قتلوا الحيوانات البريئة، تأكلهم هذه الحيوانات.

والمحكمة الرابعة :للمرتشين من موظفي الدولة ..وفي المحكمة تضرب رءوسهم بالشواكيش إلى الأبد.

والمحكمة الخامسة :للخونة.

والمحكمة السادسة :للذين مشوا وراء الخونة ..والعقوبة هي تمزيق أجسامهم وأيديهم..

والمحكمة السابعة :لمحاكمة الرهبان الذين اعتدوا على النساء ..تأمر المحكمة بتمزيق أحشائهم ..وللجزار الذي يبيع اللحم المغشوش يضعون هذا اللحم في فمه، ثم يمزقون معدته ..إلى الأبد.

والمحكمة الثامنة :للذين لا يقدسون أوطانهم ..تمشي العربات فوق رءوسهم.

والمحكمة التاسعة :للكذابين ..والمحكمة تأمر أولًا بقطع ألسنتهم ..ثم بقطع أنوفهم.

والمحكمة العاشرة :يعلن القاضي أن الميت غير مذنب مثلًا فيضع فوق كتفه جلد إنسان آخر ومعناه :اذهب وعش من جديد في هونج كونج.

هونج كونج بلدة غنية وفيها فلوس وجميلة والناس يحبونها ويهربون لها ..لا بد أن يكون هناك سر .والسر هو أنه فيها هيصة، فيها سهرات ليلية، ليس لها عدد ..وأنا سأختار أحد المحلات ..اسمه محل ليوشن ..محل مشهور جدًّا ..هو عبارة عن بار ومطعم ومقهى ..الجرسونات بنات جميلات ..جمالهن صيني ..والصفات الصينية تقدر ترجع لها في أول هذا الكلام، يعني إذا أردت الدقة.

في دقيقة واحدة يقترب صاحب المطعم ويهمس في أذنك أحيانًا، وأحيانًا يقرصك ..وقد سألت عن حكاية القرص هذه، فوجدت أنه خصني بها وحدي زيادة في الحفاوة ..وبعد لحظات تجلس الفتاة التي أعجبتك إلى جوارك ..وهات يا شرب على حسابك..

وجاءت فتاة وجلست إلى جواري ودار الحوار بيني وبينها:

-وهوه بقى حضرتك منين كده..

-من فرموزا ..أنا ..صينية وطنية..

أبناء الفليبين يحملون كل شيء على رءوسهم هربًا من اضطهاد الكاثوليك للمسلمين!

هذه بيوت عائمة يسكنها أبناء الفليبين 7000)جزيرة(

مصارعة الديوك ..يطلقون الديوك بعضها على بعض حتى الموت

ولكن الموتى...

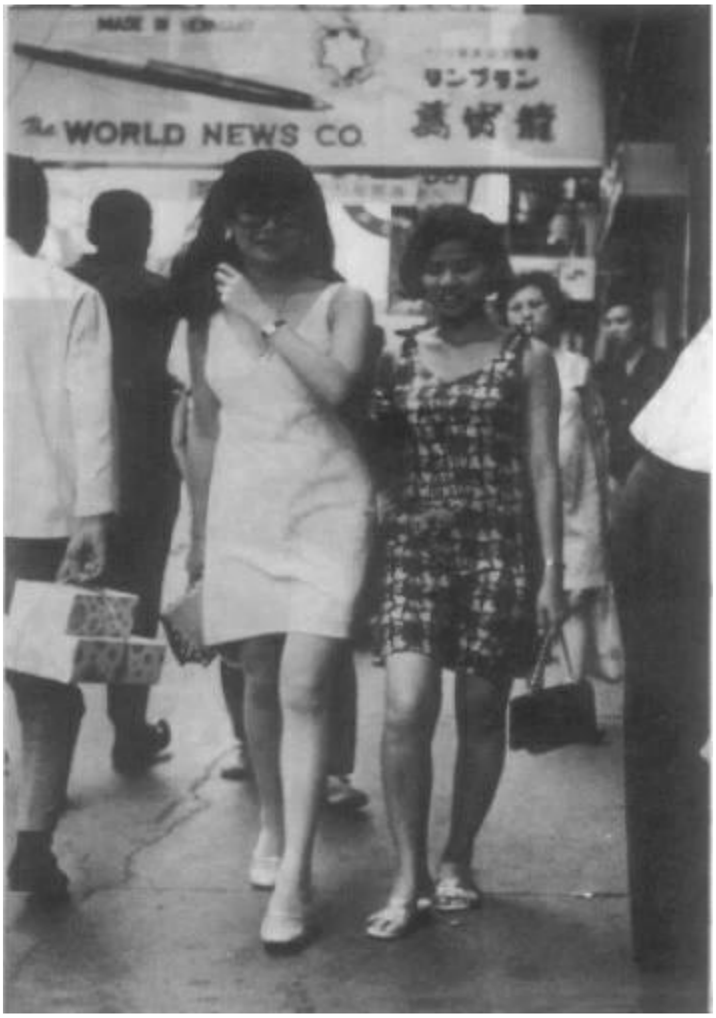

فتيات هونج كونج ..رشيقات جميلات .ليس واضحًا في الصورة نعومة البشرة!

أنا في انتظار وسيلة مواصلات إلى الجانب الآخر من الجزيرة -الوسيلة الوحيدة هي البيسكليت!

هذه الفتاة تدفع الزورق إلــى أحـــد المطاعــم العائمة في الجزيرة

فتاة أخرى تنقل السياح بين الحي العائم في الجزيرة .هذا الحي اسمه :أبردين..

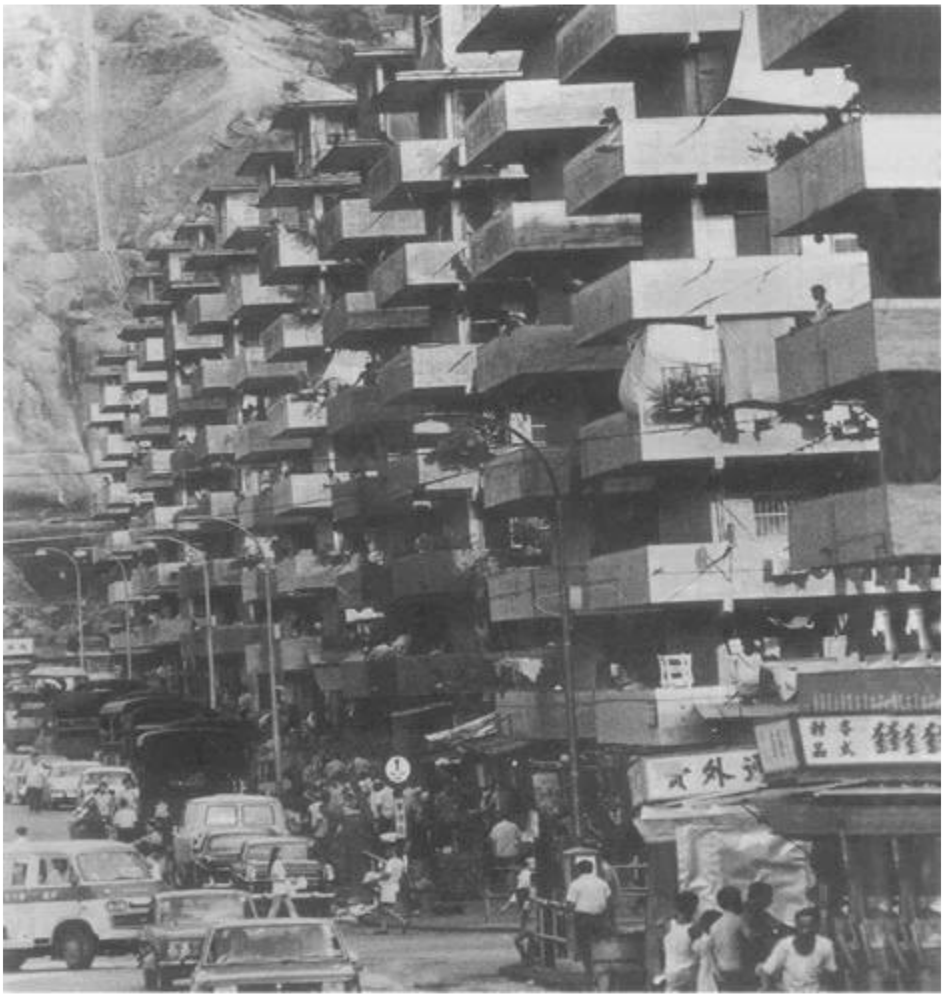

جانب من بيوت الجزيرة البالغة الأغلبية الساحقة من الصينيين..

طلعت الشمس ..والغسيل في كل البلكونات ..الغسيل متعدد الألوان -أحبها إليهم اللون الأبيض!

وهذه مقابر سكان جزيرة هونج كونج -الأغلبية الساحقة من الفنيين.

-كده ..طيب وهي الوطنية تقول لك إنك تشربي الويسكي مع واحد بيشرب شاي ..والوطنية دي بقى مش معناها أن الواحد يحب بلده .ويحب اللي يحب بلده.

-مش فاهمة..

-تعالي هنا ..ومين قال لك بقى تقعدي هنا ..أنا راجل وبأحب أقعد لوحدي كده ..سرحان ..عامل سرحان ..أنا حر ..أنت مش بلدكم دي حرة ..الواحد يعمل فيها زي ما هو عاوز ..أنا كمان حر ..أقعد ساكت ..أكلم نفسي ..آه ..وحريتك دي تعتدي على حريتي إزاي؟!

-عدوان إيه ..إنت مش قايل للراجل إني عاجباك ..وقال لك مين؟ قلت له دي.

-أنا قلت كده ..دي يعني إيه ..أنا فاكر إنه بيسألني عن الترابيزة ..قلت أيوه دي ..وهيه ترابيزة بالصيني يعني واحدة ست ..هو أنتم ترابيزات لسه .أمال بيقولوا الستات بيشتغلوا زي الرجالة ليه ..طيب والراجل بالصيني معناه إيه بقى ..لازم معناه كرسي ..أهو كل ترابيزة ولها كرسي ..وأنا كرسي مش عاوز ولا ترابيزة ..أنا كرسي حر ..كرسي يقعد قدام الباب ..يقعد في الشباك ..يتشقلب ..آهو حر..

-اسمع أنت خايف من إيه ..الويسكي ببلاش..

-ببلاش ..الله آدي الوطنية واللا بلاش ..طيب وبلاش ليه بقى.

-واحد دفع لك ثمنه!

-والواحد ده يبقى مين ..ودفعه ليه ..وهو يعرفني ..لازم يعرفني كويس.

-هناك..

-هناك فين..

-بص له ..هناك قاعد أهوه..

-يمكن يكون غلطان ..يمكن فاكرني واحد تاني ..فلو بصيت له حيكتشف الغلط .وعلى إيه ..كده أحسن.

-بس، بص شوفه هو كمان عاوز يشوفك..

-يشوفني ليه بقى ..وإيش عرفك أنت؟

-بص ما تخافش..

-مش خايف ..مش عارف حاجة ..الله ..هوه أنا اللي شربت الويسكي واللا إيه ..أمال دايخ ليه..

-دايخ من الخوف إنك تدفع..

-أديني بصيت مش شايف حاجة.

-مش شايف نفسك في المرآة ..طبعًا ..زي ما طلبتني وأنت سرحان، ادفع وأنت سرحان ..وابقى فوق لنفسك في البيت على أقل من مهلك ..ادفع!

وقبل أن تبرح البار أو المطعم، ينطلق وراءك رجل ثالث أو رابع ويقول لك كلامًا باللغة الصينية لا تفهمه ..والغرض من ذلك أن تقف لحظة ..هنا ولا تفهم كيف تظهر فتاة صينية حلوة !من أين جاءت ولماذا ولمن ..طبعًا جاءت لحضرتك ..البنت حلوة ..اجلس ..وتجلس وتدفع والهمس في أذنك ..وغدًا سيخترعون أشرطة صغيرة توضع في الآذان وتسجل لك الكلام الذي يدور في نفسك في أثناء هذه الجلسات لتسمعه في البيت وأنت تدافع عن نفسك أمام ضميرك وأمام صاحب الفندق وصاحب المطعم..

لكن البلد مع ذلك ولذلك جميل جدًّا .....والنقط الكثيرة هذه ليست إلا قبلات لها ولك لأنك قرأت هذا الموضوع، ولكل من يحب ويحلم أن يجيء إلى هذه البلاد.

* * *

ولا أدري لماذا كان الصينيون الذين أتعامل معهم في الفندق مختلفين عن الصينيين ..هل لكثرة عشرتهم للأجانِب؟ هل لأن العمل في الفنادق لا يحتاج إلى براعة ..هل لأنهم قرفانون منا نحن القادمين من بلاد بعيدة؟

مثلًا ..الساعي أو الجرسون الذي أتعامل معه ..لاشك أنه صيني 100%وشعره ووجهه وعيناه المعوجتان ..ولهجته التي تشبه صوت الحنفية عندما ينكسر وابور المياه...

كل ما أريد ليس أكثر من كوب شاي في الصباح ..ولا لبن ولا سكر ولا عيش ..فقط كوب شاي في الساعة السابعة ومعه الصحف التي صدرت في نفس اليوم ..مسألة واضحة جدًّا..

في أول يوم ضحك لي، ضحكت له، هز رأسه هززت له، غمز لي بعين غمزت له باثنين ..حاجة عال جدًّا وطلبت منه أول فنجان شاي ..فاختفى وعاد ومعه بعض الفوط النظيفة ..وانتظرت الشاي ..ولم يحضر ..فضربت الجرس فدخل وضحك وقلت له :أين الشاي؟

وأقفل الباب وخرج ..وعاد ومعه كوب من الماء..

فقلت له :ت..ش..ا..ي..تشاي..

وهي الكلمة الصينية الوحيدة التي أعرفها ..وخرج ضاحكًا وعلى وجهه شوية دم ..يمكن كسوف ..يمكن خجل..يمكن أحس أن لغته قد أهينت على لساني ..ولكن بعد لحظات عاد ومعه كوب من الشاي ..وخرج ووجدت الشاي لونه أخضر وقلت في نفسي يمكن الشاي الصيني أخضر ..على كل حال لا مانع من أن أذوق طعم الشاي ..الشاي الصيني ..طبعًا الشاي بلا سكر ولا لبن وبلا شاي أيضًا..

وقد تعودت في هذه المنطقة من العالم الصبر وهدوء الأعصاب ..فالناس هنا لا يثورون أبدًا ..في الهند تعلمت أن الدنيا من الممكن أن تعيش من غيري ..وأن الناس يعيشون حياتهم ويمشون على نظام خاص وأن هذا النظام سواء أعجبني أو لم يعجبني فلن يغير هذا شيئًا ..فإما أن أسكت أو أخرج من البلاد ..وفي إندونيسيا يضحك الناس دائمًا ولا يعملون إلا القليل ..وفي الصين يضحك الناس كثيرًا ويعملون كثيرًا .وفي اليابان مؤدبون ضاحكون وقدرتهم على العمل خارقة ..يعني من الممكن أن يكون الإنسان مؤدبًا وباسمًا وناجحًا في عمله..

فما بالك بالذي جاء يتفرج ..على الأقل يجب أن يكون باسمًا أو ضاحكًا أو حتى مؤدبًا.

وتأدبت في الحديث مع الخادم وخرجت إليه وفي يدي ورقة وقلم ورسمت له فنجان الشاي ..وأمسكت قلمًا أحمر وقلت له الشاي يكون لونه هكذا .هكذا.

والمصيبة أن هذا الجرسون يعرف الإنجليزية ..ولكن أنا عاجز عن فهم ما يقوله لأنه كلام صيني على إنجليزي ..وهو عاجز عن فهم ما أقول، مع أن لغتي سليمة والله العظيم ..ولما رأى الفنجان الذي رسمته عرف أنه فنجان شاي ..أما اللون الذي وضعته في الفنجان فلم يفهم ما هي الحكمة من هذا اللون ..وأمسك هو بالقلم ورسم بعض الرسومات على الفنجان جميلة فعلًا ..ولكني أريد أن أفهمه أنني لست معجبًا بالصناعات الصينية ولا بنقش الفناجين ..ولكن نفسي أعجب بصناعة الشاي هنا..

وأمسكت الورقة وقلت له :أريد أن أشرب فنجان شاي بهذا اللون..

ثم وضعت الورقة عند فمي ..ويظهر أن الجرسون فهم أنني أريد أن أطلعه على بعض الألعاب السحرية ..وراح يضحك ..الحقيقة تضايقت جدًّا.

وكأنني قد جئت من القاهرة منذ أيام، فثرت في وجهه وشتمته بالعربية واستمر الجرسون في ضحكه ..وذهبت إلى عامل التليفون وقلت له من فضلك تقول للجرسون إنني عاوز أشرب واحد شاي لونه أحمر ..مش تقيل قوي ..لكن له لون فقط ..وإنني حاولت أن أجعله يفهم ذلك منذ ساعة ..وفشلت..

ودار بينهما كلام بالصيني طويل حتى ظننت أن الجرسون يشكو من سوء معاملتي له .وأنني شخطت فيه..

وقال له عامل التليفون :الجرسون فاهم كل شيء ..وهو حاول أكثر من مرة أن يقول لك إنه فاهم، ولكنك لم تعطه فرصة..

وقلت له :أمال يا أخي سايبني آكل في بعضي ليه كده!

ودار الكلام بالصيني ..وعاد يقول لي :إن الأدب يمنعه من مقاطعتك.

-كده .طيب أنا عاوز فنجان شاي دلوقت بالشروط اللي أنا طلبتها.

وعاد الكلام الصيني يروح ويجيء بينهما، وفي السكة يضربني في أذني وفي رأسي.

وتمددت على السرير في غرفتي ورحت أقلب في الصحف..وانفتح الباب وجاء فنجان من الشاي ..اللون الأحمر ..مفيش كلام ..ولكن الشاي ثقيل جدًّا ..فقلت على سبيل التشجيع :الشاي عظيم ..بس ثقيل شوية ..وضحك الجرسون واختفى ..وبعد لحظات عاد وكنت في الحمام ..وأخذ الشاي القديم وأتى بشاي جديد ..زي الزفت ..ويبدو أنه فهم أنني أريد الشاي أن يكون أثقل من ذلك.

وأمسكت الشاي وألقيته في الحوض..

ونزلت لأشرب الشاي في أي مكان آخر ..دخلت أحد المطاعم ..وطلبت من الجرسون أن يترجم إلى اللغة الصينية معنى هذه العبارات :شاي لونه أحمر، ولكنه ليس ثقيلًا ..شاي كمان ..ومستعجل على الغسيل ..ومستعجل على المكوى ..وأشكرك..

وفي كل يوم أضع أصبعي على الكلمة التي أريدها ..ويخرج الجرسون سعيدًا ويأتي الشاي الأحمر الجميل..

وحتى لا يصبح هذا العمل آليًّا ..طلبت من الجرسون أن يعلمني كيف أنطق هذه الكلمات..وبدأت أنطقها وأقول :تشاياسا ..ومعناها شاي ..وأمدها أبثاه ..ومعناها الغسيل..

يومان بسلام مضيا ..بلا حوادث ..لغتي الصينية في تحسن ولغتة الإنجليزية لا يستخدمها معي .مطالبي محددة جدًّا جدًّا ..وأنا أرضى بأي طعام وأي شراب وأي سرير وأي فندق ..ولكن الشيء الوحيد الذي أريده بإصرار هو أن أكون بجوار أحد أكشاك بيع الجرائد وإحدى المكتبات ..والباقي أستطيع أن أحصل عليه..

وأصبحت في غير حاجة إلى الورقة ..وكنت أضربه بالكلمة الصينية ..وحالًا يجيء الشاي ..وتجيء الصحف اليومية ..والغسيل والمكوى .وأصبحت المدينة حلوة من جديد، وأصبحت غرفتي ظريفة ..وكل يوم أضع السرير في ناحية والمكتب في ناحية أخرى ..مرة لكي أكون بعيدًا عن جهاز التكييف ..ومرة لكي أكون قريبًا من الراديو ..ومرة لكي أكون قريبًا من النافذة بعيدًا عن الحمام ..انقل ده ..هات ده ..أشكرك على ده ..مالكش حق في ده ..عال.

ودعوت بعض الأصدقاء، وطلبت من الجرسون أن يحضر الشاي وبعض الحلوى .وكلمة الحلوى عرفتها من جرسون آخر ..وطلبت إليه أن يضع زهرية فيها شوية ورد مش حاجة كبيرة الورد هنا ..منظر يعني ..وغمزت له بعيني، ووضعت في جيبه دولارين.

وبعد ساعة عدت فوجدت الغرفة جميلة..الملابس معلقة على الشماعات والكتب مصفوفة، والجرائد مصفوفة ..وحقائبي مغطاة بالمفارش ..ودخلت الحمام ..كأنه مرآة ..وبعض الفليت ..وبعض الزهور قد وضعت في زهرية حلوة ..ومنضدة كبيرة عليها الشاي والفناجين والأطباق والملاعق ..الحمد لله ..كل شيء جميل..

وجلسنا نستمع إلى الموسيقى نملأ صدورنا بالورود ونملأ معدتنا بالشاي اللذيذ والبسكوت الأسترالي الذي لا يشبع منه أي إنسان ..وكلام وسلام وحكايات من الشرق والغرب ومضت ساعة واثنتان وثلاث ..ومددت يدي على الجرس وجاء الجرسون وأطل برأسه في أدب زائد وقال لي :حالًا..

وقلت لا بد أنه مشغول ..أو أنه مؤدب جدًّا لدرجة أنه لا يريد أن يزعجني بدخوله وخروجه ..أو يفسد حديث الضيوف.

ودققت الجرس أطلب إليه المزيد من الشاي وأطل برأسه وعاد يقول :فاضل واحد..

واحد إيه ..يمكن واحد دقيقة ..أو أنه يغسل الأطباق ولم يبق إلا طبق واحد ..أو يكوي القمصان وليس أمامه إلا قميص واحد ..واحد واحد يا سيدي ..يعني من واحد ..وأخيرًا حضر ومعه لفة صغيرة ..لفة في ورق شفاف ونظرت ..ولم أفهم وسألته :ما هذا ..ما هذا..؟ فلم يرد ..ومددت يدي لأرى عجبًا ..كل مناديلي التي أعطيتها له في الصباح قد تغير لونها ..لونها بني أسود ..أو بني أصفر ..وفيها بقع زرقاء وحمراء ..ولم أفهم طبعًا ..وسألته ما هذا؟ لم أفهم منه..

ونزلت لعامل التليفون أسأله ..وعرفت المصيبة ..لقد وضع كل مناديلي في براد الشاي وغلاها ..لماذا؟ لأنني كتبت كلمة شاي »مظبوط «بصورة خاطئة فكانت النتيجة هي صبغ المناديل ..ولماذا يصبغون المناديل؟ لأننا في أعياد الصعود إلى الجبل ..وفي هذه الأعياد يتبرك الناس بطعم الشاي ولون الشاي..

ومزقت الورقة وبدأت أسأل عن معاني الكلب والحمار والثور وقررت أن أوجه هذه الكلمات إلى الجرسون كل يوم ..وأخيرًا عدلت عن هذه الورقة ..فربما كان لها معنى آخر عنده..

ومع ذلك فغرفتي أروع غرفة في الدنيا؛ لأنها تطل على أجمل فندق وتقع في أجمل مدينة في العالم ..مدينة أو جزيرة هونج كونج ..ومن أجل هونج كونج وجمالها وسحرها ليلًا ونهارًا، أصبر على هذا الجرسون ولو فتح بابي في الصباح ودخله دون إذن ومن ورائه عمال البلدية، وموظفو جمعية الرفق بالجرسونات!

* * *

وأمس قررت أن أقوم بعملية ترميم كاملة ..للآلة البشرية التي بعثتها القاهرة لتسجيل الحوادث في هذه المنطقة من العالم ..فتركت ساعتي عند الساعاتي وبنطلوني عند الرفا .وحذائي عند الجزمجي، وحقيبتي التي تكسرت تركتها هي والحزام عند الجزمجي أيضًا ..وملابسي أيضًا تركتها عند المكوجي.

وموعدي معها جميعًا غدًا ..وجلست اليوم أنتظر وفي الساعة الثامنة صباحًا بدأ العمال يدقون باب غرفتي..وأبحلق في كل شيء ..إنه جديد .دقيق كأنه خارج من المصنع الآن..وبأسعار معقولة جدًّا .الخلاصة :لا يوجد شيء مستحيل عند الرجل الصيني .والذين جاءوا من اليابان يقولون :إن الرجل الياباني يرى أن الرجل الصيني بليد وغبي وبطيء جدًّا!

وجاءني الجرسون وقلت له :كل حاجة عندكم بهذه السرعة!

فضحك، وهنا يضحكون دائمًا، إذا فهموا وإذا لم يفهموا وفي الغالب يفهمون شيئًا آخر غير الذي نقصده ولكنهم يفهمون دائمًا.

وقلت :عاوز عروسة لواحد صاحبي.

قال :حالًا دلوقت.

قلت :اشمعنى العروسة دلوقت والجزمة غدًا؟

قال :دلوقت عروسة وغدًا عروسة أخرى.

-ولكنها لا تعرفه.

-غدًا تعرفه يعجبها أو لا يعجبها..

-هذا يحدث في هذه البلاد؟

-الزواج محاولة تفاهم ..بين رجل وامرأة..

-هل معنى هذا أنه لا يحدث طلاق أبدًا؟

-يحدث.

-لا بد أنه كثير جدًّا ما دام الزواج يتم بهذه السرعة؟

-بالعكس ..بعد الزواج يكون الزوج مشغولًا جدًّا والزوجة كذلك ..ولا يتسع لديهما الوقت للتفكير في الطلاق ..فهناك شيء أهم من الاتفاق وعدم الاتفاق وهو لقمة العيش..

طيب على كل حال صاحبي عاوز عروسة..

-أجيب له..

وبدأ يتكلم عن العروسة كما لو كانت زوجًا من الأحذية ..وبدأ يبين لنا مزايا القصيرة والطويلة، والسمراء والبيضاء، بنت الأكابر أو بنت الناس العاديين.

وعرفنا منه بعد ذلك أن هذه العروسة لو كان فيها عيب كالحقائب أو الأحذية يمكن ردها اليوم إلى والدها ويتم إصلاحها غدًا!

أقيم أول أمس معرض فني في هونج كونج ودعت له الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون ووزعت له النشرات في دور السينما ..والمعرض مقام في أحد أجنحة الميناء ..وفوق هذا الجناح توجد أعلام ..وفي مدخله فتيات جالسات يبعن دليل المعرض..

والمعرض رغم هذه الضجة كلها صغير جدًّا لا يزيد على ثلاث غرف ..ولكن الأشياء المعروضة ممتعة فعلًا، فهناك صور فوتوغرافية لمناظر في هونج كونج جميلة جدًّا ..هناك صورة للميناء في الليل بعد أن مر فيه أحد الزوارق ..وشكل الماء في الليل كبدلة رقص سوداء شفافة ومرصعة بالترتر ..وهناك صورة أخرى لفتاة عارية 100% وهناك تباع الصورة العارية الملونة عند دكاكين السجائر ..والبائعات كلهن بنات -وقد انعكس عليها ظل فتاة عارية أخرى ..إنهما فتاتان، واحدة لونها أبيض والأخرى لونها أسود ..وانعكست عليها كاميرا المصور واتخذت الكاميرا وضعًا مثيرًا ..وصور أخرى لبنات، وهن من هونج كونج عددهن كبير جدًّا ..أكثر من أي بلد في العالم.

والذي أعجبني وأدهشني في هذا المعرض هو القسم الخاص بالعمارة .ففن المعمار هنا يحتم على كل العمارات الجديدة أن تتخذ وضعًا رأسيًّا، وأن ترتفع، وأن تستعين بالفضاء الواسع بعد أن ضاقت الأرض بها.

وفي كل مكان توجد ناطحات سحاب.وفي كل شارع، وفي كل حارة، عمارة عالية جدًّا تقام .وفي المعرض تقدمت إحدى الشركات الهندسية بنموذج من الخشب لمستعمرة سكنية مكونة من 9آلاف شقة ..يتراوح إيجارها بين ستة جنيهات وعشرين جنيهًا ..وهذه المستعمرة بها مدرسة وبها دار للسينما..

ويبدو أن الحكومة هنا قد اشترطت على كل من يبني مستعمرة أن يبني فيها مدرسة ..فالطلبة كثيرون جدًّا والأماكن ضيقة ..وفن العمارة هنا فيه خطوط جديدة ..ولكن كل الخطوط مستقيمة ..وكل الواجهات من الزجاج ..وفي بعض البيوت توجد واجهة مستقلة من البيت ..هذه الواجهة تشبه ستارًا هائلًا من النوافذ البيضاء تحجب أشعة الشمس وتكيف الهواء.

وهنا نموذج لمطعم ..سقفه على هيئة دوائر تصعد إليه ..بسيارتك ..ومن الممكن أن تنزل فوقه بطائرة هليوكوبتر فلا يتأثر ..والعمارات هنا مكتوب عليها منشورات تشبه منشورات قاعدة إطلاق سفن الفضاء عندما تتحدث عن دورات سفن الفضاء ..فالمنشورات هنا تقول لك ابتدأنا البناء يوم 12يونيو وينتهي العمل يوم 27فبراير الساعة 12، ويكون المبلغ الذي أنفقناه حتى هذه الساعة هو ثلاثة أرباع مليون جنيه إسترليني، وآخر موعد لتقديم طلبات الإيجارات هو يوم 11نوفمبر ظهرًا .إذا أردت أية معلومات أخرى اتصل بالآنسة ..من الساعة الخامسة والنصف إلى السادسة من أي يوم ما عدا يومي السبت والأحد فإنها خارج المدينة!

وهنا معارض أخرى للفنون والآداب.

ولكن يظهر أن الرجل الصيني مشغول عن الأدب والفن؛ ولذلك تأخرت هذه الأعمال النظرية ..والصيني رجل عمل متفوق في عمله ..وهو يفكر بيديه ويتفلسف بمعدته..ولذلك هزيل جدًّا، والموسيقى تدل على براعة الصينيين في شيء واحد ..هو أنهم استطاعوا أن يحبسوا عشرات القطط والفئران في آلاتهم الموسيقية ..فالبيانو صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكتاكيت الصغيرة ضد عرسة كاسرة .أما القيثارة فهي تشبه أفعى قد تكونت على صدر أحد الحواة ينتظر عصفورًا أطلقه أحد المتفرجين ..أما بقية الأصوات الموسيقية فهي تشبه ضرب الحلل بالملاعق ثم ضرب المستمعين بالجزم!

والصيني مهتم جدًّا ببناء أحسن مسرح، وبناء أحسن مطبعة وأحسن صالة للموسيقى ..أما امتلاء هذه الأبنية بالناس فلا يهمه كثيرًا ..لذلك أنصحك عندما تذهب إلى هونج كونج أن تعرف أولًا أن الفنون والآداب تشبه شربة الزيت ..وأنه يحسن بك أن ترجها .أن تهز رأسك قائلًا لنفسك لا -قبل أن تتناولها ..لأنها تستعمل من الظاهر فقط!

ثم هذه العجائب؟!

-الصينيون »يحسبون «لا عن طريق جداول ضرب ولا آلات حاسبة ..ولكن يحسبون عن طريق عداد صغير مكون من مجموعة من البلي الذي يلعب به الأطفال ..وعملياتهم الحسابية غريبة غير مفهومة ..وتتم بسرعة مذهلة.

-إذا سمعت أحد الصينيين وهو يأكل أدركت أن هناك سيلًا من الأمطار يتساقط فوق السطوح ..لأن الصيني يأكل بالعصا ..فهو يمسك عصوين في يده ويضرب بهما الطبق ويلتقط بهما حتى الإبرة ..حاولت ذلك ففشلت في إمساك هاتين العصوين ..لقد كنت في حاجة إلى كماشة لأمسك العصا التى سأمسك بها قطعة لحم في حجم ماكينة الحلاقة!

-كل صيني يعمل أكثر من عمل ..فهنا في الفندق الذي أقيم فيه أربعة من الجرسونات -أقصد الجرسونين أو الجراسنة الرجال -وكل واحد منهم له عمل آخر يعمله طول الليل ..فهذا يصنع جلود الساعات وذلك يصنع المفاتيح والأقفال، والثالث يرفي الجوارب ..كل ذلك طول الليل!

-لا يوجد محل يبيع صنفًا واحدًا ..فالفكهاني يبيع إلى جانب الفواكه اليابانية والصينية الساعات والراديوهات الصغيرة والعطور النادرة والحراير والخمور..

-اكتشفت أن الفنادق كلها لها أسعار واحدة ..يعني الفندق الذي أسكنه أسعاره كفنادق الدرجة الأولى ..والمشكلة هي دائمًا كيف تجد مكانًا في فندق الدرجة الأولى!

-سجن رجل لأنه نقل في زورق مائة فتاة وحملهن إلى إحدى السفن الكبيرة الراسية بعيدًا عن الميناء .أما لماذا صدر ضده الحكم، فلأنه لم يدفع إيجار الزورق ..فقط!

-سجنت امرأة لمدة سنة لأنها باعت ابنتها الصغيرة وعمرها 12سنة لرجل لكي يعرضها في الليل على السائحين ويكسب من ورائها ..وسجن هو الآخر سنة !البيع لا اعتراض عليه عندهم ولكن استغلال الفتاة هو الذي يعتبر عملًا حقيرًا!

-المدينة تشكو من الإسراف في استخدام المياه ولذلك ..ستكون المياه الساخنة في الحنفيات من السادسة صباحًا حتى الثانية عشرة ..وبعد ذلك تكون المياه باردة حتى السادسة مساء ..وعلى كل سكان هونج كونج أن ينفذوا التعليمات وإلا لجأت الحكومة إلى إجراءات أشد ..ربما قطعت المياه نهائيًّا واكتفت بمشروبات الكوكا والبيبسي وهي كثيرة جدًّا هنا.

-المحلات الليلية الكبيرة هنا لها نظام غريب ..إذا أعجبتك فتاة وكلهن جميلات فأنت ترقص معها ..وبعد الرقصة الحلوة تدفع للمحل مبلغ جنيهين .وإذا طلبت أن تجلس إلى جوارك فادفع جنيهين آخرين ..وفي آخر الليل إذا لم تستطع أن تقف على حيلك أو تعرف أين تسكن ..فالمحل يوصلك إلى حيث تنام وفي الصباح يبعث أحد الجرسونات للاطمئنان على صحتك وعلى أنك ستذهب إلى نفس المحل مرة أخرى.

-لا يضعون الكريم في الحلويات أو في الچيلاتي ..والسبب هو أن الناس يخافون من السمنة.

-أصحاب البارات هنا يقفون في وسط الشارع وينادون الزبائن ويعرضون عليهم كل شيء ..كل شيء وبتفاصيل كاملة ..كل ذلك في الشارع وقبل أن تدخل البار ..وهنا لا يشترطون لبس الكرافتة كما هو الحال في أستراليا!

* * *

لكي تبدو أجنبيًّا!

زحام شديد في كل مكان ..لا أحد يلتفت ناحيتي ..لا أحد يسأل عني ..العيون تتجه بانحراف ثم تتركز فوق ناموسة في طريقها إلى أذني ..أما وجهي وأما ملابسي وأما الكاميرا التي تعلقت منذ أربعة شهور في كتفي دون أن أفتحها بقصد التهوية فلا أحد ينظر إليها، ولا أحد ينظر إلى الأوراق الكثيرة التي أحملها كأنني محصل النور في حي بولاق ..وملابسي غريبة ..لونها بني :البنطلون والچاكتة والحذاء والجورب ..ينقصها القليل وتبدو حمراء ..كملابس المحكوم عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ.

وقررت أن أبدو أجنبيًّا ..أن أبدو كأنني لا أعرف شيئًا عن تقاليد البلاد .أو أنني أعرفها وأتجاهلها ..على سبيل الاستخفاف وعدم الاهتمام..

بدأت أكشر وجهي ..وأجعله كقفص من حديد يحبس وراءه ابتسامة عريضة ..ومن وراء هذا القفص الحديدي تطل عيناي ترحبان بأي تشجيع ..ولا تشجيع ..الناس يضحكون لكل شيء وأنا لا أضحك ولا أهتم بهذه الوجوه الباسمة ..الوجوه »مش ولابد «ولكن الأجسام »ولا بد..«

وبدأت أسأل عسكري المرور عن أسماء الشوارع، مع أن الشوارع هنا محدودة جدًّا.

ومع أن هذا العسكري لا يعرف اللغة الإنجليزية؛ فالذين يعرفون اللغة الإنجليزية هنا لهم علامات في ملابسهم ..وكنت أصرخ في وجهه وهو يصرخ أيضًا ..والناس يروننا فيضحكون ولكن لا يتوقفون ..فوراءهم مسائل جادة أهم من نزوات سائح أجنبي مثلي..

وبدأت أتعرض للفتيات وأبتسم من غير مناسبة ومن غير معرفة ..والبنات يبتسمن ..ثم أتلفت ورائي وأدور كأنني مراهق صغير في مهب الفتيات الحسان .وفي كل مرة أدور حول نفسي كما تدور أبواب الفنادق أصطدم بأحد المشاة وأبتسم ويبتسم هو أيضًا ..والنتيجة صفر لواحد ..صفر لي وواحد لكل الناس، فقد أدركوا أنهم أحسن أخلاقًا من كثير من الأجانب..

وعندما أدخل المطعم لا أنظر في قائمة الطعام وأطلب منه قطعة من اللحم المشوي جدًّا ..وكثيرًا من السلطة الخضراء، وكوبًا من الصودا، وأبحث عن شيء غير موجود في قائمة الطعام ..الحلويات أشكال وألوان والفواكه كلها موجودة وأنا أعرف ذلك جيدًا..

ونظرت إلى نظرات الجرسون ..ليس فيها أية دهشة، ليس فيها أي استغراب لشأني ..وينظر إلي كأنني أعرفه منذ زمن طويل ..وأخيرًا انجعصت في مقعدي وقلت له وأنا أضع الأوراق إلى جواري والكاميرا إلى جوار الأوراق، وأضع الچاكتة فوق الأشياء جميعًا :عاوز عود قصب!

واختفى الجرسون .وأنا أعرف هذه العادة في الجرسونات إنهم لا يقولون أبدًا :مش فاهم .إنهم يذهبون بسرعة ويأتون بمن هو أكثر معرفة، بجرسون أكبر ..وهذا الجرسون الأكبر هو الذي يتفاهم معي بلغة إنجليزية سليمة ..وبدأت أقلب في وجوه الحاضرين..

واندهشت كيف أن سيدة شقراء حلوة تتناول الشوربة بصوت مرتفع ثم كيف تأكل مع الشوربة هذه الكمية الهائلة من البصل الأخضر ..وفي المنضدة المجاورة توجد سيدة أخرى تأكل بالجملة ..فهي تضع اللحم والبطاطس والبيض والمربى والمسطردة والفاصوليا كلها معًا وتأكلها ..وبعد ذلك تقوم بتقليد الجمل في الأكل ..وأضحك بيني وبين نفسي.

وأتلفت ورائي لأجد الجرسون قد أتى بصينية عليها مجموعة من عيدان القصب ..وتستطيع أن تتخيل منظري والناس كلهم يتركون اللحم والبصل ويتفرجون على هذا الأجنبي وكيف يحطم هذه الأعواد الحديدية.

على فكرة معظم الناس هنا لهم طقم أسنان ..وفي أستراليا كنت أجد إلى جوار سريري كوبًا من الماء ..وفي يوم سألت الخادمة عن سبب وضع هذا الكوب ..فقالت لي :لكي تضع فيها طقم أسنانك..

وتشاءمت وقلت لها :فال الله ولا فالك يا شيخة..

وخشيت أن أقول لها إن أسناني طبيعية فتمد يدها إلى أسناني وتشدها بقوة لتتأكد من ذلك بنفسها!

وأخرجت ورقة وقلمًا من جيبي وجعلت أكتب على الورقة أوصاف قصب السكر.

وأضغط بأصابعي عليه وأكتب..

ثم أضع الأعواد إلى جوار أنفي وأشمها وأكتب..

والناس في دهشة أكبر وأكبر.

وفي إشارة جافة طلبت من الجرسون أن يأخذ القصب..

وكان الجرسون في حاجة إلى تفسير، فقلت له :أنا خبير في صناعة السكر ..وقد جئت لدراسة مفصلة عن عيدان القصب وزعازيع القصب في كل مكان ..في السوق وفي المطاعم وفي الكباريهات أيضًا!

وضحك الجرسون..

وفي اليوم التالي حلقت رأسي على الطريقة الصينية ..واشتريت الصحف الصينية ..وجعلت أرفع حواجبي إلى أعلى وتحولت ابتسامات الناس إلى ضحك ..فقد تأكدوا أنني فعلًا أجنبي وأنني أبالغ في تقليد الصينيين وخصوصًا في الكلام ..فقد أصبحت لغتي الإنجليزية كالصيني المكسر!

ولذلك تعودت شيئًا جديدًا لا أحبه لقد بدأت أضع السيجارة في فمي ..كأن السيجار عكاز يستند عليه الكلام عندما يتمشى بيني وبين الناس!

* * *

وركبت القطار من محطة كولون ..إلى مدينة شونج شوي -أو سونج سوي بلهجة أهل كانتون ..وهي الولاية الجنوبية للصين الشعبية ..القطار هنا ثلاث درجات -في ألمانيا ألغوا الدرجة الثالثة، وفي روسيا ألغوا الدرجتين الأولى والثانية، وفي إندونيسيا ألغوا القطار نهائيًّا واكتفوا بأن يركب الناس الريكشا، وفي أستراليا ألغوا القطار ليركبوا الطائرات ..وأتمنى أن أعود إلى القاهرة فلا أجد سلم الترامواي عندنا!

وهذه المدينة الصغرى تقع على حدود الصين الشعبية ..وانطلق القطار لمدة ساعة في الأرض الجديدة التي استأجرتها بريطانيا من الصين الشعبية لمدة 99سنة ابتداء من سنة 1898..

وعلى جانب القطار توجد حقول الأرز والبيوت الصغيرة للفلاحين الصينيين ..حياتهم بدائية .والحقول مقسمة إلى قطع صغيرة جدًّا ..والفلاح الذي يملك قيراطًا من الأرض ..يزرع ربعه أرزًا، وربعه قمحًا، وربعه بصلًا، والربع الباقي يجعله على هيئة حوض من الماء ..تسقط فيه الأمطار أو يحوش فيه الماء وينقله بالجردل أو بالرشاشة إلى الحقل ..وبعض الفلاحين يربي الأسماك في هذا الحوض .والمرأة الصينية هنا تنتقل من مكان الحقل إلى مكان آخر وهي جالسة على كرسي يشبه كرسي الحمام عندنا ..والأرض على هيئة مصاطب ..وبين المصاطب قنوات ..والفلاح يعمل كل شيء بيده ..ولا يستخدم أية آلات حديثة.

ولما نزلت إلى مدينة سونج سوي لم أجد أية وسيلة للمواصلات؛ فركبت الدراجة وراء أحد المرشدين ..وانطلقت بنا الدراجة إلى مسافة عشرة كيلومترات ..إلى حدود الصين ..وصعدت الجبل ..ومن بعيد رأيت الصين الشعبية ..وعلى الجبل توجد علامات بيضاء ..كنت أظنها الحدود بين مستعمرة هونج كونج والصين..ولكن عرفت أن هذه الأحجار البيضاء هي علامات بين عالمنا هذا والعالم الآخر ..فتحتها جثث الموتى أو ما تبقى من رماد جثثهم بعد الحريق.

والناس يجلسون على المقاهي ويلعبون الطاولة طول النهار ..وأحجار الطاولة في حجم بطاريات الراديوهات الصغيرة.

والسوق الصينية عجيبة ..فكلها أسماك جافة ..وهناك طبق مفضل عندهم هو أثداء الخنزيرة ..هذا الطبق يشبه عندنا الكبد والكلاوي..

والشمس ملتهبة جدًّا هنا ..فالخط المستقيم الذي يمر تحت قدمي الآن يمر بالقاهرة ومدريد وسان فرانسيسكو ..فنحن في درجات حرارة متشابهة ..والشمس كانت قاسية جدًّا ولم نجد مكانًا نجلس فيه ..فمحطة السكة الحديد هنا صغيرة جدًّا وليس أمامنا إلا دخول أحد الدكاكين ..ففيها مقاعد وفيها أكثر من سرير ..وهي طبعًا لصاحب الدكان وأولاده الكثيرين جدًّا ..وشربنا لبنًا موضوعًا في زجاجات .إنه خلاصة اللبن، يشبه الأرز أبو لبن..

وسألت صاحب الدكان محاولًا أن أبدو غريبًا جدًّا وقلت له :بلادكم عجيبة !كيف تحولون اللبن إلى أرز، والأرز إلى لبن؟!

وهز الرجل رأسه يمينًا ويمينًا مؤكدًا لي أنه ليس شيوعيًّا، لأنه لو كان شيوعيًّا لهزها يسارًا ويسارًا ولم يقل شيئًا ..فعرفت أن »تلبين «الأرز وتأريز اللبن سر لا يعرفه أحد ..أو يجب ألا يعرفه أحد مثلي شرب زجاجة بملاليم ثم لم تعجبه، وعندما بصق على الأرض، لم يكن ذلك بسبب ذبابة دخلت في حلقه، ولكن لأن مرارة الأرز بدأت تتسلل من جديد إلى فمه!

* * *

وهناك أنواع أخرى من المرارة..

ففي الليل ذهبت إلى ملهى »الشمبانيا ..«جو جميل ..موسيقى صاخبة وسحب من الدخان ..تتحرك فيها فتيات كثيرات كأنهن قراميط وبلطي في حوض من الزجاج ..كل الناس يضحكون ويرقصون ..وقد تتوهم أن أحدًا لا يراك ..فتجلس في أحد الأركان وتتوارى وراء أحد الأعمدة وتتشاغل بشيء ..فتضع يدك على خدك وتفكر معي في الفصل القادم من هذا الكتاب وماذا تكتب وكم يومًا تبقى قبل أن تنزل الأمطار والجليد ..كيف تختار الطائرة التي تعانقها العواصف في الطريق ..وتتذكر بعض الخطابات الحلوة ..والكلام الحلو الذي كنت تمضغه كاللبان الأمريكاني أو تشمه كالنوشادر ..وفي هذه اللحظة تشعر بهزة عنيفة تحت المنضدة ..إنها ساق فتاة صينية جميلة تضغط على رجلك وتمد يدها لك وتقول :متى عدت!

فأقول :منذ أيام..

-وأين صاحبك الآن وكيف حاله؟ ألا يزال يفكر في الزواج؟

فأقول لها :بخير، لقد تزوج وعنده ولدان الآن..

-متى يحضر هنا؟

-أعتقد في نهاية الأسبوع ..إنه في شوق شديد إليك..

-وستبقى هنا وحدك إلى متى؟

-لا أعرف..

-إلى الساعة الثانية، هذه المرة اسمع كلامي ..ماذا كتبت أمس؟

-أمس ..قصدك في العام الماضي..

-أنا مشغولة الآن ..وسيكون عندنا وقت أجمل فيما بعد ..أنت لا تشرب؟

-لا أشرب..

-لأي سبب؟ ديني؟

-صحي..

-أنت دائمًا مهتم بالمسائل الصحية ..أحسن ..ولكن صديقتك لن تعود .لقد طردوها من هنا ..لقصة مشابهة ..طردوها ..هل تسمعني؟!

-أسمعك طبعًا هل يبدو أنني سرحان؟ أنا شكلي يبدو أنه سرحان ..ولكني في الواقع لست سرحانًا .هل نظرت إلى عدسة آلة التصوير؟ إنها بلا أجفان وبلا رموش ولا تتحرك ولكنها تلتقط كل شيء ..وأنا أيضًا كذلك..

-ماذا فعلت؟ أنت لا تزال تعمل نفس العمل ..إنه لا يعجبني ..وهل تبقى طويلًا هذه المرة؟

-يمكن..

واستأذنت الفتاة وانتقلت إلى المنضدة ورائي ..وكان هناك شاب يبدو أنه أمريكي ..وجلست إلى جواره وهي تضحك ..ثم نظرت ورائي فقالت لي :لا مؤاخذة ..أنت جئت هنا تتفرج فقط ..أما أنا فلي شأن آخر ..لي عمل آخر.

واكتشفت بعد وضع يدي الأخرى على خدي الآخر ..وكأن خدي الأول لا يتحمل أكثر من صفعة واحدة ..وكأنني أحمي خدي الآخر ..اكتشفت أنها كانت تتحدث إلى الرجل الذي يجلس إلى جوار الحائط بعيدًا عني وأنها تشير إلى حوادث جرت بينهما أمس ..وأنها لا تقصدني بالمرة!

وأفقت من سرحاني الطويل ..ووضعت يدي في جيبي وتلمست المحفظة ..ولا أدري لماذا فعلت ذلك عندما أحسست أن صوتي منحاش ..تمامًا كما يتلمس الإنسان أسلاك الراديو الممتدة من البطارية إلى الميكروفون عندما يلاحظ أن صوت الراديو بدأ ينخفض ..وتنبهت إلى أن الجالس ورائي هو صديقي وهو الآخر من القاهرة ..واعتدلت وبدأت أتحدث إليه بالعربية واندهشت الفتاة وخجلت مني وأحست أنني انتقمت منها ..وأن انتقامي كان رهيبًا عندما نهضنا نحن الاثنين وتركنا لها المنضدة والملهى ..ملهى الشمبانيا ..مع أنه لم تكن هناك سوى زجاجة ..انفجرت في وجهي وطارت الفلة إلى عيني ..أما فقاعات الشمبانيا فظلت في نفسي أذكرها وأضحك ..وعندما خرجت أنا وصديقي من المحل أحسست أن الشمبانيا طعمها كالشوربة أم خل وثوم ..والحقيقة أن الفتاة جميلة ..ولم يعجبني منها إلا تمثيلها ..وأحسست أنني خشبة مسرح وأنها صعدت فوق الخشبة وظلت تدبدب برجليها ..والخشبة ولا هي هنا ..خشبة طبعًا!

واقتنعت أنني أتصرف كإنسان غريب، لا عن تمثيل، ولكن عن حقيقة وعن إحساس ..فأنا فعلًا غريب في هذه الجزيرة وفي كل مكان..

آه لو أعرف كيف لا أكون غريبًا ..كيف أكون قريبًا لأحد..

قريبًا من أحد ..كيف أكون ابن بلد ..ابن أي بلد ..ابن أي أحد من الناس ..إنني بالفعل غريب، ولا نهاية لغربتي، ولا حدود..

إن هونج كونج مليئة بالغرباء ..بكل الناس الذين مثلي ..إننا مرتبطون معًا بشيء واحد هو أننا غير مرتبطين!

انتهت إقامتي في هونج كونج..

وهذا تعبير دقيق .فإقامتي هنا هي التي انتهت .أما إقامة هونج كونج في نفسي وعلى لساني وفي عقلي، فلا يمكن أن تنتهي ..فالذي رأيته والذي أحسست به ..والذي دفع صدري إلى أعلى، وهبط به إلى أسفل، كل ذلك لا يمكن أن يزول..

انتهت ولا أعرف ما هو الذي انتهى..

إن هونج كونج لم تعد قريبة من يدي ..وهذا هو معنى النهاية..

آخر مرة أستخدم فيها كلمة »كأن «هي الآن فقط ..كأن هونج كونج نجفة كريستال معلقة في السقف، والسقف هو القانون.

فهي معلقة بين القوانين، ولكنها تهتز يمينًا وشمالًا .فالشعب الصيني هنا قادر على أن يتعلق في أي شيء ثم يهتز ويتمايل عليه!

ومرة أخرى وأخيرة أستخدم فيها كلمة »كأن..«

كأن كل محاولة من جانب البيض ليختلطوا فيها بالناس الصفر هي مثل محاولة خلط الزيت بالماء.

ومن الغريب أن أهل هونج كونج قد أقنعوا البيض بأنهم ليسوا كالزيت بالماء وإنما كالعسل بالسمن.

والبيض قد صدقوهم ..ولكن الرجل الصيني هو أرق كذاب في الدنيا!

* * *

اليابان الأقزام العمالقة!

بعد سبع ساعات بالطائرة من هونج كونج وصلت إلى مطار طوكيو الطائرة ذات المحركات، ولهذا كانت المسافة طويلة ..والذين سافروا بعدي بالطائرة النفاثة لم يستغرقوا أكثر من الوقت الذي تستغرقه وأنت تتناول طعامًا من اللحم والسلطة وتنام نصف ساعة في أثناء الأكل، ثم تنهض منزعجًا وتعاود الأكل مرة أخرى ..ثم تروي نكتة بايخة لجارك وتعتذر عنها نصف ساعة ..وعندما يقبل اعتذارك تكون الطائرة قد وصلت إلى أرض طوكيو!

وكانت الساعة الثامنة ليلًا ..والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار ورياح باردة ..باردة جدًّا ..لقد صادف وصولي إلى طوكيو وصول »دينا ..«دينا هذه اسم العاصفة التي تجتاح اليابان ..ولسبب خبيث جدًّا يطلق علماء الأرصاد أسماء النساء على العواصف ..وقبل هذه العاصفة ..أو صاحبة »العصف «دينا ..كانت هناك عاصفة اسمها شارلوت..

وعندما نزلت من الطائرة، أعطوني مظلة سوداء لوقايتي من المطر ..وليتهم أعطوني بالطو للوقاية من البرد ..وليتهم استقبلوني بلون آخر غير هذ اللون الحزين..

كل شيء كئيب ..الجو والمطار -لا بد أنه نسبة إلى المطر وليس إلى الطيران -وقلت لنفسي لولا خوفي من أن أفتح فمي في هذا الجو البارد لتساءلت هيه دي طوكيو؟!

وعندما دخلت المطار وجدت أن المطار فعلًا يدل على أنني على أبواب مدينة رائعة كبيرة ضخمة ..المطار هائل ..به أنوار وألوان وأنوار، وحركة وأنوار وناس وأنوار ..لا تتوقف ..لا الأنوار ولا الألوان ..إنني لم أبالغ في تكرار كلمة الأنوار ..ولكن اليابانيين هم الذين يفعلون ذلك ..وهناك أناس أشكالهم غريبة مختلفة عما تصورت.

فقد كنت أتخيل اليابانيين أقزامًا لونهم أصفر، أو أصفر على أبيض، أو أصفر على بني، وتصورت أنهم يلبسون ملابس أخرى ..يلبسون الكيمونو وهو الزي الوطني ..الحقيقة لم أجد شيئًا من هذا ..فاليابانيون طوال بيض اللون ..بل إنهم شقر ..وخدود السيدات كالتفاح ..خدود بارزة حمراء ..وعيونهم كبيرة ..والفرق بين الياباني والصيني هو أن الياباني أكثر بياضًا وطولًا، وعيناه كبيرتان والجفن الأسفل مستقيم والجفن الأعلى نصف دائري منفوخ ..ومعظم الناس يرتدون النظارات الطبية ومعظمهم لهم أسنان ذهبية ..والوجه الياباني جميل..

ويظهر أن بنات الصين وبنات اليابان قد اقتسمن الجمال هنا في آسيا كلها ..فالمرأة الصينية يتمنى الإنسان أن يراها عارية تمامًا بشرط أن تضع ورقة توت على وجهها ..والمرأة اليابانية أيضًا بشرط أن تخفي ساقيها تحت الأرض ..وإن كانت عين المرأة اليابانية نصف دائرية فإن ساقيها دائريتان ..وساقيها معوجتان جدًّا ..وتندهش كيف أن المرأة اليابانية تستطيع أن تمشي ..ولكن المرأة اليابانية تمشي وهي تقفز وتكاد تقع إلى الأمام ..أو تمشي ورجلاها تكاد تلتف الواحدة على الأخرى ثم تسقط على الأرض ..فعندها جاذبية ..جاذبية أرضية!..

وفي المطار يسألوننا إن كانت معنا سجاير ..لأن لليابان كلها سجائر خاصة، بل الحقيقة أن اليابان عندها كل شيء ..لقد صنعت كل شيء ابتداء من المسمار الذي يوضع في الحذاء إلى الخيط الرفيع الذي توضع فيه مفاتيح القاطرة الكبيرة ..فاليابان هي المثل الأعلى للدولة التي تعتمد على نفسها .والتى تصنع كل شيء بأيدي أبنائها، وتبيعه في كل مكان في العالم .ولها سمعة هائلة..

والطريق من المطار إلى الفندق مظلم جدًّا، والشوارع خالية من الناس ..السيارة التاكسي التي تنقلنا كاديلاك وبها مدفأة .ولكن البيوت كلها قديمة وكلها من طابق واحد، وربما كان السبب هو وقوع الزلازل والبراكين ..ففي اليابان 198بركانًا نصفها ما زال نشطًا ..والقانون هنا يمنع بناء العمارات الكبيرة إلا بشروط قاسية، حرصًا على سلامة الناس .واندهشت جدًّا عندما عرفت أن أهل طوكيو قد ناموا، وكانت الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف، والسبب هو أن »دينا «كانت قاسية هذه الليلة ولكن في اليوم التالي سيكون الجو صافيًا.

وطوكيو أكبر مدينة فى الدنيا، فعدد سكانها هي وضواحيها 15مليونًا وفنادقها الكثيرة مزدحمة بالناس ..فهناك نشاط تجاري وسياسي ونشاط دولي والحصول على غرفة في أي فندق يعتبر عملًا من أعمال البطولة.

الحقيقة لم تبهرني طوكيو، وأحسست بكثير جدًّا من خيبة الأمل وحسدت اليابانيين على براعتهم في الدعاية لبلادهم، بلاد الشمس المشرقة .ويظهر أن الشمس تشرق هنا فوق السحاب فقط!

* * *

لم أجد أي شيء ياباني بالمعنى الحقيقي، فيما عدا شيئًا واحدًا ..وهو أنني عندما دخلت الفندق وجدت ثلاث فتيات قد ارتدين الكيمونو وانحنين انحناءة تامة -في حالة ركوع تقريبًا -وفهمت أن هذه الانحناءة لشخصي ..على إيه؟ لكن هذه هي التقاليد .كل إنسان ينحني لإنسان مرة أو أربع مرات في لحظة واحدة، وفي المطار لاحظت أن الناس رجالًا ونساء يلتفون حول بعض المسافرين وينحنون جماعة -كالصلاة تمامًا -وهذه الفتاة قدمت لي الشبشب ونزعت حذائي وتركته أمام الباب . والشبشب يجب أن أتنقل به من مكان إلى مكان في داخل الفندق وأخفي حذائي لتنظيفه في الحال ووضعه في مكان أمين حتى الصباح .وفي غرفتي وجدت الكيمونو نفسه على شكل »روب «صغير ألبسه فوق البيجامة ..وعرفت بعد ذلك أن الروب يجب لبسه بلا بيجامة ..وهذا ما لا أستطيع، فالدنيا برد ..زمهرير..

نسيت أن أقول إنهم سألوني في الفندق :هل تريد حجرة يابانية أو أوربية؟ فقلت :أوربية.

فقد لاحظت أن اليابانيين لا يرتجفون مثلي .وخشيت أن تكون الغرفة اليابانية فوق السطوح وأن يكون النوم بلا غطاء أو بغطاء على أن تبقى النوافذ مفتوحة.

وفي اليوم التالي عرفت أن الغرفة اليابانية أصعب بزمان ..فالنوم مثلًا فوق مرتبة على الأرض، والطعام على منضدة صغيرة جدًّا .وإذا أكلت يجب أن تجلس على ركبتيك .وإذا جلست يجب أن تجلس على قرافيصك .والتقاليد تقضي بأن تشرب الشاي الأخضر في كل وقت .والشاي الأخضر من غير سكر ..وهو مجانًا!

وتمنيت أن أرى شيئًا يابانيًّا لم أكن أعرفه ..وليس من المعقول أن أصل إلى اليابان في الليل، وأظل جاهلًا حتى الصباح، أنزل من الطائرة لأصعد فوق سرير وأبقى كذلك حتى الصباح ..فطلبت عشاءً يابانيًّا وسألوني عن نوع الأطعمة، ولما كنت لا أعرف فقد طلبت من مدير الفندق -البواب هنا -أن يختار لي طعامًا على ذوقه هو.

وانتظرت المفاجأة، ودخلت فتاة بالكيمونو وانحنت جدًّا جدًّا ..ووضعت المنضدة وانحنت جدًّا جدًّا، وخرجت ودخلت فتاة أخرى وانحنت في دخولها وخروجها، ووضعت فنجانًا من الشاي الأخضر، ودخلت فتاة ثالثة صغيرة ووجهها حلو وانحنت بالقوي وقدمت لي فوطة ملفوفة بالماء لأغسل يدي، وفوطة أخرى ساخنة لأغسل يدي.

وبعد ذلك دخل المدير وانحنى ووضع أكوابًا -عرفت فيما بعد أنها أطباق -وفي الأكواب ألوان سائلة خضراء وحمراء وصفراء ..وحمراء وصفراء وخضراء، وعرفت فيما بعد أن هذه شوربة الخيزران الأخضر، وهذه قواقع بحرية وهذه أذيال ثعابين مائية، وهذا جمبري محمر بقشره وبرأسه وشواربه كاملة، وهذا أرز مسلوق معجون وليس به ملح، وهذه سلطة خضراء من اللفت والكرنب -وقد عرفت فيما بعد أنه خس -وقطعة من الجبن المدخن، ثم هذا طبق من السمك.

ولسبب غير مفهوم قررت أن آكل هذه الأشياء جميعًا ..وقد نسيت هذه الأكلة وتعمدت أن أنساها ولا يذكرني بها الآن إلا بعض زجاجات الفيتامين »يو «وبعض الأنتروفيوفورم ..لقد ظل بطني يمغص أسبوعًا كاملًا ..كأن بعضها ينفخ النار على بعض ..ولزمت الفراش وكلما سمع أحد اليابانيين ذلك اندهش ..كيف أجرؤ على أكل هذه الأشياء كلها مرة واحدة..

وعرفت أن المشكلة هنا في اليابان هي مشكلة اللغة :فمدير الفندق لم يفهم كلامي ..فأنا طلبت بعض الأطعمة اليابانية لآكل الأطعمة اليابانية ..لم أطلب اللبن والسمك والتمر الهندي والضفادع والثعابين.

والخلاصة أن استقبال طوكيو لشخصي كان سيئًا جدًّا ..وكل يوم أرى طوكيو أجمل وأروع، كأنها هي الأخرى حريصة على محو هذا الأثر.

وقد نجحت -هي وأنا -في ذلك.

وإليك على سبيل التسلية هذه الألغاز:

- 1في الشارع ستجد فتيات قد وضعن كمامات على الأنف وعددهن كثير جدًّا ..وستجد في كثير من محلات الحلاقة رجالًا قد وضعوا نفس الكمامات!

- 2تجد شبابًا في ملابس رعاة البقر وقد وضعوا التيجان المذهبة على الرأس، وأمسك كل واحد منهم عصا عليها بعض الزخرفة والأرقام!..

- 3في الليل ستجد فتيات جميلات يمشين ببطء شديد جدًّا ولا تلتفت الواحدة منهن يمينًا أو شمالًا ولكن في فمها صفارة لها صوت حزين جدًّا!

- 4أصوات سيدات يضربن الأرض في أثناء السير.

- 5بالونات طائرة في سماء طوكيو .والبالونات يمسكها أطفال فوق الأسطح.

- 6كل فتاة تحمل على ظهرها شبه مخدة صغيرة!..

- 7طوابير من الشبان ..عشرات الألوف بملابس عساكر البوليس السوداء ..الچاكتات ضيقة ولها زراير نحاسية ولها ياقات تلتف حول العنق .كلهم صغار ومعهم فتيات جميلات ..ومن بين الفتيات واحدة تجري مسرعة وتتوارى بين الشبان ..مع أن السبب تافه جدًّا!..

»اقرأ حل الألغاز في نهاية هذا الفصل..«

* * *

لاحظت أن الياباني لا يستطيع أن يفكر في شيئين في وقت واحد .فإذا دخلت على ياباني في مكتبه وكان يتحدث في التليفون فإنه لا يمكن أن يراك أو يسمعك أو يلتفت إليك ..وإذا حاولت أن تنبهه، كان من الصعب عليه أن ينتبه إليك ..وإذا تنبه إليك فبصعوبة جدًّا وفي هذه الحالة ينسى التليفون ..إنه يقوم بشيء واحد فقط في وقت واحد.

وإذا كنت قادمًا من هونج كونج، فسترى الرجل الياباني بطيئًا جدًّا جدًّا!

وإذا كنت قادمًا من الهند فستراه سريعًا جدًّا، ذكيًّا جدًّا..

وإذا كنت قادمًا من الفليبين فستراه حزينًا بليدًا..

وإذا كنت قادمًا من إندونيسيا، فستراه أشقر اللون عملاقًا.

والحقيقة أن الرجل الياباني يتقن عمله جدًّا ولا شيء يتم هنا بسرعة ..ولكن من المؤكد أن كل شيء يتم ..ويكفي الرجل الياباني فخرًا أن كل شيء في بلده قد صنعه ..البيت والمطعم والفندق والشارع والمحطة والمطار ..السيارة والبدلة والحذاء وعقد اللؤلؤ وسلاسل البوابات ..والياباني له ذوق جميل، إنه أستاذ في فن العرض والدعاية ..والإعلانات في طوكيو فن رائع ..ومدينة طوكيو في الليل يجب أن تراها أكثر من مرة ..ترى الناس، وهذا معرض حي .وترى الفترينات وهذا معرض فاتن ..ثم الإعلانات الملونة، إنها مدهشة ..ولا يجب أن تستغرق في النظر والتأمل وإلا أطاحت بك إحدى السيارات ..فسائقو السيارات هنا كلهم كانوا طيارين في الحرب الأخيرة وكانوا من الفدائيين!..

والسيارة صنعوها والقاطرة والراديو الصغير .كل هذا صنعوه ..وفي عشر سنوات..

والسيارة معناها عشرات الصناعات :صناعة الحديد والزجاج والطلاء والمصابيح والقماش والجلد ..ثم النقل والدعاية والبيع، والشراء والتصليح والتسويق.

ويمكن أن يقال :لا جديد تحت شمس اليابان ..فكل شيء هنا قد اقتبسه اليابانيون من بلاد أخرى .كل شيء أخذوه عن الدول الأخرى وحسنوه وجملوه وصدروه إلى الخارج وباعوه أصغر وأرخص وأكثر من البلاد التي اقتبسوه منها.

والرجل الياباني ليس مخترعًا ولكنه مقلد عبقري ..إنه مقتبس ..إنه يترجم ويتصرف ..إنه بلغة الصحف »مراجع ..«يعيد كتابة الموضوعات ويضع لها العناوين ثم يعرضها في الإطار المثير ..إننا لا نذكر من الذي اخترع الراديو الصغير ..إنهم ليسوا اليابانيين ..ولكن اليابان أصبحت هي الدولة الوحيدة في العالم التي تفخر بهذا الجهاز وتبيعه في كل مكان وبأسعار رخيصة ..والأسطوانات وأجهزة التسجيل وأجهزة التلفزيون ..كل ذلك صناعة يابانية.

واليابان هي المثل الأعلى للدولة التي تقف على قدميها وتضع هاتين القدمين فوق أكتاف الآخرين .والمثل يقول :إن القزم من الممكن أن يرى أكثر من العملاق إذا وقف على كتفيه.

وقد وقفت اليابان على أكتاف الدنيا ..والمهم أنها وقفت وأنها تفوقت ..كل ذلك في 40سنة، وبأيدي مائة مليون من أناس مهذبين، ونشيطين، ومتقشفين أيضًا.

ونحن في القاهرة نبكي ونلطم خدود الأمانة والصدق ..والفضيلة والشرف عندما يقتبس فنان لحنًا موسيقيًّا أو يقتبس فكرة مسرحية ..ونقول :أمسكوا الحرامي!

إن مائة مليون من المواطنين هنا يسخرون من هذه »الحذلقة «وهذه »الحنبلة «وهذه الفرامل التي تؤخرنا وتربطنا بحبال من الخوف والتردد .فاليابان لم تترك شيئًا جميلًا أو جديدًا في الدنيا لم تنقله ولم تعمل مثله، بل إن اليابانيين قد تفوقوا على أساتذتهم.

وهم يعترفون بذلك ويضحكون، ولكنهم لا يخجلون..

قال لي فنان ياباني أمس :إن جمهوريتنا العربية ستعرض هنا مجموعة من التماثيل الفرعونية الثمينة، وحذرني من المغامرة الخطيرة .ثم قال وهو يضحك إننا نستطيع أن نقلدها، فيصعب عليكم أن تفرقوا بين الأصل والتقليد..

وقال أيضًا ..إن حكومة كوريا تطالبنا بإعادة التماثيل التي أخذناها منها وسنردها.

وقلت :الأصل أم التقليد!!

فقال :الأصل ..والتقليد سيظهر فيما بعد.

ويقال :إن الألمان عندما أقاموا معرضهم الأخير في ألمانيا منعوا اليابانيين من دخوله حتى لا يقلدوا المعروضات فيملئوا بها أسواق ألمانيا قبل أن ينتهي المعرض!

وفي طوكيو شارع اسمه جنزا .إنه لؤلؤة ..شارع جميل طويل عريض ..كل شيء فيه جديد رغم أن الحرب قد هدمته كله.

إنه يشبه شارع بيت في سيدني وشارع أكسفورد في لندن ..وشارع الشانزيليزيه في باريس، وشارع كورسو في روما، وشارع رنج في فيينا، وشارع كورفير ستندم في برلين، وشوارع سليمان باشا وقصر النيل وعماد الدين في القاهرة.

وفي استطاعتك أن تدخل أي محل وتقلب في البضائع كما تريد، والناس يبتسمون لك سواء اشتريت أو لم تشتر ..ولكن اللغة هنا مأساة ..ففي اليابان 220جامعة من بينها 27جامعة في طوكيو ..ونسبة التعليم 100٪، ولكن اللغة الإنجليزية من النادر أن تجدها على لسان الياباني وإذا وجدتها على لسانه فلن يسمح لها بدخول أذنه ..وإذا دخلت فليس معنى ذلك أنه فهم شيئًا..

ولو دخلت محل فكهاني تحس أنه لا يبيع فاكهة، إنما يبيع قطعًا من الماس أو اللؤلؤ ..نظيف جدًّا، وإذا اشتريت فسيلف لك التفاح الكبير والعنب الكبير جدًّا في ورق ملون جميل ..واللفة نفسها أنيقة .وكانت اللغة بيننا بالإشارة :عاوز من ده ..بلاش دي ..هات دي..

وبعد أيام من بقائي في طوكيو تعودت أن أتأمل ..أن أرى ولا أتكلم ..وتذكرت القصة اليابانية التي تقول :إن ملكًا طلب من أحد الرهبان أن يربي له ديكًا ليشترك به في مصارعة الديوك، وبعد عشرة أيام سأله :كيف حال الديك؟

فأجاب الراهب :إنه لم يعد يصيح!

وبعد عشرة أيام أخرى سأله الملك :كيف حال الديك؟

فقال الراهب :إنه الآن ينزعج من صياح الديوك الأخرى!

وبعد عشرة أيام سأله الملك :والآن؟

فقال الراهب :إنه الآن قد تخلى عن غروره!

وبعد عشرة أيام سأله الملك :ماذا حدث له الآن؟!

فقال الراهب :إنه الآن يلزم الصمت، يقف متحجرًا وعيناه جامدتان ولا يشعر بأحد ولا يريد أن يأكل أو يشرب ..إن أي ديك آخر سيفزع إذا نظر إليه!

وأنا لم أكمل العشرة الأولى .ولكن أي إنسان آخر يراني فسيفزع مني، فإنني أمشي كالديك مختالًا متأملًا غارقًا في التفكير!

وهذا هو الحل!!

- 1كل هذه الفتيات مصابات بالزكام وقد وضعن الكمامات حتى لا تنتقل العدوى إلى الآخرين ..أما الرجال فلسبب بسيط جدًّا هو أنهم يحلقون ولا يصح أن يشم الزبون رائحة أنفاس الأسطى.

في الهند من الممكن أن تجد هذه الكمامات ولكن لسبب آخر وهو خوف بعض الهنود أن يقتلوا الميكروبات في أثناء الفقس!

- 2هؤلاء الشبان يعلنون عن المحلات التجارية ..والزخرفة هي حروف يابانية والأرقام هي أسعار أشياء لم أعرف ما هي.

- 3هؤلاء السيدات يقمن بأعمال التدليك، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يعلنَّ بها عن أنفسهن ..معظم هؤلاء النساء ضريرات.

- 4قباقيب السيدات ..أو الأحذية اليابانية وكلها مثل البيوت مصنوعة من الخشب.

- 5هذه البالونات هي إعلانات أيضًا عن المحلات التجارية ..أما الأطفال فيحركون البالونات أو يحرسونها حتى لا تنفجر أو حتى لا تهبط إلى الأرض فيلتقطها أحد السياح على سبيل الذكرى أو الاستخسار.

- 6هذا جزء من الكيمونو وهو الزي القومي في اليابان ..وهذه المخدة لكي ترتكز بها على الحائط عندما تجلس على ركبتها عند الأكل أو عند الجلوس العادي.

- 7هؤلاء جميعًا تلامذة مدارس ..فطلبة المدارس لهم زي موحد ..وهو الأسود ..أما هذه الفتاة فهي تعمل في الفندق الذي أنزل به وقد ضبطتها مرة تحاول قراءة كتاب فوق سريري ..وابتسمت أنا ..ولكنها شعرت أنها ارتكبت جريمة..

وكلما حاولت إقناعها بأن هذا الشيء تافه جدًّا ..وأحاول أن أعتذر لها عن الكتاب الذي أفسد ابتسامتها الحلوة التي كنت أراها كل صباح !فإنها تهرب مني ..وتختفي في الزحام ..ولكني أحاول اللحاق بها ولم أفقد الأمل!

* * *

نزلت أمطار الخريف!

قبل أن أسافر إلى اليابان قرأت كل النشرات الجوية ..وكل مجلات الدعاية اليابانية الأنيقة ..كلها تقول :الجو صحو ..السماء صافية ..أمطار خفيفة على الساحل ..الشمس مشرقة ..فهنا بلاد الشمس المشرقة ..وهذه أخبار سارة جدًّا.

وارتديت ملابسي الصيفية -وكل ملابسي صيفية -ودهشت عندما رأيت بعض المسافرين من هونج كونج إلى اليابان يحملون البالطوات الشتوية وبعضهم يحمل المظلات، ورأيت كل الفتيات قد ارتدين البلوفرات .فأمد يدي إلى النشرات اليابانية وأقرأ من جديد ..وأسأل المضيفة اليابانية عن الجو في اليابان فتقول :إنه رائع ..إن هذا هو الموسم السياحي ..وإنني وصلت في الوقت المناسب..

وفعلًا عندما وصلت إلى طوكيو كان الوقت المناسب لسقوط الأمطار وامتلأت الشوارع بالأوحال ..وكان المطر ينزل، كأنه فتافيت الثلج .وأحسست أنني خدعت للمرة الثانية .المرة الأولى عندما سافرت إلى أستراليا في سبتمبر ..قرأت نشرات الدعاية وكانت هي الأخرى تعلن أن الربيع في أستراليا على الأبواب، وأن الحرارة قد ملأت كل مكان وأن السائح ليس عليه إلا أن يرمي ملابسه في المطار، وإلا أن يرمي نفسه على رمال الشواطئ في مدينة سيدني ..وعندما وصلت إلى أستراليا أحسست أن الطيار قد هبط في القطب الجنوبي، وتوقعت أن أرى عربات الإسكيمو، وأن تكون المضيفات من الدببة ذات الفرو الأبيض الفضي..

ولكن المفاجأة أكبر مما تصورت ..لقد وجدت الناس في أستراليا وقد ارتدوا ملابس الصيف رغم البرودة!

وعندما هبطت في مطار طوكيو أحسست كأنني هبطت في مطار سيدني ..وبدأت أتلمس الجانب الأيسر من صدري ومن بطني ..كلها توجعني ..وخز ..وضرب، كأن هناك من يضربني مرة بالمنجل ومرة بالمطرقة ..وبعد ذلك أحسست بالألم يشيع في كل جسمي ..وكلما سألت أحد اليابانيين عن الجو العجيب قال لي ما معناه :احمد ربنا ..لو جئت هنا في الصيف لمُتَّ من شدة الحر..

وسألت إن كانت طوكيو التي تقع فوق خط 35 أكثر حرارة من جاكرتا التي تقع على خط 6 وعلى مستوى البحر ..فأجابوا جميعًا :إن اليابان أكثر حرارة .ولكنني لم أصدق فدرجة الحرارة في مدينة جاكرتا في الثامنة والنصف صباحًا تساوي درجة الحرارة في القاهرة في الواحدة من بعد الظهر في شهر يوليو ..ودرجة الرطوبة في جاكرتا 100٪ ولكن اليابانيين هنا يعتقدون أنهم في أحسن فصول السنة .ويحاولون إقناعي ويحاولون أن يفرغوا جيوبي من الأسبرين ومن الفيتامينات :سين وجيم ..وباء ..ويحاولون أن ينزعوا الفنلات الطويلة والبلوفرات الثقيلة.

وعندما ذهبت إلى سفارتنا وجدت السفير في ملابسه الصيفية ..وكل موظفي السفارة حتى الساعي ..كلهم في الملابس الصيفية ..ولم يعد هنا شك في أن الجو في طوكيو حار كما تقول النشرات ..ولكن العيب في جسمي الذي لم يعد قادرًا على مقاومة البرد..

مسكين قلبي هذا ..إنه كان قبل ذلك يشبه المضخة الكبيرة التي تدفع الدم لا إلى جسمي فقط، ولكن إلى جسم أي إنسان آخر يجلس على مسافة شبر مني ..أما اليوم فهو يشبه »جلدة القطارة ..«لا يدفع الدم إلا قطرة قطرة ..إلا دمعة دمعة ..فجسمي في حرارة دمعة العين!

* * *

لا أعرف بأي شيء كانت تشتهر اليابان فيما مضى ..كتب الجغرافيا التي درسناها كانت تقول :إنها بلاد الشمس المشرقة، ولأهلها عيون منحرفة، ويلبسون الكيمونو، ولهم ملك اسمه الميكادو ابن السماء، وهم يعبدون الشمس وعندهم براكين وزلازل، وبيوتهم مصنوعة من الخشب، ويزرعون الأرز، ويعيشون على السمك ..إلخ..

كل هذا الكلام صحيح، ولكن اليابان أكثر من ذلك وأحسن وأعظم ..فبلادهم اليوم تشتهر بأشياء أخرى ..والذي لم ير اليابان، وإنما سمع عنها يعرف أن اليابان هي بلاد الراديو الصغير واللؤلؤ..

وإذا كان هناك في بلاد أخرى مثل مانيلا أو سنغافورة أو هونج كونج من يقترب منك ويهمس في أذنك :مش عاوز بنت حلوة.

فإن هذا يحدث في اليابان أيضًا ولكنهم يسألونك :مش عاوز سوني ..سوني ..سوني ..جميل..

وسوني هذا هو اسم أكبر شركة لصناعة الراديوهات الصغيرة ..وأحسن راديو ثمنه الآن عشرة آلاف ين ..أي حوالي عشرة جنيهات.

والراديوهات الصغيرة هنا تباع في كل مكان ..في محال الأقمشة ومحال الحلوى ومحال السجائر.

والشيء الآخر الذي يلفت السائحين هنا في اليابان هو اللؤلؤ، فاليابان تستخرج اللؤلؤ من البحر وتعمل على تربية اللؤلؤ أيضًا ..فعندها لؤلؤ طبيعي، ولؤلؤ صناعي..

والعقد من اللؤلؤ الذي يلتف حول العنق مرة ومعه الحلق والخاتم ..ثمنها جميعًا 18جنيهًا ..والعقد من اللؤلؤ ذو الحبات الكبيرة ويلتف حول العنق مرتين ويتدلى إلى ما يقرب من الصدر ثمنه أربعون جنيهًا ..طبعًا في القاهرة يساوي ثلاثة أمثال هذا السعر ..أو أكثر!

ومن النادر أن نجد يابانية قد ارتدت عقدًا من اللؤلؤ ..إنها تكتفي بخاتم ..والسبب هو أن اللؤلؤ غالي الثمن بالنسبة لليابانيات فمستوى المعيشة هنا مرتفع ..ولكنه أرخص من الفليبين.

وأشهر محل لبيع اللؤلؤ هو محل ميكوموتو الذي اخترع تربية اللؤلؤ ..والمحل يعرض بكل تواضع في شارع جنزا ما يساوي عشرة ملايين جنيه من اللؤلؤ في فترينات بسيطة جدًّا وغير لافتة للنظر أيضًا.

وبعد ذلك ففي اليابان كل شيء آخر ..كل شيء صنعوه لنا ..وصغروه وأضافوا إليه الكثير من ذوقهم ..واليابانيون برعوا في »لف «السلع ..فقد تشتري قطعة من القماش أو لعبة بجنيه مثلًا أو أقل من جنيه فتجد البائع الياباني قد لفها لفًّا أنيقًا حتى ليصعب عليك أن تترك الورق والعلبة التي وضعت فيها قطعة القماش.

وإذا اشتريت من الرجل الياباني بضاعة بألف جنيه أو بعشرة قروش فإنه ينحني لك في أدب كأنك جئت تشتري المحل كله..

وقد حدث أن أعجبني أحد المحلات فدخلت في الزحام أتفرج على المحل، ووقف إلى جواري صاحب المحل في أدب وانحنى انحناءة كبيرة فهززت له رأسي ..وقلت له إنني معجب بنظام المحل وأنا جئت أتفرج فقط ..فانحنى الرجل شاكرًا وتركني ..وبعد لحظة جاءت فتاة ووقفت إلى جواري بعد انحناءة كبيرة فقلت لها نفس الكلام ..فقالت إنها تعرف ذلك ومن أجل هذا جاءت تساعدني على رؤية المحل كله ..والحقيقة أنني انكسفت فاشتريت بكرة خيط ..أي حاجة!

والانحناءة تلاحقني من اليمين والشمال ..وذهبت لأدفع ثمن البكرة؛ فانحنى الرجل ورفض أن يقبل ثمنها، وقال إن هذه هي هدية من المحل..

ولم أفهم السبب، وحاولت أن أردها ولكنه رفض في انحناء ..فأخذتها ..ماذا أعمل ..إنهم مؤدبون أكثر من اللازم..

* * *

بنات الجيشا

هناك طريقتان لكي تعرف اليابان:

الأولى أن تقرأ كل نشرات الدعاية التي توزعها السفارات.

والثانية أن تذهب إلى اليابان نفسها، لتعرف أن نشرات الدعاية متواضعة جدًّا .فاليابان أروع وأعجب مما تتصور، ففيها التلفزيون الملون، وفيها أحدث عدسات التصوير، وفيها القباقيب، وفيها يأكلون السمك نيئًا، ويشربون الشاي مرًّا إلا في يوم 8إبريل من كل عام وهو عيد ميلاد الإله بوذا، وفيها أناس يعلقون المقشات على الأبواب، فالمقشات تكنس الشرور والأمراض، وفيها سيدات ينثرن الملح بعد زيارة أي ضيف .وفي اليابان شركة طيران يابانية وفيها مضيفات يرتدين الكيمونو، وفي اليابان كل الأمهات يحملن الأطفال على الظهر حتى الثانية من عمرهم، فتلتوي ساقا الطفل، و»تتعوج «عيناه، ويصبح صدر الفتاة الصغيرة »مطبقًا «ليس فيه أثداء ..وفي اليابان أجمل فنادق الشرق الأقصى، كله، وفيها تنام على الحصر اليابانية الناعمة .وفي اليابان الدقة في العمل، وفيها البطء الشديد جدًّا في الفهم ..ورغم الاحتلال الأمريكي الذي استغرق أكثر من عشرين عامًا، فإن أكثر اليابانيين لا يعرفون من اللغة الإنجليزية إلا كلمة »توالت ..«وهي الكلمة الوحيدة التي تجدها بوضوح في كل فندق وفي كل محطة سكة حديد..

وقد تعلمت كلمة يابانية أخرى اسمها »بفمو «ومعناها »توالت«، وعرفت فيما بعد أنها كلمة فلاحي جدًّا وهي تشبه الكلمات الريفية التالية» :المستراح «أو »الكرسي «أو »المحل «أو »الكنيف «أو »بيت الراحة ..«وكلها معناها التواليت طبعًا، ولذلك عدلت عن هذه الكلمة ورحت أستخدم الكلمة الأوربية، واكتشفت بعد ذلك أن اليابانيين لا يفهمونها أيضًا، ولكي يفهموها يجب أن أنطقها بشكل خاص، وبالطريقة التي ينطقونها بها، وإلا..

* * *

وفي اليابان يعبد الناس الشمس والجبال، وقد رأيت فيلمًا يحكي قصة الشعب الياباني وكيف أنه أنزل من السماء، وأن الشمس هي التي خلقت أبناء اليابان ..وأنهم أبناء الشمس الطالعة ..وأن »اليابان «وهي باللغة اليابانية معناها »نيبون «أو »نيهون «ومعناها :الشمس المشرقة ..فاليابان هي بلاد الشمس المشرقة .والناس هنا يقدسون الجبال والبحار ..وجبل فوجي يشبه جبل الأوليمب الذي كان يسكنه آلهة الإغريق ويتحكمون في مصير العالم؛ فقمة الأوليمب وقمة فوجي هما مقر الآلهة ..ويندهش الناس هنا كيف أن الأجانب يتحدثون عن الجبال دون أن يحتشموا في كلامهم أو يجعلوا عباراتهم تنحني في أفواههم قبل أن تخرج.

وهناك حادثة مشهورة منذ مائة سنة عندما حاول أهل هذه المنطقة أن يقتلوا السفير البريطاني لأنه صعد إلى قمة جبل فوجي دون أن ينزع حذاءه، ودون أن يحني قامته الطويلة عند كل خطوة يخطوها.

وابن بطوطة يحكي أنه هو الآخر عندما ذهب إلى جبل آدم في جزيرة سيلان لاحظ أن الناس هناك قد غضبوا منه؛ لأنه لم يظهر الاحترام الكافي لقمة آدم ..وهو المكان الذي وطئته قدم أبينا آدم عندما نزل من الجنة!

وهؤلاء اليابانيون كانوا يعبدون الإمبراطور ..وكان لقب الإمبراطور هو ابن السماء ..والديانة اليابانية واسمها »الشنتوية «تقوم على تقديس الشمس وتقديس ابن الشمس وتقديس رغباته وتقديس كل حاكم وكل أب وكل جد وكل ما هو قديم ..ولذلك كان الإمبراطور إلهًا، فكانت رغبات الإمبراطور فرضًا مقدسًا ..وقد اعتمدت الحكومات اليابانية على هذا الدين، وسخرت الشعب الياباني في خدمة أغراض الإمبراطور، ونظمت الجيوش واعتمدت على كل الشعوب المجاورة لها.

ولو رأيت أهل اليابان ورأيت رقتهم وأدبهم ودقتهم وإخلاصهم في العمل وتفوقهم في كل شيء، لاندهشت ..كيف كانوا وحوشًا في الحرب الماضية والتي قبلها ..لقد سمعت قصص الوحشية اليابانية في إندونيسيا وفي الفليبين وفي سنغافورة وفي هونج كونج وفي الصين وفي الملايو وفي فيتنام وسمعت، وأنا في أستراليا، فزع الناس من العدوان الياباني، وسمعت عن الوحشية اليابانية في جزر هاواي ..سمعت ذلك من اليابانيين المقيمين هناك.

ولكن دين اليابان يأمرهم بطاعة الإمبراطور الذي هو ابن الشمس ..وقد أمرهم الإمبراطور أن يحاربوا ..فحاربوا، وأن يقتلوا وأن يذبحوا وقد فعلوا كل هذا ..لأن طاعة الإمبراطور من طاعة الله ..واليابانيون فدائيون جدًّا .وبعد الاحتلال الأمريكي تغير كل شيء، لم يعد الإمبراطور إلهًا ..لقد رأيت الإمبراطور يفتتح دورة

رياضية فضجت السينما بالضحك من الإمبراطور وهو يتهته)على فكرة :التقاليد في بريطانيا تقضي بأن الملكة أو الملك لا يلقي خطاب العرش لأن ملوك بريطانيا كانوا من أصل ألماني وكانوا لا يعرفون الإنجليزية وكانوا يخشون أن يشعر الشعب البريطاني بأنهم أجانب ..والملك فاروق آخر ملوك مصر كان يلقي خطاب العرش، أما أبوه الملك فؤاد فلم يكن يفعل لأن لغته العربية مكسرة.(!

وقد نشرت الصحف أن الإمبراطور في إحدى الحفلات سقطت من يده زجاجة شمبانيا لأنه يرتجف ولأنه مريض ..وقد سمعت المرشدة السياحية تسخر من الإمبراطور وتقول :إنه لم يعد إلهًا ..وسمعتها تقول علنًا :إن الشعب الياباني يدين بشيئين لأمريكا :تحرير العقيدة وتحرير المرأة، فلم تعد هناك ديانة رسمية للدولة ولم تعد المرأة خادمة للرجل.

ومع ذلك؛ فإن اليابانيين يكتبون كل يوم، في كل الكتب والصحف والخطابات، التاريخ الإمبراطوري ..فالعالم كله الآن يمشي على التاريخ الميلادي أو الهجري ..أما في اليابان فهم يقولون :نحن في السنة الرابعة والثلاثين ..أي السنة الرابعة والثلاثين لحكم هذا الإمبراطور، وعندما يموت هذا الإمبراطور ويخلفه ابنه يصبح الياباني هكذا :نحن في السنة الأولى للإمبراطور رقم 125، ولم يغير اليابانيون هذا التاريخ بعد!

كان الإمبراطور محرمًا على كل الناس لا يلمسه أحد، ولا يسلم عليه أحد ..والناس لا يرونه، لأنهم يخشونه دائمًا ..وقطار الإمبراطور عندما يمر على المحطات، فإن كل البيوت يجب أن تغلق النوافذ، ويجب ألا يكون في العاصمة بيت أعلى من القصر الإمبراطوري .والإمبراطور يرتدي ملابسه مرة واحدة ثم ينزعها ويهديها إلى أشد المخلصين له!

ستجد اليابان أعجب جدًّا مما تقول كتب الدعاية، وستجد أن الشعب الياباني متقدم جدًّا ومتواضع جدًّا ومتأخر جدًّا، ومغرور جدًّا..

واليابان أربع جزر صغيرة هي :هوكيدو وهونشو وتوجد بها العاصمة وكيوشو وشكوكو..

وليس في اليابان جاهل واحد ..والتعليم إجباري حتى آخر المرحلة الثانوية .وكنت أتصور أن السويد هي أرقى بلاد العالم، ولكن الأرقام تقول إن بها 1٪ لا يقرءون ولا يكتبون ..تصور !واليابان في مقدمة شعوب آسيا وفي مقدمة شعوب العالم كلها .وكثيرون جدًّا جدًّا من خريجي وخريجات الجامعات يكنسون الأرض ويمسحون البلاط .عندنا في مصر 50٪ أميون..

قابلت شابًّا يعمل في مطعم متواضع جدًّا في طوكيو، وقد انحنى على حذائي ينظفه وتركت له الحذاء، وانحنى على شبشب يقدمه لي ..ثم أسرع وأتى بمخدة ووضعها ورائي، وجلس على ركبتيه وفي يده ورقة يكتب ما أريد من الطعام، والشاب مهذب ورقيق ويعرف بعض الإنجليزية وعرفت فيما بعد أنه خريج كلية الحقوق وأن مرتبه خمسة جنيهات، وأن مثله عشرات الألوف.

وهنا في اليابان لا يرون من الضروري أن الطبيب يعمل طبيبًا، ولا دارس القانون محاميًا، ولا المهندس مهندسًا ..وإنما هو يدرس ما يعجبه أو ما يستريح له، وبعد ذلك يبحث عن أي عمل.

ويكفي أن يرى السائح الأجنبي مدينة طوكيو ويرى شوارعها الواسعة ومحلاتها الأنيقة المتوهجة، ويكفي أن يرى النظافة والنظام، وأن يتطلع إلى الناس كلهم في ملابس ملونة وصحة جيدة، ووجوههم لا تكف عن الضحك ..والضحك هنا علامة من علامات الأدب والاحترام .وكلما أمعن الواحد منهم في الضحك وهو يتحدث إليك، كان معنى ذلك شدة اهتمامه بك، حتى إذا لم يفهم ما تقوله أنت، وكل الناس هنا يضحكون لك ..في طوكيو وفي الريف ..بل هم في الريف يضحكون أكثر وأكثر.

لقد كنت في مدينة »توبا «في جنوب اليابان وهي مدينة صغيرة، ونزلت في أحد الفنادق، لا أحد فيه يعرف لغة أخرى ..وكلما تحدثت مع خادمة -كل الفنادق تديرها الفتيات الصغيرات -أغرقت في الضحك ..كلما حاولت أن أفهمها بالإشارة ما أريد ضحكت، وراحت تأتي بزميلاتها ..وفوجئت بأن كل الخادمات قد وقفن طابورًا يضحكن على الحاوي -الذي هو أنا -وأنا أمسك الكوب الفارغ وأحاول أن أشرب وأصرخ من شدة البرد ..وبالاختصار أريد أن أقول لها :عاوز أشرب شاي..

وإذا سافرت إلى نجازاكي أو هيروشيما -وهما المدينتان اللتان ضربتا بالقنابل الذرية -فلن تصدق عينيك؛ فكل شيء جديد . العمارات والمحال والشوارع، حتى الناس قد ولدوا وتربوا وكبروا وتعلموا في أماكن أخرى وعادوا إلى الحياة من جديد.

هذه اليابان كلها هدمت، أحرقت ..ضربت في الحرب الماضية ..ولكن اليوم كل شيء جديد ..كل شيء صنعه اليابانيون بأيديهم وبأموالهم وبذكائهم وذوقهم، وهم أصحاب ذوق جميل..

وشيء واضح تجده في اليابان، وهو أنهم تمسكوا بالقديم ولكن هذا القديم أدخلوا عليه تعديلات مذهلة، فهم يلبسون الكيمونو وهو الفستان أو الروب دي شامبر ولكن الألوان الجديدة والأقمشة الجديدة والأحزمة العجيبة والألوان والتفصيلات ..كلها تجددت ..لقد رأيت تسعين عارضة للأزياء في مدينة كيوتو، كلهن يعرضن أحدث تفصيلات الكيمونو ..لم أشاهد أروع من هذا العرض في حياتي ..فالكيمونو زي تقليدي ..وخصوصًا الفتيات اللاتي عرضن هذا الزي مع تصفيفة الشعر والمشية بالقبقاب وحركة الأقدام مع الموسيقى واختيار الألوان ..واللون الجميل والأحزمة العريضة والضيقة ..وكيمونو الصباح وبعد الظهر والمساء، وكيمونو الأفراح والأحزان، وكيمونو الشابات والزوجات، وكيمونو الوداع، وكيمونو الدلال والدلع ..واليابانيون يشربون الشاي الأخضر بلا سكر ويعرضون وصناعة الفناجين والأطباق والصواني وأثاث البيت الياباني البسيط الأنيق الجميل كل غرفة لها لون ولها ستائر ومخدات لامعة ..وكل ذلك فن جميل والقباقيب والشباشب من أجمل الفنون..صناعتها وأحجامها وأشكالها وألوانها وأسعارها ومادتها..

فهم يحرصون على القديم، ولكن الذوق الجميل لا يجعل القديم جامدًا ميتًا؛ فالتقاليد موجودة والأساليب الحديثة موجودة ..واليابانيون متفوقون في هذا كله، ولم يتركوا شيئًا لم يصنعوه بأيديهم ..كل ما تراه عينك من صنعهم ..عندهم معارض علمية جادة جدًّا .وعندهم محلات كثيرة جدًّا أنيقة جدًّا رائعة للعب البلي ..وعلى هذه المحلات إقبال لا يمكن أن تتصوره ..وعندهم معابد كثيرة جدًّا، وعندهم كباريهات أكثر من أي بلد في العالم ..لقد رأيت في مدينة كيوتو، وهي العاصمة، عددًا من الكباريهات أكثر من الموجودة في باريس أو في هامبورج أو مانيلا ..وكل هذه هي مظاهر الحيوية في الشعب الياباني.

وكنت أتصور أن أجد عربة الريكشا وهي عربة يجرها رجل ويركبها الناس لينتقلوا من مكان إلى آخر ..وكنت أتصور الريكشا وقد جلس السائح وأمسك بيده مظلة كبيرة، ووضع رجلًا على رجل وأمامه رجل عاري الصدر يجره هنا وهناك ليتفرج على اليابان ..إنها موجودة في إندونيسيا، بل هي وسيلة المواصلات الوحيدة في جاكرتا عاصمة إندونيسيا ..وهي موجودة أيضًا في كل مدن الهند، وكل مدن الفلبين، وفي سنغافورة، وفي هونج كونج، وفي الملايو، وفي تايلاند، وفي سيلان، وفيتنام، وفي الصين ..أما في اليابان فقد اختفت، فهنا كل وسائل المواصلات حديثة وقد صنعها اليابانيون -فهنا في طوكيو مثلًا سكك حديد حكومية وسكك حديد أهلية ..وعشرات الألوف من شركات السيارات والدراجات والموتوسيكلات والزوارق في كل أنحاء اليابان.

ولا توجد ريكشا واحدة -آسف توجد ثلاث ريكشات في متحف طوكيو!

وكنت أتصور أن أجد اليابانيين يلبسون الكيمونو ..الرجال والنساء ..لم أجد رجلًا واحدًا يلبس الكيمونو إلا في غرفة النوم، والانتقال من غرفة النوم إلى دورة المياه .فالكيمونو قد تحول إلى روب دي شامبر .أما المرأة اليابانية فهناك كثيرات يرتدين الكيمونو وأصبح منظرهن غريبًا جدًّا في شوارع المدن الكبرى .فبين كل عشر

فتيات يرتدين الفستان والبنطلون توجد اثنتان ترتديان الكيمونو، وبين كل عشر فتيات حلقن شعرهن على الطريقة الأوربية ..توجد واحدة شعرها طويل ومسترسل على ظهرها، وواحدة شعرها طويل معقود وراء رأسها..

والسبب هو أن الفتاة اليابانية قد دخلت الحياة بصورة مشرفة للمرأة ..فالفندق الذي أنزل فيه واسمه »دايتشي «ومعناه »الدرجة الأولى «أو »الفندق البريمو «لا يوجد به رجل واحد ..فالإدارة بنات، والشيالات بنات، وعلى فكرة يوجد شيال واحد في جميع محطات سكك حديد طوكيو -وفي الأسانسير والمطبخ والغسيل والمكوى بنات ..في كل الفندق بنات ولا تزيد أعمارهن على 20سنة .وكذلك دور السينما والسكك الحديدية والترام والزوارق والمعارض والمطاعم والمقاهي والكنس ومسح البلاط .فالفتاة اليابانية تعمل في كل شيء ..والكيمونو لا يساعدها على الحركة، فألقت الكيمونو وارتدت البنطلون والقميص والفستان، ومعظمهن يرتدين الچوب والبلوزة ..والمحلات الكبرى مثل عمر أفندي أو شيكوريل كلها بنات ..ولا تجد رجلًا إلا نادرًا جدًّا ..حتى البارات والكباريهات كلها بنات ..ومحلات الشاي كلها بنات..

الحقيقة أن المرأة الآسيوية أحسن من المرأة الإفريقية، والمرأة اليابانية أحسن امرأة في آسيا.

وكنت أتصور أن أجد الجيشا في الشوارع، وفي الحدائق يركبن عربات الريكشا ..وكل واحدة قد عقدت شعرها الأسود الطويل الناعم حول رأسها، ومن هذا الشعر تخرج الورود واللآلئ، وفستانها الكيمونو الطويل قد ضغط عليها وعصرها وكاد يخرج أحشاءها لولا أنها غطت هذه الأحشاء بحزام عريض لونه أحمر ..وكنت أتصور قبقابها الذي يصلح لطفل صغير، وابتسامتها المرسومة على شفتيها الرقيقتين، وعينيها المنحرفتين تنظران ناحيتي وكأنهما تنظران إلى كل شيء عن يميني وعن شمالي؛ أما أنا فكأنني غير موجود..

لم أجد في طوكيو جيشا واحدة في أي شارع ولا أي مطعم ولا أي بيت..

اختفت الجيشا من حياة اليابان كلها..

فعندما صدر قانون إلغاء البغاء في اليابان في إبريل سنة 1958تضمن هذا القانون إلغاء نظام الجيشا، واندهشت عندما علمت أن القانون يجمع بين الجيشا وبين البغايا ..وكان الإلغاء على الورق فقط؛ فالدولة لم تلغ البغاء -ولن تستطيع -ولكنها اعترفت بنظام البغاء، وبقي البغاء كما هو ..ومنذ أيام صدر بحث علمي يتهم الحكومة بأنها هي المسئولة عن انتشار الأمراض الخبيثة، فلا البغاء اختفى ولا نظام الجيشا اختفى أيضًا.

ونظام الجيشا قديم جدًّا في اليابان، إنه يرجع إلى حوالي ألف سنة .فتاة الجيشا فنانة أولًا، تعرف الرقص التقليدي والغناء، وتحسن الكلام، وقادرة على تسلية الضيوف .وتتعلم هذا الفن وهي طفلة صغيرة .وكلمة »جيشا «مأخوذة من كلمتين :جي ومعناها فن، وشا ومعناها صاحبة؛ أي صاحبة فن؛ أي فنانة.

ومنذ مئات السنين كانت فتيات الجيشا يعشن في قصور الملوك والأمراء والأغنياء ..عندما يقيم الأمير أو الرجل الغني حفلة غداء أو عشاء فإنه يدعو فتيات الجيشا ..فتيات جميلات قادرات على إدارة الحديث، وتقديم الطعام وإشاعة المرح والجمال في الجلسة ..فقط، نعم فقط ..فكل مواهب الجيشا هي أن تقوم بدور المضيفة الممتازة.

وبعد ذلك انتقلت الجيشا إلى العمل خارج بيوت النبلاء والأمراء، ففي اليابان بيوت الشاي» -المشهى «على وزن المقهى، وهذا التعبير من عندي ولم أستأذن فيه المجمع اللغوي -حيث توجد الحياة الاجتماعية اليابانية ..ويلتقي الناس ويتحدثون .فالمشهى يشبه المقهى المحترم أو يشبه النادي العائلي ..وصاحب المشهى لكي يجذب زبائنه إلى التردد على هذا المشهى يدعو الجيشات لتقديم الشاي ..وبعد أن يقدمن الشاي والغناء والموسيقى ويتحدثن في السياسة والأدب والفن، يعدن إلى بيوتهن؛ وعلى الزبون أن يدفع لصاحب المشهى مبلغًا نظير وجود هؤلاء الجيشا، وإذا أراد من الجيشا أن تبقى وقتًا أطول كان عليه أن يدفع أكثر وأكثر.

وقد دفعت مبلغ ثلاثين جنيهًا لكي أجلس مع ثلاث جيشات ..أقوم أنا وصديق آخر بدور الزبائن تمهيدًا لتصويرها ..وبدأت الحفلة -طبعًا حفلة -بأن ذهبنا إلى أحد المشاهي في حي أساكا في مدينة طوكيو، والمشهى عاديّ جدًّا من الخارج ..مدخله من الخشب، وعلى الباب بعض الأشجار وصف طويل من الشباشب، وقد تعودنا على هذه المناظر .ونزعنا أحذيتنا وكادت أقدامنا ترتطم ببعض الرءوس التي انحنت إلى مستوى الأحذية ..إنهن خادمات بيت الشاي قد سجدن تحية لنا ..وبعد السجود بدأ الركوع، وبعد الركوع بدأ الانحناء بالرأس ..وأخذت الخادمات أحذيتنا والبلاطي ..وصعدنا سلمًا من الخشب النظيف اللامع جدًّا، وفي الدور الأول فرشت الحصيرة اليابانية الدقيقة، وأما أبواب البيوت اليابانية فهي لا تنفتح إلى الداخل أو الخارج، وإنما تنزلق على مجرى وتلتصق بالحائط ..والبيت الياباني بسيط جدًّا ..كله من الخشب والورق ..والنوافذ خشب ..ويغطيها الورق الأبيض المقلم أو المشجر ..وعلى الرغم من أن البيوت كلها من الخشب فعلب الكبريت متناثرة في كل بيت وكل غرفة وكل مطعم وكل فندق وفي السيارات التاكسي وكلها مجانًا ..لأنها جميعًا إعلانات..

وفي جانب من الغرفة توجد منضدة واطئة وأمامها شلت ..وجلسنا متربعين .وبعد لحظات حضرت بنات الجيشا ..ويجب ألا نقف أو نتعب أنفسنا ..وقد سجدت كل واحدة منهن إلى جوار واحد منا ..وبدأت حفلة الغداء، كل واحدة قدمت لنا الشاي الأخضر ..والشاي في فنجان، ومع كل فنجان ليس له أذن -انحناءة تكسر الظهر -انحناءة منها طبعًا .ويجب أن تشرب الشاي، إنها مسألة ذوق، ثم إن الجيشا شكلها لطيف، يعني حلاوتها انتقلت إلى الشاي ..اشرب ..اشرب ..وقد شربت برادًا.

وفي هذه الأثناء تتناثر على المنضدة أمامنا فناجين وطقاطيق وقصاري -قصاري أطفال صغار -وأنصاف أكواب وثلاثة أرباع أطباق، وفيها جميعًا سوائل غريبة اللون ..وقبل أن تمد يدك يجب أن تمسك الفوطة الساخنة التي أحضرتها الجيشا لكي تمسح يدك وأنت جالس -كما يحدث في الطائرة عادة -وبعد ذلك عليك أن تأكل بالعصا ..لا ملاعق ولا شوك ولا سكاكين ..وإنما عودان من الخشب يجب أن تمسكهما بيدك اليمنى كأنهما مقص سقط مسماره، وعليك أن تتناول بهما الأرز واللحم والسمك ..طبعًا المحاولات فاشلة، فأكلنا بالشوك والسكاكين ..وبنات الجيشا يضحكن عند كل حركة وكل لقمة وكل مضغة، ولم أجد واحدة منهن عند كل مغص شعرت به بعد ذلك!

وأنا أترجم لك هذه الأدوات الغريبة :كلها أطباق وسلاطين، أما السوائل فهي شوربة أم الخلول وشوربة الجمبري وشوربة أبو جلامبو ..وأما اللون الأحمر في كل هذه الشوربات فهو بصل محروق بالسكر ..وأما هذا الأبيض الواضح جدًّا فهو أرز مسلوق ومن غير ملح ..وأما هذا الأصفر الذي يشبه البصارة إذا وضعت فيها بعض الكركم، فهو عصير الجمبري مع السمك النيء ..نسيت أن أقول إن كل هذا الأكل بارد جدًّا.

والتقاليد تقضي بأن الجيشا لا تأكل ولا تشرب إلا بعد أن تكون أنت قد ملأت بطنك .وأما إذا لم تملأ بطنك -مثلنا جميعًا -فهي تغضب وتأخذ على خاطرها ..ولو عرفت كيف أنها تغضب لامتنعت عن الأكل نهائيًّا ..إنها تجلس إلى جوارك وتتمايل عليك وتطبطب على خدك وعلى كتفك إلى أن تتقاسم الأكل بينك وبينها ..ملعقة بملعقة ..نصف الملعقة لها، ونصفها الآخر لك.

هذه هي التقاليد ..وليست هذه المعاملة خاصة لشخصي.

وبعد الأكل قامت ورقصت وغنت .أما الرقصة فلها قصة، وهي قصة فتى وفتاة فى حالة حب شديد ..وخرجا في الليل يصيدان الفراشات الصغيرة في ضوء القمر، وكل واحد منهما يحاول أن يمسك الفراشة بيده دون أن يقتلها ..وفي كل مرة يمسك الشاب فراشة يلاحظ أن عشرين فراشة أخرى قد ظهرت تحت ضوء القمر ..ويكتشف أن السبب هو أن أنفاس حبيبته تتحول إلى فراش تحت ضوء القمر ..وعلى ذلك فمن الأفضل له أن يمسك أنفاس حبيبته ..ويمسك أنفاسها بفمه -هذا الجانب من الرقصة لم أره، وإنما قرأت عنه فقط!

وكانت تجلس معنا على نفس المائدة صاحبة المشهى وابنتها ..أما فتيات الجيشا الثلاث فأسماؤهن :فوميكو وشودايايا وأرميتا 19 ..سنة و 20سنة و 29سنة .والأولى تظهر في التلفزيون ..وكان في نيتي أن أداعبها وأهديها

فرشة أسنان لولا أنني وجدت أنها نكتة سخيفة وقاسية جدًا، وربما كان صفار أسنانها لأسباب فنية، فقد لاحظت اختفاء اللون الأصفر من فستانها وشعرها ..فربما كان السبب هو إكمال مجموعة الألوان.

والتجار عندما يعقدون الصفقات المالية يذهبون إلى بيوت الشاي، وكانت الجيشات فيما مضى يلعبن دورًا أساسيًّا، كدور العشيقات في أوربا.

وحتى الوفود الرسمية عندما تحضر إلى طوكيو تدعوها الحكومة اليابانية رسميًّا لزيارة أحد المشاهي والجلوس إلى الجيشات ..وهذا تقليد معترف به ومحترم هنا.

وكان الزمان المحدد لهذه الحفلة ساعتين، وبعد ساعتين وأربعين دقيقة اعتذرت الجيشات وخرجن في سجود وركوع وانحناء ..وبعد ذلك جاء الحساب.

أولًا حضور الجيشا وتشريفها مجلسنا هذا يساوي خمسة جنيهات، ثم ثمن الطعام وتقديم الطعام والضريبة وإيجار الغرفة والتأخير الذي حدث بعد الزمن المحدد.

وقد قالت لي إحدى الجيشات :نفسي أشوف القاهرة.

قلت :أهلًا وسهلًا..

قالت :على حسابك.

قلت :هناك ما هو أصعب.

قالت :ماذا؟

قلت :المسافة بيننا وبين القاهرة الآن حوالي 48ساعة بالطائرة و 48يومًا بالباخرة ..وإذا كانت الساعة التي أتشرف فيها بالجلوس إليك ثمنها عشرة جنيهات ..فأنا لا أستطيع .ولكن سأطلب من القراء أن يساهموا في دعوتك إلى القاهرة ولو ساعة ..حاضر ..من عيني دي وعيني دي.

وعدد الجيشات في طوكيو قليل جدًّا ..والحياة الحديثة والكباريهات الأنيقة المغرية قضت على هذا النوع من الحياة القديمة ..ولكن الأغنياء السياح هم الذين يحرصون على رؤية الجيشات.

ومركز الجيشات في اليابان كلها هو مدينة كيوتو ..وهي تبعد عن طوكيو حوالي 300كيلو، وكانت العاصمة القديمة لليابان مئات السنين ..أما طوكيو -ومعناها العاصمة الشرقية -فهي لم تصبح عاصمة إلا أخيرًا .ومدينة كيوتو لم تتحطم في أثناء الحرب، ففيها أكثر من ثلاثة آلاف معبد بوذي ومعبد شنتوي، ومدينة كيوتو مدينة سياحية أيضًا .وفي كيوتو محطة سكك حديد كبيرة جدًّا ..وبهذه المحطة عشرات المحلات التجارية للصناعات اليابانية، وهذه المحلات تشغل الطابق العلوي لكل المحطة، وفي هذه المحلات توجد الصناعات الخشبية التي برع فيها أهل اليابان، وتوجد المنتجات الرخيصة جدًّا .وقد لاحظت أن هناك عددًا من الراديوهات الصغيرة -وهي الموجودة الآن -وأن هذه الراديوهات لم نرها في طوكيو، وعرفت أن هناك شركات كثيرة في اليابان لصناعة الراديو ..وهي تشبه شركات بيع المياه الغازية في القاهرة ..وأشهر وأكبر محل في كيوتو؛ وهو مكون من أربعة أدوار صغيرة جدًّا، هذا المحل للعب البلي.

وفي مدينة كيوتو صناديق الليل -آسف إنها »علب كبريت «الليل -لأن البارات هنا صغيرة جدًّا فالواحد لا يزيد على حجم سيارة أتوبيس إذا وقفت على بوزها .الدور الأول بار والدور الثاني غرفة للنوم، وفي غرفة النوم هذه تسمع صوت فتاة تقرأ بصوت عال ..إنها تذاكر وتحاول أن تعزل نفسها عن أصوات الذين يشربون الخمر في الدور الأرضي.

ملحوظة :اليابانيون لا يتحدثون ولا يضحكون بصوت عال أبدًا ..حتى لو كانوا سكرانين طينة ..أدب!

وهذه »العلب «الصغيرة عددها عشرات الألوف هنا..

وفي مدينة كيوتو يوجد حي »جبون «أو حي »شيون ..«وهو أغرب أحياء اليابان كلها ..كل هذا الحي تسكنه بنات الجيشا ..عدد الجيشات هنا 500فتاة من بينهن على الأقل 200فتاة حلوة في سن العشرين .وأستطيع أن أقول إنني رأيت منهن حوالي 90جيشا جميلة ..لقد ترددت على أكثر من 15بيتًا من بيوت الشاي، بقصد الفرجة، وكتابة هذا الكلام.

كانت الساعة التاسعة صباحًا ..ومعي صديق وثلاث آلات تصوير، ألوان ومن غير ألوان ..هو يسعل من البرد وأنا أعطس ..والشمس تطلع وتختفي ..تطلع فيختفي الزكام، وتختفي فيطلع الزكام من عيني ..البيوت كلها مقفلة ..البيوت خشبية ..والنوافذ مجموعة من الأعواد الخشبية ومن ورائها تتحدث النساء ..لم نر رجلًا ولا طفلًا ولا امرأة ..كل البيوت مقفلة..والدنيا برد ..ذهبنا إلى أحد المطاعم وشربنا الشاي والناس يتثاءبون، وفي الساعة الحادية عشرة بدأت البيوت الخشبية تفتح أبوابها ..كأنها هي الأخرى نائمة، وكأن أجفانها ثقيلة ..على الأبواب توجد علامات غريبة ..علامات مطبوعة..زرقاء وحمراء وبيضاء ومكتوبة باليابانية ..وكلها خارج البيت ..حتى إذا جاء موظف النور لا يوقظ أهل البيت الذين لا يصحون إلا في الثانية عشرة..لأنهم طول الليل يشربون ويرقصون ويغنون ..كل الناس هنا هكذا..

وبدأت الخادمات يجمعن الزبالة وبدأت محلات الفاكهة تضع الأقفاص أمام الأبواب .ويوجد في كيوتو جزمجي واحد لأنه لا يوجد أحد يرتدي الأحذية، فالنساء يرتدين القباقيب ..وعلى رأس كل شارع يوجد »قبقبجي «وأمامه طوابير من القباقيب.

وبيوت الشاي أو المشاهي هنا ليس لها عدد؛ فكل بيت هو في نفس الوقت مشهى ..وهذه تجارة مربحة؛ فقد لاحظت أن أصحاب هذه البيوت لهم سيارات كبيرة وعندهم أجهزة تلفزيون ويضعون في أصابعهم الخواتم الذهبية وفيها حبات من اللؤلؤ ..وبعضهم يدخن السجاير الأمريكية الغالية.

وفي الساعة الواحدة بدأت فتيات الجيشا يخرجن من البيوت ..فتيات الجيشا هنا يرتدين الكيمونو والقبقاب ..ورأسها كبير، والشعر على رأسها في حجم البطيخة ورأسها أثقل من جسمها، والكيمونو ضيق وخطواتها ضيقة، وحتى لا يتكسر الكيمونو فإنها لا تجعل قدميها تنفتحان إلى الخارج، وإنما تجعلهما تتجهان إلى الداخل ..فهي تمشي تقفز أو تنط وتكاد ساقاها تلتف الواحدة على الأخرى ..والبودرة أو الجير الذي وضعته على وجهها وخصوصًا قفاها، ثقيل جدًّا كأنها نامت طول الليل في شوال دقيق، وأما رأسها فوضعته في حلة كحل ..والجيشا إذا نامت فهي تضع رأسها على مخدة مستديرة تشبه جذع النخلة والمخدة محشوة بالأرز غير المسلوق ..والمخدة تستقر تحت رقبتها، والسبب هو أنها تخاف على تسريحة شعرها أن تفسد ..فالتسريحة غالية.

وأول شيء تعمله فتاة الجيشا ..هو شعرها ..تسرحه وتضع عليه بعض الزيوت التي تجعل الشعر مشدودًا واحدة واحدة ..ثم تضع البودرة أو هذا الجير على وجهها ..وبعد ذلك يجيء شيء مهم هو اختيار الكيمونو المناسب ..إن أية فتاة ترتدي فستانًا وتدور وتلف به أمام المرآة وتطلع فوق الكرسي، وأحيانًا فوق السرير لكي ترى حذاءها الجديد في المرآة ..ولكن الجيشا مشكلتها أصعب، فهي لا تختار الكيمونو، وإنما تختاره لها سيدة كبيرة، كانت فيما مضى فتاة جيشا..

ولكنها الآن قد قصت شعرها واكتفت بخدمة الجيشات ..وقد تستغرق عملية الاختيار ساعة أو أكثر ..وقد تشترك فيها بنات الجيران ..والجيشا ترتدي الكيمونو وتحته قميص حرير وردي أو لونه بلغة الفلاحين كلون لحم الهوانم، وكل بنات الجيشا يخترن هذا اللون ..وتحت القميص واحد آخر أبيض وشفاف جدًّا ..إلى هنا وبس!

وأول عمل تقوم به الجيشا بعد ذلك هو أن تذهب إلى المشاهي التي كانت معزومة فيها في اليوم السابق وتفتح الباب وتنحني وتشكر صاحبة المشهى على عزومة الأمس ..وهي في الطريق هدف لعيون الناس ..وهي تجربة صعبة ..ولسان الناس طويل وقد سمعت بعض الناس يقولون:

دي مش شايفة ..يعني كان لازم تتقل في الشرب ..دي تخينة وقدمها كبيرة!

وبين الحين والحين تتلفت حولها وتنحني راكعة ..مع أنه لا يوجد أحد في شارع أو في باب أو في شباك ..ولكن يوجد معبد صغير أمام بعض البيوت، وهذا المعبد لا يزيد على صندوق الكوكاكولا ..ومعظم البيوت في اليابان بها معابد خاصة للصلاة ..ويوجد أحيانًا معبد لدينين مختلفين، كل ذلك في بيت واحد ..وكل أفراد الأسرة يصلون في المعبد معًا.

وعدد السيارات التي تنتظر الجيشات كثيرات ..فالجيشات مدعوات على الغداء أو على الشاي أو على العشاء.

وقد خرجت مع اثنتين من الجيشات وذهبت إلى إحدى الحدائق العامة، ولم يدر ببالي أن اليوم كان عطلة رسمية وكل الناس خرجوا لهذه الحديقة ..وكل واحد معه كاميرا ..فالكاميرات رخيصة في اليابان ..وكل الناس ينحنون لي ويستئذنون في تصوير بنات الجيشا ..كل ذلك في مدينة كيوتو وهي مركز النشاط الجيشوي في كل اليابان ..ومعنى ذلك أن الناس لا يرون الجيشات عادة ..لأن الجيشات يعملن في الليل، وفي المشاهي، ولا يخرجن إلى الشارع إلا نادرًا، وإلا في ظروف خاصة.

وقد لاحظت أن هناك عددًا من بنات الجيشا يجلسن صامتات ..لا يتكلمن مع الضيوف ..وظننت أن السبب ربما كان اللغة ..فنحن لا نتكلم مع الجيشا إلا عن طريق مترجم ..ولكني رأيت الزبائن كلهم من اليابانيين ..أما السبب فهو أن كل شيء له ثمن ..فالجيشا إذا جلست فقط دون كلام فلهذا ثمن، وإذا تكلمت فله ثمن، وإذا أكلت فله ثمن، وإذا رقصت، وإذا غنت، وإذا خرجت مع الزبون، وإذا تفسحت على الآخر ..فالثمن غال جدًّا.

وفي كيوتو مدرسة لتعليم الجيشا ..ويبدأ التعليم في الثالثة من العمر وأحيانًا من الخامسة، وتعليم فتاة لكي تكون جيشا في اليابان يشبه تعليم فتاة لتكون ممثلة في أمريكا ..لا عيب فيه، بل إنه نوع من التأهيل المهني ..والفتاة الصغيرة تتعلم الرقص والغناء وتقديم الطعام والانحناء للضيوف ..وكل الأطفال في اليابان حتى في السن التي لا يعرفون فيها المشي ينحنون تحية وشكرًا.

أذكر أنني أعطيت طفلًا تحمله أمه على ظهرها بعضًا من حبات أبو فروة وشكرتني الأم ..ودار بينها وبين طفلها كلام لا أفهمه ..ثم صارت تصرخ والطفل لا يستجيب، وأخيرًا أنزلت الطفل من فوق ظهرها ووضعته على الأرض ..وكانت المفاجأة ..أن الأم تسند الطفل حتى لا يقع وهو ينحني انحناءة كاملة ليشكرني!

والانحناءة فن مؤلم ..لقد انكسرت ظهورنا هنا من رد التحيات رغم أننا نصهين كثيرًا جدًّا.

ولا تزال مدينة كيوتو هذه تحتفظ بتقاليدها القديمة ..فالفوانيس في الشوارع كرات حمراء من الورق الرقيق .والبيوت تشبه الدكاكين ..وأبوابها عريضة ولا يقفلونها .والمعابد كثيرة ..وكل من يدخل المعبد يصفق بيديه لكي ينبه إلى أنه قد حضر ..ثم يمسك في يده مقشة ويهزها ..وهذه المقشة تكنس متاعبه وهمومه.

والفنادق كلها نوم على الأرض ..والحمام الياباني مؤلم جدًّا ..فهو عبارة عن حوض كبير يمتلئ بالماء الساخن ..ويجب ألا تنزل في الحوض ..وإنما تمسك علبة خشبية ..وتضع فيها بعض الماء الساخن ثم تضع عليه بعض الماء البارد وتصب على رأسك ..وكلما فرغت العلبة أعدت هذه العملية من جديد..

أما الفوطة فهي صغيرة في مساحة هذه الصفحة ..ويجب ألا تنزل في الحوض،لأنه ليس لك وحدك وإنما لكل نزلاء الفندق ..وإذا أصابك برد لأي سبب والأسباب هنا كثيرة :كالنوم على الحصيرة واللحاف القصير، والمخدة الصغيرة الجافة والمحشوة أرزًا يابسًا، والأكل البارد، والزكام المزمن عند كل الجيشات ..فالعلاج بسيط هو أن

تنام وتغطي رأسك باللحاف وتضع المخدة فوق اللحاف وتكتم أنفاسك ..واليابانيون يؤكدون أن البرد يختفي حتمًا بعد ثلاث ليال.

وفتاة الجيشا في كيوتو لا تكسب كثيرًا، إن دخلها في الشهر الواحد لا يزيد على عشرة جنيهات ..أما الذي يفوز بالنصيب الأكبر فهو صاحب المشهى ..ثم إن فلوس الجيشا كلها ضائعة على فساتينها وعلى شعرها وعلى المساحيق البيضاء والحمراء وعلى القباقيب.

وبعض بنات الجيشا يتزوجن من بلطجية، وطبعًا تستمر حياتهن الفنية ..وهي ليست فنية جدًّا كما كنت أتصور!

ولكن لا شك في أن البنات حلوات ورقيقات وفي غاية الأدب ..ومن السهل أن تأخذ الواحدة منهن عليك؛ فلا تمضي ساعة حتى تكون كأنها تعرفك من عشرات السنين..

وعندما خرجت من المشهى مدت كل جيشا يدها ووضعت أصبعها الأصغر حول أصبعي الأصغر وقالت:

اتفقنا..

ولم أفهم، فهذا يشبه الخصام عند الأطفال ..ولكن عرفت أن هذا معناه الاتفاق في اليابان، وأن الذي يخل بالوعد فستنكسر أصبعه ولو بعد حين..

وفي اليوم التالي ذهبت لتوديع الجيشا، لا لأني أخاف على أصبعي ولكن لأنني سلمت على بنات الجيشا بكلتا يدي وأنا أخاف أن أفقد يدي بعد سفري من كيوتو!

والحقيقة أنني لا أستطيع الوفاء بكل ما وعدت به بنات اليابان وبنات البلاد الأخرى!

* * *

بلد الرجال أيضًا!

أنت لم تر أجمل ما في آسيا إذا لم تذهب إلى اليابان ..أنت لا تقدر معنى الذوق الجميل في اللبس والنوم، في البيت وفي الشارع، إذا لم تذهب إلى اليابان ..أنت لا يمكن أن تتصور كيف أن شعبًا »محتلًّا «يستطيع أن يصنع المعجزات ويتحول من تجار أسماك إلى تجار قطارات وسفن وراديوهات، إذا لم تذهب إلى اليابان..

أنا لم أعرف أن طفولتي كانت تعيسة، وأنها كانت كطفولة الدجاج في الحارة أو الكلاب الضالة إلا عندما ذهبت إلى اليابان، فقد رأيت أسعد طفولة..

رأيت أطفالًا في ملابس رجال، ورأيت رجالًا في سعادة الأطفال.

* * *

اليابان بلد الرجال .الرجل فيها محترم جدًّا ..والمرأة مكانها في الدرجة الثانية في المدن، والثالثة في الريف والرابعة في الجبال..

ولكن المرأة اليابانية هي أطيب امرأة في العالم كله ..تقنع بالقليل، الكلمة تكفي، الانحناءة تكفي، جانب من المتعة، جانب من الفراش، جانب من اهتمامك، كل هذا يرضيها .ولذلك فالرجل الياباني لا يتعب كثيرًا في حياته الزوجية ..فزوجته تنتظره دائمًا، راكعة على ركبتيها حتى يعود من العمل ..لا تأكل إلا إذا جاء، وإذا جاء أكلت بعده .إنها تطعم زوجها ثم الأولاد الذكور ..وبعد ذلك الإناث ..وتأكل هي ما تبقى من أفراد الأسرة كلها.

وإذا دخل الحمام سبقته إلى الحمام لتعد له الماء والقبقاب والكيزان، وبعد ذلك تنحني في أدب وكسوف وكأن زوجها رجل غريب وكأنها خادمة عنده، ويدخل الزوج وتقف هي وراء الباب تنتظر أوامر الزوج،ولو »سهاها «الزوج ومات فإنها لن تدخل الحمام إلا إذا ناداها من الداخل!

ويحدث في كثير من الأحيان أن الزوج عندما يموت لا تدخل الزوجة غرفته إلا إذا طلب إليها أحد أقاربه أن تدخل..

وربما كان سبب ارتفاع نسبة الوفيات بين الرجال، هو أن عزرائيل عندما يتقدم ليقبض روح الزوجين، تتأخر الزوجة، فيموت زوجها في الأول!

ومهمة المرأة اليابانية ثقيلة ..إنها تقوم بكل شيء في البيت، وخارج البيت ..فهي الزوجة وهي الأم وهي المربية التي تشتري وتبيع وتنتظر الزوج وكأنها لم تتعب ولم تخرج ولم تدخل .ويجيء الزوج الياباني مكشر الوجه لتستقبله ابتسامة عريضة على وجه الزوجة، وليس من المفروض أن الزوج يرد على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى أكبر أو أعرض، وإنما عندما يراها يزداد تكشيره ..كأنه يقول لها :أنت نايمة طول النهار وأنا دايخ ..اضحكي يا أختي اضحكي ..ضحكت لك السنبلة والضربة المستعجلة -شتيمة ريفية مصرية تذكرتها في اليابان!

والزوج الياباني يشبه كل زوج في الدنيا، هو يتصور أن زوجته لا تتعب ولا تبذل أي مجهود ..وأن كل مهمتها في الدنيا، أن تستحم وتضع الأحمر والأبيض والعطور، وتنتظر بسلامته عندما يعود ..هذه كل مهمة الزوجة في نظر أي رجل ..يعني مهمة الزوجة هي »الترفيه «عن الزوج كأنها إحدى بنات الجيشا!!

ولكن الرجل الياباني أكثر أدبًا وأكثر رأفة ..وأكثر حبًّا للبيت والأولاد وأكثر وفاء للزوجة..

والبيت الياباني والزي الياباني يدلان على المرأة اليابانية..

فالبيت بسيط وأنيق ..وكل شيء فيه مصنوع وموضوع بذوق ..والألوان مريحة للعين ..والخطوط كلها رأسية أو أفقية متقاطعة ..يكفي أن تنظر للقباقيب وترتيبها والمخدات ونظامها، لتعرف أن كل شيء هنا يتم بتفكير وذوق.

والمائدة اليابانية غريبة وعجيبة ..يمكن طعم الأكل يقرف ويدوخ ..ولكن تقديم الأكل ونظامه يريحان ..طبعًا أنا لا أنصحك أن تأكل كما فعلت أنا ومرضت وتعذبت .ولكن انظر كيف يقدمون لك أطباق صراصير البحر ..إن الاسم يجعلك تهرب ..ولكن طعمها لا بأس به؛ فهي مسلوقة باردة ..ولكن نفسك »تنعدل «إذا شربت معها شايًا أخضر بلا سكر..

المهم تقديم الطعام ..أطباق صغيرة الواحد وراء الآخر، ومع كل طبق انحناءة من سيدة البيت وابتسامة عريضة جدًّا تجعلك تأكل أصابعك، والسبب الحقيقي الذي يجعلك تأكل أصابعك هو أنها ألذ من الصراصير ..واللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش!

وفي الأعياد، ينقلب البيت الياباني إلى مولد ..إلى مهرجان ..الألوان والعرائس والتماثيل والملابس ذات الألوان الحمراء والزرقاء، والوردة الكبيرة والنقشة العريضة ..وفي كل المواسم والأعياد تجد »السمك «الملون في كل مكان ..لا بد أن توجد أوراق على هيئة سمك ..فقد كان اليابانيون من ألوف السنين يهدي الواحد منهم إلى جاره الأسماك التي اصطادها من البحر ..الأسماك النيئة الجافة ..وتغيرت الدنيا ولم يعد صيد السمك هو التجارة الوحيدة في اليابان ..فهناك ألوف المصنوعات والهدايا ..وانسحب السمك من الأعياد وأصبح رسمًا على الورق الذي يلفون فيه الهدايا..

والعيد الذي تكون فيه المرأة اليابانية مشغولة جدًّا هو يوم رأس السنة؛ فهو أهم الأعياد في اليابان .ففي يوم رأس السنة لا تعمل المرأة أي عمل ولا يجب أن تشغل نفسها بأي شيء ..ولكن هناك شيئًا مهمًّا جدًّا يجب أن

تعمله ..يجب أن تضع تحت رأس كل فرد من أفراد الأسرة ورقة ..والورقة مكتوب فيها أمنية، وهذه الأمنية مكتوبة على شكل أغنية، والأغنية تقول:

ادخل يا خير .اطلع يا شر ..وداعًا يا سنة فاتت ..أهلًا يا سنة جاية ..يا إلهي لا تنقص عددنا ..ضاعفه .واجعلنا نزيد ونزيد ..ولك الشكر.

وهناك طقوس خاصة لوضع هذه الورقة تحت الرأس.

وفي الصباح تنهض الأم في ساعة مبكرة جدًّا لتنزع هذه الورقة من تحت المخدات ..وتظل جالسة حتى ينهض جميع أفراد الأسرة ..ولا بد أن يكون كل واحد منهم قد رأى حلمًا في نومه ..هذا الحلم مهم جدًّا ..لأنه عبارة عن ملخص لما سيحدث له بعد ذلك في العام الجديد ..ومهمة الأم أن تفسر هذه الأحلام، وأن يكون تفسيرها للأحلام جميلًا لتملأ نفوس أبنائها بالأمل في حياة أحسن ..وبعد ذلك تنام الأم بعد أن اطمأنت على مستقبل جميع الأفراد.

وقبل أن تنام كل ليلة يجب أن تصلي لله ..وهي تعبد الله في معبدين .وكل ياباني له دينان لا دين واحد ..وفي كل بيت ياباني يوجد نموذجان صغيران لهذين الدينين ..ولذلك فاليابانيون لا يذهبون إلى المعابد كثيرًا لأن المعابد عندهم في البيوت ..والأم هي أكثر الناس وقوفًا أمام المعبد..

والمرأة اليابانية هي أم قبل أن تكون زوجة أو صديقة ..وأول شيء تريد أن تحققه للزوج هو أن تنجب له عددًا من الأطفال .ومعظم الخلافات بين الشبان والشابات قبل الزواج سببها أنهما مختلفان على عدد الأولاد ..مع أنهما لم يتزوجا وقد يؤدي الخلاف إلى الانفصال.

ومقياس الجمال في اليابان هو :أن تكون المرأة نحيفة ضيقة الصدر والأرداف، صغيرة اليدين والقدمين، ولها وجه بيضاوي وأن يكون شعرها أسود، وأن يكون صوتها منخفضًا، وإذا مشت أحنت رأسها، وإذا نظرت إليك لم تحملق فيك..

الجيل الجديد في اليابان عندما يجلس معك لا ينظر إليك؛ لأنه قد نظر إليك قبل أن تجلس إليه ولأنك لا تملأ عينه!

وعلى أثر الاحتلال الأمريكي ظهرت فتيات ذوات شعر أصفر وعيون خضراء ولا يرتدين القباقيب ولا يتعوجن في الكيمونو، ويفضلن النظر إلى نجوم السماء على النظر إلى الأرض ..واليابانيون ينظرون إلى هذا الجيل المتأمرك نظرة استخفاف، وعدم احترام ..أنا أعتقد أن هذا »قصر ديل «لأن اليابانيات الأمريكيات الأصل ملامحهن حلوة جدًّا ..وكمان مرة جدًّا!

وأنا أعتقد أن العيب الوحيد في المرأة اليابانية هو أنها مؤدبة ..مؤدبة أكثر من اللازم ..ولقد عانيت من ذلك كثيرًا!

أذكر أننا كنا في إحدى الحفلات ورحنا نروي النكت في أول الأمر، كانت النكت مهذبة وبعد ذلك نصف مهذبة، وأخيرًا ..أنت عارف.

وحدث أن همست يابانية في أذن أخرى وبعد لحظات ضحكت كل اليابانيات بصورة جعلتنا نعتقد أنها نكتة قبيحة جدًّا ..وطلبت من إحدى اليابانيات أن تترجم لنا هذه النكتة، واندهشت لهذه النكتة التي جعلت كل اليابانيات يخجلن منها ..أما النكتة فهي أن رجلًا كان يجلس على حافة بحيرة ونظر إلى الماء فوجد صورة كلب وضحك قائلًا :لا بد أن هذا الكلب قد عاش في بيتنا طويلًا!

هل فهمت النكتة؟ .النكتة هنا هي أن هذا الكلب قد عاش في البيت مدة طويلة فتوحمت أمه على هذا الكلب، لذلك جاء شبهًا له..

توضيح آخر :الأم هنا هي أم الرجل وليست أم الكلب!

وبعد ذلك كان من المستحيل أن نروي لهن النكت إياها ..وقد لاحظت أن في كباريهات اليابان كثيرًا من الأجسام العارية ..والحركات الخليعة أكثر خلاعة من أمريكا ..والراقصات العاريات تمامًا ..واللاتي يجلسن على أرجل الزبائن وتمتد أيديهن ويفتحن البنطلون فترات طويلة بين صراخ الزبائن وتلاعب الأضواء ..ولكن هؤلاء الراقصات لا يستطعن أن يقلن كلمة واحدة غير مهذبة ..ولا كلمة.

وإذا كنت لا تصدقني فاذهب إلى اليابان ..والمسافة بيننا وبينها لا تزيد على 48ساعة بالطائرة.

فهل اليابانية هي الزوجة المثالية في نظري؟

لا...لا...

إن الزوجة المثالية في نظري هي :الصينية ذات الأدب الياباني والتي من أصل أمريكي .وتعيش ثلاثة أشهر في هونج كونج وثلاثة أشهر في أستراليا وثلاثة أشهر في جزر هاواي، وشهرًا في أمريكا، وشهرًا في إيطاليا، وأسبوعًا في أسبانيا، وأسبوعًا في فرنسا، وأسبوعًا في القاهرة، وأسبوعًا لا أعرف أين ..فلن أكون معها ..سآخذ منها إجازة أشم فيها نفسي!

وأنت لم تطلب مني أن أختار الزوجة المثالية، لكن تخيلت أن هذا ما تريد أن تعرفه!

* * *

الفتوات الفاتنات!

همس في أذني وغمز بعينه ووافقت فورًا، وعاد يهمس في أذني فوافقت على التكاليف أيضًا، ولكنه عندما ضغط على أصبعي ترددت فقد رأيت في عينيه بريقًا غريبًا.

وانطلقنا نحن الاثنين إلى شارع مزدحم بالدكاكين وبالناس والبخور والموسيقى البدائية.

ووقفنا أمام بيت له سلم خشبي .وبأصابع صفراء صغيرة دق الباب، وأطلت سيدة قصيرة القامة جدًّا، وسمينة جدًّا، وانحنت وانحنينا، وقال لها كلامًا لم أفهمه، ونظرت لي هذه السيدة القصيرة وضحكت، ثم نظرت لي وضحكت وكادت تسقط على الأرض.

وخلعت الحذاء ولبست قبقابًا ..هو في الحقيقة شبشب جاف كأنه مصنوع من السمك البكلاه، ووضعت قدمي فيه، ولم يدخل من قدمي إلا الأصابع، وأما بقية قدمي فهي تمسح الأرض المفروشة بالحصر الناعمة ..وبعد ذلك صعدنا أحد السلالم ..وبعد أن نزع كل منا شبشبه أيضًا ..ووضعت قدمي في شبشب آخر، مزفلط كأنه مصنوع من جلد سمك قراميط ما تزال حية، فكلما وضعت قدمي فيه هرب مني ..وكدت أسأل السيدة القصيرة عن سنارة لكي أصطاد بها الشبشب، ولكني وجدت جمهورًا من الفتيات يضحكن من حركاتي هذه، ولاحظت أن بعض الفتيات يطلب مني أن أعيد هذه اللعبة وازدادت لبختي كمان وكمان، ونزعت الشبشب ومشيت بالشراب، وتعالت الضحكات، ولا أعرف ماذا قالت الفتيات ولكن أعتقد أن بعض هذه العبارات كان معناها :أنني رجل غير متحضر :كيف أمشي على الحصيرة بالشراب، كيف لا أعرف أصول التزحلق على الشباشب؟!

ويظهر أن حالتي صعبت على بعض الفتيات فاقتربت واحدة مني وأمسكت ذراعي، وحاولت أن أمنعها، ولكنها أصرت ..والحقيقة أنها لم تصر .ولكني لم أعرف كيف أفلفص من ذراعها، فقد قبضت على ذراعي كأنها كماشة ..ونظرت إليها فوجدتها هزيلة ناعمة ورقيقة جدًّا، وتأكدت أن اليد التي تمسكني هي يدها فعلًا.

وجلست على الأرض مقرفصًا، وبدأت أفك زراير بنطلوني لآخذ راحتي في الجلوس، وامتدت يد إحدى الفتيات لتعاونني ..وكلما حاولت أن أوقف الفتاة عن هذا العمل الذي لا يليق وجدت نفسي عاجزًا أمام يدها القوية.

وبجوار إحدى المناضد جلست وقدمت إحدى الفتيات بعض البسكوت الناشف جدًّا ..وضغطت على البسكوت بأصابعي ..ناشف جدًّا ..بأسناني ..ناشف جدًّا ..ومددت يدي إلى كوب الشاي المر ..فكل مكان في اليابان تجد فيه الشاي المر الأخضر، وكوب وراء كوب، وانسحبت المنضدة إلى جانب من الحجرة.

وفجأة ظهرت أربع فتيات ممتلئات الجسم وقصيرات أكثر من العادة، ومدت واحدة يدها ولم أكد ألمسها حتى صرخت ..إنها يد من حديد، ولم أكد أسحب يدي حتى وجدت نفسي في حركة خاطفة قد سقطت على الأرض، وقبل أن ألمس الأرض التقطتني إحدى الفتيات الأربع، ولم أكد أنهض حتى وجدتني في الهواء ..فوق كتف إحدى الفتيات، وحاولت أن أخلص نفسي منها ..ونجحت في النهاية ..ولكن وجدت نفسي قطعة من القماش ..كحصيرة يمكسها أربع فتيات .كل واحدة قد أمسكت بيد أو برجل وأنا لا أفهم ما هذه اللعبة السخيفة جدًّا، ورحت أعلو وأهبط وأتطوح يمينًا وشمالًا، وأتلفت حولي لكي أجد هذا الصديق الياباني الخبيث ولكني لم أجده، حتى اسمه نسيته ..والبنات هنا لا يفهمن اللغة الإنجليزية ولا أية لغة أخرى غير اليابانية، وصرخت وكشرت ولعنت آباء البنات، وحاولت أن أعض واحدة منهن، ولكن بين أسناني وبين ذراع أية واحدة مسافات طويلة، ولم أعرف كيف أصرخ، حاولت أن أصرخ بالتقسيط مرة ..أقول يا إيدي ..ومرة يا رجلي ..ومرة يا ناس في عرضكم.

ولاحظت أن حركات التطويح من هنا لهنا قد زادت جدًّا ..وخفت من أن تتركني الفتيات أسقط على الأرض مرة واحدة، أو أن أرتطم بالسقف أو حتى بأحد الجدران، ولاحظت أن فتاة خامسة قد اقتربت مني ..وتوقعت أن تقفز فوقي وتقف على صدري وتأتي بحركات دبدبة مثلًا ..معنى ذلك أنني سأموت هنا على الطريقة اليابانية.

دخت ..وأنقذتني هذه الدوخة من الشعور بالغيظ والخوف والفضيحة، ولم أشعر بأي شيء، وأحسست بشيء من دوار البحر والبر والجو، وأخرجت لساني وأغمضت عيني وتظاهرت بالموت وألقيت برأسي على جانب من جسمي والحركة مستمرة، ولكن أحسست أن بطني كالقربة المنفوخة وخشيت أن تنقطع القربة وتبقى كارثة مدوية!

ودخت للمرة الثانية ..كأنني في منطقة انعدام الوزن.

وأفقت من هذه الدوخة الطويلة على البنات الأربع وقد اجتمعن حولي لينزعن ملابسي ..وملابسي كانت في ذلك الوقت تحتاج إلى كثيرين لينزعوها ..فهي ثقيلة وكثيرة ..ولم أفهم ما الذي يجري حولي، فأنا دايخ فعلًا، وفي أثناء هذه الدوخة لمحت وجه الصديق الياباني ..وكدت أقول له شيئًا، ولكني لم أستطع ..فلساني هو الآخر ما يزال دائخًا ..كالمكوك يتحرك بين أسناني ولكن لا يخرج منه شيء..

وبعد لحظات نقلوني إلى غرفة مليئة بالبخار ..إنه الحمام الياباني، وخرجت الأربع فتيات، وبقيت واحدة ..إنها السيدة العجوز التي تقف على الباب ..حاولت أن أجلس على قرافيصي ..حاولت أن أقف ..حاولت أن أستند إلى الحائط ..حاولت أن أعترض ..حاولت أن أقول أي شيء، ولكني لا أجد إلا الضحكات وإلا الانحناءات ..فأنا لا أريد أن أستحم ولا أريد هذا الهزار الثقيل ..ولم آت إلى هذا المكان بقصد الدوخة..

ولكن لا فائدة، تقدمت مني هذه السيدة، ووضعت الكيزان الخشبية إلى جواري وطلبت مني أن أملأ أحد الكيزان بالماء الساخن والكوز الآخر بالماء البارد ثم أصب الاثنين في كوز ثالث، وبعد ذلك أصب الكوز الثالث فوق جسمي ..وهكذا إلى ما لا نهاية ..وكانت هي تردد ورائي ..واحد ..اثنين ..ثلاثة ..واحد .ولو عرفت هذه السيدة أن عدد الكيزان قد تضاعف أمام عيني، وأنها يجب أن تعد من واحد لعشرة، لتركتني ..فأنا عريان »ملط «أمامها!

وحاولت أن أقول لها إنني أعرف الآن عدد الكيزان وأنه لا داعي لأن تبقى معي وتبحلق بهذا الشكل ..وأشرت إلى الباب وقلت لها بالعربي :اخرجي يا شيخة، الله يخرب بيتك!

وانحنت في أدب وضحكت، ومعنى ذلك أنها ستبقى مهما فعلت، ومهما قلت، وعدت أقول لها :عطشان ..وأشرت بيدي إلى أنني عطشان ..وانحنت وخرجت..

وقررت أن أقفل باب الحمام بالمفتاح ..ولكن الباب من غير مفتاح، ومن غيرترباس، وقررت أن أرتدي ملابسي ..ولم أجد الكيمونو، وهو الروب دي شامبر الياباني، وأسندت ظهري إلى الباب، وبدأت أجفف نفسي .وفجأة وجدت نفسي على أرض الحمام أتفادى أن يرتطم رأسي بالكيزان، وأن أغرق في الحمام، لقد دفعت هذه السيدة الباب بقوة عجيبة ..وأسرعت ترفع رأسي من الماء، فلا يصح أن يلمس الإنسان حوض الحمام بيده أو بجسمه لأن ماء الحوض لكل سكان البيت ويجب ألا يلوثه أحد..

واعتدلت في أرض الحمام، مستسلمًا، ومددت يدي إلى كوب الشاي المر وشربت المر كوبًا وراء كوب، ونزعت السيدة الكيمونو الذي وضعته حول جسمي وأصرت على أن أستحم ..على أن تصب هي الماء فوق رأسي وفوق صدري.

وحاولت أن تدلكني ..كما تقضي التقاليد في اليابان فصرخت واستجمعت قواي وألقيت بهذه السيدة في حوض الحمام وخرجت كطرزان أبحث عن القردة شيتا.

ولم أجد أحدًا في البيت، فصرخت وكأن الغابة كلها أخليت، وكأن الوحوش هربت ..أو كأن هذه الغابة تحولت إلى لوحة على الحائط ..بحثت عن الفتيات الأربع فلم أجد واحدة منهن ..بحثت عن الصديق فلم أجده، وإنما وجدت ورقة يعتذر فيها عن انتظاري؛ لأنه على موعد مع سياح آخرين في بيت يبعد عني نصف ساعة، وأنه سيلتقي بي في الفندق بعد الظهر، وأنني يجب أن أدفع مبلغ ستة جنيهات تكاليف تدليك ورياضة.

ارتديت ملابسي ..وحاولت أن أجلس على الأرض أو على مقعد ..وجدتني عاجزًا تمامًا، فجسمي كله يوجعني، فلست رياضيًّا، وإذا كنت رياضيًّا فهذا النوع من الرياضة لا يتحمله إنسان في الدنيا، وأشرت إلى السيدة السمينة القصيرة ذات الابتسامة الخبيثة أن تلحقني بقرصين من الإسبرين ..انحنت معتذرة ..طلبت منها أي شيء لإزالة الصداع وآلام الظهر والصدر والساقين واليدين والعضلات ..فانحنت وعادت بمجموعة من الأسماك الجافة ثم بعض البسكوت الجاف جدًّا، وانحنت في أدب، وحاولت أن أسخر منها، أن أرفعها في الهواء كما كنت أفعل مع اليابانيات قبل هذ اليوم المشئوم ..لم أستطع ..حاولت أن أحني لها ظهري في أدب ..ولكني لم أستطع فظهري يوجعني جدًّا.

كل هذا الذي حدث لي لم أطلبه ولم أعرفه، فأنا اتفقت مع صديقي هذا على زيارة أحد النوادي الرياضية النسائية ..لكي أرى المصارعة اليابانية بين النساء فقد سمعت أنها غريبة، وأنها رهيبة أيضًا، وأن هناك عددًا كبيرًا من اليابانيات الجميلات يلعبن هذه الرياضة، وقد رأيت في بعض الصور لفاتنات يابانيات وهن يقمن برياضة المصارعة العنيفة، ولم أطلب أبدًا أن أذهب إلى بيت البهدلة والهوان.

وفي الفندق عرفت أن هذا الصديق قد أخطأ في فهم ما أريد ..فلديه عدد كبير من السائحين ..ولهم مطالب مختلفة ..وقد تلخبط بين مطالبي ومطالبهم، فبعث بعضهم إلى مشاهدة المصارعة اليابانية وبعث بي إلى هذه البهدلة.

وشيء آخر هو أنني عندما دفعت الحساب عرفت فيما بعد أنني دفعت ثمن أطعمة لم آكلها، وثمن زجاجات من الشراب لم أرها، وهدايا يابانية لم آخذها.

وفي يوم كنت أجلس في فندق دايتشي مع أحد موظفي مصلحة السياحة اليابانية ورويت له ما حدث ..فسألني عن اسم الصديق الياباني الذي ذهبت معه، واستأذن مني بعض دقائق وعاد يروي لي قصة أخرى..

وروى لي أنني طلبت إهداء بعض اللوحات الزيتية، وأنني طلبت منه أن يتغدين ويتعشين على حسابي، وأنني طلبت إليهن الحضور في الفندق لنقضي ليلة راقصة ..إنني تنازلت لهن عن البالطو والبلوفر ..وإنني طلبت لهن شراء ملابس داخلية جديدة!

مع أنني لا أذكر شيئًا من هذا كله، ولا يمكن أن أذكره فأنا لا أعرف اللغة اليابانية ولا أعرف كيف أتفاهم معهن ..وكل الذي حدث هو أنني عندما جلست في هذا البيت الرهيب أبديت إعجابي باللوحات، وكان ذلك بالإشارة !وعندما قدموا لي الطعام اعتذرت عن تناوله وأشرت للفتيات أن يأكلن هذا الطعام ..ولما سألتني هذه السيدة السمينة عن المكان الذي سأذهب إليه قلت لها :الفندق.

وعندما حاولت اليابانيات أن يساعدنني على نزع ملابسي الداخلية رفضت ..فنزعن ملابسهن الداخلية أمامي ..وقد أعجبتني الملابس وطريقة الخلع ..فقط!

ولم أتصور أن هذه هي التفسيرات المختلفة لتصرفاتي العادية جدًّا ..ولكن الشيء الذي لم أفهمه حتى الآن ولم أطلبه لا بالإشارة ولا بالعبارة هو هذه العلامات الزرقاء على ذراعي وعلى رجلي وعلى صدري ..ثم خطاب الشكر الرقيق الذي وجدته في جيبي بإمضاء الفتيات الأربع:

شكرًا على هذا الوقت الجميل الذي أمضيناه معًا!

* * *

سأموت من شدة الأدب!

الفندق الذي أنزل به ياباني 80٪ ولكن الحياة فيه مستحيلة ..100٪الفندق اسمه :فوناجين ..اسمه غير موجود في دفتر التليفون ..غير موجود في أوراق الدعاية .كل إنسان يسمع اسم الفندق يطالبني بأن أعيد نطقه مرة أخرى ويسألني عن العنوان ..وهنا المشكلة ..فلا يوجد سائق تاكسي واحد استطاع أن يهتدي إلى العنوان ..رغم أن البطاقة التي تحمل اسم الفندق عليها خريطة..

وهنا مشكلة أكبر وهي أن كل شوارع طوكيو ليس لها أسماء ..ولم تظهر الأسماء لهذه الشوارع إلا بعد الاحتلال الأمريكي ..فهناك شوارع رقم واحد واثنين ..وألف وباء ..والناس لا يعرفون هذه الأسماء الأمريكية، وإنما يتذكرون الأسماء اليابانية القديمة ..والمصيبة أنهم لا يعرفون الإنجليزية ويبدو أنهم لا يريدون ذلك ..لأسباب وطنية أو لأنهم مشغولون بالعمل عن الدراسة ..وأصبح من الصعب أن أسهر في طوكيو ليلًا، لأن العودة إلى الفندق مستحيلة ..والبحث عن الفندق في الليل وفي الحواري المظلمة من أصعب أعمال الجاسوسية..

والحياة في داخل الفندق صعبة جدًّا ..فالمشي طول النهار بالشبشب ..والشبشب صغير لا يدخل إلا في بعض قدمي ..الشبشب لا يصلح إلا للأقدام اليابانية الصغيرة ..وغرفة النوم لها شبشب، ودورة المياه لها شبشب ولها قبقاب ..والحمام له شبشب ..والحمام نفسه كارثة كبرى ..فالاستحمام الياباني شاق جدًّا وهناك شيء مؤلم آخر ..هو أنهم لا يعرفون البشكير ..إن عندهم فوطًا صغيرة جدًّا ..ولكل واحد منا فوطة يجفف بها جسمه ..مع أنها لا تصلح لتجفيف اليد الواحدة!

ودورة المياه مؤلمة ..فهي ضيقة جدًّا وكلها من البلاط الذي يشع بردًا وجليدًا ..وفي هذا المكان الضيق جدًّا يجب أن تنزع بعض ملابسك ثم ترتدي الكيمونو فلايصح أن تخرج من الكيمونو ..ويجب أن تترك الشبشب في الخارج ..والفندق كله ليس فيه إلا دورة مياه واحدة وحمام واحد.

وتناول الإفطار تجربة كاملة في الصبر والسلوان ..فلا يوجد في الغرفة جرس ..وإنما يجب أن تخرج وتحاول أن تتفاهم مع الفتاة على أن الشاي الذي تريده هو شاي أحمر وليس شايًا يابانيًّا ..وقد يساعدك لون المشمع الموجود في الأرض على التفاهم مع الفتاة ..فهو عبارة عن مربعات خضراء وحمراء ..ففي كل مرة أقول لها :شاي من اللون الأحمر لا من اللون الأخضر.

وفي أول يوم أشرت إلى المربعات الحمراء من المشمع المفروش في الأرض، فماذا كانت النتيجة!

أحضرت لي مفرشًا من المشمع.

وفي اليوم الثاني أحضرت شايًا أخضر.

وفي اليوم الثالث لم يبق إلا الشاي الأحمر فأتت به جافًا ..وعملت الشاي لنفسي..

وبعد ذلك عرفت أن الشاي الأخضر اسمه بالياباني :أوتشا ..والشاي الأحمر اسمه :كوتشا ..بقي أن أطلب منها برادًا من الشاي الأحمر ومعه الكثير من السكر وبعض البسكوت ..وكل ما يخطر على بالك الآن لن يصل إلى ما حدث ..لقد أتت لي بصاحب الفندق لأنه ضخم كالبراد، ولأن له أولادًا كثيرين، ولأنه رجل زي السكر!

وإذا طلبت الشاي وانتظرت السكر برد الشاي ولم يحضر السكر ..وإذا طلبت السكر قبل الشاي جاء الخبز الأسود ولم يحضر الشاي ..والمصيبة أن الناس مؤدبون جدًّا جدًّا ..وأنهم حريصون على خدمة الضيوف ولا حدود لحرصهم ولا حدود لأدبهم إلى أقصى درجة ..وعليك أن تتخيل ما تشاء وكل خيالاتك صحيحة ..وأكثر!

وإذا أقفلت الباب فالدنيا حر ..وإذا فتحت الباب فالدنيا كلها سمك ورنجة وروائح أخرى لم أكتشفها بعد .وإذا أسندت ظهري إلى الحائط، انزلق السرير من تحتي، وإذا أسندت ظهري إلى المنضدة، سقط الراديو على الأرض ..وإذا أشرت بيدي جاءت الفتيات كل واحدة تسابق الأخرى في الانحناء ..وإذا أشرت برجلي انطلق مدير الفندق يضع الحذاء تحت قدمي ويمسك الشبشب ثم يمسك عصا طويلة يضعها في قدمي ..إنها اللبيسة!

وإذا كشرت تركوني وحدي وإذا ضحكت التفوا حولي.

ولكنني تعلمت منهم درسًا لا أنساه ..فقد جعلت أنحني مثلهم وأجمع ملابسي وأنحنى مثلهم، وأرتدى حذائي وأنحني مثلهم، وأحمل حقيبتي هاربًا إلى فندق بلا قباقيب ولا أحواض ولا أدب!..

وأمام الفندق وجدت كل الفتيات ومدير الفندق وسائق التاكسي والطاهيات .وقد وقفوا جميعًا يودعونني بانحناءات عميقة ..وانحنيت على الآخر..

وفي اليوم الثاني أرسلت بنطلوني إلى الرفا!

* * *

واليابان دولة تحتلها أمريكا منذ عام 1945 بعد أن ضربتها بالقنابل الذرية في نجازاكي وهيروشيما.

وقد نشرت الصحف هنا أخيرًا أن الجنرال ديجول أعلن في مذكراته أن أمريكا ضربت اليابان بالقنابل على الرغم من أن اليابان كانت قد أعلنت رغبتها في التسليم .ولكن أمريكا كانت حريصة على تحطيم القوة الحربية لليابان، وعندما دخلت اليابان قطعت كل بذور النزعات العسكرية منها ..فالدستور لا ينص على دين رسمي للدولة، وكان دينها الرسمي هو »الشنتوية «وهذا الدين أساسه تقديس الإمبراطور والوطن والأجداد، وقد استغلت الحكومات هذا الدين لدفع الشعب إلى القتال ..ونص الدستور الجديد على حرية الأديان وأن يصبح دين شنتو هذا دينًا عاديًّا كالبوذية تمامًا..

ونص الدين الجديد أيضًا على إلغاء الحروب ..وعلى إلغاء حق اليابان في الدفاع عن نفسها بأية صورة، فالذي يتولى الدفاع عنها هو الجيش والأسطول والطيران الأمريكي ..أما اليابان فيجب أن تؤمن بأن الحرب ليست أسلوبًا في الدفاع عن نفسها أو إقناع الغير بوجهة نظرها .ونزعت أمريكا من اليابان جزيرة فرموزا وكوريا وعشرات الجزر الأخرى وأرغمت اليابان على أن تتعهد بألا تطالب بها في أي وقت .ومساحة هذه الأراضي حوالي 150 ألف كيلو متر مربع، وأدخلت أمريكا الإصلاحات الزراعية وألغت بعض الاحتكارات ونزعت أملاك الإمبراطور ..ونزعت هيبته وقداسته أيضًا ..وجعلت نصف حديقة القصر الإمبراطوري للشعب.

وعندما أصبح دين شنتو دينًا عاديًّا، أصبح الإمبراطور إنسانًا عاديًّا .لقد سحبت أمريكا عرش القداسة من تحت الإمبراطور وأجلسته على كرسي عادي جدًّا..

ولكن ماذا حدث لليابانيين؟ هل تغيروا؟ هل تبدلوا؟

أبدًا ..فاليابان فيها كل المتناقضات، بل إنك تجد الرجل الياباني الواحد مليئًا بالمتناقضات ..تجده مسيحيًّا وفي نفس الوقت بوذيًّا ..وتجده يذهب إلى الكنيسة وفي الوقت نفسه يحرص على تعاليم بوذا، أو يحرص على أن يحج إلى تمثال بوذا في مدينة نارا حيث يوجد تمثال لبوذا طوله 19مترًا ووزنه 800طن.

وإذا تزوج الياباني المسيحي مثلًا، فإنه يأتي براهب بوذي ليعقد زواجه ..لأنه يعتقد أن الاستعانة برهبان وقساوسة من أديان أخرى لا تجعل زواجه ناجحًا ..وحتى الياباني المتعلم جدًّا بعد أن يتردد على طبيب ممتاز فإنه في الطريق إلى البيت يمر بأحد المعابد يسأل الراهب أن يعطيه بعض الأعشاب وأن يمر بيده على أماكن الألم..

الرجل الياباني متدين ..وفي بلاده مئات الألوف من المعابد..ويكاد يكون وثنيًّا، ولكن بيوت اللهو في طوكيو وحدها أكثر من الموجودة في حي سان جرمان أو سان ميشيل أو المونمارتر في باريس ..بل أكثر من أماكن اللهو في ريبربان في هامبورج بألمانيا ..وبنات الليل في طوكيو مثلًا، مهذبات جدًّا ويتمسكن بكثير من المبادئ الأخلاقية ..فالغانية لا تكذب ولا تخلف الوعد ولا تسرق ..ولا ترى هي في هذا كله أي تناقض، ولكنها أراحت نفسها بأنها تبيع وتشتري، بأنها تاجرة ..ومن أخلاق التاجر ألا يكذب ..فالأخلاق عند التاجر هي دعاية له ولبضاعته..

والرجل الياباني يأخذ من كل شيء أحسن ما فيه.

ففي اليابان تجد كل أوربا وأمريكا معًا، فاليابان هي الجسر الذي ينقل أوربا إلى آسيا ..واليابان هي »الترانسفورمر -«المحول الكهربائي -الذي ينقل الغرب ويجعله في صورة شرقية مهذبة جميلة.

ومع ذلك تجد اليابان في عزلة تامة ..أو هي مشغولة بنفسها، ولا تكاد تشعر بوجود الغير .فمثلًا تجد اللافتات كلها باليابانى ..والمطبوعات باليابانى .والأجنبي ليس له أي حساب ..وألمانيا كذلك!

ذهبت منذ أيام لأشتري بالطو مطر ..ولم أكن أتصور أنني عملاق إلى هذه الدرجة ..فأنا طويل ووزني عادي جدًّا ..ولكنني لم أجد بالطو واحدًا .البلاطي كلها أقصر وأضيق مني ..والناس ينظرون إلي كأنني هبطت من كوكب آخر ..أكثر المحلات لم أجد فيها بالطو، ولم أجد فيها محلًّا واحدًا يقول لي إنه في استطاعته أن يفصل لي أحد البلاطي.

وفي اللوكاندة تجد السرير صغيرًا والحوض صغيرًا، والشبشب صغيرًا، وفي الوقت نفسه تجد مطاعم أوربية ومحلات الشاي أو المشاهي -كلها على الطراز الأوربي ..ثم إعلانات في الصحف عن المطاعم الغربية والسهرات الغربية..

)الكافتيريا :أي محل للقهوة والشاي أقترح ترجمتها بكلمة القهوشية..مساهمة مني في مجهودات المجمع اللغوي.(!

ولكن كل شيء في اليابان موجود ..الغربي والشرقي، الحزب المحافظ والحزب الشيوعي، والإمبراطور المقدس والإمبراطور الذي ليس له أي سلطان، وولي العهد الذي يتزوج فتاة من الشعب.

وفي الوقت نفسه تجد الناس هنا يقدسون الجبال.

والتعاليم البوذية صريحة في أن الإنسان من الممكن أن يتعلم من أي شيء ومن كل شيء، وأن يشعر بالشبع وهو جائع، وأن يمسك يده عن الطعام وهو غني ..المهم أن يعمل وأن يتقدم..

وهناك قصة تقول إن رجلًا سأل بوذا كيف أتعلم الدين ..فقال له :كما يتعلم اللص الصغير فن السرقة..

وروى بوذا هذه القصة :خرج لص هو وابنه لسرقة أحد البيوت ودخل اللص الكبير وسرق الأموال والحلي ..وطلب من ابنه الصغير أن يتوارى في أحد الصناديق .وبعد ذلك أحدث الأب بعض الأصوات وأضاء المصابيح فصحا أهل البيت، وهرب الأب وترك ابنه ..وانطلق أهل البيت يفتشون الصندوق الذي أخفوا فيه أموالهم وعندما أدرك الابن ذلك راح يموء كالقطة ..فعرف الناس أنها القطة وأنه لم يكن هناك لص ..وعادوا إلى الفراش ..وخرج الابن من الصندوق..ورآه الناس فانطلقوا وراءه في الظلام ..وفي الطريق المظلم مر الابن ببئر ..وأمسك في يده حجرًا وألقاه في البئر ..وكان للحجر صوت هائل ..فأدرك المطاردون أن اللص سقط في البئر فعادوا إلى البيت ..وهم يحمدون الله الذي أنزل العقاب بهذا اللص ..ولما عاد الابن إلى البيت راح يعاتب أباه .ولكن أباه قال له :هكذا تتعلم السرقة ..يجب أن تتصرف ..أن تستفيد من ذكائك..

وقد تعلم اليابانيون من كل الشعوب ..وقاموا بدور الأب ودور الابن ودور أصحاب البيوت ..تعلموا من التجارة والدين ومن الحرب ومن السلام ومن الحضارة الغربية ومن الوثنية الصينية ..ومن اللصوص ..وتعلموا مني درسًا لا يمكن أن ينسوه ..فقد لاحظوا أنني زهقت من أدبهم لدرجة أنني بدأت أرفض الأكل والشرب والنوم على طريقتهم ..وكانت النتيجة أنهم أخذوا يقللون أدبهم فاكتفوا بالركوع بدلًا من السجود عندما يرونني ..واكتفوا بالقبلات بدلًا من الأحضان عند تحيتي، ولم أجد عند وداعي إلا تسع فتيات مع أن عدد الفتيات في الفندق كان خمس عشرة فتاة ..تصوروا قلة أدبهم وصلت إلى أية درجة؟!

ولكنهم تعلموا وتقدموا.

وهنا في طوكيو برج مرتفع يشبه برج إيفل في باريس ولكنه أعلى وأجمل ..وقد استخدمت اليابان في بناء هذا البرج حوالي 400طن من الصلب، أي نصف الكمية التي استخدمت في بناء برج باريس ..وهذا البرج تملكه هيئة الإذاعة والتلفزيون اليابانية ..وفيه معارض ومتاحف وملاهٍ وحديقة للحيوان..و هو أعلى برج في العالم كله ..أعلى من برج باريس ومن برج شتوتجارت في ألمانيا ..وهو أجمل وأحدث وأدق.

إنه يدل بالضبط على العقلية اليابانية ..التي تأخذ كل شيء ولكنها تترجمه إلى أحسن وأروع .وهذه هي عبقرية اليابان في النقل والترجمة والدعاية.

بالاختصار، اليابان مثل أعلى لكل دولة تريد أن تعتمد على نفسها وتقف إلى جوار الدول الكبرى ..واليابان هي الدولة الصناعية النموذجية في كل آسيا..

ويبدو أن الرجل الياباني بطيء إذا كان وحده، ولكن إذا كانت هناك مجموعة من اليابانيين فهم قوة مندفعة ..والياباني كالألماني مطيع لمن يحكمه؛ فالولاء للحاكم لا حدود له ..والحاكم يقول :اعمل عمارة هنا ..اهدم عمارة ..اقتل ..اذبح ..اركع ..ابك ..انهض!

إن الرجل الياباني بندقية ممتلئة دائمًا ..وربنا يستر.

ولكن البندقية لها الآن شكل آخر..

أذكر أنني رأيت في برج طوكيو جهازًا صغيرًا أعجبني ..هذا الجهاز يشبه صندوق الكوكاكولا ..وبه زجاجة شانل ..وزجاجة أربيج ..وهناك عشرات الصناديق كل واحد منها به روائح مختلفة ..وعلى الزائر أن يضع في ثقب الزجاجة التي تعجبه قطعة نحاسية من فئة عشرة ينات »قرش صاغ ..«ثم يضغط على الثقب ..في هذه اللحظة تخرج الرائحة التي يريدها على هيئة رذاذ يستمر ثلاث ثوان ..والرائحة قوية فعلًا..

وأنا أعتقد أن اليابان الآن هكذا ..تضع فيها الفلوس وتضغط عليها فيخرج العطر ..والكلام الحلو والمنظر الجميل!

ويعجبك كلامه، ولكن في الوقت نفسه تحس أنه ضحك عليك وتضحك أنت إعجابًا به لأنه ضحك عليك، ولأنك لا تريد أن تبدو أمامه مغفلًا!

* * *

عندهم كل شيء!

لا تزال طوكيو أجمل مدينة رأيتها ليلًا في اليابان حتى الآن ..فالشوارع تصبح خيوطًا من اللؤلؤ ..والإعلانات هنا باهرة ..لها أشكال وألوان عجيبة جدًّا .ولا يوجد إعلانان متشابهان ..وعلى أسطح البيوت أباريق الشاي تمتلئ بالنور الأحمر وتفرغ ما فيها في فناجين تكاد تسقط فوق رءوس الناس ..وأكواب البيرة الكبيرة جدًّا هي الأخرى تمتلئ ولها رغوة بيضاء .وهذه الكرة الأرضية تلف حول نفسها وحولها قمر وشمس ..كل ذلك إعلانات فوق الأسطح ..وأعجبني إعلان في أحد المحلات ..الإعلان لن يمكنك أن تراه بسهولة ..ولكن المحل وضع في الفترينة راديوهات صغيرة وثلاجات وأدوات الطبخ ..ولكن عندما تنتقل من الفترينة إلى مدخل المحل تشعر بهواء ملتهب فوق رأسك ..فتنظر إلى أعلى فتجد مدفأة ..فالمحل يبيع المدافئ أيضًا..

رأيت هذا أيضًا في برلين ولم يكن إعلانًا عن الدفايات ولكن إعلانًا عن الإسبرين الذي هو علاج ضد أضرار المدفأة!!

والمحلات تبدأ عملها من الساعة التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساءً ..وبعضها يبقى حتى التاسعة والعاشرة ومنتصف الليل، وكل أماكن اللهو تقفل أبوابها عند منتصف الليل.

والمحلات هذه لا تقفل أبوابها في يوم واحد ..وإنما لكل محل يوم؛ ولذلك تبقى الشوارع حية ليلًا ونهارًا..

وفي الساعة الخامسة حيث ينتهي العمل في معظم المحلات التجارية نجد مئات الألوف من الفتيات ..فمعظم من يعمل في المحلات فتيات ..ولا بد أن الفتيات يعملن في المصانع أو الورش .والمرأة هنا تعمل أي شيء بما في ذلك مسح الأحذية على الأرصفة ..والفندق الذي أنزل به لا يوجد فيه رجال مطلقًا الرجال يعملون فقط في مكتب البريد والاستعلامات ..أما بقية الأعمال فتقوم بها فتيات صغيرات جميلات ..الفندق به 624غرفة..

أنا رأيت في غرفتي هذه في خلال أسبوع واحد أكثر من 15فتاة صغيرة يدخلن بالشاي وبالغسيل والمكوى والصحف ..عددهن كبير جدًّا ..ويعرفن من اللغة الإنجليزية بضع كلمات أهمها عندما تقدم لك الفاتورة :امض هنا من فضلك.

وشوارع طوكيو لا تبهرك في النهار ..فهي شوارع من الممكن أن تجد لها مثيلًا في أي بلد ..ولكن لن تجد مدينة في ضخامة طوكيو في أي مكان ..وتدهش عندما تجد الشوارع ممتلئة ولكن بصورة عادية ..وقلة الزحام سببها أن المدينة كبيرة وأن الناس يعملون ليلًا ونهارًا.

وفي طوكيو عيب واحد هو التاكسي ..فالتاكسيات فيها قليلة جدًّا وليس للتاكسي موقف ولا تستطيع أن تناديه ..ومصيبة أخرى أن جميع سائقي التاكسي عندهم أعصاب الفدائيين في الحرب الأخيرة والذين كانوا يركبون الطوربيد وينطلقون به من الطائرة ويدخلون به مداخن السفن البريطانية والأمريكية ..وكانوا يجلسون إلى جوار الألغام وينسفونها ويموتون بها ومعها!

إنهم من هذا الطراز من الناس ..من السفاحين الانتحاريين.

وهؤلاء الفدائيون لم ينسوا أن الحرب قد خمدت وأن السيارات ليس الغرض منها أن تنفجر في السائق والزبون معًا ..ولكن هذه عيوب اليابانيين .إنهم يعيشون على التقاليد ولا ينسون الماضي بسهولة ..فالويل لنا من إخلاصهم ومن ذاكرتهم التي لا تضعف.

والرجل الياباني يسألك هذا السؤال الذي يعرف جوابه مقدمًا وينحني لك شاكرًا، وكأنه سمعك تقول له :إن بلادكم عظيمة.

ويسألك :ولكن ما شعورك عندما رأيت اليابان في أول دقيقة؟

فتقول :شعرت بخيبة أمل.

فيحزن الرجل -وكل ياباني -حزنًا شديدًا جدًّا ويصاب بخيبة أمل فيك أنت، ويرثى لحالك ولضعف نظرك وثقل سمعك وعجزك عن إدراك الجمال والنشاط في اليابان من أول دقيقة..

فتعود تقول له :لكن الآن..

وقبل أن تكملها ينحنى لك الياباني يشكرك على أنك غيرت رأيك وأنك أنت الآخر معجب جدًّا باليابان وبأنك تعتبرها وطنك الثاني.

ولكن ما رأيي أنا في اليابان؟

أنا أنحني لهذه البلاد على الطريقة اليابانية وزيادة شوية.

* * *

على باب غرفتي مطبوعة هذه التعليمات:

- 1لا تضع مواد ملتهبة أو قابلة للانفجار في غرفتك.

- 2لا تدخن في السرير.

- 3لا تستخدم أية مكواة أو مدفأة كهربائية في غرفتك.

- 4أقفل الباب وراءك دائمًا.

- 5في حالة الطوارئ استخدم سلم الحريق.

- 6لا تحاول أن تستخدم أية وسيلة للهرب أو النزول من النافذة إلا بعد أن تصدر لك الأوامر من إدارة الفندق.

وتعليمات أخرى ..فعلى السرير مطبوع هذه العبارة :لا تدخن في السرير ..وعلى الباب مكتوب :أقفل الباب وراءك.

وفي دورة المياه -ويسمونها »بيت الراحة«، وفي هونج كونج يسمونها »بيت الارتياح - «ورقة مطبوعة ملفوفة حول الأكواب وحول أماكن الراحة :لقد عقمناه لك..

والتعليمات كلها تدل على الخوف من الحريق ..فالحرائق هنا كثيرة جدًّا ..فالبيوت مصنوعة من الخشب كلها ..لكثرة الزلازل والبراكين التي تحدث في اليابان وتؤدي إلى هدم البيوت وإحراق المزارع والأشجار والمباني ..والتعليمات في الفنادق تدل على مخاوف الناس في أي بلد.

ففي الفليبين يطلبون من الزبائن ألا يلعبوا القمار في الغرف.

وفي هونج كونج تعليمات تحذر الزبائن من أن يجعلوا غرفهم للدعارة..

واليابانيون مؤدبون ..ويكفي أن تقرأ على المنضدة في الغرفة هذه العبارة المكتوبة بالأحمر وبخط كبير جدًّا لتعرف ماذا يقصدون :نحن يسرنا أن تستخدم صالة الفندق للحفاوة بكل من يزورك.

يعني ممنوع الحفاوة بزوارك وزائرتك في الغرفة..

ولكنني لاحظت -مع الأسف -أن الحفاوة تتم في الصالة وفي الغرف أيضًا!

والناس يبتسمون وفي أدب عميق ينحنون.

وأمس تعلمت الانحناء في الصالة واليوم أجيد الابتسام في الغرفة!

* * *

قرأت قصة لأديب روسيا تولستوي ..والقصة معناها عميق ..بل لها عشرات المعاني العميقة ..وأنا اخترت أحد المعاني فقط ..القصة تقول:

إنه كان في إحدى مناطق المراعي في روسيا جماعة يقسمون الأراضي الواسعة بينهم بطريقة غريبة بعض الشيء ..فكل إنسان يركب حصانه وينطلق مع شروق الشمس ..وكل الأراضي التي يمر بها تصبح ملكًا له بشرط أن يصل إلى النقطة التي بدأ منها ..قبل غروب الشمس..

والذي كان يحدث هو أن كل واحد منهم كان ينطلق بحصانه بأقصى سرعة لكي يقطع أكبر مساحة من الأرض، ولكن عندما يحاول العودة إلى النقطة التي بدأ منها يكون حصانة قد تعب ..أو يكون مات منه في الطريق..

وبعض هؤلاء الناس قتلوا خيولهم .وبعضهم بعد أن مات حصانه حاول أن يعود على قدميه فمات هو الآخر ..دون أن يصل إلى النقطة التي بدأ منها!

فليس المهم أن تنطلق بسرعة في البداية ولكن المهم أن تحسب حساب طريق العودة..

المهم أن تعود خفيفًا سليمًا وقبل غروب الشمس.

اليوم أحسست أن حصاني قد مات مني أو على وشك أن يموت ..فقد جمعت الكثير من الأشياء في حقائبي ولا أعرف كيف أنقلها أو أتركها ..وكل إنسان أسمع أنه في طريقه إلى القاهرة أعطيه بعض ما معي ..واليوم يوجد في القاهرة سبعة من الأصدقاء لديهم كتب اشتريتها من الهند وإندونيسيا والفليبين وأستراليا واليابان ..ولديهم تماثيل أتيت بها من جزيرة بالي، وقواقع مكتوب عليها أسماء أصدقائي أتيت بها من رأس كومورين في أقصى جنوب الهند، واشتريتها من سنغافورة ..ومن أستراليا اخترت مجموعة نادرة من كتب الأدب والفلسفة، وعلم النفس ..ومن الفليبين كتبًا وملابس وآلة تصوير تعبت من حملها.

وأمس شعرت أن المشكلة تجددت مرة أخرى، وحقائبي مليئة الآن بملابس الصيف وملابس الشتاء؛ فقد رأيت في أربعة أشهر جميع فصول السنة .ورأيت الصيف في الهند وإندونيسيا .والشتاء والربيع في أستراليا .واليوم أعاني فصل الخريف في اليابان ..وملابسي الصيفية أخشى أن أتركها في الفندق فهي قديمة ..وهي متواضعة جدًّا بالنسبة لملابس الخادمات هنا، وبالنسبة للصناعة اليابانية ..وأخشى أن أتركها فيشحنها اليابانيون إلى القاهرة ..لشدة أدبهم وأمانتهم ..ولا أعرف إن كنت أستطيع أن أرميها من الطائرة ..ولكن مع الأسف نوافذ الطائرة لا يمكن فتحها إلا في حالات السقوط!

وحاولت أن أعطيها لإحدى الجمعيات الخيرية ووجدت جمعية للمكفوفين ودخلتها على سبيل الاستطلاع، ولكني لم أبق سوى لحظات وخرجت فقد وجدت ملابسهم نظيفة أنيقة ومكوية ومنشية.

فكرت في أن أتمشى مع أحسن التقاليد اليابانية ..وهي أن أشتري ملابس جديدة أضعها فوق الملابس القديمة ..تمامًا كما يفعلون بالأشجار التي يغطونها بالقش، فتجيء الحشرات وتسكن في القش خوفًا من البرد، فإذا طلع الربيع نزعوا القش وأحرقوه بما فيه من حشرات..

وقد لاحظت أن القماش الياباني يصيبني بالهرش ..فعندي حساسية ضد الحرير والقطن الياباني -ولا أعرف إن كانت هذه حساسية أو حشرات ترانزستور -أي صغيرة جدًّا جدًّا -ولذلك سأحتفظ بكل هذه الملابس التي تلتقط الحشرات وأحرقها بعد ذلك!

والمعقول جدًّا أنه لا داعي للملابس اليابانية ذات الحشرات الدقيقة والاكتفاء بملابسي القديمة..

والمثل عندنا يقول :من فات قديمه تاه..

وأنا، حتى إذا أردت أن أترك القديم، فإنني لا أريد أن أتوه ..أن أضيع ..فما تزال المرحلة طويلة أمامي!

وفكرت في قصة تولستوي :فإما أن أملأ حقائبي بالأشياء التي تباع رخيصة هنا .وفي هذه الحالة، لا يمكن أن أعود إلى القاهرة عن طريق طوكيو ولا عن طريق نيويورك ..وإما أن أعود وفي هذه الحالة، يجب أن أستغني عن القديم الذي عندي والجديد الذي أحلم به..

وفي قصة تولستوي عاد كثيرون إلى النقطة التي بدءوا منها أحيانًا بعد الغروب وأحيانًا قبل الغروب ..وكانت معهم خيولهم ..وكانوا بلا خيول أو جاءت الخيول بلا أصحابها..

وآخرون عادت بهم خيولهم موتى، الحصان حي ..وصاحبه ميت..

وبعد تفكير قررت أن أتصرف بشكل آخر ..سأصل بعد الغروب ومعي حصاني لا هو تعبان، ولا أنا كسبت أرضًا ولا هو.

ولكن التنقل في بلاد واسعة أعظم وأروع..

والذي أحمله في رأسي وفي قلبي أجمل من كل ما تحمله أية حقيبة ..فلن أحمل معي أي جديد ولا أي قديم ..يكفي أنني أحمل رأسي..

لقد انطلقت -كما تقول القصة -عند شروق الشمس وسأعود بعد غروبها لا في اليوم نفسه ولكن بعد ذلك بمئات الأيام.

* * *

لا صغيرة ..ولا شعبها أقزام!

كل يوم تتغير فكرتي عن هذه البلاد ..كنت أتصور أن اليابان بلاد صغيرة يسكنها شعب ضئيل الحجم،يأكل في أطباق صغيرة وملاعق صغيرة ويقعد على الأرض ويمشي في زحام شديد كأنه موج البحر ..وكأنني العملاق جليفر في بلاد الأقزام ..ولكنني وجدت اليابان ليست صغيرة .فعدد سكانها 100مليون وليسوا جميعًا من الأقزام ففيهم أناس طوال القامة بيض الوجوه جدًّا، وليس كل شيء صغيرًا عندهم، ففي طوكيو أعلى برج في العالم،

أعلى من برج إيفل بباريس ..وإذا كانت عندهم راديوهات صغيرة ويحاولون الآن عمل جهاز للتليفزيون يمكن وضعه في الجيب، فإن لديهم محطات ضخمة وجسورًا هائلة وأكبر سفن في العالم ومصانع مساحتها شاسعة.

وكنت أتصور أن الصين بمئات الملايين من سكانها هي مصدر القوة بين كل سكان آسيا .أو أنها هي وحدها التي ستكتب تاريخ العالم في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين..وقد رأيت نشاط الصينيين في كل الدول الآسيوية، إنه منظم وقوي.

ولكن اليابان هي الأخرى قوة جبارة، إنها محتلة الآن ..ولكنها تشبه الأسد المقيد، إنه مقيد ولكنه مخيف أيضًا..

وإذا كانت اليابان قد تغيرت وأصبحت دولة صناعية قوية؛ فإن آسيا التي أسيلت دماؤها بأسلحة اليابانيين قد تغيرت هي الأخرى .وآسيا كلها واليابان في منتصف الطريق ..فاليابان تمد يدها لكل الدول ..واليابان تحاول أن تجعل نفسها ضرورة لا بد منها بالنسبة لكل جيرانها، وكلهم أعداؤها..

وكانت اليابان والصين هما الدولتان الوحيدتان المستقلتان قبل الحرب في آسيا ..وأصبحت اليابان هي الدولة الوحيدة الكبرى المحتلة بعد الحرب.

وهناك عوامل غيرت معالم آسيا كلها، وغيرت نظرتها إلى اليابان أيضًا كدولة عسكرية استعمارية..

وهذه العوامل الثلاث هي :الحركات الوطنية، والشيوعية، والحياد.

فالحركات الوطنية حررت الهند وباكستان وبورما وسيلان وإندونيسيا والفليبين وكوريا وكمبوديا ولاوس وفيتنام.

ولم تبق هناك دول مستعمرة حتى الآن سوى هونج كونج البريطانية.

والشيوعية هي الأخرى كان لها أثرها في آسيا ..فانتصار الاتحاد السوفيتي في الحرب الأخيرة على ألمانيا قد أدى إلى استقلال الصين وكوريا الشمالية ومنغوليا الخارجية وفيتنام الشمالية..

ثم ظهور الدول المحايدة بين المعسكرين ..وهذه الدول تدعو للسلام وعدم الانحياز ..هذه الدعوة أقامت دول كولومبو :الهند وسيلان وبورما وإندونيسيا .وقد لعبت كتلة الحياة دورًا مهمًّا في باندونج سنة 1955.

ثم ظهور اتفاق سياتو)أي دول جنوب شرق آسيا(، ويتألف من تايلاند والفليبين وباكستان وأمريكا وبريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا .وقام حلف بغداد المزعوم الذي كان يضم بريطانيا وتركيا وباكستان والعراق وإيران.

ثم ظهرت أحلاف أخرى ضد اليابان نفسها وضد مطالب اليابان في المستقبل تضم أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا.

ومشكلة اليابان الآن :أنها رغم احتلال الأمريكيين لها تريد أن تصادق الدول التي تغيرت ملامحها، واستقلت كلها ..إن اليابان أصبحت دولة جديدة وعفا التاريخ عما سلف ..وكل يوم يقوم الخبراء من اليابان برحلات باسمة لكسب الود ..أو رحلات من طراز)صافي يا لبن (بين كل الدول الآسيوية والصين خصوصًا والدول الأوربية التي كانت تعد أعظم الأسواق لتصريف البضائع اليابانية..

واليابان لها مشاريع صناعية كبرى في آسيا ..هذه المشاريع هي ضمن التعويضات التي تدفعها اليابان للدول التي اعتدت عليها واحتلتها في أثناء الحرب الأخيرة .ولذلك اشتغلت الأيدي اليابانية ..هل تتصور أن عدد العاطلين في اليابان هو مائة ألف، وأن عدد الأيدي العاملة هو 47مليونًا ..وأمريكا تستورد من اليابان كميات هائلة من المنتجات ..والناس يقولون هنا :هذا فضل عظيم ولكن إلى متى؟ فإذا تخلت عنا أمريكا تكون مصيبة لنا؟ ولا بد من أن تتخلى أمريكا عن اليابان.

واليابانيون يعلمون هذا بوضوح ..وهم لذلك يبعثون بالخبراء والدبلوماسين ليبوسوا رءوس الدول المجاورة، فإذا تم الصلح انطلقت اللعب اليابانية والسيارات والراديوهات والأقمشة وامتلأت الأسواق بكل شيء مكتوب عليه :مصنوع في اليابان.

فاليابان ليست صغيرة وإنما هي عملاق يخطو إلى الوراء .فتظن أنه يتراجع ولكنه في الحقيقة يتحفز ليقفز إلى الأمام..

* * *

في المطاعم اليابانية يضعون أمامك ورقة صغيرة مكتوبًا عليها» :نشكرك على حضورك ونرجو إن كان هناك أي تقصير أن تدلنا عليه لكي نتلافاه في المرة القادمة .«عبارة جميلة مؤدبة مهذبة .ولكني لاحظت أن اليابانيين لا يقصدونها تمامًا .فقد حاولت أن أدخل بعض التعديلات على الأطعمة وكانت النتيجة :واحد لصالح المطعم وصفر لصالحي أنا..

أما الموسيقى التي أسمعها من بعيد فليست تحية لهذ الفشل، ولكنها صوت ضفادع من نوع غريب يحتفظون بها للدلالة على أن الربيع على الأبواب!

وقد عرفت بعد ذلك أن المشكلة هي مشكلة اللغة؛ فاللغة الإنجليزية نادرة الوجود هنا، ندرة السلع الأجنبية..

فمن النادر أن تجد سلعة أجنبية في اليابان..

حتى اللغة الإنجليزية صنعوها وطوروها وأًصبح لها معنى ونطق غريب جدًّا عن اللغة الإنجليزية .وإذا استمعت إليها عن قرب فإنه يصعب عليك أن تفرق بينها وبين اللغة الصينية.

في الفندق الذي أنزل به أطلب كل يوم فنجان شاي أو براد شاي .من غير لبن ومن غير ليمون ومن غير عيش ..كل يوم..

وفي يوم جاءني ضيوف فقلت للفتاة الحلوة :براد شاي وفنجانان من الشاي .وكانت النتيجة أنها أتت ببراد مليء بالشاي وفنجانين بهما شاي أيضًا.

ولو ملأت الفتاة هذه الفناجين عدسًا فإنني أمام أدبها ورقتها وحرصها الشديد على أن تلبي كل طلب سأجد نفسي عاجزًا عن رفض أي شيء..

وتعودت أن أكتب كل ما أريد ..ولكن هذه الطلبات كان من الصعب تنفيذها ..وأخيرًا جعلت كل طلباتي مكتوبة باللغة اليابانية، ولاحظت أن هذه الطلبات المحدودة ينفذها كل مطعم على هواه ..فأصحاب المطاعم كلهم كالمجتهدين من رجال الدين ..فبينهم الحنبلي جدًّا ..وبينهم الشافعي المتسامح، وبينهم من يرفض تلبية هذه الورقة لأنها لم ترد في كتاب من قبل!

* * *

وفي يوم ذهبت إلى مطعم »سويهرو «وهو من المطاعم الشهيرة في طوكيو ..الدور الأخير عبارة عن مطعم على الطريقة اليابانية ..يعني يجب أن تنزع حذاءك وترتدي الشبشب ..ثم تجلس على الأرض وفوق شلتة والشلتة فوق حصيرة ناعمة ..وأمامك منضدة ..ووراءك فتاة الجيشا ترقص وتغني ..وغناؤها يشبه نقيق الضفادع المعروفة عندنا ..وتدهش أنت كيف تحتفظ في هذا الجسم الأبيض الناعم بمثل هذه الحيوانات الكريهة، وتتعجب كيف دخلت هذا العنق الحريري الملفوف..؟

وعلى المنضدة يوجد وابور بوتاجاز ..وبعد لحظة يحضر الشاي الياباني الأخضر ..وإلى جانب الشاي يوجد طبق طويل به فوطة بيضاء ملفوفة وساخنة لكي تمسح بها يديك إن كانتا قد اتسختا من حذائك أو شعرك وأنت تهرش متعجبًا للأسباب التي ذكرتها من قبل..

ومع الفوطة تجيء جرسونة أو خادمة، وقد ارتدت الكيمونو .وليس من الضروري أن تتحدث معك، فلا فائدة من الكلام ..فهذا المطعم يقدم طعامًا يابانيًّا ..طبقًا يابانيًّا واحدًا ..هذا الطبق اسمه السوكياكي .وهو أشهر طبق في اليابان والناس يأكلونه في البيوت، عند الحفاوة بإنسان عزيز عليهم لأنه غالي الثمن ..وبعد لحظات تحضر الفتاة ومعها طبق يشبه الطشت الصغير وعليه شرائح من اللحم ..كمية كبيرة جدًّا ..وطبق آخر من البصل الأخضر، وإبريق كبير، ستعرف فيما بعد أن به صلصة سوداء وستعرف فيما بعد أنها مخلوطة بالعسل الأسود ..وطبق آخر به زبدة ..وبعد ذلك تحضر لك عودين من الخشب لتأكل بهما ..وتشعل الوابور وتضع عليه طاسة من النحاس الأسود وتضع الزبدة والبصل الأخضر والفجل والجرجير والبقدونس والصلصلة السوداء واللحمة الحمراء التي تتحول إلى بيضاء لأسباب لا أعرفها..

وتضع أمامك سلطانية في حجم فنجان الشاي ..وفي هذه السلطانية يوجد البيض المضروب ..وعندما يسقط اللحم الساخن على البيض البارد فإن البيض يجمد ويسخن، أما اللحم فيبرد .وعليك أن تأكل هذا كله ..وإذا حاولت إدخال أية تعديلات على هذا الطعام الياباني الوطني وجدت صعوبة لا حدود لها ..فإذا طلبت استبعاد السكر، أتوا لك بصلصلة من غير سكر ولكن فيها شيء آخر غريب الطعم ..وإذا طلبت استبعاد البصل أتوا لك بأعواد الخيزران ووضعوها في الزبدة ..وإذا طلبت استبعاد الزبدة أتوا لك بالسمك النيء.

وأمام الأدب والذوق والرقة والانحناءة والركوع والسجود إلخ تنسى تلك الورقة التي ترجوك أن تصارح المطعم بأي عيب .وسينتهي بك الأمر إلى أن العيب فيك أنت ..أما اليابان وأهلها وطعامها فعلى خير ما يرام..

وعندما يسألني الناس عن رأيي في اليابان أقول صادقًا :عظيمة يا بختكم!

وعندما يسألونني عن رأيي في الطعام الياباني، فإنني أقول كاذبًا :لذيذ ..يا بختنا!..

في طوكيو مسرح اسمه كوكوساي، ومعناه :العالمي ..وهذا المسرح يقع في حي أساكا ..وكل شوارع طوكيو ليس لها أسماء ولكن الأحياء لها أسماء ..أما الشوارع فيعرفونها هكذا :الشارع الرئيسي في حي كذا ..ولذلك فأنا لا أعرف اسم الشارع الذي يقع فيه هذا المسرح ..وأنا أعتقد أن هذ المسرح هو أعظم مسرح رأيته في حياتي ..إنه أروع من الفولي برجير في باريس وأجمل من كل مسارح ودور أوبرا إيطاليا، وإن أي مدير مسرح يجيء ليتفرج على الإدارة المسرحية هنا وإدارة الضوء ونزول وطلوع وطيران الستار هنا وظهور السينما والتلفزيون على هذ المسرح فسيشعر أنه لا يعمل مديرًا لمسرح، وإنما هو يعمل في تصليح بوابير الجاز!

وعلى جانبي المسرح توجد 12نافذة يخرج منها الضوء يلاحق الراقصات ..وفي المسرح 200راقصة من أجمل بنات اليابان ..يختارهن المسرح بالمسابقة، وبعد تعليم خاص لفنون الرقص التقليدي والحديث.

وعلى المسرح مناظر مذهلة تتغير وتتلون وتتقدم وتتأخر في ثوان ..وهذا المسرح لأنه »عالمي «يعرض كل فنون الدول الشرقية والغربية ..اليابان واليونان وإيران وأمريكا ..وقد ظهر على المسرح إعلان رائع لشركة الطيران الهولندية الملكية :فظهرت مضيفات وراءهن طائرة كاملة، وفي السقف طائرة أخرى تحلق فوق رءوسنا، ثم ظهر شريط سينمائي .وفي أقل من ثانية اختفى هذا كله ..وظهر منظر آخر في بلاد اليونان.

وأروع مشهد هو الزلازل والبراكين ..وفي اليابان الدخان والحرائق والانهيارات وكلها تظهر في دقة مخيفة ..لقد تصورت أن الدخان سيخنق أنفاسنا جميعًا ..ولكنني لم أشم هذا الدخان الذي انطلق من المسرح إلى كل مكان ..وفي لحظة اختفى ..ولم أجد أحدًا أسأله عن تفسير هذه الظاهرة الغريبة..

أما المشهد الأخير، وهو التاسع والعشرون، فبعد ساعتين، وفيه يتحول الستار والمسرح إلى مئات المصابيح الكهربائية الملونة، والتي تدور حول نفسها كالنجوم، من بين هذه المصابيح الدقيقة الصغيرة تخرج الراقصات واحدة بعد واحدة، حتى يمتليء بهن المسرح ..لم أر أجمل ولا أروع من هذا..

الحقيقة أن اليابان تفوقت في كل فروع العلوم والفنون، وتفوقت في صناعة كل ما في البيت والمطعم والشارع والقطارات والسيارات ..كل شيء ..ولا أدري لماذا لم يحاولوا تعديل قائمة الأطعمة اليابانية!

إن هذا الموقف العنيد يؤكد أنهم أصغر من العادات والتقاليد ..إنهم لا يزالون أقزامًا!

* * *

ليس غبيًّا ولكن!

كل يوم تسأل نفسك في اليابان :هل هذا الشعب الياباني بليد الفهم؟ هل هو غبي؟

وتنظر إلى ما حققه اليابانيون بعد الحرب، وتنظر إلى الصناعات الضخمة والأذواق الجميلة، وتتذكر تفوقهم في كل فروع العلم والأدب والفن والصحافة .إن صحيفة اسمها »أساهي «توزع ستة ملايين نسخة يوميًّا!

وتقول في نفسك :لا يمكن أن يكون الناس هنا أغبياء، ولكن لا بد أنهم يفهمون بطريقة خاصة جدًّا، وأحيانًا تعتذر لهم فتقول :إن المشكلة في اليابان هي مشكلة اللغة الإنجليزية التي لا يعرفونها.

ولكن المصيبة أن المواقف المحرجة المحيرة لا تقع إلا من الذين يعرفون اللغة الإنجليزية!

فمثلًا طلبت من استعلامات الفندق أن تحزم بعض كتبي وتبعث بها إلى القاهرة بطريق البحر، وفهمت أن الكتب تحتاج إلى لف بالورق والدوبارة ثم كتابة العنوان عليها، ولم أعلق أي اهتمام على لف الكتب أو ربطها ..وسافرت بعد ذلك إلى هيروشيما وجنوب اليابان وبقيت أسبوعًا، وفي يوم فكرت أن أطمئن على هذه الكتب وسألت عنها، وفوجئت بأن الكتب ملفوفة وموضوعة على الأرض، ولم يدهش موظف الاستعلامات وكأن شيئًا لم يحدث ..وسألته كيف تترك هذه الكتب كل هذه المدة دون أن تبعث بها إلى البوستة؟

وعرفت أنه كان يجب أن أدفع ثمانية قروش أولًا »ثمنًا «للف بالورق والدوبارة ..ودفعت..

أما إرسال الكتب للبوستة فأنا وحدي الذي يجب أن أتولى هذه العملية .هل تعرف أين توجد البوستة؟ إنها في نفس الفندق وعلى مسافة ثلاث خطوات!

ذهب دبلوماسي عربي -لا داعي لذكر اسمه -إلى محل لتفصيل الملابس وقدَّم للترزي قطعة من القماش لتفصيلها بالطو، واشترط أن يكون البالطو من طراز خاص، ووقف الترزي يتحدث إلى زميل له طويلًا جدًّا ..وسأله الدبلوماسي إن كان هناك أي عيب في القماش ..فكان الرد :ولكن الجو ليس باردًا في اليابان ولذلك لا داعي لتفصيل بالطو من وبر الجمل.

وقال الدبلوماسي :ولكنني لا أتحمل البرد هنا.

وعاد الترزي يتحدث إلى زميله طويلًا جدًّا، وعاد الدبلوماسي يسأل إن كان هناك عيب آخر في القماش الذي يقلبانه بين أيديهما..

وفهم أن الترزي يناقش زميله إن كان قد سمع آخر أنباء الأرصاد الجوية فقد علم هو أن الأرصاد الجوية تنبأت بأن الجو في اليابان لن يكون باردًا لمدة خمس سنوات .وعلى ذلك فلا داعي للبالطو إطلاقًا!

ولما ضاق الدبلوماسي قال :يا سيدي سأرتدي هذا البالطو في موسكو في سيبيريا ..أنا حر!

واندمج الترزي وزميله في مناقشة حامية طويلة جدًّا .ولم يطق الدبلوماسي صبرًا فسألهما من جديد :ألا يمكن تفصيل هذا البالطو؟

أجابا :طبعًا ممكن.

وقال الدبلوماسي :إذن لماذا كل هذه المناقشة ..إنني هنا منذ ساعة بالضبط ولم أفهم شيئًا.

وكان الرد القاطع :ولكن هذه التفصيلة التي ترتديها قديمة، وقد عدل عنها اليابانيون منذ خمس سنوات.

وصرخ الدبلوماسي :ولكن تعجبني يا أخي.

وعاد الترزيان إلى الكلام، وخرج الدبلوماسي وترك القماش، وهو لا يدري الآن إن كان سيجد القماش قد فصلوه بالطو أو جعلوا منه دستة مناديل!

وتسألني أنت عن معنى هذه التصرفات التي تتكرر كل يوم؟

لا أعتقد أن هذا غباء ولكن الياباني يفهم بطريقة خاصة، ويجب أن يكون كل شيء محددًا تمامًا.

وقد سألت عن الكلام الطويل الذي يدور بين اليابانيين عادة.

فمثلًا إذا سألت أحدًا في الطريق العام عن اسم أي شارع، ولم يفهم كلامك أو يفهم بعض كلامك فإنه يتجه إلى أي ياباني آخر ويدور بينهما كلام طويل جدًّا .ولا تعرف أنت ما الحكاية ..وأخيرًا تتركهما وتمشي أو تركب سيارة وتنظر من النافذة فتجد أن الاثنين يتكلمان.

أخذت معي صديقًا يابانيًّا، وذهبنا إلى مكتبة أسأل فيها عن كتاب عن »إلغاء البغاء «في اليابان .وفي تقديري أن السؤال عن هذا الكتاب لا يستغرق أكثر من عشر ثوان أو أقل ..والذي أدهشني أن هذا الصديق ظل يتحدث مع صاحب المكتبة أكثر من عشر دقائق، وقد ظننت أنه يناقشه في موضوع أحد الكتب أو يفاضل بين الكتب الموجودة في المكتبة وأيها أنسب، ولما سألته إن كان الكتاب موجودًا، فقال لي إنه لا يوجد هنا الآن.

وعرفت منه أن الحوار كان موضوعه السؤال عن الكتاب، ورجوته أن يترجم لي حرفيًّا كل ما دار بينهما.

وأنا أنقل هذه الترجمة الحرفية:

قال صديقي :أليس عندك كتاب صدر أخيرًا يكون وافيًا بالغرض إن أمكن؛ لأن هذا الصديق جاء من القاهرة ومهتم بشئون اليابان .وقد يسافر بعد أيام وهو لذلك على عجل ..وأنا أحب أن ألبي كل طلباته لأنه قد ينفعنا في الدعاية لبلدنا وفي توطيد العلاقات الثقافية بين اليابان والعالم العربي .وقد طلبت منه صحيفة »أساهي «مقالًا عن اليابان لنشره كاملًا مهما كان نقده لليابان وهي تعلم مقدَّمًا أن لسانه طويل ..ولهذا فأنا أرى مساعدته إن أمكن الحصول على كتاب عن موضوع البغاء، وخصوصًا إلغاء البغاء لو تشرفتم ..وأعتقد إذا لم تَخُنِّي ذاكرتي أن وزارة العدل هنا أو وزارة التربية قد أصدرت كتابًا أعتقد أنه لا يزيد عن مائة صفحة أو مائتين وإن كان أحد أصدقائي يؤكد لي أن كتابًا آخر صدر في أمريكا عن هذا الموضوع ..فإذا تفضلتم وساعدتموني إن أمكن في الحصول على هذا الكتاب في أقرب وقت، وإذا وجدتموه أرجوكم إن تكرمتم أن تبعثوا به إلى الفندق وسأعطيك عنوانه الآن ..إلخ.

وبعد كل ثلاث كلمات يرد عليه صاحب المكتبة قائلًا :آه سودسكا ..ومعناه آه كده آه كده.

والنتيجة أن صاحب المكتبة لم يسمع عن هذه الكتب جميعًا ويأسف جدًّا وينحنى كأنني اشتريت منه كل المكتبة!

أمس علقت على باب غرفتي ورقة مطبوعة مكتوبًا عليها :الهدوء من فضلك لا تزعجني..

ومعنى هذه الورقة ألا تدخل خادمة وتنظف الغرفة أو تدخل لتجمع فناجين القهوة أو الشاي أو تحضر الغسيل ..ومضت ساعة في هدوء وبعد ساعة أخرى دق جرس التليفون وسألتني الخادمة متى تدخل الغرفة لتنظفها، فقلت لها :بعد ساعتين ..وشكرتني ولا بد أنها انحنت أمام التليفون على الناحية الأخرى من الخط.

ولكن حدث بعد ذلك أن تجمعت المقشات الكهربائية ..وراحت تزن وتئن أمام باب الغرفة بصورة مزعجة.

لقد فهمت الفتاة أنني حريص على الهدوء داخل الغرفة فقط، أما الضوضاء التي تدور خارج الغرفة تخرم أذني وتطفش الأفكار من رأسي فهذا شيء آخر لم أطلبه في الورقة المعلقة على باب الغرفة.

وأفهم من هذا أن الرجل أو)الفتاة اليابانية (ينفذ بالحرف الواحد ما تطلبه دون أي تصرف ودون أي تقدير لأي احتمال آخر.

يعني غبي؟ لا ..وإنما يفهم وينفذ بصورة خاصة ..مختلفة عن المألوف عندنا!

انطلق بنا القطار من هيروشيما إلى طوكيو ..كان من المفروض أن يقف بنا القطار في مدينة كيوتو ساعتين ..هكذا قيل لنا، وكان في نيتنا أن ننزل في مدينة كيوتو، ونتناول طعام العشاء ..فقد عرفنا بعض المطاعم بها ..وأصبحت لنا صداقات مع الفتيات هنا ..وقد عثرنا بمحض الصدفة على واحدة تعرف أكثر من عشرين كلمة إنجليزية، وكنا سعداء بها .وفوجئنا في الساعة التاسعة مساء أن القطار الذي ركبناه هو إكسبريس .وأنه اتجه إلى الجنوب ثم إلى الشمال وتفادى المرور بمدينة كيوتو، وسيقف على بعض المحطات الأخرى التي لا نعرفها ..وبدأ الباعة .أقصد البائعات يرحن ويجئن في القطار ومعهن أطعمة لا نعرف أسماءها فكلها في علب مقفلة .وكان التفاهم صعبًا ..ومددت يدي إلى العلبة ودفعت ثمنها .وشكرتني الفتاة عشرين مرة ..كأنني اشتريت شيئًا لا يشتريه أحد وكأنني خلصتها من ورطة ..أو كأنني اشتريت منها كل البيض الممشش الذي رفضه اليابانيون مع أنه في الفلبيين طعامهم المفضل في الصباح، أنا أكلته ووجدته يتعب المعدة والكبد والأمعاء الغليظة ولا تذهب رائحته إلا بغسيل الفم سبع مرات إحداهن بالتراب -وفتحت الصندوق ووجدت أربع أصابع بنية الألوان ..وأزلت الطبقة البنية ووجدت في داخلها مادة بيضاء ..وعرفت عن طريق الكمسري الذي يعرف أسماء الخضراوات والفواكه ..أن هذا هو أرز.

وسألني عن معنى هذه الأكلة في بلدنا فقلت له :اسمها سد الحنك..

وفي أدب ياباني ولكن مفتعل جدًّا وضعت الصندوق تحت الكرسي ..ومرت فتاة تبيع اللبن في زجاجات مقفلة .وأشرت إلى زجاجة واشتريتها وفتحتها وكانت باردة جدًّا .وفي اليابان مثل أوربا يشربون اللبن باردًا ..ومعظم الأطعمة باردة .وذقت طعم اللبن ثم وضعت الزجاجة تحت الكرسي..

ومرت فتاة ثالثة ومعها سميط -في اللغة العربية الفصحى اسمه سميذ -السميط ملفوف في ورق شفاف ..وكل شيء في اليابان ملفوف لفًّا أنيقًا، والسميط ناشف جدًّا ..ورائحته سمك .وعرفت بعد أيام أن هذا السميط مصنوع من الأسماك والجمبري المجفف .وفي غلب وقرف وضعت السميط تحت الكرسي وأحسست أنه فعلًا سميذ وليس سميطًا كالذي نعرفه..

وكان يجلس ورائي رجل ياباني وزوجته أو عروسه ..وكانت أمامها كمية من الطعام هائلة ..كلها من علب وقراطيس وزجاجات ..ويأكلان بشهية مذهلة ..وبين الحين والحين أنظر ورائي فأجد لحومًا وأسماكًا ومكرونة وأشياء تشبه البصل والبيض أو الفجل وأشياء أخرى تشبه العيون المقلوعة ..وفي الصباح وقف القطار عند محطة .وفي المحطة رأيت فتاة تبيع البيض في قراطيس من النايلون ..ولاحظت أن البيض ليس معه ملح أو فلفل

فاشتريت قرطاسًا من السوداني المملح .وبدأت كسر أول بيضة ..وكانت لذيذة باردة جامدة ومررتها على السوداني المملح المقشر ..وثاني بيضة لا يمكن أن تكون يابانية ..إنها مستوردة من الفليبين ..فقد وجدتها جافة وفيها تمثال صغير لكتكوت ..والبيضة الثالثة كذلك ..ووضعت البيض تحت الكرسي ..ووضعته بعناية تامة في القرطاس النايلون..

ولمحت على رصيف محطة أخرى رجلًا يبيع أباريق الشاي الساخنة والدخان يتصاعد منها ..ونظرت إلى الركاب حولي ..كلهم يشربون الشاي الساخن وقد تعودت على الشاي الياباني الأخضر ..وقد اشتريت برادًا ..وجلست وأنا سعيد بهذا الشيء الدافئ وصببت في فنجان صغير ..ولم يكن الشاي أخضر اللون ولا أحمر اللون ..لقد كان ماء ساخنًا بلا لون ..ولكن له طعم النبيذ وله رائحة الكونياك ..إنه المشروب الياباني الوطني، إنه »الساكي ..«وضعت البراد تحت الكرسي..

وأرجعت مقعدي إلى الوراء واستسلمت للأطعمة التي في فمي ..ورحت أقلب لساني يمينًا وشمالًا وأغسل شفتي بريقي وأمسحهما بيدي ..وحاولت أن أتشاغل عن الطعام وأن أسد أذني عن حركة التكسير والطحن في المقعد الذي ورائي..

ولكن المعدة الخالية لها ألف أذن ولها ألف أنف أيضًا فأنا معذور!

وبعد نصف ساعة وصل القطار إلى محطة طوكيو ..ومن نافذة القطار وجدت كل الفنادق مقفلة والمطاعم مظلمة ..لقد وصل القطار في السادسة صباحًا والمحلات تفتح أبوابها هنا في التاسعة.

وجمعت حقائبي ولففت البالطو حولي وشددت الحزام حول معدتي لعلي أسكتها وهي تسب وتلعن وتصرخ ..ولم أكد أنزل على الرصيف حتى وجدت البائعة التي اشتريت منها البيض والشاي والسميط قد وقفت على الباب تحييني وتقول كلامًا لا أفهمه ..وفجأة وجدتها قد جمعت كل الأشياء التي وضعتها تحت الكرسي وقدمتها لي من جديد ..لقد ظنت أنني نسيتها ..وأمام وجهها الباسم وأدبها الذي لا حدود له ..حملت كل هذه الأطعمة ونزلت بها من الرصيف إلى الشارع ولا أدري أين أضعها ..فالشوارع كلها نظيفة ..وأشرت إلى تاكسي وأخرجت من حقيبتي إحدى الصحف ولففتها في الصحيفة ..وألقيت بها جميعًا من السيارة .وعندما دفعت للسائق الأجرة أشرت إليه أن ينطلق بسرعة قبل أن ينتبه إلى أنني قد نسيت هذه الأطعمة فيعيدها لي من جديد..

وعندما توقف التاكسي لكي ينبهني إلى الأشياء التي تركتها قلت في سري :بصراحة أهي دي اسمها غباوة!

* * *

واحنا معانا قرد!

كأن القمر نزل من السماء وتكسر قطعًا قطعًا فوق مدينة طوكيو ..كل شيء منير وملون ومتحرك.

الحواري الصغيرة أجمل من الشوارع الكبيرة وأكثر عفاريت وملائكة من الميادين .والمطاعم الكبيرة النظيفة جدًّا ..والمطاعم الصغيرة فيها حياة، ناس يضحكون بلا حساب، ويأكلون بلا حساب..

ولا أعتقد أنه يوجد في أية عاصمة في الدنيا هيصة وطرب وحظ كما يوجد في مدينة طوكيو ..إن أي شارع جانبي به عدد من البارات والكباريهات أكثر من الموجود في القاهرة والإسكندرية ودمشق معًا..

وأنا أعترف بعد ثلاثة أسابيع من الحياة في طوكيو أني لم أعرف اسم أي شارع ..وفيما عدا شارع جنزا الذي به عدد لا يحصى من الشوارع الجانبية ..فهي كثيرة ..وفي هذه الشوارع الجانبية توجد بيوت كثيرة صغيرة.

كل بيت له باب مضيء وعلى الباب كرة من الورق الملون المضيء ..وعلى الباب فتاة يابانية تبتسم لك دائمًا ..وفي الغالب كل هذه البيوت الصغيرة يسمونها مطعمًا أو مقهى أو مشهى .والأسعار ليست رخيصة كما تقسم الإعلانات على ذلك .وتؤكد أنه مائة ين أي عشرة قروش ..ولكن هذه القروش تتزايد في الداخل وتصبح جنيهات ..هذه الجنيهات يجب دفعها بعد ساعة من جلوسك ..كل ساعة يجب أن تدفع ..فقد يحدث أن يسهو عليك فلا تدفع أو تنسحب وتخرج.

وهناك في الشوارع الكبرى شبان لهم ملابس نظيفة ووجوه ضاحكة وفي أيديهم سجائر أمريكية تدل على أنهم أولاد ناس، وأنهم في غنى عنك .هؤلاء الشبان يقتربون منك ويهمسون :ما رأيك في سهرة حلوة؟ فتاة تتكلم الإنجليزية بطلاقة ..إنها لا تريد أي فلوس ..إنها تحب الجلوس مع الناس.

ثم يضع يده في جيبه ويخرج لك علبة سجائر ذهبية أنيقة ..ومن الجيب الآخر ولاعة رونسون غالية الثمن ..ومن البنطلون محفظة جلد تمساح بها صور للفتاة منذ عشر سنوات وأحيانًا عشرين سنة ..ولو نظرت إلى الفتاة لوجدت فيها شبهًا كبيرًا منه ..كل هذا جائز في طوكيو.

وقد يكون من مبادئك المشي مع الكذاب إلى باب الدار ..وستعلم حقيقة غريبة أن الناس لا يكذبون ..التاجر لا يكذب ..وستجد أن هذا الشاب قد وصل فعلًا إلى باب الدار ولكن الدار مش ولابد ..وستجد أنه نقلك إلى أحد المقاهي أو المشاهي..

وفي هذه الصناديق الصغيرة ..وفي الظلام تبدو كل الفتيات جميلات، وكل الرجال أيضًا ..فإذا قالت لك إحدى الفتيات :هاي ..أهلًا بك يا چيمي ..أو يامیمي ..فيجب أن ترد التحية لأنها تراك مثل عمر الشريف لا تدقق معها ..أو على الأقل لا تدقق معها الآن..

فكل الناس في غاية الجمال والكمال في هذه الصناديق الليلية التي يبلغ عددها عشرة آلاف صندوق في طوكيو..

حاولت أن أطبق المشي وراء الكذاب ..وذهبت إلى أحد الصناديق حيث توجد أجمل فتاة يابانية!

الحقيقة كان أكبر من صندوق ..إنه كان »صحارة «من صحاحير الليل ..وقلت في نفسي :يا واد روح ..حتخسر إيه.

وذهبت وأملي ضعيف جدًّا في أن أقابل أجمل فتاة في اليابان، وقد قرأت في الصحف أنها وصلت من لندن منذ أسبوعين، وأنا رأيت صورتها وعلمت عنها الكثير ..شكلها مش ولا بد ولكن دمها خفيف ..وقد سمعت لها تسجيلًا في الراديو وأعجبني منها كلامها بالإنجليزي ..رقيق مضحك ..وقلت :روح مهما فعل اليابانيون فلن يكونوا في شقاوة أولاد أو بنات باريس..

وقبل أن أصل إلى هذا الصندوق الكبير اقترب مني الشاب الوسيم وقال لي :انتظر في الصالون بعض الوقت وبعد ذلك ستضاء الأنوار ..ومرة واحدة تنطفئ وستجد العرض الخاص الذي تقدمه ملكة جمال اليابان.

وفي نفسي قلت؛ والله كداب يا ابن الإيه..

وهمس في أذني مرة أخرى وطلب مني أجرة التاكسي وأعطيته بعض القروش ..وبعد مناقشة وافق وودعني ..وصعدت السلم .الموسيقى تستقبلني ..موسيقى عالية ..أحسست كأن الموسيقى تزفني ..تريد أن توقعني على السلم ..والأصوات والضحكات عالية ..إنها أصوات أناس سكارى ..وهناك ضحكات ناعمة يابانية ..الوجوه حلوة كلها من الورد والتفاح .أما الروج على الشفايف فهو يشبه أختام السلخانة على اللحم العجالي ..والنظرات ليس فيها ترحيب كما كنت أتصور ..ودخلت غرفة ..الناس فيها واقفون يشربون »الساكي «وهي الخمر اليابانية التي لا تشرب إلا ساخنة!

وبدأت البيرة التي يشربونها تخرج على هيئة الرغاوي من أفواههم، وبعضهم أخذ يتلوى كالأسماك اليابانية ..عندما استقرت في معدتي أول يوم ولم أكد أراها حتى أحسست بمغص شديد ..قد تقول إن هذا كلام أو مجرد خيال ..معك حق ..فهذا رأيي أيضًا ولكن معدتي لها رأي آخر وقد حاولت أن أجعلها تعدل عن رأيها هذا ومعي ثلاثة من الأطباء ..ولكنها عنيدة ..فاستسلمت لها عندما رأت هؤلاء السكارى يتلعبطون من شدة الخمر.

وهجمت فتاة يابانية على ملابسي وقد ظننت أنها سكرانة وأنها تكاد تسقط على الأرض ..فحاولت إسنادها وإجلاسها على أحد المقاعد ..وجلست ونظرت ناحيتي وقالت :هات لك كرسي يا روحي -قالت كلمة أخرى مش لطيفة!

وأتيت بكرسي ولكني لم أجدها ..لقد اختفت..

وضحكت لهذه النكتة ..وضحكت عندما عرفت أنها أخذت علبة سجائر كانت في جيبى ولم يكن بها إلا سيجارة واحدة من صنف ياباني رديء جدًا.

ولمحت بين الموجودين رجلًا كنت قابلته في مدينة سيدني بأستراليا ولم يكد يراني حتى عانقني بعنف .مع أننا لم نكن أصدقاء ..ولكن البيرة قادرة على صناعة هذه الأحضان وأكثر وقال :أين أنت وماذا فعلت؟ وماذا تفعل هنا؟ وماذا تريد أن تفعل هنا؟ إنك تطاردني ..ففي كل مكان أهرب منك ومع ذلك أجدك ..من ذا الذي أرسلك هذه المرة؟ لا بد أنها زوجتي الملعونة ..أنا أعرفها ..وأعرف ألاعيبها وأعرف ما الذي يعجبها فيك ..فلست أنت أول واحد في حياتها!

والحقيقة أنني لا أعرف زوجته ..وكل ما هناك أننا تقابلنا في إحدى الحفلات ..ولاحظت أن هناك اهتمامًا شديدًا من زوجته بشخصي بعد هذه المقابلة ..فقط اهتمام يحتمه أدب الضيافة في أستراليا أو في أي بلد متحضر!

وعرفت فيما بعد أن هذا الرجل يجيء كل ليلة وينفق عشرات الجنيهات..

وفي هذه الهيصة لم أبحث عن ملكة جمال اليابان ولم أسأل أحدًا من الحاضرين، وأدركت أنني شربت مقلبًا، كنت أتوقعه ..ولكنني لم أخسر شيئًا ..ففي أي بلد جديد لا أخسر أي شيء ..فكل شيء جديد أعرفه فهذا مكسب ..فأنا ازددت معرفة بهذا النوع من الناس!

وعرفت ماذا يجرى في صناديق الليل في طوكيو ..وعرفت ماذا يمكن أن يحدث لرجل مخمور في هذه الصناديق وكيف تضيع أموال الناس ومحافظهم .هكذا كنت أقول لنفسي وأنا جالس على مقعد وثير في أحد الأركان وأمامي زهرية بها ورد .لا أعرف إن كنت أواسي نفسي ..ولا أعرف إن كانت يدي اليمنى قد امتدت إلى يدي اليسرى وصافحتها بعنف ..ولا أعرف إن كان هذا الصوت الذي أسمعه يقول :شد حيلك ..لا أعرف إن كان هذا الصوت قد صدر عني.

وفجأة قفزت إلى جواري فتاة يابانية ..مش قوي ..مش ولا بد خالص، وسألتني :كيف حالك؟

فقلت لها :وكيف وجدت حالي!

وكانت تتحدث الإنجليزية ويبدو أنها كانت تقلد الإنجليز في لون بشرتهم أيضًا ..فخدودها حمراء وعيناها حمراوان أيضًا ..وجعلت تغني باليابانية وبصوت مرتفع وطلبت منها أن تترجم لي هذه الأغنية .ولم يعجبني كلام هذه الأغاني ولم يعجبني اللحن أيضًا ..وفجأة جلس الصديق -صديق بالقوة -الذي قابلته في أستراليا ..وانضم إلينا ..وبدأ هو الآخر يغني ويلعن زوجته وكل زوجة، وكل زوج يتصور أن الحياة مستحيلة بلا زوجة ..وانضمت إليه هذه السيدة تلعن الرجال الأزواج وغير الأزواج والذين ينجبون الأطفال والذين لا ينجبون الأطفال مثل زوجها .وقالت كلامًا معناه :يا حسرة بعد 15سنة ولا حتة عيل ..رجالة إيه دول!

وكانت الساعة الثانية عشرة مساء .وهذا موعد إقفال البارات والكباريهات في طوكيو ..شيء غريب ..ولكن طوكيو مدينة عجيبة الأطوار .غريبة النساء والرجال!

وفجأة جلس إلى جواري عدد من الجنود البريطانيين .أما الجنود الأمريكيون فهم مفضلون على غيرهم من الناس لأسباب لم أكن أعرفها بوضوح ..فالجندي البريطاني مرتبه ضئيل جدًّا ولذلك إذا دخل أحد البارات فهو لا يشرب أكثر من زجاجة بيرة فإذا به مخمور وإذا به يهجم على البنات والرجال وهات يا ضرب ..أما الجندي الأمريكي فمرتبه كبير ..ومعه سجائر ومعه دولارات ..فهنا خيار وفقوس ..وقد تكوم الفقوس حولي وكلهم من الجنود البريطانيين ..ولاحظت أن واحدًا من الجنود يخاطب هذه السيدة التي جلست معنا بقوله يا صاحبة الجلالة.

إذن هذه هي ملكة جمال اليابان ..ممكن !ولكن في أية سنة؟ وسألتها فعرفت أن هذا لقب أطلقه عليها الجنود الأمريكيون وأنها هي وحدها التي تتكلم الإنجليزية بطلاقة وأنها كان من الممكن أن يكون لها شأن في هذا الصندوق لولا أنها لا تفيق من الخمر.

ولذلك فهي تعمل جرسونة للتواليت في هذا الصندوق ..جرسونة؟

ونهضت وفي أذني أغنية أم كلثوم التي تقول :واحنا معانا بدر ..طالع في ليلة قدر ..وأنظر إليها وأقول :واحنا معانا قرد طالع في ليلة برد، احنا نقول حوشوه وهو يقول هاتوه ..واحنا معانا حمار ..طالع من الدوار.

وأمام باب الصندوق وجدت شابًّا آخر يهمس في أذني ولم أعرف ماذا يقول ولكن صرخت فيه :اسكت يا نصاب!

وعندما عدت إلى الفندق تذكرت أنه كان يسألني الساعة كام!

* * *

زوجتي من اليابان!

لم أشهد في حياتي كلها عملية »كتب الكتاب «إلا مرة واحدة، وكان ذلك في السيدة زينب ..وكان العريس أحد أصدقائي في السلك الدبلوماسي .ولا أعرف إذا كان هذا يحدث في كل خطبة أو زواج ولكن الذي رأيته فعلًا، غريب .غرفة بها مقاعد ..نفس المقاعد التي تستخدم في المآتم.

والناس صامتون لا أحد يتكلم تمامًا كالمآتم ..وبين الحين والحين يهمس واحد من الحاضرين في أذن الآخر ويقول له :ربنا يتمم بخير.

يتمم إيه؟ مش عارف .ولكن يتمم والسلام.

وفي جانب من هذه الغرفة يجلس ثلاثة من المشايخ أحدهم ضعيف النظر جدًّا وهو الذي تتجه إليه الأنظار .وهو الوحيد الذي لا يتوقف فمه عن الهمس كأنه وضع بطارية جافة في صدره، وربط أحد أسلاكها بشفتيه .فشفتاه ترتجفان دائمًا ..ويقول الذين سمعوه عن قرب ..إنه يشبه القطط »يزن «ولا يقول شيئًا ..أنا لا أعرف.

وبعد لحظات، ويقال ساعات، يخرج هذا الرجل من جيبه رزمة ورق ملفوفة، ورق أبيض .ويخرج من جيبه زجاجة حبر، ومن الجيب الآخر ريشة فيها سن صفراء غير صالحة للكتابة .ولذلك يجب إحراقها بعود كبريت حتى تصلح للكتابة .ويجب أن يحضروا له كوبًا من الماء لكي »يطش «فيه هذه السن وبعد ذلك تصلح للكتابة ..والله أعلم ..وقد حدث هذا كله.

وتأكيدًا لعملية إطفاء السن الساخنة وضعها الشيخ في فمه، وبعد ذلك أشار إلى زميل له .ودنا الزميل وقال له :قل بسم الله الرحمن الرحيم ..واكتب.

وبدأ الرجل يكتب صيغة وثيقة الزواج ..طويلة طويلة ..وبدأ يكتب من هذه الوثيقة عدة نسخ ..مع أن في الإمكان طبعها وبسهولة ..وعلى ذلك تكون عملية الكتابة أيسر من كتابة شيك ..ولكن هؤلاء المشايخ يريدون أن يتعبوا ويعرقوا وأن يقدم لهم أهل العروس منديلين أو ثلاثة من الحرير ليمسحوا بها العرق .كل هذا يتم والناس صامتون كأنهم في مأتم.

وهناك مثل يقول :إن يوم كتب الكتاب هو اليوم الذي يكذب فيه العروسان، فالعروس تبكي والعريس يضحك!

وهذا يحدث في كل كتاب!

وكنت أتصور أن هذا يحدث في بلادنا فقط ..ولم أتخيل أبدًا أنه يحدث في اليابان ..إلى أن كنت في إحدى قرى هيروشيما ..أما العروس أو بعبارة أصدق الفتاة التي أعجبتني -فهي مختلفة عن بنات اليابان -إنها طويلة بيضاء اللون أو شقراء وشعرها أسود ثقيل ووجهها مستدير مليء بالدم ..أو فيه بقع من الدم عرفت فيما بعد أن هذه هي خدودها ..ولها شفتان غليظتان ..ولها أسنان بيضاء كالثلج ..ومن الغريب أن لها صدرًا ..ولذلك يؤكد الناس أنها من أصل أجنبي، وهذا يضايقها من الناحية الوطنية ويسعدها من الناحية الأخرى ..وأنت فاهم!

وفي يوم كنت أتمشى بالقرب من إحدى الحدائق العامة رأيتها وابتسمت لها، ولم يكن في نيتي أي شيء ..مجرد ابتسام ..ياجت ياماجتش ..وابتسمت هي ..وأنا أعلم أن اليابانية تبتسم دائمًا وبلا سبب ولا مبرر ولا معنى ..وسألتها إن كانت تعرف الإنجليزية ..وقلت هذه العبارة باللغة اليابانية التي أعرف بعض كلماتها فأجابت أنها تعرف.

وبالاختصار جلسنا معًا في أحد المطاعم وتغدينا وشربنا الشاي وتعشينا، وبعد العشاء تمشينا، وبعد ذلك عاد كل منا إلى بيته، وفي اليوم التالي تناولنا الإفطار والغداء والعشاء وبعثت بتحياتي إلى أمها وإخوتها وخادمتها وقطتها الصغيرة .فقد أصبحت أنا أحد أفراد أسرتها ..أجلس على نفس المائدة مع القطط والحيوانات الأخرى.

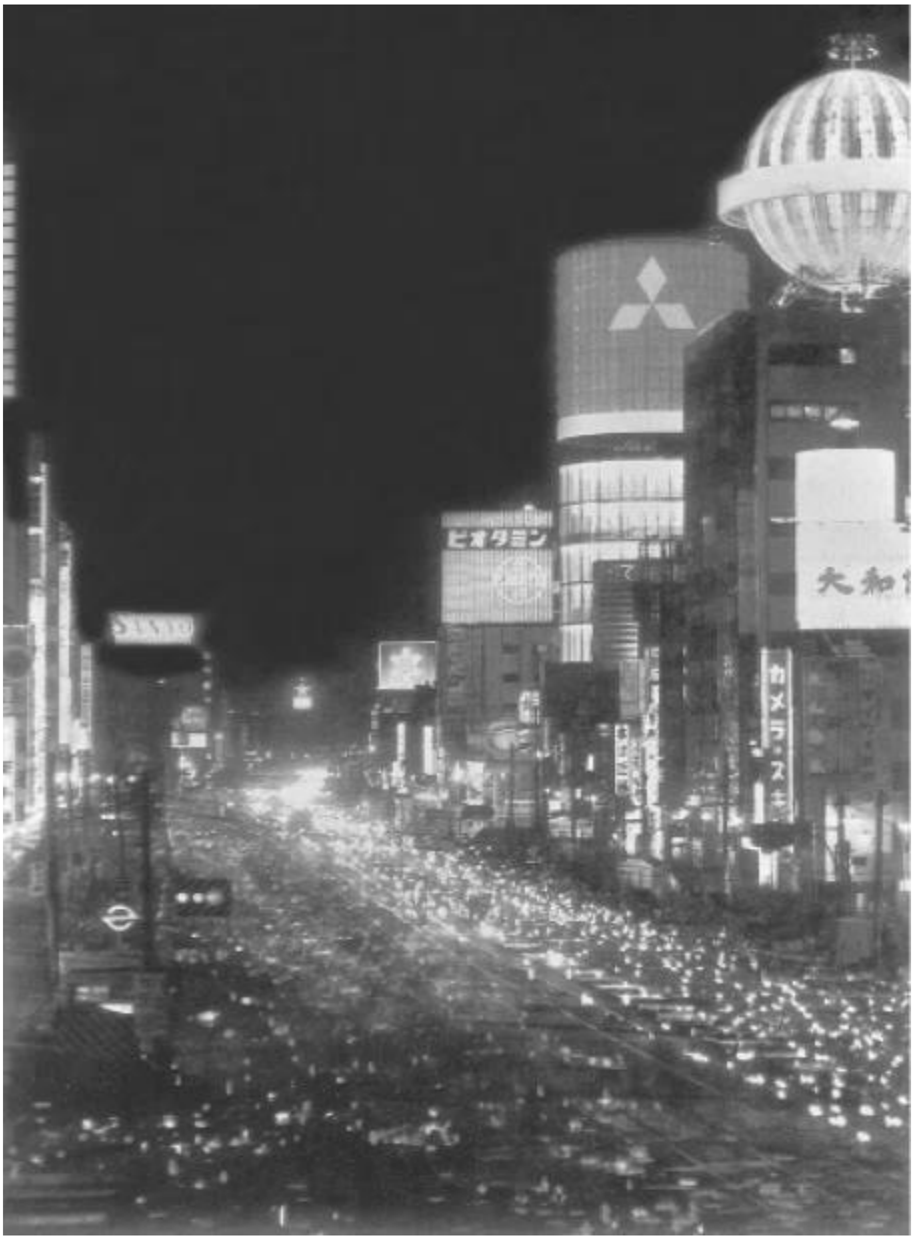

أشهر شوارع طوكيو :اسمه جنزا .في هذا الشارع كل شيء من الدبوس الذي به لؤلؤة إلى البيت الذي به ألف فتاة جيشا!

حفيدة ..لقد وضعت في فم الصغيرة بزازة حتى لا تفتح فمها وتسألها من هذا الأجنبي الذي يصورها -أنا طبعًا!

أنا إلى اليمين ولا تسألني ما الذي أتناوله، إن رائحة الطعام لا تظهر في الصورة!

الغرض من هذه الصورة ليس الطعـــام طبعًا ولكن أن ترى أكثر من فتاة في أوضاع مختلفة

إحدى فتيات الجيشا .ثمن هذا الزي غالٍ جدًّا ولا تقدر عليه إلا الجميلات جدًّا!

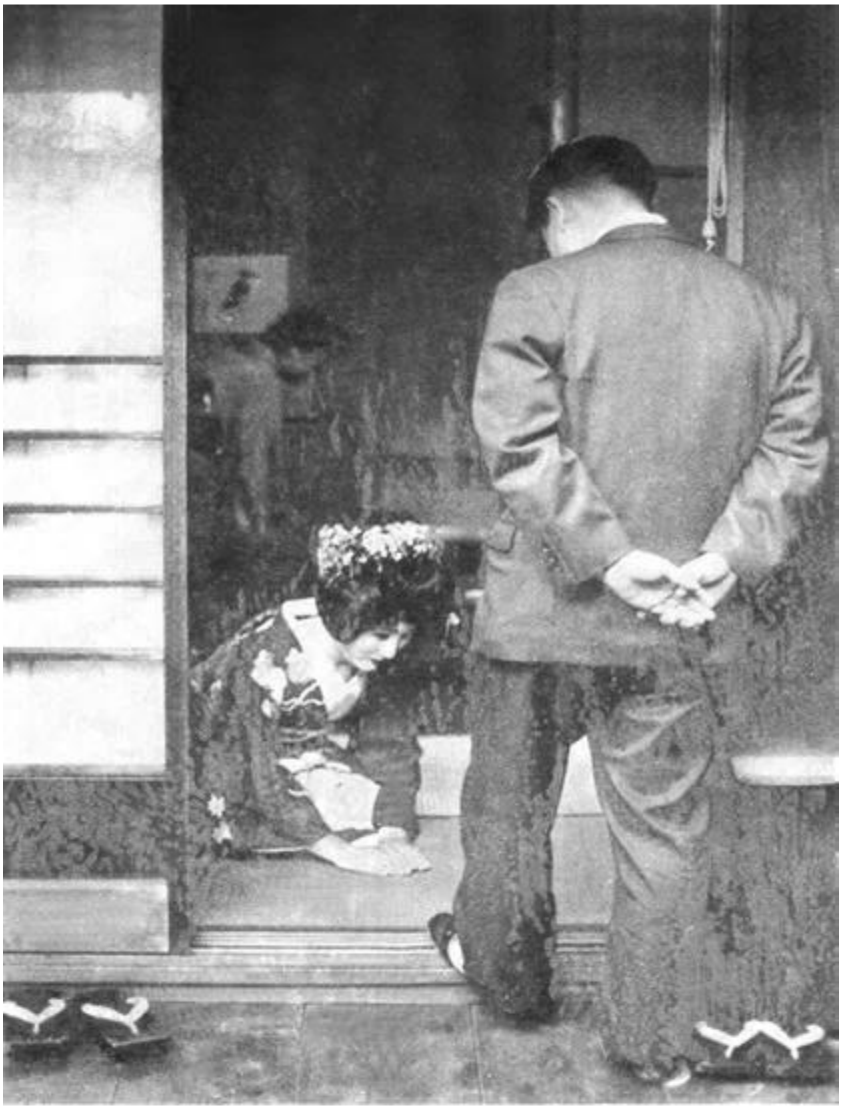

عندما تدخل أي بيت من بيوت الجيشا تساعدك على خلع الحذاء وتضع الشبشب في قدميك -وغالبًا تكون قدمك أكبر!

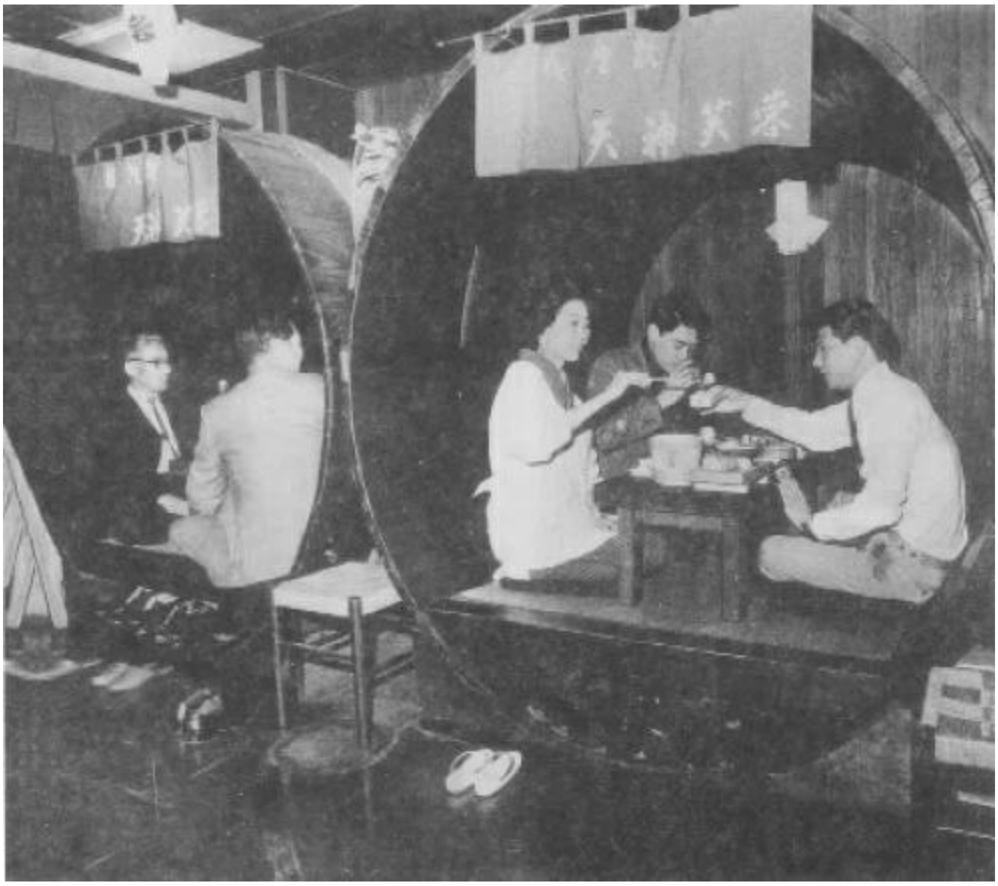

للطعام طقوس أيضًا!

هذه الفتاة صيادة لؤلؤ يابانية ..إنها تضع اللؤلؤ في السلة وتدلي به في المحيط

صيادة اللؤلؤ اسمها »الأمة «بفتح الهمزة ولها مواصفات خاصة..

في شوارع طوكيو نجد الزي الياباني :الكيمونو ..والزي الأوربي الحديث

عملية صعبة جدًّا تصفيف شعر بنات الجيشا ..وصبغ وجهها بكمية لا ضرورة لها من البودرة!

أنا في الطريق من طوكيو إلى العاصمة القديمة كيوتو ..لست حزينًا ولكني مرهق جدًّا؛ فالرحلة طويلة ولا تزال طويلة!

كل هؤلاء يتناولون الغداء على حسابي من أجل أن أنشر هذه الصورة فقط!

سوف تكون جيشا عندما تكبر ..إنها الآن في حالة حضانة!

زيارة ..الصورة فقط لتعرف ما الذي تفعله الجيشا إذا زارت واحدة أخرى!

في أماكن العبادة ..عبادة لبعض مظاهر الطبيعة ..مثل الجبال والبراكين ..ليست عبادة وإنما هو نوع من التقديس لهذه المظاهر المحلية لقدرة الله..

فن وبراعة وصبر ووراثة :هذا ما تحتاجه الغواصة صيادة اللؤلؤ

صيادة اللؤلؤ ..الماء بارد ..ويجب أن يساعدها أحد على الطفو..

إمبراطور اليابان وأسرته -كان له سلطان عظيم جدًّا .أما الآن فلا!

وفي اليوم الذي يليه تقاربنا أكثر، وجعلت أحكي لها عن حياتي ..وأعتقد أن قصصي عن حياتي كلها لا أساس لها من الصحة ..مجرد اختراع ..مجرد كلام ..فأنا أكره الكلام عن حياتي وأجد أن هذا الكلام سخيف ولا يهم أحدًا سواي ..وحكيت لها الذي يعجبها من الكلام والذي يشدها إلى جانبي وإلى ناحيتي وإلى حياتي ويجرجرها ورائي.

ولم أتصور أن كل الذي دبرته بيني وبين نفسي حدث من أوله إلى آخره ..فانزعجت كأنني وضعت أصبعي على زرار أسانسير وانطلق إلى أعلى واكتشفت أنني وصلت إلى الدور التسعين بدلًا من الدور التاسع فأصابني خوف شديد!

وتطورت الحوادث بسرعة صاروخية ..دعتني الآنسة »أسوشا «إلى بيتها ..وهناك على الباب نزعت الحذاء ولبست الشبشب ..آسف ..هناك نزعت السيدة أم أسوشا الحذاء من قدمي ووضعت الشبشب وانحنت على الآخر..

وكذلك أبوها وأخوها وأختاها وطفل صغير وحتى أسوشا ..انحناءات تشبه الركوع الشديد ..على إيه؟ لا أعرف ..ولكن هذا ما حدث.

وبدأت عملية الزحف نحو غرفة الشاي، وهناك نزعت الشبشب ولبست شبشبًا آخر، وحتى لا أتجنى على الحقيقة نزعت صديقتي أسوشا هذا الشبشب من قدمي ..ولبست شبشبًا آخر.

وبدأت حفلة الشاي المر الطعم ..كوب وراء كوب .وإلى جانب الشاي يوجد بعض الحلوى التي طعمها فظيع جدًّا وبعض الأسماك المجففة وبعض الأعشاب التي بها ملح..

واقتربت مني أختها الصغيرة وبدأت تشد الشعر من ذراعي وتضع يدها على يدي وتضحك طبعًا ..يدي أكبر من يديها الاثنتين معًا ..فيد الفتاة اليابانية صغيرة جدًّا ..وبدأت تضع قدمها إلى جوار قدمي وتقيس قدمها ..والأسرة كلها تضحك.

وبعد لحظات حضر رجل له لحية طويلة جدًّا ولكن عدد شعرات هذه اللحية لا يزيد على عشرين شعرة .وهو رجل أصلع أو على الأصح أقرع، وهو لا يعرف كلمة واحدة إنجليزية .وكان كلامي معه عن طريق أسوشا.

سألت :من هو؟

فقالت :إنه المأذون.

ولم أفهم هذه الكلمات فسألتها مرة أخرى :فقالت إنه القس الذي يعقد الزواج.

وسألتها :وأين أوراقه وأين الموسيقى؟

فقالت :بعد لحظات.

ثم عدت فسألتها :وأين العروس..؟

فضحكت جدًّا وانحنى كل الحاضرين وانحنت أسوشا والمأذون وانحنيت أيضًا، ولم أفهم لماذا كل هذا الانحناء..

ولم يقل شيئًا..

وبعد لحظات دخل عدد من الأطفال في ملابس بيضاء وحمراء وزرقاء وعليها رسوم جميلة، ووراء الأطفال عدد من الفتيات ومعهم جميعًا، أدوات نحاسية تشبه الحلل والطشوت وبعضها يشبه الطاسات الموجودة عند الحلاقين.

ومعهم أيضًا أعواد حديدية ..وبعد هؤلاء جميعًا جاء شيخ له لحية سوداء وشعرها مدلى على هيئة ضفيرة أو على هيئة علامات استفهام..

ودقت الموسيقى أو صرخت أو لطمت لا أعرف ..إنه نوع من الضوضاء التي يضحك لها الحاضرون إلا أنا .وفي هذه الضوضاء بدأ الشيخ الوقور يقول كلامًا طبعًا غير مفهوم، وأخذ الحاضرون ينحنون إلى الأمام عند كل عبارة أو عند كلمة :أه أأ ..فهذه هي نهاية كل كلمة ربما كانت نقطة أو نقطتين بعد كل كلمة أو!

وكان لا بد أن أسأل أسوشا عن كل هذا الذي يجري حولي، وقلت لها :موسيقى جميلة جدًّا!

فانحنت وهي سعيدة بهذا التقدير ..ولما رأتها أمها وإخوتها وأبوها والشيخ والحاضرون انحنوا أيضًا ..ولكني أحسست بعد ذلك بشيء من الإحراج الشديد.

فليس من المعقول أن تكون كل هذه الموسيقى من أجل تشريفي لهذا البيت ..فلم يحدث أي تشريف، وإنما هي رغبة في الاستطلاع وفي معرفة شيء عن البيت الياباني والأسرة اليابانية لا أكثر ولا أقل ..وإذا كانت هناك موسيقى وهيصة فربما كان السبب هو أن أسوشا زودتها شوية.

وعندما قدموا لي أوراقًا اعتذرت لأنني لا أعرف القراءة فقالت أسوشا :ليس من الضروري أن تقرأ، وإنما يجب أن توقع ولا تخف إذا حدثت أصوات غريبة عند التوقيع.

فقلت :توقيع على ماذا؟

قالت :على هذه الوثيقة.

قلت :وثيقة إيه؟

قالت :إيه؟ وثيقة زواجنا.قلت :زواجنا ..أنا ..يعني نحن الاثنين ..زواجنا تقولين؟

وبسرعة أخبرتها أن التقاليد في بلادنا تقتضي بأن يحضر الزواج أحد المواطنين .وإلا أصبح هذ العقد باطلًا .ونهضت ونهض الحاضرون وانحنوا وكذلك الأطفال امتدت أيديهم إلى الشبشب ..ولكني تركت الشبشب الأول والشبشب الثاني وانطلقت أخفي قدمي في حذائي ..ومن بيت أسوشا إلى الفندق أبحث عن طريق للسفر إلى طوكيو.

ولم أفهم لماذا تصرفت أسوشا هكذا .حاولت ولكنني تعبت ..هل وعدتها بالزواج؟ أبدًا ..لم أعد أحدًا في حياتي كلها .هل قلت لها أنا أحبك؟ ولا حتى هذه .ولا أستطيع أن أتهمها بالضعف في اللغة الإنجليزية فهي تتكلمها بطلاقة ..حاولت وحاولت.

وأخيرًا تذكرت أنني عندما كنت معها فى إحدى دور السينما ورأيت زفافًا فقلت :إن العروس جميلة ..فسألتني إن كنت أحب أن أتزوجها .فقلت بلا تردد :نعم!

وسألتني إن كانت العروس تعجبني فقلت :يعجبني فيها كذا الأبيض وكذا الأسود وكيت الممتلئ وكيت الناعم ..هذا كل ما قلته.

ولكن لم أتصور أبدًا أن هذا معناه أن أسوشا تشبه العروس في كل هذا ويجب أن أتزوجها فورًا .فهي إلى حد كبير تشبه العروس في كل هذه الصفات ..إلى حد ما ..وقد قلت لها ذلك من باب المجاملة.

وهذه هي النتيجة..

بالاختصار ..مصيبة سوداء إذا أنت كذبت في اليابان.

وكانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها »كتب كتاب«، وأكون أنا العريس دون أن أدري

* * *

وعلى باب محطة السكك الحديدية وقفت أسوشا وأختها الصغرى ومع كل منهما باقة من الورد، وقرطاس به سميط مصنوع من السمك المجفف وعلى خد أسوشا دمعتان كاللؤلؤ ..وفمها يقول لي كلامًا..

وخجلت منها ولا أزال..

أين أنت الآن يا أسوشا لأقول لك ما أحس به الآن من بعدك ..والله أنت برقبة ألف واحدة في بلدنا!

* * *

كيف يزرعون اللؤلؤ؟!

في إحدى الليالي جلست كليوباترة تشكو مرارة الحياة في فمها ..كل شيء لا طعم له ..كل شيء كأنه ليمونة ناشفة، أو كأنه قطعة من اللحم المسلوق ..ولم تكن كليوباترة وحدها، فقد كان إلى جوارها حبيبها أنطونيو ..وعندما تشكو المرأة من الدنيا للرجل الذي تحبه، فمعنى ذلك أنها تريد منه الكثير !فهو دنياها وهو حياتها ..ويظهر أن أنطونيو لم يكن عنده ما يقدمه لكليوباترة فهي تريد الكثير، تريد منه أكثر مما يستطيع ..وكل ما استطاع أن يقدمه لها هو كوب من النبيذ الأحمر ..وأمسكت الكوب ورأت فيه وجهها .ولمحت على سطح الكوب شيئًا لامعًا حول عنقها ..إنه عقد من اللؤلؤ..

وكأن حبات اللؤلؤ هذه دموع كليوباترة ..ودموع كليوباترة مثل كلامها لا تنزل الأرض ..وهذه الدموع لم تنزل الأرض، وإنما تجمدت حول عنق ملكة النيل ..ومدت يدها إلى العقد ..حبة حبة .وكأنها أشارت بذلك إلى أنها تريد أن تقطع خيط حياتها، وأنزلت ست حبات من هذا العقد في كوب النبيذ وشربت النبيذ واللؤلؤ معًا!

وتوقع أنطونيو أن تموت كليوباترة بعد ذلك، ولكنها لم تمت، فاللؤلؤ لا يقتل، إنه يشفى من آلام المعدة والأمعاء!

وكانت هناك خرافات كثيرة أيضًا حول معجزات اللؤلؤ .فأهل الصين وسيلان كانوا يعتقدون أن اللؤلؤ يملأ الإنسان حيوية ورجولة .وكانت العروس تأتي لزوجها بحبات من اللؤلؤ وتضعها تحت وسادته في الأيام الأولى للزواج.

ولم يثبت علميًّا صحة هذه الخرافة!

ويقال إن اللؤلؤ هو حبات من العرق تساقطت من أجسام الملائكة وهي في طريقها بين السماء والأرض .ويقال أيضًا إن »جزر آدم «وهي تقع بين الهند وسيلان فيها أجمل أنواع اللؤلؤ -ويقال إن هذه اللآلئ الموجودة في قاع البحر هي بعض دموع آدم عندما نزل من الجنة إلى الأرض..

ولكن اللؤلؤ نفسه له قصة أخرى.

فاللؤلؤ ينمو في داخل بعض القواقع .واللؤلؤة الواحدة التي في حجم حبة الحمص مثلًا تنمو في ثلاث سنوات .وهذه »القواقع -«ويسمونها أمهات اللؤلؤ تنمو وتكبر في مياه اليابان ومياه خليج البنغال في الهند وحول جزيرة سيلان وفي الخليج العربي بالقرب من الكويت وإيران ومياه أستراليا ..وهذا اللؤلؤ طبيعي، بمعنى أن القوقعة هي وحدها التي تحمل هذه اللؤلؤة بين جنبيها وتظل طاوية الجنبين سنتين وثلاثًا وأربعًا إلى أن تمتد إليها أيدي الصيادين، وإذا لم تمتد إليها يد، فإن القوقعة تلقي باللؤلؤة إلى قاع البحر..

ربما كانت أعظم لؤلؤة طبيعية في العالم هي الموجودة في كرسي العرش بإيران ..فهي لؤلؤة صفراء اللون وليست كروية الشكل، وإنما هي تشبه الكمثرى وثمنها سبعة ملايين »ين -«أي سبعة آلاف جنيه.

وتوجد لؤلؤة أخرى ثمنها مليونان من الجنيهات في متحف موسكو.

وصيد اللؤلؤ في هذه المناطق لا يزال بدائيًّا ..فالصيادون يركبون الزوارق ويتدلى واحد منهم إلى الماء ويبقى نصف دقيقة أو ثلاثة أرباع دقيقة ويسحبونه إلى أعلى ومعه بعض القواقع وينقلون القواقع إلى الشاطئ ويفتحونها واحدة واحدة إلى أن يعثروا على اللآلئ.

وعندما كنت في الكويت رأيت أكوامًا من القواقع ورأيت الناس هناك يلعبون لعبة »الجوز والفرد ..«فأنت تشتري من القواقع ما تشاء، ثم أنت وبختك بعد ذلك.

وقد اختفت هذه العادة الآن بعد أن زحفت المباني على ميادين بيع اللؤلؤ..واللؤلؤ الطبيعي هذا لا يمكن التحكم فيه ..فأنت لا تعرف إن كنت ستجد بين كل ألف قوقعة لؤلؤة واحدة أو لا تجد ..ولا تعرف ما شكلها ولا حجمها وكل ما عليك هو أن تنتظر فقط..

ولم يفكر أحد في طريقة للتحكم في هذا اللؤلؤ.

ولكن رجلًا واحدًا في إحدى قرى اليابان هو الذي فكر، وهو الذي صمم، وهو الذي نجح، وقبله لم يعرف أحد ولم يحاول..

ولم يكن هذا الرجل أصلًا صيادًا ولا من المشتغلين بتجارة اللؤلؤ ..ولكنه يعمل في دكان والده في قرية اسمها »توبا «وهي تبعد 13ساعة عن مدينة طوكيو .هذا الطفل اسمه ميكوموتو ..والده يبيع الأرز المسلوق وأمه تعمل مع والده، وله عدة إخوة .وميكوموتو أكبر إخوته وهو هزيل البنية، ولكن التقاليد في اليابان تقضي بأن الأخ الأكبر يجب أن يحمل إخوته الصغار على ظهره .ويحدث كثيرًا أن تجد الأخ الأصغر أضخم وأقوى بنية من الأخ الأكبر .وهذا ما حدث بالنسبة لميكوموتو .فقد كان أخوه الأصغر بدينًا .ومع ذلك كان أخوه الأكبر الهزيل يحمله ذهابًا وإيابًا وكان عليه أيضًا أن يدفع أمامه عربة لبيع الأرز المسلوق والأسماك النيئة في القرية وأن ينادي عليها.

ولا شيء يدل أبدًا على عبقرية الأخ الأكبر ..فهو قروي عادي جدًّا، مؤمن يتردد على المعبد صباح كل يوم ولا أحد يدري ما الذي كان يطلبه من ربه، ربما كان يطلب الصحة، وربما كان يطلب المال، وربما كان يطلب من الله أن يشفي والده المريض ..بشرط أن يكف عن إنجاب الأطفال!

ولكنه متدين ويقف في خشوع أمام تمثال بوذا ويقول الكثير..

واليابانيون صيادون ممتازون، بل أحسن صيادين في العالم .وهم يركبون الزوارق الصغيرة إلى مناطق نائية في المحيطات .ولذلك فاليابان في مشكلات مع كل الدول المجاورة بسبب أبنائها الصيادين الذين يقتحمون مياه أستراليا والقطب الجنوبي وسواحل أمريكا وسواحل روسيا والفليبين وإندونيسيا.

وقد اشتغل ميكوموتو بصيد السمك ..واشتغل أيضًا بالغوص وصيد اللؤلؤ ..وكانت هناك فكرة في رأسه لم يطلع أحد عليها، ولكنه حائر ..فهو قروي وهو فقير ولم يتعلم بما فيه الكفاية ويبدو أن الأسئلة التي تدور في رأسه أكبر منه ..ولا يعرف كيف يجيب عنها.

ففي يوم ذهب إلى أحد أصدقائه من المشتغلين بعلم »الأحياء المائية «وسأله :ولماذا يوجد اللؤلؤ في القواقع؟ لماذا يوجد اللؤلؤ في بعض القواقع، وبعضها لا يوجد به..؟

وأجابه صديقه المشتغل بالأحياء المائية بأن سبب وجود اللؤلؤ هو أن بعض الطفيليات الموجودة في البحر تتسلل إلى داخل القوقعة وتجرح لحمها الناعم الضعيف .أما القوقعة فإنها تدافع عن نفسها بأن تعزل هذا الجسم الغريب أو هذا الشيء المتطفل .وعملية العزل هذه عبارة عن إفراز مادة جيرية شفافة تحاصر هذا الشيء الغريب الذي تسلل إليها ..هذه المادة الجيرية الفسفورية هي اللؤلؤة التي يتم تكوينها في عدة سنوات..

وقرر ميكوموتو بأن يفكر تفكيرًا سليمًا .وأنه لا بد أن يدخل جسمًا غريبًا في كل قوقعة يجدها وأن يحتفظ بهذه القوقعة وينتظر حتى تنمو ..سنة واثنتين وثلاثًا ..فإذا كانت القواقع تفرز المادة اللؤلؤية في صبر فإنه لن يكون أقل صبرًا من القواقع.

وفي همومه وقلقه تزوج فتاة من أسرة غنية، ودفعها إلى العمل معه في بيع الأرز المسلوق، ولكنه كان مشغولًا في الوقت نفسه بزراعة اللؤلؤ ..والاسم الجديد لهذا النوع من اللؤلؤ ..هو »اللؤلؤ المزروع ..«لأن ميكوموتو كان يزرع الأجسام الغريبة في أجسام القواقع ..وهذه عملية تشبه عملية التلقيح الصناعي عند الإناث من الإنسان والحيوان.

ففي التلقيح الصناعي يتم إدخال الحيوانات المنوية إلى الرحم بصورة صناعية عن طريق الأنابيب، وتلقيح اللؤلؤ أو زراعة اللؤلؤ في هذه القواقع لا يختلف عن التلقيح الإنساني أو الحيواني في شيء!

وجمع ميكوموتو عددًا من القواقع وفتحها برفق وأدخل فيها الأجسام الغريبة وانتظر عامًا وعامين ..وبعد ذلك فتحها فلم يجد شيئًا ..لقد ماتت جميعًا ..وحاول من جديد واستخدم حوالي عشرة آلاف قوقعة ..وهبت العواصف وأطاحت بهذه القواقع وخسر ميكوموتو الشيء الكثير ..لكنه لم ييئس ..وفي العام نفسه زحف على مياه قرية توبا التيار الأحمر ..وهو عبارة عن مواد طفيلية كثيفة جدًّا ..هذه المواد تطفو على سطح الماء وتقتل القواقع لأنها تحجب عنها الأكسجين .وهلكت كل قواقع ميكوموتو ..ولكنه لم ييئس وشعر ميكوموتو بعد ذلك بأنه يطلب المستحيل، وأن أمواله لا تسعفه، وأحس بأن فشله في استخراج اللؤلؤ قد أدى إلى إبعاد الناس عنه ..حتى زبائن الأرز المسلوق قد هربوا واندهش ميكوموتو .ولكن الناس أحسوا أنه فاشل وأنه مجنون ولا بد أن جنونه هذا سيظهر في صناعة الأرز المسلوق أيضًا!!

ولكن ما علاقة اللؤلؤ بالأرز؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان في شيء وينجح في شيء آخر؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان كزوج وينجح كمهندس؟ أليس من الممكن أن يكون طبيبًا ناجحًا وزوجًا فاشلًا؟ ولكن الناس هكذا يفكرون..

ولذلك رأينا ميكوموتو يترك بيع الأرز لزوجته ويعمل في استخراج اللؤلؤ..

ولم يفهم ميكوموتو لماذا تموت القواقع.

وتعلم من التجارب التي استغرقت 15 عامًا مؤلمة أن انخفاض درجة حرارة الماء إلى أقل من 7درجات مئوية يقتل القواقع، ولذلك يجب نقل القواقع من الماء البارد إلى الماء الدافئ ..وتعلم أيضًا أن وضع عدد كبير من القواقع في قفص واحد وتعليق القفص في الماء يقتل القواقع ..فهذه الكثرة تؤدي إلى جوع القواقع وذبولها ..وتعلم أيضًا أن الطفيليات عندما تغطي فتحات القواقع فإنها تخنقها ..ولذلك حاول ميكوموتو في المرات التالية أن يتلافى كل هذه الأخطاء .ومع ذلك كانت القواقع تموت ..وكان بيته يزداد خرابًا، وتجارة الأرز تزداد بوارًا .ولكن زوجته لا تشكو .إنها مؤمنة بأن زوجها سينجح حتمًا .وكان هذا يشجعه .وكان يقول :يكفي أن يؤمن بي إنسان واحد، والنواة تسند الزير كما يقول المثل عندنا!

وفكر ميكوموتو أن يمسك قوقعة بها لؤلؤة طبيعية ويدرسها ويعرف بالضبط مكان اللؤلؤ .وأمسك قوقعة ثانية وثالثة ورابعة ومائة .وعرف تمامًا أين يجب أن يضع الجسم الغريب في داخل القوقعة .واكتشف أنه كان يضع الجسم الغريب أو هذه البذرة في مكان غير مناسب .وعرف ميكوموتو أن الجسم الغريب يجب أن يؤذي القوقعة وأن يؤلمها .وهذا الألم هو الذي يثير الحيوان ويحدث في جسمه التهابًا، وهذا الالتهاب يؤدي إلى إفراز هذا السائل الشفاف الذي يعزل الجسم الدخيل عن بقية جسم القوقعة..

وقام بعملية زراعة الأجسام الغريبة في خمسة آلاف قوقعة أخرى ..ولكن ميكوموتو كان بين اليأس والأمل .ويئس فعلًا .وأعلن لزوجته أنه يائس .وأعلن للناس أنهم جميعًا على حق وأنه غلطان وأن آماله جنونية ..وأنه سيعود إلى الأرز، فقد ولد بائعًا للأرز، وسيعيش ويموت وهو ينادي على الأرز المسلوق..

ولكنها كانت لحظة يأس .وكانت امرأته تعلم أن ميكوموتو هذا ليس من السهل أن ييئس .وأنه إذا كان أعلن ذلك للناس فلكي يسد أفواههم، لكي يرضي غرورهم .ولكنه مؤمن بأنه سينجح .وبعد سنتين، ذهبت زوجته سرًّا إلى

الشاطئ إلى حيث تدلت أقفاص القواقع من الأعمدة الخشبية ومدت يدًا مرتجفة وأمسكت قوقعة وفتحتها وصرخت .لقد وجدت لؤلؤة ..أول لؤلؤة مزروعة في اليابان!

أول لؤلؤة؟ !ونادت زوجها ورقص الاثنان على الشاطئ ..وكان ذلك في يوم 28سبتمبر سنة 1859. وأصبح يوم 28من كل شهر إجازة في كل شركات ومصانع ميكوموتو..

وفجأة تجهم وجه ميكوموتو وقال لزوجته :ولكنها ليست كروية ..إن اللؤلؤة نصف كروية!

وحاولت زوجته أن تقنعه بأنه نجح وأنه في يوم من الأيام سيعرف كيف ينتج لؤلؤة كروية ..ولكن ميكوموتو لاينشد إلا الكمال ..وفتح قوقعة ثانية وثالثة ورابعة ..ومائة ..لقد نجح ..وظهر في العالم أول لؤلؤ من صنع الإنسان .أو على الأصح :تدخل الإنسان في صناعته .إنه لؤلؤ طبيعي، ولكن الإنسان هو الذي ساعد الطبيعة على إنتاجه في الوقت الذي يريد..وكانت هذه هي بداية اللؤلؤ المزروع ..أو بداية زراعة اللؤلؤ ..وكان ميكوموتو هو أول إنسان اخترع اللؤلؤ المزروع.

وعندما ذهب ميكوموتو إلى أمريكا للدعاية لهذا اللؤلؤ وقابل المخترع الأمريكي أديسون الذي اخترع المصباح الكهربي وأضاء ظلام الدنيا .قال له المخترع الأمريكي» :إنك حققت معجزة علمية.«

ورد عليه ميكوموتو» :أنت أضأت العالم وأنا أضأت أعناق النساء .وإذا كنت في دنيا الاختراع قمرًا كاملًا، فأنا أحد النجوم التي ليس لها عدد.«!

وعندما سمع أديسون هذه العبارة بكى.

وقال له ميكوموتو وهو ينظر إلى دموع المخترع الكبير» :لقد رأيت أعظم لؤلؤتين على خد إنسان.«

وليس هنا أنجح من النجاح نفسه ..فالنجاح هو أعظم لذة وأعظم غاية وأعظم قوة ..وأقبل الناس على ميكوموتو ..وأصبح كل ما يقوله حكمًا وأمثالًا ..حتى الأرز الذي تبيعه زوجته يشفى العليل، وأصبح الناس يتفاءلون برؤية ميكوموتو ..لقد نجح ..والنجاح رائحته ساحرة وطعمه حلو..

ولكن ميكوموتو مشغول بشيء آخر..

كيف يجعل هذه القواقع تنتج لؤلؤًا كروي الشكل ..إنه لاحظ أن اللؤلؤ الموجود في القواقع أحيانًا يشبه الكمثرى في الشكل وأحيانًا نصف كروي وأحيانًا صغير وأحيانًا كبير.

وعرف ميكوموتو بعد ذلك أن السبب هو وضع البذرة ..أو وضع الجسم الغريب في جسم القوقعة ..وبدأ هو نفسه يفتح القوقعة ويضع الجسم الغريب في المكان المناسب بين المعدة والكبد ..تمامًا كما هو موجود في القواقع :أمهات اللؤلؤ..

* * *

وبدأ الإنتاج على نطاق واسع جدًّا في قرية توبا ..واستأجر ميكوموتو جزيرة صغيرة أمام قرية توبا ..وهذه الجزيرة هي في حجم ميدان التحرير في القاهرة ..وبدأ يجمع القواقع في أقفاص من الخشب ويعلق الأقفاص في حبال مشدودة إلى أعمدة خشبية طافية على وجه الماء ..وجعل طول الحبل مترًا وأحيانًا مترين ..وعرف أن هذا هو الارتفاع المناسب لنمو اللؤلؤ ..وبين الحين والحين ينظف القواقع والأشياء الغريبة التي تعلق بها ..وعرف أن هناك عدوًّا قاتلًا لهذه القواقع، هو ثعبان البحر ..فهذا الثعبان يمتص القوقعة ..ثم هناك الأخطبوط الذي يقتلها ويحطمها..

وتفنن ميكوموتو في الدفاع عن هذه القواقع .عن عشرين مليون قوقعة تنتجها مصانعه كل سنة!

* * *

وعندما ذهبت إلى جزيرة اللؤلؤ وهي جزيرة ميكوموتو عند مدينة توبا رأيت عمليات صيد اللؤلؤ وزراعته وتربيته حتى يصبح عقدًا حول عنق المرأة.

والعملية تبدأ بأن تنزل الغواصات إلى البحر -ولا أقول غواصين -لأن اللاتي يصدن القواقع من النساء فقط .أما الرجال فعاجزون عن صيد القواقع ..والسبب في ذلك أن المرأة عندها وسادة دهنية تحت الجلد هي التي تجعلها تتحمل البرد أكثر من الرجل ..ولذلك فالغواصة -واسمها باليباني »أمة «وبالإندونيسي والفلبيني كذلك، وفي اللغة العربية نقول »أمة «بفتح الألف معناها خادمة -هي التي تنزل إلى البحر وتجمع القواقع .والغواصات يبدأن الغوص من سن 20حتى 45..وهي تبدأ بأن تنزل إلى مسافة خمسة أمتار ثم عشرة أمتار، ولمدة عشرين ثانية ..حتى تصبح قادرة على الغوص لمدة دقيقة كاملة ..والغواصة تبدأ هذه المهنة بأن تحصل على الإعدادية؛ لأن التعليم إجباري في اليابان حتى الإعدادية ..ولا يوجد في اليابان كلها واحد لم يحصل على هذه الشهادة..

والغواصة ترتدي جلبابًا أبيض وتلف حول رأسها منديلًا أبيض ..وهي ترتدي الفستان الأبيض، لأن اللون الأبيض يخيف سمك القرش وهو عدو الغواصات والقواقع أيضًا ..وتحمل معها صندوقًا من الخشب يشبه نصف البرميل وتربطه بحبل ..وعندما تغوص في البحر يكون ذلك بالقرب من أحد الزوارق ..وفي الزورق يوجد زوجها الذي يساعدها على الصعود بعد انتهاء مدة الغوص ..وأحيانًا تكون في الزورق نار مشتعلة لكي تستدفئ بها عندما تخرج من الماء ..وأقول يوجد زوجها بالزورق ..لأنه ثبت بالتجربة أن الغواصة عندما تكون متزوجة تكون أقدر على الغوص وأطول بقاء تحت الماء وقد ثبت بالتجربة أيضًا أن الفتاة إذا لم تكن متزوجة، فإنها في الغالب تتعب بسرعة وتكون مشتتة الذهن ..ولذلك رأينا ميكوموتو يشترط زواج الغواصة قبل أن تعمل عنده ..بل إن الغواصة نفسها تفضل دائمًا أن يكون الذي يعاونها هو زوجها ..وقد قالت لي إحدى الغواصات إنها لا تأتمن رجلًا آخر غير زوجها ..فقلبه عليها دائمًا!

وفي أثناء الغوص تكون هناك نيران علي الشاطئ ..وعندما تخرج الغواصات من البحر يذهبن إلى الشاطئ وينزعن ملابسهن ..ويجلسن عاريات تمامًا حول النار ثم يرتدين ملابس أخرى جافة .ويحدث هذا التغيير كل نصف ساعة .والغواصة لا تعمل في اليوم كله أكثر من ساعتين ..وأجرها اليومي حوالي ثلاثين قرشًا .وثمن حبة اللؤلؤ هنا -أي في جزيرة اللؤلؤ -عشرة قروش!

وبعد أن تنقل الغواصة صندوق القواقع إلى الشاطئ تبدأ عمليات أخرى!

تبدأ عملية تنظيف القوقعة من المواد الغريبة التي علقت بها من البحر ..وبعد ذلك تبدأ عملية »الزرع «أو عملية التلقيح ..فتوضع القواقع على منضدة تجلس إليها فتاة وتستخدم الأدوات الحديثة البسيطة في فتح القوقعة ووضع البذرة ..وكان ميكوموتو يستخدم الأجسام الغريبة مثل ذرات الرمل أو الحجارة، أو قطعًا من الزجاج ثم كان يضع هذه الأجسام الغريبة في أحشاء القوقعة..

ولكن ثبت أن أحسن الأجسام الغريبة التي يجب وضعها في داخل القوقعة هي قطعة من محار القواقع التي تعيش في نهر المسيسبي بأمريكا .والمحار هو الغطاء الجيري الذي تعيش فيه القوقعة .وهو يشبه أم الخلول ..وعندما تبلغ السنة الخامسة أو السابعة من عمرها فإنها تكون في حجم كف طفل صغير ..وهذا المحار يكسرونه هنا عن طريق آلة خاصة حتى يصبح عبارة عن كرات صغيرة جدًّا كل واحدة في حجم حبة الحمص..

وقد اكتشف ميكوموتو أيضًا أنه يستطيع أن يضع بذرتين في قوقعة واحدة وأن يضع ثلاث بذرات أيضًا .في استطاعة القوقعة الواحدة أن تنتج ثلاث حبات من اللؤلؤ المزروع ..ولكن لم يحدث أن أنتجت القوقعة أربع حبات من اللؤلؤ.

وتمكن ميكوموتو أيضًا من أن يتحكم في حجم اللؤلؤ وفي شكله ..فاللؤلؤ الصغير يجب أن تكون بذوره صغيرة .واللؤلؤ الكبير يجب أن تكون بذوره كبيرة أيضًا ..وكلما بقيت هذه البذور مدة أطول، زادت حجمًا ..وأحيانًا يتركون البذرة لمدة عشر سنوات، حتى تصبح اللؤلؤة الواحدة في حجم الفول السوداني، وثمنها يصبح حوالي 25جنيهًا.

وبعد عملية وضع البذرة تنقل القواقع إلى سلاسل أو أقفاص، وتعلق هذه الأقفاص بالألوف بحبال مربوطة في ألواح خشبية سابحة على وجه الماء ومثبتة طبعًا في الأرض أو في قاع البحر، وتبقى كذلك سنوات ..وعندما يبرد الماء فإن هذه الأقفاص يسحبونها عن طريق زوارق إلى الجنوب حيث الدفء ..وعندما تزداد درجة الحرارة في الجنوب فإنهم يسحبونها إلى الشمال حيث درجة حرارة الماء ألطف ..فدرجة الحرارة المناسبة لحيوان القواقع هي بين 24ºمئوية و 25ºمئوية ..وإذا زادت أو انخفضت درجة الحرارة عن ذلك فإن حيوان القواقع يتعب ويبدو عليه الكسل في إنتاج اللؤلؤ ..ومن الغريب أن القواقع المريضة هي التي تنتج أجمل اللؤلؤ وأغلاه ثمنًا، فاللؤلؤ الأسود هو أندر اللؤلؤ وأغلاه ثمنًا، وهذا اللؤلؤ النادر هو الذي تنتجه القواقع المريضة ..كأن الطبيعة تريد أن تعوض هذه القوقعة عن مرضها..

ولكن ما الذي يمرض القواقع؟ لا أحد يعرف حتى الآن.

وهناك مسألة لم يتم حلها بعد :كيف تختلف ألوان القواقع؟ لماذا ينتج بعضها لؤلؤًا أبيض اللون أو أصفر أو أزرق أو أسود؟ لا أحد يعرف حتى الآن.

حتى اللون أمكن التحكم فيه أخيرًا ..وذلك عن طريق وضع بذور ملونة ..فتجيء اللؤلؤة ملونة أيضًا..

وهناك مقاييس لمعرفة اللؤلؤ الجيد من اللؤلؤ الرديء، ثم اللؤلؤ الطبيعي من اللؤلؤ الزراعي، ولا أقول اللؤلؤ الصناعي -لأن هذا اللؤلؤ المزروع قد تم بصورة طبيعية، يعني لم يصنعه الإنسان خارج حيوان القوقع -هذه المقاييس هي حسب اللمعان، أو البريق ثم حسب الشكل والوزن واللون .وأحسن اللآلئ هي الشديدة اللمعان، ثم الدائرية أو الكروية والثقيلة الوزن.

أما الملونة فأغلاها الأسود والأبيض والوردي فالبنفسجي ثم الأزرق ..أما الفرق بين اللؤلؤة الطبيعية واللؤلؤة الزراعية أو المزروعة فلا يمكن أن يعرفه الإنسان بالعين المجردة، لا بد أن يكون خبيرًا ..ولكن مع ذلك يمكن التفرقة عن طريق أشعة إكس، فتحت أشعة إكس ترى اللؤلؤة شفافة 100%أما اللؤلؤة المزروعة فتحت أشعة إكس فنرى البذرة الأولى ..وهي عبارة عن كرة صغيرة مأخوذة من قواقع تعيش في المياه العذبة..

ولذلك عند شراء اللؤلؤ يجب أن تمسك الحبة وتلقي بها على سطح زجاجي أو خشبي وتنظر إليها وهي تتدحرج أمامك، فإذا كانت مشيتها عوجة أو عرجاء كان هذا عيبًا، وإذا نظرت فيها ووجدت صورتك بوضوح كان هذا دليلًا على جودتها..

قد تقول الآن :واحنا مالنا ومال اللولي؟!

أنا معك .ولكن لماذا تقرأ عن القمر الصناعي والقمر الطبيعي ..وعن الرحلات للقمر؟ !يا أخي كلها معلومات عامة ..وأنت لم تدفع تكاليف رحلتي إلى هذه البلاد ولم تركب القطار ولم تأكل الصراصير والضفادع مثلي، ولم تنم على الأرض ولم تعطش ولم تسعل ..فاقرأ أحسن ..اقرأ للآخر ..يمكن تلاقي حاجة تنفعك!

* * *

وقد قرأت لميكوموتو -توفي سنة 1954عن 96عامًا -أنه ينصح السيدات أن يغسلن عقود اللؤلؤ بقماشة مبللة بالسبرتو ..وينصح السيدات بأن يرتدين اللؤلؤ الذي عندهن ..لأن اللؤلؤ يخف بريقه إذا لم يستعمله أحد .كأن اللؤلؤ يعرف أن حياته في الأصابع وحول الأعناق وعلى الصدور.

وقد لاحظ أمناء متحف اللوفر أن بعض اللؤلؤ الموجود هناك، قد بدأ بريقه يتناقص ..فانزعجوا ..وقرر العلماء أن اللؤلؤ إذا وضع في مكان بارد مظلم فإن بريقه يقل ..ولذلك تجد اللؤلؤ إذا وضع على الجسم الإنساني الدافئ وتعرض للضوء فإنه يحتفظ ببريقه أيضًا.

وقد لاحظت وصيفة إحدى ملكات النمسا أن حبات اللؤلؤ الموجودة في عقد الإمبراطورة ماريا تريزة قد أخذ بريقها ينطفئ ..فخافت وتشاءمت ..ولكنها وصلت إلى حل هو أن هذا اللؤلؤ قد اشتاق إلى موطنه الطبيعي، فهو قد عاش طويلًا بعيدًا عن أهله ..ولذلك قررت الإمبراطورة أن تعيد اللؤلؤ إلى مكانه من البحر ..وبعثت بأحد رجال الحاشية ليلقي باللؤلؤ في البحر..

وإمبراطورة النمسا هذه لم تعرف أن اللؤلؤة مكونة من الكالسيوم والفوسفات ..وأن الكالسيوم يذوب في الأحماض الموجودة في العرق، وبعض الأجسام لها عرق حامض، وهذا العرق يذيب اللؤلؤ أولًا بأول فينطفئ بريقه..

ولو كانت كليوباترة قد تركت اللؤلؤ في كوب النبيذ مدة أسبوعين لتحول من تلقاء نفسه إلى مسحوق يسهل عليها أن تشربه كما كان يفعل أبناء الصين .فأبناء الصين كانوا يتعالجون باللؤلؤ ..تمامًا كما نفعل الآن عندما نستخدم أملاح الفواكه وفيتامين »ي «لعلاج الحموضة الموجودة في المعدة وفي الأمعاء الغليظة..

وكان على ميكوموتو أن يخوض معارك لا حدود لها لكي يثبت قواعد اللؤلؤ المزروع .فقد ظهرت في الأسواق ملايين من حبات اللؤلؤ الصناعي -أي اللؤلؤ المزيف -ولذلك نزل ميكوموتو إلى السوق واشترى كل اللؤلؤ الزائف وأقام فرنًا ضخمًا وأحرقه فيه .وبذلك حفظ سمعة اللؤلؤ المزروع من البوار .وكان كلما لاحظ أن اللؤلؤ يفقد بريقه لكثرة عرضه في الأسواق، سحبه من جديد وأنزل بدلًا منه لؤلؤًا جديدًا.

وفي المعرض الدولي الذي أقيم في أمريكا سنة 1939، أذهل ميكوموتو العالم كله ..فقد اشترك بتمثال لناقوس الحرية، استخدم في هذا الناقوس 13ألف لؤلؤة و 366جوهرة .أما الكسر التقليدي في ناقوس الحرية -يوجد نموذج لهذا الناقوس عند مدخل دار أخبار اليوم -فقد استخدم فيه اللؤلؤ الأسود النادر .وقد رأى الناس لؤلؤ اليابان المزروع ..وراح الناس يتحدثون عنه ..وتحدثت الصحف الأمريكية عن »ملك اللؤلؤ ..«وأصبح هذا اللقب ملتصقًا به منذ ذلك الوقت..

وأصبح اللؤلؤ المزروع خطرًا على اللؤلؤ الطبيعي في كل أنحاء العالم .ورفعت قضايا ضد ميكوموتو في لندن وباريس وروما ..وأصدرت المحاكم أحكامًا لصالحه ..وطلبوا إليه أن يكتب على لؤلؤه عبارة »لؤلؤ طبيعي «ولكنه رفض إلا أن يكتب عبارة »لؤلؤ مزروع.«

وقام ميكوموتو برحلة حول العالم ومر بالقاهرة في سنة .1927وقام برحلة إلى كل بلاد آسيا، والبلاد التي تستخدم اللؤلؤ الطبيعي .واقتنع ميكوموتو بأنه محتاج إلى كثير من الدعاية، وأنه لا يكفي أبدًا أن تكون السلعة جيدة .وإنما يجب أن يعلم بها الناس، وأن يعمل صاحب السلعة على إقناع الناس ..فهناك نصابون كثيرون ..وهناك مزيفون أكثر من النصابين، ولذلك بدأ ميكوموتو يدعو الملوك والأمراء لزيارته ..وكان يقابلهم دائمًا بردائه القديم وقبعته المنفوخة ..والذين زاروه في بيته دهشوا كيف ينام »ملك اللؤلؤ «على الأرض ..وكيف أنه لم يغير طعامه، ولم يغير عاداته، وكيف أنه ينزل إلى البحر ويستحم في الماء البارد ويجفف جسمه في ثوب قديم..

وعندما أصبح »ملك اللؤلؤ «غنيًا وأصبحت ثروته تعد بالملايين بدأت الجمعيات الخيرية تطلب منه المعونة ..وكان يرد عليهم قائلًا» :أريد أن أعرف اسم الجمعية التي عاونتني في محنتي ..لقد ماتت التي كانت تساعدني..«

لقد ماتت زوجته وهو في الثامنة والثلاثين من عمره وعاش بعد ذلك 58عامًا ورفض أن يتزوج.

وعندما طلب إليه أحد رجال الدين أن يبني معبدًا بعد أن ساعدته السماء وأعطته باليمين والشمال ..كان ميكوموتو يحني رأسه ..ويقول :حاضر..

وفي اليوم التالي أمر بإنشاء معبد لملايين القواقع التي تضحي بنفسها لكي يعيش مئات الألوف من أبناء اليابان -عدد العمال في شركات ميكوموتو حوالي 180ألف عامل -وفي »جزيرة اللؤلؤ «التي يملكها ميكوموتو يوجد تمثال له، ويوجد متحف صغير أخذت أخشابه من البيت الذي كان يعيش فيه ميكوموتو أيام كان فقيرًا ..أما الجزيرة الأخرى التي كان يملكها، وتقع إلى الجنوب من جزيرة اللؤلؤ، ففيها معبد وضريح لزوجته وله، ويوجد تمثال كبير لقوقعة.

وعندما نشبت الحرب الأخيرة، وضربت اليابان بالقنابل الذرية ..لم يترك ميكوموتو جزيرة اللؤلؤ ..قرر أن يبقى إلى جوار القواقع .واتهمه الناس بالجبن والخوف وأرسل له أحد ضباط الجيش سيفًا وقال له »اقتل نفسك.«!

وكان رد ميكوموتو» :إنني تاجر ..إنني أعمل على إطعام مئات الألوف من اليابانيين ..إن تجارتي تنتعش في ظل السلام ..فأنا أخدم بلدي وأنت تخدم بلدك أيضًا.«!

وعندما علم ميكوموتو أن الحرب قد انتهت وأن القوات الأمريكية احتلت اليابان،رفع العلم الأمريكي على جزيرة اللؤلؤ .ولما سأله الناس عن هذا التصرف الغريب قال :أريد أن تكون تجارة اللؤلؤ هي أول تجارة تنتعش بعد الحرب ..يحب أن يعمل واحد من أبناء اليابان على إنهاضها ..فأنا العجوز أول رجل يعمل للسلام!

وبعد الاحتلال زاره كل قواد الحرب الأمريكيين ودهشوا لذكاء الرجل ومرونته وصلابته ..وكتبت عنه الصحف والمجلات وصوره التلفزيون وانطلقت أبواق الدعاية في كل مكان تتحدث عن اللؤلؤ المزروع وملك اللؤلؤ ميكوموتو..

والوارث الوحيد لكل ثروة ملك اللؤلؤ هو شاب لا يهتم أبدًا باللؤلؤ أو بتجارته وإنما يهتم باللؤلؤ الحقيقي ..وهو يفرق بين ثلاثة أنواع من اللؤلؤ :اللؤلؤ الحقيقي واللؤلؤ الطبيعي واللؤلؤ المزروع .أما اللؤلؤ الحقيقي فهو الفكر، هو الأدب والفن، ولذلك فهو مشغول جدًّا بدراسة الأدب، وخصوصًا الأديب الإنجليزي جون رسكن، وقد جمع كل مخطوطاته وكل كتبه وكل ما كتب عنه حتى أصبحت مكتبته تتألف من ثلاثة آلاف كتاب عن هذا الأديب بالذات .ولكن لماذا هذا الأديب؟ !لا أحد يعرف ..أما تجارة اللؤلؤ وبيعه والدعاية له فمشغول بها آخرون ..هؤلاء الآخرون هم أزواج بنات ميكوموتو ملك اللؤلؤ وكلهم مديرون لفروع هذه الشركة الضخمة التي تزرع كل سنة حوالي عشرين مليون قوقعة!

وإذا نظرت إلى خريطة اليابان ..إلى جزيرة هونشو بالذات التي تقع عليها العاصمة طوكيو، فإنك لن تهتدي بسهولة إلى مدينة توبا التي شهدت طفولة ومملكة ميكوموتو..

أما الآن فقد امتدت لها الخطوط الحديدية والكهربية، وفيها فنادق من الطراز الياباني الأنيق، وفيها منتجات مدهشة لكل ما يخرج من البحر ..فالصدف والمحار والقواقع والأسماك والجمبري كل ذلك تحول إلى تماثيل فنية وإلى لوحات بارزة رائعة وكلها تباع بأسعار رخيصة .وهناك يباع اللؤلؤ كما تباع القوطة والخيار، هناك نساء يبعن القواقع ويفتحنها أمامك ويخرجن لك اللؤلؤ ..القوقعة الواحدة بها حبتان من اللؤلؤ وبعشرين قرشًا ..وفي هذه القرية الصغيرة معرض للأحياء المائية وبها مطاعم كثيرة، وبها زوارق بخارية تنقلك من توبا إلى جزيرة اللؤلؤ التي تبعد عنها خمسين مترًا، وهذه الزوارق تلف بك حول الجزر الأخرى وتريك صيد السمك وصيد اللؤلؤ ..وأكثر زوار هذه المنطقة من طلبة المدارس الابتدائية والثانوية من البنين والبنات .والتعليم كله هنا مشترك، اليابانيون هم الذين أدخلوا التعليم المشترك في إندونيسيا والفليبين أيام احتلالهم لهذه البلاد في الحرب الأخيرة.

والحفاوة بالطلبة والطالبات لا نهاية لها.

وقد قال لي مدير جزيرة اللؤلؤ وهو شاب لطيف اسمه »كانوا «ويتكلم الإنجليزية» :إننا نهتم بالتلميذات والتلاميذ لأسباب تجارية ..فالتلميذة ستصبح زبونة عندنا بعد عشر سنوات، أما التلميذ فسيصبح زبونًا بعد عشرين سنة ..فنحن الرابحون دائمًا!«

ومظاهر هذا الاهتمام أنهم يعرضون لهم بصورة واضحة جدًّا عملية الغوص واصطياد اللؤلؤ وزراعته وصيانته وتربيته وفرز حبات اللؤلؤ حسب الحجم والشكل واللون وعملية ثقب حبات اللؤلؤ ووضعها في عقود..

وأسجل حقيقة هنا :هي أن الفتاة التي تقوم بكل هذه العمليات بما في ذلك قيادة الزوارق والبواخر والمطاعم والمعارض والأحياء المائية ..كل ذلك يتم في غاية الأدب والمرح ..وكل شيء هنا يدل على أنه من الممكن أن يكون الإنسان في غاية الكفاية وفي غاية الأدب وفي غاية المرح أيضًا..

* * *

وعلى محطة سكة حديد »توبا «وقفت خادمتان واحدة بالكيمونو والأخرى بالفستان تحملان حقائبي وتنتظران القطار حتى يتجه إلى طوكيو، وحاولت أن أشكرهما وأن أعيدهما إلى الفندق ..مستحيل !لا بد من توصيلي وانتظاري حتى أسافر ..وقبل أن نخرج من الفندق اصطفت جميع الخادمات وزوجة وبنات صاحب الفندق وانحنين انحناءات تكسر الظهور لتوديعي ..وعلى المحطة انحنت الفتاتان لتوديعي ..وتحرك القطار وكدت أقفل النافذة ونظرت لآخر مرة فوجدت الفتاتين وقد انحنتا أيضًا رغم أن القطار قد ترك المحطة منذ لحظات.

واعتدلت في جلستي استعدادًا للنوم فالطريق إلى طوكيو طويل ..وأغمضت عيني، ولكن بريق ملايين حبات اللؤلؤ لا يزال في عيني .ويظهر أن اللؤلؤ جماله في أنك تراه فقط في يد فتاة أو في عنقها ..وقد لاحظت أن جميع بنات جزيرة اللؤلؤ لا يستخدمن هذا اللؤلؤ ولا يضعنه في عنق أو في أصبع .ولا حتى الموظفين ..فاللؤلؤ ليس زينة عندهم ..وإنما يرتبط عندهم بالعمل والتعب ..إنهم يشبهون القواقع تمامًا ..فاللؤلؤ هو دموع القواقع، وهو دموع الغواصات والمرشدات العاملات هنا..

وخفتت أضواء اللؤلؤ في عيني وفي خيالي وتذكرت الجملة الحكيمة التي كان يرددها ملك اللؤلؤ ..كان يقول» :لا تفرح بالنصر الكبير .النصر الصغير أحسن .فالنصر الكبير يشبه قطرات الندى الكبيرة .إنها تلمع فوق أوراق الشجر، ولكنها لا تبقى كثيرًا لأنها كبيرة وثقيلة، ولذلك تسقط على الأرض ..أما الانتصارات الصغيرة فهي تشبه قطرات الندى الصغيرة فهي تلمع وتبقى طويلًا لأنها خفيفة.«!

ولذلك يجب أن أفرح لأنني رأيت ملايين اللآلئ ولم أملأ جيوبي منها ..وتذكرت حكمة بلدية تترجم هذه الحكمة اليابانية التي كان يرددها ملك اللؤلؤ ..هذه الحكمة تقول :إن هذا قصر ديل.

والإنسان يجب أن يفرح بأن ديله قصير، لأن الديل الطويل يجرجر على الأرض ويتسخ.

-يعني أفرح برؤية اللؤلؤ؟!

-طبعًا ..كفاية!

-لقد فرحت ..وليس معقولًا أن أفهم أكثر من ملك اللؤلؤ!

* * *

جزر هاواي آلوها ..آلوها؟!

سايونارا ..ومعناها باليابانية وداعًا ..وداعًا يا بلاد الذوق والأدب والانحناء الذي ليس له أول ولا آخر ..وداعًا يا بلادًا لا تعرف الإنجليزية وتقول نعم دائمًا إذا فهمت وإذا لم تفهم ..وداعًا يا بلادًا لا تطلب البقشيش ..وداعًا يا بلاد اللؤلؤ والجيشا والراديو الصغير ..وداعًا يا بلادًا تمشي نصف بناتها على القباقيب ويسكن نصف أهلها في بيوت من خشب ..وداعًا يا بلاد الشمس المشرقة فوق السحاب والمشرقة دائمًا في وجوه الرجال والنساء..

اليوم هو آخر يوم أسمع فيه أحدًا يسألني :إيه رأيك في اليابان؟ ثم يتوقع أن يكون الجواب دائمًا :إنها رائعة!

سايو نارا ..سايو نارا..

لن أرفع سماعة التليفون وأطلب الشاي كل يوم وأقول :كوتشا ..من غير ليمون ..ومن غير لبن..

-إزاي؟

-أيوه من غير لبن ومن غير ليمون.

ولن أقول للفتاة الصغيرة وكل بنات الفنادق دون العشرين بزمان -وأنا أشكرها على أن الشاي جاء بعد دقائق وفي أدب ورقة وابتسام وانحناء لن أقول أبدًا بعد ذلك :أريجاتو جوازي ماشتا ..أي أشكرك جدًّا ..ولن أسمع من أية فتاة صغيرة وهي ترد بانحناءة طويلة عميقة :دوه تاسي ماشتا ..أي أشكرك أنت..

وداعًا يا بلادًا تأكل السمك النيء، وتضع السكر في الصلصة، وتسلق البصل والفجل والخيزران، وتأكل على حصيرة ناعمة، وتستمع إلى الضفادع البشرية وهي تغني في ملابس الجيشا ..وداعًا يا بلاد الشمس التي أشرقت في نفسي ولن تغرب أبدًا.

سايو نارا ..سايو نارا!..

وأتمنى أن تصبح بلادنا جميلة كبلادكم ..غنية كبلادكم ..وأن يكون كل ما في شارع سليمان باشا مصنوعًا في بلادنا :السيارات والملابس وزينة الستات وملابس الرجال وكل ما في فترينات المحلات علي جانبي
الشارع ..سايو نارا ..وأن يصبح توزيع »الصحف العربية «كتوزيع صحيفة »أساهي «اليومية، إنها توزع ستة ملايين نسخة يوميًّا ..وهي أكبر صحيفة يومية في الدنيا..

ولم أذرف دمعة على فراق اليابان الجميلة، ولكن السماء هي التي اكفهر وجهها، ونزلت منها دموع ..رأيتها على زجاج السيارة الكاديلاك التابعة لشركة »بان أمريكان «وهي تنقلنا إلى مطار طوكيو الدولي ..الشوارع على الجانبين تتلألأ ..الأنوار كالسوائل الملتهبة ..الأنوار عروق نابضة بالنور والحرارة في جسم طوكيو ..لا يوجد إعلان واحد مكرر في كل هذه المدينة العظيمة.

ومطار طوكيو الدولي عمل فني كامل :المبنى والمدخل، والميكروفونات ..والاتصال بين موظفي شركات الطيران مودرن جدًّا ..والحقائب تتحرك على حصيرة كهربائية ..والمحلات والمطاعم رائعة ..وأعتقد أن مطار طوكيو هو أحسن مطار رأيته حتى الآن ..أحسن من مطار تمبلهوف ببرلين ..أحسن من مطار
فرانكفورت ..وأحسن من مطار أورلي بباريس..

* * *

المسافة بين طوكيو وبين جزر هاواي هي 13ساعة ونصف ساعة ..من الطيران المتواصل.

بدأت رحلتي في الساعة العاشرة والنصف مساء.

تحسست ملابسي ..إنها كثيفة ..البالطو من الجلد اشتريته من الهند، والجاكتة صوفية اشتريتها من أستراليا، والبلوفر اشتريته من هونج كونج، والقميص من سنغافورة، والملابس الداخلية كلها من طوكيو ..وعندما ذهبت لشرائها دهشت البائعة، ولكن أدبها منعها من أن تقول :إن أحدًا لا يشتري هذه الملابس الشتوية إلا العجائز!

وواحدة أخرى قالت في أدب :إن هذه الملابس قد اشتريتها أمس لوالدي !لوالدها ..لجدها..؟ لا يهم فالبرد والمطر هنا جعلاني أنكمش كأني عجوز وكأنني أرنب!

وفي الطائرة جلست بجوار النافذة وشددت الحزام، وأخرجت كتابًا صغيرًا عن جزر هاواي، ولم أكد أقلب في الكتاب حتى جاءت مضيفة الطائرة ..إنها أمريكية وشكلها مكشر كأنها تمثل دور الزوجة المطلقة في فيلم صامت ..ومدت يدها بطبق فيه بعض اللبان ..ولو أنصفت لقدمت لنا بعض الليمون، وأخذت هي نصف هذا الليمون لعله يزيل القرف من شفتيها وعينيها!

وجاءت المضيفة اليابانية ..حلوة صغيرة كالعروس ولا تكف عن الضحك ..لا توجد هناك نكتة، ولكن وجودنا يكفي!...

والمضيفة الأمريكية كأنها تقول لنا :أنا مش خدامة أبوكم !ونحن نقول أيضًا ولكنها لا تسمع ما نقوله نحن :واحنا ما نرضاش إنك تكوني خدامة أبونا!..

والليل طويل ..والكرسي صغير ضيق على ملابسي الكثيرة ..والأمريكيات العجائز لا يتوقفن عن الكلام .وحكايات وقصص طويلة عن الذي رأينه في الدنيا شرقًا وغربًا ..ويتحدثن عن مشاكل البيت والطعام والأولاد ..ويكفي أن تنظر لأية سيدة أمريكية أو أي رجل أمريكي حتى يحييك ويسلم عليك ويصبح صديقك في لحظة ويعطيك عنوانه ويطلب إليك أن تزوره.

كل شيء عند الأمريكان يتم في بساطة وبسهولة وبلا كلفة، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الناس في أوربا وآسيا مفتونين بالحياة الأمريكية ..فهي بسيطة »هلهلي «وفيها حياة ومرح كثير جدًّا -فيما عدا هذه المضيفة!

وكان الليل طويلًا جدًّا ..ولم تشرق الشمس إلا في ساعة متأخرة كأنها هي الأخرى قد راحت عليها نومة ..والطائرة بدأت تهتز كأنها تتساقط من التعب ..ومن النافذة كان ماء المحيط الهادي أزرق قاتمًا ..كشكل المياه حول جزيرة كابري .أو حول جزيرة سيلان ..أو مرسى مطروح ..أزرق داكن وتحت الماء توجد صخور بنية اللون، هذه الصخور هي بقايا جزر غمرها المحيط .إنها مئات الجزر ويسمونها »الهاديات «نسبة إلى المحيط الهادي فكل هذه المنطقة بركانية ..وكل هذه الجزر الموجودة هنا هي جبال بركانية .وقد أغرقت المياه الوديان التي حولها ولم تبق إلا القمم.

وقبل جزر هاواي نبهنا الطيار إلى أننا بعد لحظات سنكون فوق الأجزاء الشمالية لجزر هاواي ..وكادت أرواحنا تطير تسبق الطائرة إلى سماء هذه الجزر وأخيرًا ظهرت كتل بنية اللون، وفيها بعض البقع الخضراء ..وأحيانًا تظهر خطوط لامعة أيضًا ..وكأننا نرى وجه القمر ..ويبدو أن هذه الجزر كلها صغيرة ولكن شكل الجزر يبدو كشكل طفل مولود الآن ..كتلة من اللحم الأحمر ليس له ملامح الأب أو الأم، ليست له ملامح الصورة الرائعة التي في خيالنا عن جزر هاواي وسحر هاواي ولياليها وأغانيها ..وبصراحة ليست لها ملامح بنات هاواي!..

ولم أتعجل الحكم على هذه الجزر ..وانتظرت حتى تنزل الطائرة إلى الأرض ..وبعد لحظات أعلن الطيار أننا نرى تحتنا ميناء بيرل هاربورالتاريخية ..وهي تاريخية لأن اليابانيين أغرقوا فيها الأسطول الأمريكي، وبدأت معارك الحرب الثانية في الشرق الأقصى ..وبعدها قفز اليابانيون إلى الفليبين والهند الصينية وإندونيسيا وهددوا

أستراليا ..وإلى جوار بيرل هاربور -ومعناها ميناء اللؤلؤ -أعلن أنه توجد مدينة هونولولو عاصمة جزر هاواي ..وجزر هاواي هي الولاية الخمسون في الولايات المتحدة ..فقد انضمت إليها منذ سنوات قليلة وهي أحسن فترينة لأمريكا في الشرق الأقصى كله.

ونزلت الطائرة إلى مطار هونولولو الدولي ..المطار كبير ومخطط ونظيف جدًّا وبه عدد كبير من الطائرات النفاثة الحربية والمدنية ..وهي تنزل وتصعد كل لحظة بصورة مذهلة!..

ولم نكد نخرج من الطائرة حتى أحسست بحرارة الجو ..الدنيا حر هنا ..كشهر مايو في القاهرة ..وأخذت أنزع ملابسي ..البالطو والجاكتة والبلوفر ..ولم أتمكن من تشمير القميص فتحته ملابس لها أكمام طويلة ..وفي السيارة أكملت نزع ملابسي!..

والوجوه كلها أمريكية ..القمصان ذات الورد والأبقار والجواميس والأسماك ..القمصان من كل الألوان وكل المقاسات ..القمصان الواسعة جدًّا والبنطلونات الضيقة واللبان والسجائر والسيجارات ..ودخلنا الجمرك في طوابير لنرى أحد ضباط الهجرة قد رسم على ذراعه عروسًا ..لا بد أنها تشبه فتاة كان يحبها ..أو ربما ولد، وهذا الرسم على ذراعه فهو رسم طبيعي لونه أزرق في لون العروق أو في لون عينيه ..أو يمكن وحمة!..

ولم يستغرق الكشف على شهاداتنا الطبية ضد الجدري والكوليرا وجوازات السفر سوى دقائق معدودة، وأمام باب المطار وجدنا الشيالين من أبناء هاواي ولكنهم أمريكيون أكثر من الأمريكان» .الخناقة «في الكلام، الاستخفاف في الحركة وكثيرمن القنزحة ..تقدم واحد منهم وسألني إن كنت أريد سيارة تاكسي أو سيارة كبيرة لنقل حقائبي ..فوافقت على تاكسي، وطلبت إليه أن يحضر حقائبي ..فقال ما معناه إنه »ريس «هنا ..ولكنه مع ذلك سينقل حقائبي» ..ومع ذلك «هذه كلفتني نصف جنيه بقشيش ..وجاء التاكسي كاديلاك ضخم ..أما السيارة الكبيرة التي كان يريدني أن أركبها فهي كاديلاك أيضًا، ولها ستة أبواب..

* * *

ورأيت فتيات سمراوات يرتدين ملابس هاواي..

وملابس هاواي تشبه جلاليب الفلاحات عندنا واسعة ولها سفرة عالية وحول أعناق الفتيات عقود من الورد ..وقد ظننت أن أحد هذه العقود سيلتف حول عنقي ..وقد بالغت في الظن فتخيلت أن هذه هي التقاليد ..وهكذا قالت لنا كتب الدعاية ..ولكن الفتاة سألت عن السيد جارسون وحرمه ..وتقدمت مني وقالت :مستر جارسون؟ فقلت :أيوه.

وتقدمت الفتاة ووضعت إكليل الورد حول عنقي، ثم طبعت قبلة على خدي!..

وأنا أضحك، وهي سعيدة لأنها لم تنتظر طويلًا لكي تجدني...

ثم سألتني عن السيدة حرمي فأشرت إلى الراكب الذي يمشي ورائي ..ولم تسمعني وأنا أقول لها :إنها تخلفت في طوكيو وأرسلت أخاها!

وغضبت وسحبت العقد من رقبتي وراحت تبحث عن مستر جارسون وحرمه.

وفي السيارة سألت السائق عن الحياة في جزر هاواي وعن بنات هاواي ولاحظت أن السائق دهش جدًّا لهذه الأسئلة.

وسألته عن سكان هاواي الأصليين وأين نجدهم!

وعرفت أن الطائرة التي سافرت من طوكيو يوم الخميس في الساعة الثالثة مساء وصلت إلى هونولولو حوالي الساعة الثالثة من مساء يوم الخميس نفسه، فبدلًا من أن تصل يوم الجمعة وصلت يوم الخميس ..فجزر هاواي متقدمة في الزمن خمس ساعات عن اليابان ..ومن الأفضل أن تسأل أحد علماء الجغرافيا أو الفلك، فنحن هنا نقع على خط طول 158 غرب جرينتش، والقاهرة على خط طول 30 شرق جرينتش، والفرق بين البلدين الآن هو 12 ساعة!

يعني لقد تقدمنا في الزمن خمس ساعات ..ولكن عرفت أننا تأخرنا في الوصول إلى هذه الجزر حوالي خمسين سنة !فأهل هاواي -الذين كنت أتوقع أن أراهم عراة حفاة، ينسجون ملابسهم من أوراق الموز، ويركبون الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار، ويضعون الورود الكبيرة في الشعر ..وبنات هاواي التي قال عنهن جيمس كوك الذي اكتشف هذه الجزر لا يعرفن إلا فنًّا واحدًا هو الاستسلام للرجل..

هؤلاء الرجال والنساء لا وجود لهم الآن ..لقد اختفوا منذ خمسين سنة على الأقل!

أما الآن فكل الناس يلبسون البدل والأحذية ومعظمهم يضيق بالأحذية الضيقة فيضع في قدميه سيارات فاخرة من أحدث طراز ..فأنا لم أر أحدًا يمشي في الطريق .والموضة هنا هي قيادة السيارات وأنت عريان إلا من مايوه صغير ..أما السيدات فيقدن السيارات بالمايوه ..والمايوه مسخوط جدًّا فهو مختصر جدًّا، وربما كان السبب هو الاقتصاد في استخدام الأقمشة الثقيلة!

وعند الفندق انحرفت السيارة ودخلت في بوابة مكتوب عليها كلمة :آلوها ..ومعناها :أهلًا ..وكلمة آلوها مكتوبة على كل السيارات ..وانطلقت السيارة إلى جراج تحت، وبالجراج سيارات لم نرها قبل ذلك ..فكلها موديل العام القادم ..كل السيارات جديدة، والسيارة الأمريكية قد ملأت الجراج والشوارع هنا .ونزل السائق ووضع الحقائب على الأرض وسألته :كم؟ فقال :خمسة دولارات...

يعني جنيهين لكي ينقلني من المطار إلى المدينة ..والمسافة لا تزيد على خمسة كيلومترات ..أعطيته الدولارات الخمسة وأنا مذهول من وقوفه أمامي ..إنه ينتظر البقشيش ..ولا أعرف ماذا أعطيه ..فأعطيته نصف جنيه!

الفندق أنيق جدًّا..

واتجهت إلى الغرفة ..إنها واسعة طولها عشرة أمتار وعرضها سبعة أمتار وأرضها مفروشة بحصيرة جميلة مصنوعة من ليف النخيل ..وبالغرفة مقاعد ومكاتب ولها شرفة تطل على البحر ..تطل على خليج ويكيكي -لا تخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة وكويكي التي معناها بلغة هاواي :بسرعة ..أما إيجار الغرفة فهو تسعة جنيهات في اليوم ..لا فطور ولا غداء ولا عشاء ..مصيبة سودة!

وفي المطعم عرفت أنه لا توجد هنا فنادق درجة أولى ودرجة ثانية ..وإنما الفنادق هنا هكذا :درجة أولى، ودرجة أولى ممتازة، ودرجة أولى خاصة ..ثم الفيلات!

وفي المطعم جلست متحسرًا خائفًا لا أدري ماذا أصنع ..أنا ميت من الجوع ..فالأكل في الطائرة يوجع البطن ..إنه خليط من السكر والملح، وكل الأكل بارد ..الصلصة عليها سكر، الليمون منقوع في العسل، الزيتون مزروع في المربى ..اللبن مثلج ..الشاي بارد!

وجاءت الجرسونة اليابانية -هنا 40٪ من السكان الأصليين يابانيون -فطلبت منها أن يكون السمك مشويًّا وبعض الشوربة الساخنة والسلاطة الخضراء ..وبلاش شاي وبلاش قهوة وبلاش فاكهة .والناس حولي يأكلون كميات كبيرة من الطعام والسلاطات والفواكه ..فلا بد أنهم سيدفعون مبالغ خرافية ..وبعد الأكل طلبت من الجرسونة :الحساب من فضلك؟ فكتبت ورقة وطلبت مني أن أدفع هناك ..وأشارت إلى حيث تقف فتاة أمريكية

عملاقة .ونظرت في الورقة وكاد يغمى عليَّ ..تصوروا أن هذا الطبق التافه كلفني ثلاثة جنيهات ..قطعة من اللحم وإلى جوارها بعض البرسيم والأعشاب بثلاثة جنيهات!

كاد عقلي يطير مني ..وبدأت أفكر في الهرب من هذا الفندق وحاولت أن أسأل عن بيوت يابانية أو صينية ..وأعاود النوم على الأرض كما كنت أنام في اليابان ..مأساة!

ألا يوجد في هذه البلاد فقراء؟ ألا يوجد أناس متوسطو الحال؟ أليس بين الأمريكان واحد ليس مليونيرًا؟ وتذكرت الناس الجالسين إلى جواري والمبالغ التي سيدفعونها ..لقد طلبوا نصف خروف أو نصف بقرة وعشرات من زجاجات البيرة والنبيذ وأكوامًا من الفواكه وبراميل من القهوة ..مع أن أشكالهم لا تدل على أنهم من الأغنياء ..ويبدو أن الأمريكان لا يهتمون بمظهرهم كثيرًا فأنت لا تعرف الفرق بين الغني والفقير أو بين الكبير والصغير.

ومن شرفة غرفتي ..نعم غرفتي .فليس أمامي إلا أن أملأ صدري بالهواء النقي جدًّا، وأملأ عيني بالوجوه الحلوة التي تتناول العشاء في ضوء المشاعل، وإلا أن أشاهد بنات هاواي يرقصن حافيات على رمال الشاطئ وعلى نقر الطبول وعويل الجيتار ..من شرفة غرفتي جلست أشرب الدنيا وآكلها مجانًا وأمصمص شفتي وأنا أتطلع إلى بنات هاواي!

وبنت هاواي ترقص هنا بمايوه قطعتين، ووراء أذنها وردة كبيرة وحول رقبتها عقد من الورد .والأمريكان جالسون على الرمل يصفقون .وفي جانب آخر من البلاج أرى أشباح شبان في عناق طويل، وأرى الأشباح تتقارب وتتعانق ويصبح الشبحان شبحًا واحدًا ويختفي الشبح على الرمل ثم يختفي الظل، يصبح حفرة في الرمل ..يدوسها الناس ..وتتكرر عملية الأجسام التي تتحول إلى أشباح ثم إلى حفر في الرمل وإلى صمت ..ثم إلى حسرات -أقصد نفسي!

وفي اليوم التالي اكتشفت أماكن أرخص ..ولكنها لا يمكن أن تكون كاليابان الغالية جدًّا ..إنها طبعًا أغلى بزمان.

وحمام ساخن، ونومة حتى الصباح، وبعض الموسيقى وبعض الصحف وكوب من اللبن الدافئ .والمشاعل على الشاطئ والوجوه السعيدة ..كل هذا أعاد لي روحي ..وفي ساعة مبكرة فتحت النافذة على شمس جديدة تنسحب على ماء مثل المشمع الأزرق الذي ينسحب إلى الشاطئ كأنه يريد أن يسمع ما يقوله المستحمون..

هذه جزر هاواي ..أجمل جزر رأيتها حتى الآن ..أجمل من كابري ..وأجمل من صقلية ومن قبرص ومن سيلان ومن سنغافورة ومن بالي ومن هونج كونج ..جزر هاواي تضم أكثر من 12جزيرة صغيرة ولكن أشهرها جزيرة ماواي، وجزيرة أواهوا وفيها هونولولو عاصمة ولاية هاواي كلها، وجزيرة ماوائي وجزيرة كاوائي، وجزيرة نيها، وجزيرة مولوكائي، وجزيرة لا نائي ..وهم هنا ينطقونها بالهمزة فيسمونها :هاوائي أو هافائي ..ويضعون هذه الهمزة على الحروف اللاتينية كما نضعها في العربية ..ومن الغريب أنهم يسمونها »همزة «أيضًا ..ولا يعرفون من أين جاءتهم هذه الكلمة ..وقد لاحظت وجود كلمات عربية في لغتهم مثل :كاهن وحكيم وحب وحبلى وواهنة وقوي..

وكلمة »آلوها «هنا تجدها في كل مكان ومعناها :أهلًا أو وداعًا ..أو معناها :نزلت أهلًا أو تركت أهلًا.

وهناك شركات طيران اسمها شركات طيران أهلًا وشركات ملاحة أهلًا..

وجزر هاوائي عدد سكانها نصف مليون ..وسكان جزر هاوائي ومعظمهم من الجنس الأصفر الذي ينتمي إليه سكان اليابان والصين والفليبين، والباقي ينتمى إلى الجنس الأبيض أو القوقازي.

وعندما اكتشفت هذه الجزر سنة 1778 كان عدد الهوائيين حوالي 50 ألفًا .. وبعد اكتشاف هذه الجزر مات معظم هذا العدد بسبب أمراض الحضارة: الزهري والسيلان! ولم يبق الآن من هؤلاء الهوائيين سوى عشرة آلاف.. وهذه الآلاف لا يمكن أن تجدها إلا في الجزر البعيدة المقفلة.

أما أبناء هوائي فهم الآن أمريكيون.. وأحيانًا يبالغون في «أمركتهم» لدرجة أنهم يسخرون من الأمريكيين.. أما الأمريكان فيسكتون أو يضحكون.. فليس في أمريكا كلها أمريكي واحد إلا الهنود الحمر، أما الباقون فقد جاء معظمهم من أوربا.. فكلهم أجانب مثل أهل هاوائي، ولم أسمع واحدًا يقول إنه أمريكي إلا «المحدثون» أما الأمريكان القدامى فهم يقولون إنهم من إنجلترا وفرنسا أو إيرلندا!

وجزر هاوائي هذه قد عرفت الأمريكان منذ وقت طويل، منذ حوالي 180 سنة عندما بدأ رجال التبشير ينزلون إلى هذه البلاد واحدًا بعد واحد وكانوا يدعون إلى المسيحية.. ويفتحون الطريق أمام الدول الكبرى لكي تستعمر هذه الجزر. ليس هذا إلا رأي الكاتب الأمريكي جيمس متشنر في كتابه الأخير عن «هاواي» وبه ألفا صفحة، وربح فيه ثلاثة ملايين دولار!

وبعد رجال الدين جاء رجال الأعمال واحدًا بعد واحد.. ورجال الأعمال هم الذين أتوا بالعمال اليابانيين والصينيين.. وقد ظلت هاوائي مجموعة من «العزب» أو «الإقطاعيات» لأصحاب الأعمال الأمريكان.. ولا تزال هناك حتى الآن جزر كاملة تملكها عائلات ولا يدخلها أحد.. فجزيرة «نيهاو» تملكها عائلة واحدة ولا يمكن دخولها إلا بإذن خاص.. وعدد سكان هذه الجزيرة حوالي 200 نسمة.. وغرض هذه العائلة أن تبقى الحياة في هذه الجزيرة كما كانت من مئات السنين.. فعلى الرغم من أن بهذه الجزيرة أحدث الآلات لزراعة القصب واستخلاص السكر.. وزراعة الأناناس ووضعه في العلب، فإن الحياة فيها بدائية.

وهناك جزيرة أخرى تملكها إحدى الشركات هي جزيرة لانائي..

وجزر هاوائي تزرع القصب والأناناس وتبيع منه سنويًّا ما يعادل 330 مليون دولار.. وهناك زراعات وصناعات أخرى أدت إلى رصف الشوارع.. وكثرة الخطوط الجوية والملاحية والمطارات والموانئ.. والمحطات التجارية هنا مليئة بالبضائع الأمريكية. وكل الناس هنا يعملون وكلهم يرتدون الملابس النظيفة ولا تجد في الشوارع إلا عددًا قليلًا جدًّا من المشاة.. والأتوبيسات هنا فخمة وثمن التذكرة بين محطة وأخرى 20 سنتًا أي ما يساوي ثمانية قروش!

وهذه مطاعم يابانية وصينية وكورية.. وصناعات يابانية أيضًا.. والمنافسة بين أمريكا واليابان على أشدها. والصناعات اليابانية أدق وأصغر وأرخص وأكثر.

والفندق الذي أنزل به تنعقد به لجان كل يوم.. لجان كثيرة.. هذه لجنة تحسين العاصمة.. وهذه لجنة عمل أنفاق تحت الأرض.. ولجنة بناء برلمان.. ولجنة تحسين المطار الدولي وتخفيف ضغط الطائرات النفاثة التي تزعج العاصمة، فالطائرات النفاثة الحربية والمدنية تنزل وتطلع بمعدل طائرة كل خمس دقائق ليلًا ونهارًا!

والديانة هنا هي المسيحية وإن كان بعض الصينيين واليابانيين لا يزالون يتمسكون بالديانة البوذية.. ولكن عددهم قليل جدًّا.

* * *

وعندما جاء جيمس كوك الرحالة الإنجليزي الذي اكتشف هذه الجزر، واكتشف أستراليا أيضًا، ظنه الهاوائيون أحد الآلهة.. فهو طويل أبيض اللون أصفر الشعر أزرق العينين.. وظنوا أن سفينته هي جزيرة عائمة.. وظنوا أن ساريات السفينة أشجار في هذه الجزيرة. وعندما نزل كوك في جزيرة هاوائي أقبل عليه الناس ساجدين راكعين.. وأدرك كوك أنه إله فأمعن في إظهار المعجزات فأمسك سيجارة وأشعلها وراح يطلق الدخان من فمه

والناس في ذهول ..ثم أخفى يديه في جيب الجاكتة فظن الناس أنه يستطيع أن يضع يديه في أحشائه ويخرجها دون أن يموت ..ثم إن معه عصا ينطلق منها دخان ولهب ولها دوي مروع ..وخروا ساجدين لهذه العصا السحرية ..وكانت تلك العصا نوعًا من البنادق القديمة!

وكانت الديانة هنا تحدث الناس عن اليوم الذي ستبعث فيه الإلهة بمن يزور الجزيرة ويخلصها من لعنات الإلهة »بيلة «إلهة النيران والبراكين والتي تزور جزر المحيط الهادي الواحدة بعد الأخرى، ثم تستقر آخر الأمر في جزيرة هاوائي حيث تنطلق النيران من براكينها ..وعندما هبط كوك أيقن الناس أن هذا هو الإله المنتظر!

ويظهر أن كوك كان مستبدًّا وكان قاسيًا .فأحس الناس أنه لا يختلف كثيرًا عن الآلهة القساة .ويظهر أن الناس -حتى البدائيين -لا يتحملون القسوة ولو من الآلهة ..وفي مرة تشاجروا معه وجرحوه ..وسالت الدماء من »كوك «وكانوا يعتقدون أن كوك لا يمكن أن يصيبه أحد أو يقتله أحد ..ومنذ تلك اللحظة وهم ينظرون إلى كوك على أنه غريب، وأنه يريد أن يستولي على أراضيهم ..وقد حدث أن سرق بعض بحارة كوك زورقًا من ملك هاوائي، وهنا هجم أحد الهوائيين على كوك وقتله..ودفن كوك في جزيرة هاوائي.

وقد أطلق كوك على جزر هاوائي اسم جزر ساندويتش تيمنًا بالإيرل ساندويتش أميرال البحرية البريطانية في ذلك الوقت ..والإيرل ساندويتش هو أول من وضع اللحم والأرز في رغيف ..فأطلق على هذا النوع من الطعام اسم ساندويتش ...وغيرت الجزر اسمها، وأصبحت هاوائي ..ونسي الناس من هو ساندويتش وإن كانوا يأكلونه كل يوم!

وقد حاولت كل الدول الكبرى أن تستولي على هذه الجزر الجميلة ذات الموقع العسكري الخطير ..حاولت بريطانيا ثلاث مرات، وفرنسا مرتين، والاتحاد السوفيتي مرة .وليس للاتحاد السوفيتي هنا إلا قلعة اسمها قلعة روسيا وحاولت أن أرى هذه القلعة فلم أجد إلا الاسم وشوية حجارة!

وكانت جزر هاواي مجموعة من الممالك المستقلة ..ثم توحدت تحت ملك واحد هو الملك كاميهاميها الأول ..وتوالى بعده الملوك والملكات ..ولكن رجال الأعمال الأمريكيين استطاعوا أن يمهدوا الطريق إلى رأس المال والنفوذ الأمريكي حتى تحولت هذه الجزر إلى أرض تابعة لأمريكا في أواخر القرن الماضي ..ثم استقلت واعترفت باستقلالها وصار لها حاكم أمريكي ..وبعد ذلك في نوفمبر سنة 1958أعلن قبولها عضوًا في الولايات المتحدة، فكانت الولاية الخمسين ..وعلى أثر انضمام هذه الولاية لأمريكا أعلنت بعض الأحزاب في الفلبيين رغبتها في الانضمام لأمريكا باعتباره الحل الوحيد لإنقاذ جزر الفلبيين من التمزق والانحلال والفساد ..ولكن أمريكا هي الأخرى لها وجهات نظر في الفلبيين..

والحياة هنا في جزيرة »أواهو «وعاصمتها هونولولو ..هادئة جدًّا ليس بها حوادث ..والنظرة للصحف المحلية تجعلك تشعر أنك في عزلة تامة عن العالم كله ..لا حوادث ولا قتل ولا جرائم ولا ضرائب ..كل شيء هادئ ناعم ..وأعلى الأصوات هو صوت أمواج البحر..

ونحن ننام والنوافذ مفتوحة وبلا غطاء، والأضواء في غرفتي وفي كل الغرف مغطاة خافتة كأصوات الناس .وكل شيء عليه فلتر ..كل شيء نظيف كل شيء نقي ..الرمل أصفر في لون حبات الرمان ولون شفاه الفتيات هنا ...وأشجار جوز الهند أوراقها مدلاة كضفائر الفتيات الصغار ..والهواء يضرب الوجوه في خفة كأنه فستان هاوائي واسع والقبعات من سعف النخيل ..وكل فندق له حمام سباحة رغم أن كل الفنادق تطل على المحيط ..وأمام الفنادق توجد زوارق هاواي المزدوجة.

وتوجد عشرات الألعاب المسلية ..فهناك مثلًا جمعية غريبة ولكن الإقبال عليها هائل ..وهي جمعية »جمع محار القواقع«، ولها مواعيد ولها رحلات وسيارات وطائرات..

وهناك جمعية أخرى لصيد الحشرات الغريبة ..وكل شيء هنا يقابله الناس باهتمام، رغم أنه يبدو سخيفًا.

والناس جاءوا إلى هذه الجزر وفي نيتهم شيء واحد :أن يستريحوا على الآخر.

وفي الغرفة المجاورة لي عريس وعروس، وفي الغرفة التي في آخر الممر عريس وعروس ..وكل يوم يتغير الورد، ليتمشي مع لون الفستان ..كل يوم وفي الصباح يتمدد الناس في البلكونات أو على الشاطئ ..ويسبحون ويغوصون تحت الماء ..وفي الليل تضاء المشاعل وفي ضوء المشاعل يجلس الناس في هدوء تام، ويأكلون ثم ينزلون إلى الشاطئ، وهنا تنتظرهم فرق الموسيقى الهوائية ..والرقصة التقليدية هنا هي رقصة »الهولا «وهي رقصة سهلة قريبة من البوليرو ..أو »الفوكس تروت «السريعة ..وفتاة واحدة ترقص وتتلوى في مكانهاوقد ارتدت فستانًا من قطعتين وعرت وسطها كما تفعل السيدات المحتشمات جدًّا في الهند، ثم عرت ساقيها وصدرها وبدأت ترقص ويصاحبها ثلاثة من الموسيقيين؛ واحد منهم يغني بلغة هاواي الغربية ..فكل حروف هذه اللغة عددها 12فقط هي :هـ.ك.ل.م.ن.ب.ف، والخمسة الحروف الباقية هي عبارة عن الضمة والكسرة والفتحة والسكون والشدة..

ولا بد من وجود المشاعل في أثناء هذه الرقصة، فهذه الرقصة لها قصة تاريخية .فقد حدث أن شعرت الإلهة »بيلة «إلهة النيران والبراكين بكثير من الملل والقرف، ويقال إن هذه الإلهة تشعر بالملل عندما لا تجد ما تعمله، ولم تجد »بيلة «شيئًا تتسلى به ..كان شعورها مثل شعور الإمبراطور كاليجولا الطاغية الروماني الذي لم يكن يحزنه في الدنيا كلها غير شيء واحد هو أن الإلهة لم تخلق للإنسان سوى عنق واحد .وكان يتمنى أن يكون للإنسان أكثر من عنق لكي يقطع عددًا كافيًا من الرءوس التي تروي ظمأه إلى الدماء ..ولم تجد هذه الإلهة سوى أختها الصغرى فطلبت إليها أن تسليها فرقصت لها أختها رقصة الهولا ..ويقال إن الأخت الكبرى قتلت أختها الصغرى بعد ذلك ..فالرقصة لم تعجبها ولم تدخل السرور على نفسها ..فأعادت الأخت الرقصة مرة ومرة ولكن الأخت الكبرى لم تنشرح، فقتلت أختها .ورقصة »الهولا «هي في الواقع صلاة على روح الأخت الطيبة التي أرادت أن تسلي أختها الشريرة التي تتنفس النار والدخان من كل بركان.

* * *

وأحيانًا يذهب الناس هنا إلى المطاعم عند السوق الدولية ..وهذه السوق الدولية يحاول أصحاب المطاعم أن يقدموا فيها الطعام والسلع من كل بلد في العالم ..فقد عثرت على محل لبيع السجائر ..عنده سجائر من القاهرة ويقول إنه يحصل على هذه السجائر من شريك له في أمريكا ..وهذا الشريك له شريك آخر في تركيا..

وفي قلب السوق الدولية يوجد شبه مسرح وعلى هذا المسرح تتوالى الفرق الغنائية الموسيقية، وتعرض فنون الرقص والغناء الغريب في كل الجزر الجنوبية أو في جزر الهاديات أو جزر المحيط الهادي ..وهذه الحفلات تقام مجانًا ..وفي نفسي أقول :آدي الدعاية واللابلاش.

ولا بد أن الذي يقوم بهذه الدعاية هو إحدى الشركات السياحية أو أحد المطاعم أو أحد المسارح ..ولكن لا تمضي لحظات على الرقصة الأولى والثانية حتى نعرف من الذي يقدم هذه الحفلات ..إنها إحدى شركات الطيران التي تدعو الناس لزيارة الجزر الأخرى ..حيث الحياة أجمل وأروع..

وكل شيء هنا تستغله الشركات للدعاية لشيء ما.

فمنذ أيام انفجر بركان في جزيرة هاواي، وكان البركان خامدًا منذ خمس سنوات ..هذا البركان أدى إلى انفجار محطة الإذاعة -وأقصد محطات الإذاعة -هذه المحطات قد سخرت كل شيء للدعاية لزيارة البركان بأساليب عجيبة ..فمثلًا يقرأ المذيع نشرة الأخبار في أقل من دقيقة ..ونشرة الأخبار هنا كل نصف ساعة، ولا تكاد تنتهي النشرة حتى ينطلق مذيع آخر قائلًا :البركان انفجر ..إن أروع منظر تراه في حياتك هو من نافذة شركة خطوط أهلًا ..ثم أغنية بعد ذلك ..ومذيع ثالث يقول ..لا شيء يقي العين من شر البركان إلا منظار زجاجي ماركة كذا ..وأغنية ..وصوت مذيع رابع ينطلق كالمدفع قائلًا :بعد عودتك من البركان الذي درجة حرارته 1800مئوية حسب آخر تقارير العلماء في المرصد، بعد هذه العودة يجب أن تأخذ حمامًا دافئًا، وعلماء النفس يقولون إن النوم

هو الشيء الوحيد الذي يريحك، وإذا لم تتمكن من النوم فعليك بأقراص كذا ..وأغنية ..ومذيع خامس أو سادس يقول :الساعة الآن التاسعة بتوقيت البركان أكثر من 200ساعة وثلاث دقائق ..وأغنية ..ثم مذيع يقول :ماذا تصنع لو انفجر البركان تحت نافذتك لا تحاول أن تفكر ..أنا أقول لك الحل !ضع أذنك على مخدة ماركة كذا ..لمدة 24ساعة كل يوم..

هذه هي جزيرة أواهو التي عاصمتها هونولولو...

الحياة فيها هادئة جدًّا ..ناعمة جدًّا ..المطاعم كلها موسيقى وغناء ورقص كل يوم ..فكل يوم عيد هنا ..كل يوم ربيع ..وكل الناس هنا معهم فلوس وأغنياء ..ولا يشكون من الأسعار مثلي، ولا يضعون أيديهم على معدتهم أو قلوبهم قبل وبعد الأكل ثلاث مرات يوميًّا.

وعندما زار الأديب الأمريكي مارك توين هذه الجزر منذ مائة سنة قال :هذه الجزر هي أجمل سفن ألقت مراسيها في هذا المحيط.

ولم يكن مارك توين قد رأى الجزر الأخرى ليقول إنها أجمل جزر ألقت عندها السفن مراسيها، وألقت عندها الطائرات سلالمها في هذا المحيط وفي أي محيط آخر.

* * *

موسيقى وغناء بلا توقف

هذه الجزيرة التي أعيش فيها الآن ليست لها مواعيد للرقص أو الغناء ..فالرقص والغناء يبدآن من الساعة التاسعة صباحًا أو قبل ذلك لا أعرف ويظلان طول النهار وطول الليل ..وبعد نهاية الرقص تظل الإذاعة تغني حتى اليوم التالي ..ولا أحد يعرف إن كان الذي تسمعه في الشارع أو البلكونة هو صوت الناس في الميكروفون أو من غير ميكروفون .والإذاعة هنا تعمل 24ساعة .وعيبها أنها تكرر أغانيها في اليوم ثلاث وأربع مرات .وهذا هو أحد عيوب الاستماع إلى إذاعة واحدة فقط!

ففي الدور الذي أقيم فيه توجد حفلة لجمعية اسمها »جمعية المتفائلين وأصدقاء الطفل ..«وفي الدور الذي يعلو هذا الدور توجد حفلة أخرى لبعض شركات الطيران ..وفي الدور الذي فوقه توجد حفلة
مدرسة »وكيكي «الثانوية .وفي حديقة السطح توجد حفلة غداء لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس ..هذا في الغداء ..أو بين الفطور والغداء..

وفي العشاء ينتهي برنامج الحفلات وتبدأ حفلات الشكر ..فالذين دعوا لهذه الحفلات يشكرون الذين وجهوا لهم الدعوة.

ثم حفلات الأزياء ..والورود ..ويسمون الورود هنا اللؤلؤ ..ربما لأنها ليست نادرة ..فاللؤلؤ مثل أم الخلول عندنا لا عدد له!

ثم موسيقى هاوائية ورقص هاوائي وتصفيق وصلوات هادئة ..وحتى في بعض الأحيان يشكرون الله في نفس واحد ..طبعًا يجب أن يشكروه على ما أعطاهم من هواء وأرض وفواكه ومصانع ..وأمريكا!

وفي ساعة متأخرة قليلًا من الليل يبدأ الغناء على الشاطئ الرملي ..يبدأ عادة بأن يتحرك أحد الموسيقيين من أبناء هاوائي وفي يده جيتار، ويمر بأصابعه على الجيتار تحت نوافذ الفندق، وكأنه روميو تحت شباك جولييت، ويظل كذلك يلعب بأصابعه ويلعب بلسانه ..لأن الأغاني كلها هنا تلاعب باللسان والأسنان ..وبين الحين والحين
يقول :هؤ ..هؤ ..وهي نوع من الزغطة الغنائية ..وكأن »فلة «قد وقفت في حلقه وكأن لسانه مربوط بها .ويحاول هو أن يقتلعها مستعينًا بضغط الهواء إلى الخارج ..ولكن لا فائدة فيظل طول الليل يحاول بتشجيع الناس له ..إلى

أن تطل عليه من النافذة أية فتاة في مايوه -وكل الفتيات هنا بالمايوه -وتبتسم وتطلب منه أن يعيد الأغنية ..والتقاليد تقضي في مثل هذه الحالة أن يعيد من الأغنية ولو جملة واحدة.ويمضي إلى مكان آخر فهو يتفاءل بالفتيات الحسان اللاتي يقابلنه في أول الليل ..والتقاليد تقضي بأن تنزل الفتيات من الشرفات ويمشين وراء هذا الموسيقار المتجول.

وهي طريقة لطيفة للإعلان عن مكان حفلة ستقام هذه الليلة ..وفي مكان على الشاطئ يتجمع الموسيقيون والراقصات ويتناقشون بصورة غنائية أو مجرد مناقشة باللغة الإنجليزية أو باللغة الهاوائية، وبعد ذلك يمشون في الشوارع إلى أماكن كثيرة جدًّا في نفس مدينة هونولولو .وفي هذه المدينة تجد ما هو أغرب .فالغناء في كل مطعم ..في كل بار ..في كل حانة ..وهذا يحدث كل يوم وكل ليلة ..فليس في هذه الجزيرة أية مواسم للسياحة أو للغناء أو للرقص ..فكل سنة هي فصل واحد ..وكل يوم هو حفلة واحدة غنائية أو راقصة.

وهذا يضايقنا نحن الأجانب بعض الشيء ..ففي الصباح عندما نجلس إلى المائدة ونضع على كل مائدة شيئًا نحجزها به ..كجريدة أو جاكتة أو مفتاح الغرفة ..ثم نذهب ونملأ أطباقنا ببعض الفواكه وعصير الطماطم وكلها مثلجة ونجلس ونرفع رءوسنا إلى أعلى لنبتلع هذه المثلجات من ناحية، ومن ناحية أخرى نحاول أن نلفت نظر الجرسونة إلينا ..لكنها مشغولة جدًّا ..فهنا حفلة على اليمين وحفلة ثانية على الشمال ..الحفلات التي فوق قد استعارت بعض الجرسونات وبعض الثلج ..ونحن لا نريد -يعني أنا وغيري -إلا بعض الشاي الساخن أو حتى القهوة ..أي شيء ساخن ..وفي كل المرات لا تنظر إلينا الجرسونة أو تتجاوزنا كأننا قمنا من وقت طويل .وأخيرًا تلتفت إلينا الجرسونة وتكتب الحساب وتتركه وتتركنا ..وفي الورقة مكتوب أننا شربنا الشاي.

وأحاول أن أقنعها بفنجان واحد ..ولا داعي للدورق الذي تملؤه بالشاي الساخن ..وأخيرًا تطلب مني أن أذهب إلى غرفتي وأطلب الشاي بالتليفون ..وفعلًا أذهب إلى غرفتي وأنزع ملابسي وأمسك الصحيفة الصباحية وأتمدد في الفراش عريانًا كأي شاب رياضي أو كأي أمريكي مولود في هاواي وأمد يدي إلى التليفون وأقول :أريد بعض الشاي من فضلك.

وأسمع من الناحية الأخرى من الخط »زومان «لا أفهمه ..فأحاول أن أستوضح عاملة التليفون إن كانت قد قالت شيئًا له معنى وفاتني أن أفهمه .ولكنها تصر على أن الذي قالته له معنى، وأنها ستحاول أن تجد لي فنجان الشاي ..وأقرأ الصحيفة مرة ومرتين، وأقلب في بعض الكتب والنشرات وأدون بعض الملاحظات، وقبل أن أرتدي ملابسي يرن جرس التليفون وأسمع أن هناك محاولات جادة لكي أحصل على فنجان الشاي، وقبل أن أعلن لها عن عدولي عن الشاي تقفل عاملة التليفون السماعة ..وقبل أن تقفلها ببضع لحظات أستمع إلى بعض الموسيقى في راديو مجاور لها أو في حفلة مجاورة أو في غرفة مجاورة ..كل شيء هنا موسيقى ورقص ..في كل مكان.

وأنزل وأبقى في الخارج ساعات أشرب فيها الشاي ..وأتناول غذائي ..وعندما أعود أجد الشاي في غرفتي ..وألمسه بيدي فأجده قد برد وإلى جواره ورقة يجب أن أوقعها ..وأنظر في الورقة فأجد أن فنجان الشاي ثمنه خمسون قرشًا .ويدق جرس التليفون و»أزوم «أنا ..ويكون المتحدث جرسون البوفيه ويسألني إن كنت قد وقعت على الورقة الموجودة مع فنجان الشاي ..وأسكت لأستمع إليه وهو يغني فأقول :الله.

ويسألني :ما هذا؟ فأقول :مبسوط ..ويستوضحني بصوته الشجي ويقول :تقصد ..آلوها ..آلوها..ومعناها مرحبًا ومعناها وداعًا..

أقصد أهلًا يا بلاد الموسيقى والرقص ..ووداعًا يا فلوسي!

* * *

كل شيء هنا في سباق، في منافسة..

المجتمع الأمريكي مجتمع صناعي تجاري قائم على المنافسة في البيع والشراء عن طريق الدعاية ..شركات ليس لها أول ولا آخر ..كلها تحاول أن تكسب الزبائن ..أن تأخذ كل ما في جيبك من مال دون أن تجعلك تشعر أنك صاحب فضل عليها ..وأنك كريم جدًّا لدرجة أنك فضلتها على غيرها.

واللافتات الملونة والإعلانات في الصحف وفي الإذاعة وفي الشوارع والسينما والسيارات، كل ذلك لكي تلفت الشركات نظر الزبون ..تلفت نظره ثم تلفته هو وأسرته وأصدقاءه ..إلى أن تستولي عليه.

ولكن أمريكا باعتبارها أكبر دولة صناعية تجارية في العالم فالمنافسة فيها أقوى وأقسى ..وهذه المنافسة هي التي تؤدي إلى تحسين السلعة وترخيصها.

والمجتمع التجاري هو مجتمع على كثير من الأخلاق ..فالصدق والأمانة والوفاء بالوعد وعدم الغش، كل هذه صفات المجتمع التجاري .فالتاجر لا يكذب لا لأنه مؤمن بمزايا الأخلاق أو مؤمن بدين معين ..ولكن لأن الصدق هو أحسن إعلان له عند الزبون ..والغش هو أسوأ دعاية ضده..

فهو لا يكذب ولا يخلف الوعد لأن هذه جميعًا دعاية طيبة له.

والصحف هنا -أي في أمريكا -صفحاتها بالمئات ..فالصحيفة المحلية المتواضعة جدًّا عدد صفحاتها ثمانون صفحة ..وثمنها قليل جدًّا ..ولماذا؟ لأن الصحيفة مليئة بالإعلانات ..ومن أجل هذه الإعلانات الكثيرة جدًّا صغرت المقالات وصغرت الأخبار وأصبح الكلام المكتوب هو مجرد ملء للفراغ الذي تتركه الإعلانات.

والإذاعة كذلك .وهي قادرة على تحطيم أعصاب أي إنسان ميكانيكي ..أنت لا تستطيع أن تستمع إليها أكثر من نصف ساعة أو ساعة إن كنت من الصابرين.

تصور نفسك تأكل مثلًا وفي كل لقمة تجد ورقة وهذه الورقة مكتوب عليها إعلان ..تقرأ الإعلان ثم تبصق على الأرض ..هذا إذا كان الإعلان عن صناعة الورق ..ولكن هناك إعلانات أخرى عن صناعة الأحذية والطوب وفرش الأسنان والسخان الكهربائي والمسامير.

وأنا سأحاول هنا أنا أترجم لك جانبًا من الإذاعة الأمريكية التي لم تتوقف منذ سنوات ..لم تتوقف لا ليلًا ولا نهارًا إلا لكي يبلع المذيع ورقة ثم يعلن أنه ابتلع قرصًا من الإسبرين الذي تباع الأقراص العشرة منه بعشرة قروش في محلات كتكوت شارع حسب الله رقم !1247

فأنا أستمع إلى الإذاعة طول الليل ..أو على الأقل حتى الساعة الثالثة صباحًا ..وتبدأ الإذاعة بأغنية ولتكن الأغنية لأم كلثوم فيقول المذيع :أغنية ياللي كان يشجيك أنيني ..وهذا الأنين سببه وجع في الظهر وأحسن علاج هو مرهم »الإكسبريس «العجيب، إنه يشفى وجع الظهر في أقل من خمس دقائق حسب توقيت ساعات شيكوريل المدهشة .ياللي كان يشجيك أنيني لأم كلثوم أيوه أم كلثوم ..كلثوم ..وكالسيوم ..أملاح الكالسيوم تباع الآن بعد أن اختفت من السوق حوالي أربعين ساعة منذ احترقت مدينة المنيا التي تستطيع أن تراها من خلال نافذة الطائرات الجديدة التابعة لشركة »الطيران العربية ..«أغنية ياللي كان يشجيك أنيني ..وتبدأ الأغنية :ياللي كان يشجيك أنيني ..كل ما أشكي لك أسايا إلخ ..الأغنية التي كان يجب أن تستغرق خمس دقائق .والآن أغنية عبد الحليم حافظ، أول مرة تحب يا قلبي ..عبد الحليم حافظ ..أحسن حافز لك على السهر دون إرهاق هي حبوب »القط الأسود «إنها على هيئة أقراص ..كل علبة بنص جنيه ..لا يضر بالأعصاب ..وليس فيه مخدر يجعل هذه الحبوب عادة عندك ..أول مرة تحب يا قلبي وأول يوم اتهنا..سيحدث هذا لك قطعًا إذا ذهبت إلى مطعم »شجرة الدر «أحسن الأطعمة وأروع الأنغام في شارع سليمان باشا رقم 2323وبعدها 3 ، 2وبعدها ..3كمان مرة 2323ثم يعطس المذيع وتسمع صوت مذيع آخر صارخ يقول :ألم أقل لك لا تفتح النافذة ..استخدم ف ت !.إنها أحسن أنواع الستائر، رخيصة متينة، وبعد ذلك استخدم أقراص »شفيتم «للسعال والعطس ..أغنية »أول مرة تحب يا قلبي «مسجلة على أسطوانات أخبار فون ثمن الأسطوانة 70قرشًا ..وأحسن

جهاز لكي تستمع إلى صوتها نقيا هو جهاز صوت الغراب للأصوات الناعمة ..إلخ، ثم تبدأ أغنية عبد الحليم حافظ .وإليكم الآن أغنية »الحرف الأول من اسمه «طلبها اليوم مائة مستمع ومستمعة ..مائة ..لا تنس هذا الرقم ..إنه رقم محلات حسب الله لبيع الملابس الداخلية ..وردت كمية كبيرة من الحراير لمحلات حسب الله»..الحرف الأول من اسمه «هو اسم الأغنية ..استمعوا إليها ..وتمضي الأغنية تقول :الحرف الأول من اسمه ومن اسمي ..وبعد الأغنية يطلب المذيع فتاة صغيرة بالتليفون ويسألها ..ماذا تأكلين يا ماما ..فتقول الطفلة الصغيرة وكأنها نسيت الدرس الذي ردده المذيع على أذنها ألف مرة ..وتقول :أنا مش باكل حاجة ..ويقول المذيع مستدركًا :أمال فين علبة الشيكولاتة اللي معاك واللي إنت بتحبيها..

وتقول الطفلة :أنا ما حبش الشيكولاتة.

ويتلخم المذيع أو يمثل دور الملخوم ويقول :ياه ..قد كده إنت بتحبي اللبن المجفف ..أحسن الألبان المجففة هي ألبان أبقار فتحي أبو جاموس ..لا تخلطوا بين فتحي أبو جاموس المؤلف الإذاعي ..وفتحي أبو جاموس صاحب مزارع قصب السكر ..على كل حال سكر في سكر ..وكله حلو ..وعلى ذكر السكر والحلاوة يباع الآن في الأجزاخانات ..سكارين ..وهو خاص بالمصابين بالسكر ..اطلبوه فهو رخيص ..وإليكم أغنية :زعج الوابور ع السفر عيطت رايح فين ..طبعًا رايحين نشوف كفر الدوار ..لماذا؟ اسمع السبب:

إن كنت يوم رايح كفر الدوار

على الشمال زور أبـو حـمـص

تلاقــي محــل عليــه فنيـار

فيــه البضايــع راحــه ترقص

طول الليل ..طول النهار وأكثر من عشرة مذيعين ينفخون في قربة مخرومة هي أذني وأذن عشرات من الناس.

ومن المؤكد أن محطة الإذاعة هي سبب استهلاك الإسبرين وقطرة العين ومراهم الظهر، واستخدام المراتب الكاوتش ..لأنها ورشة نجارة وجزارة صاروخية أخطأت الطريق إلى جيب المستمع فأقامت في أذنه!

* * *

ملحوظة :هذا الزجل كان في إمساكية شهر رمضان في بلدة أبو حمص ولا أعرف لماذا تذكرته هنا في هاواي .مع أنني تركت أبو حمص من 30عامًا فقد كنت تلميذًا في مدرستها الابتدائية ثم تلميذًا في مدرسة دمنهور الثانوية ..ولم أتذكر هذا الزجل طول عمري!

هذه الملحوظة ربما أعود إليها وأتناولها بالتفكير بعد ذلك .فأنا أفاجأ كل يوم بانفجار لغم عائم في بحر ذكرياتي!

* * *

مبادئ جمعية المتفائلين

كل يوم في الصباح أمر على غرفة مفتوحة وبها ستة جالسون وأمامهم أوراق وعلى بابهم خادم وأمامهم رجل يخطب بأعلى صوته وهم ساكتون .وعند الظهيرة يظل الاجتماع منعقدًا، وفي المساء الاجتماع مستمر .والكلام يشمل أمورًا كثيرة جدًّا ..أسمع بعضها وأنا في الطريق إلى السلالم ..وحاولت أن أعرف اسم هذه الجمعية .فلم أجد لافتة لا على الباب ولا على السلالم، كما هي العادة ..وذهبت إلى استعلامات الفندق فضحكت الموظفة الشقراء

وقالت لي :أنت متفائل !فقلت :تقصدين إن كنت عضوًا في هذه الجمعية؟ فقالت :نعم ..وأجبت :إنني متفائل دون جمعية!

ولم يكن هؤلاء الناس سوى جماعة جلسوا يتحدثون بصوت مرتفع وبصورة جادة .الناس يبحثون في موضوع حماية أنواع نادرة جدًّا من الضفادع والحشرات التي تعيش على أشجار جوز الهند..

وفي يوم عدت إلى غرفتي فوجدت هذا الاجتماع قد زاد أفراده حتى بلغوا أكثر من عشرين رجلًا وعشرين سيدة ..وعلى صدورهم ورود، وأمامهم أكواب من العصير ومن الماء .ورأيت لافتة لم أتمكن من قراءتها بوضوح ولم تكن هناك خطب ولا كلمات وإنما بعض الموسيقى..

وفي الصباح الباكر وجدت المناضد كما هي، لم يتقدم أحد ليرفعها من هذا المكان .ثم وجدت اسم الجمعية فعلًا.وعرفت أن موظفة الاستعلامات كانت في الواقع عضوًا في هذه الجمعية ..فالجمعية اسمها »جمعية نادي المتفائلين وأصدقاء الطفل، بمدينة هونولولو «اسم غريب جدًّا ..جمعية المتفائلين وأصدقاء الطفل لا بد أنهم أصدقاء أي طفل يولد في هذا العالم الذي نعيش فيه..

وعلى الحائط وجدت الوصايا العشر للمتفائلين ..مطبوعة على ورقة كبيرة .ومطبوعة على منشورات صغيرة ..ومطبوعة على علب الكبريت .ولا بد أنهم يتباحثون في توزيعها على أوسع نطاق ..مثل طبعها على أوراق العملة، أو وضعها على ظهور الكتب المقدسة.ولكن اجتماعات المتفائلين هذه تطول جدًّا جدًّا.وربما كان هذا هو الدليل الوحيد على أنهم متفائلون!

وقد لاحظت أنهم وهم يبحثون نصائحهم العشر هذه، جادون جدًّا، وعلى وجوههم كآبة وربما كان انتصارًا لفكرتهم، وليس مهمًّا أن يكون انتصارًا أو انكسارًا ولكنها أعجبتني.

أولًا :يجب أن تكون قويًّا، وأن تشعر بأنك قوي، أقوى من أية فكرة تزعزع ثقتك في نفسك.

ثانيًا :يجب أن تجعل كلامك دائمًا عن الصحة والسعادة والنجاح وعن نجاحك،وعن نجاح كل إنسان أيضًا.

ثالثًا :يجب أن تجعل كل صديق لك يشعر أن فيه شيئًا ممتازًا، شيئًا يسره هو.

رابعًا :يجب أن تنظر إلى الجانب المشرق من الحياة، وأن تعمل على تحقيق كل آمالك، وأنت على يقين من أنها ستتحقق بشكل ما.

خامسًا :لا تفكر إلا فيما هو أبسط وأسهل، ولا تتوقع إلا ما هو أحسن.

سادسًا :يجب أن تكون جادًّا متحمسًا بالنسبة لنجاح الآخرين، بنفس الدرجة التي تتحمس بها لنجاحك أنت.

سابعًا :حاول أن تنسى دائمًا أخطاء الماضي، وأن تتجه إلى المستقبل دائمًا.

ثامنًا :يجب أن تكون بشوش الوجه وأن تبتسم لكل إنسان تراه..

تاسعًا :يجب أن تقضي أطول وقت ممكن في تحسين نفسك وبذلك لا يتسع وقتك لنقد غيرك من الناس.

عاشرًا :لا تأسف على ما فات .وكن أقوى من غضبك.وكن أقوى من الاستسلام للتعب فسيكون لديك وقت دائمًا لشيء جديد.

وقد علمت أن هذا الاجتماع هو الثامن والثلاثون في مدينة هونولولو، ولما سألت عن نتائج هذه الجمعية .علمت أنه لا نتائج ولكن هناك شعور عام بين الأعضاء وأصدقاء الأعضاء بأن الحياة تستأهل أن نعيشها وأن الصعوبات يمكن أن نتخطاها وأن الحياة أقوى من الموت وأن الإنسان يجب أن يشعر أنه حي، رغم أن الموت يمضي في اختصار أسنانه وضوء عينيه ويرخي عضلاته ويفرغ جيوبه ويباعد بينه وبين الناس، حتى هذا يجب أن نراه إجراء عاديًّا ..يجب أن ننظر إلى الحياة على أنها مثل مستأجر ظريف لطيف كان يسكن عندنا وبدأ يترك البيت ولكنه لم يأخذ من عزاله إلا القليل ..أما الكثير فقد أخذناه نحن ..لقد دفع الكثير وهو الآن يسكن بإيجار اسمي!...

والله كلام معقول!

* * *

حتى في جزر هاواي بعض الضوضاء.

فيها صوت الأطباق والملاعق والسكاكين ..فيها صوت النوافذ وهي تفتح وتقفل، فيها أصوات الأطفال وهم يلعبون ..فيها صوت الموسيقى التي تتكرر كل يوم حتى مللناها .فيها ضوضاء طبعًا .هذه الضوضاء بالنسبة لمدينة كالقاهرة تعتبر لا شيء ..يكفي .ألا تكون هنا زمارة واحدة أو كلاكس واحد .وليس فيها واحدة تقول من أعلى السطوح :يا واد يا عبده ..يا متنيل على عينك تعال شيل أختك وهات لي بطيخة!

فما بالك بواشنطون أو موسكو أو باريس أو روما أو لندن أو حتى طوكيو ..كل هذه العواصم مجنونة، فيها ضوضاء وفيها ترام وتليفون وفيها سيارات وفيها زعيق ..كل هذا يحطم أعصاب الناس ويزلزل راحتهم ..ومن سوء حظ سكان المدن الصغيرة والقرى أن الذين يحكمونهم يسكنون العواصم ..ولذلك فأعصابهم مضطربة وأحكامهم مهزوزة وهم أولًا وأخيرًا بشر من لحم ودم مربوط بخيوط معقدة اسمها الأعصاب وهذه الأعصاب هي الخيوط التي تضم القلب والمعدة والكبد والكلى والعقل وتهزها معًا في وقت واحد ..فالذي يصيب العقل يربك القلب ويربك الكبد ويملأ المعدة بالأحماض ..والأحماض تحطم الأعصاب والأعصاب تربك العقل والقلب وهكذا..

ولذلك يجب على الشعوب أن تطالب زعماءها بأن يستريحوا ..بأن يذهبوا إلى الريف إلى شواطئ البحار ..بأن يبعدوا عن الناس بعض الوقت ..وليس هذا البعد عن الناس هربًا من المسئولية ..ولا هربًا من الناس وليس رفاهية .وإنما هي ضرورة عقلية، ضرورة معوية ضرورة كبدية قلبية مصارينية .ضرورة ..إننا نطلب من الركاب ألا يتحدثوا إلى سائق الأتوبيس ..بعض البلاد كإنجلترا تزيل المقاعد المجاورة لسائق التاكسي حتى لا يجلس أحد إلى جواره، ويحدثه ويشغله عن النظر إلى الطريق، حتى لا يدوس أحدًا أو حتى لا يعطل المرور ..سائق التاكسي وسائق الأتوبيس وهذا النوع من القيادة هو أبسط أنواع القيادة ..فما بالك بالذين يقودون الشعوب ..يقودون ملايين التاكسيات الحية في سكك دبلوماسية وسياسية واقتصادية وعسكرية .كلها مطبات!

هذا السائق الجماهيري يجب أن يستريح بعض الوقت ..يجب أن ننزع الكرسي المجاور له ويجب أن نخلي له السيارات من الركاب ..يجب أن يكون له مكان يستريح بعض الوقت ..كلما أحس بإرهاق يجب أن نطلب إليه أن يستريح، أن يهدأ حتى تثبت يده وحتى تصبح الرؤية واضحة أمامه وتصبح الأصوات صافية في أذنه..

وكلما سمعت أن رئيس الولايات المتحدة قد ترك عاصمة بلاده ليلعب الجولف اندهشت لحظة .وبعد ذلك أرى أنه على حق فأعباؤه ثقيلة ويجب بين الحين والحين أن يريح كتفه بالطريقة التي تريحه..

وكلما سمعت أن رئيس وزراء روسيا ذهب إلى أقصى جنوب الاتحاد السوفيتي ليستجم أرى أن هذا من حظ شعب الاتحاد السوفيتي والشعوب الأخرى.

وكلما سمعت أن ماوتسي تونج كان يذهب إلى بيته الريفي وينظم الشعر ويستمع إلى بعض الموسيقى والأغاني أحسست بشيء من الارتياح..

وكلما سمعت أن رئيس وزراء الهند كان يذهب إلى شمال بلاده ويعطي لنفسه إجازة أسبوعين أحسست أن راحة نهرو هي واجب قومي، هي ضرورة يجب أن يلجأ إليها وأن يطالبه الشعب بها.

وعندما ذهب ويلسون رئيس وزراء بريطانيا إلى الريف ورفض أن يتصل به أي أحد، لا الصحفيون ولا أعضاء الحزب احترموا شعوره واحترموا حقه في الراحة ..لأن راحته ليست راحة شخصية ولكنها راحة قومية، راحة وطنية، راحة دولية..

فالزعيم أي زعيم ليس شخصًا فقط ولكنه :شعب ورأي وموقف وعامل من عوامل التاريخ أيضًا..

والناس أيضًا في حاجة إلى هذه الراحة ..فإذا استراح الزعماء استراح الناس!

ولو تحولت مقاعد الأمم المتحدة إلى مقاعد طويلة بدلًا من أن يجلس فيها الأعضاء »على أعصابهم «ثم راحوا يتمددون ويسترخون وتصبح أصواتهم كأصوات شهر زاد في »ألف ليلة وليلة «وهي تقول :مولاي -فإن هؤلاء الناس لا يمكن أن تصدر عنهم أحكام عنيفة أو أحكام شريرة ..لأنه يكفي أن يتثاءب واحد منهم ليكبس النوم على الباقين..

والرجل النائم لا يقتل ولا يذبح ولا يتآمر ..إنه يريد أن ينام وأن يحلم ..والناس في هذا الزمان ليسوا في حاجة إلا لشيء واحد هو :الكثير من النوم ..الكثير من الراحة..

يجب أن يضيفوا شبرًا في كل مقعد وأن يجعلوا ظهر الكرسي متراميًا إلى الوراء قليلًا ..بشرط أن نبدأ بالسائق ..بالقائد ..بالرجل الذي يملك مصير الملايين .يجب أن يستريح السائق ..فراحته تريح السيارة والركاب والسيارات الأخرى التي تنطلق في شوارع الحياة ..والتاريخ!

* * *

يا إلهة البراكين!

عندما ذهبت للفرجة على بركان جزيرة هاواي استرحت في بيت اسمه »بيت البركان «وصاحب البيت رجل يوناني عمره الآن أكثر من مائة سنة وهذا الرجل تنبأ بأن هذا البركان لن يسكت أبدًا ..ليس لأسباب علمية ولكن لأنه رأى في نومه صورة الإلهة بيلة ..وبيلة هذه هي إلهة البراكين والنيران ..وبيلة هذه قالت له في المنام :سأكون هنا دائمًا.

هذا الرجل اليوناني يؤمن بهذه الإلهة إيمانًا تامًّا، وقد أعلن في الراديو أنه يراها في نومه كثيرًا وأحيانًا في يقظته وأنه يحتفظ بتمثال لها دائمًا في غرفة نومه..

أهو التمثال الذي انطبعت صورته في عينيه؟ ..أهو البركان الذي هو مصدر حياة هذا الرجل، فكل الناس الذين يقطعون مسافة 200كيلو من هونولولو إلى هذه الجزيرة يأكلون ويشربون وينامون في فنادقها الكثيرة ..أهو الوهم؟ أهي الشيخوخة؟ أهي المنفعة؟ أهي الحماسة لهذه الجزيرة أو لهذا البركان؟

وفي بيت البركان تباع قصة قصيرة لأديب أمريكا مارك توين ..والقصة موضوعها :أن مارك توين عندما زار البركان سنة 1866أقام في بيت هذا الرجل اليوناني ورأى في نومه هذه الإلهة بيلة ومشى وراءها من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل ومن مغارة إلى مغارة..

ويقول مارك توين إنه انزعج جدًّا فصحا من نومه ..ثم نام بعد ذلك ...فرأى في نومه نفس الحلم دون أن يتغير منظر واحد ..وانزعج ولم يفكر طويلًا ثم عاوده النوم ورأى نفس الحلم.

ويقول أديب أمريكا إنه أحس بأنه يجب أن يفكر في هذا الأمر وأن يتساءل من أين جاءت له هذه الأفكار؟ ولماذا جاءت أفكاره بشكل واحد؟ ومن الذي أدخل هذه الأفكار في رأسه وكأنه حريص على تثبيتها فيه؟!

يقول مارك توين إنه لاشك أن الإلهة بيلة هي التي وضعت هذه الأفكار كلها، وأن الإنسان عندما ينام فإنه يكون خاضعًا لقوى غريبة لا يعرفها أبدًا ..وأن الإنسان ليس له سلطان كبير على أحلامه ..فالأحلام عالم آخر ولهذا العالم عقول وأرواح أخرى ..وفي الصباح نزل مارك توين إلى الوادي فإذا به يرى نفس الطرقات ونفس الأحجار ونفس المغارات ..ولم يجد الإلهة »بيلة ..«ولكنه عندما عاد إلى غرفته لاحظ أن تمثال الإلهة »بيلة «كان قريبًا من فراشه طول الليل..

وأشار مارك توين بأصبعه إلى التمثال وكأنه يقول :إذن هذا هو السبب!

* * *

وفي قصة لأديب إنجلترا كونان دويل يقول :إن رجلًا كان يحلم حلمًا واحدًا مدة طويلة ..وذهب إلى أحد الأطباء ثم إلى أحد رجال الدين ..وكلهم لم يجدوا تفسيرًا له .ولكن الرجل لاحظ تطورًا في أحلامه فقد أصبحت هذه الأحلام على هيئة سلسلة مرتبة الواحد بعد الآخر ...وكل هذه الأحلام تروي قصة أسرة كانت غنية في هذه المنطقة واختفت معالمها ولم يعد أحد يعرف عنها شيئًا.

وكان هذا الرجل صاحب مكتبة يبيع فيها إلى جانب الكتب بعض اللوحات والمخطوطات القديمة ..وقد سمع بهذا الرجل أحد أساتذة الجامعة وسمع عن معرفته للتاريخ ..وذهب إليه الأستاذ وطلب أن يعاونه في بعض الأحداث التاريخية وضحك صاحب المكتبة وقال للأستاذ:

-هذه الأسئلة تحتاج إلى أن أنام لها!

ولم يفهم الأستاذ الجامعي ..وفي اليوم التالي جاء إليه ..وجلس صاحب المكتبة يروي له بعض الأحداث التاريخية التي أذهلت الأستاذ الجامعي ..قد كان يظن أنه عندما عرف هذه الحقائق التاريخية كان هو أول من وصل إليها..

واتهم صاحب المكتبة بأنه يخفي بعض المخطوطات النادرة التي يجب نشرها على الناس جميعًا.

ولكن كونان دويل يختم القصة بأن صاحب المكتبة لا يعرف شيئًا إلا من أحلامه، وأنه يحتفظ بكوب نادر كان يشرب فيه عميد هذه الأسرة التي اندثرت كلها ..وهذا الكوب موجود في غرفته دائمًا..

إذن هو الكوب الذي يعكس تاريخه على الأحلام..

وكما أن كل شيء في الدنيا له إشعاع من نوع خاص ..إشعاع حراري أو عطري أو نفساني ..فهذا الكوب له إشعاع تاريخي.

وأدباء آخرون مثل الكاتب الأمريكي هرمان ملفيل والكاتب الإنجليزي روبرت لويس أستفنسون لهم قصص من هذا النوع عن السحر في هذه البلاد..

* * *

وكثير من الأشياء التي نحتفظ بها أو نراها كثيرًا أو نهتم بها أو نخاف عليها أو نخفيها تتردد في أحلامنا بشكل ما.

وفي اليابان يبيعون بطاقات مطبوعة قبيل رأس السنة .هذه البطاقات مطبوع عليها أبيات من الشعر ..وهذه الأبيات تتحدث عن السعادة وعن الحظ ..فهذه البطاقة تشبه النشافة التي تمتص الأحداث السيئة في السنة القادمة ..وهذه الأبيات مكتوبة بصورة يمكن قراءتها من الطرفين أي من اليمين ومن الشمال ..مثل كلمة :توت ..أو خوخ ..أو مثل هذه العبارة كلها :قلع مركب ببكر معلق ..أو كبيت الشعر المعروف الذي يمكن قراءته من الطرفين.

فهذا البيت يمكن أن تقرأه من الناحيتين دون أي تغيير..ويرى اليابانيون أن هذه الأبيات هي المصفاة التي تحجز متاعبنا وتسمح بالحوادث السعيدة أن تتوزع على السنة القادمة.

وعند اليابانيين اعتقاد آخر هو أن النائم إذا وضع تحت رأسه صورة لحيوان غريب اسمه »باكو «فإن باكو هذا هو القط وأحلامنا هي الفئران .وباكو يتصيدها الواحد بعد الآخر ..فإذا نهضنا من النوم لا نتذكر أننا حلمنا بشيء مع أننا قد حلمنا بأشياء مزعجة جدًّا ..هذه الأحلام كلها قد استقرت في جوف باكو!

وتمنيت أن أصدق هذا ولذلك وضعت تحت رأسي صورة تحتها عبارة كل سنة جديدة وأنا طيب!..

وأنتم طيبون ..وأنصحكم بأن تضعوا هذه العبارة تحت المخدة ،فإما أن تتحول إلى أحلام سعيدة وإما أن تأكل أحلامكم السعيدة ..وكل واحد وبخته!

أما أنا فقد قضت علي أحلامي لأنها حرمتني من النوم نهائيًّا!...

* * *

الاستعداد هنا لرأس السنة وعيد الميلاد على أشده ..على الآخر في كل مكان ..في طوكيو ..رأيت مصلحة البريد تنبه الناس إلى أن يعجلوا بإرسال بطاقات المعايدة قبل موعدها، لأن هذا يخفف الضغط على مصلحة البريد، ولكن المعايدات اليابانية جميلة ..أشكال وألوان وأحجام تبدأ من مجرد البطاقة إلى البطاقة البارزة، إلى التماثيل الصغيرة المصنوعة من الورق، ويمكن وصولها على أثر إرسالها مباشرة ..وهناك خطابات لها روائح؛ فبمجرد أن تفتح الخطاب يتطاير العطر إلى أنفك ..وليست لديهم هنا أية ألعاب مؤذية كالبسكويت أبو شطة والشيكولاتة أم ظلط ولا الروائح المسيلة للدموع ..التي نعتاد أن نلعب بها في الأعياد!

وهنا أيضًا في هونولولو أرى الاستعداد لرأس السنة في كل مكان ..والأمريكان يجعلون من هذه المناسبة المتجددة صورًا من النكت والمرح وأحيانًا يطبعون بعض الصور العارية الضاحكة أيضًا...

وأغرب ما وجدت هنا مجموعة من الشهادات المطبوعة ..وهذه الشهادات تشبه الشهادات الجامعية ملونة ومزوقة ومكتوبة بخط أنيق جدًّا ..ولكن هذه الشهادات تتحدث عن أشياء أخرى غريبة ..عن الجنون والعقل والاقتصاد والزيارات المفاجئة.

وأنا أنقل هنا بعضها على سبيل الفكاهة ..أو فكرة يمكن استغلالها في مثل هذه المناسبات:

»جواز سفر إلى القمر ..فرصة نادرة ولا يمكن أن تحدث لمن هو ألطف منك...

لما كان حضرتك هو الرجل الوحيد الذي اختاره أعز أصدقائه، ولم يجدوا من هو أفضل منه لكي يبعثوا به إلى القمر فإننا نحب أن ننبه سكان الفضاء والكواكب الأخرى إلى أن المذكور عاليه، ليس إلا عينة علمية فقط وأنه لم يسافر إلا لغرض علمي ..وأنه لا يمثل سكان الأرض في شيء ..وأنه من النوع الذي يمكن الاستغناء عنه .وعلى سكان الفضاء ألا يقرضوه أي مبلغ من المال وألا يصدقوا أية قصة يرويها وألا يسمحوا له بأن يجلس إلى أية فتاة مهما كانت.

)ملحوظة :هذا الجواز للذهاب فقط.«(!

وهذه الشهادة عليها صورة مزعجة للمسافر وحول هذا الجواز برواز مكتوب عليه عشرات المرات كلمة : »بيب ..بيب ..إلى غير عودة.«!

وهذه »وثيقة زواج «تقول:

»وثيقة زواج ..لما كان من الخرافات المنتشرة أنه من الأرخص للإنسان أن يعيش متزوجًا على أن يعيش عازبًا فإن المذكور ..والمذكورة ..من حقهما الآن أن يرتكبا الزواج بالشروط التالية :فالزوج -وهو ما يعرف عادة باسم مصاص الدماء -يوافق على أن يعطي الزوجة -وهي ما تعرف باسم ست البيت -كل ما لديه من أموال وشيكات كسبها في البوكر أو في سباق الخيل ..وأن تفرغ جيوبه من كل أرقام التليفونات، وأن تهيئ السكن اللازم لكل إخوانها المتعطلين بما في ذلك النوم والإقامة ومصاريف الهلس والعلاج والأقارب أيضًا .وأن تقول له :نعم يا روحي)عندما يتشاجران (وأن تضع قدميها الباردتين على ظهره العاري في الليل ..خصوصًا في ليالي الشتاء ..وفي مقابل ذلك يجب أن تهيئ للزوج مصروف البيرة ووجبة واحدة ساخنة ولو مرة كل سنة ..وكل ما تراه هي يتناسب مع وضعها في البيت كزوجة.«..

هذه الوثيقة محاطة بسلسلة طويلة جدًا طرفها الأول دبلة الزواج، والطرف الآخر كرة من الحديد.

وهذه شهادة ميلاد:

»ليكن معلومًا أن »فلانًا «عندما لاحظ أن هذه الفتاة تخيط فستانًا صغيرًا ولاحظ أنها عندما تعود إلى البيت تكون محملة بهدايا صغيرة ولفائف وأحذية وقبعات .كلها صغيرة ..وأن وجهها يصفر في كل مرة ترى فيها أكواب القهوة أو أطباق البيض في الصباح ..وأنها تنهض في الساعة الثانية صباحًا وتطلب أنواعًا غريبة جدًّا من الأطعمة، ثم إنها أخبرت المذكور أعلاه أن الدكتور في طريقه إلى البيت وأن هذه نصيحة أمها ..وأن الدكتور سيقدم له فاتورة طويلة عريضة عن الأدوية والخدمات التي ستؤدى لها في المستشفى، لهذا فقد حررت له هذه الشهادة بناء على طلبه، ليكون معلومًا أنه أب وأنه يتوقع مولودًا من وقت لآخر وأن من حقه الآن أن ينظر إلى المستقبل بعين قريرة، فبعد اليوم يجب أن يدخن علبة سجائر كل شهر،وأن يكف عن تناول قدح البيرة التي كان يتناولها مرة كل أسبوع وأن يبحث عن خادمة ومربية، وأن يفتح أذنيه لنصائح الآخرين الذين فوجئوا بعدد من الأولاد .من الغريب أن بينهم وبين آبائهم شبهًا كبيرًا.«

* * *

وشهادة الميلاد هذه محاطة ببرواز عليه أطفال كثيرون كلهم ببزازة ولهم أرقام، وكلهم يبكون وزجاجة اللبن في أيديهم.

* * *

وهذه الرخصة لمن يجلسون في المقعد الخلفي من السيارة هذا نصها» :بما أن فلانًا قضى مدة طويلة في ركوب سيارات التاكسي والشعبطة على بعض سيارات النقل والقطارات دون أن تسجل ضده أية حوادث، فهو لذلك يعتبر نفسه مستشارًا ومتخصصًا لكل من يريد أن يقود طيارة، وهو يجلس في المقعد الخلفي .ولذلك نشهد بأن المذكور أعلاه مفوض تمامًا أن ينصح كل سائق سيارة تاكسي أو سيارة أخرى يركب فيها في الشوارع الداخلية للمدينة أو الطرق الزراعية تنطلق بسرعة أو في غاية الهدوء ..وأن ينبه السائق قبل وقوع حوادث التصادم ..وأن ينبهه إلى إشارات المرور، من النافذة الخلفية ..فهذا المستشار سيغنيه عن ذلك ..ويجب على السائق أن يلعن بالنيابة عنه كل السائقين الآخرين في السيارات المجاورة .وأن يشتبك باليد أو بالرجل أو باللسان في أية معركة يقتضيها الموقف، على أن يختار الكلمة النابية وأماكن الإصابة للمذكور أعلاه .ومن حقه أيضًا أن يتولى التعبير

عن السائق في حالات الموت أو القلق أو الفزع أو الإغماء ..والمذكور أعلاه من حقه أن يرتدى القبعة التي يرتديها وبالحجم الذي يريده فليس مهما أن يرى السائق من النافذة الخلفية ..فهذا المستشار سيغنيه عن ذلك ..ويجب على السائق أن يعتمد عليه اعتمادًا تامًّا.«

وحول هذه الرخصة برواز به عبارة :انتبه فهناك سيارات اصطدمنا بها من الخلف ..وعبارة أخرى :انتبه ..فهنا رائحة شياط في السيارة المجاورة وربما انتقلت إلينا .حاسب هل تريد أن تقتلني أنا وزوجتي؟ قف هنا أريد أن أرى شيئًا في الفترينة.«

وشهادات لتطليق الزوجة بعد زواجها بساعة، وأخرى للتخلص من حماتك عن بعد.

وشهادة أخيرة للضحك على الناس بترجمة هذا الكلام إلى اللغة العربية!

واشتريت مجموعة من بطاقات الأعياد..

وأرسلتها إلى عدد كبير من الأصدقاء، والحقيقة أنه لم يكن الدافع هو أن أعيِّد عليهم ..بقدر أن أبين لهم أين أنا من العالم ..أريد أن أخبرهم أني في جزر هاواي..

في هذه الجنة المنعزلة تمامًا عن الدنيا ..إنها تبعد عن أقرب ميناء في أمريكا 2500ميل ..وتبعد عن أقرب جزيرة مثل ساموا حوالي 2500ميل..

حتى الذين لم تكن لي بهم أية صلة أرسلت لهم بطاقات، ولا أعرف هل وصلتهم أم احتفظ بها ساعي البريد ..ولو كنت ساعيًا للبريد لاحتفظت بها .فالبطاقات عبارة عن لوحات جميلة، ثم إن العبارات التي كتبتها لأصدقائي لم تكن جميلة، وإنما هي أقرب إلى الشتيمة .ولا أفهم لماذا تطفو على نفس الإنسان هذه العبارات النابية وهو سعيد؟

لماذا لا أبعث لهم بهذه العبارات :أنا في الجنة والعاقبة عندكم ..بدلًا من أن أقول :أنا هنا في الجنة وأنتم واقفون على الأرصفة في القاهرة والإسكندرية والمنصورة وطنطا؟

فبدلًا من أن يقولوا :والله فيه الخير ..ربنا يرجعه بالسلامة ..فإنهم يقولون :إنه يغيظنا إياك تقع بيه الطيارة!

والله يعلم أنني ضيعت مبلغًا من المال في هذه البطاقات التي تبدأ عادة بكلمة كل سنة وأنت طيب وتنتهي عادة بما معناه الله يخرب بيتك!..

حدث أمس شيء غريب..

تعرفت على اثنين من الأمريكان .وليس أسهل من أن تعرف أي أمريكي أو يعرفك هو .فهو يبتسم لك ويدخل معك في موضوع يدهشك ..فهو يحدثك عن نفسه وعن الفلوس التي في جيبه وعن الكلام الذي دار بينه وبين زوجته..وماذا قال لها وقالت له ..وقبل أن تستوضحه عن اسمه يكون قد انتقل إلى أبنائه .وقبل أن نتأكد أنه رجل عاقل وليس مجنونًا يكون قد دخل في السياسة ولعن آباء روسيا والصين وأبدى خوفه من اليابان ..وإذا كان مثقفًا جدًّا فإنه يتحدث عن عمر الخيام دون أن يعرف أنه إيراني وليس مصريًّا .وإذا كان من علماء الچيولوچيا فسيسألك إذا كان الهرم الأكبر مصنوعًا من الطوب الأحمر أو من الجير وإن كانت له نوافذ قبلية أو بحرية .وتأكد أن أي كلام ستقوله له بلهجة جادة سيصدقه، ولكي تكون جادًّا يحسن بك أن تكشر وأن تنظر إلى الأرض مرة -غير مهم أن تفتح عينيك -وإلى السماء مرة ..وإذا تصادف مرور ذبابة فافتح لها عينيك، لعلها تلمسها فتحمر، وهنا يجب أن تنتهزها فرصة وتبكي على الأموال التي أَضعتها في البحث بنفسك عن كل شيء ..أؤكد لك أن هذا الأمريكي سيجمع لك الناس ويدعو إلى مذهبك الجديد في الفلسفة!

وشيء من هذا قد حدث لهذين الأمريكيين..

فهما يسكنان في بيت..والبيت تملكه سيدة عجوز، وهي عجوز جدًّا جدًّا - ..هذا رأيهما -فعندها حوالي سبعين سنة ..هذان الأمريكيان في الخامسة والعشرين من العمر !وهذه السيدة تعرف تاريخ جزر هاواي وتاريخ الجزر المرجانية الصغيرة المجاورة لها..

وصمم هذان الشابان على أن أذهب لرؤية هذه الوثيقة التاريخية الحية .هل أقول لهما إن أي أثر تاريخي عمره سبعون سنة، لا يلفت نظرنا نحن الذين بنينا الأهرام من ألوف السنين ..حقيقة لم أكسفهما وقلت :ياواد دول أغنياء حرب وليس لهم تاريخ وليس لهم أصل إنهم أبناء المهاجرين من كل الشعوب الأوربية وغيرها..

وذهبت إلى بيت السيدة العجوز..

السيدة عمياء ..وسعيدة بأن الأمريكان قد أوجدوا لها هذا العمل ..بأن يسألوها في سذاجة، وترد عليهم في سذاجة أيضًا..

وكلما سألاها سؤالًا بائخًا، نظرا ناحيتي ..لكي أنتبه جدًّا إلى الجواب ..ويجيء الجواب لا معنى له..

وحاولت أن أجعل لهذه السيدة أي معنى..

فسألتها :هل رأيت إلهة البراكين؟

وهنا انزعجت جدًّا وصرخت :لا تسألني هكذا ..من أنت؟ !اخرج ..خربت بيتي ..لقد مات زوجي ..ومات ابني ..وفقدت نظري ..اخرج ..اللعنة عليك وعلى الذين أتوا بك ..اخرجوا يا أولاد) ....وهنا ذكرت أسماء بعض الحيوانات المحلية.(

وكانت مفاجأة لهذين الأمريكيين أيضًا..

فقد تقدمت ثلاث خادمات، كن واقفات عن قرب ..ودفعننا جميعًا إلى الشارع دون اعتذار ..وانغلق الباب ورحن يلقين بالكولونيا على وجه العجوز، ولم تنطق بكلمة واحدة..

وقررنا في الطريق أن نسأل أحد العلماء الأمريكان الموجودين في المدينة ..والعلماء الأمريكان كثيرون في كل مكان .إنك تجدهم بين الجرسونات والمضيفات فلا أحد يعرف بالضبط من هو العالم ..ومن ليس عالمًا .ليس من الضروري أن يكون قد وضع منظارًا على عينيه ..ولا أعرف كيف اهتدى هذان الشابان إلى وجود أحد العلماء من أبناء الجزيرة..

ووجدناه صاحب أحد محلات بيع الأسطوانات، وسألناه، وروى لنا قصة هذه السيدة .وعرفنا أنها من الذين يؤمنون بتحضير الأرواح والاتصال بالشياطين ..وأنها ضحية لهذا السحر الأسود ..وأنها ليست مؤمنة بأي دين .ثم لفت نظرنا إلى لوحات وتماثيل موجودة في بيتها ..وكلها لإلهة البراكين والزلازل وإلهة البحر ..وأنها كانت سببًا في القضاء على عائلات كاملة ..وأنها كانت من أجمل نساء هاواي لولا هذه الخرافات التي آمنت بها..

ودعانا إلى بيته لنرى بعض اللوحات التي رسمها فنانون عالميون لهذه القصص الخرافية..

واعتذرت..

وعدت إلى غرفتي .وكانت الساعة متأخرة جدًّا..

ومع كوب اللبن ابتلعت قرصين من الحبوب المنومة ..ونظرت إلى نفسي في المرآة وقلت :كل كريسماس وأنت طيب..

ووضعت تحت مخدتي ورقة مكتوبًا عليها هذه العبارة -تمشيًا مع التقاليد اليابانية -كل سنة وأنت في هاواي!

وفي الصباح أحسست أنني مكسر ..وعرفت أن العفاريت وإلهة البراكين قد اخترقت الستار النومي الذي نصبته حول أحلامي ..وأن هذه العفاريت قد تسللت إلى أحلامي ونسجتها على طريقتها ..لقد كان النوم خيوطًا من الحرير، وجاءت هذه العفاريت وبطريقة شيطانية حولت هذه الخيوط إلى سرير من الشوك الناعم ..ظللت أتقلب عليه طول الليل ..وكلما صحوت تقدمت هذه السيدة العجوز تحشرني في البيجاما من جديد..

وعرفت العفاريت طريقها إلى فراشي!

وهذا هو جزاء من يمشي وراء العيال الأمريكان!

* * *

دروس من هنا

قبل أن أغادر القارة الآسيوية أرجوك أن تعطيني فرصة لكي أتفلسف شوية!

* * *

هنا أعظم مساحة من الغابات التي رأيتها في حياتي ..رأيت الغابات في ألمانيا وسويسرا والنمسا وفرنسا وإيطاليا واليونان والسويد ..ولكن غابات آسيا أغنى وأوسع، ففي كل مكان أجلس فيه أرى أمامي غابة ..بل إنني رأيت حيوانات الغابة تنطلق بالألوف كأن الدنيا لم تتغير حولها ..رأيت النمور والفيلة في منطقة كاتاكي في جنوب الهند..

* * *

وعرفت أن الشجرة الواحدة لا تكون غابة، والبيضة الواحدة لا تكون عجة، والريشة الواحدة لا تكون عصفورًا والأصبع الواحدة لا تكون يدًا..

وعرفت أن مجموعة من الأشجار إذا انتظمت تكون حديقة، وإذا لم تنتظم فإنها تكون غابة ..فالغابة هي جماهير من الأشجار، ومظاهرات من الطيور، وحشود من الثمار..

وجماهير الأشجار لها قوة مخيفة، ولا يمكن أن يغلبها إلا العقل ..إلا النظام والتفكير..

فمهما كانت جماهير الأشجار والحيوانات قوية، فإن تفكير العقلاء أقوى..

ورأيت أشجارًا كثيرة ملتوية السيقان ..وعرفت السبب ..فالأشجار كلها تتسابق نحو الشمس ..فرأيت أشجار المانجو تخفى الشمس عن أشجار جوز الهند ..ولكن هذه الأشجار تلتوي وتتلوى وتتفادى أشجار المانجو وبعد ذلك تصل إلى الشمس ..تصل إلى النور والحياة..

وكنت إذا رأيت شجرة ملتوية عرفت أنها عندما كانت صغيرة حرمتها شجرة كبيرة من الحياة فانحرفت والتوت..

فلا تزال الحياة أقوى من الاعتدال والاستقامة ولا تزال الحياة غاية ..وكل شيء من أجلها وسيلة..

والجوع إلى الشمس، إلى النور، مثل الجوع إلى الطعام كافر بكل دين!

* * *

ورأيت الثمار في هذه المناطق الحارة تنمو بسرعة وبكثرة ..فالحرارة شديدة والأمطار غزيرة دائمًا ..وإذا لم يكن هناك رطوبة كثيفة في الجو ..فالهواء بخار ساخن دائمًا ..وهذا البخار الساخن هو الذي ينفخ في الجذور، فتقفز من الأرض، ومن الأرض إلى الجو وتتدلى منها ثمار صغيرة لا تلبث أن تكبر وتنتفخ بسرعة عجيبة..

فهذه البلاد غنية بالفواكه..

ولكن هذه السرعة في النمو، حرمت هذه الثمار من الطعم الحلو وحرمتها من الغذاء ..إن الثمار هنا كالطفل الذي تفطمه أمه بعد أيام من ولادته،فالطفل يكبر في السن ولكنه ضعيف تنقصه الفيتامينات الضرورية للحياة.

وعرفت أن النمو الشيطاني، وأن الذي يكبر بسرعة ويعلو بسرعة إنما يكون على حساب حيويته، على حساب عناصر الحياة فيه..

فالطبيعة تقدم الكم ولا تقدم الكيف، فهو »كم «كبير و»كيف «ضعيف ولذلك جاء الرجل الأبيض وهو قليل العدد ولكن فيه عناصر الحياة والبقاء، وظل الرجل الأصفر الكثير العدد تنقصه عناصر المقاومة فترة طويلة!

ورأيت في الهند دفاعًا حارًّا عن الأفاعي؛ لأنها تأكل الفئران التي تأكل محصول الأرز والقمح..

رأيت الناس يختارون الأقل ضررًا.

فاختاروا الثعبان لأنه أهون من انتشار الفئران وضياع المحصول.

ورأيت أن الأصل في كل شيء هو مدى ضرورته للإنسان فإذا كان الشيء ضروريًّا، جاء الدين ووضع عليه تاج القداسة!

* * *

ورأيت إندونيسيا المكونة من ثلاثة آلاف جزيرة ..بها مختلف اللغات واللهجات وبها دين واحد هو الإسلام ..ولكن المسافة بين الجزر تقطعها الطائرة في ساعات ...وبعضها غني جدًّا في الثروات، قليل جدًّا في العدد ..ولكن هذه الجزر اتحدت ضد العدو الواحد وهو هولندا...رغم الخلافات في الجنس وفي اللغة وفي المكان .ورغم المساحات المائية بين الجزر...

ولكن عندما يتهددهم خطر واحد ...يتحد الناس؛ لأنهم حريصون على أنفسهم وعلى مصالحهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية ..على مصالحهم الحيوية...

وأيقنت أن اتحاد العرب ليس مستحيلًا بل ليس صعبًا ...فاللغة تجمعنا والأهداف تجمعنا ...والأرض متصلة بعضها ببعض ...والعدو واحد ..فنحن نخاف من رءوس الأموال اليهودية ...نخاف أن تحولنا إسرائيل إلى مستهلكين لإنتاجها فقط ...نخاف أن نصبح دكاكين نبيع منتجات مصانع إسرائيل ...نخاف أن نتحول إلى هنود حمر في بلادنا!

ولذلك سنتحد اليوم أو غدًا، هذا الجيل أو الجيل القادم ..وحتمًا!

* * *

لقد استعمر الرجل الأبيض هذه البلاد مئات السنين ..استعمرها أيام كانت الحياة مستحيلة .فلا بيوت ولا علاج ولا وسائل للراحة ...ولكن الرجل الأبيض ...أصلح الأرض، وسوى الطريق، وواجه الشمس، وقاوم الحرارة والمرض والجهل ...وعاش وحرص على البقاء مئات السنين.

كان الرجل الأبيض قادرًا على التكيف مع البيئة قادرًا على أن يمشي إلى جوار البيئة وينحني لها ليتحكم فيها بعد ذلك ...فيشق الجبل ويبني السقف ويقيم المستشفى والمدرسة...

فنحن -نساء ورجالًا -نجد صعوبة في الحياة في أي بلد آخر غير البلد الذي ولدنا فيه ويجب أن نموت فيه...

وهذه حقيقة مؤلمة يجب أن نواجهها بصورة جادة جدًّا.

فنحن نرى أن الحياة خارج القاهرة صعبة، ونرى أن الحياة خارج بلادنا مستحيلة أيضًا.

إنني لا أستطيع أن أنسى خجلي وأنا أسعى لنقل أحد رجال البوليس من الجيزة إلى القاهرة ...لقد اضطررت تحت إلحاح شديد أن أقابل أحد المسئولين ...واندهش المسئول لهذا الطلب الغريب جدًّا ..إننا ننظر إلى الموظف المنقول إلى الصعيد على أنه مغضوب عليه!

طبعًا هذا الموظف معذور، فليس في الصعيد وسائل الراحة أو الترفيه التي يجدها في القاهرة أو في الإسكندرية.ولذلك يجب أن نعمل على توفير هذه الوسائل في المدن الأخرى ..وأن نقلل من الإنفاق على القاهرة والإسكندرية ونزين المدن الأخرى لأن هناك قضية أخرى أهم، وهي تخفيف الضغط على القاهرة وتعويد الناس على الحياة بعيدًا عن العاصمة تمهيدًا لتعويدهم على الحياة خارج بلادنا.

ويجب أن نقلل بقدر الإمكان من المركزية الإدارية والصناعية والسياحية ...ومن المؤكد بعد كهربة السد العالي ونشر المراكز الصناعية في أماكن مختلفة من بلادنا ستنقل المدرسة والمسرح والسوق والصحيفة إلى جوار المصنع.

وفي كلمة أخرى اكتشفت أننا »مدللون ..«فليس في حياتنا بساطة وجلد .وأننا نشبه النباتات التي تنمو في بيوت الزجاج ..أو كالقمح الذي ينمو في أوراق النشاف ..فنحن نعيش في ظروف واحدة لا تتغير وإلا فلا ..في العاصمة وإلا فلا.

والنتيجة طبعًا ..فلا.

كالسمك تمامًا في الماء وإلا فلا ..فلا نحن هاجرنا إلى أمريكا أو إلى آسيا أو إلى أستراليا ..وإنما فقط عشنا في بلادنا!...

وإن كانت الهجرة أصبحت في حلم الكثيرين ...وأسعدت الكثيرين بحياة أفضل.

* * *

راقصة من هاواي في حي اسمه :السوق الدولية..

هذا الوجه من جزر هاواي

هذا المشهد أيضًا في المحيط الـهـادي فـي جـزر هـــاواي

رقصة الهولا ..وأنا لا أظهر في هذه الصورة فقد كنت أرقص بعيدًا عن عدسة الكاميرا..

كل هؤلاء أمريكان قادمون من طوكيو في طريقهم إلى أمريكا متوقفون في هونولولو من أجل الرقص والراحة بعد ذلك ..وكل هذه الجلاليب الريفية إحدى الموضات في جزر هاواي.

وعرفت أن العرب الحضارمة هم أول من اكتشف إندونيسيا ...وأول من نزل فيها ...وأول من نقل إليها الإسلام...ولكن كانوا أول من ترك هذه البلاد ...فلا يمضي يوم واحد لا تنقل فيه السفن مئات من الحضارمة عائدين إلى بلادهم ومعهم جوازات سفر عربية أو بريطانية.

وعرفوا أن الصينيين هم آخر أقلية جاءت إلى هذه البلاد وسيكونون آخر من يترك هذه البلاد...

والحضارمة مغامرون أفرادًا...

والصينيون مغامرون جماعات...

والحضارمة فيهم طبيعة السياح الهواة وليست فيهم طبيعة التجار المحترفين.

وعرفت أنه ليس من المهم أن تكون أول من يعمل شيئًا وإنما المهم هو أن تبقى وأن تستمر وأن تصبر.

والمثابرة تغلب الذكاء، والصبريغلب الحظ ...والعبرة دائمًا بالنتيجة!

* * *

وعرفت أن الناس في هذه المنطقة من العالم لا يتعجلون أي شيء ..إن كل شيء هنا يمشي على مهل .إنهم لا يخافون من شيء ..فالطعام معلق في الأشجار والماء تحفظه السماء في خزانات من السحاب ..والحرارة ترميها الشمس بغير حساب ..وإذا مات واحد منهم فهناك ملايين، وإذا عاش واحد فلن تضيق به الأرض..

وغدًا تطلع الشمس، وينزل المطر، وتنمو الثمار ...وكل فصول السنة حارة ..ولا يوجد أي تغير ولا توجد أي مفاجأة ...ملابس العام الماضي تصلح لهذا العام في كل الشهور وكل الليالي ...لا تغير ..لا فصول ...لا مفاجآت ...فلا داعي للاستعجال..

وأنت في هذه البلاد تشعر كأنك تفكر بعقلية الثواني، أما هم فيفكرون بعقلية عقرب الدقائق أو الساعات ..أو حتى بحركة الشمس ...إن الصبر استعاروه من الجبال، والابتسام استعاروه من الضوء والزهور..

فالحياة ممكنة بمنطق آخر غير منطق بلادنا، وفي ظروف أخرى أغرب وأقسى من ظروف بلادنا ...ولا يمكن أن يسود الدنيا كلها فكر واحد وعقل واحد وزي واحد ..فالناس مختلفون كأشكالهم وألوانهم وطريقة تناولهم للطعام والشراب وتناولهم للفكر والفن والحياة...

وأنا لا أزعم أنني تعلمت منهم كل شيء ..لقد تعلمت الابتسام ولكني لم أتعلم الصبر ...ولذلك أسارع فأنهى هذه الملحوظة لأنني زهقت!

* * *

إن مستقبل العالم كله هنا في آسيا..

هنا أكثر من نصف سكان العالم ولم يعد الرجل الأبيض خطرًا على أحد ..لقد كان مستعمرًا ثم خرج ...كان مصاصًا للدماء ثم طردوه ..ولكنه لا يزال أقوى لأنه أكثر تطورًا ولأنه لا يزال هو الذي ينتج، ولا تزال هذه البلاد هي التي تستهلك ..إنه هو الذي يعد الطعام وهو الذي ينصب المائدة وهو الذي يبعث بالسفرجية ...وهذه البلاد لا تزال هي الزبائن...

وإلى أن يتحول أهالي هذه البلاد إلى منتجين؛ فسيبقى الرجل الأبيض هو السيد وهو الأقوى..

فالرجل الأبيض يتخبط في هذه المنطقة ...والحركات القومية هنا عنيفة وكلها مجموعة من الشلاليت للرجل الأبيض.

وإذا كان الرجل الأصفر خطرًا على العالم ...فهناك رجل أكثر صفرة، هذا الرجل هو الصيني.

الصين الشيوعية عددها 800مليون »ثماني مئات من الملايين «يعملون كالنمل في داخل الصين، وفي خارج الصين أيضًا ...إن التجارة والصناعة والمواصلات والبنوك كلها في أيدي الصينيين في كل هذه المنطقة، بل إن الدول الغربية عندما تبعث بالبضائع إلى هذه البلاد فعن طريق التاجر الصيني ...أمريكا تبيع الطعام والشراب والملابس والآلات عن طريق الرجل الصيني.

وهو صاحب رأس المال والمصانع والشركات والبنوك ووسائل المواصلات والصحف في معظم هذه المنطقة ...إنه يملك البيوت والأرض ...وعدد الصينيين لا يزيد على خمسة ملايين.

إن الرجل الصيني هو الذي يملك أرض وشواطئ وفنادق وبنوك سنغافورة.

الرجل الصيني هو الذي يتحكم في جزر الفليبين وجزر هاواي وفي كمبوديا ولاوس والهند الصينية وبورما.

إن أبناء الصين هم أقلية مالكة ...أقلية تتجمع في أيديها كل وسائل الثروة والإنتاج والاستهلاك والتوزيع.

والصيني يريد أن يدخل الجيش كأي مواطن إندونيسي.

ولكن ما زال الصيني هو الذي يبيع الأرز ويبيع الزيت والسكر، والحكومة تتولى توزيع الأرز، ولكن الذي يشتري الأرز هو الصيني والذي ينقل الأرز هو الصيني، والذي يستطيع أن يوقف البيع والشراء هو الصيني.

وكل الصيارفة في كل البنوك صينيون.

ويكفي أن ترى معرض الصناعات في جاكرتا لتجد أن 95٪ من المعروضات من الأقمشة والمنسوجات والصناعات الجلدية والزجاجية وبيع السيارات والمشروبات كلها صينية!

والحزب الشيوعي يؤيد الصينيين الرأسماليين..

والأحزاب الإسلامية تؤيد بقاء الصينيين...

فالصينيون وراء كل حزب وكل صحيفة وكل جمعية...

ولم يفلح هذا الرجل الأصفر جدًّا في أن يدخل الهند...

فالهنود عندهم من الهموم والزحام ما يجعل الحياة صعبة على أي صيني ...ولم يفلح هذا الرجل في أن يدخل اليابان فالموقف أصعب جدًّا...

هناك عدد من الصينيين مسلمون ..ولهم أسماء إندونيسية إسلامية مثل عبد الرحمن وأمين وحسني..وتكون أسماؤهم هكذا :عبد الرحمن إونج تسن وحسن لي فو ...إلخ.

وعلى الرغم من أن حكومة إندونيسيا استطاعت أن تجمع بين ثلاثة آلاف جزيرة مختلفة اللغات فإنها لم تفلح في إدماج الصينيين في الحياة.

استمعت إلى عدد كبير من الأغاني في هذا الجانب من العالم ...إنها تختلف جدًّا عن أغانينا ..ونحن لسنا أكثر شعوب العالم حبًّا للغناء أو الرقص أو الموسيقى ..إن الغناء والموسيقى والرقص شيء مهم جدًّا في إندونيسيا مثلًا ...بل إن الثقافة من أهم معانيها الموسيقى والرقص والغناء...

وكل وفد ثقافي إندونيسي أكثر من نصفه من الراقصات.

والأغاني هنا ليست حزينة أو باكية لاطمة مثل أغانينا ...والكلام عن البكاء واللطم في أغانينا قديم جدًّا..

ولكن الإحساس بالفرق بين الأغاني هنا والأغاني هناك هو الذي يجعلني أفكر في هذه المشكلة أو هذه الأزمة من جديد.

وقد يقال إننا أكثر شعوب العالم حبًّا للغناء.

ولا أعتقد أن هذا صحيح .فهناك من يفوقنا بمراحل وهناك من يتأثرون بالأغنية أكثر منا.

ولكن يمكن أن يقال إننا أكثر شعوب العالم تأثرًا بالغناء ومن أكثر شعوب العالم ميلًا إلى كل ما هو خفيف في الثقافة، إلى كل ما لا يحتاج إلى مجهود أو تعب أو عرق في الفهم أو في العمل أو حتى في التذوق.

ولا أعرف كيف أتناول هذه الأزمة.

هل هي أزمة المستمع الذي يطلب نوعًا معينًا من الكلام ..أو هي أزمة مؤلف الأغنية الذي لا يستطيع أن يخرج عن »عادة «تأليف الأغاني بهذه المعاني المحزنة ..أو هي رغبة الملحن في نوع معين من الكلام؟

وأنا لا أقول إن الملحن يجري وراء اللحن الغربي بل أطالب الملحن العربي بأن يلحق بالملحن الغربي وأن يرتبط به ...أن يرتبط بالعلم والحضارة.

ولا يمكن أن يكون الملحن العربي سارقًا لألحان الملحن الغربي إذا كانت أغانينا تقوم على أوزان التانجو والرومبا والفالس ..لأن التانجو والرومبا بالنسبة للموسيقى كالنسخ والرقعة والثلث بالنسبة للخط ...أو كالأقة والرطل والدرهم والكيلو بالنسبة للموازين..

والمهم أن أضع هذه الأوزان أو هذه القوالب وأن أملأها بما أريد ..وليس في هذا سرقة وإنما هي محاولة »تعليم -«أي جعلها علمية -للمعاني الموسيقية ..وأنا أطالب بهذا ولا أخاف منه ..وليست هذه هي السرقة ...إن النقل لا بد منه في المرحلة التي لا يستطيع فيها ملحن واحد في بلدنا أن يكتب نوتة موسيقية!

ليس الملحن مشكلة ..والحزن والأسى والبكاء ليست مشكلة طبعًا .وإنما هي عادة..عادة استحكمت .والحضارة أو المدنية هي مجموعة من العادات ...فلبس البدلة عادة، والأكل بالشوكة والسكين عادة، والوقوف للمرأة عادة ...وكل هذه أشياء ليست ضرورية ...فالبدلة ليست ضرورة حيوية لأن هناك أناسًا يلبسون الجلباب وأناسًا عراة وكلهم قادرون على الحياة ...ومن الممكن أن يأكل الإنسان بيده ...وبالنسبة للإنسان والمعدة والكبد ليس مهمًّا أن يجيء الأكل باليد أو بالملعقة ...إلخ.

وهذا النوع من الغناء أو التلحين أو التأليف هو مجرد عادة يمكن تعديلها بعادة جديدة.

وأنا لا أطالب بدراسة الحالة النفسية لمؤلفي الأغاني ..من هم وأي نوع من الناس هم وفي أي ظروف يؤلفون أغانيهم ولا أقول إنهم مرضى...

ولا أطالب بعلاج الملحنين عندنا ولا أقول إنهم يؤلفون الألحان في ظروف غير عادية..

ولا أطالب بعلاج النقاد الذين يدمنون الكلام عن الموسيقى والأغاني ..ولا أقول إن الناقد مريض ومرضه هو الملحن الذي مرضه هو المؤلف الذي مرضه هو المستمع!

ولكنني أنبه فقط إلى أن معاني الأغاني عندنا لم تتغير من عشرات السنين ..فلا توجد أغنية واحدة تقول لي يجب أن تحب وأن تتمسك بحبيبتك، وإنما كل الأغاني تشجعني على أن أعجل بهجر الحبيبة والبكاء عليها ..كل الأغاني تطالبني باستدراج الحبيبة إلى هجري أو الفرار مني لكي أجلس إلى جوار الراديو أبكي وأدفع الملايين للسادة المطربين وأصحاب شركات الأسطوانات وأشرطة التسجيل..

ولو ارتبطت الأغنية عندنا بالرقص لخفَّ هذا الحزن .فليس من الممكن أن أكون حزينًا ذائبًا في دموعي وفي نفس الوقت أرقص وأحرك رجلي ويدي ووسطي.

بصراحة كده ..نحن جامدون!

بل ليتنا جامدون بل نحن ذائبون وفي حاجة إلى أن نجمد ولو قليلًا لنقف ونرقص ...فإن الرقص يذهب بالدموع والحزن...

وإذا كان كلامي غريبًا ..فتعال في مكاني وانظر إلى بلادنا ستر انا مهياصين جدًّا ..وترى أننا ينقصنا »العلم «في الغناء والموسيقى والتأليف والنقد!

* * *

أمريكا الاستقبال العظيم

وحلاوة الأناناس على لساني، ولسعة السمراوات في مكان لا أعرف بالضبط من جسمي ونفسي، وصورة »بريجيت باردو «عارية تمامًا في أحد الأفلام التي رأيتها هنا، والمحطة التي تتابع الأقمار الصناعية حول الأرض، وملايين الدولارات التي رأيتها وقليل من الرمل في قفاي من أثر النوم الطويل على شاطئ »وكيكي «تشبهًا بأصحاب الجزيرة، الوهج المخيف الذي رأيته في بركان هاواي ..بهذا كله في عيني وفي أذني وفي عقلي، ركبت الأتوبيس مارًّا بالطريق الحلو الناعم كأنه ظهر سيارة كاديلاك، إلى مطار »هونولولو «في طريقي عبر المحيط الهادي إلى أمريكا.

لم تطاوعني نفسي أن أشعر لحظة أنني سأغادر هذه البلاد السعيدة :الأرض في لون المانجو، والبحر في لون البنفسج، والموج ناعم كالشفاه، والأشجار متراخية كأنها لا تزال نائمة ...وكل شيء يغريني أن أبقى، أن أتمهل، وأنه لا داعي لأن أهرب من الجزيرة بسرعة 900كيلومتر في الساعة في طائرة نفاثة..

وفي المطار نظرت إلى الساعة ولا أعرف كم كانت ولا يعنيني كم تكون، وفي هذه الأثناء تقدم شاب مصور ومعه فتاة جميلة، لا أعرف لماذا ترافقه هذه الفتاة .وبعد لحظة عرفت .طلب مني أن أقف لكي يلتقط لي »آخر «صورة وضايقتني كلمة »آخر «صورة، ووقفت وجاءت الفتاة تنبهني بأصابعها إلى أنني يجب أن أبتسم .وابتسمت ..وحاولت أن تجعل لهذه الابتسامة لونًا .قالت إن ابتسامتي صفراء، وهي تشير إلى فستانها الأصفر ...ونزعت من شعرها وردة حمراء وطلبت مني أن أجعل شفتي في لون ورق الورد .وابتسمت للوردة ولها وللمضيفة التي وقفت على السلم تستعجلني ..وتصرخ :لا تجعل ساعة الوداع أليمة هكذا ..ستعود قريبًا!

قالت »ستعود قريبًا «ببساطة، كأنني طيار أو مضيفة طيران وأنه لن يمضي وقت طويل حتى أعود إلى الجزيرة .على كل حال هذه الأمنية أسعدتني...

وطلب مني المصور أن أدفع ثمن الصورة وهو سيبعث لي بها في أي مكان في العالم ودفعت بلا تفكير وبعد أيام وصلتني الصورة التي التقطها.

وفي الطائرة قاومت جاذبية الأرض التي نغادرها ..قاومت النظر إليها، وإلقاء آخر تحية عليها واتجهت إلى الذين حولي ..كلهم من الأمريكان طبعًا ومألوف جدًّا أن يدخل أي واحد منهم في مناقشة معك من غير مناسبة، ويتأثر لمشاكلك ويروي لك مشاكل مماثلة .والفرق دائمًا بيني وبين أي أمريكي أنه وجد حلًّا لمشاكله ..أو أنه وجد مشاكله محلولة، وأن مشاكلي لا حل لها، أو أنني يجب ألا أجد لها حلًّا، فهي مشاكل معقدة إلى الأبد!

وفي إحدى المناقشات -كل هذا في الطائرة وأنا لا أعرف جاري ولم أره إلا منذ دقائق وعلى ارتفاع 30ألف قدم فوق المحيط الهادي -رويت له أنني في حالة فزع دائمًا من الحياة .فسألني إن كنت آخذ حبوبًا منومة..

والسؤال سخيف، إنه يتصور أنني أشكو من قلة النوم..

فقلت له :لا.

ولم تكن كلمة »لا «تعبر عن شعوري بسخافة السؤال وتفاهة السائل وإنما جاءت »لا «مثل طوبة جاءت من الأرض لتستقر في فمه لتسده حتى لا يسألني بعد ذلك.

وعاد إلى الكلام يقول :أعتقد أن النوم هو العلاج الوحيد لكل متاعب الناس .فالناس يبالغون في متاعبهم .ولو عرفوا النوم، لنامت هذه المشاكل أيضًا...

وضحك ليقول :لا تظن أن هذه فلسفة منك ...إن هذا أَرَقٌ فقط ..وأنت تحاول أن تبرر أرقك، فتجعل له معنى فلسفيًّا.

وأعجبني كلامه واعتدلت .كأنني أحاول أن أسحب السخافة التي لففت بها كلمة »لا «فقلت له :جربت النوم ..ولكن ..ما هو حل مشكلة الفزع من الحياة؟

وعاد يقول :إذًا اذهب إلى طبيب نفسي ليحل متاعبك .فأنت لا تستطيع أن تعرفها وحدك .أنت ترى وجهك بمرآة ..ولكن لكي ترى قفاك ..أنت محتاج إلى مرآة أخرى..

وأحسست أن هذا قلم على قفاي فعلًا ..فالرجل ينظر لي على أنني رجل مجنون أو على أبواب الجنون .وحاولت أن أقدم نفسي فأقول له إنني رجل يشتغل بالأدب وإنني كنت مدرسًا في الجامعة ..وأنني متخصص في الفلسفة وعلم النفس .وكأنني قلت له إنني أسكن في الشقة المجاورة له دون أن يعرف، فأبدى دهشته وأخرج من جيبه »كارتا «وأمسك قلمه وغير رقم تليفونه وقدم لي الكارت لكي أرى أنه أستاذ لعلم النفس في إحدى جامعات أمريكا وأن له عشرين كتابًا، وأنه بهذا التواضع ..وأنه يرى أن مشكلتي أتفه من أن تكون مشكلة، وأنه خير لي أن أنام..

وأخرج من جيبه علبة بها حبوب حمراء ..وفي الحال جاءت المضيفة بكوب من الماء .واختفت الحبة الحمراء والماء، وغطس الرجل في مقعده .وسألتني المضيفة إن كنت أريد شيئًا من ذلك فقلت لها :نعم ..وجاء الكوب والحبة الحمراء وابتلعتها ..ونمت ساعة.

وصحوت من النوم لأجد جاري يقرأ في صحيفة..

وابتسمت خجلًا، كأنني نمت في أثناء المناقشة .فقال لي :كيف حال المشاكل بعد أن نمت ..إن حبة حمراء صغيرة تضيف إلى عمرك ساعات هادئة!

وعرفت أن هذه حبة منومة.

والتصقت هذه الحبوب بعد ذلك في يدي وفي جيوبي ..كانت آخر شيء أراه كل ليلة في أمريكا وأوربا .وأضافت هذه الحبوب ساعات إلى راحتي وحذفت من متاعبي مشكلات كثيرة ..وبقيت مشكلة واحدة هي :كيف أتخلص من هذه الحبوب الحمراء؟

* * *

وعندما هبطت الطائرة في مطار لوس أنجليس كنت أتصور دائمًا أن يقع شيء غريب ..أن تنزل بقرة من الطائرة وعلى ظهرها أحد رعاة البقر ويمسك مسدسه ويطلب منا أن نسلم أنفسنا جميعًا ..أو تقترب منا طائرة أخرى وتضربنا بالقنابل ..أو يدخل الطائرة أحد قطاع الطرق الجوية ويختار من بيننا واحدًا ..ثم يهرب إلى حيث يفعل به أي شيء ..يقتله مثلًا!

ولم أجد بين الأمريكان المسافرين معي واحدًا يلبس البنطلون بالمقلوب أو يدخن سيجارتين في وقت واحد ..ولم أجد فتاة حلوة ..كلهن من العواجيز..

وقفت الطائرة ونزلنا بنظام وترتيب وهدوء شديد ..وفي المطار كل شيء يدل على أن هناك نظامًا دقيقًا .وعلى أن هناك طائرات كثيرة ..وعلى أن هناك ملايين من الناس في غاية النشاط ..على أنني نزلت كقطرة في محيط .وعلى أنني ضائع مائة في المائة ..وأنني إذا طلبت إلى أي إنسان شيئًا فيجب أن أعتذر له فورًا؛ لأنني عطلته عن القيام بشيء أهم من هذا الطلب العيالي!

والمضيفات هنا أشكال وألوان، وأحجام ومقاسات ..حتى الابتسامات مختلفة ..كأن كل شركة قد حددت مساحة الابتسامة ..فشركة المتحدة :ابتسامة بالعين فقط ..وشركة بان أمريكان :ابتسامة على الجانب الأيسر ..وشركة الخطوط العالمية على الجانب الأيمن ..وشركة المتحدة في الوسط ..ولما لاحظت أن المضيفة التي وقفت أمامها أسألها عن الأتوبيس الذي سينقلني إلى الفندق تبتسم من كل شفتيها ومن جميع الزوايا أدركت أنها مضيفة عالمية، ولذلك كان ردها عالميًّا أيضًا .فقد قالت وهي ضاحكة :الأتوبيس الذي ينقلك قد غادر المطار منذ دقيقة واحدة!

أي منذ اللحظة التي وقفت أمامها لأسألها وأترجم ابتسامتها لأعرف إن كانت هذه المضيفة خاصة بالشركة التي نقلتني من هاواي إلى أمريكا أو بأية شركة أخرى !وبذلك أضعت فرصة ركوب الأتوبيس والسبب هو ضعفي في الترجمة !وجاء أتوبيس آخر..

وكأني قروي جاء من أقاصي الصعيد إلى القاهرة لأول مرة، سألت السائق بأسلوب واضح جدًّا إن كان هذا الأتوبيس سيذهب إلى هوليود ..فهز رأسه ..وكان رأسه مائلًا عند الاهتزاز كأنها هزة »خنفاء «مثل صوته عند الكلام ..وعدت أسأله بقلب يثير الشفقة إن كان الأتوبيس سيقف أمام فندق روزفلت الذي سأنزل فيه والذي حجزته من »هونولولو «تلغرافيًّا، فهز رأسه ومد يده لكي أفسح الطريق للركاب لكي يحتلوا أماكنهم في السيارة، وتحتل أسئلتهم مكانها في أذنيه..

وكأنني لم أسافر في حياتي، مع أنني سافرت أكثر من عشرين مرة .إلى أوربا ..ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب .وأنني الآن أدور حول الأرض ..فكل شيء يدل على أنني ضائع خائف ..كأنني أتحرك في بطن حوت ..وأنني أنتقل بين أنيابه لكي أستقر في أحشائه.

لقد تذكرت ما كتبه الفيلسوف الوجودي »ألبير كامي «عن بطن حوت مخيف اسمه :الناس ..فالإنسان يعيش من أجل الناس، ويعيش بالناس، ويموت بالناس أيضًا ..فهو يعيش في بطن الحوت، ويحرص على أن ينجو من الحوت ..فالفنان ضحية لا تريد أن تموت ..ولكن لا بد أن يعيش كالضحية..

وأنا ضحية ..أما القاتل، أما الموت فهو هذه الشوارع الطويلة جدًّا ..الواسعة جدًّا ..التي تنطلق عليها صواريخ أرضية ..لا أحد يتوقف ..لا أحد يمشي على قدميه ..لا أحد ينظر إليك ..ولا تستطيع أنت أن تنظر إليه..فلست أعجوبة ..ولست جديدًا في ملامحك..فهنا مثلك 200مليون نسمة .فلا السفر من اليابان يثير أحدًا ..ولا من هاواي ..ولا من أمريكا إلى أوربا ..كل شيء عمله الأمريكان ..فهم الذين اخترعوا السيارة والطيارة ..وهم الذين اخترعوا الملايين والمليونير ..وهم الذين اخترعوا السينما ..ومهما كانت ملامح وجهك فمثلها على الشاشة كثيرون..

لا شيء يبهرهم ولا شيء يرد لك عقلك!

وبفرملة تكاد تقتلعني من مقعدي أنا وحقائبي وقف السائق أمام فندق روزفلت ..ونزلت ..وبحركة فيها كثيرمن الاضطراب حاولت أن أجد فكة في جيبي ..ولم يكن لهذه الحركة أي معنى..فلا السائق يقبل البقشيش ..ولا يوجد كمساري ..وإنما هي حركة تعويضية يقوم بها الإنسان عند الخجل أو الحرج حتى يهرب من نظرات الناس!

واكتشفت أن نظرات الناس تحتاج مني لكي أواجهها إلى مجهود أكبر من مجرد وضع اليد في جيبي أو حتى في جيوبهم..

وشعرت بشيء من الارتياح عندما نظرت إلى البيوت فوجدتها متوسطة الارتفاع ..خمسة أدوار ..سبعة أدوار ..فلا توجد ناطحات سحاب هنا ..أحسست كأنني لم أبرح أوربا التي أعرفها، أو مصر التي ولدت فيها..

وقلت في نفسي :عندنا صور كهذه ..وشوارع كهذه ..فأنا لست غريبًا إذن !وجاء بواب الفندق فقلت له بشيء من الثقة التي عادت إلى نفسي :فين غرفتي من فضلك؟!

ثم سبقته إلى مكتب الاستعلامات ..ووجدت غرفة محجوزة باسمي كما وجدت ابتسامة محجوزة أيضًا .فهذا الرجل الذي يعمل في استعلامات الفندق كان في مصر أيام الحرب الأولى، ويعرف القاهرة، وكأنه أراد أن يسحب مني الثقة، سألني عن أماكن حقيرة في القاهرة القديمة، فأنكرت وجودها لعلي بهذا الإنكار أسترد الأرض التي احتلها هو وطردني منها، ولكنه أكد لي أنه يعرف هذه الأماكن ..وظللنا نتنازع هذه الثقة ..ثقته هو بمعلوماته وثقتي أنا بنفسي ومعلوماتي أيضًا..

وانتهى لقاؤنا نهاية سيئة ..وقضى هذا اللقاء على كل صورة حلوة، وكل حلم لذيذ، وكل راحة نفسية، وكل أمل في الاحتفاظ بالذكريات الجميلة لجزر هاواي..

وأحسست بالشوق إلى البلاد الشرقية التي رأيتها قبل ذلك ..وتمنيت لو أنني كنت في الهند أو إندونيسيا أو اليابان لكي أتمدد على المقعد متباهيًا بأنني أبيض اللون طويل القامة عسلي العينين، أبيض الأسنان لأقول للجرسون عندما يدخل :واحد شاي من فضلك!

وقبل أن ينحني هذا الجرسون أكون قد أغمضت عيني زهدًا في هذه الاحترامات والتحيات!

ولكن أين هذا مما حدث لي بعد خمس دقائق من دخولي هذا الفندق؟ !دق الباب فقلت :ادخل..

ودخل عملاق ضخم طويل ..وقد ارتدى بدلة سمراء والياقة منشاة والنظرة منشاة ..والابتسامة مسرحية والانحناءة رسمية وقال :حضرتك ضربت الجرس..

قلت له :إنني لا أعرف أين الجرس.

وتقدم وأشار بيده إلى الأجراس.

وسألني إن كنت بهذه المناسبة أريد شيئًا .فقلت :واحد شاي من فضلك واقترح هو أن يكون الشاي كاملًا، لأننا كنا بعد الظهر ..فلا هو موعد غداء ولا عشاء وإنما هو بين بين ..واقترح بعض العصير، فلم أمانع .واقترح بعض السندوتشات،ولكي أبدو غير جائع جدًّا قلت لا مانع .واقترح بعض الفاكهة، ونسيت أنني أكلت جبالًا من الفواكه في قارة آسيا، فقلت لا مانع ..ولا أعرف إن كان قد ذكر كلمة »فطائر ..«ولكن كلمة »فطيرة «رنت في أذني على أنها »فاتورة «فقلت لا مانع ..وربما كان السبب في أنني سمعت كلمة »فاتورة «هذه، هو أنني كنت أحلم بإيطاليا..وفاتورة كلمة إيطالية وليست إنجليزية..

ومهما وصفت لك كيف جاء هذا الشاي الكامل، فإنك لا تستطيع أن تتصور ما حدث ..لا يمكن ..لا أنت ولا غيرك ..ولا حتى أنا..

ولكن سأحاول أن أصف لك الجو الذي دخل فيه الشاي إلى غرفتي..

انتهزت هذه الفرصة وأخذت دشًا من الماء الساخن ..فنحن هنا في ديسمبر ..وغيرت ملابسي ..لكي أرتفع معنويًا ومظهريًا إلى مستوى الجرسون الضخم والطعام الأضخم..

وجلست ..وقبل أن ألمس المقعد دق الباب وانفتح قبل أن أقول ..ادخل ..وجاء جرسون آخر يحمل وردًا ..فظننت أن هذه تقاليد الفندق مع النزلاء الجدد ..وسألني الجرسون إن كنت أحب هذه الورود؛ فأبديت إعجابي بلونها وتنسيقها.

وأغلق الباب وخرج ..ودق الباب ودخلت منضدة كبيرة ..ودق الباب ودخل جرسون معه مفرش أنيق ..ودق الباب ودخل جرسون يدفع أمامه ترابيزة لها أربع عجلات وعليها علم الولايات المتحدة..ومكان شاغر لعلم آخر لا أعرف إن كان هذا الجرسون سيسألني عن علم بلادي ..ولم يفعل.ولم أسأله فقد كنت في حالة »اللهو الخفي ..«واللهو الخفي معناه :أن بطني يلعب سرًا ..فهو يلهو بصورة خفية ..ولم أهتد إلى هذا المعنى إلا الآن فقط..

وانفتح الباب وجاء الجرسون الأول ليشرف بنفسه على العملية..وهي بالفعل عملية ..براد شاي ضخم ..وبراد اللبن..وفطيرة بالفراولة والتفاح ..وسندوتش جبنة ولحمة وكبدة..وكوب عصير الأناناس ..وكوب عصير طماطم ..وشعرت بذهول شديد ..وتحايلت على هذا الذهول فحولته إلى حركة ..فتظاهرت بأنني أصلي لله..وأنني أشكره لأنه أعطاني كل هذه النعمة ..ونظرت إلى السقف ..وأمام هذا المنظر الديني الفريد ..انسحب الجرسونات ..وعندما أقفلوا الباب نهضت لكي أرى الفاتورة.

وأمسكت الفاتورة بيدي ووقعت على المقعد.لقد كان الثمن المطلوب هو سبعة جنيهات!

ولاحظت كثرة التحيات والسلامات الموجودة في الفاتورة .وعرفت أنها تشبه التحيات المألوفة في رسائل الحكم بالإعدام عند الإنجليز ..ففي إنجلترا عندما يصدر الحكم بالإعدام على أي مجرم تكون صيغة الحكم هكذا» :تقرر إعدامكم مع فائق الاحترام.«

أي احترام بعد الإعدام؟!

* * *

خفايا هوليوود!

هوليوود هي أشهر مدينة في العالم..ففيها مصانع الجمال والمال والمجد، فيها استوديوهات السينما..بعض هذه الاستوديوهات مساحته 300فدان ..كل شاب يحلم بأن تتعثر فيه رجل أحد المخرجين .وكل فتاة تحلم بأن »يتجنن «عليها أحد المنتجين العواجيز ويرفعها على يديه المرتعشتين من الرصيف إلى جوار مارلين مونرو ..والمشي في شوارع هوليوود متعة ..فالبنات يقلدن كواكب السينما، وكذلك الشبان، ومعظم البنات الصغيرات هنا قد صبغن شعورهن وجعلنها مثل بريجيت باردو في فيلم »المرأة شيطان«، وأضفن إلى ذلك الكحل ..وبعضهن يقلدن صوفيا لورين في نعكشة الشعر على الرأس وإضافة بعض سنتيمترات إلى كعب الحذاء ..وقد نجحت صناعة الكاوتشوك والنايلون في أمريكا في رفع صدور الفتيات إلى مستوى جينا لولو بريجيدا، ولكن لم ألاحظ أن هناك فتيات يقلدن مارلين مونرو ..إلا في بعض الأماكن الخاصة جدًا جدًا ..أما الشبان فهم يقلدون دين مارتن في فيلم »الأشبال «فينكشون الشعر ويكومونه على الجبهة، وقد نجحوا في التقليد جدًا لأن دين مارتن له مطاعم كثيرة هنا وعلى كل مطعم توجد له صورة بالألوان .فإذا مر أحد الشبان بجوارها فإنه يخرج المرآة من جيبه ويقارن بين الأصل والصورة ..وشبان آخرون يصلبون جذور رقبتهم مثل شارلتون هستون في فيلم »الوصايا العشر «وفي فيلم »بن هور..«

وكثيرًا ما شعرت أن بعض هؤلاء الشبان والشابات كأنهم مجموعة من الصور حطمت براويزها وانطلقت على الأرصفة ..أو كأنهم صور متتابعة في فيلم بطيء ..وأحيانًا تجد على هذا الفيلم بقعة سوداء تروح وتجيء وتعترض الوجوه والسيقان وتفسد جمال الاستعراض ..أنا هذه البقعة فاعذروني!

واستوديوهات هوليوود بعيدة جدًّا عن المدينة، هناك في الصحراء أو حول الجبال ..ولها أبواب عالية جدًّا وأسوار وسلاسل وحراس والدخول فيها صعب، وعلى الأبواب تجد لافتات تقول لك :ممنوع الكلام ..ممنوع التدخين ..قف عندك ..امش على اليمين ..أعطني الكاميرا من فضلك!

وهذا ينطبق أيضًا على الطلبة الذين يدرسون التصوير والإخراج هنا!

ووجوه المشتغلين بالسينما لا تصلح فعلًا للشاشة ..وجوههم كقشرة صفراء مكرمشة وملابسهم قذرة، وكلهم عصبيون وفيهم جفاف كأنهم جزارون أو سماسرة ومهربون ..وتدهش كيف أن هؤلاء الناس هم الذين يصنعون الجمال والفتنة ..ولكن الأرض السوداء هي التي تخرج لك التفاح والعنب.

رأيت ممثلة كبيرة تقول هذه العبارة 18 مرة :ولكن يا أخي أنا لا أعرفك ولم ألتفت إليك إلا بمحض الصدفة فقط ..فأنت شكلك غير لافت!

هذه العبارة قالتها الممثلة 18 مرة وفي كل مرة تنسى كلمة أو حركة، وفي كل مرة يطلب منها المخرج أن تعيدها، أخيرًا صرخ المخرج وهنا امتدت يد مرتجفة فضغطت عليه كأنها تقول له :كويس كده ..كتر خير الدنيا.

وسكت المخرج فقد كانت هذه اليد هي يد المنتج صاحب المال وصاحب هذه الممثلة الكبيرة.

تعريف المنتج :غني له أصابع شمعية وشعور كتانية وعيون خرزية وأسنان ذهبية وأطراف صناعية ..وعلى حق دائمًا!

واستوديوهات هوليوود فيها استعدادات هائلة .وأي استوديو هنا أكبر من استوديو مصر واستوديو الأهرام مئات المرات.

استعدادات ميكانيكية ضخمة، وأموال من غير حساب.

ومئات الألوف من دور السينما تعرض أي فيلم ..وفي داخل الاستوديوهات تجد الناس منفوخين على الفاضي وعلى المليان ..كل موظف يحرك فانوسًا أو يسند برميلًا يتصور أنه المخرج فيتظاهر بالتفكير والاهتمام بصورة مسرحية لافتة جدًّا..

أذكر أنني قابلت في استوديوهات مترو جلدوين ماير رجلًا عملاقًا في يده جوانتيات من الجلد ويرتدي سويتر من الجلد وعلى أنفه منظار غليظ وعلى جبهته خمسة خطوط متقاطعة كأنه نام طول الليل فوق جلد غربال قديم، سألته :استوديو رقم 27 من فضلك؟

فطلب مني أن أعيد له هذا السؤال عدة مرات ..ثم أشار لي أن أتبعه إلى هنا ..وركبنا أحد الأتوبيسات الموجودة في داخل الاستوديو ..ولم أنطق ولم ينطق ونزلنا وسرنا في شارع طويل ووقفت أمام الاستوديو وفتح لي الباب ودخلت وبقي هو في الخارج، وبعد أن مكثت حوالي ساعتين خرجت لأجد هذا الرجل جالسًا على مقعد ومعه مكنسة ..حضرته كناس!

أما الممثلون ففي الغالب ليس لهم شخصية؛ لأن الممثل يعتمد اعتمادًا كاملًا على المخرج وعلى المؤلف وعلى الحلاق ..فإذا أردت أن تلتقط له صورة مثلًا فهو يقول :كيف؟ هل أضحك؟ هل أبكي؟ هل تريدني أن أنظر نظرة فيها جنس أو فيها طمع أو فيها إشفاق ...قل لي وأنا أقف كما تريد..

وتستطيع أن تحركه كما تريد ..لأن حياته كلها هي في الطاعة التامة للمخرج ..فكل ما تسمعه من الشاشة وما تراه ..كل ذلك صنعه المؤلف وكاتب السيناريو والمخرج والمنتج، ولا يبقى بعد ذلك إلا جسم الممثل أو الممثلة ..حتى هذا يمكن تغييره وتبديله كما يريدون هنا ..وظهور ممثل أو ممثلة في الشارع هنا لا يلتفت إليه أحد ..قد ينظر إليه أو إليها الناس ثم يقولون :ياه ..بس كده.

ولكن ظهور سعاد حسني أو نادية لطفي في شارع سليمان باشا يربك المرور وقد تقع حوادث ..فممثلاتنا لهن بخت!

وفي شوارع هوليوود الطويلة جدًّا التي يصل بعضها إلى 50كيلومترًا ..كلها تدل على أن هذه مدينة لصناعة السينما فعلًا .فكثير من دور السينما لها أنوار كشافة وأنوار متحركة ليلًا ونهارًا ..وعلى مداخل السينما توجد إمضاءات منقوشة على الأرض وهي أسماء النجوم الذين افتتحوا هذه الدور، وبعض البنوك نقشت أسماء النجوم الذين افتتحوها..

وأشهرها جميعًا :المسرح الصيني، فعلى مدخله انطبعت أقدام وأيدي كل النجوم..

والكباريهات تكتب أسماء النجوم على الجدران من الخارج .وبعض المطاعم تضع مئات الصور للنجوم أيضًا .ومعظم الممثلين لهم شركات ومحلات تجارية ومطاعم وسيارات تاكسي ..فالممثل هنا تاجر أولًا وأخيرًا ..له مدير أعمال ومدير دعاية وضابط علاقات عامة ومستشار قانوني ومالي ..وكل شيء يعمله بحساب؛ بفلوس يعني!

والممثل ليست له أية حرية في أن يقول أو يظهر ..وكثيرات من الممثلات يرفضن الكلام في أي موضوع أو الاشتراك في أية حفلة إلا بعد استشارة مدير الأعمال.

* * *

وهوليوود هذه مدينة كبيرة كأية مدينة أخرى في أمريكا..

وإلى جوارها لوس أنجليس الكبيرة جدًّا بعماراتها العالية وشوارعها ..وجسورها المركبة بعضها فوق بعض ..وتوجد إلى جوار هوليوود بيفرلي هيلز وهي ضاحية تابعة لهوليوود ولكنها أكبر منها في المساحة .وهي المنطقة الأرستقراطية في كل ولاية كاليفورنيا ..فكل أصحاب الأموال والأعمال يسكنون فيها ..وفي هوليوود أحسن وأكبر مطاعم وصناديق الليل، والأسعار كلها غالية، وغالية جدًّا ..الفطور يصل إلى جنيه ونصف جنيه، والغداء إلى ثلاثة جنيهات، والعشاء إلى خمسة جنيهات للشخص الواحد ..أنا طبعًا حذفت أجرة التاكسي ..وتوجد مطاعم شرقية يملكها لبنانيون ويملكها سوريون ..ويوجد بعض المصريين، طلبة وعلماء يدرسون ..ويوجد فنانون في النوادي الليلية ..وكلها أسماء غير معروفة تمامًا في القاهرة ولكنهم ناجحون هنا وعليهم إقبال كبير.

وعدد العرب الموجودين في هوليوود ولوس أنجليس حوالي سبعين ألفًا .وأشهر الجرسونات والبنات يرتدين الملابس الهندية التي تعري الخصر كله ..أما صاحب المحل فيرتدي العمامة الهندية ..وهو يتمسك بالعروبة بمعنى خاص غير مألوف عندنا ..وقد احتفل أخيرًا في هذا الكباريه بعيد ميلاد دولة إسرائيل!

ومحل آخر اسمه الطربوش يملكه لبناني أيضًا .ويتردد عليه الكثير من العرب ويتحولون بسرعة من متفرجين إلى راقصين ومطربين وتتحول السهرة إلى جلسة عائلية.

* * *

وهنا توجد أنواع غريبة من النوادي الليلية تشبه النوادي الوجودية في باريس، في أن كل الذين يترددون عليها من الشبان والشابات ..وهذه النوادي بها أضواء خافتة، والجرسونات بنات بالبلوزة الضيقة جدًّا والبنطلونات التي

ترتديها الفتيات ويهرشن طول الليل من شدة ضيقها والتصاقها بشعر السيقان ..وفي هذه النوادي يعيش طول الليل الجيل الجديد الذي يسمونه في أمريكا الجيل الصارخ أو الجيل الصاخب ..وهم في الواقع وجوديون ولكن بلا فلسفة ولا ثقافة ولا مشكلة ولا أزمة ..فالجيل الجديد في أمريكا جيل لا يقرأ ..فالتلفزيون قد أرغم الناس على أن يجلسوا إليه طوال الليل يسمعون ويتأثرون ويقرفون فلا يفتحون كتابًا واحدًا ..ومعظم هؤلاء الساخطين شبان دون العشرين..يشربون الشاي أو السجائر ساعات متوالية ويستمعون إلى موسيقى زنجية عاوية داوية ..وبعد ذلك يخرجون.

وأشهر هذه النوادي الساخطة مقهى بندورا ..وهو عبارة عن غرفة واحدة جلست في أحد أركانها فرقة موسيقية زنجية تدق بعنف ..وبعد ذلك يتثاءب أحد العازفين ويقول :الحب ..الحب ..أبيع الحب..

ويضحك الناس دون أن تكون هناك نكتة..

وفي شارع كوزموس يوجد ناد آخر ..عبارة عن جراج للسيارات أخفى الظلام معالمه..وفي هذا الجراج وضعت الدكك والمناضد وأطفئت الأنوار إلا من بعض الشموع ..وبعد ذلك يتقدم أحد الممثلين وفي يده كتاب ويجلس على مقعد ثم يقرأ كلامًا فارغًا والناس يضحكون ..وهذه عينة من الكلام المكتوب الذي يقوله :عندما سقطت في البحر ابتلعتني قطة، وهذه القطة كانت تتوحم على جاموسة، وكان بيني وبين التمساح علاقة ما، خصوصًا أن شعر رأسي يشبه أجنحة الطاوس وبعد ذلك قلت للبقرة :إن حياتك ليس لها نهاية ..اذهبي إلى إحدى شركات التأمين فهذه الشركة وحدها هي القادرة على أن تصف لك الطريق .الأفلام الجديدة مأخوذة من الكتاب المقدس .العودة إلى موطنك الأصلي في السماء الرابعة على اليسار!

قطعًا »أبو لمعة «عندنا أحسن ..ومعروف أنه يفشر وفشره يرغمك على الضحك على أبو لمعة وعلى نفسك لأنك جلست تستمع إلى كلامه الفارغ.

وبعد ذلك ينهض هذا الممثل ويعرفنا بالجيل الساخط ويتساءل :ما هو الجيل الصارخ؟

ويظل السؤال بلا جواب حتى تنتهي السهرة في هذا الجراج..

ومحلات)الشبان الصارخين (هذه أسعارها مرتفعة ..بعضها يتقاضى جنيهًا رسمًا للدخول ..ثم يرغمون الزبائن على أن يشربوا شيئًا ما أيضًا.

ويبدو أن الحياة مملة في أمريكا ولذلك فالأمريكان يحرصون على التغيير ويكرهون الشيء الواحد المتكرر في حياتهم وفي حياة غيرهم من الناس ..فمثلًا أنا أتردد على أحد المطاعم وأطلب كل يوم فنجانًا من الشاي وبعض الخبز الجاف وأنا راض بهذا ..ولكن الجرسونة تتضايق جدًّا من أنني لا أطلب إلا شيئًا واحدًا.

والمحلات العامة تحرص على أن تكون لها شخصية خاصة ..لا بد أن تكون مختلفة، لا بد أن يكون فيها شيء جديد، شيء مختلف عن المحلات الأخرى في الأثاث أو الطعام أو في الملابس التي ترتديها الجرسونات البنات ..فتجد محلات على طراز القرن الثامن عشر أو التاسع عشر في الطعام والملابس والزينة والموسيقى ..فتدخل هذا المحل وكأنك قد عدت إلى الوراء مائة سنة أو مئات السنين ..وأكثر الأطعمة هنا انتشارًا هي الأطعمة الإيطالية خصوصًا البيتسا والمكرونة الإسباجتي...

ومن الغريب أن معظم النوادي الليلية هنا تشترط أن يرتدي الزبون الكرافتة ..في حين أن المطاعم لا تشترط الكرافتة ..يعني الأماكن التي يذهب إليها الإنسان ليشعر بشيء من الحرية، أو التي يريد أن يهيص فيها تختنق رقبته بكرافتة ..أما الأماكن التي يضطر فيها الإنسان إلى الجلوس هادئًا قليل الحركة فلا مانع من أن يذهب بالقميص والبنطلون الطويل أو القصير ..أو المايوه إذا أراد.

* * *

والشوارع هنا في هوليوود مشرقة ليلًا ونهارًا ..نهارًا لأن الجو هنا معتدل ..لا سحب ولا أمطار ولا برودة حتى في الشتاء ..وفي الليل منيرة متوهجة، فالبلاد منذ أوائل شهر ديسمبر تستعد لعيد الميلاد ..فأشجار الميلاد على الجانبين .وصورة بابا نويل -وهنا يسمونه سانتا كلوز -في كل مكان، في كل محل، وأمام كل سينما .والمحلات كلها مملوءة بالزبائن ..فعيد الميلاد هو عيد الهدايا ..لا بد من الهدايا ..وكثير من البيوت تخربها هذه الهدايا مثل كعك العيد وخروف العيد عندنا كثيرًا ما يؤدي إلى خراب الجيوب بالإفلاس وخراب البيوت بالطلاق!...

وفي الشوارع تماثيل للمسيح والعذراء ..وتماثيل للمسيح وهو راكب حماره ..وتماثيل لنجمة بيت لحم وهي تلمح في السماء إعلانًا لميلاد المسيح ..وصورة للكهف الذي اختفى فيه المسيح في مصر، وهذا الغار معروض بصورة فنية جميلة .الإبل والنخيل والأحجار والآبار وفيها الحواريون.

وهناك صورة رائعة للعشاء الأخير ..وصورة بارزة لخطبة الجبل أو لموعظة الجبل ..وصور كبيرة لمريم المجدلية وهي تبكي عند قبر المسيح ..ثم تماثيل كبيرة للمسيح مصلوبًا وحوله اثنان من اللصوص اليهود.

والشركات كلها تعلن في فتريناتها عن قصة المسيح.

هنا شركة السكك الحديدية -والحكومة هنا لا تملك السكك الحديدية أو التليفونات وإنما هي كلها شركات أهلية -وضعت في فتريناتها صورًا رائعة لحياة المسيح منذ ولد حتى صلب وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

وفي مدينة لوس أنجليس يوجد مقهى اسمه كلفتون .إنه رائع والجو داخله يوحي بأنك في إحدى جزر هاواي ..فأشجار جوز الهند تناثرت في المقهى ..والمياه تنزل من السقف ..والشمس لها حرارة دافئة ..والجرسونات قد وضعن عقود الورد حول أعناقهن ..في هذا المقهى الجميل جدًّا توجد مغارة ..هذه المغارة تنزل إليها بسلم صخري ..والمغارة مكونة من خمس غرف ..وفي هذه الغرف جلست الراهبات بالملابس التي كان يرتديها اليهود في أيام المسيح، وفي هذه المغارة يروين قصة المسيح وعذابه ..وهناك تماثيل ولوحات ..أشهرها تماثيل المسيح عندما ألقي القبض عليه وهرب من حوله الحواريون ..وهناك أشرطة مسجلة وموسيقى تصويرية لآيات من الكتاب المقدس.

كل هذا في مقهى ومن صنع فرد لا هيئة حكومية أو هيئة دينية ..ومثل هذه الأماكن الأثرية كثيرة جدًّا في أمريكا ..فإذا كان الأمريكان يصعب عليهم أن يسافروا إلى القدس وبيت لحم في الأردن أو الناصرة في إسرائيل فإن المحلات التجارية هنا تنقل إليهم هذه الأماكن التاريخية..

هذا الجو الديني قد أضاف إلى هوليوود ولوس أنجليس وبيفرلي هيلز وعيًا جديدًا ووقورًا ..أو أعطاها بعض الصدق!..

وكل الأفلام المعروضة هنا في هوليوود مأخوذة من الكتاب المقدس ..فهنا :الوصايا العشر ..وبن هور ..والصياد الكبير ..وشمشون ودليلة ..وسليمان وملكة سبأ ..وابن الإنسان ..وملك الملوك ..ويوسف وإخوته ..وأعظم قصة رويت للناس.

وفي التلفزيون يظهر بابا نويل يعلن عن الصابون وأمواس الحلاقة والبطاطس والسيارات موديل العام القادم وعن أحسن وسيلة لشراء السيارة من غير قسط أول...

نشاط وحياة وبيع وشراء وحظ وهيصة ..بلاد غنية صناعية ناجحة ..وكل ما تريده تجده.

إن أحسن السيارات التي تراها في شوارع هوليوود رخيصة جدًّا ..السيارة الكاديلاك المستعملة وفي حالة جيدة جدًّا يصل ثمنها إلى سبعين جنيهًا ومائة جنيه ..وأسهل للسائح الأجنبي هنا أن يشتري سيارة من أن يركب التاكسيات أو الأتوبيسات ..وعندما يسافر من هذه البلاد يبيعها بسعر أرخص قليلًا.

والسيارة الصغيرة بدأت تملأ الطرقات ..ولكن الأمريكي يفضل السيارة الكبيرة ..السيارة المريحة ..التي تتسع لكل أفراد أسرته في رحلة نهاية الأسبوع التي يقطع فيها مئات الأميال لكي يجلس في هدوء أو في مرح لمدة ساعتين أو ثلاث، وقد حمل معه أدوات الطهي ..ومعظمها في علب من الورق ..ومعه أيضًا عدد لا يحصى من الحبوب، هذه للكبد وهذه للأعصاب وهذه للنوم وتلك للبشرة وغيرها للصدر والأنف والشعر ويملأ يديه بحفنة من الأقراص قبل الأكل وبعده ووراءه الراديو يعلن عن ظهور أقراص جديدة لم يسمع بها أحد ..هي سر السعادة في العالم ..ويطلب إليك أن تنزل وتشتريها الآن ..إنها أعظم هدية لك .انزل الآن،هكذا يقول الراديو!

وفي الليل يعود الأمريكي إلى البيت ويرى التلفزيون ..التلفزيون كله أفلام ومغامرات وقصص .هذه الأفلام كلها أعدتها واشترتها شركات تجارية ..فمثلًا تجد فيلمًا لرعاة الأبقار تقدمه شركة كاوتش جوديير، ثم تجد فيلمًا قديمًا لروبرت تايلور تقدمه شركة »سليب أيز «للحبوب المنومة ..وتوجد هناك ست محطات تلفزيونية ..وتستطيع أن تنتقل بينها كما تريد!

والصحف تصدر في نهاية الأسبوع في 200صفحة وأحيانًا 250صفحة للصحيفة الواحدة ..وكل صحيفة عبارة عن عدد كبير من المجلات ..مجلات للأطفال وللشبان ولست البيت وللمهندس وللطبيب والسينما والتلفزيون ومجلة سياسية وأدبية ..ويباع العدد عادة بحوالي ثمانية قروش ..والصحيفة الواحدة تكفي لجميع أفراد الأسرة..

وفي أمريكا ينادون أي إنسان باسمه ..ابتداء من رئيس الجمهورية حتى الجرسون الذي يقدم لي الشاي هنا ..على فكرة الجرسون عنده سيارة وابنه وبناته الأربع وزوجته عندهن جميعًا سيارات .وكل العائلة تعمل جرسونات وعاملات تليفون ..لا تدهش فنحن في أمريكا!!

ولا شيء يتعب السائح في أمريكا إلا الأسعار وإلا المسافات البعيدة جدًّا ..فالأسعار أغلى من أي مكان في الدنيا وأنا أقول الدنيا عمدًا لأنني رأيت كل القارات :أوربا وآسيا وأستراليا وأمريكا ..ثم إنني من إفريقيا ..والمسافات هنا مخيفة، فإما أن يركب الإنسان التاكسي وهذا غال جدًّا أو الأتوبيس وهذا يضيع له وقته أو الطائرة وهي سريعة وغالية أيضًا..

والأثر الذي تتركه هوليوود في النفس :أنها مدينة كبيرة والناس فيها جامدون أو وجوههم لا ترحب بك ..وهذا صحيح في أول الأمر ..ولكن يكفي أن تعرف أمريكيًّا واحدًا أو فتاة أمريكية ..وبعد ذلك ستشكو من كثرة الأصدقاء الطيبين الذين يدعونك إلى الحفلات والغداء والعشاء ..وإلى حفلات الرقص وإلى النوادي والجمعيات ..وكل شيء يتم في بساطة وسهولة من غير أي تكلف..

* * *

ولكن المجتمع الأمريكي رغم هذه الأنوار والهيصة مجتمع صناعي تجاري ..كل شيء فيه بالورقة والقلم والساعة وكل شيء قابل للبيع في أمريكا، كل شيء وأي شيء ..وربما كانت هذه هي أسباب كراهية الأمريكان لليهود مثلًا ..واليهود هم المتحكمون في الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما ويحكمون أمريكا من مدينة نيويورك حيث البورصة العالمية، ومن مدينة هوليوود حيث السينما.

واليهود تجار مبادئ وأخلاق وأعراض ورقيق أبيض .وفي هوليوود جريمة كبرى، جريمة بيع رقيق أبيض يقوم بها يهودي اسمه ميكي كوهين.

وهناك في هوليوود جمعيات لا يدخلها اليهود.هكذا نص القانون، والسبب هو أن اليهود يحولون كل شيء إلى بيع وشراء.

إن المسرحية التي كتبها الأديب اليهودي آرثر ميللر باسم »بعد السقوط «وتحدث فيها عن انتحار زوجته مارلين مونرو قد اتهم فيها تجار الرقيق الأبيض ..ولم يشأ أن يذكر أن هذه تجارة يهودية!

وهنا جمعيات غريبة جدًّا في هوليوود ..فهنا جمعية الإخوة وجمعية الأخوات ولا يدخلها إلا الأرستقراطيون جدًّا ..فجمعية الإخوة تشترط شروطًا عسيرة في أي عضو، فالجمعية تنعقد وتطلب من العضو أن يفعل شيئًا غريبًا، وإذا فعله قبلوه عضوًا واحتفلوا به احتفالًا ضخمًا ..وفي الأسبوع الماضي مات عضو جديد ..والسبب هو أن الجمعية قررت أن يأكل العضو رطلين من الكبدة النيئة واضطر العضو الجديد إلى أن يأكل الرطلين وهو قرفان جدًّا ..ومات وعرضت القضية أمام المحكمة وحكمت المحكمة ببراءة مجلس إدارة الجمعية ..واعتبرت العضو مسئولًا..

وجمعية الأخوات لها شروط قاسية ومن أهم نشاطات الجمعية أن يبيت الأعضاء كل أسبوع مرتين أو ثلاثًا في بيت واحد وقد علمت أن هذه الجمعية لها نشاط شاذ!

ومعنى ذلك أن هوليوود فيها الأرستقراطيون جدًّا وفيها المتحررون من هذه القيود ..فيها الذين يسكنون في أعالي الجبال، وفيها الذين يجلسون في النوادي على الأرض ويأكلون في أحواض تشبه الزرايب!

ويوجد ناد اسمه »بيت الغاز «إذا رأيته فزعت من شكله من الخارج أو من الداخل فلا توجد به مقاعد ولا مناضد ..وإنما توجد به أحجار وأحواض فارغة وبيضاء بمصابيح من الغاز، وعلى الجدران صور للعفاريت والأفاعي ..هذا النادي يجلس فيه الطلبة والفنانون والأدباء، ولهم مبادئ ولهم فلسفة..

هوليوود صورة لأمريكا كلها ..وهي حية ..فيها مرح وعمل وشركات تجارية متماسكة وجمعيات علنية وسرية في غاية الانحلال ..وهذا هو مقياس للمجتمع الصحيح ..فالمجتمع الذي لا يعرف المرض لا وجود له أو هو مجتمع غير طبيعي.

المجتمع الذي لا يعرف إلا المرض والانحلال ليس مجتمعًا وإنما هو مستشفى أو ملجأ؛ فهو يشبه »بيت الموتى «الصيني الذي يعيش فيه العواجيز ينتظرون قدوم الموت وأقاربهم يبكون أمام الباب.

وإذا كانت هناك جرائم فهناك احترام للقانون أيضًا ..يكفي أن ترى نظام المرور، وكيف أن ألوف السيارات يجب أن تقف لأن أحد المشاة يعبر الطريق بين الخطوط البيضاء، وكيف أن السيارات تقف عند إشارات المرور وتتجه إلى اليمين وإلى الشمال في الخطوط المرسومة ..أنا لا أذكر أنني رأيت سيارة اصطدمت بأخرى في أي شارع وفي أي وقت ..رغم أن عدد السيارات هنا أكثر من ثلاثة ملايين سيارة .طبعًا في داخل المدن، أما في خارج المدن فلا عدد للحوادث.

* * *

في مدينة السينما والهباب

أعتذر عن استخدام كلمة »الهباب ..«ولكني في الحقيقة لم أجد أية كلمة أخرى تدل على »الهباب ..«والهباب كلمة تنشرها الصحف هنا يوميًّا وباهتمام شديد ..وفي النشرة الإخبارية في التلفزيون يرسمون خريطة لدرجة كثافة الهباب اليوم وغدًا ..وأول كلمة نسمعها في الصباح هنا بعد كلمة صباح الخير كلمة الهباب وأنه اليوم قليل لحسن الحظ أو كثير لسوء الحظ.

وإذا مشيت في شوارع هوليوود ووجدت إنسانًا يغمز بعينيه الاثنتين فلا تسئ الظن به ..وإذا وجدت فتاة تقف في جانب من الشارع وتمسح عينيها الحمراوين وإذا وجدت رجلًا يمسك أنفًا كبيرًا ثم يدخل به -أقصد هو وأنفه -إلى الأجزاخانة فليس معنى هذا إلا شيئًا واحدًا» ..إنه السموج «أي الهباب!

والسموج كلمة أمريكية هي اختصار لكلمتين هما» :اسموك «أي الدخان و»فوج «أي الضباب..

فهذه المدينة لا يشوه معالمها، ويدمع عيون بناتها الحلوة، ويسد أنوف رجالها إلا هذا الضباب ..وليس له حتى الآن أي علاج.

ففي مدينة هوليوود حوالي ثلاثة ملايين موتور سيارة وموتوسيكل ..وكلها لا تتوقف ليلًا ونهارًا ..ويوجد هنا عشرات المصانع وعشرات من مستودعات البترول ..وهي جميعًا تخرج كميات هائلة من الغاز المحترق .هذا الغاز المحترق يملأ الجو بسحب كأنها مسحوق الشطة أو الكحل أو »شِشم الديك «الذي اكتوينا به جميعًا ونحن صغار -هذ الكلام فقط لأبناء المنصورة -!ثم تبقى هذه السحب عالقة في سماء المدينة إلا إذا هبت بعض النسمات من المحيط الهادي، وهذا نادر جدًّا..

والأغنياء هنا يسكنون التلال العالية ..فوق مستوى الهباب..

وخارج هذه المدينة توجد استوديوهات السينما كلها :مترو جولدوين ماير، فوكس ووارنر وبارامونت واستوديوهات ديزني ..وسبب وجود هذه الاستوديوهات طبعًا ليس وجود الهباب هنا ..وإنما وجود الجبال والغابات والوديان والمحيط والسماء الصافية الدافئة طول السنة.

ولا أعرف إن كان انتشار السل هنا سببه هذا الهباب أو هباب السجائر التي يدخنها الأطفال والعواجيز ..أو سبب انتشاره هو حرص أمريكا على أن يكون لديها كل شيء :الصحة والمرض والمال والجمال -نسبة المتعلمين هنا 80%وفي اليابان - 100%والحرص على القانون في النصب والاحتيال، والمشي بين العلامات البيضاء في الشوارع، وتجارة الرقيق الأبيض، وقراءة الكتب الطويلة والعريضة، والجلوس إلى التلفزيون ساعات طويلة بلا قراءة ولا كتابة ولا كلام!

وقد سألت عن الطرق التي تفكر فيها هيئات هوليوود للتخلص من الهباب ..وقد علمت أن هناك طريقة واحدة حتى الآن :وهي أن أصحاب السيارات يجب أن يمشوا بسرعة أكثر ..أقولها مرة أخرى ..أصحاب السيارات هنا يجب أن يدوسوا على البنزين بأقصى ما يستطيعون ..والسبب هو أن السيارات عندما تسرع يخرج منها الدخان »ناضجًا «ولكن عندما تمشي على مهلها، فإن الهباب يخرج نيئًا ..يخرج أسود ثقيلًا..

ولكن هذه الطريقة مع الأسف لا يمكن أن تنجح، لأن هوليوود لا تزال مليئة بالسكان ..والسيارات كثيرة جدًّا فلا بد أن تمشي على مهل في داخل مدينة لا يزال عدد المهاجرين لها من كل الولايات الأخرى يتزايد يومًا بعد يوم..

ومعنى ذلك مئات الألوف من السيارات الأخرى المتسكعة!

والعلاج الوحيد هو أن ولاية كاليفورنيا عليها أن تختار بين السيارات وبين الناس ..ويبدو أن الولاية اختارت السيارات ..أما الناس فهم الذين اختاروا هوليوود ويفضلون الحياة فيها ..رغم الدموع السوداء!

* * *

أصبحت الآن أعرف كل الجرسونات الذين يعملون في فندق روزفلت.

وليس هذا بالشيء القليل ..وإذا نزلت في هذا الفندق ..فالجرسونات طراز غريب جدًّا من الناس :واحد منهم من أصل سوري واسمه :حنالطوف وعنده 14ولدًا، والآخر من البرازيل، والثالث من الفليبين، والرابع من إيطاليا، والخامس من إسرائيل، والسادس من كندا ..وكلهم طوال عراض..

وفي أول اليوم دق الباب وفتحته، وكان أمامي رجل أنيق ومددت يدي أسلم عليه .فقد ظننت أنه مدير العلاقات العامة بإحدى شركات السينما ..أو أنه ضابط اتصال إحدى شركات الطيران..وفوجئت بعد ذلك بأنه يسألني :مفيش عندك غسيل!

وفي اليوم التالي دخل الغرفة أحد الجرسونات واتجه مباشرة إلى جهاز التلفزيون ولعب في بعض مفاتيحه وابتسم ولم أفهم فسألته..فعرفت أن التلفزيون كان مفتوحًا رغم أن الصور لا تبدو على واجهته .وبعد ذلك ألقى محاضرة في تطور التلفزيون، وعرفت منه بعد ذلك أنه اشتغل في إحدى شركات التلفزيون وكان له برنامج وأخرج من جيبه بعض الصور التي نشرت له في الصحف والمجلات ..وبعض النقاد وصفه بأنه موهوب .ولم أسأل الموهوب عن الأسباب التي ألقت به في هذا الفندق ..والسبب طبعًا هو أن هذه الصور كلها إعلانات من جيبه هو، وأنه ليس موهوبًا ولا حاجة!

وأمس الأول دخل جرسون طويل جدًا وقال بالعربية :السلام عليكم يا أفندم ..كيف حالك اليوم ..إن شاء الله مليح؟!

وعرفت أنه عاش في البلاد العربية ست سنوات في الحرب العالمية الأولى وأنه يعرف رجلًا في مصر اسمه :الشيخ عبد الباسط المتولي نور ..وأن الشيخ عبد الباسط هذا كان يعيش بالقرب من حديقة الأزبكية ..وطلب مني أن أبلغه السلام ..وألح في الطلب .وهو يستبعد أن يكون الشيخ عبد الباسط قد مات لأنه من أسرة كل أفرادها يعيشون حتى المائة وزيادة .وكان الشيخ عبد الباسط في الحرب العالمية الأولى قد تجاوز العشرين قليلًا ..وليس بعيدًا أن يكون حيًا ..فإليه السلام والتحية من جاك أرهرت جرسون رقم 37في فندق روزفلت بمدينة هوليوود!

وأمس دخل الغرفة جرسون أسمر اللون وأنيق في ملبسه وفي كلامه وفي حركاته ..يحمل صينية الشاي وكأنه يحمل ميدالية ذهبية يريد أن يعلقها على صدري في احتفال كبير بمناسبة أنني ضربت الرقم القياسي في تناول الشاي من غير سكر منذ ستة شهور .وقد لاحظ الجرسون أنني أعطس فقال :أنت مزكوم..

فقلت نعم...

-اخلع حذاءك وجوربك حالًا ...خليني أشوف عندك إيه!

قالها بلهجة جادة وظننته يقوم بدور تمثيلي ..فنحن هنا في مدينة التمثيل والسينما ..ونزعت الحذاء والشراب ومددت ساقي على المقعد الذي سحبه ..وراح يضغط على أصابعي .وقال بعد تفكير :إنك من السهل جدًا أن تصاب بزكام أليس كذلك؟!

-تمامًا!

-وربما تبقى مزكومًا شهورًا؟

-تمامًا ..ولو عطست أنت الآن فسوف أصاب برشح بعد ثانية واحدة!

-هل تعرف السبب؟

-أعتقد عندي حساسية شديدة ..أو حساسية أكثر من اللازم .وهذا يتعبني كثيرًا جدًا ..يكفي أن أقول لك إنني كنت مزكومًا في الهند الحارة وفي إندونيسيا الاستوائية وفي الفليبين الحارة وفي اليابان المعتدلة ..مزكوم دائمًا وإذا تغيرت درجة الحرارة حولي تغيرت درجة الحرارة في داخلي..

-هل أصبعك هذه توجعك؟!

-أيوه توجعني ..وهذه الأصبع أيضًا.

-السبب هو أنك لا تأكل الفواكه والسبب هو أنك) ..وهمس في أذني بكلام طويل أضحكني.(

وانتهت النكتة عند هذا الحد..

ولكن الجرسون أخرج بطاقة من جيبه وقدمها لي مع بعض صور جميلة عارية!

وقرأت فيها :الدكتور أيزادور الكافوري طبيب أمراض نفسية وعقلية ويعالج بلا
عقاقير ..شارع ..شقة ..تليفون .وعرفت فيما بعد أنه ينصحني بأن أتردد عليه في اليوم التالي لأشاهد العيادة بنفسي أو ليعرضني على طبيب آخر ..على طبيب زميل له في نفس العيادة -وعرفت فيما بعد أن هذا الزميل يعمل جزارًا في حي بيفرلي هيلز، وهو حي الطبقة الأرستقراطية ونجوم السينما هنا..

وقرأ »الجرسون الدكتور «على وجهي سطورًا ملخبطة للدهشة والسخرية فقال :أنت لا تصدقني ..اقرأ ما كتبته الصحف عني!

وأخرج من جيبه مجموعة من الأوراق وكلها إعلانات عنه ..إعلانات بفلوسه هو ..ثم كلمة عابرة عنه، كلمة شكر من مريض يقول فيها :إنني أدين للدكتور أيزادور بسعادتي الزوجية.

وسألت الدكتور عن معنى هذه السعادة الزوجية ..فعرفت أنه أصلح بين هذا الرجل وزوجته وتم الاتفاق على الطلاق ..وكل منهما يعيش في بيت مستقل مستريح البال!

وقد قابلت أمس الأول في صناديق الليل عددًا من الأطباء والمهندسين وكلهم يحملون ألقابًا علمية ..وعرفت فيما بعد أن أمريكا متسامحة جدًّا مع أبنائها ..فليس هناك قانون يحمي الدكاترة الحقيقيين من حملة الشهادات العلمية من أمثال الدكتور أيزادور ..الذي يهوى خدمة الناس في الفنادق..

وقد سألت الدكتور أيزادور :ولماذا لا تهتم بالعيادة وتترك الخدمة هنا؟

فاعتدل في وقفته ووضع يديه حول وسطه وقال :اسمع يا ولدي ..الحياة علمتني أن الذي لا يعمل لا يأكل، وأن الذي لا يجري وراء اللقمة تجري منه اللقمة ..فأنا هنا أدعو لنفسي وأتصيد زبائني ..فهذه أحسن وأرخص طريقة للدعاية للعيادة التي أديرها..

ثم اعتدل أكثر مقلدًا تمثال سعد زغلول وقال :وأهم من هذا كله أنني أدرس الناس!

ورويت هذه المناقشة لأحد مديري الفندق ..فضحك وقال لي إنه على استعداد لأن يعرفني برجل آخر يعمل في المطبخ ويتوهم أنه أول من اخترع صاروخًا للقمر..

وسألته إن كان هذا الفندق تابعًا لمستشفى الأمراض العقلية، فأجاب بأنه تابع لأحد الملاهي ..المهم أن يضحك الزبون ويتذكر شيئًا يرويه لأصدقائه عندما يعود إلى بلده ..وإذا كان عندك في القاهرة جرسونات أعجب فابعث بهم إلينا!

* * *

لا يزال في رأسي شيء أريد أن أقوله عن »الجيل الجديد «في أمريكا .الناس الذين سيتصرفون في مستقبل العالم كله.

أريد أن أكلمك عن هؤلاء الساخطين هنا..

لأن كل شيء هنا واسع وطويل وعريض ومنير وواضح، فالموضة هي أن الإنسان يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القذرة!

ولأن كل شيء في الدنيا يخضع لنظام أو لهيئة أو لمؤسسة أو لنقابة، ولأن الفرد لا وجود له إلا باعتباره عضوًا في هيئة، فإن الشبان هناك يهربون من النظام ومن القيود والتقاليد، إلى أماكن لا نظام فيها لا ترتيب ولا أرقام ولا درجة ولا طوابير..

ولأن كل عمل يقوم به الشاب في هذا المجتمع يقتضي منه الانتباه والوعي وإلا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة، ولأن الحياة تحتاج هنا إلى كفاح شديد، وليست سهلة ولا هينة كما نتصور، ولأن كل شيء هنا في أمريكا بالفلوس..

كل شيء ..وفي استطاعتك أن تتخيل أي شيء، أي مبدأ أي دين أي فلسفة أي عمل تجاري أي عمل أخلاقي ..كل شيء في أمريكا تجارة في تجارة ..فالجيل الجديد من الشبان يذهب إلى أماكن سرية ويظل جالسًا في استسلام لا يفكر ولا يقول شيئًا، وإنما يركن عقله كأنه سيارة قطعت طريقًا طويلًا وموتورها يكاد يحترق ..يركن السيارة ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيتها كلها مكشوفة ويجلس في استسلام وسلبية تامة ..كأنه رحالة ضل الطريق في الصحراء وفي انتظار من ينقذه..

ولأن الصحف والإذاعة والتلفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكي الشاب ..لأنها كلها مؤسسات تجارية تريد الربح، ولأن هذه المؤسسات تخدم أناسًا لهم مصالح في الحروب وفي تجارة السلاح، ولأن بعض هؤلاء الناس يغامرون بسلامة أمريكا من أجل مصالحهم الخاصة، ولأن هؤلاء الساسة قد ورطوا أمريكا والشعب الأمريكي في مواقف ضد مصالحه، فهؤلاء الشبان يهربون من الكلام في السياسة والاستماع إلى الساسة وإلى الإعلانات وإلى القصص والأفلام التي تقدمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواس الحلاقة ..يهرب من هذا ويجلس في صمت دون تفكير ودون قراءة ودون كتابة..

ويستسلم إلى الجلوس في الظل، إلى الجلوس على الرف.

لقد رأيت عددًا من الشبان كالورد بلا شوك ..كالورد في اللون والنضارة والذكاء ..كل هؤلاء جالسون يستمعون إلى موسيقى عاوية نادبة من أصابع الزنوج..

وهؤلاء الشبان يشربون الشاي أو القهوة ويدخنون ولا يقولون شيئًا..

وحاولت أن أسأل واحدًا منهم إن كانوا يترددون هنا كل يوم ..وهز رأسه يقول نعم ..وسألته إن كانوا يفضلون الجلوس هكذا في صمت..وعلمت منه ومن غيره أن هذا هو المكان الوحيد الذي لا يقول فيه إنسان أي شيء ..فالكلام في أمريكا كثير ومكتوب بالنور وبالحبر وبالخشب، ومكتوب بهذه الأجسام الشابة المستسلمة..

وكل يوم أقرأ في الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان ..في المدن الأمريكية الكبرى ..جرائم السطو والاعتداء ..وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم أن الجيل الجديد في خطر وأنه لا بد من تغيير أساليب التدريس؟!

تدريس إيه؟ !وإنما هي الحياة المنزلية المعدومة..الحياة الاجتماعية المفككة ..المجتمع الصناعي التجاري الساحق الذي أصبح يعبد كل ما هو »هيئة ..«وكل ما هو »منظمة ..«وكل ما هو »مؤسسة «ويعبد »النقابة «ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف وفي البيت وفي المكتب وفي المصنع وفي المعبد..

والناس في أمريكا يعبدون النظام لا للفائدة التي يحققها النظام، ولكن لمجرد طاعة النظام ..طاعة الهيئة ..والمؤسسة ..ولأن حياة الفرد في المجتمع الصناعي لا معنى لها وحدها وإنما معناها بالجملة مع الآخرين..

وثورة الشبان هي ثورة على قيود هذه الهيئات ..وتكون النتيجة دائمًا أن يموت الفرد والفردية وتبقى الهيئة.

والمجرم الشاب الذي يقتل ..إنه في الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته ..فإنه بدلًا من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه ..قتل أحد أفراده..

والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان في أمريكا ..ضائعون تائهون لا يرتبطون بأي شيء ..إنهم يريدون أن يعيشوا في سلام مع أنفسهم ومع غيرهم ..ولكن أعصاب الناس في أمريكا منهارة ..فالتلفزيون والسينما تحطمها نهائيًا لتظهر أدوية وعقاقير وحبوب وسوائل وفيتامينات تصلح هذا الجسم المتعب والعقل المجهد..

ويظل الشاب الأمريكي حائرًا بين السينما والمصنع والأجزاخانة حتى يموت وهو يعمل ..وفي النهاية تقبض زوجته بوليصة التأمين على حياته وتنفقها على أولادها أو على زوجها الجديد..

إنني أعذر الشبان ولا أرى غرابة في الاتجاهات الصارخة في الأدب الأمريكي الشاب بزعامة چاك كيرواك، وهو الذي أطلق على هذا الجيل الجديد اسم »الجيل الصارخ «أو »الجيل الصاخب .«وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة الأمل والضياع ..وهو جيل أعجز من أن يقوم بأي إصلاح ..إنه جيل قد أسند ظهره للحائط الذي يملكه التجار والسماسرة في أمريكا ..إنه جيل ساخط اليوم وحاقد غدًا ..وصوته أضعف من أن يسمعه أحد ..ولذلك فكل أفراد هذا الجيل يتجمعون في الظلام ويضغط بعضهم على بعض، ويحطم بعضهم البعض دون أن تتناثر شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غدًا!

إن هؤلاء »الهيبز «ليسوا إلا شبانًا احتجوا على المجتمع الأمريكي ..وانسحبوا منه إلى حياة بدائية..وانسحبوا مرة أخرى بعدم المشاركة فيه ..وانسحبوا مرة ثالثة بتدخين الحشيش..

إنهم »اعتذروا «عن أن يكونوا مواطنين ..ورفضوا أن يكونوا سفاحين في فيتنام ..وارتدوا إلى ماضي الإنسانية كلها ..أيام كان الإنسان في حاله ..وحاله هو السلام مع نفسه ومع غيره من الشبان!

* * *

هارب من الأحذاخانة!

اقترحت على أحد أعضاء نقابة العمال هنا عملًا جديدًا ..عملًا ليس معروفًا في أمريكا ولا في أي بلد في العالم ..وهذا العمل من اختراعي ومن ملاحظاتي ومن تجاربي ..وسألته إن كان من حقي أن أسجل هذا الاختراع فقال جادًا جدًا ممكن ومن حقك.

أما العمل فهو أن يقوم واحد من الناس أو أكثر من واحد بارتداء الأحذية الأمريكية الجديدة ويمشي بها في كل شوارع المدينة والقرى ويركب الأتوبيسات بقصد »توسيعها ..«فقد لاحظت أن كل الأحذية الأمريكية هنا ضيقة جدًا .وليس سبب ذلك أن قدمي كبيرة بل هناك أمريكان كثيرون أقدامهم أطول من قدم آدم ـ عليه السلام ـقدم آدم مرسومة فوق جبل في جزيرة سيلان وهي في طول الباخرة تيتانك ـولكن الأحذية الأمريكية نجدها ضيقة دائمًا ..من الخلف أو من البوز أومن الجوانب ..قد تكون طويلة جدًا ولكن لا بد أن تكون ضيقة في مكان ما، ومعنى ذلك أنها مسألة لا علاج لها ..إذن فالحل الوحيد أن يجيء بعض الانتحاريين ويرتدون هذه الأحذية أسبوعًا أو أسبوعين حتى تتسع ثم تعرض للبيع ـالإنجليز يفعلون نفس الحكاية في ملابسهم ..في إنجلترا لا تجد أحدًا ابتداء من رئيس الوزراء حتى الكناس يرتدي ملابس جديدة ..والسبب هو أنه يبدو أن الإنجليز يفصلون ملابسهم ثم يبعثون بها إلى المستعمرات ليلبسها آخرون بقصد التجربة والتوسيع ثم يردونها إلى إنجلترا!

وعرفت فيما بعد أن الأمريكان ليس لديهم أحد متخصص في توسيع الأحذية ولكنهم يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم اقتصادًا للأرجل العاملة ..فالأمريكي يشتري الحذاء الضيق ..لا بد أن يكون ضيقًا ويرتدي بعد ذلك حذاءه القديم بعد أن تسلخت قدماه من الحذاء الجديد ..وبعد أن يتم شفاء قدميه يرتدي الحذاء الجديد الذي يكون قد ضاق

مرة أخرى ..فيعود يوسعه مرة أخرى وتتسلخ قدماه من جديد ..وهكذا ..وربما كان هذا هو السبب في وجود كثيرمن الأمريكان يعرجون في أيام السبت والأحد من كل أسبوع!..

وقد ذهبت إلى أحد محلات الأحذية ..المحل عبارة عن مطعم ومعه مقهى ثم جناح لبيع الأدوية ..وجناح آخر لبيع السجائر وبطاقات عيد الميلاد..وجناح آخر خاص للعب والعرائس ..وفي جانب كبير منه يوجد جناح بيع الأحذية ..جناح الأحذية نظيف وأنيق ..الصناديق كثيرة ..والأحذية معروضة كأنها مجموعة من الكتب ..وكل حذاء تحته ورقة ورسم وكلام كثير وأرقام ورسوم بيانية ومطرقة كهربائية تضرب حذاء كهربائيًّا.

وتقدم مني البائع وسألني إن كان في استطاعته أن يخدمني..فقلت له:

-أنا أبحث عن حذاء لا يوجع قدمي.

فضحك ..ولكني لم أضحك ..وطلب مني أن أنزع الحذاء ..وراح يقلب في حذائي ..وعرف أنه من اليابان ونزع جوربي وراح يقلبه أيضًا .ثم أتى بفرخ نشاف ووضع قدمي فوقه وضغط على أصابع قدمي ثم وضع بعض المسحوق الأسود على آثار قدمي على النشاف ..ورأيت أصابعي سوداء على الورق .وأمسك مسطرة وقلمًا وراح يقيس الطول والعرض ..ثم عاد فقاس التجويف الموجود في باطن القدم ثم قاس دوران الكعب ..وبعد ذلك أتى بفرخ من النشاف اللين جدًّا ..إنه يشبه اللباد ..وطلب مني أن أقف فوق اللباد وبعد لحظات كانت قدمي مطبوعة غائرة في اللباد ..وقاس قدمي الأخرى ..وجلس أمامي وكأنه عالم في طبقات الأرض أو أحد علماء الفلك ..ووضع منظاره على أنفه وقال لي :هل تعلم أنه لا توجد قدمان متساويتان ..لا توجد قدمان في أي إنسان متساويتان لا في الطول ولا في العرض، حتى ضغط الإنسان على القدمين ليس واحدًا ..وقد مضى ذلك الوقت الذي يرتدي فيه الإنسان أحذية جاهزة ..إننا لا نرتدي منظارًا طبيًّا جاهزًا فكل عين لها مقياس ولها قدرة على الإبصار ..وإذا كان هناك علم للكف فمن المؤكد أن القدم لها علم وعلم يعتمد على أسس صحيحة.

وبعد ذلك أعطاني درسًا آخر عن أنواع الجلد ..ودرسًا آخر عن جزمة العمر كله ..ثم بعد ذلك عن أحسن أنواع الجوارب، ثم أحسن أنواع البودرة التي توضع بين الأصابع، ثم عن حمام القدم، ثم عن أحسن الأوضاع للقدم عند النوم.

وبعد ذلك مد يده إلى فاتورة وبدأ يكتب ..ولمحت في السطر الأول 20دولارًا ثم 10دولارات ثم الضريبة وبعد ذلك 10%للمحل.

مصيبة سوداء!

إنني لم أر في حياتي أجزاخانة للأحذية ..فهذه أول أجزاخانة رأيتها في حياتي ..وهذه أول روشتة يكتبها جزمجي لا طبيب.

هذا الطبيب مجنون ..إنه لو وضع فرخًا من النشاف تحت جيبي؛ فإن جيبي لن يترك أي أثر!

وقلت لصديق كان معي :يجب أن نتظاهر بأي شيء ..نتخلص من هذه الكارثة بسرعة ..فمن الممكن أن تستريح قدماي بعد هذا الحذاء ولكن سيطير عقلي حتمًا .وتظاهرنا بأن زميلًا ثالثًا يقف أمام الباب .ولا بد من استدعائه ..وعندما وصلنا إلى الباب الخارجي قال لنا :مع السلامة!

لقد قالها بالعربية!

وقررت عندما أعود إلى مصر أن اقترح اسمًا جديدًا للأجزاخانة الخاصة بالأحذية هذا الاسم هو :الأحذاخانة!

* * *

لا أعرف من الذي يستمع إلى الراديو أو التلفزيون في أمريكا ..لقد سألت الكثيرين هنا فقالوا :الأطفال والشبان يستمعون إلى الراديو ويجلسون إلى التلفزيون!

ومعنى ذلك أن نصف الشعب الأمريكي يستمع إلى الراديو ويرى التلفزيون ولكن المشكلة هي :كيف يستمعون إلى الراديو وكيف يتحملون التلفزيون؟

إنني أجلس إلى التلفزيون ساعات ودهشتي وانزعاجي لا ينتهيان ..إن الأمريكي لا يدفع ضريبة للراديو، تمامًا مثلنا في مصر ..ولكنه في الواقع يدفع ما هو أكثرمن ذلك علاجًا لأعصابه وعلاجًا لأطفاله.

فالراديو في أمريكا والتلفزيون مأساة..

كل شيء بصوت عال وكل شيء هنا صارخ ..فألوان الفساتين وقمصان الرجال، والحلو المر معًا
كالصلصة ..وكل شيء هنا إعلانات ..كل شيء ..حتى بدأت أشك في الأحاديث الدينية التي تذاع في الراديو.

والذي أدهشني أن أي برنامج يجب قطعه بعد بدايته بلحظات ليذاع إعلان عن دواء لقتل الصرصار أو شيكولاتة جديدة ..حتى الأفلام العادية لا يكاد الفيلم يبدأ حتى يظهر أحد الممثلين في هذا الفيلم وفي يده شيء يعلن عنه ..لقد رأيت ديبوراكير في أحد الأفلام العاطفية المؤلمة جدًّا ..واقتطع الفيلم عند موقف مثير وظهرت ثلاجة جديدة وأمامها ديبوراكير تبتسم للمتفرجين وتهتف بحياة الثلاجة الجديدة، وبعد ذلك رأيت الدموع في عينيها!..

وسمعت ورأيت أمس إحدى المحاكمات المسلسلة ..المحاكمة طريفة ممتعة فعلًا ..موضوعها سرقة سلم من فوق أحد البيوت ..دارت المحاكمة والمرافعة ..ورفعت الجلسة ليشرب القاضي زجاجة الكوكاكولا ..هكذا قال المذيع وابتسم القاضي لذلك..

وفي أحد البرامج ظهرت الممثلة المجرية زازا جابور ..في بساطتها وأسلوبها الذي يشبه أسلوب الأطفال؛
هاجمت الإعلانات في الإذاعة الأمريكية ..ولكن المذيع نظر إليها نظرة رآها الجمهور كله وقال لها :هذا الإعلان هو الذي اشترينا به هذه الملابس وهذه السجائر الفاخرة وهذه الأحذية الجيدة وانظري إلى هؤلاء العارضات الجميلات؛ إن ملابسهن من محل كذا وكذا ...إلخ.

إن أحدًا هنا لا يستطيع أن يعترض على هذه البرامج فليس له أي حق ..فهو لا يدفع لها مليمًا واحدًا ..وعلى الرغم من أن الإذاعات المختلفة تتنافس على المستمع بالأخبار والأفلام والفكاهات والمسابقات والأموال ..فإن الإذاعة الأمريكية مزعجة .وهي كالقضاء والقدر تصيب الناس في بيوتهم وفي سياراتهم وفي أي مكان ..ولا يستطيع أحد أن يهرب منها .والراديو موجود في كل مكان ..تجده في المطعم وفي البار وتجده عالي الصوت كالمقاهي
البلدية ..ولا نجد أحدًا يستمع إليه ولكن أحدًا لا يريد أن يسده ..والبارات بها سينما ..بها أفلام وبعض هذه الأفلام عن مصارعة الثيران وعن رعاة البقر ..كل هذه البارات حيث الضوء خافت والمقاعد ضيقة ومريحة لاثنين..

ويبدو أن الأمريكي لم يعد يحب العزلة ..إنه يحب الهيصة ..يحب أن يكون مع الناس ..أن يكون معهم في المطعم وفي الشارع وفي النادي ..ويكفي أن يجلس إلى الراديو دون أن يسمعه.

وكل شيء عند الأمريكي هو هيصة ..المشي متعة، وركوب السيارة متعة، والجلوس في البيت متعة، والأكل مع الأصدقاء متعة ..وكل شيء يعمله بحرارة وبحماسة وبلذة ..يحدث كثيرًا أن تسأل أحد الأمريكان عن كيف أمضى نهاية الأسبوع ..فترى السعادة على وجهه وتتوقع أن يكون قد سوى الهوايل في هذا اليوم ..ولكنه يقول :ذهبت لزيارة والدتي ..إنها تبعد عن هنا حوالي مائتي كيلو!..

وإذا قال لك رجل أمريكي إنه أمس هَيَّص فلا تذهب بعيدًا فقد يكون من هواة سماع الإعلانات في الراديو!

* * *

أذكر أنني رأيت في مدينة هونولولو شوارع كاملة مضاءة على الجانبين وبها ألوف السيارات وفي أعلى السيارات توجد عبارة :سيارات مستعملة.

ولما اقتربت منها وجدت أن السيارات كلها موديل العام الماضي، والقليل جدًّا موديل العام الأسبق!

ولم أحاول أن أجد تفسيرًا لذلك إلا أن أمريكا هي التي اخترعت السيارة وفيها شركات لصناعة السيارات وبيعها بالأقساط ..شراء السيارات القديمة وتقسيط السيارات الجديدة ..وإن شراء سيارة هنا كشراءحذاء، لا يكلف الكثير.

ولكني رأيت في لوس أنجليس، وفي هوليوود، وسان فرانسيسكو، وكثير من المدن الأمريكية الأخرى، ما هو أعجب من هذا كله ..وجدت شوارع وميادين كلها تبيع السيارات المستعملة ..وتعلن عن هذه السيارات في الإذاعة والتلفزيون ..ورأيت هذه المعارض قائمة ليلًا ونهارًا والسماسرة يتنافسون في إرضاء الزبون ..فالسمسار لديه استعداد لأن يغير لون السيارة ولون مقاعدها ويبعث بها إلى أي مكان في العالم وبالتقسيط أيضًا ..ويعطيك عناوين بعض العملاء لشراء قطع الغيار ..ويبدي استعداده لتبديلها مرة أخرى إذا ظهر الموديل الجديد.

ولاحظت أن السيارات المستعملة هذه جديدة جدًّا ونظيفة جدًّا وكأنها لم تتحرك من مكانها ..وسألت بعض الأمريكان عن الحكمة في تغيير سياراتهم بهذه السهولة..

فهناك رأي يقول :إن الأمريكي بطبعه يحب التغيير .فالأمريكان مدينون لهذا التغيير بكل حياتهم ..فقد كانوا في أوربا وجاءوا إلى هنا ..وغيروا وجه الأرض وحولوا الغابات إلى مزارع، والمزارع إلى مصانع، والمصانع إلى حدائق وحمامات سباحة ومسابقات للجمال.

وآخرون قالوا :إن الرجل الأمريكي تاجر وهو يحب الظهور ..فهذا الظهور يؤثر على الزبون ..على المستهلك ..فيقنعه بأنه غني وأنه ناجح وأن بضاعته هي أحسن بضاعة وأنها هي التي عادت عليه بهذا الثراء وهذه السيارة الفخمة!...

وقليلون من رأيهم أن المصانع الأمريكية هي التي شجعت المستهلك على تغيير سيارته وإلا أقفلت هذه المصانع أبوابها إذا اعتمدت فقط على المستهلك الأجنبي ..وعلى تمسك الأمريكي بسيارته القديمة ..والرجل الأمريكي لا يحب القديم ولا ينظر إلى الماضي نظرة إنجليزية فرنسية خيالية حالمة .فلا يوجد أمريكي يقول لك إن هذه السيارة عزيزة عليه ..فقد قابل فيها فلانة لأول مرة ..وذهب بها لأول صفقة كبيرة!..

ولكنه يقول لك دائمًا :اللي معرفوش أحسن من اللي أعرفه ..الجديد أحسن من القديم، والمستقبل أحسن من الماضي.

وهناك من يرى أن الطرق في أمريكا طويلة جدًّا وأنها تغري صاحب السيارة بأن ينطلق بسرعة مخيفة ..ومن النادر أن تجد سيارة في هذه الطرق الطويلة تمشي بسرعة أقل من 120كيلو ..ولذلك فهذه السيارات تتحطم موتوراتها بسرعة ..أما جسم السيارة فيبقى سليمًا ..والسيارة هي الموتور ..وتغيير الموتور يساوي الفرق بين سيارة جديدة وسيارة قديمة..

وجحا كان يقول :اللي عنده حنه يحني ديل حماره..

والأمريكان عندهم أكثر من الحنه وليس غريبًا أن يغيروا ديل الحمار والحمار أيضًا!..

* * *

عندما تكون زوجتك أمريكية

إذا كانت المرأة الشرقية تمشي وراء زوجها ووجهها إلى الأرض..

وإذا كانت المرأة الأوربية تمشي إلى جوار زوجها وتنظر إلى رجل ثان وتفكر في رجل ثالث هربًا من رجل رابع وأملًا في رجل خامس..

فإن المرأة الأمريكية تمشي أمام زوجها وأحيانًا تخرج أصبعها من جيبها الأيسر فتقول لزوجها إنها ستتجه إلى الشمال، أو تعوج جزمتها اليمنى لتقول لزوجها إنها ستتجه إلى اليمين .وأحيانًا تتدلى من يدها سلسلة يتعلق بها كلب نظيف من كثرة قبلات الزوج المطيع، وأحيانًا يتعلق الزوج من هذه السلسة في يوم الراحة الأسبوعية للكلب!

..والكلاب في أمريكا مستريحة جدًّا جدًّا..

لقد زرت عددًا كبيرًا من بيوت الأمريكان .وكتبت ملاحظاتي ..ولكن البيوت التي أدهشتني فعلًا هي بيوت الشرقيين الذين تزوجوا من نساء أمريكيات..

زرت أكثر من تسعة بيوت لأصدقاء من القاهرة وزوجاتهم أمريكيات، لم أذهب على سبيل الشماتة بهم ..فلا شماتة في الموت، وإنما ذهبت لأرى كيف يلتقي الشرق القديم جدًّا بالغرب الحديث جدًّا ..أو المحدث جدًّا..

وسأضرب لك عدة أمثلة رأيتها وسمعتها وكنت أحد المشتركين فيها..

مثلًا :لا يصح للزوج أن يدعو إلى البيت أي عدد من الناس .فمن رأي الزوجة أنه يجب أن يدعو أربعة أو خمسة مثلًا، لأنها لا تستطيع أن تطبخ لهذ العدد، وليس لديها عدد من الأطباق أو الملاعق يكفي لهذ العدد .ولا يصح للزوج أن يسمح لضيوفه أن يحضروا إلا في الوقت المحدد وبالضبط، وقد رأيت زوجة تترك البيت في هدوء تام لأن الضيوف تأخروا عن الموعد نصف ساعة!

وبعد الفراغ من الطعام يجب على الزوج أن يقوم بعملية -أقصد عمليات -الغسل والكنس وتجفيف الأطباق والملاعق ووضعها في المكان المناسب.

ولا بد أن يكون التعليق على الأكل ممتازًا.

يجب أن يقول الضيوف إن الطعام رائع مهما كان طعمه أو كانت رائحته أو كانت الزوجة غشيمة.

وقد لاحظت أن الأزواج يطلبون من الضيوف أن يقولوا عبارات معينة لأن هذه العبارات بالذات تسعد الزوجة!

وإذا حدث أن دعا الزوج إلى البيت سكرتيرته في العمل أو زميلة له ..فأهلًا وسهلًا.ويجب ألا يندهش الزوج الشرقي إذا عاد إلى البيت ووجد رجلًا غريبًا يتمشى في البيت وفي فمه سيجار ضخم وأمامه كأس من الويسكي وبعض الفول السوداني، وفي هذه الحالة يجب أن يقدم الزوج نفسه هكذا :أنا فلان ويقول الرجل الغريب :أهلًا وسهلًا وأنا فلان .كيف حالك؟

وفي هذه الحالة تصرخ الزوجة من الداخل :هذا رئيسي في العمل ..يا حبيبي تحب تشرب إيه؟

طبعًا الزوج الشرقي يحب أن يشرب كوبًا من الماء أو يحب أن يضع قطعة من القطن المبلل بالنوشادر في أنفه قبل أن يغمى عليه!

نسيت أن أقول إن الزوج عندما أحضر سكرتيرته إلى البيت ..كانت مفاجأة للزوجة؛ فهو لم يخبرها قبل ذلك بأيام أنه سيدعو سكرتيرته إلى البيت .لعله نسي ..لعله مشغول .ولكن هذا لا يكفى لإقناع الزوجة .فالزوج يجب ألا

ينسى ويجب ألا يكون مشغولًا؛ لأن الأجهزة الأتوماتيكية في أمريكا تفكر وتكتب ولا تنسى، فكيف ينسى الإنسان مخترع هذه الأجهزة؟!

وقد حدث أكثر من مرة أن خرج الزوج الشرقي من البيت احتجاجًا على تصرف زوجته ..ولم تجد الزوجة حلًّا لهذا الإحراج الشديد أمام رئيسها إلا أنها اعتذرت لهذا الرئيس عن حماقة الزوج وعن غيرته العمياء، ثم تركت البيت هي والرئيس وذهبت إلى أي مطعم أو ناد ليلي وسهرت هناك تحاول الاعتذار للرئيس بكل الوسائل .وعندما عادت الزوجة إلى البيت وجدت الزوج سكران على الآخر؛ فنظرت إليه من فوق إلى تحت ثم قالت له :برضه كده ترمي السجائر على الأرض ..مين اللي حيكنسها ..الخدامة اجازتها بكره!

ثم ذهبت إلى غرفتها لتنام ومدت يدها إلى الراديو لتستمع إلى الموسيقى وفي يدها كتاب ظهر حديثًا عنوانه »كيف تجدين رجلًا أحسن في 24ساعة؟.«!

وقصص كثيرة غريبة ..ولكن المرأة الأمريكية تتصرف كأنها تثأر لبنات أوربا وإفريقيا وآسيا وأستراليا .إنها تشخط في الرجل فيتحول إلى شيء صغير .والفزورة القديمة التي تقول :إيه اللي أد الفيل وينصر في منديل؟ والجواب التقليدي هو :الناموسية .ولكن الجواب الجديد هو :الرجل الأمريكي!

والقانون يعطي المرأة الأمريكية نصف ما يملكه الرجل عند الزواج ..فوثيقة الزواج هي وثيقة تمليك لكل ما في البيت من أثاث وثلاجات وراديوهات، حتى السكينة التي في يدك عندما تحاول ذبح زوجتك الأمريكية فنصف هذه السكينة من حقها..

وأغرب حادث رأيته وسمعته وناقشته هو أن هناك زوجة أمريكية ستلد بعد أيام وزوجها صديق من القاهرة ..هذه الزوجة ستلد على الطريقة الجديدة -أي من غير تخدير، من غير بنج -ولا بد أن تتردد مرتين في الأسبوع على الطبيب ليعرف حالتها النفسية وليشرح لها ماذا سيحدث قبل وبعد وفي أثناء الولادة ...وليس في هذا كله أية مشكلة .فالزوجة مقتنعة بأن هذه العملية مريحة وسهلة جدًّا ..وقد تمت ألوف الولادات بهذه الطريقة دون أية حوادث.

والمشكلة الآن هي :من الذي سيجلس إلى جوار الزوجة في أثناء الولادة؟ من الذي يسلي الزوجة حتى لا تشعر بكل ما يحدث لها وفيها وحولها؟ من الذي يشجعها؟ إن عملية الولادة تستغرق ثلاث ساعات طويلة، مملة الأصوات والوجوه والروائح فمن الذي سيقوم لها بتغيير هذا الجو؟

والجواب :الزوج وحده هو الذي يجب أن يقوم بهذه المهمة .والمناقشة دارت هكذا أمامي:

الزوجة) :وضعت ساقًا على ساق ونظرت لنا جميعًا باحتقار شديد وعيناها تتهماننا على الأقل بالأنانية :(تفتكر أنني يجب أن أكون وحدي؟ وأين أنت؟ إن هذا الطفل قد أنجبناه معًا ..هل تتصور أن مهمة الزوج هي مجرد عملية الإنجاب ..وأي مجهود في هذه العملية؟ وأي بطولة؟ ..عمل الرجل في إنجاب طفل ليس فيه بطولة..

الزوج)في يأس وتطلع إلى وجوهنا لكي نساعده لأنها قضيتنا جميعًا :(ولكن لا أعرف هذه الأشياء ..إنني لم أحضر ولادة في حياتي ..الموقف محرج جدًّا..

الزوجة :وأنا لم ألد قبل ذلك ..وموقفي مؤلم ..ومحرج لي أيضًا ..إذا حضر جميع الأزواج وتخلفت أنت !ثم هناك شيء آخر ..هو أنه يجب أن تقابل الطبيب ..إنه يريد أن يجلس معك ..يريد أن يتأكد من أعصابك ..هل هي قوية تتحمل مثل هذه العملية أو لا تتحملها ..وهل أنت في حاجة إلى فيتامينات مقوية..

الزوج :مش فاهم ..ماذا أعمل..؟ ماذا أقول لك..؟ أقول لك بعض النكت ..ليس لدي نكت تكفي لثلاث ساعات ولا أضمن إن كانت نكت مصر تضحك بنات أمريكا!!

الزوجة :هناك كتاب صدر أخيرًا عن النكت ..تستطيع أن تقرأ هذا مقدمًا أو حتى تقرأ لي الكتاب في أثناء الولادة ..وإذا لم يعجبك هذا كله فعندي اقتراح..

الزوج)في خوف شديد :(أنا في عرضك بلاش اقتراحاتك الرهيبة، أي شيء إلا اقتراحك.

الزوجة :انتظر شوية -عندي فكرة ..وهي أن أستأجر رجلًا يقرأ لي الكتاب في أثناء الولادة وهذا الرجل سأسأله في أثناء الولادة أن يعطيني معلومات أولًا بأول عن الأعضاء التي ظهرت من المولود إن كان ولدًا أو بنتًا ...إلخ .وأن يكون له منظار غليظ كمنظاري ليرى كل شيء بوضوح ..كأنه في بلاد المشرق حيث السماء الصافية دائمًا..

الزوج يقول :كان يومًا أسود يوم تزوجت حضرتك!

طبعًا الزوجة لم تفهم هذه العبارة التي قالها بالعربية ..ولكن الموقف كما هو ..ولا بد أن يذهب الزوج .فهل تذهب أنت أيها القارئ إذا كانت هذه زوجتك الشرقية؟!

فيا أيها القارئ الشرقي أنت في نعمة؛ لأنك تذهب إلى السينما أو إلى الكباريه عندما تكون السيدة حرمك في حالة وضع!

أما الأزواج العرب الهاربون من زوجاتهم الأمريكيات فلهم نادٍ خاص .لم يكن خاصًّا بهم ..ولكنهم جعلوه خاصًّا!

الدخول للأعضاء فقط ..وكل عضو معه مفتاح الباب الخارجي ..ومجرد أن يضع المفتاح في الباب ويدخل معناه أنه عضو ..ولو سقط هذا المفتاح من أي عضو وعثر عليه إنسان آخر فهو عضو ..عقابًا للأعضاء الذين لا يحرصون على هذه المفاتيح!

دخلت هذه النوادي في واشنطن.

الباب وراءه باب وباب ..الأضواء خافتة والأرض مغطاة بالأبسطة القطيفة والسلم إلى أعلى كذلك ..والفتاة التي تأخذ منك البالطو ترتدي المايوه ..والمايوه قطعتان ..قطعة ارتفاعها أربعة قراريط عند الجانبين، ولكنها من الأمام والخلف عبارة عن قيراطين بارزين، طبيعي أو صناعي ..والصدر في الغالب منفوخ والنفخة إلهية..

وبابتسامة حلوة مغرية تمد الفتاة ذراعها الأبيض العريان الناعم أيضًا وتأخذ البالطو..

ولا تفهم لماذا هي تتعمد أن تدخل ذراعها في كم البالطو ..تمامًا كما فعلت ريتا هيوارث في فيلم جيلدا وهي تنزع الجوانتي، أو كما تفعل إحدى راقصات الكباريه عندما تختارك لتنزع من يديها هي الجوانتي الضيق جدًّا كجلد الثعبان..

وبنفس الرشاقة والإثارة تضع يدها في أحد جيوب البالطو ..وتتلفت إليك ..ثم حزام البالطو بين أصابعها ..وعيناها ..وعيناها أعوذ بالله!..

وتصعد إلى السلم، وتفاجأ بأن كل الجرسونات بالمايوه ..وكل مايوه لون ..وهناك مباراة بين الجرسونات على أعصابك ..وكل واحدة تحاول أن تستخدم أقل مساحة ممكنة من القماش وأكبر عدد ممكن من الألوان ..وتفتح فمها ضاحكة إلى أقصى ما تستطيع ..وعندما تجلس أنت على المقعد غير المريح، لا لأنه من قطيفة غليظة وإنما لأنك غير متعود على ذلك ..وأمامك كل الجرسونات يرحن ويجئن بالجنب وبالظهر وبالوجه وبالذراع وبالبطن وبالصدر ..وتحس أنك في حمام سباحة أو في حديقة أسماك غريبة . وأن بينك وبين هذه الأسماك ألواحًا من الزجاج الشفاف الرقيق جدًّا ..وإذا ابتلعت ريقك وأحسست أنه ينحاش في زورك، وارتفع ضغط الدم عندك، وزادت دقات قلبك وجعلتك تقوم وتقعد وتحس بضيق شديد في ملابسك ..فلا تخف فهذا لا يدل على مرض الكبد

أو الأمعاء الغليظة أو ضغط الدم، وإنما هي حالات ضرورية بالنسبة لكل زبون ..وهي تحيات مستمرة لذوق النادي في اختيار الجرسونات من طراز قاذفات اللهب والعرق والأرق!

وإذا مالت عليك الجرسونة العارية ولفحك عطرها الخفيف وسألتك ماذا تأكل وهي تعرف ماذا تريد بالضبط، وأنت لست أول واحد طبعًا فقل :بعض اللحم المشوي!

ولا تقل هذا بنغمة خاصة فهي تعلم مقدمًا أنك لا تعني ما تقول وإنما تعني أنك تريد بعض اللحم الذي يشوي ويلسع ويحرق ويوجع.

وهناك على جانب من النادي توجد منضدة وعلى هذه المنضدة كل أنواع الساندويتشات وهي أحيانًا مجانًا ..وتستطيع أن تأكل منها ما تريد ..والذوق يقضي بأن تدفع مبلغًا رمزيًّا هو ما يساوي قرشين ..إنها مسألة ذوق، وليست مسألة إجبارية، وهذه هي تعاليم النادي ..وهي صريحة ومكتوبة وراءك وأمامك.

وفي أول لحظة ستعجبك هذه الفكرة ..ولكن حاول أن تجربها ..ثم تنفذها بعد ذلك!

أمام الساندويتشات أجمل جرسونة، وقد غطت جسمها كله بشبكة سوداء ..وعلى هذه الشبكة السوداء توجد بعض بقع سوداء من القماش في أماكن مختلفة وطبعًا أنت تعرف أين؟ ستقف أمامها وتنظر إلى وجهها وتقول :ساندويتش جبنة..

وتمد ذراعيها الناعمتين الممتلئتين وتعطيك الساندويتش وتنظر إلى عنقها وإلى صدرها وإلى وسطها وإلى ...وإلى ..وتطلب بعض اللحوم وبعض الطماطم وبعض التفاح أو لا يعجبك التفاح فتعطيك الموز ..وبعد ذلك يطلب منك النادي أن تدفع قرشين ..طبعًا مش معقول ..فتدفع خمسين قرشًا أو جنيهًا ..ولا تحاول أن تعطيها بطاقة عليها اسمك ورقم تليفونك؛ فالنادي يشكو من ضيق المكان، وهناك غرفة مخصصة للبطاقات التي تعطى للجرسونات الفاتنات!

يعني بالاختصار يحسن أن تدفع الحساب وتقوم..

وهناك تحت ..تنتظرك فتاة أجمل ستقدم لك البالطو .وغرفة البالطوات كبيرة ..وعندما تراك فإنها تشعل الأضواء التي يستخدمونها عادة في غرف العمليات ..والفتاة تتعمد أن تضع البالطو في آخر الغرفة ..وعليك أن تراها في الذهاب والإياب ..وعلى هذه الغرفة مكتوب :لا تدفع أي بقشيش!

وأنت لا تستطيع أن تطيع أوامر النادي فلا تعطيها قرشًا واحدًا، فإذا استطعت فأنت ثاني إنسان فعل ذلك، أما الأول فهو أنا، إنني لم أعطها قرشًا واحدًا، وإنما أعطيتها ألف قرش!

هذا النادي يناسب جدًّا كل رجل عربي هارب من طغيان الزوجة الأمريكية ..وطريقة الهرب هي المفتاح.

* * *

الفندق الذي نزلت به في واشنطن اسمه فندق »فيرفاكس ..«لم أختر هذا الفندق ولم أنزل به من قبل ..ولكن اختارته زوجة أحد الأصدقاء ..لماذا؟ لا أعرف ..ربما كان السبب أنه قريب من السفارة أو كان أرخص، أو لسبب آخر لم أعرفه إلا فيما بعد!

وكانت غرفتي في الفندق كبيرة ومزودة بسراير مريحة وفيها تدفئة ..ورائحة جهاز التدفئة تشبه رائحة الأفران الريفية التي يضعون فيها روث البهائم الجاف، مع خليط التبن، وربما كانت هناك بعض الأعشاب التي يستخدمونها في الريف لقتل الناموس..

ويبدو أن أمريكا قد أضافت إليها مواد أخرى تستخدم في قتل الأجانب ..فقد نهضت من فراشي أكثرمن مرة دفاعًا عن نفسي ..لاحظت أن هناك أصابع غليظة تلتف حول عنقي تريد أن تقتلني ..واكتشفت بعد ذلك أنها أصابعي، وأنني أحاول أن أساعد الهواء على الدخول والخروج ..ثم اكتشفت أن التدفئة الخانقة هي السبب!

وفي الصباح المبكر ينفتح باب الغرفة وتدخل سيدة ضخمة جدًّا وسوداء جدًّا وفي صوت ضفدعي تقول :إنت لسه نايم؟

والحقيقة أنني أكون فعلًا »لسه نايم ..«لسه أحاول أن أنام ..فهي بالضبط ضبطتني في لحظة انتصاري على الأرق .وتهز رأسها أسفًا على مصيرها الأكثر سوادًا منها الذي جعلها تعمل منذ ساعات بينما آخرون ينامون حتى التاسعة صباحًا!

وفي يوم قررت أن أنام بعد أن تقوم هي بتنظيف الغرفة وإعدادها ..وبذلك أضمن ألا تدخل في أي وقت وتزعجني وتخيفني بهذا الشكل المؤلم ..وانفتح الباب وكل مرة ينفتح الباب على خادمة زنجية؛ فالزنوج هم نصف سكان واشنطن عاصمة أمريكا ..وقلت للخادمة :أمامك الغرفة رتبيها كما تريدين ..ولم أقدر خطورة هذه العبارة .الذي حدث هي أنها نظفت الحمام، ثم راحت تنزع أغطية السرير والمفارش وتمسح الزجاج والأكواب ..ونبهتني إلى أن اليوم هو يوم الغسيل وإذا كانت عندي ملابس فيجب أن أقدمها حالًا وإلا فسأبقى بلا ملابس نظيفة كل أيام عيد الميلاد ورأس السنة ..والعمل إيه؟

ودخلت إلى الحمام وبدأت أنزع ملابسي ..وفجأة انفتح باب الحمام ودخلت الخادمة ونظرت لي فوجدتني عاريًا »ملط «وانكسفت جدًّا، ولكنها لم تخجل كأنني ماسورة مياه أو لوح خشب ..وفوجئت بأنها أمسكت ليفة وصابونة ومدت يدها إلى صدري وراحت تمسح بعض الحبر.

وسألتني :وما الذي أتى بالحبر هنا؟

فقلت لها :إنها أفكاري!

ولم تضحك ..وابتلعت أنا ضحكتي!

قلت :انتظري حتى أرتدي ملابسي وبعد ذلك أكلمك عن الحبر.

وعادت تسأل :هل تضع القلم في عبك؟

قلت :أحيانًا أتركه فوق صدري هو وورقة أو كتاب وأنام.

قالت :أنت تعمل بوهيجي في بلدكم؟

وقلت لها إنني تعلمت من الهند بعض الألعاب السحرية..وفي استطاعتي أن أحول القلم إلى ثعبان يقرصك..

وصرخت وهربت ..فهي من قبيلة تقدس الثعابين!

ومنذ ذلك اليوم بدأت أنام وباب غرفتي مفتوح، وفي أذني قطن واللحاف فوق رأسي ..وأتجاهل أصوات المقشات والبخاخات والزنجيات وأقسمت ألا أنام بعد ذلك في أية لوكاندة يديرها وينظفها ويخيف الناس فيها هذا العدد الكبير من الهجانة!

..وألا أستمع إلى نصيحة زوجة أمريكية تريد أن تنتقم من كل أصدقاء وأبناء وطن زوجها!

* * *

حياتهم أغرب من السينما

قبل أن أرى أمريكا كنت أتصور وأنا جالس في السينما أن كل هذا الذي أراه ليس إلا تمثيلًا في تمثيل ..السيارات الكبيرة الكثيرة السريعة، واللبان الذي يمضغه نصف الممثلين ومعظم المتفرجين، والتليفونات التي تدير قرصها عشر مرات وتطلب أسوان وأنت في القاهرة أو تطلب الخرطوم وأنت في روما؛ فتجيء بعد لحظة أو لحظتين ..وكنت أتصور أن الأمريكان عندما يرتدون القمصان المبقعة بالأحمر والأزرق والبنطلونات التي تشبه جوارب السيدات لأنها ملتصقة جدًّا، كل ذلك كنت أتصوره »شغل سينما.«

ولكن الحقيقة أن الأفلام أقل بزمان جدًّا من الواقع ..بل إنني أؤكد أن الأفلام لا تصور الواقع الأمريكي تصويرًا دقيقًا..والمخرج الأمريكي يحاول دائمًا أن يقلل من هذه المناظر؛ لأن المتفرج الأمريكي يعرفها جيدًا ويمارسها كل يوم ..تمامًا كما يفعل المخرج في القاهرة عندما يحذف من الفيلم صور الصلاة والتردد على المسجد؛ لأن هذه الأعمال يؤديها معظم الناس كل يوم ..وليس فيها جديد، فإذا رأى هذه الأفلام العربية أحد أبناء إندونيسيا واستنتج من هذا أن العرب لا يترددون على المساجد فقد ظلم العرب .والحقيقة أن المخرج العربي قد استبعد هذه المناظر المألوفة.

وهذا بالضبط ما فعله المخرج الأمريكي..

وحكاية التليفون الذي تدير قرصه عشر مرات ..ليس أكذوبة سينمائية .فأنت تستطيع أن تطلب أي أمريكي في أمريكا من نفس التليفون الذي أمامك؛ ففي استطاعتك أن تطلب بغداد من أسيوط في ثانية، لقد جربت هذا عدة مرات؛ فقد كنت أطلب سفارتنا في واشنطن من هوليوود فلا تكاد تمضي لحظة حتى يكون أحد موظفي السفارة على الخط وبصوت واضح جدًّا ..وبعض المكالمات هنا شخصية :فتطلب صديقًا مثلًا ولا تجده في البيت فتحولك عاملة التليفون على مكتبه فلا تجده، فتحولك على المعمل أو النادي فلا تجده ..وبعد ذلك لا تدفع مليمًا واحدًا، لأن هذه المكالمة كلها شخصية أي من شخص إلى شخص!

وحكاية اللبان الأمريكي ..هذا اللبان من غير سكر، وهو مفيد للأسنان فعلًا ..وقد قرأت بحثًا طبيًّا عن بعض اللبان ..وأنا تعودت مضغ اللبان ..ولكن سأعدل عن المضغ قبل عودتي إلى القاهرة، فليس شيئًا لطيفًا عندنا.

ولاحظت أن اللبان يجعل الإنسان أقل توترًا ..ولا يجعله عصبيًّا ..وقد رأيت في التلفزيون هنا أحد علماء النفس يتحدث إلى أحد مرضاه ..وقد بدا المريض عصبيًّا ..فطلب منه الطبيب أن يأخذ قطعة من اللبان ..فأخذها بعد تردد وارتاحت أعصاب المريض بعض الشيء وأشهد أن هذا لم يكن إعلانًا عن أي نوع من أنواع اللبان.

والتلفزيون هو الآخر يصور الواقع ..وإن كنت قد رأيت فيه أخيرًا شيئًا ضايقني جدًّا ..إنه شيء واقعي ولكن الإنسان يحب ألا يراه ..لقد رأيت أحد رعاة البقر يضرب والده ..يضربه ويوقعه على الأرض ويحاول قتله ..يحاول قتل والده!!

منظر بشع وأعتقد أن الأفلام البريطانية تحذف هذا النوع من العنف بالنسبة للأب والأم وتمنع ضرب الزوج لزوجته أو العكس..

وقد سألت أحد الأمريكان إن كان هذا المنظر لا يؤذيه، فأجاب أنه موجود في الواقع؛ فلماذا لا يظهر على الشاشة؟

إلى هذه الدرجة من »فوق «الواقعية في التلفزيون، وهذه الدرجة من »تحت «الواقعية في السينما، يذهب الشعب الأمريكي في تسلية نفسه وغيره من الناس..

وهذا ليس كلام سينما، وإنما هو الواقع فعلًا!

وهنا في المكتبات مئات الكتب تروي لك كيف نجح ملايين الأغنياء .وهذه الكتب ليست ممتعة وليس فيها فن ولا عبقرية.ومعظم الأغنياء ليسوا فلاسفة ولا أدباء ولا يعرفون فن الكلام أو التعبير؛ ولكنَّ شيئًا واحدًا تستطيع أن تجده عندهم جميعًا :إنهم عملوا وصبروا ونجحوا.

وكما نجحوا في الكويس نجحوا في الشر أيضًا :عصابات وحروب!

* * *

إنه عالم أزرار ..أزرار

الحقيقة أن أمريكا بهرتني، رغم أنني رأيت أوربا عدة مرات وعشت في آسيا وأستراليا أكثرمن خمسة شهور ..بهرتني فعلًا ..الناس وحياتهم ونظرتهم للدنيا!

كل شيء واسع في أمريكا إلا البنطلونات ..كل شيء موجود في أمريكا :الطعام والأمن والعلاج والتجارة وفرص النجاح في الحياة وحب السلام .كل شيء إلا :الذوق!

فليس عند الأمريكان أي ذوق في الأكل أو في اللبس أو تأثيث البيت ..وفي الأكل ذوقهم عجيب جدًّا ..كل شيء جائز عندهم ..فهم يبدءون الطعام بالبارد جدًّا وينتهي طعامهم بالبارد جدًّا ..في الصباح يشربون العصير المثلج واللبن المثلج .وفي الغذاء يسألونك إن كنت تريد شوربة باردة أو ساخنة ..ثم يقدمون لك القهوة أو الشاي مع الأكل ..وكل شيء »منقوع ومزروع «في السكر أو في العسل أو في المربى الحامضة الحراقة أيضًا ..فالصلصة عليها سكر واللحم عليه سكر حتى الخيار مخلل في السكر أو مسكر في الخل، وتستطيع أن تلخبط أي أكل .وقد يتفرج عليك بعض الأمريكان وأنت تضع العدس على اللبن وتضيف إليه بعض الخيار ..وإذا نظر إليك الأمريكان ووجدوك جادًّا جدًّا في هذه اللخبطة، فمن المؤكد أن موقفهم منك سيكون كما يأتي :إذا كان المتفرج فتاة فإنها ستطلب توقيعك وعنوانك ومن أي بلد أنت، وعن أثرهذه الخلطة في الصحة، وهل هي السبب في أن لك أظفارًا لامعة وشعرًا أكرت؟ أما إذا كان المتفرج رجلًا فإنه يطلب إليك تسجيل هذا الاختراع العجيب، على أن يكون مديرًا للدعاية وأن نصيبه خمسون في المائة من صافي الإيراد..

وأؤكد لك أن هذا يحدث وينجح فى أمريكا ..فكل شيء ممكن هنا!..

أما ملابس الأمريكان فهي مضحكة جدًّا ..كل شيء ممكن ارتداؤه في أي وقت ..الألوان الفاقعة جدًّا ممكنة.كل أذواق الأمريكان هنا تؤكد لك أنهم ليسوا من أوربا وإنما هم من الهنود الحمر .أما بياض الوجه وزرقة العينين وصفرة الشعر فكلها مسائل سطحية جدًّا ..والمرأة الأمريكية لا تعرف كيف تلبس وتجعلك تدهش كيف أن مثل هؤلاء الفتيات الجميلات السليمات الجسم الكاملات الصحة لهن هذا الذوق المريض ..فمن الممكن أن تجد المرأة الأمريكية العجوز في ملابس الفتيات الصغيرات، والفتيات الصغيرات في ملابس العجائز ..ولكن إذا عرفت أن الأمريكان يعيشون بلا كلفة؛ فالابن ينادي والده باسمه العادي والبنت تعامل أمها كأنها أخت كبرى أو كأنها صديقة ..وإذا عرفت أن أي أمريكي يقابلك فإنه بعد خمس دقائق يكون قد روى لك تاريخ حياته ولماذا هو هنا وما الذي يسعده وما الذي يشقيه..وبعد ذلك يسأل عن اسمك ثم يحدثك عن بلدك ..وأنت لم تتكلم كلمة واحدة ويصبح هذا الأمريكي كأنه يعرفك منذ سنوات ..إذا عرفت ذلك أدركت أنه من الممكن أن البنت الصغيرة تدخل في ملابس جدتها والجدة تدخل في ملابس حفيدتها وتخرج الاثنتان إلى الشارع ولا يدهش الناس ..فالحال من بعضه!

وحكاية الأزرار التي نراها في الأفلام الأمريكية يظهر أنها صحيحة هنا جدًّا ..قبل رؤية أمريكا كنت أميل إلى الذين يقولون إنها تخريف ...فالمخرج يضع البالونات فوق رءوس المتفرجين فتطير بهم إلى أعلى ولم يكن المتفرجون يشدون شعرهم ولكن البالونات تتولى عنهم ذلك وتطير بهم إلى عوالم غريبة ..عوالم كل شيء فيها يتم بسهولة ..هناك زر تضغط عليه فتطيرالبنت التي تحبها وتدخل في حضنك وهي تلهث ولسانها مطبوع عليه

كلمة :أحبك ..وزرار آخر تضغط عليه فإذا بك تضغط على »زمارة «رقبة حماتك فتموت في لحظة ..وزرار للكذب وآخر للصدق ..وزرار يفتح لك كنوز سليمان ..وزرار للنوم وزرار للأرق...

وكان كثيرون يقولون إن المخرج ليس حالمًا ولا مستخفًّا بعقول المتفرجين، وإنما هو يلعب دورًا سياسيًّا خطيرًا ..فليست هذه الأزرار إلا حبوبًا مخدرة لكي تشغل الناس عن حاضرهم، تشغلهم عن مشاكلهم السياسية والاجتماعية، وتجعلهم ينامون ويمدون أرجلهم وأيديهم للغد الذي يبشر به الأمريكان ..فالأمريكي رجل يحاول أن يذر الرماد السحري في عيون القراء وأن ينقلهم على بساط سليمان إلى دنيا من ذهب وفضة وحرير ونعيم ليس له أول ولا آخر..

ليست هذه الأزرار كلها أوهامًا في أمريكا ..فإذا جلست في غرفتك في الفندق فكل شيء حولك يتحول بزرار صغير جدًّا ..هذا الزرار يطفئ النور ويفتح جهاز التلفزيون ويفتح الراديو على المحطة رقم 3أو رقم واحد ..وفي الأسانسير هناك صوت يقول لك :صباح الخير ..وقبل أن تصل إلى الدور الذي تريده يقترح عليك طبق اليوم والمكان الذي تجلس فيه وأحيانًا يروي أهم الأحداث التي وقعت في نفس اليوم ..وباب الفندق ينفتح بمجرد وقوفك إلى جواره، وإذا أشرت إليه أن يقف فإنه يقف ..وفي الأتوبيس توجد ماكينة حاسبة تضع فيها ثمن التذكرة بعملات مختلفة وهذه الماكينة تفرز العملات وتضع كل عملة في المكان المخصص لها ..وفي المطعم وفي الشوارع آلات لبيع السجائر العلب والسجائر الفرط ..اضغط على زرار صغير، إن هذا الجهاز يرد لك العملة إذا أخطأت في الحساب أو إذا تعمدت الخطأ ويرد لك بقية الحساب إذا وضعت فيه أكثر مما يجب ..وعلى المائدة في المطعم تجد ماكينة صغيرة تقول لك عن بختك هذا اليوم ..ولكن قبل أن تضغط عليه تضع القرش..

وفي دورات المياه توجد آلات أخرى فيها كل ما تحتاج إليه .ففيها مشط وفرشاة وقطعة قماش لمسح الحذاء، وفيها فرشاة أسنان وفيها لبان وفيها إسبرين وفيها صابون..اضغط على الزرار وضع القرش..والمطعم الكبير جدًّا تجد فيه عددًا قليلًا جدًّا من الجرسونات إنهم ينقلون إليك ما صنعته الأزرار ..فكل شيء تصنعه الآلات ..تصنعه الأزرار، والأغاني لها أزرار، والموسيقى لها أزرار، والروائح لها أزرار ..الأزرار تفتح لك الأبواب والنوافذ، وتنقل سريرك من جانب الحائط إلى جانب السرير الآخر وترفع لك المخدة وتنزلها ..لقد دخلت أحد المطاعم ههنا ولم أجد فيه جرسونًا واحدًا ولكني وجدت الكثير من الزبائن يأكلون ويخرجون ..ضع العملة واضغط على الزرار ينزل لك الطبق الذي تريده ومعه ملعقة وشوكة وسكين وورقة وفاتورة بالحساب وكلمة شكر ..كل واشكر ..كل واشرب واضحك واخرج ..هذا المحل يعمل 24ساعة ولم يختف طبق واحد ولا شوكة ولا سكين، يظهر أن هناك زرارًا آخر في قلب كل زبون ..إنه ضميره!

ولكن أمريكا ينقصها زرار واحد مهم جدًّا.

وقبل أن تعرف هذا الزرار أرجوك أن تستمر في القراءة.

قبل أن تدخل أي مطعم وتشير إلى الجرسونة أرجوك أن تقرأ السطور التالية:

ويكفي أن تنطق الحروف الأولى من أي طعام تريده حتى تجد الجرسونة قد كتبته، وبعد لحظات تعود إليك بشيء آخر غير الذي طلبته ..وهي تحضره في »حماشة «وفي جفاف جاويش في الجيش وكأنك
عسكري »دفعة ..«وتدهش لهذه الخشونة فتحاول أن تعترض؛ فإذا هي تخرج ورقة أخرى وتكتب لك ما تريد وحالًا تحضر لك شيئًا آخر وإذا أبديت أية دهشة لغرابة الطعام كانت دهشتها هي أكثر منك؛ فالأمريكان يدهشون من الناس الذين لا يعجبهم الأكل الأمريكي كأن أمريكا هذه هي الدنيا.

هل عرفت الزرار الذي لم تخترعه أمريكا؟!

إنه زرار الأنوثة..وأنا لا أريد أن أظلم الأمريكان فقد دللتنا جرسونات اليابان وهونج كونج وسنغافورة ..حتى تعودنا على الركوع والسجود فشعرنا أننا من نسل الآلهة ..وربما كان هذا هو السبب.

وهناك سبب آخر ..هو أنني لم أر من أمريكا إلا القليل جدًّا ..رأيت جزر هاواي ولوس أنجليس وهوليوود واستوديوهات مترو وبارامونت وفوكس ووارنر ووالت ديزني وسان فرنسيسكو ..ومارلين مونرو!

* * *

اليوم هو يوم الشكر في أمريكا كلها.

إنه اليوم الذي تجلس فيه الأسرة كلها:الأب والأم والأولاد والأحفاد ويشكرون الله على ما أعطاهم من صحة ومال ومن ديوك رومي!..

وكان الفيلسوف اليوناني أفلاطون يشكر الله على أنه خلقه إنسانًا ولم يخلقه حيوانًا، وعلى أنه جعله رجلًا ولم يجعله امرأة، وعلى أنه جعله يونانيًّا ولم يجعله همجيًّا ..وأفلاطون كان يعتقد أن كل الناس عند اليونانيين همجيون!

والأمريكان يشكرون الله في هذا اليوم على ما أعطاهم من كل شيء وخصوصًا على أنه جعلهم من أبناء أمريكا ..وهم يحتفلون بهذا اليوم منذ مئات السنين أي منذ هاجروا من أوربا إلى أمريكا ووصلوا إلى الأرض الجديدة بسلام.

وقد استقر المهاجرون في أمريكا ..ولكنهم الآن يشكرون الله على المال والصحة والأولاد والجنسية الأمريكية وعلى أموالهم التي تزيد ..وعلى الطمأنينة التي يعيشون فيها، والتي يحرصون على أن تبقى كذلك دائمًا ..ولذلك فالأمريكان يخافون من الشيوعية خوفًا جنونيًّا ..يخافون من الحرب ..يخافون على المدن الجميلة أن تنهار، على الأرض الواسعة أن تتحول إلى معسكرات للسخرة ..يخافون على السيارة الأنيقة التي خلقتها المنافسات الحرة، يخافون على أجهزة التكييف وعلى الغسالات الكهربية، وعلى التلفزيون، وعلى أولادهم وعلى حرياتهم وعلى نشاطهم المستمر.

هذا هو الجنون الأمريكي ..الذي على أصله!

الأمريكان يجب عليهم أن يشكروا الله ..فقد أعطاهم باليدين وجعل السماء تمطر لهم الذهب والفضة ..ولكن الأمريكان كانوا يمدون أيديهم إلى السماء يلتقطون الذهب والفضة ..إنهم لم يضعوا أيديهم في جيوبهم ثم ينتظروا الذهب أن يتحول من تلقاء نفسه إلى عملة وإلى مصانع وإلى حدائق ..إنهم عملوا الكثير ولا يكفون عن العمل ..وكل إنسان يعمل يلقى جزاءه المادي ..أي عمل له ثمن والسلعة المنتشرة والغالية الثمن هنا هي :العمل!

فالخادم مرتبه 100جنيه في الشهر ويصل إلى 300جنيه، والعامل في مصنع الصلب مثلًا يصل مرتبه إلى 500جنيه و 700جنيه.

فالله يستحق الشكر من كل أمريكي..

في هذا اليوم تلتف كل أسرة أمريكية حول الديك الرومي وتشكر الله بصورة عملية ..فالدعاء في أفواههم واللحم في أيديهم!

أما الشوارع ففيها مهرجانات ..فالمدينة تزدان بالأشجار المضيئة على جانبي كل شارع ..فشارعنا -هوليوود بوليفار -طويل جدًّا، عريض جدًّا، مضيء منذ ثلاثة أيام ليلًا ونهارًا ..ويبدأ المهرجان بمجموعات من الفتيات الحلوات جدًّا بالشورت الأبيض والقمصان الضيقة القصيرة، وفي يد كل فتاة منديل أو علم، وعلى رأسها قبعة تختلف باختلاف كل مجموعة، ووراء كل مجموعة فرقة موسيقية تعزف ألحانًا جميلة ..وبعد كل مجموعة توجد سيارات مكشوفة يركبها ناس ..شبان وشيوخ، ملكات جمال وملكات وحاشية، والتصفيق لهم جميعًا والصراخ من الأطفال ..هؤلاء جميعًا نجوم التلفزيون، والغريب أن الأطفال يعرفونهم جميعًا ويستمعون لهم ولقصصهم،

وبعض النجوم يرتدي الملابس التي يظهر بها في التلفزيون كملابس رعاة البقر أو البهلوان ..والأغرب من هذا كله أن الأطفال الواقفين إلى جواري كانوا يقولون :إن فلانًا هذا أقصر مما كنت أتصور أو هذه زوجته الثانية ..وهذا ابنه الذي كان مريضًا!

وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من الأفلام المعروضة هنا في هوليوود وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من القصة المسلسلة في إحدى محطات التلفزيون.

ويستغرق المهرجان الغنائي الراقص الضاحك المثير مدة ساعتين وتبقى المدن الأمريكية كلها حية ساهرة حتى الصباح، وتبقى الشوارع مملوءة بالأوراق والقراطيس حتى اليوم الثالث ..فالناس في إجازة!

فاشكروا الله أيها الأمريكان، واعملوا على أن يسود السلام في العالم كله لينعم بالديوك الرومي التي تلتهمونها اليوم وغدًا!

* * *

ليلة من نار؟!

لم يعد »هز البطن «من الفنون الشرقية..

فكل راقصة تستطيع أن تهز بطنها على أنغام الموسيقى أو بلا موسيقى.

وإذا كانت الراقصة الشرقية قد اختشت وغطت بطنها أو وضعت غلالة شفافة على بطنها، فالمهم ألا ترى بشرتها ..وفي كثير من الأحيان تشكر الذي اتخذ هذا القرار بتغطية بطن الراقصات، فإن الراقصة الأوربية أو الأمريكية في استطاعتها أن تتعرى تمامًا وتنتهزها الكباريهات فرصة للتنافس على اختصار الأماكن المغطاة من جسم المرأة .والإعلانات عن هذه الكباريهات تقول :إن شجرة التوت قد أصبحت موضة قديمة..

ومعنى ذلك أن الراقصة التي تهز بطنها أمامك لا تستخدم ورقة التوت ..وإنما تتغطى بشيء أقل من ورقة التوت ..ورقة البوستة مثلًا...

فورقة التوت هي أضيق مساحة يلتقي فيها الدين والفن معًا!

ففي مدينة بالتيمور وهي تبعد عن واشنطن العاصمة الأمريكية بحوالي 80كيلو توجد بها كباريهات كثيرة جدًّا ..تحت الأرض، وعلى وجه الأرض، وفي الأدوار العليا من بيوت قديمة، وفوق الأسطح ..وأحيانًا في البلكونات ..فمن الممكن جدًّا أن نجد كباريهًا في بلكونة، ويجلس الناس ويقفون في زحام شديد ..لا هم جلوس ولا هم وقوف ..ولا هم في طريقهم إلى الخروج أو في طريقهم إلى الدخول ..وأنا مثل لقمة انحشرت في الزور ..وفي هذا الزحام الشديد تظهر الأجسام العارية والتي تزداد عريًا» ..وعلى فكرة لا يعرفون العطور الجيدة في أمريكا!«

أذكر أنني وقفت عند إحدى المكتبات ..ليس في المكتبة أحد ..الكتب كثيرة ولكنها من أنواع غريبة ..وأسماء المؤلفين لم أسمع بهم ..طبعًا لا أستطيع أن أقول :إنني أعرف أسماء المؤلفين في كل الدنيا .ولكن من المؤكد أني أعرف أسماء أشهر الأدباء في الدنيا ..أو على الأقل أشهر الأدباء الأمريكان ..أو كل الأدباء الأمريكان الذين فازوا بجائزة نوبل في الأدب ..لم أجد اسمًا واحدًا أعرفه ..ومددت يدي إلى الكتب أقلبها، ومن بعيد كانت عين ضيقة ترمقني، وبادلتها النظرات وانزلقت النظرات من العين الضيقة فوق الأنف الطويل، وهرشت في أنفي كأنني أؤكد له أن أنفي أيضًا طويل.

والمجلات التي أمامي كلها جنسية عارية ..أو عارية بلا جنس ..فقط عارية في كل الأوضاع ..عارية تمامًا فيما عدا ورقة التوت ..فهذه الورقة ليست في مكانها ..مجلة وراء مجلة..

واقترب مني الرجل ذو الأنف الطويل والعيون السوداء الضيقة ذات الأهداب الحمراء، وسألني عما أريد .فقلت لا أعرف بالضبط، ولكن أقلب في الكتب لعلي أجد شيئًا جديدًا .وأعاد الرجل نفس السؤال :أي أنواع المجلات العارية أو الصور العارية تريد؟ فقلت له :ليس من الضروري أن تكون عارية، المهم أي شيء جديد.

ونظر الرجل إليَّ نظرة لها معنى وسألني، وكأنني فهمت ما يريد أن يقول فقلت له :نعم.

وقال :طبعًا أنت من إسرائيل؟

قلت :نعم.

وسألني :وكيف الحياة هناك؟

فقلت له :زفت ..إياك أن تذهب!

وهز رأسه وهو أكثر اقتناعًا مني :أعرف ذلك..

ومع يأسي من أن أجد كتابًا جديدًا، هز الرجل رأسه مودعًا .وجلس وتركني أخرج ..ودخلت مكتبة أخرى ..نفس الكتب ..نفس المجلات ..نفس الوجوه ..ومكتبة ثالثة ورابعة ..كلها صور عارية وكتب عارية ومذكرات فتيات عاريات ..وشيء جديد جدًّا وهو عناوين وأرقام تليفونات لفتيات حقيقيات ..شيء جديد جدًّا هو أن صاحب المكتبة يطالب بالعمولة!

وكانت الدنيا مظلمة ..والمطر بدأ ينزل.

وسحبت البالطو على عنقي ..وخنقت نفسي بزرار ..وتحت إغراء الإعلانات الملونة ..ومشيًا في طابور طويل من الناس الذين نزلوا السلالم ..واتجهوا إلى اليمين ..إلى الشمال ..إلى أسفل ثلاث أو أربع درجات ..ثم إلى أعلى سبع درجات وإلى اليمين ..وانفتح الباب وانفجر بركان من الدم والموسيقى والسجائر والضحكات الهيستيرية ..وعلى مقعد طويل جلست بين رجال ونساء ..وكأننا على ظهر سفينة ..فالمكان على شكل سفينة مع فارق واحد هو أن السفينة أمامنا ..ونحن نجلس بعيدًا عنها، أو بالقرب منها ..وعلى ظهر السفينة التي أمامنا تدور فتيات عاريات تمامًا ..والناس حولهن في ذهول ويمزقهم الصراخ، كأنهم في الأدغال ..كأنهم محرومون ..كأنهم يرون النساء لأول مرة..

وعرفت أن الغرائز تجعل الناس متساوين ..الجوع يمزقهم ..والشبع يدوخهم ..تمامًا ككل الناس ..الغني والفقير، والأمريكي الأبيض والأمريكي الأسود ..والأبيض والأسود اللذان ليسا من أمريكا سواء!

وعلى ظهر السفينة جلست فتاة عارية في طشت من الماء ..وراحت تنزع ملابسها وتستحم ..ويظهر أن هذه ليست نمرة مسرحية ..وإنما هي تستحم بصابون حقيقي وهي بالفعل في حاجة إلى الاستحمام ..فقد غيَّر الصابون والماء لون بشرتها!

وكانت حريصة على أن يدخل الصابون فمها، ثم تبصقه بصوت تجعله الموسيقى قويًّا ..ثم حرصت على أن يدخل الصابون عينيها وتبكي ..وتأخذ الشهامة أحد المتفرجين فيعطيها منديله، وفي المنديل ورقة مالية، أو ورقة بها عنوانه، لا أحد يعرف ولكن لا بد من أن يؤذيها الصابون ..لا بد أن يرى الناس دموعها !شذوذ فظيع!

ثم يجيء دور زوج يبحث عن زوجته، على ظهر السفينة أيضًا ..ويجدها تحدث رجلًا آخر أو تقبله ..وينهال الزوج على زوجته ..ويمزق ثوبها ..ويترك علامات على جسدها ..وهنا تتكهرب الصالة ..ويتكهرب المسرح وتولول الموسيقى ويتفرق الضوء .وتظلم الصالة كلها ويظهر رجل خائف تبحث عنه زوجته ..ثم تجده وتنهال عليه ضربًا حقيقيًّا..

ولا بد أن هؤلاء الناس »ينضربون «كل ليلة ..فهناك علامات على الجسم والوجه..

ولا بد أن أناسًا يجدون لذة في هذا التعذيب لغيرهم ولأنفسهم أيضًا.

وهذه هي »السادية «أي المتعة في تعذيب الغير.

وهذه هي »الماسوشية «أي المتعة في تعذيب الإنسان لنفسه..

والناس يدفعون الفلوس لكي يتعذبوا هم أنفسهم، ويشربوا الخمر وهم يتعذبون، فهم يبحثون عن العذاب ويجدون لذة كبرى في أن يروا غيرهم يتعذب!

ومثل هذه الكباريهات كثيرة جدًّا أو مثل هذه النمر في الكباريهات كثيرة في هذه المدينة وفي كل المدن.

وعندما تَلَفَّتُّ حولي وجدت وجوهًا غريبة..

وجدت السعادة في وجوه الناس ..سعادة شاذة ..سعادة أناس يحسون بالكرابيج تنزل على ظهورهم ووجوههم ..وعيونهم تطلب المزيد من الضرب.

وبحثت عن ورقة في جيبي وقرأت فيها اسم إحدى دور السينما .ثم انسحبت أنزل وأطلع السلالم اتجه يمينًا وشمالًا كأنني أمشي في أحشاء حيوان مفترس مات ..لأن له رائحة كريهة ..أو في طريقه إلى أن يموت فلا يزال دمه ساخنًا وأنفاسه لاهثة..

وخرجت..

ومررت من جديد على أحد أصحاب المكتبات أسأله عن مكان هذه السينما وأشار بيده إلى نهاية شارع آخر .ومشيت في الشوارع وأنا أعرض وجهي لقطرات المطر، ولبرودة شديدة في الجو ..وتلفت حولي لعلي أجد أجزخانة فلم أجد.

واقتربت من أحد المشاة أسأل عن أجزخانة، ولكن عندما اقتربت منه أكثر وجدته يترنح بشدة وخجلت أن أسأل عن الأجزخانة رجلًا في حاجة إلى إسعاف!

ومضيت في الشارع والموسيقى تتجدد طول الطريق ..ففي كل مكان كباريه أو حفلة في بيت خاص أو بيت عام ..واتجهت عيناي ورأيت أضواء الفلورسنت الصفراء على شكل فستان ..وتحتها أضواء النيون الحمراء على شكل جسم بلا فستان ..مفهوم إذن أن هذه السينما للأفلام العارية..

الصور على الباب عارية ..الأسماء غير معروفة ..الفيلم غير معروف الاسم ..عاملة التذاكر قد ارتدت الفستان الغامق والبالطو ..في غاية الحشمة..

وتبدو أنها غير مقتنعة بالصور العارية التي على الشاشة، أو أن صاحب العمل لم يرغمها بعد على أن تنزع ملابسها..

ولكن لاحظت أن فستانها الغامق له فتحة طويلة جدًا .فهي إذن قد تعرت قليلًا ..ومعنى ذلك أن صاحب السينما قد فكر في نزع ملابس بائعة التذاكر ثم عدل عن هذه الفكرة في آخر لحظة..

والسينما تعمل 24 ساعة بلا توقف..

ففي استطاعة أي إنسان أن يدخل في أي وقت، ولم أعرف لماذا يدخلها أي إنسان .إنها ذات موضوع واحد وممل وسخيف ولا يمكن للإنسان أن يحتمل إلا عشر دقائق على سبيل الاستطلاع ..وخمس دقائق أخرى في انتظار الموضوع ..وخمس دقائق أخرى في انتظار النهاية ..وخمس دقائق لملاحظة ما يفعله الناس في أثناء عرض الفيلم..

الغريب أن كل المتفرجين من الرجال..

ولا يوجد اثنان يجلسان متجاورين .كل واحد يجلس وحده ..ويحرص على أن يكون بعيدًا عن أقرب جار له بخمسة أو ستة مقاعد..

أما الأفلام فهي تدور في إحدى مستعمرات العراة ..وهي تبدأ بفتاة عارية تمامًا ..وتمشي طول الوقت بالجنب ..أي أنك لا ترى منها إلا جانبها فقط ..أو ظهرها ولا تراها مواجهة أبدًا ..وكل حركاتها عبارة عن تحايل لكي تراها مواجهة ..ولكنها لا تظهر كذلك ..وهي تحكي حكاية من غير كلام..

مثال ذلك :أنها خرجت من بيتها وفوجئت بسيدة تستدرجها إلى سيارة وفي السيارة تنزع السيدة ملابسها ..ثم تلقي بها في الماء ..وتصرخ الفتاة ..وينهض رجل لإنقاذها ..هذا الرجل عريان جاهز، ولا تعرف أين كان ..ويأخذها إلى الغابة ويجلسان معًا ..متجاورين ..لا قبلات ولا عناق ..وإنما حركات بلا كلام ولا صوت..

أما الكلام والحركات فهما في صالة السينما..

وهي حركات مقرفة وأصوات تبعث على الغثيان ..وحتى لا أصاب بشيء من هذا، فالذي عندي من القرف يكفي المتفرجين في هذه السينما أيامًا كاملة ..خرجت ..وفتحت فمي أبتلع قطرات المطر ..ماء من السماء ..أي شيء من السماء.

* * *

وعلى باب السينما قابلت رجلًا ..أعرف وجهه ..أعرف ابتسامته ..قابلته قبل ذلك في باريس وفي روما وفي لندن ..وفي خرائب برلين وفي بيروت ..وقابلته في آخر مرة في طوكيو ..إنه نفس النوع من الرجال يطلب إليك أن تقضي سهرة على النحو الذي يعجبك وفي جيبه صور لفتيات ولنساء ..ويؤكد لك أنهن أجمل فتيات المدينة ..وأنهن لسن محترفات، وإنما هن فتيات من صاحبات المزاج ..ويشير :هذه سمراء من إيطاليا ..وهذه من إسبانيا ..وهذه من السويد ..وهذه من أصل زنجي .وهذه لم تعرف الشقاوة إلا من أسبوع ..لقد خدعها أحد البحارة فقررت أن تنتقم منه؛ بأن تعطي نفسها لأي إنسان ..أي إنسان .وهذه من تركيا وهي لأسباب سياسية خرجت من تركيا فهي لا تحب كمال أتاتورك، وهو لا يعرف أن كمال أتاتورك لم يعد له وجود من عشرين سنة ..وهذه ابنة غير شرعية للملك فاروق ..وهذه صديقة لأحد أصحاب الملايين الذي أضاع أمواله على جريتا جاربو، ثم فضل هذه الفتاة على الممثلة السويدية .وهي معلومات لا بأس بها، وطريقة مثيرة لتسويق هذه اللحوم البيضاء ..أو هذا الرقيق الأبيض، ولما لاحظ الرجل ضيقي وقرفي، ويبدو أنه قد اعتاد شكلي أنا أيضًا فأخرج من جيبه ورقة مكتوبًا عليها اسم كافيتريا ..وسألته أين توجد؟ فأشار إلى شارع قريب ..وإذا رفضت أن أذهب إلى الكافيتريا فإنه سيعطيني عنوان إحدى شركات الأتوبيس أو أحد الفنادق..

المهم أن هذا الرجل إعلان متحرك عن عدد كبير من السلع وهو ينادي عليها ويبيعها بحماس متعادل ..وإخلاص واضح .وربما كان هذا هو الإخلاص الوحيد الذي رأيته في تلك الليلة!

وفي الكافيتريا وجدت عددًا من الناس قد تجاوروا في جلوسهم دون أن ينطق واحد منهم بكلمة ..أمام كل واحد كوب كبير من اللبن ..وبعضهم يأكل السندوتشات ولكنَّ أحدًا لا يتكلم ..واقتربت وهززت رأسي على غير العادة الأمريكية ...ولم أكد أجلس حتى وجدت أمامي كوبًا من اللبن ..اللبن بارد ..ورشفت منه القليل ..لقد كان دسمًا ..شديد الدسم ..وبلا سكر .وسألت إن كان يمكن أن يضع لي في اللبن بعض القهوة ..وهز الرجل كتفيه يقول :على كيفك.

وسألته إن كان هذا اللبن لا تناسبه القهوة..

فعرفت أن القهوة لها لبن أخف دسمًا .أما هذا اللبن الذي لا أعرف قيمته فهو وجبة غذائية .فالقهوة يجب أن أشربها بعد ذلك ..وإذا لم أصدق ذلك .فمن الواجب أن أنظر إلى الإعلانات الملصقة في داخل الكافيتريا والتي تؤكد ارتفاع نسبة الفيتامينات فيه ..كل أنواع الفيتامينات، ولاحظت أن معظم الجالسين إلى جواري بلا أسنان ..إنهم يتثاءبون فتصبح أفواههم مثل أفواه السلحفاة ..عبارة عن حفر سوداء وصفراء ..بقايا أسنان ..أو بقايا تجاويف كانت بها أسنان ..مقابر أسنان!

وأدركت أن هؤلاء يشربون اللبن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يأكلوا أي شيء آخر..

وتمنيت لو طلبت منه عود قصب؛ لكي أمصه بأسناني مؤكدًا لهؤلاء الناس أن أسناني سليمة ..وأن الغربة وجهلي بالمدينة هما اللذان جعلاني أذهب إلى هذا المحل ..ورغبتي في أن أبين أنني صاحب أسنان تدل على أنني شعرت بشيء من الهوان أو شيء من الإهانة، وأن حرصي على أن أبدو أحسن منهم يؤكد أن أبحث فورًا عن رد اعتبار..

وجاء رد الاعتبار فورًا..

ودخل واحد وتحدث بالفرنسية التي لم يفهمها أحد .وطلب بعض اللحم المشوي وبعض القهوة السادة ..ولم يفهم صاحب المحل .وتقدمت أترجم له :وتطلع لي صاحب المحل يسألني إن كنت فرنسيًّا أنا أيضًا .فأكدت له أنني لست فرنسيًّا، أي أنه ليس من الضروري أن يكون الإنسان فرنسيًّا ليعرف الفرنسية ..فأنا لست أمريكيًّا ومع ذلك أتحدث الإنجليزية وأقرأ بها مئات الكتب أحسن منك .إن هذا البائع الأمريكي قد قذف بكوب اللبن أمامي، كأنه يلعب هاندبول ..بلا ذوق ولا أدب ودون أن يرى مني غير يدي ..لم ير وجهي ..لم يسألني ..ثم إنه رأى أصابع يدي كأنها شفاه مفتوحة عطشى..

ونبهت الرجل الفرنسي إلى أنه يجب أن يجلس ..لأنني أشك في قدرته على التقاط كوب اللبن أو فنجان القهوة إذا قدمه صاحب المحل .وبدت الدهشة على وجه الفرنسي وظللنا نتحدث عن الجو ..وصاحب المحل ينتظر أن يجد الفرنسي مكانًا ليرميه بفنجان القهوة .وأخيرًا طلب مني أن أفسح له مكانًا ..وأفسحت له مكانًا ..وطار الفنجان على حجر الفرنسي ..وسقط على بنطلونه الرمادي ..وانسحبت وتركت الفرنسي يلعن آباء هذا الأمريكي دون مترجم!

وعندما خرجت وجدت الرجل نفسه ..ذلك الإعلان المتحرك يعرض أسماء عدد من الفنادق المريحة ..أو المطاعم التي يمكنني أن أتناول فيها غدائي في اليوم التالي..

وقد زاد من قرفي حماسه الشديد..

ولا أعرف بالضبط ما الذي أغاظني فيه ..ربما كانت »آليته «أي تحوله إلى آلة ..إلى شريط مسجل ..إلى شيء ليس فيه إنسانية ..ولا كرامة ..أو لأنه لا يتعب ولا يقرف ولا يمل ..فكأنه بذلك يحتقر تعبي ومللي، أو أنه يهون من قيمة كل ما أشكو منه ..فهو يعمل ..طبعًا هذا عمل ..ليلًا ونهارًا ..بلا تعب وبحماس شديد..

أما ما الذي يعمله فهو موضوع آخر!

* * *

حكاية بالطو!

وأنا جالس في المطعم وعلى المقعد المواجه للبنك الدولي في مدينة واشنطن، تذكرت قصة للأديب الروسي تشيخوف ..والقصة لها دلالة خاصة..

ففي قصة تشيخوف يروي حكاية طفل وحيد ذهب لطبيب يشكره على أنه أنقذ حياته، ويقدم له تحفة ثمينة عبارة عن تمثال من البرونز لامرأتين عاريتين بينهما شمعدان، والشمعدان له معنى مثير ومقصود في القصة ..ويرفض الطبيب في أول الأمر .ولكن أمام إصرار الطفل يوافق ..ولا يدري أين يضع هذا التمثال .فالعيادة يدخلها الرجال والنساء ..ثم إنه زوج وله أولاد ..ولا يعرف ما الذي يقوله لهم ..ثم إن التمثال ليس صورة يمكن وضعها وإخفاؤها في أي وقت..

ويبدي الطفل أسفه، وأسف والدته على أنه كان من الأفضل أن يأتي له بتمثال آخر شقيق لهذا التمثال ..لولا أنه لم يجد من كل ما تركه أبوه من التحف الفنية غير هذا التمثال.

ويخرج الطفل ويقرر الطبيب أن يهدي هذا التمثال إلى صديق له ..ويذهب إلى صديقه المحامي ويعطيه التمثال في إحدى المناسبات ويصر على موقفه .وصديقه يرفض لأنه هو الآخر يخشى من الزبائن ..ويخشى ما سيقولونه عنه إذا رأوا هذا التمثال العريان الفاجر..

وأخيرًا يوافق المحامي وفي ذهنه أن يعطيه لصديق يعمل ممثلًا .ويقول إن الممثل لا يهتم كثيرًا بمثل هذه التماثيل العارية ..ففي حياته نساء وخمر وحفلات أكثر فجورًا من هذا التمثال..

ويذهب إلى صديقه الممثل ..وتكون مفاجأة .فالممثل يرفض هذا التمثال ..فهو وإن كانت حياته عريانة إلا أنه يريد أن يبدو محترمًا .فإحساسه بأنه فاجر يجعله يبالغ في الاحتشام أمام الناس ..ولكن الليلة تمضي والنساء يضحكن والرجال أيضًا ..ويخفي الممثل هذا التمثال .وفي نيته أن يبيعه للسيدة صاحبة دكان التحف الفنية ..إنها أم هذا الطفل!

وفي الصباح يذهب إلى السيدة ويبيع لها التمثال ..وتشكره السيدة على هذا التمثال الذي كانت تحلم به من وقت طويل..

وفي المساء يدخل الطفل عيادة الطبيب وفي يده ورقة ملفوفة ويقول له :لا تعرف مدى سعادتي ..أنت أنقذت حياتي ..وأنا الابن الوحيد لأمي ..وأمي بعثت لك بهذا التمثال الذي هو شقيق للتمثال الذي عندك.

ويغمى على الطبيب!

* * *

اليوم ذهبت أشتري بالطو مطر.

دخلت أول محل .وكان في نيتي أن أدخل أي محل آخر إذا لم تعجبني البضاعة .وهذا قرار نادر لا أعرف كيف اتخذته .فأنا من الذين إذا دخلوا أي محل فلا بد أن يشتري أي شيء .لابد .إنني لا أستطيع أن أناقش وأفاصل .مستحيل وقد اكتسبت هذه العادة -عادة الشراء في أول لحظة -من سنغافورة وهونج كونج ..فهناك يوجد كل شيء في الدنيا ولا يمكن أن تطلب شيئًا لا تجده .يستحيل، فأمام المستحيل، كنت أشتري أي شيء.

واستقبلني أحد الموظفين وعرف أني أريد بالطو مطر .وسألني من أي نوع، فلم أحاول استعراض معلوماتي القليلة في البلاطي .فقلت وأنا أضحك وأداري جهلي :بالطو للقيام برحلة للقطب الشمالي..

وضحك الرجل وهو يقول :موجود..

ومن الممكن أن يكون هذا النوع من البلاطي موجودًا ..فالقطب الشمالي ليس بعيدًا عن هنا ..يعني ليست هذه نكتة تستحق الضحك من جانبي!

ورحت أقلب في البلاطي ..الأبيض والأسود والجلد والصوف ..والقصير والطويل والذي له جيوب من الخارج والذي له جيوب من الداخل ..والذي بمائة جنيه، والذي بنصف وربع هذا المبلغ..

ووجدت البالطو المناسب .وكلمة المناسب رددتها وراء البائع بعد أن رأيت منظري في المرآة ..وبعد أن قلت :والله خسارتك ..لو كان معك مليون دولار فقط!

ولففت البالطو القديم الذي كان معي في ورقة وقبل أن أخرج من باب المحل ألقيته بالقرب من الباب وتظاهرت بأن شيئًا لم يحدث ..واتجهت بعيدًا عن المحل ليستوقفني أحد موظفي المحل ويعطيني البالطو ولا ينتظر أن أشكره..

ومعظم سكان واشنطن من الزنوج ..إنهم أكثر من 80% من السكان ..فواشنطن العاصمة يحكمها رئيس الجمهورية شخصيًّا .ولا يوجد بها أي تفرقة عنصرية ..وتوجد بها كل السفارات الأجنبية ..فالزنوج هنا في حماية الدستور ..وكلهم يرتدون بلاطي أحسن وأفخم من البالطو المناسب لي..

وظللت أبحث عن مكان ألقي فيه بهذا البالطو وأخيرًا وجدت ..رأيت سيارة طويلة عريضة واقفة على جانب من الشارع ..ولا أحد ينظر ناحيتي ..الناس كلهم في حالهم ..يدبدبون في الأرض ..وكل واحد منهم ينظر إلى فوق كأنه ينظر إلى ذبابة وقفت فوق أنفه.

وبحركة رشيقة ألقيت بالبالطو تحت السيارة ..ووقفت إلى جوارها ..وتلفت بنفس الرشاقة فلم أجد أحدًا ..ورحت أتطلع إلى اللافتات هنا وهناك..

ومشيت بعيدًا لتلحقني سيدة عجوز لعلها لاحظت أنني في أثناء قراءتي للافتات لم أتنبه إلى أن البالطو سقط ..وشكرتها وخجلت منها.

وذهبت إلى المطعم الذي يواجه البنك الدولي..

وعندما دخلت المطعم لم أجد به أحدًا ..وإنما وجدت الجرسونات مشغولات جدًّا ..وأول شيء فعلته هو أنني تركت البالطو القديم بجوار الباب، على مقعد ..وجلست على أبعد مقعد من الباب ..وطلبت قدحًا من الشاي وبعض السندوتشات ولكني حمدت الله أنني تخلصت من هذا البالطو الذي يرفضه أي أمريكي..

وقلت لنفسي :ربما كان السبب في رفض هذا البالطو أنه من اليابان، وأن العلاقات بين أمريكا واليابان هي الاحتقار المتبادل ..فالأمريكان لا يزالون يحتلون اليابان ..واليابانيون يحاولون أن يتحرروا منهم ..بل إن اليابانيين رفضوا وبإصرار أن تحتل اللغة الإنجليزية ولو مكانًا صغيرًا جدًّا من أفواههم أو آذانهم ..ولقد عانيت الكثير جدًّا في العثور على واحد، في أي مكان، يتكلم الإنجليزية.

ولكن على كل حال لقد تركت البالطو في مكان أمين ..ولا بد أن يعثر عليه أي إنسان ولا يهمني ما الذي سيفعله به ..قد يحرقه ..قد ينزع العبارة المكتوبة عليه :صنع في اليابان ..ثم يرتديه بعد ذلك .على أساس أن المطر والبرد والعواصف لا تفرق بين ياباني وأمريكي ..وبين صناعات يابانية وصناعات روسية!

وبارتياح شديد ..ولذة واضحة شربت الشاي ونفضت ما تساقط من السندوتش على البالطو الجديد الذي لا يشعر أحد أنه جديد إلا أنا، ولا يعرف أحد أن ثمنه يساوي ستين جنيهًا إلا أنا.

ولمحت بعيني منظر البالطو الياباني وهو يشبه جلد حيوان سلخوه ..ثم تركوا الجلد في انتظار سيارات الإسعاف، كما يحدث عندنا في عيد الأضحى عندما تمر سيارات الإسعاف تجمع جلود الضحية!

ودخلت سيدة وظننتها لأول وهلة أنها نفس السيدة التي التقطت البالطو قبل ذلك ..ثم دخل رجل ..وجلس إلى جوار البالطو ..وسقط البالطو على الأرض فوضعه في مكانه ..وكنت قد فرغت من الطعام ..ونهضت وتفاديت بحركاتي ونظراتي أن أقترب من البالطو ..وناداني أحد الجرسونات ونبهني إلى أنني نسيت البالطو ..فقلت بلهجة جادة جدًّا :لست في حاجة إليه!

وتفاديت نظرته وأخفيت رأسي في البالطو الجديد، واختفيت أنا بين الناس..

ويظهر -وهذا أكيد -أن الجرسون لم يستمع بوضوح إلى ما قلته فلحقني وأعطاني البالطو ..وحملته على ذراعي ..وقررت أن آخذه معي إلى الفندق.

وفي الفندق أعطيته للسيدة الزنجية العجوز ونظرت إليه باحتقار ضايقني فقلت لها :إن هذا بالطو أثري جدًّا ..لقد كان هدية من إمبراطور اليابان ..ومكتوب عليه أنه مصنوع في اليابان!

ويبدو أنها لم تتهوش من هذا الكلام ..فأخذت منها البالطو وألقيته على أحد المقاعد..

وانتهت حكاية البالطو الذي اشتريته من الهند، وهو صناعة يابانية ..وأخذته معي وأنا مسافر إلى أستراليا ..ونسيت أن أبيعه في أستراليا وأشتري بدلًا منه بالطو جديدًا ..وظللت أحمله على ساقي من أستراليا إلى أمريكا خوفًا من أن أضعه في إحدى الحقائب فتحاسبني شركات الطيران على وزنه ..وتكاليفه .وزنه يساوي ثمنه عدة مرات!

ومن نافذتي نظرت إلى شوارع مدينة واشنطن ..إنها هادئة ..والبيوت فيها على الطراز الإنجليزي القديم ..وهي شبيهة بمدينة كانبرا بأستراليا ..والشوارع فيها أهدأ ..والأضواء فيها خافتة ..والألوان باهتة ..كأنها ليست أمريكية..

وأحسست أنني أعطيت لعيني إجازة..

وفجأة »لعلعت «الدنيا مرة واحدة..

وعلى فكرة كلمة »لعلعت «مأخوذة من كلمة »اللعل «وهو نوع من الياقوت الأحمر ..والأنوار كانت حمراء ..وعلى درجات ..وبأحجام مختلفة ..وسألت عامل التليفون عن مصدر النور الذي أضاء كل المنطقة فجأة..

وبسرعة مجنونة قال لي عامل التليفون :إنها حريقة..

وقبل أن أقفل السكة سمعته يقول :هنا ..الحريقة هنا ..وفتحت النافذة وألقيت البالطو..

وحملت حقائبي التي كانت مقفلة ..وتركت أمواس الحلاقة والصابون وزوجًا من الأحذية ونزلت السلالم بأقصى سرعة..

وفي الشارع، وأمام الفندق وجدت الجرسون في انتظاري ومعه الفاتورة والدموع في عينيه ومعه بالطو ..ولحسن الحظ أنه بالطو آخر!

* * *

درس في الكراهية!

منظر نيويورك من الجو لا يمكن أن تنساه..

فكلمة نيويورك لها معنى خاص للذي لم يرها بنفسه ..وإنما رآها فقط في السينما ..فهي مركز القارة الأمريكية ..مركز الذهب ..وفيها خمسة ملايين يهودي ..وهي مدينة ..عليها عفريت ..ألف عفريت ..وهؤلاء الناس المجانين هم الذين يتحكمون في العالم كله.

وهذه البيوت العالية ..التي تنطح السحاب ..سواء كان السحاب موجودًا أو غير موجود ..عبارة عن أشجار من حديد وصلب في غابة مخيفة اسمها نيويورك ..غابة يأكل فيها الإنسان الصغير جدًّا ملايين الناس في أي مكان بجرة قلم أو بجرة قدم ..أو غمزة عين ..هنا أناس يتحكمون في ملايين الناس في أركان العالم الأربعة ..هنا الناس الذين يتاجرون في الحروب ويتاجرون في السلام ..هنا أناس صناعتهم الكراهية ..إنهم يصدرون الكراهية لكل مكان ومجانًا ..إنهم لا يريدون للإنسان أن يهدأ، إنهم يريدون للإنسان أن يموت محاربًا ويعيش محاربًا.

لأن الحرب معناها صناعة الأسلحة وترويج الأدوية ..واضطراب الأعصاب يؤدي إلى أن يضغط إنسان على زرار في طائرة لتنفجر قنبلة خطأ وتقوم الحرب .وفي أثناء الحروب يبيعون ويشترون من أي مكان ..ومن أي طريق..

اليهود يحكمون نيويورك ونيويورك تحكم أمريكا وأمريكا تحكم الدنيا ..اليهود لا وطن لهم إلا أخيرًا ..ولذلك يريدون أن يهدموا كل وطن ..وكل قومية ..وهم حاقدون على أي دين وأي جنس ..وهم الذين يملكون الفلوس وأجهزة الإعلام في أمريكا..

منظر نيويورك من الجو عبارة عن سهام مرفوعة ..عبارة عن صواريخ منصوبة إلى أعلى ..إنها شيء يخيفك ولكنك إذا أحسست أنك لا تستطيع أن تحبه، فأنا أهنئك لأن هذا هو إحساس صادق ..فحتى عندما تنزل من الطائرة لا تستطيع أن تحب هذه المدينة ..إنها تتحداك ..إنها تحتقرك ..إنها لا تدري بك ..لا هي ولا سكانها ولا أحد فيها يدري بأحد..

المطار الذي اسمه الآن مطار كيندي، وكان اسمه إيدل وايلد، هو من أكبر مطارات الدنيا وأكثرها ازدحامًا ونظامًا ..ومن الممكن أن تضيع فيه بسهولة، ولا يهتدي إليك أحد ..ولا تهتدي أنت إلى أحد..

لم يكن من السهل أن أجد فندقًا، فالفنادق هنا مرتفعة الأسعار جدًّا .والحياة من نار، والنار إذا أراد إنسان أن يشعلها في نفسه فإن هذا يكلفه الكثير جدًّا ..يكلفه أولًا ثمن النار، ويكلفه غرامة لإزعاج الناس ..ويكلفه تهديدًا بإحراق فندق من مائة دور، وهذه الغرامة يجب أن تدفعها لإحدى شركات التأمين ..وقد تكون محاولة الانتحار هذه معناها الهرب من التاكسي الذي نقلك من المطار إلى الفندق..

كل شيء هنا غال جدًّا ..ومع ذلك فالحياة أرخص من الموت!

وحمدت الله أن استضافني أحد الأصدقاء..

بيته صغير جدًّا .ولحسن الحظ كان على خلاف مع زوجته .فأنا الآن سأنام في سريرها .وتركت له ولديها الاثنين .ويكفي أن أنام في بيت هذا الصديق لأوفر عشرين جنيهًا في اليوم الواحد على الأقل..

أما الطعام الذي كنت أتناوله فهو ولا شك فضل منه وكرم..

في الصباح نتناول الشاي مع اللبن والبليلة..

وفي الظهر كذلك مع البطاطس الجافة..

وفي الليل بلا بطاطس ولا بليلة .وهي ولا شك غالية التكاليف ..ويستحق هذا الصديق على كل هذه الوجبات الكثيرة كل الشكر وكل الاحترام والامتنان، وبعملية حسابية وجدت أنني في عشرة أيام في نيويورك قد كلفت صديقي هذا حوالي 20جنيهًا ووفر لي هو أكثر من 300جنيه ..نعم مائة جنيه مضروبة في ثلاثة!

حتى لو كان السرير الذي أنام عليه ليس مريحًا ..وأن بعض ألواح السرير مكسرة مما يقطع بأن العلاقات بين الزوجين في الأيام الأخيرة لم تكن على ما يرام، يشهد بذلك بعض ضربات على جانبي وجه صديقي هذا، لكن هذا السرير الرخيص المجاني يساوي أفخر جناح في فندق والدروف استوريا الذي أعجبت به جدًّا، عندما مررت به صاعدًا هابطًا أحيي الجرسونات كأنني أعرفهم أو كأنهم يعرفونني بسبب تحياتي الطويلة والتي عدلت عنها لأسباب اقتصادية ..ولكثرة وجود سعوديين وكويتيين في الفندق في تلك الأيام!

شوارع نيويورك متشابهة ..وكلها متقاطعة ..ولها أرقام ..والمشي فيها ليس متعة ..وركوب السيارة ليس متعة ..ولا توجد بها أية متعة على الإطلاق .وربما كانت المتعة الوحيدة هي أن تدخل المحلات، وتتفرج .وهنا تشعر بألم خفيف في أعلى الصدر إذا لم تكن تفهم في الطب فهو على كل حال من أعراض وجع القلب .وهذا الوجع سببه الحسرات التي تشيلك وتهدك لأنك مفلس في نيويورك، مفلس في مركز ملايين الملايين.

ولا بد أن تبقى في نيويورك بضعة أيام لتعرف أنك لن تتحسر طويلاً .كل شيء موجود وبأسعار معقولة ..ففي المحلات الكبيرة جدًّا توجد بضائع قديمة ..بضائع فيها عيوب ..فستان فيه ثقب في حجم هذه النقط ..أو بالطو من غير زراير .أو جزم بها خربشة قطة ..أو كرافتة سقطت عليها سيجارة ..أو بدلة بها بقعة لا تخرج بسهولة..

وأنا أنصحك إذا ذهبت إلى نيويورك واشتريت بعض هذه السلع، فلا تشتر الكثير منها فربما تقع على الأرض وتتزحلق ..ولو وقعت فلن تمتد لك يد واحدة ..تمامًا كما يفعل بعض حكام كرة القدم عندما يسقط اللاعب في منطقة الجزاء حتى يحتسبها الحكم ضربة جزاء ..فهم في نيويورك مشغولون بشيء أهم منك .ولا يمكن أن تكون أنت، أيًّا ما كنت، أهم من الفلوس، والنظر إليك وسؤالك عن صحتك وعن الذي أصابك تضييع للوقت الذي هو من ذهب!

سمعت هنا عن سيدة حامل وقعت على الأرض على أثر دوخة أصابتها فلم تمتد لها يد، ومعظم الأرجل كادت تمتد لها وتصطدم بها لأنها تعترض الطريق العام .ولكن طفلًا صغيرًا لم يتحول بعد إلى مواطن نيويوركي أصيل، وقف إلى جوارها ولفت نظر الناس لها .ومضى الناس في طريقهم ..وتساندت على الجدران ووقفت ..وتلفتت لتشكر الطفل فوجدته يمسح دمعة على خده .إن أم هذا الطفل قد عاجلته بصفعة شديدة لأنه تركها وانصرف عنها بسبب شيء تافه!

وأنا أصدق هذه الحادثة..

وكل يوم أجد طعم نيويورك مرًّا على شفتي..

وأحس بما أصاب أوسكار وايلد عندما دخل ميناء نيويورك وسألوه :هل معك شيء ممنوع؟ فقال :عبقريتي!

والشيء الممنوع الذي أحسست به هو إنسانيتي ..أي مجرد أنني إنسان .لا يمكن أن تحس بأنك إنسان ..وإنما تحس هنا بأنك إنسان في طريقه إلى النهاية ..بأنك مهدد في إنسانيتك ..بأن واحدًا من هؤلاء الملايين قد اقترب

منك ونشل منك إنسانيتك ..ولكي يقلد أرسين لوبين ترك لك بطاقة ..وهذه البطاقة تضعها في مخك وأنت تمشي كأنك نائم ..ومكتوب على هذه البطاقة :عش في قرف!

هذا القرف جعلني أكره نيويورك..

وأحتقر جوها وأهلها ..مع أنني لا أعرف واحدًا منهم ..وإنما جوها هو الذي جعلني أكثر قرفًا وسخطًا وأتمنى أن أمسك ورقة وقلمًا وألعن الأيام التي حملتني إلى مدينة كلها تصدك ..كلها تردك ..كلها تصفعك ..جدرانها حديد وشوارعها حديد وأهلها صلب ..باردة جامدة ..إنها تنحيك عنها ..إنها لا تريدك أن تلمسها..

إن جوركي معذور عندما جاء إلى نيويورك وخرج منها بقصة واحدة اسمها »الأم «هي عبارة عن منشور ثوري ضد الرأسمالية!

وأحسست بما أحس به بطل مسرحية »القرد الكثيف الشعر «للكاتب الأمريكي أونيل .إن بطل هذه المسرحية نزل ميناء نيويورك ..كل شيء فيها لا يعبأ به ..كل شيء لا يريده ..كل شيء ليس في حاجة إليه ..كل شيء يبصقه كأنه نواة ..كأنه قشر لب ..كأنه مسمار في جزمة ..كأنه ذباب ..مع أنه شيء ..مع أنه هو الذي صنع نيويورك ..فهو الذي يعمل في السفن ..وهو الذي يضع الفحم في الفرن.

والفرن يطلق البخار والبخار يدفع السفن بكل ما حملت ..فهو أسود كالفحم، وهو لزج كالزيت، وهو حديد كالآلات ..وهو صانع الآلات والتروس وهو الذي يعيش ويموت منبوذًا كأنه زنجي ..مع أنه أبيض ..ولكنه أبيض حقير ..فهو أبيض زنجي!

وكان بطل هذه المسرحية يدق الجدران بيديه ..ويدقها بنظراته أيضًا ..وتبقى نيويورك كما هي ..نوع من اللامبالاة شاهق ..نوع من عدم الاكتراث الذي ينطح السحاب.

وعندما أعود إلى البيت، أمسح عيني أمام قنوات التلفزيون وأتثاءب بين البرامج وأنام وأنا أحاول أن أتذكر أيامًا هادئة ناعمة أمضيتها في مدينة هوليوود وأنا أتحسر على أيام جزر هاواي!

الليلة كانت رأس السنة..

كل شيء يدل على أن حادثًا غريبًا سيقع ..العرب يتحدثون عن الفول المدمس والملوخية والكشك والطعمية ..وهي أطعمة لا يأكلها الإنسان عادة بهذه الكثرة إلا إذا سافر خارج القاهرة .فالجاليات العربية تقدمها على أنها أغلى ما عندها!

وإمعانًا في المجاملة كنت أجد لها طعمًا مختلفًا عن طعمها في القاهرة .وأتهم ذاكرتي .وأقول إنها هنا مختلفة .وإنها في القاهرة شيء آخر ..والحقيقة أنها في القاهرة أحسن لأن سيدات السلك الدبلوماسي لا يعرفن الطبخ .ونظرًا لصعوبة نقل هذه الأطعمة مطبوخة في الحقائب الدبلوماسية فلا بد أن يقمن بطبخها، والمجاملة وحدها هي التي تتولى بلع الظلط الصغير الذي يقرقش في الطعمية وذرات الرمل التي هي عبارة عن جثث سوس مات في الفول.

وهناك حركة غير عادية في المترو تحت الأرض..

والمترو في نيويورك هنا شيء مزعج ..فهو سريع جدًّا وله ضوضاء شديدة ..والناس ينزلون في صمت ويصعدون في صمت ..وعلى وجوههم كآبة قائمة أو نائمة ..ويبدو أنهم بدءوا يوقظون هذه الكآبة استعدادًا لقبلة رأس السنة.

وقبل موعد هذه القبلة بنصف ساعة كنت أقف أمام »راديو سيتي «أعظم معالم نيويورك ..وعلى رأسي طرطور وفي يدي مزمار وفي فمي بعض اللبان الذي جعلني أشعر بشيء من »الأمركة ..«وكأي عبيط أزمر وأنفخ حتى لا أبدو شاذًا بين الناس أو غير مهتم بنهاية عام وبداية عام آخر..

ولاحظت أنه من الممكن أن يشعر الإنسان بأنه سخيف جدًا، ومع ذلك لايستطيع أن يمنع نفسه من الاستمرار في هذه السخافة ..وزمرت سخافتي، وصفقت سخافتي، وفي لحظات صرت من أصحاب السخافة ..ومعي مائة ألف نسمة في هذا الميدان!

ولا أعرف كم مضى من الوقت ..وأنا على هذه الحال ..ونسيت تعبي ..واقتربت من أحد أعمدة النور أو التليفون ..عمود والسلام ..وركنت ظهري لأستريح ..وكأن للعمود أصابع ناعمة امتدت واحتضنتني ..وقلت في نفسي :يجوز ..فنحن في بلاد العجائب..

واستدرت لأرى إن كان هذا صحيحًا..

وهنا اكتشفت أن البالطو الجميل الذي اشتريته من أيام قد التصق بالعمود التصاقًا تامًّا ..ولا ينقص البالطو والعمود إلا قسيس يعلن زواجهما وارتباطهما إلى نهاية الحياة!

وعلى العمود مكتوب أن هذا العمود مخصص لإعلانات شركة مش عارف إيه الخاصة بالصباغة والصمغ ..وأن أي إنسان يصاب بضرر فالشركة -مع الأسف له والشكر له أيضًا -على استعداد لدفع التكاليف!

وتعاونت أنا وأربعة ونزعنا البالطو ..وبعد أن ترك أحد جيوبه كذكرى لعناق بالإكراه في ليلة رأس السنة..

ولم يختلف أهل نيويورك عن أهل أي بلد في الدنيا في ليلة رأس السنة، إلا في أن أهل نيويورك يفتعلون الإنسانية ..ويفتعلون الطفولة ..في حين أنهم في أي بلد آخر -حتى في أمريكا -أناس عاديون بلا افتعال ..وبلا محاولة كاذبة لكي يتذكروا أنهم كانوا بشرًا في قرن من القرون!

وفي نيويورك حي اسمه »قرية جيرنيتش..«

وهي أخذت الاسم طبعًا من مدينة صغيرة بالقرب من لندن اسمها جيرنيتش وهي التي تقع على خط طول :صفر ..والعالم كله يضبط ساعاته على توقيت هذه المدينة التي عدد سكانها تسعون ألفًا ولها عضو في البرلمان وبها مصانع وبها متحف القائد نلسون، إنني أتكلم عن جيرنيتش الأصلية!

أما هذه الجيرنيتش أو هذه القرية فهي شيء آخر..

فالأمريكان يحاولون أن يقلدوا الحي اللاتيني في باريس..

ففيها زرائب تحولت إلى بارات ومطاعم تحت الأرض ..وإصطبلات للخيول تحولت بفضل الإضاءة الحالمة إلى جنات تجري من تحتها أنهار البيرة والويسكي ..ومعظم هذه الأماكن يقف فيها الناس ..فلا مكان لإنسان يحاول أن يجلس ..فهو يشرب وهو واقف، ويأكل وهو واقف، ويدفع وهو واقف ..ويخرج من غير مطرود إلى مكان آخر ليحجز له موطئًا لقدم ..لقدم واحدة طبعًا .لأنه بعد هذا التعب لا يمكن أن يقف على قدم إلا ليرفعها ويقف على القدم الأخرى ويجد نفسه طول الليل في هذا الوضع الغريب، ويقف كالإوزة، ويشرب البيرة كأنه سمكة، ويترنح كأي مسطول، ويدفع كأي قروي من أقاصي الريف المصري!

وإذا حاول أن يتظاهر بفقدان الوعي، فهناك فتوات في استطاعتهم أن يردوه إلى وعيه ..بعدة طرق :بأن يضربوه حتى يفيق ..وبأن يلطشوا المحفظة ..أو ينزعوا ملابسه ..وبخبرة السماسرة يقدرون بالضبط كم تساوي ملابسه

الخارجية والداخلية ..وجواز السفر أو البطاقة الشخصية ..أو يسلموه لرجال البوليس .وهذا لا يعفيه من دفع التكاليف نقدًا أو حبسًا!

ولاحظت أنهم يطيلون شعر اللحية ..والشارب ..وأنهم يرتدون بنطلونات مقلوبة ..وأن بعضهم يرتدي قمصانًا سوداء ..أو بيضاء ..وهذا شيء غريب ..لأن الأمريكاني العادي أو الأمريكي الوجودي يلبس القميص السادة .ولا يحمل في يده ساعة ..ولا في جيبه ورقة ولا قلمًا ولا مفتاحًا للبيت ولا نوتة بها أرقام تليفونات ولا في جيبه فلوس ..لأن الأمريكي العادي يحمل في جيبه شيكات مضمونة من أحد البنوك وبذلك يكون قادرًا على تناول الطعام في أي مطعم!

سألني واحد من هؤلاء الأمريكان ذوي القمصان السادة :هل رأيت باريس؟

فقلت :عدة مرات..

وسألني :هل هذه القرية شبيهة بها؟

قلت :بصراحة لا..

قال :كثير من الفرنسيين يؤكدون هذا الشبه..

فأفهمته أنهم يقصدون الشبه الموجود بينه وبين شباب الحي اللاتيني!

فأخرج من جيبه نصف سيجارة وابتلعها أيضًا ..وشرب وراءها وسألته :ماذا فعلت؟

فقال :ابتلعت بعض الدخان الذي لم يحترق بعد!

وسألني إن كانوا في باريس يفعلون مثله.

فقلت :في نيويورك فقط!

وضحك وأخفى وجهه في كوب كبير، شربه وانهار ..وقبل أن يلمس الأرض امتدت أربع أذرع قوية وحملته وأسندته ليكمل الشراب .وأكمله واختفى مع الأذرع الأربع .وجاء شاب آخر بقميص أسود ..في جيوبه كتب وقصاصات من الصحف وبعض الصور ..وعلى خده شفاه حمراء وفي وجنتيه ..وفي صدره وعلى قميصه الأبيض..

وسألني إن كنت أريد بعض هذه الشفاه .فلم أفهم السؤال .أو حاولت أن أبدو كأنني أريد مزيدًا من المعلومات ..فأخرج من جيبه ورقًا مطبوعًا عليه بعض الشفاه ..وألصق هذه الأوراق على وجهه المبلل بالعرق ..فانطبعت هذه القبلات!

فقلت له :ولكن كل الناس يعرفون أن هذه قبلات صحفية ..قبلات ورق جرائد !فهز كتفيه بعدم اكتراث.

وسألته إن كان سبب ذلك هو أنه لا يهمه الناس أو أنه لا يجد فتاة في هذه الليلة السعيدة ..فقال عبارات فهمت منها أنه يفعل ما يعجبه ولا يهمه الناس..

ثم مد يده وأخرج قبلات سوداء وألصقها بوجهي..

وذهبت إلى زريبة أخرى في هذه القرية التي بيوتها تصل إلى عشرة أدوار وعشرين دورًا ..وهي طبعًا بالنسبة لناطحات السحاب تعتبر أكشاكًا صغيرة، فمدخلها لا بأس به ..ستائر حمراء ..وأضواء حمراء ..وكل شيء فيها تحول إلى لون الدم ..حتى الأحجار كأنها دماء جفت ..أو قلوب انخلعت وكادت تقع لولا خوفها أن تسقط على الزجاجات المكسورة التي في أيدي الزبائن .الأكواب كلها مكسورة عن عمد ..ولها أطراف مدببة ..والناس يشربون من خراطيم من الجلد..

أوضح لك هذه العبارة مرة أخرى :الناس هنا ارتدوا الچاكتات بالمقلوب .واضح هذا .والچاكتات مزررة أيضًا .والبنطلونات واسعة جدًّا والشعر منكوش ..والخراطيم تشبه »اللي «الموجودة في الشيشة ..أما الأكواب فكلها مكسورة أو مشروخة ..وزجاجات البيرة لا يفتحونها وإنما يكسرونها في الحائط ..فيكون لانفجارها دوي ..وما تبقى من الزجاجة يضعونه في الأكواب المكسورة ويشربونها.

وليس من العقل أن تسأل مجنونًا عن الحكمة وراء هذا الجنون فلو كان يعرف الحكمة لاختار شيئًا آخر .ولكنه لا يعرف .ولا يريد أن يعرف وليس من الضروري أن أعرف .فإما أن يعجبني، أو أذهب إلى أي مكان آخر ..ولن يدري بي أحد، داخلاً، أو خارجًا، مندهشًا أو معجبًا!

وقبل أن أستقر على رأي ..انفجرت زجاجة ودخل خرطوم في فمي، وسالت البيرة على ملابسي، وتقدمت فتاة شبه عارية تطالبني بالحساب .وحارت يدي بين الخرطوم وبين بقايا الزجاجة ..ويصطدم بي أحد السكارى فيسقط الكوب والزجاجة والخرطوم ..وتظهر فتاة أخرى معها خرطوم آخر ..والخراطيم هنا من الورق ويغيرونها مع كل كوب وكل زجاجة ..سواء كانت زجاجة كوكا ..أو زجاجة عصير ..أو زجاجة بيرة ..وطلبت من الجرسونة المصبوغة بلون الدم، كأنها دجاجة في أحد المطاعم الهندية، أن تقف إلى جوار الحائط حتى لا أصطدم بأحد ..وحتى أتمكن من دفع الحساب أولًا بأول ..وهنا اصطدمت بي الجرسونة نفسها .أين شهامتي؟ !أين رجولتي؟ !لا يمكن أن أبدي أي ضيق أو أي قرف ..بل هذا شرف عظيم ..ليتها تفعل ذلك مرة أخرى ..واعتذرت الفتاة واعتذرت أنا لاضطرارها لأن تعتذر عن عمل غير مقصود، وحتى لو كان مقصودًا فهي مداعبة لطيفة ..ولا شك أن قدمي في حاجة إلى أي سائل بارد يدخل فيهما ليخفف من حرارة المشي والوقوف!

وفي المرة الرابعة عندما حاولت أن أخفي ضيقي الشديد كسرت الزجاجة بشكل غير فني ..فسقطت كلها على الأرض!

وخرجت أبحث فعلًا عن زريبة حقيقية .فلا يمكن أن تصدر عن إنسان هذه التصرفات كلها، ولا يستحق في آخر الليل أن يتعلق من حبل والحبل في وتد والوتد في زريبة والزريبة في نيويورك!

وكأنني أريد أن أعفي نفسي من هذه المحنة، دخلت أحد المطاعم وأكلت بعض السبانخ المسلوقة، وهي أقرب الأطعمة شبهًا بالبرسيم!

والأمريكان في الحقيقة عندهم كل شيء يتمناه أي إنسان ..إلا شيئًا واحدًا :الإحساس بالحياة!

إن هذه القرية في حاجة إلى ألف سنة لتكون في قذارة وبدائية وظلام وبساطة الحي اللاتيني في باريس ..أين الموسيقى ..أين الرقص ..أين النعومة ..أين الهمس ..أين اللمس ..أين الكلام الحلو الذي تسمعه من فتاة مسحورة بك أو بغيرك ..أين الغناء الذي يتردد من حنجرة ذات حشرجة بفعل السجائر والسوائل الباردة والملابس الشفافة ..أين الآه ..والليل والعين ..تسمعها من عربي سعيد مع فتاة سعيدة في كل ركن من أركان باريس ..أين عشرات الأيدي ملفوفة في حنان حقيقي ..لا حنان سينمائيًّا في سان ميشيل ..وسان جرمان دبري ..وفي مقاهي الفوكيه والديبون ودي فلور ..ودي لابيه ..إلى آخر الأسماء الساحرة في باريس ..أين الليل الذي تنتشر سحبه القاتمة ..فوق أبراج الكنائس وأقواس النصر، والطيور ترفرف كأنها مناديل حريرية ..أو كأنها أعلام نصر؟ !إن انتصار الإنسان على حياته الآلية يستحق التكريم ..إنهم في باريس أناس أولاد ناس ..لهم قلوب ..كلهم

قلوب ..ولكنهم في أمريكا ..لا أحد يعرف إن كانوا من الناس ..لا أحد يعرف إن كانوا عندما هاجروا من أوربا قد نزعوا قلوبهم ورموها في البحر!

لا أعرف ماذا حدث..

إن المقارنة بين أمريكا وأوربا صعبة ..بين بلاد بلا حضارة، وبلاد الحضارة العميقة، مقارنة ظالمة لأمريكا..

والمقارنة بين »عشش الترجمان «الأمريكية هذه وبين الحي اللاتيني في باريس، إهانة لباريس كلها..

وعشش الترجمان هي أحد الأحياء المهدمة في القاهرة، والمرشحة للاختفاء قريبًا جدًّا، أو هكذا أتمنى!

* * *

وأنا أقفل باب غرفتي ..أقفلت فمي على هذه العبارة :عندهم فلوس ..ولكن ليس عندهم ذوق!

فالذوق هناك على الجانب الآخر من المحيط!

* * *

قبلة في النهاية!

اليوم أول يناير سنة ..1960

وكل الناس ينصحونني بالبقاء بضعة أيام، إذا كان في نيتي أن أشتري شيئًا لأن كل هدايا عيد الميلاد يعيدها الأمريكان بنصف السعر إلى المحلات ..فكل إنسان أهداك شيئًا، لست في حاجة إليه تذهب ببساطة جدًّا وتبيعه .ومن الممكن أن تبيعه للشخص الذي أهداه لك إذا كان هذا الشخص صاحب محل!

ولا شيء يدل على أننا في بداية عام جديد ..ربما كان عدد الناس في الشوارع أقل ..وربما كانت وجوههم أكثر اصفرارًا ..أما الأوراق والطراطير والزمامير والأحذية والبرانيط الموجودة في الشوارع .فسوف تبقى يومًا آخر ..لأن الكناسين في إجازة أيضًا ..إنهم بشر أو على الأقل في هذا اليوم!

ولم أشغل نفسي بموضوع الكناسين .وإنما اتجهت إلى أحد مكاتب الطيران .أريد أن أحجز مكانًا إلى روما .واندفعت داخل مكتب شركة الطيران أحاول أن أسبق أحدًا إلى حجز مكاني .وبعد لحظات عرفت أن الذين سيعبرون الأطلنطي من أمريكا إلى أوربا قليلون جدًّا .وربما يسعدني الحظ فأكون المسافر الوحيد .وكيف يكون شعوري عندما تقوم الطائرة من مطار نيويورك وليس فيها إلا أنا، ثم عندما تهبط في مانشستر بإنجلترا ويرتفع السلم وينفتح الباب وأنزل وحدي..

الفكرة غريبة ولكنها مخيفة أن أعبر الأطلنطي ليلًا في طائرة ليست نفاثة وأكون أنا المسافر الوحيد!

لم تعجبني الفكرة وكدت أتراجع في حجز تذكرة وفي نيتي أن أذهب إلى شركة طيران أخرى ..وخشيت إن أنا عدت إليها بعد لحظات ألا أجد لي مكانًا .واستسلمت ..فلم أجد فكرة أخرى وحجزت مكانًا.

وفي المطار وجدت اثنين آخرين مسافرين على نفس الطائرة ..ثلاثة مسافرون إلى أوربا ليلاً .وفي طائرة تتسع لمائة راكب !وشعرت بشيء من الخوف ..أو بكثير جدًّا من الخوف ..فهذه أول مرة أعبر فيها الأطلنطي .وقد لاحظت أن رياحًا باردة كانت تهب على المطار .وأن إحدى الطائرات قد اصطدمت بطائرة أخرى في المطار بسبب الضباب واتجاه الريح..

ولا بد أن هذه الطائرة ستكون ورقة أو ريشة في قلب العاصفة التي فوق الأطلنطي في هذه الليلة..

وإذا سألت الطيار فسوف يؤكد لي أن الجو معتدل ..وأن الارتفاع سيكون عشرين ألف
قدم ..والسرعة 500كيلو ..والطائرة في أحسن حالة، وكل هيئة قيادة الطائرة في خدمة الركاب ..وفي انتظار أية إشارة منهم!

وهي عبارات لطيفة تقال في كل الظروف ..ولو احترقت الطائرة لاقتربت المضيفة تعلن أن الطائرة تسقط في غاية الهدوء إلى قاع المحيط!

واستسلمت وحشرت نفسي في المقعد ونظرت من النافذة إلى الظلام الذي يفرز وهجًا مخيفًا يخرج من محركات الطائرة ومن ماسورة العادم ..وهو منظر لا يراه المسافرون إلا في الليل!

ولا أعرف إن كانت هذه عاصفة، تلك التي تهز الطائرة بعنف وهي تبرح الأراضي الأمريكية ..على كل حال يجب ألا أهتم كثيرًا، فلا تزال الرحلة طويلة جدًّا .وقد قرر المسافران الآخران اختصار هذه الرحلة، بأن تمددا وسحب كل واحد منهما بطانية على رجليه، وبسرعة غريبة في وقت واحد، أخذ كل منهما يصدر الصوت المعروف لأي إنسان مستغرق في النوم وعنده بعض الزكام.

وصحوت من نومي على ضوء النهار ..وعلى إحساس بتجمد أطراف يدي ورجلي ..وعلى الرغم من أنني ارتديت جوربًا فوق حذائي ..وعلى الرغم من أنني لففت ثلاث بطاطين حولي ..وعندما طلع النهار كانت روحي قد رجعت لي ..ولم أر ما الذي أفعله بهذه الروح بعد أن عادت إلى جسمي .أول شيء فعلته هو أنني جعلت أنبه يدي النائمة ..ورجلي أيضًا .وشعرت بالعطش والجوع والأمان ..وبرغبة شديدة في استئناف الحياة التي استولى عليها الظلام والخوف والعواصف فوق المحيط..

وكانت السحب تحت الطائرة ..وفوقها أيضًا.

فلا نزال على مسافة طويلة من الجزر البريطانية .وتقدمت المضيفة وبالابتسامة التي تراها على شفتي إحدى الممرضات وهي تداعب طفلًا صغيرًا قالت لي :ما الذي أستطيع أن أقدمه لك؟

قلت ضاحكًا :قطعة أرض!

فضحكت وقالت :إن الأرض قريبة جدًّا ..بعد كوب من الشاي وسندوتش وفنجان قهوة وثلاث صفحات في هذه المجلة نصل إلى مطار مانشستر.

وجاء الشاي والسندوتش ..وشربت القهوة وتصفحت المجلة ..ومجلة أخرى ..وشربت شايًا وقهوة ومجلة وكتابًا ..وأضيئت الطائرة وممنوع التدخين واربط الحزام ..استعدادًا للهبوط.

وبعد عشر ساعات من الطيران فوق الأطلنطي، هبطت الطائرة إلى أرض إنجلترا ..وكانت السماء صافية ..شيء غريب ..والشمس طالعة ..شيء غريب جدًّا ..والجو دافئ ..والناس في دهشة رزينة..

وهذه هي المرة الرابعة التي أسافر فيها إلى الجزر البريطانية..

وفي مطعم المطار، رأيت الوجوه الوقورة، والملامح الهادئة، والابتسامات المتزنة، واللغة الإنجليزية الأصلية .وكأنني أعرف الجرسون، وكأنني أريد منه أن يكرر كلمة :سيدي.

طلبت منه شايًا ..أية كمية من الشاي ..فهذه بلاد الشاي ..وطلبت منه أي فاكهة وأي سندوتش..

ولاحظ الرجل لهفتي على الشاي وعلى الطعام..

وسألني إن كانت الرحلة مرهقة عبر الأطلنطي ..فأشرت إليه بأنها كانت كذلك .وقلت هذه العبارة بصوت منخفض حتى لا يسمعها أحد الطيارين؛ لأن الرحلة لم تكن متعبة بالمرة .إنما أنا أحاول أن أبرر تعطشي للشاي.

وبعد لحظات جاء الجرسون ومعه الشاي ومعه سلة فاكهة ومعه سيدة تقول لي :صباح الخير، والحمد لله على السلامة..

وانتشيت من هذه الكلمات وأحسست أنني في أوربا ..أنني قريب من أسعد أيام حياتي ..ففي هذه الجزر العريقة أحسست لأول مرة في حياتي عندما زرتها؛ ما معنى أن تكون للإنسان شخصية مستقلة، فالرجل الإنجليزي العادي جدًّا له رأي .وله موقف ..وهو حريص على حريته ..ولكنهم -كشعب -حريصون أيضًا على أن يعيشوا على حساب حريات الشعوب الأخرى!

ولكن الإنجليز يفهمون في الحياة .ويفهمون في السياسة؛ ولذلك لهم أدب عظيم؛ لأنه قائم على الفهم السليم العميق للحياة الإنسانية ..ولو كانت هذه السيدة التي جاءت مع الجرسون كبيرة في السن قليلًا لنهضت وقبلتها .وكأنني أقبل أوربا كلها ..أقبل فيها باريس وروما ومدريد وبرلين وفيينا وأثينا وكوبنهاجن وبروكسل واستكهولم ..أقبل فيها الحضارة العريقة..

ولكنها -مع الأسف -كانت شابة صغيرة.

وليس من الأدب ولا من الفلسفة أن أنهض بكامل قواي العقلية، وأصاب بالجنون عند أول قطعة أرض في أوربا وفي الساعة المبكرة من الصباح.

واكتفيت بنية أن أقبلها ..وقبلتها في سري..

وعدت إلى الطائرة أحسن حالًا وأهدأ بالاً ..وأكثر اطمئنانًا على نفسي ..فبعد ساعة نصل إلى مطار بروكسل ببلچيكا..

وكان الجو دافئًا فالطائرة تتجه إلى الجنوب..

وكانت السحب منخفضة ولكنها ممزقة..

ونزلت الطائرة إلى بروكسل ..وهذه هي المرة الثالثة التي ألمس فيها الأرض البلچيكية ..وكانت في المطار بقايا مطر ..وتغيرت معالم الوجوه .وتغير اللسان أيضًا .إنهم هنا يتكلمون الفرنسية إلى جانب اللغة الفلمنكية .يتكلمون الفرنسية بلهجة خاصة وبتغيير في نطق بعض الحروف..

وفي بروكسل أنت على مسافة دقائق من باريس..

ومن بروكسل سافرت إلى چنيف، وهذه هي المرة العشرون التي أعبر فيها جبال الألب ..من الشمال إلى الجنوب ..ومن الجنوب إلى الشمال ..وهذه هي المرة السادسة التي ألمس فيها الأراضي السويسرية ..ومن الطائرة بدت الجبال مغطاة بالجليد ..كانت أقرب ما تكون إلى سقف من الحرير الأبيض ..ولاحظت أن الأوربيين ينظرون إلى الثلج بلهفة ..كما ينظر الإنسان إلى لوح ثلج في عز الصيف..

ومرت الطائرة على بحيرة چنيف ..ومن الطائرة لمحت جزيرة چان چاك روسو ..ولمحت الحديقة الإنجليزية ..وبحيرة چنيف وكازينو چنيف ..والجو المغسول النظيف ..والناس في دقة الساعات، وفي نظافة الصيني بعد غسيله .وسويسرا هي سقف القارة الأوربية ..إنها جافة وهواؤها منعش؛ له رائحة خاصة وطعم

خاص وملمس غريب على الخد ..وعلى الشفتين .هواؤها أنثوي .ولكن في صلابة وفي كبرياء .يلمس فقط، ويثير فقط .ولكنه يجعلك تشعر بالجوع .ويجعلك تتمنى أن تعيش هنا إلى الأبد ..والأبد هذه كلمة ليس لها معنى إلا في سويسرا .فكل شيء على ما هو عليه من مئات السنين ..لا شيء يتغير .فهم هنا لا يعرفون الخوف، إنهم لا يخافون الحرب، فهم على الحياد .ولا يخافون الفقر، فكل فلوس الدنيا عندهم .ولا يخافون المرض، فبلادهم هي مصحة البشرية ..إنهم شعب لا يعرف الخوف من الموت!

ومن عشرات من تفاحات الخدود، واللولي بين الشفاه، والذهب المنثور تحت البيريهات الزرقاء والرمادية، والقطن المصري على شكل بلوزات محشوة بالورد، ومن رنة أوتار صوتية ناعمة جدًّا ..ومن طرقعات الأحذية على أرض المطار الجليدي .ومن نشوة الهواء والصحة والراحة ..من هذا كله استأذنت وسحبت نفسي وصعدت الطائرة المتجهة إلى روما!

ولم أشأ في الطائرة أن أنظر من النافذة ..أو أطلب شرابًا أو طعامًا ..ولم أنظر إلى وجه كأنني أريد أن أدخر كل قواي من أجل روما ..أريد أن أغسل أذني وشفتي وعيني ..ونفسي وقلبي وعقلي ..أن أولد من جديد ..ففي روما ولد الكثير من الأشياء السعيدة في حياتي..

وفي روما عرفت الشوق واللهفة وعرفت الألم والفراق ..وعرفت كل ما حرك جوانبي وكل ما أنار عقلي .وعرفت معنى الجاذبية الأرضية وعرفت معنى انعدام الوزن قبل أن يعرفه رواد الفضاء .وعرفت معنى كل شيء له معنى.

كل شيء محبوس في داخلي..

كل شيء يتفجر في أذني وفي عيني..

كل شيء يريد أن يمزقني..

لا أعرف ما الذي أفعله عندما أهبط في مطار روما ..إنني أتخيل الوجوه ..بل أعرفها ..إنني أتخيل الطريق ..أي طريق، فكل الطرق عرفتها ..كل الشوارع ..كل المطاعم ..كل الفنادق ..كل التماثيل ..كل النافورات هنا ..وهنا ..وهناك ..وفوق ..وتحت.

هنا في مطار روما ..وهنا في محطة روما ..وفي شارع فنيتو ..وفي شارع الكورسو ..وفي ميدان البندقية ..وفي ميدان الشعب ..وفي حديقة بورجيزة ..وفي ميدان ديوان المحاسبة ..وفي الكامبودوليو ..وفي البانثيون ..وفي مقهى الدوني..

وفي كل مكان من مدينة روما..

إنني أستطيع أن أمشي فيها مغمض العينين..

إن أذني تستطيع أن تدلني..

وأمشي فيها مغلق الأذنين أيضًا ..إن أنفي يعرف رائحة الزهر والشجر والماء ويعرف رائحة المكرونة والنبيذ والسمك..

إنني أستطيع أن أمشي نائمًا..

إن فرحتي يوم أن رأيت روما لأول مرة من عشرين عامًا لايمكن أن أصفها .وظللت هذه الأعوام أحاول أن أصفها ..ولكن لاتزال معانيها غامضة ..معانيها بعيدة عن متناول أفكاري ..عن متناول ألفاظي ..كأنها حريصة على أن أظل طول عمري أحاول وأحاول أن أقترب منها وتظل هي بعيدة عن العين، وليست بعيدة عن القلب..

وفي مطار روما ..رأيت الوجوه التي أعرفها ..أعرفها كلها ..أعرف هذه العيون العسلية ..أعرف هذه الوجوه السمراء ..أعرف هذه الشعور السوداء ..وهذه الأصوات العالية لا تضايقني ..وهذا القوام المشدود ..وهذه الأحذية السميكة وكلمات سي ..ونو ..كما تفعل بنات روما..

ويوم قرأت قصة »فتاة روما «لألبرتو مورافيا لأول مرة..

ومورافيا هو الرجل الذي قدمته لأول مرة باللغة العربية ولم يكن يعرفه أحد .وكتبت عنه أول مرة سنة 1947. وصارحته بذلك عندما قابلته في روما .وعندما قابلته في القاهرة وعندما قلت له رأيي في أدبه .وأسعدني بما قاله لي بعد ذلك ..يوم قرأت هذه القصة ويوم بكيت مع البطلة أدريانا ..لم تكن أدريانا تستحق البكاء .ولكن حياتها مؤلمة وبساطتها تبعث على الألم أيضًا .لقمة العيش مرة ..والبحث عن الطعام مر ..والحب مر..

والذكريات أكثر مرارة.

ومشيت في شوارع روما ..في نفس الحواري الضيقة ..وكنت أرى أدريانا في كل فتاة ..الفتاة التي خلفتها الحرب في إيطاليا وتركتها تتضور جوعًا .ولا تعرف كيف يمكن أن يكون الإنسان شريفًا وجائعًا في الوقت نفسه ..وحاولت أدريانا أن تقف بين الجوع والشرف ..هي وملايين من الرجال والنساء في أوربا بعد الحرب ..وراحت أدريانا ضحية هذه المعادلة الصعبة!

لا أعرف كم من المرات دخلت روما وكم من المرات خرجت منها ..ربما عشرين مرة ..ربما ثلاثين مرة ..ومن المؤكد أنني لم أخرج منها حتى الآن..

وهبطت من الطائرة إلى مطار روما !لأتمرغ بعيني في كل هذه الوجوه وكل هذه الصدور ..وكل هذه العيون..

فقد احتفظ أبناء وبنات إيطاليا بكل ما في بلادهم من جمال ..زرقة البحيرات وسمرة التربة وعلى صدورهن براكين فيزوف وسترومبولي ..كل هذا أعرفه ..كل هذا عرفته ..كل هذا اقتربت منه ..كل هذا عشته ..وبكيت له ..وبكيت منه ..وبكيت عليه.

وكأي مخمور نزل من الطائرة..

وكأي بطل حملوه على الأكتاف ..وهتفوا في أذنه ..وهو لا يدري.

وكأي ميت وضعوه في نعش العطر المميت والسحر القاتل..

وكأي جريح عائد من ميدان القتال إلى أهله ووطنه ..مع أن إيطاليا ليست أهلي ولا وطني ..ولكن الأيام ..الشهور ..السنوات السعيدة التي أمضيتها هنا ..قد »أهلتني «قد أعطتني كل حقوق المواطنين على المواطنين وعلى الوطن نفسه..

عندما كنت في مدينة هيدلبرج في ألمانيا كنت أتغنى مع الألمان وأقول على أنغام الفالس :فقدت قلبي في هيدلبرج..

ولكن في روما في إيطاليا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ما الذي فقدته ..لم أفقد إلا مللي وإلا قرفي وإلا تفاهة الدنيا ..وإلا اليأس من الحياة.

وفي روما طال بقائي ..وأقمت أيامًا كاملة أمشي في الشوارع ..وأتوقف عند النواصي ..وأضع الورود في النوافذ ..وأشد على يدي الذين مات أعزاؤهم وأعزائي ..ولأرفع سماعة التليفون لأقول إلى اللقاء ..ووداعًا..

وقبل أن أغادر روما ذهبت برغبة غريبة لا أعرف سببها، إلى ميدان أيسديرا .وهو أشهر ميادين روما ..وقفت عند بائعة الصحف .واشتريت كل الصحف التي صدرت في نفس اليوم ..بكل اللغات التي أعرفها..

وبصدفة غريبة جدًّا ..وقفت في الميدان ..وإلى جوار أحد التاكسيات تمامًا كما فعلت في أول يوم ذهبت إلى روما من عشرين عامًا.

وبصدفة أغرب رأيت أول وجه عرفته في إيطاليا..

ووسط الزحام والكلاكسات والسيارات والذين يشيرون إليَّ أن أحترس ..والذين أمسكوني من يدي ..والذين توهمت أنني أمسكتهم من أيديهم ..ومن شعورهم حتى لا تدوسهم العجلات ..ووسط هذا الفيضان المفاجئ في الميدان ضاعت صرخاتي وأنا أنادي صاحبة الوجه بأعلى صوتي ..أناديها بكل أيامي، بكل سنواتي ..بكل الذي كان وراح وضاع ولن يعود ..ليته يعود ..ليتني ..ليتنا..

واختفى الصوت والصدى والوجه والظل والميدان، ونسمة الهواء، وقطرات الماء على الحجر، ولون السماء، ورائحة القهوة، وطعم النبيذ، ومرارة الفراق ..وبعد ذلك رجعت إلي دنياي، كل ما كان فيها :الأرق عاد، والملل عاد، واليأس عاد ..وصغرت الدنيا حتى أصبحت كعين الإبرة ..وأصبحت أحس في كل لحظة أنني فيل أريد أن أنفذ منها إلى العالم الآخر..

وكانت الدنيا قبل ذلك حلوة ..لولا هذه الساعات في روما ..لولا هذه اللمسات لأحجار الميادين ..لولا هذه الرشفات من مياه النافورات..

لولا لوحات دافنشي ..ولولا الشفاه والصدور والسيقان..

وحملت حقائبي وكانت أخف مني..

فأنا الآن أصبحت أثقل من حقائبي .وصعدت الطائرة عائدًا إلى القاهرة .وقد نقص وزني، وجف عودي، واقترب جلدي من عظمي ..واختفت عيني تحت حاجبي..

وكأنني كنت قادمًا من الإسكندرية ثم نزلت أرض مطار القاهرة ..كأني نزلته على يدي ..فقد أحسست بأرض المطار لينة كأنها صدر حنون..

وتمنيت لو ألقيت نفسي على هذا الصدر ..لقد كان الصدر الوحيد الذي ينتظرني أو الذي كنت أنتظره ..أو الذي توهمت أني على موعد معه!

لا أعرف أحدًا من هذه الوجوه ..ولا بد أن بعضها قد قرأ كل ما كتبت وأنا أدور حول الأرض ..ولا بد أن واحدًا منهم تمنى أن يدور دورتي، وأن يدوخ دوختي، ولا بد أنه تمنى ذلك في ساعة ..فأصابني ذلك بالمرض والخوف ..وقد مرضت كثيرًا .وخفت كثيرًا .وأخفيت دموعي في عرقي، وأخفيت عرقي في حبري ..وكتبت ..وبكيت وتعبت .ولكن رأيت أجمل ما في الدنيا .وعرفت أقسى ما في الدنيا :الوحدة..

وحققت أعظم ما في الحياة :أن أسعد الآخرين..

وفي اللحظة التي هبطت إلى أرض المطار كانت شفتاي في قدمي ..فقبلت أرضًا حبيبة عزيزة..

وكانت هذه القبلة هي في الوقت نفسه نقطة البداية والنهاية في وقت واحد ..فمن هنا بدأت دورتي حول الأرض مارًّا بالهند ..وهنا أنهيت دورتي حول الأرض قادمًا من إيطاليا..

وهذه النقطة هي الشيء الوحيد الذي أحاول منذ مائتي يوم، ومنذ مئات الصفحات أن أضعه في نهاية هذه الرحلة، وفي نهاية هذا الكتاب.

مؤلفات الكاتب الكبير

الأســـــتاذ

أنيـــس منصـــــــور

)ا (ترجمة ذاتية:

.1في صالون العقاد ..كانت لنا أيام.

.2عاشوا في حياتي.

.3إلا قليلاً.

.4طلع البدر علينا.

.5البقية في حياتي.

.6نحن أولاد الغجر.

.7من نفسي.

.8حتى أنت يا أنا.

.9أضواء وضوضاء.

.10كل شيء نسبي.

.11لأول مرة.

.12شارع التنهدات.

)ب (دراسات سياسية:

13.الحائط والدموع.

14.وجع في قلب إسرائيل.

15.الصابرا)الجيل الجديد في إسرائيل.(

16.عبد الناصر -المفترى عليه والمفتري علينا.

17.في السياسة 3)أجزاء.(

18.الدين والديناميت.

19.لا حرب في أكتوبر ولا سلام.

20.السيدة الأولى.

21.التاريخ أنياب وأظافر.

22.الخالدون مائة -أعظمهم محمد)ﷺ.(

23.على رقاب العباد.

24.ديانات أخرى.

25.وكانت الصحة هي الثمن.

26.الغرباء.

27.الخبز والقبلات.

)جـ (قصص:

28.عزيزي فلان.

29.هي وغيرها.

30.بقايا كل شيء.

31.يا من كنت حبيبي.

32.قلوب صغيرة.

33.هذه الصغيرة)وقصص أخرى.(

34.إلا فاطمة.

)د (مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:

35.رومولوس العظيم.

36.زيارة السيدة العجوز.

37.زواج السيد مسيسبي.

38.الشهاب.

39.هي وعشاقها.

** للأديب السويسري ماكس فريش:

40.أمير الأراضي البور.

41.مشعلو النيران.

** للأديب الفرنسي جان جيرودو:

42.من أجل سواد عينيها.

** للأديب الأمريكي آرثر ميللر:

43.بعد السقوط.

** للأديب الأمريكي تنسي وليامز:

44.فوق الكهف.

** للأديب الأمريكي يوجين أونيل:

45.الإمبراطور جونس.

** للأديب الفرنسي يوجين يونسكو:

46.تعب كلها الحياة.

** للأديب الفرنسي أداموف:

47.الباب والشباك.

** للأديب الإسباني أرابال:

48.ملح على جرح.

)هـ (دراسات نفسية:

49. الحنان أقوى.

50. من أول نظرة.

51. طريق العذاب.

52. ألوان من الحب.

53. شباب ..شباب.

54. مذكرات شاب غاضب.

55. مذكرات شابة غاضبة.

56. جسمك لا يكذب.

57. الذين هاجروا.

58. غرباء في كل عصر.

59. أظافرها الطويلة.

60. هموم هذا الزمان.

61. زمن الهموم الكبيرة.

62. الحب الذي بيننا.

63. عذاب كل يوم.

64. كيمياء الفضيحة.

65. كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

66. الذين هبطوا من السماء.

67. الذين عادوا إلى السماء.

68. القوى الخفية.

69. أرواح وأشباح.

70. لعنة الفراعنة.

(ز) نقد أدبي:

71.يسقط الحائط الرابع.

72.وداعًا أيها الملل.

73.كرسي على الشمال.

74.ساعات بلا عقارب.

75.مع الآخرين.

76.شيء من الفكر.

77.لو كنت أيوب.

78.يعيش ..يعيش.

79.الوجودية.

80.طريق العذاب.

81.وحدي ..مع الآخرين.

82.ما لا تعلمون.

83.لحظات مسروقة.

84.كتَاب عن كتب.

85.أنتم الناس أيها الشعراء.

86.أيها الموت ..لحظة من فضلك.

87.أوراق على شجر.

88.في تلك السنة.

89.دراسات في الأدب الأمريكي.

90.دراسات في الأدب الألماني.

91.دراسات في الأدب الإيطالي.

92.فلاسفة وجوديون.

93.فلاسفة العدم.

)ح (رحلات:

94. حول العالم في 200 يوم.

95. بلاد الله خلق الله.

96. غريب في بلاد غريبة.

97. اليمن ذلك المجهول.

98. أنت في اليابان وبلاد أخرى.

99. أطيب تحياتي من موسكو.

100. أعجب الرحلات في التاريخ.

101. ماذا يريد الشباب؟

102. الرصاص لا يقتل العصافير.

ط) مسرحيات كوميدية:

103. مدرسة الحب.

104. حلمك يا شيخ علام.

105. مين قتل مين؟

106. جمعية كل واشكر.

107. الأحياء المجاورة.

108. سلطان زمانه.

109. العبقري.

110. كلام لك يا جارة.

111. فوق الركبة.

ي) المسلسلات التليفزيونية:

112. حقنة بينج.

113. اتنين ..اتنين.

114. عريس فاطمة.

115. من الذي لا يحب فاطمة؟

116.غاضبون وغاضبات.

117.هي وغيرها.

118.هي وعشاقها.

119.العبقري.

120.القلب أبدًا يدق.

121.يعود الماضي يعود.

)ك (كتب)مقالات:(

122.ثم ضاع الطريق.

123.النجوم تولد وتموت.

124.هناك أمل.

125.أحب وأكره.

126.الحيوانات ألطف كثيرًا.

127.مصباح لكل إنسان.

128.أتمنى لك.

129.لعل الموت ينسانا.

130.اقرأ أي شيء.

131.ولكني أتأمل.

132.حتى تعرف نفسك.

133.الحب والفلوس والموت ..وأنا.

134.نحن كذلك!!

135.اللهم إني سائح.

136.كائنات فوق.

137.تعال نفكر معًا.

138.آه لو رأيت!

139.النار على الحدود :لعبة كل العصور.

140.انتهى زمن الفرص الضائعة!

141.هناك فرق.

142.الرئيس قال لي ..وقلت أيضًا -الجزءان الأول والثاني.

143.يا نور النبي.

144.وأنت ما رأيك؟

145.حضارة الإوز والبقر.

146.حلمنا الجميل.

147.ضاع الجيل ضاع.

148.قالوا)الجزءان الأول والثاني.(

149.وآخرتها.

150.من أول السطر.

151.أظافرها الطويلة.

152.القلب لا يمتلئ بالذهب.

153.تكلم حتى أراك.

154.الذي خرج ولم يعد.

155.ليلة في بطن الحوت.

156.والله زمان يا حب.

157.أجيال من بعدنا.

158.قلبك يوجعني.

159.شمعة في كل طريق.

160.أكثر من رأي.

161.معذبون في كل أرض.

162.تعالوا نفكر.

163. معنى الكلام.

164. اللعب غريزة منظمة.

165. في انتظار المعجزة!

166. وأنا اخترت القراءة.

167. من أجل عينيها.

168. يوم بيوم.

169. إنها الأشياء الصغيرة.

170. القلب أبدًا يدق.

171. الذين هبطوا من السماء.

172. الذين عادوا إلى السماء.

(ل) الترجمات القصصية:

173. رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.

174. (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.

175. (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.

176. (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.

177. (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.

178. (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

179. الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.

180. الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.

181. معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.

182. مسرح العبث الفرنسي - لإتيان ماريبو.

183. الفيلسوف الروسي بردياف - لفيكتور لوزتسيف.

184. من كيركجورد إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.

185.سيمون دبوفوار تلميذة رصينة -لفرنسواز روسلان.

- 186.رسائلها إليه -لفرنسواز روسلان.

187.فاشلون لكن نبلاء -لجان ماري روار.

188.ما الميتافيزيقا؟ -لمارتن هيدجر.

189.الوجودية فلسفة إنسانية -لجان بول سارتر.

190.فلسفة حنا أرنت -تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر -لآدم برجشتاين.

191.كروتشه فيلسوف الحرية -لإيزابيلا دلورنتس.

Table of Contents

غلاف مجلة

صفحة عنوان الكتاب

صفحة حقوق الطبع والنشر

مقدمة الطبعة الأولى

مقدمة الطبعة الثانية

مقدمة الطبعة الثالثة

مقدمة الطبعة التاسعة

الهند كل شيء كثير!

سيلان جزيرة الشاي

جزر المالديف بلاد السمك

سنغافورة أرخص بلد في الدنيا

إندونيسيا لا مكان لي؟!

أستـراليـا القارة السعيدة!

الفلبيـن 7000جزيرة!

هونج كونج لؤلؤة البحار!

اليابـــان الأقزام العمالقة!

جزر هاواي آلوها ..آلوها؟!

أمـريكـا الاستقبال العظيم

مؤلفات الكاتب الكبير